



المفيد في خطب الجمعة والعيد

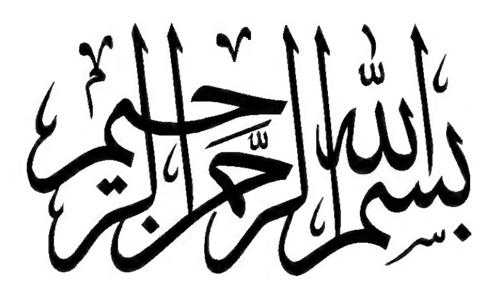
"موسوعة خطب مخرجة وموثقة وتحوي بحوثاً ومسائل فقهية وحديثية ولغوية"

تأليف

د. إبراهيم بن محمد الحقيل

الجزء التاسع

المجموعة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم


المفيد
في
خطب الجمعة والعيد

(ح) مجلة البيان، ١٤٣٧ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحقيل، إبراهيم محمد

المفيد في خطب الجمعة والعيد - موسوعة خطب مخرجة وموثوقة وتحوي بحوثًا ومسائل فقهية وحديثية ولُغوية

إبراهيم محمد الحقيل - الرياض، ١٤٣٧ هـ

١٠ مج.

ردمك: ١-٨٤-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٨٥-٨١٠١-٦٠٣-٩٧٨ (ج٩)

١- الخطب الدينية ٢- خطبة الجمعة ٣- خطبة العيد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٣٧/١٥٥

رقم الإيداع: ١٤٣٧/١٥٥

ردمك: ١ - ٨٤ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٨ - ٨٥ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٩)

www.albayan-magazine.com

الرياض: هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٣٢ _ ٠٥٠٢٢١٩٢٠ _ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ - ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ _ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥

جدة: ٠٥٨٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦٦٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨

المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٠٦١٦

السِّير والأعلام



٣٤٧- خلق آدم عليه السلام ووفاته

٢٩/ ١٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرَّحمن: ٢٩]، غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ، وَخَلْقُهُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، يَسْأَلُونَهُ حَاجَاتِهِمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ بِلِسَانِ حَالِهِمْ وَمَقَالِهِمْ؛ فَيُجِيبُ دَاعِيًا، وَيَكْشِفُ كَرْبًا، وَيُغِيثُ مُضْطَرًّا، وَيَغْفِرُ ذَنْبًا، لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى هَادِيًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، فَأَخْبَرَنَا عَنْ رَبِّنَا، وَكَيْفَ خَلَقَنَا، وَمَا بِدَايَتُنَا، وَكَيْفَ تَكُون نِهَايَتُنَا، وَمَاذَا يُرِيدُ مِنَّا مَنْ خَلَقَنَا وَكَلَّفَنَا، وَمَا جَزَاؤُنَا إِنْ أَطَعْنَا أَوْ عَصَيْنَا. صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ التَّقْوَى، وَاشْكُرُوهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ هِدَايَتِهِمْ لِلإِسْلَامِ الَّذِي فِيهِ الشِّفَاءُ وَالنَّجَاةُ، وَالْخَيْرُ وَالرَّشَادُ، وَالْجَوَابُ لِكُلِّ سُؤَالٍ، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ هَذَا الْعَامِ الَّذِي مَضَى مِنْ أَعْمَارِنَا، وَاسْتَوْدَعْنَاهُ

أَعْمَالَنَا، تَعَالَوْا نَتَذَاكَرْ أَصْلَ خَلْقِنَا، وَبِدَايَةَ أَصْلِنَا؛ كَيْ نُدْرِكَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا، وَرَحْمَتَهُ بِنَا، وَلِنَعْرِفَ مَصِيرَنَا وَنِهَايَةَ أَمْرِنَا، فَتِلْكَ الْقَضِيَّةُ هِيَ أَعْظَمُ قَضِيَّةٍ يُفَكِّرُ فِيهَا كُلُّ عَاقِلٍ، وَهِيَ أَكْبَرُ مَسْأَلَةٍ حَيَّرَتْ مَنْ لَمْ يَهْتَدِ بِهُدَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحَادَ عَنْ طَرِيقِهِ وَشَرِيعَتِهِ.

اخْتَلَفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَظِيمَةِ أُمَمٌ شَتَّى، وَاضْطَرَبَتْ فِيهَا عُقُولٌ عِدَّةٌ، وَحَارَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَاهْتَمَّ بِهَا النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ وَالْمِلَلِ، وَالطَّوَائِفِ وَالنِّحَلِ؛ فَاخْتَرَعُوا فِيهَا الْأَسَاطِيرَ، وَنَسَجُوا حَوْلَهَا الْخُرَافَاتِ وَالْأَبَاطِيلَ.

إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ خَطِيرَةٌ . . عَلَيْهَا عِمَادُ الْفَهْمِ كُلِّهِ، وَهِيَ مُرْتَكَزُ الْهُدَى أَوِ الضَّلَالِ، وَلَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِمَعْرِفَتِهَا وَحْدَهُ؛ فَهُوَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ سِرَّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ. وَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهَا هُوَ الْوَحْيُ الْمُنَزَّلُ مِنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصّلت: ٤٢].

إِنَّهَا قَضِيَّةُ خَلْقِكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، وَبِدَايَةُ أَصْلِكَ، وَلِمَاذَا خَلَقَكَ اللهُ تَعَالَى؟ وَكَيْفَ قَدِمْتَ عَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا؟ وَكَيْفَ تَنْتَهِي؟ فَهَلْ تَرَوْنَ يَا عِبَادَ اللَّهِ قَضِيَّةً هِيَ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ؟!

وَكَيْفَ لَا تَكُونُ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ أَعْظَمَ الْقَضَايَا عِنْدَ الْإِنْسَانِ وَقَدِ اخْتَصَمَ فِيهَا الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟! وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى اخْتِصَامَهُمْ فِي الْقُرْآنِ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٦٧-٧٢].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي حَيَّرَتْ عُقُولَ أَهْلِ الْعُقُولِ، وَضَلَّ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْبَشَرِ، جَاءَ تَفْصِيلُهَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَوْضَحِ الْعِبَارَاتِ، وَأَسْهَلِ الْأَسَالِيبِ، وَأَجْمَلِ الْقَصَصِ، بَعِيدًا عَنْ سُفْسَطَاتِ الْفَلَاسِفَةِ وَالنُّظَّارِ، وَعَنْ أَسَاطِيرِ الْقُصَّاصِ وَالضُّلَّالِ؛ فَآدَمُ عليه السلام هُوَ أَصْلُ الْبَشَرِ، خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تُرَابٍ، وَأَنْسَلَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْهُ.

أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِأَنْ خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [سورة ص: ٧٥]، وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: أَبُوكُمْ آدَمُ فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] إلى آخر السورة (٣١٦٢) ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم بيده» أخرجه النسائي في الكبرى (١٠٠٨٤)، وفي عمل اليوم والليلة (٢٢٠)، والآجُرّي في الشريعة (٧٤٩)، والطبري في تاريخه (١/ ٩٨).

وأخرجه من حديث الحارث بن نوفل عن النبي ﷺ: الدارقطني في الصفات (٢٨)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٧).

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا عند: الطبري في تفسيره (١/ ٢٠١).

وعن عمر رضي الله عنه عند: الطبري في تفسيره (٩/ ١١٤).

وعن كعب الأحبار عند: عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٤٣)، والطبري في تفسيره (١٨/ ١)، وابن المبارك في الزهد (١٤٥٨).

وعن حكيم بن جابر عند: ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٨)، وهناد في الزهد (٤٦). =

وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ مَلَائِكَتَهُ بِالسُّجُودِ لَهُ؛ تَحِيَّةً وَتَشْرِيفًا ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة ص: ٧٢].

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَى صُورَةٍ حَسَنَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ تَفَضُّلًا مِنَ اللَّهِ تَعالَى عَلَيْهِ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ بِأَنْ أَحْسَنَ صُوَرَهُمْ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وَامْتَنَّ عَلَيْهِ فَرَكَّبَ فِيهِ آلَاتِ تَحْصِيلِ الْعِلْمِ: السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْعَقْلَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ، حَتَّى صَارَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَيْسَ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الَّتِي عَلَّمَهَا اللهُ تَعَالَى آدَمَ، وَعَلَّمَهَا آدَمُ الْمَلَائِكَةَ هِيَ أَسْمَاءُ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَلَائِكَةُ يَجْهَلُونَهُ؛ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ فَيَقُولُونَ: «**يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

= وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خَلَقَ اللهُ بِيَدِهِ الْعَرْشَ وَعَدنَ والقَلَمَ وَآدَمَ، ثُمَّ قَالَ لِكُلِّ شيء: كُنْ فَكَانَ» أخرجه الطبري في تفسيره بسنده صحيح (٢٣/١١٩)، وهو وإن كان موقوفًا فله حكم الرفع؛ إذ لا يقال بالرأي، والله أعلم.

(٢) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] (٤٢٠٦) واللفظ له.

وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] (٣١٦٢)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٤).

وَكَانَ مِنْ تَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ عليه السلام أَنْ عَلَّمَهُ حَمْدَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**لَمَّا نُفِخَ فِي آدَمَ الرُّوحُ مَارَتْ وَطَارَتْ، فَصَارَتْ فِي رَأْسِهِ فَعَطِسَ فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ اللهُ: يَرْحَمُكَ اللهُ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ(٣).

وَعَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى السَّلَامَ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ** -نَفَرٌ مِنَ المَلَائِكَةِ جُلُوسٌ- **فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللَّهِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ(٤).

ابْتَلَى اللهُ تَعَالَى آدَمَ بِالشَّيْطَانِ فَأَغْوَاهُ وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَتَابَ آدَمُ فَتَابَ اللهُ عز وجل عَلَيْهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَجَعَلَ الِابْتِلَاءَ عَلَيْهِ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعَالَى المِيثَاقَ عَلَى آدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ بِأَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهَذَا المِيثَاقُ جَاءَ ذِكْرُهُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «**أَخَذَ اللهُ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانَ** -يَعْنِي: عَرَفَةَ- **فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ**

---

(٣) أخرجه ابن حبان مرفوعًا (٦١٦٥)، وأخرجه موقوفًا: الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، وإن كان موقوفًا، فإن إسناده صحيح بمرة، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم (٤/ ٢٦٣).

وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند: ابن أبي عاصم في السنة (٢٠٥)، وصححه ابن حبان (٦١٦٤).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام (٥٨٧٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١).

ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا فَنَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قِبَلًا قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ(٥).

وَهَذَا المِيثَاقُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَخَذَهُ رَبُّنَا عَلَيْنَا مُنْذُ أَنْ خَلَقَ أَصْلَ الْبَشَرِ: أَبَانَا آدَمَ عليه السلام، مَنِ الْتَزَمَهُ وَلَمْ يَنْقُضْهُ فَأَطَاعَ رَبَّهُ، وَعَصَى إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَلَهُ النَّعِيمُ الْأَبَدِيُّ المُقِيمُ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ. وَمَنْ نَقَضَهُ فَكَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَطَاعَ إِبْلِيسَ فِيمَا أَرَادَ، فَجَزَاؤُهُ الْعَذَابُ الْخَالِدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ طَبِيعَةِ هَذَا الْبَشَرِ الَّذِي خَلَقَهُ: النِّسْيَانَ وَالْخَطَأَ وَالْجُحُودَ؛ فَأَبُوهُمْ آدَمُ عليه السلام كَانَ يَنْسَى فَنَسُوا، وَأَخْطَأَ فَأَخْطَأُوا، جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟**

---

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (١١١٩١)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٤٤)، وقال الهيثمي في الزوائد (٧/ ٢٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وقال ابن كثير بعد أن أورده في تفسيره (٣/ ٥٨٤-٥٨٥): «وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبد الرحيم -صَاعِقَةٍ- عن حسين بن محمد المروزي به. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حسين بن محمد به، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفًا، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيرِهِ عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جَبْر به، وقال: صحيح». وصحح الحديث الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٢٤٥٥)، وقال تعليقًا على كلام ابن كثير السابق: «وكأن ابن كثير يريد تعليل المرفوع بالموقوف، وما هذا بعلة، والرفع زيادة من ثقة فهي مقبولة» اهـ.

قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَفِي لَفْظٍ لِأَبِي يَعْلَى: «فَرَأَى آدَمُ فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ»(٦).

مَكَثَ آدَمُ عليه السلام فِي الْأَرْضِ مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَمْكُثَ، يُحِيطُ بِهِ زَوْجُهُ حَوَّاءُ، وَأَوْلَادُهُمَا، يَعْبُدُونَ اللهَ عز وجل وَيُقِيمُونَ دِينَهُ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بَعْدَ أَنْ قَضَى مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ عُمْرٍ اشْتَهَى الْجَنَّةَ وَمَا فِيهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ آدَمَ عليه السلام لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيْ بَنِيَّ، إِنِّي أَشْتَهِي مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، فَذَهَبُوا يَطْلُبُونَ لَهُ، فَاسْتَقْبَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَمَعَهُمْ أَكْفَانُهُ وَحَنُوطُهُ، وَمَعَهُمُ الْفُؤُوسُ، وَالْمَسَاحِي، وَالْمَكَاتِلُ، فَقَالُوا لَهُمْ: يَا بَنِي آدَمَ، مَا تُرِيدُونَ وَمَا تَطْلُبُونَ؟ -أَوْ مَا تُرِيدُونَ وَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟- قَالُوا: أَبُونَا مَرِيضٌ فَاشْتَهَى مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، قَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا فَقَدْ قُضِيَ قَضَاءُ أَبِيكُمْ. فَجَاءُوا، فَلَمَّا رَأَتْهُمْ حَوَّاءُ عَرَفَتْهُمْ فَلَاذَتْ بِآدَمَ، فَقَالَ: إِلَيْكِ عَنِّي فَإِنِّي إِنَّمَا أُتِيتُ مِنْ قِبَلِكِ، خَلِّي بَيْنِي وَبَيْنَ مَلَائِكَةِ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَبَضُوهُ، وَغَسَّلُوهُ، وَكَفَّنُوهُ، وَحَنَّطُوهُ، وَحَفَرُوا

---

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: حسن صحيح (٣٠٧٦)، واللفظ له، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٧-٢٨)، وصححه ابن حبان (٦١٧٦)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٦٤)، والرواية الثانية لأبي يعلى في مسنده (٦٣٧٧).

لَهُ، وَأَلْحَدُوا لَهُ، وَصَلَّوْا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلُوا قَبْرَهُ فَوَضَعُوهُ فِي قَبْرِهِ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ اللَّبِنَ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْقَبْرِ، ثُمَّ حَثَوْا عَلَيْهِ التُّرَابَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا بَنِي آدَمَ، هَذِهِ سُنَّتُكُمْ» أَخْرَجَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي زَوَائِدِ الْمُسْنَدِ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ كَثِيرٍ(٧).

---

(٧) أخرجه موقوفًا عبد الله بن أحمد في زياداته على المسند (٥/ ١٣٦)، والطيالسي (٥٤٩)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٣)، والبيهقي (٣/ ٤٠٤)، والضياء المقدسي في المختارة (١٢٥٠-١٢٥١)، والدارقطني (٢/ ٧١)، وهذا اللفظ في زيادات المسند.
وأخرجه مرفوعًا عبد الرزاق (٦٠٨٦)، والطيالسي (٥٤٩)، والطبراني في الأوسط (٩٢٥٥)، والدارقطني (٢/ ٧١)، والحاكم من حديث يونس بن عبيد عن الحسن عن عتي عن أبي عن النبي ﷺ وصححه فقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو مِنَ النوع الذي لا يوجد للتابعي إلا الراوي الواحد؛ فإن عتي بن ضمرة السعدي ليس له راو غير الحسن، وعندي أن الشيخين علَّلَاهُ بِعِلّة أخرى وهو أنه روي عن الحسن عن أبي دون ذكر عتي» اهـ وقال الذهبي في التلخيص(١٢٧٥): «رواه هشيم وابن علية عنه، ولم يخرجاه؛ لأن عتي بن ضمرة لم يرو عنه غير الحسن، وله علة» اهـ.
ثم رواه الحاكم من حديث يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد عن الحسن عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ .. فذكره مرفوعًا، دون ذكر عتي بن ضمرة بين الحسن وأُبي بن كعب رضي الله عنه، ثم قال الحاكم: «هذا لا يعلل حديث يونس بن عبيد؛ فإنه أعرف بحديث الحسن من أهل المدينة ومصر، والله أعلم» ووافقه الذهبي فيما قال (١/ ٣٤٥).
وصححه ابن كثير في البداية والنهاية إلى أبي بن كعب رضي الله عنه (١/ ٩٨)، وقال الهيثمي في الزوائد (٨/ ١٩٩): «رواه عبد الله بن أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير عتي بن ضمرة وهو ثقة» اهـ.
قلت: فإن كان موقوفًا فله حكم الرفع؛ إذ لا مجال للرأي فيه، إلا أن يكون من أخبار أهل الكتاب، والله أعلم.
ولا يظهر لي تعارض هذا الحديث مع قصة ابني آدم المذكورة في سورة المائدة، وأن أحدهما لم يوار سَوْءَةَ الآخر، أي: يدفنه؛ لاحتمال أن حادثة دفن آدم عليه السلام بعد حادثة قتل ابن آدم لأخيه، قال ابن عطية في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١]. «وظاهر هذه الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم؛ ولذلك جهلت سنة المواراة، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحاق عن =

وَقَدْ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنِ اشْتِهَاءِ آدَمَ ثِمَارَ الْجَنَّةِ عِنْدَ مَوْتِهِ حَتَّى يَسْهُلَ عَلَيْهِ الْمَوْتُ، قَالَ السِّنْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «فَحِينَ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى نَقْلَهُ إِلَى الْجَنَّةِ بِالْمَوْتِ جَعَلَ فِيهِ اشْتِهَاءَ ثِمَارِهَا تَسْهِيلًا لِلْمَوْتِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبَالِي بِالتَّعَبِ فِي تَحْصِيلِ الْمَطْلُوبِ»(٨).

وَلَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ إِلَى السَّمَاءِ رَأَى أَبَاهُ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ ﷺ: **«فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه(٩).

رَحِمَ اللهُ أَبَانَا آدَمَ وَرَضِيَ عَنْهُ، وَجَمَعَنَا بِهِ فِي دَارِ النَّعِيمِ مَعَ بَاقِي النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْعِلْمَ بِمَا

= بعض أهل العلم بما في كتب الأوائل» اهـ من المحرر الوجيز (٢/ ٨٠) ومثله في الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٩٤)، وتفسير الثعالبي (١/ ٤٥٨)، وتفسير الجلالين (١٤١)، وتفسير السعدي (٢٢٩).

وقال البغوي في تفسيره: «فلما قتله تركه بالعراء ولم يدر ما يصنع به؛ لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم» ينظر: معالم التنزيل (٢/ ٣٠)، وتفسير البيضاوي (٢/ ٣١٨)، وتفسير الواحدي (١/ ٣١٦)، وفتح القدير للشوكاني (٢/ ٣٢).

وقد خطَّأ الطبري في تاريخه من زعم أن آدم عليه السلام كان أول ميت في الأرض بأدلة عدة، تنظر في تاريخه (١/ ٩٤).

(٨) ينظر: حاشية المسند، ط: مؤسسة الرسالة (٣٥/ ١٦٥).

(٩) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام (٣٣٤٢)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات (١٦٣).

عَلِمْنَا، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ فِي إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَاعْتِبَارٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَكُلُّ عَامٍ يَمْضِي يُقَرِّبُنَا مِنْ آجَالِنَا، وَيُنْقِصُ مِنْ دُنْيَانَا، وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَبَرَ بِمَا مَضَى مِنْ عُمُرٍ لِمَا يَبْقَى، وَالشَّقِيُّ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ، وَلَا يَعْمَلُ لِيَوْمِ المَعَادِ، وَمَا أَسْرَعَ مُرُورَ الْأَعْوَامِ! وَمَا أَقَلَّ مَا يَعْتَبِرُ النَّاسُ! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْغَفْلَةِ وَطُولِ الْأَمَلِ، وَنَسْأَلُهُ الْمُوَافَاةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَكْرِيمُ اللَّهِ تَعَالَى لِأَبِينَا آدَمَ عليه السلام هُوَ تَكْرِيمٌ لَنَا، وَكَمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ الَّتِي أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا أَصْلَ الْبَشَرِ وَأَبَاهُمْ آدَمَ عليه السلام.

أَوْجَدَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْعَدَمِ، وَرَبَّاهُ بِالنِّعَمِ، وَرَكَّبَ فِيهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْعَقْلَ، وَعَلَّمَهُ الْعِلْمَ، كَمَا عَلَّمَ سُبْحَانَهُ بَنِي آدَمَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِمْ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَلَوْ لَمْ يَخْلُقْهُمْ لما نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْهُمْ، وَمَوْجُودٌ قَبْلَهُمْ، وَدَائِمٌ بَعْدَهُمْ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ١-٣].

وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، وَكَانَ ﷻ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَقُولَ لِآدَمَ: كُنْ، فَيَكُونُ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَكْرَمَهُ، فَخَلَقَهُ بِيَدَيْهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ، فَأَيُّ تَكْرِيمٍ حَظِيَ بِهِ آدَمُ عليه السلام مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ، وَحَظِيَتْ بِهِ ذُرِّيَّتُهُ؟! وَأَيُّ شُكْرٍ يَجِبُ عَلَى بَنِي آدَمَ تُجاهَ خَالِقِهِمْ، وَرَازِقِهِمْ، وَالْمُتَفَضِّلِ عَلَيْهِمْ جَلَّ فِي عُلَاهُ؟!

وَنِعْمَةٌ أُخْرَى عَظِيمَةٌ اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهَا مَنْ آمَنَ بِالْإِسْلَامِ، وَالْتَزَمَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَهِيَ نِعْمَةُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْغَيْبِ الَّذِي مَا حَضَرْنَاهُ، وَلَا عِشْنَاهُ -أَعْنِي: أَصْلَ الْبَشَرِ، وَخَلْقَ آدَمَ وَمَا جرَى عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا إِلَى أَنْ مَاتَ، وَمَصِيرَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ- وَتِلْكَ وَاللَّهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ حُرِمَهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

فَأَقْوَامٌ مِنْهُمْ يَأْخُذُونَ هَذَا الْأَصْلَ الْعَظِيمَ، وَتِلْكَ الْقَضِيَّةَ الْخَطِيرَةَ مِنْ كُتُبِهِمُ الَّتِي طَالَتْهَا أَيْدِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، حَتَّى كَانَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارِ آدَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَا لَا يَلِيقُ بِصَالِحِي الْبَشَرِ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام؟! بَلْ تَحْوِي طَعْنًا فِي اللَّهِ ﷻ، وَاعْتِدَاءً عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا فِي تَوْرَاةِ الْيَهُودِ الْمُحَرَّفَةِ!!

وَأَقْوَامٌ آخَرُونَ أَضْنَاهُمُ الْبَحْثُ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَقَلَّبُوا فِيهَا كُتُبَ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَالْمُلْحِدِينَ، وَأَضَاعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَمَا تَوَصَّلُوا إِلَّا إِلَى

الظُّنُونِ الْفَاسِدَةِ، وَالْأَوْهَامِ الْكَاسِدَةِ الَّتِي لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، فَحَكَوْا أَنَّ الْإِنْسَانَ وُجِدَ صُدْفَةً، وَأَنَّهُ مُتَطَوِّرٌ مِنْ طُفَيْلِيٍّ إِلَى حَشَرَةٍ إِلَى حَيَوَانٍ صَغِيرٍ إِلَى أَكْبَرَ مِنْهُ حَتَّى صَارَ قِرْدًا، ثُمَّ إِنْسَانًا سَوِيًّا، وَسَيَظَلُّ فِي تَطَوُّرِهِ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ إِنْسَانًا طَائِرًا عِنْدَهُ قُدْرَاتٌ خَارِقَةٌ!!

وَمَا يُعْرَضُ عَلَى أَطْفَالِنَا فِي بَعْضِ الرُّسُومِ الْمُتَحَرِّكَةِ يَنْبُعُ مِنْ تِلْكَ النَّظَرِيَّاتِ الْإِلْحَادِيَّةِ الَّتِي تُنْكِرُ وُجُودَ الْخَالِقِ ﷻ(١٠).

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ: مَا انْتَشَرَ عِنْدَ دَارِسِي الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَنِ الْإِنْسَانِ الْبُدَائِيِّ الَّذِي صَوَّرُوهُ بِأَنَّهُ مُتَوَحِّشٌ لَا يَتَكَلَّمُ، وَلَا يَسْتُرُ أَكْثَرَ جَسَدِهِ، وَيَحْمِلُ عَصًا غَلِيظَةً، وَيَعِيشُ مَعَ الْوَحْشِ . . إِلَى آخِرِ ذَلِكَ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ، فَهَلْ كَانَ أَبُونَا آدَمُ عليه السلام وَأَبْنَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا صَوَّرَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ؟!

إِنَّ أَبَانَا آدَمَ عليه السلام قَدْ أُهْبِطَ إِلَى الْأَرْضِ وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ عَالِمٌ نَبِيٌّ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَعَلَّمَهُ عِلْمًا لَا يَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ لِبَاسًا يُوَارِي جَسَدَهُ، وَعَاشَ عليه السلام عِيشَةَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُكَرَّمِينَ، يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَيُعَلِّمُ بَنِيهِ أَحْكَامَ دِينِهِمْ، وَعَلَاقَتَهُمْ بِرَبِّهِمْ ﷻ.

وَقَدْ عَرَفْنَا فِيمَا مَضَى مِنْ حَدِيثِ قِصَّتِهِ عليه السلام مِنْ بِدَايَةِ خَلْقِهِ إِلَى وَفَاتِهِ مِنْ خِلَالِ الْكِتَابِ وَصَحِيحِ السُّنَّةِ، فَهَلْ مَا عَرَفْنَاهُ يَتَوَافَقُ مَعَ مَا يَتَنَاقَلُهُ مَنْ يُسَمَّوْنَ بِعُلَمَاءِ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْبَاحِثِينَ فِي أَصْلِ الْإِنْسَانِ وَبِدَايَتِهِ وَنِهَايَتِهِ؟!

إِنَّ مَعْرِفَةَ أَصْلِ الْبَشَرِ وَنِهَايَتِهِمْ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا عَلَيْنَا؛ فَهَدَانَا لِلْمَصَادِرِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي كَشَفَتْ لَنَا عِلْمَ ذَلِكَ، وَقَدْ ضَلَّ عَنْهُ أَكْثَرُ الْبَشَرِ، وَهَذَا يُوجِبُ عَلَيْنَا شُكْرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَالتَّمَسُّكَ بِدِينِنَا، وَتَعْظِيمَ

(١٠) وذلك مثل برامج الأطفال المنقولة إلى العربية وأصلها أجنبية «سبرمان، باتمان» ونحوها.

نُصُوصِنَا، وَالْأَخْذَ بِهَا، وَبِنَاءَ مَنَاهِجِنَا عَلَيْهَا، وَتَعْلِيمَهَا أَوْلَادَنَا، وَعَدَمَ التَّفْرِيطِ فِيهَا، أَوِ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا، مَهْمَا قَالَ الْمُخَذِّلُونَ، وَأَرْجَفَ الْمُرْجِفُونَ؛ فَلَا حَقَّ يُعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَّا مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ وَافَقَهُمَا وَلَمْ يُعَارِضْهُمَا، وَمَا عَارَضَهُمَا فَهُوَ الْبَاطِلُ وَالْجَهْلُ وَالضَّلَالُ، فَهَلْ يَسْتَبْدِلُ عَاقِلٌ الْيَقِينَ بِالْأَوْهَامِ، وَالْعِلْمَ بِالْجَهْلِ، وَالْهُدَى بِالضَّلَالِ؟!

لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ طُمِسَتْ بَصِيرَتُهُ، وَزَاغَ قَلْبُهُ، وَعَمِيَ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى وَالرَّشَادِ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَخُذُوا مِنْ قِصَّةِ أَبِيكُمْ آدَمَ عليه السلام الْعِظَةَ وَالْعِبْرَةَ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ، وَتَزَوَّدُوا مِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ، وَمِنْ شَبَابِكُم لِهرَمِكُمْ، وَمِنْ صِحَّتِكُمْ لِسَقَمِكُمْ؛ فَإِنَّ الْأَيَّامَ تَمْضِي سِرَاعًا كَمَا قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَكُمْ، وَمَا بَقِيَ لَهُمْ إِلَّا عَمَلُهُمْ كَمَا لَا يَبْقَى لَكُمْ إِلَّا عَمَلُكُمْ، وَقَدْ عَاشَ أَبُوكُمْ آدَمُ عليه السلام أَلْفَ سَنَةٍ[١١]، وَمَضَتْ فَمَضَى، وَسَتَمْضِي أَعْمَارُكُمْ كَمَا مَضَتْ أَعْمَارُ مَنْ كَانُوا قَبْلَكُمْ.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١١) دليل ذلك ما جاء في بعض روايات حديث أبي هريرة رضي الله عنه المخرج في حاشية (٦) وفيه: فقال آدم عليه السلام لما جاء ملك الموت لقبضه: «قد عجلت قد كتب لي ألف سنة ... الحديث» وهذه الرواية للترمذي (٣٣٦٨)، وصححها ابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (١/ ٦٤).

٣٤٨- في قصة موسى وفرعون

٨/ ١/ ١٤١٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ بِيَدِهِ الأَمْرُ، وَمِنْ عِنْدِهِ النَّصْرُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، وَيَكْبِتُ أَعْدَاءَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ يُمْلِي لِلظَّالِمِينَ، وَيُمْهِلُ الطَّاغِينَ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُمْ لَمْ يُفْلِتْهُمْ، إِنَّ أَخْذَه أَلِيمٌ شَدِيدٌ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَعِدَتْ بِبَعْثِهِ الأُمَمُ، وَعَظُمَتْ بِهِ المِنَنُ، فَكَانَ لِلْبَشَرِيَّةِ أَكْبَرُ نِعْمَةٍ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَجَابُوا الدَّاعِي، فَنَصَرُوا الدِّينَ، وَجَاهَدُوا حَتَّى أَتَاهُمُ الْيَقِينُ، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- حَقَّ التَّقْوَى.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى نُورٌ وَهُدًى، وَمَوْعِظَةٌ وَشِفَاءٌ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَنَا، وَخَبَرُ مَا بَعْدَنَا، وَحُكْمُ مَا بَيْنَنَا. عَقِيدَةٌ وَتَوْحِيدٌ، وَأَحْكَامٌ وَتَشْرِيعٌ، وَقَصَصٌ وَأَخْبَارٌ، وَمَوَاعِظُ وَأَذْكَارٌ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وَفِي قِصَّةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْقَصَصِ، وَمَوْعِظَةٍ مِنْ أَبْلَغِ المَوَاعِظِ، تَكَرَّرَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا، مُخْتَصَرَةً وَمُفَصَّلَةً، أَفَاضَتْ سُوَرٌ فِي سَرْدِ أَحْدَاثِهَا، وَاقْتَصَرَتْ سُوَرٌ أُخْرَى عَلَى الْإِشَارَةِ إِلَيْهَا، تَحْكِي تِلْكُمُ الْقِصَّةُ مَا جَرَى لِنَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ طَاغُوتٍ مِنْ طَوَاغِيتِ الأَرْضِ، وَشَيْطَانٍ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ.

إِنَّهَا قِصَّةُ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﷺ مَعَ فِرْعَوْنَ -عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَسْتَحِقُّ- فِرْعَوْنُ الَّذِي طَغَى وَتَجَبَّرَ؛ ظَلَمَ الْعِبَادَ، وَكَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ.

فِرْعَوْنُ الَّذِي لمَّا عَلِمَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام أَخْبَرَ أَنَّ قَتْلَ مَلِكِ مِصْرَ سَيَكُونُ عَلَى يَدِ وَاحِدٍ مِنْ صُلْبِهِ، أَمَرَ بِقَتْلِ ذُكُورِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كُلِّهِمْ؛ احْتِرَازًا مِنْ ذَلِكَ[١].

فِرْعَوْنُ الَّذِي كَانَ يُرْسِلُ النِّسَاءَ يَدُرْنَ عَلَى بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَنْ رَأَيْنَ عَلَيْهَا آثَارَ الْحَمْلِ؛ رَصَدْنَ اسْمَهَا حَتَّى يَنْظُرْنَ مَاذَا تَضَعُ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَجَبَ ذَبْحُهُ بِأَمْرِ فِرْعَوْنَ[٢]، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فِرْعَوْنُ الَّذِي شَرَّدَ مُوسَى عليه السلام بِسَبَبِهِ، وَاغْتَرَبَ خَوْفًا مِنْ بَطْشِهِ، وَذَاقَ أَلَمَ الْجُوعِ وَالْحِرْمَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «سَارَ مُوسَى مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلُ وَوَرَقُ الشَّجَرِ، وَكَانَ حَافِيًا، فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمَيْهِ -أَيْ: جِلْدُ قَدَمَيْهِ- وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّ بَطْنَهُ لَلَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ»[٣].

وَهَكَذَا يَفْعَلُ الطُّغَاةُ الْجَبَابِرَةُ الْبَرَابِرَةُ بِعِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ.

فِرْعَوْنُ الَّذِي سُجِّلَ فِي التَّارِيخِ بِصَفَحَاتٍ سَوْدَاءَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ النَّاسَ، وَقَطَعَ الْأَيْدِيَ وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ، فِيمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[٤]، وَهَكَذَا يُسَجَّلُ فِي التَّارِيخِ كُلُّ جَبَّارٍ ظَالِمٍ بِسُوءِ عَمَلِهِ، حَتَّى يُبْغِضَهُ النَّاسُ وَيَذْكُرُوهُ بِسُوءٍ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: لَمَّا أَرَادَ اللهُ عز وجل أَنْ يُهْلِكَ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِ مُوسَى

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

(٣) البداية والنهاية (١/ ٢٤٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣).

قَضَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ لَا تَظْهَرَ أَعْرَاضُ الْحَمْلِ وَآثَارُهُ عَلَى أُمِّهِ، حَتَّى وَضَعَتْهُ، وَلمَّا يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ رَغْمَ الرِّقَابَةِ وَالتَّفْتِيشِ(٥).

ثُمَّ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا أَنْ تَجْعلَهُ فِي تَابُوتٍ وَتُلْقِيَهُ فِي النَّهْرِ، فَفَعَلَتْ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، وَشَفَعَتْ فِيهِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ أَلَّا يَقْتُلَهُ وَقَالَتْ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ [القصص: ٩]، فَقَضَى اللهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ يَتَرَبَّى مُوسَى فِي قَصْرِ عَدُوِّهِ.

احْتَاجَ مُوسَى إِلَى الرَّضَاعِ، فَأُحْضِرَتِ المَرَاضِعُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْتَقِمْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ﴿وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ﴾ [القصص: ١٢]؛ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأُمِّهِ حَتَّى يُرْجِعَهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ تَوَجَّسَتْ خِيفَةً عَلَيْهِ ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٣ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [القصص: ١٣-١٤].

ثُمَّ خَرَجَ ﷺ مِنَ المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ بَعْدَ مَا قَتَلَ الْقِبْطِيَّ بِسَبَبِ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ، خَرَجَ يُرَدِّدُ هَذَا الدُّعَاءَ: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

وَسَقَى لِلْفَتَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تُرِيدَانِ أَنْ تَسْقِيَا وَلَا تَسْتَطِيعَانِ مُزَاحَمَةَ الرِّجَالِ، وَجَلَسَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، لَكِنَّهُ مُؤْمِنٌ بِرَبِّهِ تَعَالَى، مُصَدِّقٌ بِوَعْدِهِ سُبْحَانَهُ، يَلْهَجُ بِهَذَا الدُّعَاءِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، صَفْوَةُ الْخَلْقِ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوْلِيَاؤُهُ يُلَاقُونَ هَذَا فِي الدُّنْيَا؛ لِحَقَارَتِهَا، وَقِلَّةِ وَزْنِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

وَبَيْنَمَا مُوسَى عَلَى هَذَا الْحَالِ مِنَ الِافْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى جَاءَهُ الْفَرَجُ بِمَجِيءِ

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ تَدْعُوهُ لِيَذْهَبَ مَعَهَا إِلَى أَبِيهَا لِيُعْطِيَهُ أُجْرَةَ سَقْيِهِ لَهُمْ، وَسَارَ عليه السلام أَمَامَهَا وَهِيَ تَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ، فَإِذَا أَخْطَأَ حَذَفَتْ إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ بِحَصًى حَتَّى يَعْلَمَهُ(٦)؛ وَذَلِكَ عِفَّةً مِنْهُ؛ لِئَلَّا يَنْظُرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَمْشِي، حَتَّى وَصَلَا إِلَى أَبِيهَا، فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ، وَأَخْبَرَهُ بِخَوْفِهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ، فَأَمَّنَهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، وَقَالَ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

ثُمَّ اسْتَأْجَرَهُ يَرْعَى الْغَنَمَ ثَمَانِيَةَ أَعْوَامٍ أَوْ عَشَرَةً عَلَى أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْهِ، فَفَعَلَ، وَقَضَى مُوسَى الْأَجَلَ، وَسَارَ بِأَهْلِهِ إِلَى بِلَادِهِ، وَأَثْنَاءَ مَسِيرِهِ ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩-٣٠].

كَلَّمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ مُبَاشَرَةً، فَأَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَأَظْهَرَ لَهُ الْآيَاتِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَّجِهَ إِلَى فِرْعَوْنَ لِيَدْعُوَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَكِنَّ فِرْعَوْنَ كَفَرَ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الطُّغَاةِ الْمُتَجَبِّرِينَ، وَالظَّلَمَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] مُسْتَنْكِرًا، وَعَنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِ مُسْتَكْبِرًا ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤-٢٨].

فَادَّعَى فِرْعَوْنُ الرُّبُوبِيَّةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ، وَجَنَحَ إِلَى التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ، فَقَالَ لِمُوسَى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. وَخَطَبَ

(٦) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٦).

النَّاسَ فَقَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وَقَالَ مُسْتَهْزِئًا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وَفِي مُحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ مِنْ مُوسَى عليه السلام لِإِقْنَاعِهِ وَإِزَالَةِ كِبْرِيَائِهِ وَتَعْبِيدِهِ لِلَّهِ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٣].

وَلَكِنَّ عَادَةَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُسْتَكْبِرِينَ لَمْ تُخْطِئْ فِرْعَوْنَ؛ فَأَعْرَضَ عَنِ الْآيَاتِ، وَاتَّهَمَ مُوسَى بِالسِّحْرِ، وَنَادَى فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا يَبْتَغِي السَّحَرَةَ كُلَّهُمْ لِمُقَارَعَةِ حُجَّةِ مُوسَى عليه السلام، وَمِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْبَالِغَةِ لِيَظْهَرَ الْحَقُّ أَمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٨-٥٩]، فَالْمَوْعِدُ لِلْمُقَارَعَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ هُوَ يَوْمُ الزِّينَةِ، وَهُوَ يَوْمُ عِيدٍ عِنْدَهُمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا وَيَنْظُرُوا.

اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ؛ لِيَنْظُرُوا الْكَاذِبَ مِنَ الصَّادِقِ، قَالَ السَّحَرَةُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٥-٦٦]، وَإِنَّمَا طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يُلْقُوا أَوَّلًا؛ حَتَّى يَرَى النَّاسُ صَنِيعَهُمْ وَسِحْرَهُمْ، ثُمَّ يُلْقِي عَصَاهُ لِيَدْحَضَ حُجَّتَهُمْ، وَيُثْبِتَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ لَيْسَ سِحْرًا[٧].

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، عِنْدَ ذَلِكَ أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى، وَخَشِيَ أَنْ يُفْتَتَنَ النَّاسُ بِعَمَلِ السَّحَرَةِ،

---

(٧) ينظر: شفاء العليل لابن القيم (٢٢٤).

وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْعَصِيبَةِ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

وَلِأَنَّ السَّحَرَةَ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ السِّحْرِ وَمَاهِيَتَهُ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى عليه السلام لَيْسَ سِحْرًا، وَإِنَّمَا آيَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِدْقِهِ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا بِمُوسَى وَصَدَّقُوهُ ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

وَلِأَنَّ فِرْعَوْنَ لَيْسَ طَالِبًا لِلْحَقِّ، وَلَا مُتَحَرِّيًا لِلصِّدْقِ؛ فَقَدْ رَمَى السَّحَرَةَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ، وَهَكَذَا أَعْدَاءُ الدِّينِ فِي الْحَاضِرِ وَالْغَابِرِ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَخْذِ إِذْنِهِمْ، وَالْحُصُولِ عَلَى مُوَافَقَتِهِمْ ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ولَكِنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي خَالَطَ قُلُوبَهُمْ، وَسَمَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَقَفَ حَاجِزًا مَتِينًا أَمَامَ هَذِهِ التَّهْدِيدَاتِ، وَقَوَّاهُمْ لِمُوَاجَهَةِ الِابْتِلَاءَاتِ ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١].

وَبَعْدَ ظُهُورِ الْحَقِّ، وَزُهُوقِ الْبَاطِلِ، وَاشْتِدَادِ الْبَلَاءِ بِالْمُؤْمِنِينَ، أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فَحَشَدَ فِرْعَوْنُ جُنُودَهُ وَعَسَاكِرَهُ لِلِّحَاقِ بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْبَطْشِ بِهِمْ.

إِنَّهَا هِجْرَةُ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَالْفِرَارُ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، وَلَكِنَّ الظَّالِمَ يَبْحَثُ عَنْ مَصْرَعِهِ فَأَبَى إِلَّا اللِّحَاقَ بِهِمْ لِاسْتِئْصَالِهِمْ، فَكَانَ الْبَحْرُ حَاجِزًا لِمُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ عَنْ مُوَاصَلَةِ الْمَسِيرِ، وَكَانَ مَوْقِفَ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ، لَا يَثْبُتُ

فِيهِ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، يَتَجَلَّى التَّوَكُّلُ فِيهِ فِي أَحْسَنِ صُوَرِهِ، وَيَظْهَرُ الْيَقِينُ فِي أَبْهَى حُلَلِهِ، فَالْبَحْرُ أَمَامَهُمْ، وَفِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ وَرَاءَهُمْ، وَيَكَادُونَ الْوُصُولَ إِلَيْهِمْ، وَبَلَغَ الْخَوْفُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى مَبْلَغَهُ، حَتَّى قَالُوا لِمُوسَى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فَأَجَابَهُمْ عليه السلام إِجَابَةَ الْمُؤْمِنِ بِرَبِّهِ، الْمُصَدِّقِ بِوَعْدِهِ ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فَتَنْزِلُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَأْتِيهِمُ الْفَرَجُ بَعْدَ طُولِ صَبْرٍ، وَتَزُولُ الشِّدَّةُ، وَيَذْهَبُ الْكَرْبُ، فَتُحَقَّقُ الْمُعْجِزَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى يَدِ مُوسَى، وَتَحِقُّ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ٦٣-٦٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ عَلَا وَقَهَرَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَدَرٍ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَتَبَ النَّصْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَدَالَ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: خَبَرُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ مَلِيءٌ بِالْعِبَرِ، جَدِيرٌ بِالتَّأَمُّلِ، وَالْقُرْآنُ بِعِبَارَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ فَاقَ كُلَّ عِبَارَةٍ وَبَلَاغَةٍ وَأُسْلُوبٍ، فَهَلْ يَحْصُلُ مِنَّا الْتِفَاتَةُ

تَأَمُّلٍ وَنَظَرٍ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ، فَنَقْرَأُهَا بِتَدَبُّرٍ فِي سُوَرِ: الْأَعْرَافِ، وَيُونُسَ، وَطَه، وَالشُّعَرَاءِ، وَالنَّمْلِ، وَالْقَصَصِ، وَغَافِرٍ، وَالزُّخْرُفِ، وَالنَّازِعَاتِ، فَلَنْ نَجِدَ أَجْمَلَ مِنْ عَرْضِ الْقُرْآنِ لِهَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: وَشُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ حِينَ نَجَّى مُوسَى وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَالْكَافِرِينَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَدَ الْيَهُودَ تَصُومُ عَاشُورَاءَ، فَسَأَلَهُمْ، فَقَالُوا: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي ظَفِرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْهُمْ، فَصُومُوهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما[(٨)].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه: «**وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»[(٩)].

فَصُومُوهُ رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى؛ تَحْصِيلًا لِلْأَجْرِ، وَشُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى النَّصْرِ، وَصُومُوا التَّاسِعَ مَعَ الْعَاشِرِ؛ مُخَالَفَةً لِلْيَهُودِ، وَمُوَافَقَةً لِلسُّنَّةِ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى الرَّحْمَةِ الْمُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ الْمُسْدَاةِ . .

❁ ❁ ❁

---

(٨) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩] (٤٤٦٠)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٩) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

٣٤٩- الكليم عليه السلام (١)
الولادة والنشأة والهجرة

٧/ ١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحَجّ: ٧٥-٧٦]، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ عَظِيمٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، حَكِيمٌ فِي أَفْعَالِهِ وَقَضَائِهِ، عَدْلٌ فِي أَحْكَامِهِ وَعُقُوبَاتِهِ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِ الْبَشَرِ، وَجَعَلَهُ إِمَامَ الرُّسُلِ، وَصَرَفَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ شَتْمَ قُرَيْشٍ وَأَذَاهُمْ، قَالَ ﷺ: **«أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»**[١]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ عَامٍ يَمْضِي إِنَّمَا يَمْضِي مِنْ أَعْمَارِكُمْ، وَأَنَّ كُلَّ عَامٍ يَأْتِي إِنَّمَا يُقَرِّبُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ، فَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُمْ لِآخِرَتِكُمْ، وَفِي حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَتَفَاضَلُ الْبَشَرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِقَدْرِ صَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَزَكَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وَقُرْبِهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَحْدَهُ ﷻ، وَكُلُّ

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٣٣٤٠).

مَا فِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَالصَّلَاحِ وَالتُّقَى إِنَّمَا هُوَ مَحْضُ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، فَهُوَ الَّذِي هَدَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ.

وَقَدِ اخْتَصَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْبَشَرِ بِمَنَازِلَ وَمَقَامَاتٍ لَا تُكْتَسَبُ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَحْضُ اصْطِفَاءٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ؛ كَمَا اخْتَصَّ الْأَنْبِيَاءَ بِالنُّبُوَّةِ، وَالرُّسُلَ بِالرِّسَالَةِ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ عليهم السلام أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ أَفْضَلُ أُولِي الْعَزْمِ.

وَالرُّسُلُ عليهم السلام هُمْ قُدْوَةُ الْبَشَرِ، وَهُمْ هِدَايَةُ الْخَلْقِ، وَهُمُ الْوَاسِطَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، يُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَيُشَرِّعُ لَهُمْ شَرَائِعَهُ، وَيَهْدِيهِمْ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ.

وَالرُّسُلُ عليهم السلام يُبَلِّغُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى رِسَالَاتِهِ، وَيَهْدُونَ النَّاسَ لِشَرِيعَتِهِ، فَوَجَبَ عَلَى الْبَشَرِ تَصْدِيقُهُمْ وَالْإِيمَانُ بِهِمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ فِي اللَّهِ تَعَالَى.

وَمَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا أُوذِيَ فِي اللَّهِ تَعَالَى، وَنَالَهُ مِنْ عَظِيمِ الِابْتِلَاءِ مَا نَالَهُ، وَابْتُلِيَ بِهِ قَوْمُهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، وَالْمُؤْمِنُ لَهُ إِيمَانُهُ، وَالْكَافِرُ عَلَيْهِ كُفْرُهُ.

وَمِنْ أَشْهَرِ الرُّسُلِ ذِكْرًا، وَمِنْ أَكْثَرِهِمُ ابْتِلَاءً: كَلِيمُ اللَّهِ تَعَالَى مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام؛ فَقَدِ ابْتُلِيَ بِأَشْهَرِ طَاغِيَةٍ عَبَّدَ النَّاسَ لِنَفْسِهِ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ ابْتِلَاءُ قَوْمِ مُوسَى بِهَذَا الطَّاغُوتِ قَبْلَ وِلَادَةِ مُوسَى عليه السلام؛ إِذْ كَانَ يُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَبْقِي نِسَاءَهُمْ، بِسَبَبِ مَا عَلِمَهُ مِنْ أَنَّ زَوَالَ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ سَيَكُونُ عَلَى يَدِ وَاحِدٍ مِمَّنْ يَسْتَضْعِفُهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَمْعَنَ فِي قَتْلِ أَبْنَائِهِمْ حَتَّى كَانَ جُنْدُهُ يُحْصُونَ الْحَوَامِلَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِقَتْلِ مَنْ يُولَدُ مِنَ الْأَبْنَاءِ، وَاسْتِبْقَاءِ مَنْ يُولَدُ مِنَ الْبَنَاتِ.

عَظُمَ بِذَلِكَ كَرْبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاشْتَدَّتْ مِحْنَتُهُمْ، وَكَمْ مِنْ أَبَوَيْنِ بَكَيَا ابْنًا أَوْ أَبْنَاءً لَهُمَا، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا احْتِيَاطًا لِمُلْكِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الْقَصَص: ٤].

لَقَدْ كَانَ هَذَا مِنَ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي أُصِيبَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَمِنَّتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ نَجَّاهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِبَعْثَةِ مُوسَى ﷺ ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٩].

وَكَادَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْ تَفْنَى وَهُمُ الْمُسَخَّرُونَ فِي خِدْمَةِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ بِإِبْقَاءِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَنَةً، وَقَتْلِهِمْ سَنَةً أُخْرَى، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى طُغْيَانِهِ وَعُتُوِّهِ، وَإِلَّا فَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْغُلَامَ الَّذِي يُهَدِّدُ مُلْكَهُ قَدْ يُولَدُ فِي عَامِ الِاسْتِبْقَاءِ[٢].

وَيُقَدِّرُ اللهُ ﷻ أَنْ يُولَدَ هَارُونُ ﷺ فِي سَنَةِ الِاسْتِبْقَاءِ، وَحَمَلَتْ أُمُّهُ بِمُوسَى ﷺ فِي سَنَةِ الْقَتْلِ، فَعَظُمَ بِهِ كَرْبُهَا، وَازْدَادَ هَمُّهَا، وَعَزَمَتْ عَلَى إِخْفَاءِ حَمْلِهَا، فَاحْتَاطَتْ حَتَّى آنَ وَضْعُهُ، فَوَضَعَتْهُ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْ عُيُونِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، فَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى فِي رُوعِهَا أَنْ تُخْفِيَهُ فِي تَابُوتٍ وَتَضَعَهُ فِي النِّيلِ، وَكَانَتْ دَارُهَا عَلَى سَاحِلِهِ.

فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَمْضِيَ قَضَاؤُهُ، وَأَنْ يَنْفُذَ أَمْرُهُ، وَأَنْ يَتَرَبَّى مُوسَى فِي بَيْتِ عَدُوِّهِ؛ وَضَعَتْهُ فِي التَّابُوتِ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي النَّهْرِ، فَمَضَى التَّابُوتُ فِي الْمَاءِ

---

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٢٧٣)، وتفسير البغوي (١/ ٧٠)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٧٦)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

إِلَى حَيْثُ يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى[٣] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصَص: ٧]. فَكَانَ هَذَا الْحِفْظُ وَالرِّعَايَةُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَأَكْبَرِ الْبِشَارَاتِ لِأُمِّهِ عليها السلام، وَلَا بِشَارَةَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا حِينَ بُشِّرَتْ بِأَنَّ ابْنَهَا سَيَكُونُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى عليه السلام بِهَذَا الْحِفْظِ وَالرِّعَايَةِ لَمَّا خَاطَبَهُ بِالرِّسَالَةِ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨-٣٩].

وَمِنْ عَجِيبِ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ رِعَايَتَهُ سُبْحَانَهُ وَحِفْظَهُ وَعِنَايَتَهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِمُوسَى عليه السلام مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَأُمُّهُ عليها السلام لَمَّا أَلْقَتْهُ فِي النِّيلِ وَفَقَدَتْهُ اشْتَدَّ خَوْفُهَا عَلَيْهِ، وَحَزِنَتْ حُزْنًا شَدِيدًا، وَكَادَتْ أَنْ تَكْشِفَ سِرَّهَا، وَتُظْهِرَ لِعَدُوِّهَا أَمْرَ طِفْلِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى ثَبَّتَهَا، وَرَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ رِعَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا وَلِوَلَدِهَا عليهما السلام ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْقَصَص: ١٠].

ثُمَّ إِنَّ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ تَدْبِيرِهِ فِي ذَلِكَ: أَنْ أَلْقَى الْمَحَبَّةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام وَهُوَ فِي الْمَهْدِ، فَمَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ رَغْمًا عَنْهُ؛ لِيَقَعَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ فِي بَيْتِ عَدُوِّهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ لِمُوسَى عليه السلام فِي مَعْرِضِ مِنَّتِهِ عَلَيْهِ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩].

وَكَانَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى: أَنْ يَظْفَرَ بِطِفْلِ النِّيلِ أَفْرَادٌ مِنْ بَيْتِ فِرْعَوْنَ فَيَأْتُونَ بِهِ إِلَى زَوْجِهِ، وَكَانَتْ لَا تُنْجِبُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ تَهْيِئَةِ مَكَانٍ لِمُوسَى فِي بَيْتِ

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١)، وأضواء البيان (٤/ ١٠).

فِرْعَوْنَ، وَفِي قَلْبِ زَوْجَتِهِ؛ وَلَرُبَّمَا لَوْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ هَذَا التَّعَلُّقَ. إِنَّهَا رَأَتْهُ فَأَحَبَّتْهُ فَشَفَعَتْ فِيهِ لَدَى فِرْعَوْنَ وَخَاطَبَتْهُ قَائِلَةً: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصص: ٩] إِنَّهَا تُجَادِلُ عَنْهُ، وَتَشْفَعُ فِيهِ، وَتُحَاوِرُ فِرْعَوْنَ لِأَجْلِهِ، وَهِيَ وَفِرْعَوْنُ لَا يَعْلَمَانِ إِرَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْغُلَامِ، وَأَنَّ هَلَاكَ فِرْعَوْنَ سَيَكُونُ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَنَّ مُلْكَ الْفَرَاعِنَةِ سَيَؤُولُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِسَبَبِهِ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ المُحَاوَرَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصص: ٩]؛ أَيْ: لَا يَعْلَمُونَ مَا خُبِّئَ لَهُمْ فِي هَذَا الْغُلَامِ الَّذِي يَتَحَاوَرَانِ فِيهِ.

وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَنَّ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَتْ لَهُ: قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ، قَالَ فِرْعَوْنُ: يَكُونُ لَكِ، فَأَمَّا لِي فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَلَوْ أَقَرَّ فِرْعَوْنُ أَنْ يَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ كَمَا أَقَرَّتِ امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللهُ تَعَالَى كَمَا هَدَاهَا، وَلَكِنْ حُرِمَهُ»(٤).

وَقَدِ انْتَفَعَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بِمَقُولَتِهَا ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إِذْ نَفَعَهَا اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَهَدَاهَا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ عَلَى يَدَيْهِ، وَضَرَبَ سُبْحَانَهُ المَثَلَ بِإِيمَانِهَا فِي الْقُرْآنِ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التَّحريم: ١١].

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمِ يُعَلِّقُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «بِأَنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ»(٥).

---

(٤) هذا جزء من حديث الفتون، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٢٦)، وأبو يعلى (٢٦١٨)، والطبري في تفسيره (٢٠/ ٣٤).

(٥) البداية والنهاية (٢/ ٣٨).

فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ لَا يَنْطِقَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَمَا ضَرَّ فِرْعَوْنُ لَوْ سَكَتَ وَلَمْ يَنْطِقْ بِالسُّوءِ، وَلَكِنْ مَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ الشَّقَاءُ أَصَابَتْهُ سِهَامُهُ، وَنَالَتْهُ أَسْبَابُهُ.

وَكَمْ مِنْ أَبٍ يُقَالُ لَهُ: هَذَا وَلَدُكَ يَنْفَعُكَ غَدًا فِي كِبَرِكَ، فَيَقُولُ: لَا، أَوْ لَا أَحْتَاجُ إِلَى نَفْعِهِمْ، فَيُجْرِي اللهُ تَعَالَى حُكْمَهُ فِيهِمْ عَلَى مَا قَالَ أَبُوهُمْ.

وَصَدَقَ اللهُ تَعَالَى وَعْدَهُ، وَمَكَّنَ لِعَبْدِهِ، وَأَوْفَى لِأُمِّ مُوسَى مَا وَعَدَهَا مِنْ رَدِّ وَلِيدِهَا عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ أَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، فَجَاعَ الرَّضِيعُ وَلَمْ يَلْتَقِمْ ثَدْيًا، وَلَمْ يَقْبَلْ طَعَامًا، وَلَا وَجَدُوا حِيلَةً لِإِرْضَاعِهِ، وَإِسْكَانِ جُوعِهِ، وَإِسْكَاتِ صِيَاحِهِ، وَكَانَ مِنْ قَلَقِ أُمِّهِ عَلَيْهِ أَنْ أَرْسَلَتْ أُخْتَهُ تَلْتَمِسُ خَبَرَهُ، فَرَأَتْهُ يُدَارُ بِهِ عَلَى النِّسَاءِ لَعَلَّهُ يَقْبَلُ إِحْدَاهُنَّ فَيَرْضَعُ مِنْهَا، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِمْ بِبَيْتِهَا وَأُمِّهَا، فَعَادَ الرَّضِيعُ إِلَى حُضْنِ أُمِّهِ، وَالْتَقَمَ ثَدْيَهَا، وَشَبِعَ مِنْ لَبَنِهَا، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١١-١٣].

وَقَدِ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى مُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ لَمَّا كَلَّمَهُ سُبْحَانَهُ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَۚ﴾ [طه: ٤٠].

عَاشَ مُوسَى عليه السلام فِي قُصُورِ فِرْعَوْنَ يَأْكُلُ أَطْيَبَ الطَّعَامِ، وَيَلْبَسُ أَحْسَنَ اللِّبَاسِ، وَيَرْكَبُ أَفْضَلَ المَرَاكِبِ، وَيَتَمَتَّعُ بِمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ أَبْنَاءُ المُلُوكِ، مَحْفُوظًا بِحِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِنَايَتِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَصَدَقَ سُبْحَانَهُ إِذْ خَاطَبَهُ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩].

حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْفَتَى مَبْلَغَ الرِّجَالِ، وَاسْتَحْكَمَ خَلْقُهُ وَخُلُقُهُ، وَكَمَّلَ أَرْبَعِينَ

سَنَةً(٦)، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَسُولًا يُوحَى إِلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ الْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ وَالنُّبُوَّةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القَصَص: ١٤]. وَبِذَلِكَ تَمَّتْ مَوْعِدَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِأُمِّ مُوسَى عليه السلام حِينَ قَالَ لَهَا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص: ٧].

وَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام أَسْبَابَ الْهِجْرَةِ مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ بِسَبَبِ قَتْلِهِ لِلْقِبْطِيِّ الَّذِي اعْتَدَى عَلَى الْإِسْرَائِيلِيِّ، وَصَارَ بِسَبَبِهِ مَطْلُوبًا لَدَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٥-١٩].

وَلَا يَزَالُ اللهُ تَعَالَى يَحُوطُهُ بِرِعَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ، وَيَحْفَظُهُ مِنْ مَكْرِ عَدُوِّهِ وَبَطْشِهِ؛ إِذْ سَخَّرَ لَهُ مَنْ يُخْبِرُهُ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ قَوْمُ فِرْعَوْنَ مِنْ قَتْلِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هِجْرَتِهِ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

هَاجَرَ مُوسَى عليه السلام خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِهِ، وَلَيْسَ مَعَهُ طَعَامٌ وَلَا مَتَاعٌ،

---

(٦) تفسير البغوي (٣/ ٤٣٨)، وتفسير السعدي (١/ ٦١٣).

وَهَكَذَا الرُّسُلُ ﷺ تُبْتَلَى بِالْجُوعِ وَالشِّدَّةِ، وَالْفِرَاقِ وَالْهِجْرَةِ، كَمَا تُبْتَلَى بِظُلْمِ الظَّالِمِينَ، وَأَذَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «سَارَ مُوسَى عليه السلام مِنْ مِصْرَ إِلَى مَدْيَنَ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الْبَقْلَ وَوَرَقَ الشَّجَرِ وَكَانَ حَافِيًا، فَمَا وَصَلَ إِلَى مَدْيَنَ حَتَّى سَقَطَتْ نَعْلُ قَدَمَيْهِ، وَجَلَسَ فِي الظِّلِّ وَهُوَ صَفْوَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنَّ بَطْنَهُ لَلَاصِقٌ بِظَهْرِهِ مِنَ الْجُوعِ، وَإِنَّ خُضْرَةَ الْبَقْلِ لَتُرَى مِنْ دَاخِلِ جَوْفِهِ، وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ»(٧).

وَلَكِنَّهُ عليه السلام كَانَ قَوِيَّ الْإِيمَانِ، مُتَوَجِّهًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، وَاثِقًا بِهِ، لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَسْأَلُ سِوَاهُ، فَهَيَّأَ اللهُ تَعَالَى لَهُ أَسْبَابَ الرِّعَايَةِ وَالْكِفَايَةِ فِي الْبَلَدِ الَّتِي قَدِمَ عَلَيْهَا، وَسَخَّرَ لَهُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ، فِي قِصَّةِ الْفَتَاتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَسْقِيَانِ ذَوْدَهُمَا فَأَعَانَهُمَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ عَمَلِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَزَوَاجِهِ مِنِ ابْنَتِهِ، وَهَكَذَا الرُّسُلُ ﷺ يَكُدُّونَ وَيَكْدَحُونَ، وَيَغْتَرِبُونَ وَيُسْتَأْجَرُونَ؛ لِسَدِّ حَاجَاتِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ**، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: **نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٨).

فَبَذْلُ الْأَسْبَابِ، وَكَسْبُ الْعَيْشِ، وَالتَّعَفُّفُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنْ شِيَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَكَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى عليه السلام أَجَّرَ نَفْسَهُ لِخِدْمَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَرَعْيِ غَنَمِهِ عَقْدًا كَامِلًا مِنْ عُمُرِهِ؛ لِيَتَزَوَّجَ الصَّالِحَةَ ابْنَةَ الصَّالِحِ فَيُعِفَّ نَفْسَهُ وَيُحَصِّنَ فَرْجَهُ، وَكَانَ مَا وَقَعَ لَهُ مِنَ التَّيْسِيرِ فِي ذَلِكَ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ الصَّالِحِ،

(٧) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٤).

(٨) أخرجه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٢١٤٣).

وَتَوَجُّهِ قَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا خَرَجَ مُهَاجِرًا مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٢-٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا عَلَى آلَائِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَكْمَلَ مُوسَى عليه السلام أَجَلَهُ، وَأَدَّى الْخِدْمَةَ لِوَالِدِ زَوْجِهِ، فَارَقَهُمْ عَائِدًا إِلَى مِصْرَ، وَكَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَكَلَّفَهُ سُبْحَانَهُ بِتَبْلِيغِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ رِسَالَاتِهِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَجَرَى لِمُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ مَا جَرَى مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْأَذَى، وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُنَاظَرَةِ؛ مِمَّا بُسِطَ خَبَرُهُ فِي سُوَرِ الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ وَطه وَالشُّعَرَاءِ وَالْقَصَصِ.

فَلَمَّا خَصَمَهُمْ مُوسَى عليه السلام بِالْحُجَّةِ وَالْبَيَانِ، وَأَثْبَتَ صِدْقَهُ بِالْمُعْجِزَةِ وَالْبُرْهَانِ، مَا كَانَتْ حِيلَةُ الْعَاجِزِينَ عَنْ إِثْبَاتِ كُفْرِهِمْ وَعُلُوِّهِمْ إِلَّا الْبَطْشَ وَالظُّلْمَ وَالْقُوَّةَ، وَسَعَوْا جَادِّينَ فِي قَتْلِ مُوسَى وَالْمُؤمِنِينَ؛ لِيَسْتَمِرُّوا فِي تَعْبِيدِ النَّاسِ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، وَنَافِذٌ فِي الْخَلْقِ حُكْمُهُ، فَأَنْجَى سبحانه وتعالى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، وَأَغْرَقَ فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ، وَجَعَلَ ذَلِكَ آيَةً لِخَلْقِهِ، وَعِبْرَةً فِي مَصِيرِ الظَّالِمِينَ، يَتَذَكَّرُهَا الْبَشَرُ عَبْرَ الْأَجْيَالِ، وَيَنْتَفِعُ بِهَا قُرَّاءُ الْقُرْآنِ كُلَّمَا رَتَّلُوا وَقَائِعَ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَوَقَعَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ حِينَ قَالَ: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصص: ٨].

فَهُمُ الْتَقَطُوهُ بِأَيْدِيهِمْ، وَرَبَّوْهُ فِي قُصُورِهِمْ، وَكَانَ تَحْتَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ عَدُوُّهُمْ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي النِّكَايَةِ بِهِمْ، وَأَشَدُّ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمُ اخْتَارُوا أَخْذَ مَا يَكُونُ هَلَاكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ كَانَ هَلَاكُهُمْ عَلَى يَدِ غَيْرِهِ، فَسُبْحَانَ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ، الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي أَتَى فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَبِأَيْدِيهِمْ هُمْ لَا بِغَيْرِهِمْ! ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القَصص: ٦].

وَهَذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي وَقَعَتْ لِمُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ تَتَكَرَّرُ فِي الْبَشَرِ؛ فَكَمْ مِنْ سُلْطَانٍ خَسِرَ سُلْطَانَهُ عَلَى يَدِ أَلْصَقِ النَّاسِ بِهِ، وَأَشَدِّهِمْ إِحْسَانًا إِلَيْهِ،

فَكَانَ هَلَاكُهُ وَزَوَالُ مُلْكِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ بِحَقٍّ أَمْ بِبَاطِلٍ، وَلَكِنَّ تَدْبِيرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ لَطِيفٌ عَجِيبٌ؛ إِذْ يُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ، وَلَا يَنْفَعُ الِاحْتِيَاطُ وَالتَّوَقِّي لِرَدِّ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ، وَهَذَا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَفِرَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا نَحْذَرَ مِنْهُ إِلَّا بِهِ، وَلَا نَتَّقِيَ قَدَرَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَدُعَائِهِ؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَدَرَ، وَيَنْفَعُ فِيمَا نَزَلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلِّقُوا بِاللَّهِ تَعَالَى قُلُوبَكُمْ، وَفِرُّوا مِنْهُ إِلَيْهِ. وَلَوْ كَانَ الْحَذَرُ رَادًّا لِلْقَدَرِ، وَنَافِعًا لِأَحَدٍ؛ لَنَفَعَ فِرْعَوْنَ الَّذِي قَتَّلَ وِلْدَانَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذَرًا مِنْ هَلَاكِهِ وَزَوَالِ مَمْلَكَتِهِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَلِعَظِيمِ مَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عليهم السلام مِنَ الْأُخُوَّةِ وَالمَحَبَّةِ فِي اللَّهِ تَعَالَى: شَرَعَ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ صِيَامَ الْيَوْمِ الَّذِي نُجِّيَ فِيهِ مُوسَى وَالْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، وَأُهْلِكَ فِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ، وَفَرَحًا بِنَجَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ، رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فَقَالَ: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ ﷺ: **فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٩).

وَفِي حَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه قَالَ ﷺ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

وَلَمَّا أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى دِينَهُ، وَاسْتَقَرَّتْ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ مُخَالَفَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُحِبُّ مُوَافَقَتَهُمْ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ الْكِتَابِ، فَأَمَرَ ﷺ

---

(٩) أخرجه البخاري في الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٢٠٠٤)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(١٠) أخرجه مسلم في الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس (١١٦٢).

بِمُخَالَفَتِهِمْ فِي صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، وَذَلِكَ بِصِيَامِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ مَعَهُ، وَلَمَّا قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ ﷺ عَنْ يَوْمِ عَاشُورَاءَ: «إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، قَالَ ﷺ: **فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١١).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - وَاحْرِصُوا عَلَى صِيَامِ هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، وَخَالِفُوا أَهْلَ الْكِتَابِ فِيهِ بِصِيَامِ التَّاسِعِ مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- يَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي السَّفَرِ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِفِطْرِ رَمَضَانَ فِي السَّفَرِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «رَمَضَانُ لَهُ عِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَاشُورَاءُ يَفُوتُ»(١٢).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

---

(١١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (١١٣٤).

(١٢) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد (٧/ ٢١٥).

٣٥٠- الكليم عليه السلام (٢)
التكليم والرسالة

٢٠/٧/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْحَفِيظِ الْعَلِيمِ؛ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِعِبَادِهِ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، فَاسْتَخْلَفَهُمْ بَعْدَ الاِسْتِضْعَافِ، وَمَكَّنَ لَهُمْ بَعْدَ الاِبْتِلَاءِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ فَضْلَهُ وَإِنْعَامَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ نَصَرَ أَوْلِيَاءَهُ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِدِينِ الْحَقِّ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَمِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَصْلَحِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَكْثَرِهِمْ إِخْلَاصًا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، اتَّقُوا مَنْ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ وَيُحْيِيكُمْ وَيُمِيتُكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، وَعَلَيْهِ حِسَابُكُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، وَمَا جَرَى لَهُمْ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فِيهَا تَنْبِيهٌ لِلْغَافِلِينَ، وَعِبَرٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَقُدْوَةٌ صَالِحَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ فَهُمْ رُسُلُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ، وَهُمُ الْهَادُونَ النَّاصِحُونَ لَهُمْ، الْحَرِيصُونَ الْمُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ؛ وَلِذَا قَصَّ

اللهُ تَعَالَى أَخْبَارَهُمْ فِي الْقُرْآنِ، وَكَرَّرَ ذَلِكَ وَأَعَادَ، وَأَمَرَنَا بِالْتِزَامِ هَدْيِهِمْ، وَالتَّأَسِّي بِهِمْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الْأَنْعَام: ٩٠] وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف: ١١١].

وَكَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام هُوَ أَكْثَرُ رُسُلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ، وَقَصَصُهُ هِيَ أَشْهَرُ الْقَصَصِ، وَمَا ذُكِرَتْ قِصَّةُ أَحَدٍ فِي الْقُرْآنِ كَمَا ذُكِرَتْ قِصَّتُهُ فِي وِلَادَتِهِ وَنَشْأَتِهِ، وَابْتِلَائِهِ وَهِجْرَتِهِ، وَنُبُوءَتِهِ وَرِسَالَتِهِ، وَمُنَاظَرَاتِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ، وَمُعَالَجَتِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي الْقُرْآنِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى خَلَاصَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى يَدِ هَذَا الْغُلَامِ مِنْهُمْ، فَنَجَّاهُمْ سُبْحَانَهُ بِهِ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ وَجَبَرُوتِهِ، وَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَظْهَرَ قُدْرَتَهُ عز وجل فِي أَنْ يَعِيشَ هَذَا الْغُلَامُ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ، وَيَتَرَبَّى أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَقَدَّرَ هَلَاكَهُ وَزَوَالَ مَمْلَكَتِهِ عَلَى يَدَيْهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا!

وَلَمَّا بَلَغَ الْفَتَى مَبْلَغَ الرِّجَالِ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى حُكْمًا وَعِلْمًا، وَائْتَمَرَ بِهِ مَلَأُ فِرْعَوْنَ لِيَقْتُلُوهُ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ أَحَدَ الظَّلَمَةِ مِنْهُمْ، فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ كَيْدِهِمْ بِالْهِجْرَةِ إِلَى مَدْيَنَ، وَالْعَمَلِ فِي رَعْيِ الْغَنَمِ عِنْدَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عَشْرَ سَنَوَاتٍ لِيُزَوِّجَهُ ابْنَتَهُ، فَأَتَمَّ مُوسَى عَمَلَهُ، وَقَضَى أَجَلَهُ، وَاشْتَاقَ إِلَى أَهْلِهِ.

وَمَا أُصِيبَ مُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ الِابْتِلَاءَاتِ، وَنَالَتْهُ الْمَشَقَّةُ، وَتَحَمَّلَ أَعْبَاءَ الْمُطَارَدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالْعَمَلِ إِلَّا إِعْدَادًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَكُونَ رَسُولًا إِلَى أَعْتَى الطُّغَاةِ، وَأَقْوَى الْجَبَابِرَةِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ حِينَ خَاطَبَهُ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

لَقَدْ أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى لِلرِّسَالَةِ بِرَعْيِ الْغَنَمِ، وَطُولِ السَّفَرِ، وَشِدَّةِ الْغُرْبَةِ، وَقُوَّةِ السَّاعِدِ، وَصَفَاءِ النَّفْسِ، وَمَعْرِفَتِهِ عَدُوَّهُ.

وَالنُّبُوَّةُ لَهَا أَثْقَالٌ وَمؤُونَةٌ لا يَحْمِلُهَا وَلَا يَسْتَضْلِعُ بِهَا إِلَّا أَهْلُ الْقُوَّةِ وَالْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ؛ لِمَا يَلْقَوْنَ مِنَ النَّاسِ، وَمَا يُرَدُّ عَلَيْهِمْ مِمَّا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ ﷻ[1].

وَأَضْحَى مُوسَى ﷺ بِهَذِهِ التَّرْبِيَةِ وَالشِّدَّةِ مُؤَهَّلًا لِلرِّسَالَةِ وَأَعْبَائِهَا وَأَثْقَالِهَا، قَادِرًا عَلَى مُوَاجَهَةِ أَقْوَى الظَّلَمَةِ، وَأَعْتَى الْجَبَابِرَةِ، فَكَانَتِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ، وَكَانَ الِاصْطِفَاءُ وَالتَّكْلِيمُ.

عَادَ مُوسَى ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْهِجْرَةِ الطَّوِيلَةِ مِنْ مَدْيَنَ بِزَوْجِهِ مُتَوَجِّهًا إِلَى مِصْرَ حَيْثُ أُمُّهُ وَإِخْوَانُهُ، وَأَثْنَاءَ طَرِيقِهِ، وَفِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ، كَالِحَةِ الظُّلْمَةِ، شَدِيدَةِ الْبَرْدِ؛ أَبْصَرَ نَارًا تَأَجَّجُ فِي جَانِبِ الطُّورِ، فَذَهَبَ يَلْتَمِسُ لِأَهْلِهِ نَارًا، فَمَا كَانَتْ نَارًا وَلَكِنْ كَانَ نُورًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، نَالَ بِهِ مُوسَى ﷺ أَعْظَمَ كَرَامَةٍ، وَحَظِيَ بِأَعْلَى مَنْزِلَةٍ؛ إِذْ كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى مُبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، فَحَمَّلَهُ رِسَالَتَهُ، وَأَمَرَهُ بِأَمَانَتِهِ، فَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ تَشْرِيفٍ! وَمَا أَثْقَلَهُ مِنْ تَكْلِيفٍ! ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩، ٣٠].

شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى بِكَلِمَاتِهِ، وَاصْطَفَاهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ، وَأَعْلَى شَأْنَهُ، وَأَخْبَرَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ بِأَنَّهُ ﷻ رَبُّهُ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٣).

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى هِيَ أَشْرَفُ المَقَامَاتِ، وَأَعْلَى الْوَظَائِفِ؛ وَلِذَا تُذْكَرُ فِي أَجَلِّ المَوَاضِعِ وَأَعْلَاهَا.

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَظِيمٍ مُبَارَكٍ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦].

وَفِي مَوْضِعٍ ثَالِثٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨، ٩].

ثُمَّ أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِالمُعْجِزَاتِ، وَأَجْرَى عَلَى يَدَيْهِ الْآيَاتِ؛ لِيَكُونَ أَثْبَتَ لِكَلَامِهِ، وَأَقْوَى لِحُجَّتِهِ، وَأَدْعَى لِتَصْدِيقِهِ، وَمِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَ هَذِهِ المُعْجِزَاتِ مِمَّا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِيلُهَا عَنْ عَادَتِهَا الَّتِي عَرَفَهَا مُوسَى إِلَى مَا يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ أَبْيَنُ فِي الْقُدْرَةِ، وَأَقْوَى فِي الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٧-٢١].

وَفِي آيَةِ النَّمْلِ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النَّمل: ١٠].

فَهَذِهِ هِيَ المُعْجِزَةُ الْأُولَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمِنْ قَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي مُقَارَعَةِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ، وَسَتَقْضِي عَلَى سِحْرِهِمْ، وَتَكُونُ سَبَبًا فِي إِيمَانِهِمْ، فَمَا أَجَلَّهَا مِنْ مُعْجِزَةٍ! وَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ آيَةٍ! وَمَنْ يَقْلِبُ عَصًى لَا حِرَاكَ

فِيهَا إِلَى حَيَّةٍ حَقِيقِيَّةٍ لَا تَخْيِيلَ فِيهَا وَلَا خِدَاعَ إِلَّا مَنْ يَخْلُقُ مِنَ الْعَدَمِ، وَيُحْيِي الْأَمْوَاتَ، وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٤].

وَأَمَّا الْمُعْجِزَةُ الثَّانِيَةُ فَنُورٌ آتَاهُ اللهُ تَعَالَى مُوسَى فِي يَدِهِ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ وَلَا مَرَضٍ، يُظْهِرُهُ لِمَنْ شَاءَ مَتَى شَاءَ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النَّمْل: ١٢].

إِنَّهَا آيَاتٌ كُبْرَى لَا يُكَذِّبُ بِهَا إِلَّا مُعَانِدٌ، وَلَا يَرُدُّهَا إِلَّا مُسْتَكْبِرٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ مُوسَى عليه السلام خَافَ أَنْ يُكَذِّبَهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَبْعَثَ أَخَاهُ هَارُونَ مَعَهُ، وَشَفَعَ لَهُ عِنْدَهُ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى شَفَاعَةَ الْكَلِيمِ، وَبَعَثَ مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ رَسُولًا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝٣٣ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الْقَصَص: ٣٣-٣٥]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِى ۝٣٢ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩-٣٦].

وَتِلْكَ هِيَ أَعْظَمُ شَفَاعَةٍ عَرَفَهَا الْبَشَرُ فِي الدُّنْيَا وَأَنْفَعُهَا، حِينَ شَفَعَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ بِالرِّسَالَةِ، فَقَبِلَ اللهُ تَعَالَى شَفَاعَتَهُ فِيهِ، وَبَعَثَهُ رَسُولًا مَعَهُ، وَفِي هَذَا يَقُولُ بَعْضُ السَّلَفِ: لَيْسَ أَحَدٌ أَعْظَمَ مِنَّةً عَلَى أَخِيهِ مِنْ مُوسَى عَلَى هَارُونَ عليهما السلام؛ فَإِنَّهُ شَفَعَ فِيهِ حَتَّى جَعَلَهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا مَعَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ(٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٠).

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَارُونُ أَهْلًا لِلشَّفَاعَةِ لَمَا شَفَعَ فِيهِ مُوسَى عليهما السلام.

وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ مُوسَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ ذُو وَجَاهَةٍ؛ إِذْ قَبِلَ سُبْحَانَهُ شَفَاعَتَهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي مُوسَى عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وَبَلَّغَ مُوسَى وَهَارُونُ عليهما السلام رِسَالَاتِ رَبِّهِمَا، وَكَذَّبَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ رَسُولَيْهِمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَنْجَى مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥، ٣٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: فِي هَذَا الْجُزْءِ الْمُبَارَكِ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام عِبَرٌ وَدُرُوسٌ يَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ الْقِصَّةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَدَبَّرَهَا وَيَنْتَفِعَ بِهَا.

فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ الْعَظِيمَةُ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى تَوْحِيدُهُ سُبْحَانَهُ، وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ

الْعِبَادَاتِ الْعَمَلِيَّةِ، فَمَنْ صَحَّ تَوْحِيدُهُ قُبِلَ عَمَلُهُ، وَمَنْ قُبِلَ عَمَلُهُ نَجا، وَهَكَذَا الصَّلَاةُ إِذْ هِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ مِنْ عَمَلِهِ فَإِنْ قُبِلَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ رُدَّتْ رُدَّ عَلَيْهِ سَائِرُ عَمَلِهِ؛ وَلَمَّا كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام أَمَرَهُ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ لِعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِمَا، وَفَخَامَةِ شَأْنِهِمَا عِنْدَهُ ﷻ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

وَفِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانَتْ شَهَادَةُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ ثَانِيهَا.

وَتَضَمَّنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عليه السلام التَّذْكِيرَ بِالسَّاعَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَبَيَانَ أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهَا، أَوِ الْعَمَلِ لَهَا، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْعَصْرِ! وَوَاجِبٌ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ لَا يُطِيعُوهُمْ فِي ذَلِكَ، وَإِلَّا هَلَكُوا؛ ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يُورِدُونَ النَّاسَ الْمَهَالِكَ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٥، ١٦].

وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الْحَقِّ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى فِي إِكْمَالِ مَا لَدَيْهِ مِنْ نَقْصٍ فِي الْعِلْمِ أَوِ الْحُجَّةِ أَوِ الْبَيَانِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِيَكُونَ أَدْعَى لِقَبُولِ الْحَقِّ مِنْهُ، وَلِئَلَّا يَتَعَلَّقَ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ بِمَا فِيهِ مِنْ نَقْصٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِجَنَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِكْمَالِ نَقْصِهِ، وَيَسْأَلُهُ الْإِعَانَةَ وَالسَّدَادَ.

وَلَمَّا كَانَ فِي لِسَانِ مُوسَى عليه السلام احْتِبَاسٌ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَصِيحِ الْكَلَامِ[٣]،

---

(٣) عامة المفسرين على أن سبب عقدة لسان موسى عليه السلام جمرة كوته حين جرَّ لحية فرعون فأراد قتله، فقالت امرأته: إنه طفل لا يدري، فاختبره فرعون بجمرة وتمرة فأخذ الجمرة فلذعت لسانه ونجا من القتل على ما ورد في أخبار بني إسرائيل.

قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «وكانت فيه فيما ذكر عُجمة عن الكلام الذي كان من =

. . . .

= إلقائه الجمرة إلى فيه يوم همّ فرعون بقتله. ثم أسند عن سعيد بن جبير، في قوله: ﴿عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ قال: عجمة لجمرة نار أدخلها في فيه عن أمر امرأة فرعون، تردّ به عنه عقوبة فرعون، حين أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل، فقال: هذا عدو لي، فقالت له: إنه لا يعقل. وأسند نحوه عن ابن أبي نجيح ومجاهد والسدي» (١٨/ ٢٩٩).

وجاء أيضًا في حديث «الفتون» عن ابن عباس موقوفًا عليه، رواه الطبري (١٦/ ١٦٤-١٦٧).

وينظر: تفسير البغوي (٥/ ٢٧١)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٤٢)، وتفسير النسفي (٢/ ٣٦٢)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٢٨٢) كلهم ذكروا الجمرة التي لذعت لسانه.

وبعض المفسرين ذكر ثقلًا في اللسان ولم يذكر له سببًا كالقاسمي (٧/ ١٢٤) وابن عاشور (١٦/ ٢١١) والسعدي (٥٠٤) والشعراوي (١٥/ ٩٢٥٩).

بينما يرى سيد قطب أن هذا الاحتباس في لسان موسى ينشأ عن ضيق صدره وتوتره، يقول:

«والظاهر من حكاية قوله ﷺ أن خوفه ليس من مجرد التكذيب، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده. إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها في سورة طه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام. وتزداد كلما زاد الانفعال، فيزداد الصدر ضيقًا .. وهكذا .. وهي حالة معروفة. فمن هنا خشي موسى أن تقع له هذه الحالة وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون. فشكا إلى ربه ضعفه وما يخشاه على تبليغ رسالته، وطلب إليه أن يوحي إلى هارون أخيه، ويشركه معه في الرسالة اتقاء للتقصير في أداء التكليف، لا نكوصًا ولا اعتذارًا عن التكليف. فهارون أفصح لسانًا ومِنْ ثَمَّ هو أهدأ انفعالًا فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان. ولقد دعا موسى ربه -كما ورد في سورة طه- ليحل هذه العقدة من لسانه، ولكنه زيادة في الاحتياط للنهوض بالتكليف طلب معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا ..» في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٨٩).

وقد رد الدكتور صلاح الخالدي كلام جمهور المفسرين في أن سبب عقدة لسان موسى الجمرة، ورد قصة الجمرة والتمرة باعتبار أنها من أخبار بني إسرائيل، وأن حديث الفتون موقوف على ابن عباس ﷺ، وفيه قصة الجمرة والتمرة، وأنه من أخبار بني إسرائيل، وعن ابن عباس أخذ هذه القصة كبار التابعين من المفسرين كابن جبير ومجاهد، وذكر أن =

سَعَى فِي إِكْمَالِ هَذَا النَّقْصِ الَّذِي فِيهِ بِأَنْ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ ﷻ أَنْ يُرْسِلَ أَخَاهُ مَعَهُ لِيُعِينَهُ عَلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ وَبَيَانِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الْقَصَص: ٣٤]، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢، ١٣].

وَسَأَلَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَشْرَحَ صَدْرَهُ، وَيُعِينَهُ عَلَى مُهِمَّتِهِ، وَأَنْ يُطْلِقَ بَعْضَ عُقَدِ لِسَانِهِ؛ لِيَفْهَمُوا مَقَالَهُ، فَقَالَ ﷺ: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾

= القرآن يفسر بعضه بعضًا، فآية طه ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧] تفسرها آية الشعراء: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣] فسبب حبس لسانه ضيق صدره وتوتره؛ لأنه ينفعل، وأن هارون أفصح لسانًا؛ لأنه أهدأ منه. ينظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي (٢/ ٢٧٧-٢٨٥).

قلت: ويؤيد ما قرره د. صلاح الخالدي ما ثبت أن موسى شديد الغيرة على محارم الله تعالى، وشديد الغضب حال انتهاكها، ودليل ذلك أنه ألقى ألواح التوراة من شدة الغضب لما عبدت بنو إسرائيل العجل قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ومعلوم أن شدة الغضب تحبس اللسان عن الكلام، فلعل موسى ﷺ خشي أن يقول فرعون كلامًا لا يليق بالله تعالى فيغضب موسى ﷺ غيرة لله تعالى فيحبس لسانه عن الكلام من شدة الغضب، ولا يكاد يتبين قوله.

وهذا التقرير ليس بقاطع بل هو محتمل؛ لأن احتباس لسان موسى ﷺ معروف حتى لدى فرعون؛ فإنه عَيَّره به فحكى الله تعالى عنه أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. وإذا كان ذلك معروفًا حتى لدى فرعون فقد لا يكون احتباسًا في حال الغضب فقط، بل قد يكون صفة ملازمة له؛ ولذا فالتوقف في ذلك أسلم. والله أعلم.

وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٥-٢٨].

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَا سَأَلَ مُوسَى ﷺ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ، بَلْ بِحَيْثُ يَزُولُ الْعِيُّ، وَيَحْصُلُ فَهْمُ مَا يُلْقِي عَلَيْهِمْ، وَلَوْ سَأَلَ الْجَمِيعَ لَزَالَ، وَلَكِنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ لَا يَسْأَلُونَ إِلَّا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ(٤).

وَمِنْ عَادَةِ أَهْلِ الْبَاطِلِ أَنَّهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِأَيِّ نَقْصٍ فِي دَاعِيَةِ الْحَقِّ؛ لِيَلْمِزُوهُ بِهِ، وَيُنَفِّرُوا النَّاسَ مِنْهُ، وَيَصْرِفُوهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَقَدْ كَانَ فِرْعَوْنُ يُعَيِّرُ مُوسَى ﷺ بِهَذَا النَّقْصِ فِي لِسَانِهِ فَيَقُولُ لِلنَّاسِ: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخْرُف: ٥٢].

وَدَاعِيَةُ الْحَقِّ قَدْ يُبْتَلَى بِطَاغِيَةٍ مِنَ الطَّوَاغِيتِ عَبَّدَ النَّاسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ يَخَافُ مِنْ بَطْشِهِ وَجَبَرُوتِهِ الْخَوْفَ الطَّبِيعِيَّ الَّذِي هُوَ مِنْ جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ وَعَادَتِهِ، فَعَلَيْهِ حِينَئِذٍ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى فِي دَعْوَتِهِ، وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِ، وَإِظْهَارِ الْحَقِّ لَهُ، وَمَنْ أَخْلَصَ فِي ذَلِكَ أَعَانَهُ اللهُ تَعَالَى، كَمَا أَعَانَ مُوسَى ﷺ عَلَى فِرْعَوْنَ وَسَطْوَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَأَوْصَاهُ بِمَا يُذْهِبُ خَوْفَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [الْقَصَص: ٣٢] أَي: اجْعَلْ يَدَكَ عَلَى فُؤَادِكَ يَسْكُنْ خَوْفُكَ، وَيَذْهَبْ رَهَبُكَ(٥).

وَكُلُّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ وَالْأَعْمَالِ مِنْ مُوسَى ﷺ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ يَأْخُذُونَ بِأَسْبَابِ النَّصْرِ، وَإِزَالَةِ الْخَوْفِ، وَقُوَّةِ الْقَلْبِ، وَتَبْلِيغِ الْحَقِّ، مَعَ أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذِهِ سُنَّتُهُمُ الَّتِي يَنْبَغِي لِدُعَاةِ الْحَقِّ أَنْ يَلْتَزِمُوهَا.

---

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ١٤٧، ١٤٨).

(٥) ذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى ذهاب خوفه من يده لما صارت بيضاء، واختار ابن كثير العموم، ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨٩)، وروح المعاني (٢٠/ ٧٥).

وَفِي شَفَاعَةِ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ عليهما السلام مَشْرُوعِيَّةُ الشَّفَاعَةِ، وَإِيصَالُ النَّفْعِ لِلْقَرَابَةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْبِرِّ وَالصِّلَةِ، مَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّفَاعَةِ إِضْرَارٌ بِأَحَدٍ، أَوْ إِعْطَاءُ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَحِرْمَانُ مَنْ يَسْتَحِقُّ، كَمَا هُوَ السَّائِدُ فِي أَكْثَرِ شَفَاعَاتِ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَظِيمَةِ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذِهِ الدُّرُوسِ وَالْفَوَائِدِ، يَجِدُهَا مَنْ قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِحُضُورِ قَلْبٍ وَتَدَبُّرٍ، وَاسْتَعَانَ بِبَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، فَلَا تَحْرِمُوا أَنْفُسَكُمْ هَذَا الْخَيْرَ الْعَظِيمَ؛ فَإِنَّ أَشْرَفَ الْعُلُومِ وَأَجَلَّهَا الْعِلْمُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبِأَحْوَالِ مَا قَصَّ عَلَيْنَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ رُسُلِهِ عليهم السلام، فَخُذُوا حَظَّكُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَشْغَلْكُمْ عَنْهُ شَاغِلٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٥١- من صفات الرسول ﷺ

١٥/ ٣/ ١٤١٦هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْإِسْلَامِ يَقْتَرِنُ وَلَا بُدَّ بِالْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ. ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي أَكْرَمَهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَحَوَّلَ بِهِ الْعَرَبَ مِنَ الضَّلَالِ إِلَى الْهُدَى، وَمِنَ الذُّلِّ إِلَى الْعِزِّ، وَمِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَأَبْوَابِهِ إِلَى أَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَأَبْوَابِهِ ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

وَقَضَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الرَّسُولُ لِلْبَشَرِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُونَ، وَيَشْرَبُ كَمَا يَشْرَبُونَ، وَيَمُوتُ كَمَا يَمُوتُونَ. وَابْتَدَأَ دَعْوَتَهُ فِي قَوْمٍ هُوَ مِنْ قَبِيلَتِهِمْ، وَيَتَكَلَّمُ لِسَانَهُمْ، وَيَعْرِفُ عَادَاتِهِمْ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

لَكِنَّهُ كَانَ مَعْرُوفًا فِي قَوْمِهِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ بِحُسْنِ الْأَخْلَاقِ، وَطِيبِ الْأَفْعَالِ، فَلَمَّا

نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ هَذَّبَهُ وَأَدَّبَهُ، فَزَادَتْ أَخْلَاقُهُ وَأَفْعَالُهُ حُسْنًا وَجَمَالًا، وَكَانَ فِي وَجْهِهِ مِنَ النُّضْرَةِ وَالْهَيْبَةِ المَقْرُونَةِ بِالْحُسْنِ وَالنُّورِ مَا جَعَلَهُ عِنْدَ النَّاسِ مَحْبُوبًا مَهِيبًا، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَى الْقَمَرِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ»(١).

وَسُئِلَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﷺ: «أَكَانَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِثْلَ القَمَرِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ(٢).

وَأَمَّا جَمَالُ الْأَخْلَاقِ وَالمَعَانِي فَكَانَ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي صَدَّقَتْ نُبُوَّتَهُ، وَجَبَذَتْ خَلْقًا كَثِيرًا إِلَى الْإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِ، سُئِلَتْ عَائِشَةُ ﷺ عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَخَّابًا فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي: أُفٍّ، قَطُّ،

---

(١) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في الرخصة في لبس الحمرة للرجال، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الأشعث، ثم نقل الترمذي تصحيح البخاري لهذا الحديث (٢٨١١)، وأخرجه الدارمي (٥٧)، والنسائي في الكبرى (٩٦٤٠)، وأبو يعلى (٧٤٧٧)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٠٦) رقم (١٨٤٢)، وأبو الشيخ الأصبهاني في أخلاق النبي (٢٦٦)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٢/ ٥٤٧)، والبيهقي في الدلائل (١/ ١٩٦)، والحاكم وصححه (٤/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٥٥٢).

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٢٠١٥)، وأحمد (٦/ ١٧٤)، والطيالسي (١٥٢٠)، والطبراني في مكارم الأخلاق (٥٨)، والبيهقي في الشعب (٨٢٩٧)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٦١٤).

وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ صَنَعْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ؟ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسِسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ النَّبِيِّ ﷺ»(٤).

وَكَانَ ﷺ آيَةً فِي الْحِلْمِ وَالصَّفْحِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ(٥).

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: **لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ**

---

(٤) أخرجه مختصرًا البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٦٠٣٨)، ومسلم في الفضائل: باب كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أحسن الناس خلقًا (٢٣٠٩)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في خلق النبي ﷺ، وقال: حسن صحيح (٢٠١٥) واللفظ بتمامه للترمذي.

(٥) أخرجه مسلم في الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته (٢٣٢٨).

يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»، قَالَ الْبُخَارِيُّ: «فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ نَاسًا فِي الْقِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أَنَاسًا مِنَ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «**مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ، رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ(٧).

وَكَانَ ﷺ شَفِيقًا رَحِيمًا، يُدَارِي النَّاسَ، وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِهِمْ .. كَانَ يَقُومُ لِلصَّلَاةِ فَيُرِيدُ أَنْ يُطِيلَهَا، فَيَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَيَتَجَوَّزَ فِي صَلَاتِهِ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ(٨).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «**فِي النَّارِ**»،

---

(٦) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣١)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥).

(٧) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرود والحبرة والشملة (٥٨٠٩)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة (١٠٥٧).

(٨) كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه**» أخرجه البخاري في الجماعة والإمامة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (٧٠٧).

فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[٩].

وَكَانَ ﷺ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ حَيَاءً، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١٠].

وَأَمَّا تَوَاضُعُهُ فَقَدْ بَلَغَ مَبْلَغًا جَعَلَ الْغُرَبَاءَ عَنِ الْمَدِينَةِ لَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ بَيْنِ جُلَسَائِهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما قَالَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَيْ أَصْحَابِهِ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ، فَطَلَبْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إِذَا أَتَاهُ، قَالَ: فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَجْلِسُ بِجَنْبَتَيْهِ . . .»[١١].

وَسُئِلَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ عَمَلِهِ فِي بَيْتِهِ، فَقَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلِبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ: يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ»[١٢].

---

(٩) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان أنَّ مَنْ مَات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة، ولا تنفعه قرابة المقربين (٢٠٣).

(١٠) أخرجه البخاري في المناقب: باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٢)، ومسلم في الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢٠).

(١١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر (٤٦٩٨)، والنسائي في الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام (٨/ ١٠١)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٣٩)، وصححه الألباني في الإرواء (١/ ٣٣) في ثنايا الحديث عن حديث جبريل الطويل رقم (٣).

(١٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤١)، والترمذي في الشمائل (٣٣٥)، والبغوي في شرح السنة (٣٦٧٦)، وصححه ابن حبان (٥٦٧٥).

وهو عند البخاري في الصحيح من حديث الأسود، قال: سألت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله -تعني: خدمة أهله- فإذا حضرت =

وعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكَبُ الْحِمَارَ، وَيَلْبَسُ الصُّوفَ، وَيَعْتَقِلُ الشَّاةَ، وَيَأْتِي مُرَاعَاةَ الضَّيْفِ»(١٣).

وَكَانَ ﷺ يَكْرَهُ الْإِطْرَاءَ وَالْفَخْرَ وَالتَّبَاهِيَ، وَيَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٤).

وَكَانَ ﷺ يَكْرَهُ أَنْ يُصْنَعَ بِهِ مَا يُصْنَعُ بِالْمُلُوكِ وَالْأَكَابِرِ مِنَ الْقِيَامِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: «لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ» أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ(١٥).

وَكَانَ لَيِّنَ الْجَانِبِ، حَسَنَ الْعِشْرَةِ، يَأْخُذُ بِيَدِهِ كُلُّ أَحَدٍ، عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: «**يَا أُمَّ فُلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ**» فَخَلَا

= الصلاة خرج إلى الصلاة» أخرجه البخاري في الأذان، باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة فخرج (٦٧٦).
والرواية الثانية لأحمد (٦/ ١٦٧)، وعبد بن حميد (١٤٨٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٩)، وابن حبان (٥٦٧٦).

(١٣) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (١/ ١١٩)، قال الألباني في السلسلة الصحيحة: وهو كما قالا (٥/ ١٥٩) في ثنايا كلامه على حديث رقم (٢١٢٥).

(١٤) أخرجه من حديث ابن عباس ﷺ: البخاري في الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠)، ومسلم في الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (١٦٩١).

(١٥) أخرجه الترمذي في الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٢٧٥٤)، وأحمد (٣/ ١٣٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٦)، وأبو يعلى (٣٧٨٤)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: وإسناده صحيح على شرط مسلم (٣٥٨).

مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا[(١٦)].

وَلَمْ يَكُنْ تَوَاضُعُهُ ﷺ عَنْ ضَعْفٍ، بَلْ كَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَلَقِيَ الْقَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ»[(١٧)]، وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ»[(١٨)].

وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ كَانَ كَثِيرَ الْعِبَادَةِ، بَكَّاءً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى. قَالَ عَطَاءٌ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟ لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]»[(١٩)].

---

(١٦) أخرجه مسلم في الفضائل، باب قرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به (٢٣٢٦)، وأبو داود في الأدب، باب في الجلوس على الطرقات (٤٨١٩)، وأحمد (٣/ ٢٨٥).

(١٧) أخرجه أحمد (١/ ١٥٦)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (١٥٤)، والبزار (٧٢٢)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٠٤)، وصححه الحاكم (٢/ ١٥٥)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢٥١٥).

(١٨) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (١٦٦٧).

(١٩) أخرجه أبو الشيخ في أخلاق النبي (٥٦٨)، وصححه ابن حبان (٦٢٠)، وأورده الألباني بإسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة وقال: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، =

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

= غير يحيى بن زكريا، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه؟ قال: ليس به بأس، هو صالح الحديث (٦٨).

فائدة: ليس في هذا الحديث حجة لمن أجاز قيام الليل كله، كما حرر ذلك الألباني فقال -رحمه الله تعالى-: «ليس فيه ما يدل على أنه ﷺ قام الليل كله، لأنه لم يقع فيه بيان أن النبي ﷺ ابتدأ القيام من بعد العشاء أو قريبًا من ذلك، بل إن قوله: «قام ليلة من الليالي فقال ...» الظاهر أن معناه: قام من نومه ...؛ أي: نام أوله ثم قام، فهو على هذا بمعنى حديثها الآخر: «كان ينام أول الليل، ويحيي آخره ...» أخرجه مسلم (٢/ ١٦٧). وإذا تبين هذا فلا يصح حينئذ الاستدلال بالحديث على مشروعية إحياء الليل كله، كما فعل الشيخ عبد الحي اللكنوي في «إقامة الحجة على أن الإكثار من التعبد ليس بدعة» قال (ص ١٣): فدل ذلك على أن نفي عائشة قيام الليل كله محمول على غالب أوقاته ﷺ. قلت: يشير بـ«نفي عائشة» إلى حديثها الآخر: «ولم يقم رسول الله ﷺ ليلة يتمها إلى الصباح، ولم يقرأ القرآن في ليلة قط» أخرجه مسلم (٢/ ١٦٩-١٧٠)، وأبو داود (١٣٤٢) واللفظ له. قلت: فهذا نص في النفي المذكور لا يقبل التأويل، وحمله على غالب الأوقات إنما يستقيم لو كان حديث الباب صريحَ الدلالة على أنه ﷺ قام تلك الليلة بتمامها. أما وهو ليس كذلك كما بينا، فالحمل المذكور مردود، ويبقى النفي المذكور سالمًا من التقييد. وبالتالي تبقى دلالته على عدم مشروعية قيام الليل كله قائمة، خلافًا لما ذهب إليه الشيخ عبد الحي في كتابه المذكور. وفيه كثير من المؤاخذات التي لا مجال لذكرها الآن» اهـ سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ١٤٨، ١٤٩).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، وَعَظِّمُوا أَمْرَهُ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَحْتَفِلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمِيلَادِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَيَأْتُونَ فِي احْتِفَالَاتِهِمْ بِالْأَعَاجِيبِ مِنَ الْمُخَالَفَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَتَبَرَّأَ مِنْ أَهْلِهَا؛ فَعَجَبًا لِهَذَا التَّنَاقُضِ حِينَ تُنْتَهَكُ أَوَامِرُهُ، وَتُرْتَكَبُ نَوَاهِيهِ فِي الِاحْتِفَالِ بِمِيلَادِهِ!

وَلَكِنَّ الْعَجَبَ يَزُولُ حِينَمَا تَعْلَمُ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- أَنَّ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا مَنْ يَزْعُمُونَ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ حُبًّا فِيهِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوهَا لِأَغْرَاضٍ فِي نُفُوسِهِمْ، وَمَنَافِعَ شَخْصِيَّةٍ يَجِدُونَهَا فِي تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، يُشْبِعُونَ بِهَا شَهَوَاتِهِمْ، وَيُحَقِّقُونَ رَغَبَاتِهِمْ، وَلَوْ صَدَقُوا فِي مَحَبَّتِهِمْ لَهُ؛ لَصَدَقُوا فِي مُتَابَعَتِهِمْ إِيَّاهُ. وَالْمُتَابَعَةُ تَقْتَضِي أَنْ لَا نَحِيدَ عَنْ سُنَّتِهِ قَيْدَ أُنْمُلَةٍ، وَالِاحْتِفَالُ بِمِيلَادِهِ مُخَالِفٌ لِسُنَّتِهِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَيَزْدَادُ الْعَجَبُ حِينَمَا تَرَى فِئَاتٍ مِنَ الْعَلْمَانِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ يَهْتَمُّونَ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، وَيُشِيدُونَ بِهَا، وَيَكْتُبُونَ عَنْهَا، بَلْ وَيُشَارِكُونَ أَهْلَهَا فِيهَا بِإِقَامَةِ النَّدَوَاتِ، وَإِلْقَاءِ الْمُحَاضَرَاتِ، وَعَقْدِ الْمُؤْتَمَرَاتِ لِإِحْيَاءِ ذِكْرَى مِيلَادِ الْمُصْطَفَى ﷺ، فَمَتَى عَرَفَ الْعَلْمَانِيُّونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟!

إِنَّهُمْ فِي أَحْزَابِهِمْ مِنَ الْيَمِينِ إِلَى الْيَسَارِ لَمْ يُظْهِرُوا سِوَى الْعَدَاءِ لِدِينِ

النَّبِيِّ ﷺ، وَلِلْمُتَمَسِّكِينَ بِهِ، يَسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَيَنَالُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَدُعَاتِهِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ شَرِيعَةً يَجِبُ أَنْ تَحْكُمَ النَّاسَ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْقُرْآنِ مُهَيْمِنًا عَلَى جَمِيعِ المِلَلِ وَالْأَفْكَارِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ إِسْلَامًا بِالِاسْمِ وَالرَّسْمِ وَالشَّعَائِرِ التَّعَبُّدِيَّةِ فَحَسْبُ. ثُمَّ تَرَاهُمْ يُشَجِّعُونَ مِثْلَ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ المُبْتَدَعَةِ، زَاعِمِينَ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَيْنَ هُمْ مِنْ أَوَامِرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟!

إِنَّهُمْ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ دِينِهِ وَشَرِيعَتِهِ، وَلَكِنَّهُمْ يَقُومُونَ بِذَلِكَ لِتَشْوِيهِ الدِّينِ الصَّحِيحِ، وَمَسْخِ السُّنَّةِ الثَّابِتَةِ، كَمَا فَعَلَ أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَرُهْبَانُ النَّصَارَى بِتَوْرَاتِهِمْ وَإِنْجِيلِهِمْ. فَمُنَافِقُونَا يُشِيدُونَ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ لِكَيْ تَكُونَ أُسًّا مِنْ أُسُسِ الْإِسْلَامِ، وَفِي جَانِبِهَا يُعَطَّلُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ حَتَّى يُقْضَى عَلَى الْإِسْلَامِ. فَهُمْ لَا يَزَالُونَ عَاجِزِينَ عَنْ إِبْعَادِ النَّاسِ عَنْ دِينِهِمْ مَا دَامَ صَحِيحًا مَبْثُوثًا بَيْنَ النَّاسِ، فَالدِّينُ الصَّحِيحُ يَجُرُّ النَّاسَ إِلَيْهِ جَرًّا؛ لِأَنَّهُ يُوَافِقُ فِطَرَهُمْ، بَيْنَا يَنْفِرُ النَّاسُ مِنَ الدِّينِ الْمُحَرَّفِ وَيُفَارِقُونَهُ، كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِأَدْيَانِهِمْ.

إِنَّ مُرَادَ الْعَلْمَانِيِّينَ بِتَشْجِيعِ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ الْبَاطِلَةِ اسْتِجْلَابُ صُورَةٍ مُزَوَّرَةٍ لِلْإِسْلَامِ؛ لِتَكُونَ مَحَلَّ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ، فَتُشْبِعَ بِشَعَائِرِهَا الْبَاطِلَةِ وَزَخَارِفِهَا الْمُزَيَّفَةِ تَدَيُّنَ الْعَامَّةِ، فَلَا يُطَالِبُونَ بِتَحْكِيمِ الْإِسْلَامِ الْحَقِّ.

إِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَائِمِينَ عَلَى تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ، وَالْمُنَظِّمِينَ لَهَا مِنْ دَرَاوِيشِ الصُّوفِيَّةِ وَضُلَّالِ الْمُبْتَدِعَةِ مِنْ أَقَلِّ النَّاسِ فِقْهًا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَضْعَفِهِمْ قُدْرَةً عَلَى إِدَارَةِ شُئُونِ النَّاسِ وَتَوْجِيهِهِمْ، وَأَحْرَصِهِمْ عَلَى تَحْقِيقِ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ. وَهَكَذَا هُمْ يُرِيدُونَ مِنْ جَمَاهِيرِ النَّاسِ أَنْ يَتَّبِعُوا هَذِهِ النَّوْعِيَّةَ مِنَ

الْمَحْسُوبِينَ عَلَى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالدِّينِ، حَتَّى يُسَيِّرُوهَا كَيْفَما يُرِيدُونَ لِهَدْمِ الْإِسْلَامِ، وَنَقْضِ عُرَاهُ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكْتُبَ مَقَالَةً فِي دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ مَنْ يُحَارِبُ الْإِسْلَامَ، وَلَا عَجَبَ أَنْ يَنْظِمَ الْحَدَاثِيُّ قَصِيدَةً فِي مَدْحِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِطْرَائِهِ، وَلَا عَجَبَ أَنْ يُلْقِيَ الْعَلْمَانِيُّ الْمُلْحِدُ مُحَاضَرَةً فِي سِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ يُحَارِبُ الْإِسْلَامَ جِهَارًا نَهَارًا، وَإِنَّنَا لَنُشَاهِدُ هَذَا التَّنَاقُضَ فِي احْتِفَالَاتِ الْمَوَالِدِ وَأَمْثَالِهَا، وَيَسُوغُ هَذَا التَّنَاقُضُ إِذَا عُلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ تَشْوِيهُ صُورَةِ الْإِسْلَامِ النَّاصِعَةِ بِتِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَالطُّقُوسِ الْمُبْتَدَعَةِ الْغَرِيبَةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ حُبَّ الرَّسُولِ ﷺ لَا يَكُونُ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَالِاحْتِفَالُ بِالْمِيلَادِ لَيْسَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا حُبِّ رَسُولِهِ ﷺ، بَلْ فِيهِ مُخَالَفَةُ أَمْرِهِمَا.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ؛ فَالدِّينُ الصَّحِيحُ هُوَ فِي الِاتِّبَاعِ لَا فِي الِابْتِدَاعِ، فَمَهْمَا كَانَ إِعْجَابُكَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُ- بِفِقْرَاتِ تِلْكَ الِاحْتِفَالَاتِ عَظِيمًا، وَمَهْمَا زَيَّنَهَا لَكَ الْمُبْتَدِعُونَ وَالْعَلْمَانِيُّونَ فَتَذَكَّرْ قَبْلَ الِاغْتِرَارِ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ عَلَى مَنْهَجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا صَحَابَتِهِ الْكِرَامِ، وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَأَيْنَ هُوَ الْخَيْرُ فِيهَا وَهِيَ تُخَالِفُ فِعْلَ أَفْضَلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَتْقَاهَا لِرَبِّهَا؟! فَاحْذَرُوهَا وَحَذِّرُوا النَّاسَ مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا وَالْمُعْجَبِينَ بِهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..

❁ ❁ ❁

٣٥٢- رحيل النبي ﷺ (١)
منِ ابتداء مرضه إلى وفاته

٩/ ٣/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ كَتَبَ المَوْتَ عَلَى الْأَحْيَاءِ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَبِالتَّدْبِيرِ وَالمُلْكِ، فَلَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ؛ لَوْ كُتِبَ الْبَقَاءُ فِي الدُّنْيَا لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لَكَانَ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخُلْدِ فِيهَا ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ؛ فَقَدُوا الْآبَاءَ وَالْأُمَّهَاتِ، وَالْأَوْلَادَ وَالزَّوْجَاتِ، وَالْإِخْوَانَ وَالْأَخَوَاتِ، وَمَا فُجِعُوا بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَقْدِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْحَذَرِ مِنَ الدُّنْيَا وَفِتْنَتِهَا؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ عَمَلٍ وَلَيْسَتْ دَارَ قَرَارٍ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، فَخُذُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَوْلِدُ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَعْثَتُهُ لِلنَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَهَادِيًا وَمُعَلِّمًا، ثُمَّ هِجْرَتُهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَبِنَاءُ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ؛ كَانَتْ أَحْدَاثًا هِيَ أَعْظَمُ الْأَحْدَاثِ فِي

تَارِيخِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، بَلْ فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، ثُمَّ كَانَتِ الْفَاجِعَةُ بِوَفَاتِهِ ﷺ أَكْبَرَ فَاجِعَةٍ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ.

وَقَبْلَ وَفَاتِهِ ﷺ عَلِمَ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَاقْتِرَابِ رَحِيلِهِ؛ فَوَدَّعَ أَصْحَابَهُ رضي الله عنهم فِي حَجَّتِهِ، وَقَالَ: «**لَعَلِّي لَا أَرَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[1]، وَأَلْمَحَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِذَلِكَ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ المَخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[2].

وَأَخْبَرَ بِذَلِكَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه لَمَّا بَعَثَهُ لِلْيَمَنِ فَجَعَلَ يُوصِيهِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ وَصِيَّتِهِ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هَذَا، أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي**» فَبَكَى مُعَاذٌ جَشَعًا -أَيْ: فَزَعًا- لِفِرَاقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. رَوَاهُ أَحْمَدُ[3].

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: مسلم في الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا، وبيان قوله ﷺ: «لتأخذوا مناسككم» (١٢٩٧)، وأبو داود في المناسك، باب في رمي الجمار (١٩٧٠)، والترمذي في الحج، باب ما جاء في الإفاضة من عرفات، وقال: حسن صحيح (٨٨٦)، والنسائي في مناسك الحج، باب الركوب إلى الجمار واستظلال المحرم (٥/ ٢٧٠)، وابن ماجه في المناسك، باب الوقوف بجمع (٣٠٢٣). وهذا لفظ الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة واللفظ له (٣٩٠٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه (٢٣٨٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥)، والطبراني في مسند الشاميين (٩٩١)، وأبو نعيم في معرفة =

وَصَرَّحَ بِهِ لِابْنَتِهِ فَاطِمَةَ ﵂ فَقَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلَا أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لِحَاقًا بِي**»(٤).

كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ مَرَضٌ شَدِيدٌ أَلَمَّ بِهِ، وَبِدَايَتُهُ سَنَةَ سَبْعٍ فِي فَتْحِ خَيْبَرَ؛ إِذْ سَمَّهُ الْيَهُودُ فِي شَاةٍ قَدَّمُوهَا لَهُ هَدِيَّةً، فَأَكَلَ مِنْهَا(٥)، وَمَا زَالَ أَثَرُ السُّمِّ فِيهِ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَوَّلُ مَا جَاءَهُ الْوَجَعُ عَلَى إِثْرِ عَوْدَتِهِ مِنْ جَنَازَةِ أَحَدِ الصَّحَابَةِ فِي الْبَقِيعِ؛ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالْبَقِيعِ، وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ! قَالَ: **بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ!** قَالَ: **مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟**، قُلْتُ: لَكِنِّي أَوْ لَكَأَنِّي بِكَ وَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بُدِئَ بِوَجَعِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ»(٦).

= الصحابة (٥٩٧٥)، والبيهقي (١٠/ ٨٦)، وصححه ابن حبان (٦٤٧)، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني وقال: إسناده جيد (١٠/ ٢٣١-٢٣٢).

(٤) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٤)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٥٠).

(٥) عن أنس بن مالك ﵁ أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا»، فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ، أخرجه البخاري في الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب قبول الهدية من المشركين (٢٦١٧)، ومسلم في السلام، باب السم (٢١٩٠).

(٦) أخرجه أحمد (٦/ ٢٢٨)، وابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته وغسل المرأة زوجها (١٤٦٥)، وصححه ابن حبان (٦٥٨٦)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: إسناد رجاله ثقات (١/ ٩٥).

وَلَمَّا أَحسَّ ﷺ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ اسْتَغْفَرَ لِلْأَمْوَاتِ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ فَقَالَ: **يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ** ﷺ **إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، فَانْطَلِقْ مَعِي**. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ قَالَ: **السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ المَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلَهَا آخِرُهَا، الْآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الْأُولَى**. قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: **يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي ﷻ وَالجَنَّةِ**. قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، قَالَ: **لَا وَاللَّهِ يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي ﷻ وَالجَنَّةَ**. ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي قَبَضَهُ اللهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَمَا لَبِثَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا سَبْعًا أَوْ ثَمَانِيًا حَتَّى قُبِضَ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[7].

وَكَمَا اسْتَغْفَرَ ﷺ لِأَهْلِ الْبَقِيعِ اسْتَغْفَرَ كَذَلِكَ لِشُهَدَاءِ أُحُدٍ ﷺ، وَوَدَّعَ الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتَ؛ كَمَا رَوَى عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ﷺ فَقَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ كَالمُوَدِّعِ لِلْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ، ثُمَّ طَلَعَ المِنْبَرَ فَقَالَ: **إِنِّي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَرَطٌ، وَأَنَا عَلَيْكُمْ شَهِيدٌ، وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الحَوْضُ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِي هَذَا، وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا**. قَالَ: فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[8].

---

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٩)، وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٦/ ٥٥)، وابن شبة في أخبار المدينة (٢٨١)، وصححه الحاكم وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٥٧)، وتعقبه الألباني في السلسلة الضعيفة فضعف الحديث وبين وهم الحاكم فيه (٦٤٤٧).

(٨) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٤٠٤٢)، ومسلم في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٦).

وَكَانَ فِي مَرَضِهِ يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ وَيَقُولُ: «**أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟**» حِرْصًا عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي سَكَنَ»، وَفِي رِوَايَةٍ يَقُولُ: «**أَيْنَ أَنَا غَدًا**»؛ اسْتِبْطَاءً لِيَوْمِ عَائِشَةَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٩].

وَلَمَّا ثَقُلَ ﷺ، وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، بَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَاجْتَمَعْنَ فَاسْتَأْذَنَهُنَّ أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ ﵂، وَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ، فَإِنْ رَأَيْتُنَّ أَنْ تَأْذَنَّ لِي فَأَكُونَ عِنْدَ عَائِشَةَ فَعَلْتُنَّ، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ ﷺ بَيْنَ الْعَبَّاسِ وَعَلِيٍّ ﵄ تَخُطُّ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ مِنْ شِدَّةِ مَرَضِهِ، حَتَّى دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ[١٠].

وَقَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»[١١]، وَهُوَ شِرْيَانٌ مُتَّصِلٌ بِالْقَلْبِ[١٢].

---

(٩) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة ﵂ (٣٧٧٤)، ومسلم في فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها (٢٤٤٣).

(١٠) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٢)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس، وأن من صلى خلف إمام جالس لعجزه عن القيام لزمه القيام إذا قدر عليه، ونسخ القعود خلف القاعد في حق من قدر على القيام (٤١٨).

(١١) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري معلقًا مجزومًا به في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٨)، ووصله الحاكم وصححه، وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٦٠).

وقال الحافظ ابن حجر: «وهذا قد وصله البزار والحاكم والإسماعيلي من طريق عنبسة بن خالد عن يونس بهذا الإسناد، وقال البزار: تفرد به عنبسة عن يونس، أي: بوصله وإلا فقد رواه موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري لكنه أرسله، وله شاهدان مرسلان أيضًا أخرجهما إبراهيم الحربي في غرائب الحديث له، أحدهما من طريق يزيد بن رومان، والآخر من رواية أبي جعفر الباقر، وللحاكم موصول من حديث أم مبشر قالت: قلت: يا رسول الله، ما تتهم بنفسك فأني لا أتهم بابني إلا الطعام الذي أكل بخيبر، وكان ابنها بشر بن البراء بن معرور مات فقال: وأنا لا أتهم غيرها، وهذا أوان انقطاع أبهري» فتح الباري (٨/ ١٣١).

(١٢) قال القاضي عياض: «وَالْأَبْهَر عرق يكتنف الصلب وَالْقلب مُتَّصِل بِهِ، فَإِذا انْقَطع فَلَا =

وَاشْتَدَّتْ حَرَارَةُ جَسَدِهِ ﷺ مِنَ الْمَرَضِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رضي الله عنه وَهُوَ يُوعَكُ قَالَ: «فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدِي فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ!» قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ**»(١٣).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَصِفُ وَجَعَهُ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٤).

وَآخِرُ صَلَاةٍ أَمَّ النَّاسَ فِيهَا كَانَتْ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ؛ كَمَا رَوَتْ أُمُّ الْفَضْلِ بِنْتُ الْحَارِثِ رضي الله عنها فَقَالَتْ: «خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ فِي مَرَضِهِ، فَصَلَّى الْمَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالْمُرْسَلَاتِ، قَالَتْ: فَمَا صَلَّاهَا بَعْدُ حَتَّى لَقِيَ اللهَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ(١٥).

= حَيَاة لصَاحبه» مشارق الأنوار (١/ ١٠٢)، وينظر الغريب لابن الجوزي (١/ ٩٢).
وقال ابن الأثير: «الأبهر عرق في الظهر، وهما أبهران. وقيل: هما الأكحلان اللذان في الذراعين. وقيل: هو عرق مستبطن القلب، فإذا انقطع لم تبق معه حياة. وقيل: الأبهر عرق منشؤه من الرأس ويمتد إلى القدم، وله شرايين تتصل بأكثر الأطراف والبدن، فالذي في الرأس منه يسمى النأمة، ومنه قولهم: أسكت الله نأمته، أي: أماته، ويمتد إلى الحلق فيسمى فيه الوريد، ويمتد إلى الصدر فيسمى الأبهر، ويمتد إلى الظهر فيسمى الوتين، والفؤاد معلق به، ويمتد إلى الفخذ فيسمى النسا، ويمتد إلى الساق فيسمى الصافن» النهاية (١/ ١٨).

(١٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٢٤)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة فقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (٤/ ١٨٨)، والألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٤).

(١٤) أخرجه البخاري في المرضى، باب شدة المرض (٥٦٤٦)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٠).

(١٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٩)، ومسلم في =

فَلَمَّا حَضَرَتِ الْعِشَاءُ مَا قَدَرَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ شِدَّةِ مَرَضِهِ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. قَالَتْ: فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. قَالَتْ: فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** قُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: **ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**. فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: **أَصَلَّى النَّاسُ؟** فَقُلْنَا: لا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسْجِدِ، يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ ﵇ لِصَلاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ . . . فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ -قَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ مِنَ الْوَجَعِ- خَرَجَ لِصَلاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٦].

وَاشْتَدَّ بِهِ ﷺ المَرَضُ عَقِبَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، وَظَلَّ أَبُو بَكْرٍ ﵁

= الصلاة، باب القراءة في الصبح (٤٦٢)، وأبو داود في الصلاة، باب قدر القراءة في المغرب (٨١٠)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في القراءة في المغرب (٣٠٨)، والنسائي في الافتتاح، باب القراءة في المغرب بالمرسلات (٢/ ١٦٨)، وابن ماجه في الإقامة، باب القراءة في صلاة المغرب (٨٣١).

(١٦) أخرجه البخاري في الأذان، باب إنما جعل الإمام ليؤتم به (٦٨٧)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما من يصلي بالناس (٤١٨).

يُصَلِّي بِالنَّاسِ، وَمَكَثَ فِي مَرَضِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ يَوْمًا(١٧). وَكَانَ عِنْدَهُ بِضْعَةُ دَنَانِيرَ، فَسَأَلَ عَنْهَا عَائِشَةَ، فَقَالَتْ رضي الله عنها: هِيَ عِنْدِي، قَالَ: «**تَصَدَّقِي بِهَا**. قَالَتْ: فَشُغِلْتُ بِهِ، ثُمَّ قَالَ: **يَا عَائِشَةُ مَا فَعَلَتْ تِلْكَ الذَّهَبُ**؟ فَقُلْتُ: هِيَ عِنْدِي، فَقَالَ: **ائْتِنِي بِهَا**. قَالَتْ: فَجِئْتُ بِهَا فَوَضَعَهَا فِي كَفِّهِ، ثُمَّ قَالَ: **مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟! مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ أَنْ لَوْ لَقِيَ اللهَ وَهَذِهِ عِنْدَهُ؟! أَنْفِقِيهَا**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ﷺ: «**ابْعَثِي بِهَا إِلَى عَلِيٍّ**، فَتَصَدَّقَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِهَا»(١٨).

وَفِي آخِرِ لَيْلَةٍ لَهُ فِي الدُّنْيَا -وَهِيَ لَيْلَةُ الاثْنَيْنِ- أَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جَدِيدِ المَوْتِ -وَهُوَ أَوَّلُهُ- وَانْتَهَى وَقُودُ سِرَاجِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَأَرْسَلَتْ بِمِصْبَاحٍ لَها إِلَى امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهَا فَقَالَتْ: اهْدِي لَنَا فِي مِصْبَاحِنَا مِنْ عُكَّتِكِ السَّمْنَ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْسَى فِي جَدِيدِ المَوْتِ(١٩).

---

(١٧) ينظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٢٣٥)، والأنس الجليل (١/ ٢١٨).

وقال المحب الطبري: «وكانت مدة مرضه اثني عشر يومًا، وقيل: أربعة عشر، وكان مرضه بالصداع» خلاصة سير سيد البشر (١٧٨).

وقال ابن رجب في فتح الباري: «وكانت مدة مرضه فوق عشرة أيام» (٢/ ٥٥٣).

وقال ابن حجر: «واختلف في مدة مرضه؛ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه، ... وقيل: عشرة أيام، وبه جزم سليمان التيمي في مغازيه، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح» فتح الباري (٨/ ١٢٩).

(١٨) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٨)، وأحمد (٦/ ٤٩ و١٨٢)، وصححه ابن حبان (٧١٥)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه أحمد بأسانيد، ورجال أحدها رجال الصحيح (١٠/ ٢٣٩-٢٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠١٤).

(١٩) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن سعد في الطبقات (٢/ ٢٣٩)، والطبراني في الكبير (٦/ ١٩٨) رقم (٥٩٩٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٣/ ١٢٤). وجديد الموت: أوله كما قال الأخفش والمغافص الباهلي. ينظر: اللسان (٣/ ١١٢) وتاج العروس (٧/ ٤٨٢).

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ ابْنَتُهُ فَاطِمَةُ رضي الله عنها وَهُوَ يَجِدُ مِنْ كَرْبِ الْمَوْتِ مَا يَجِدُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها: «وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ! فَقَالَ ﷺ: **لَا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ، إِنَّهُ قَدْ حَضَرَ مِنْ أَبِيكِ مَا لَيْسَ بِتَارِكٍ مِنْهُ أَحَدًا، الْمُوَافَاةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه[٢٠].

وَعَرَفَ الْعَبَّاسُ رضي الله عنه فِي وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَوْتَ، وَقَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا، إِنِّي لَأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٢١].

وَلَمَّا أَصْبَحَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالصَّحَابَةُ رضي الله عنهم صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ، قَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ - أَيْ: عِبَارَةٌ عَنِ الْجَمَالِ الْبَارِعِ، وَحُسْنِ الْبَشَرَةِ، وَصَفَاءِ الْوَجْهِ وَاسْتِنَارَتِهِ- ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا، قَالَ: فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ -وَفِي رِوَايَةٍ: فَهَمَمْنَا أَنْ نُفْتَتَنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ- وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَرْخَى السِّتْرَ»[٢٢]، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، وَرَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا**

---

(٢٠) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٢٩)، والترمذي في الشمائل (٣٩٨)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٥٦٤)، وابن زبر الربعي في وصايا العلماء (٢٨)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: حسن صحيح (١٧٣٨).

(٢١) أخرجه من حديث ابن عباس عن علي رضي الله عنهم: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٧)، وأحمد (١/ ٢٦٣).

(٢٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٦٨٠)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٩).

أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي»[٢٣].

وَغُشِيَ عَلَيْهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ ﵂، فَجَعَلَتْ عَائِشَةُ تَقْرَأُ عَلَيْهِ الْمُعَوِّذَاتِ وَتَنْفُثُ، وَتَدْعُو لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَأَفَاقَ وَسَمِعَهَا تَدْعُو بِشِفَائِهِ، فَقَالَ ﷺ: «**لَا، بَلْ أَسْأَلُ اللهَ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى مَعَ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ**»، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**. فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[٢٤].

وَدَخَلَ أَخُوهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِهَا، وَمَعَ عَبْدِالرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ، فَأَبَدَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَصَرَهُ، قَالَتْ ﵂: «فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَضَمْتُهُ وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ، وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: **فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**. حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ»[٢٥]. وَفِي رِوَايَةٍ: «فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ

---

(٢٣) هذه الرواية من حديث عائشة ﵂ عند: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨)، وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وصححها الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠).

(٢٤) أصل الحديث في الصحيحين: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة ﵂ (٢٤٤٤)، وهذا السياق لابن حبان (٦٥٩٠-٦٥٩١-٦٥٩٢).

(٢٥) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**. ثُمَّ قَضَى، وَكَانَتْ رضي الله عنها تَقُولُ: مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي»[٢٦]، قَالَتْ: «فَلَا أَكْرَهُ شِدَّةَ المَوْتِ لِأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ»[٢٧]، قَالَتْ: «فَخَرَجَتْ مِنْ فِيهِ نُطْفَةٌ بَارِدَةٌ فَوَقَعَتْ عَلَى ثُغْرَةِ نَحْرِي فَاقْشَعَرَّ لَهَا جِلْدِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ غُشِيَ عَلَيْهِ فَسَجَّيْتُهُ ثَوْبًا»[٢٨]، قَالَتْ: «فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا»[٢٩]، «وَسُجِّيَ ﷺ بِثَوْبِ حِبَرَةٍ»[٣٠].

وَمَاتَ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَأَزْكَى الْبَشَرِيَّةِ، خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَكَانَتِ الْمُصِيبَةُ بِهِ أَعْظَمَ الْمُصِيبَةِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَقَعَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزُّمر: ٣٠] فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ اكْتُبْ أَجْرَنَا وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ فِي الْمُصِيبَةِ بِهِ، وَاخْلُفْ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا، وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَأَوْرِدْنَا حَوْضَهُ، وَاسْقِنَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ كَأْسًا لَا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَارْزُقْنَا مُرَافَقَتَهُ فِي الْجَنَّةِ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...

❁ ❁ ❁

---

(٢٦) هذه الرواية من حديث عائشة رضي الله عنها للبخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٨).

(٢٧) هذه الرواية من حديث عائشة رضي الله عنها للبخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٦).

(٢٨) هذه الرواية لأحمد (٦/ ٢١٩)، وإسحاق بن راهويه (١٣٣٣)، وابن سعد (٢/ ٢٦١).

(٢٩) هذه الرواية لأحمد (٦/ ١٢١)، ومن طريقه البيهقي في الدلائل (٧/ ٢١٣)، قال ابن كثير في سيرته: «وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة» (٤/ ٤٧٨).

(٣٠) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: مسلم في الجنائز، باب تسجية الميت (٩٤٢).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ عَلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَالشُّكْرُ لَهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَلُطْفِهِ، لَا يَقْضِي قَضَاءً لِمُؤْمِنٍ إِلَّا وَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: جَمَعَ اللهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالشَّهَادَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ بِالسُّمِّ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «لِأَنْ أَحْلِفَ تِسْعًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُتِلَ قَتْلًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ وَاحِدَةً أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلْ، وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ جَعَلَهُ نَبِيًّا وَاتَّخَذَهُ شَهِيدًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ(٣١).

وَالْيَهُودِيَّةُ الَّتِي سَمَّتِ النَّبِيَّ ﷺ مَا فَعَلَتْ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ مَلَإٍ مِنْ سَادَتِهَا وَكِبَارِ قَوْمِهَا مِنْ رُؤُوسِ الْيَهُودِ؛ حَسَدًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَحَسَدًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ بُعِثَ خَاتَمُ الرُّسُلِ مِنْهَا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ**. فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: **إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟** فَقَالُوا: نَعَمْ . . . قَالَ: **هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟** قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟** قَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٣٢).

وَمَنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَنْ يَتَوَرَّعُوا عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ بِالْمُسْلِمِينَ،

---

(٣١) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٨)، والطبراني في الكبير (١٠/ ١٠٩) رقم (١٠١١٩)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٣/ ٦٠).

(٣٢) أخرجه البخاري في الجزية، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يعفى عنهم (٣١٦٩).

وَشَوَاهِدُ ذَلِكَ مَاثِلَةٌ لِلْعِيَانِ فِي فِلَسْطِينَ، فَهُمْ أَعْدَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ شَايَعَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ النَّصَارَى فَهُمْ أَعْدَاءُ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا، وَإِنْ أَرَادَ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَاهِلُونَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَزَعَمُوا صَدَاقَتَهُمْ وَأُخُوَّتَهُمْ، وَحَسَّنُوا لَدَى الْمُسْلِمِينَ صُورَتَهُمْ؛ فَإِنَّ الْأَحْدَاثَ تَفْضَحُهُمْ، وَضَغَائِنُهُمْ عَلَيْنَا تَبْدُو مِنْهُمْ، وَمَنْ وَالَى النَّبِيَّ ﷺ وَأَحَبَّهُ عَادَى أَعْدَاءَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ وَكَرِهَهُمْ، وَامْتَلَأَ قَلْبُهُ بِالْغَيْظِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَقَتْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَمُعَادَاتِهِمْ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ عليهم السلام، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَإِنْ كَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ؛ إِذْ كَيْفَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنُ مَنْ كَفَرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُ عليهم السلام.

إِنَّ الْحُزْنَ عَلَى فَقْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّعْبِيرَ عَنْ مَحَبَّتِهِ لَنْ يَكُونَ فِي الِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِهِ أَوْ بَعْثَتِهِ أَوْ إِسْرَائِهِ أَوْ هِجْرَتِهِ، أَوِ اخْتِرَاعِ بِدَعٍ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَكِنَّ التَّعْبِيرَ الصَّادِقَ عَنْ مَحَبَّتِهِ يَكُونُ فِي مُوَالَاتِهِ وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ.

يَكُونُ فِي اقْتِفَاءِ أَثَرِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِهِ، وَالْتِزَامِ هَدْيِهِ، وَلَئِنْ فَقَدْنَا نَبِيَّنَا ﷺ وَلَمْ نَرَهُ، فَإِنَّ سُنَّتَهُ بَيْنَ أَيْدِينَا، فَمَنْ يَلْتَزِمُهَا؟ مَنْ؟ مَحَبَّةً لَهُ وَلِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى، وَمَا أَسْهَلَ ادِّعَاءَ مَحَبَّتِهِ ﷺ! وَلَكِنْ عِنْدَ التَّطْبِيقِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا الْقَلَائِلُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ الَّذِينَ يُجَانِبُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى وَإِنِ اشْتَهَتْهُ نُفُوسُهُمْ، وَوَلَغَ فِيهِ غَيْرُهُمْ؛ مَحَبَّةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِهِ، وَاجْتِنَابًا لِنَهْيِهِ. وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُحِبِّينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ هُمْ مَنْ يَسْأَلُونَ عَنْ سُنَّتِهِ وَيَتَعَلَّمُونَهَا، وَيَدْرُسُونَ حَدِيثَهُ وَيَحْفَظُونَهُ؛ لِيَعْمَلُوا بِهَا، وَلِيُعَلِّمُوهَا غَيْرَهُمْ، وَيَدْعُوا النَّاسَ إِلَى امْتِثَالِهَا.

إِنَّهُمْ مَنْ يُدْمِنُونَ عَلَى قِرَاءَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَلِّهِ وَتَرْحَالِهِ، وَسَفَرِهِ وَغَزَوَاتِهِ، وَهَدْيِهِ وَعِبَادَاتِهِ، وَأَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ، فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أُسْرَتِهِ وَمَعَ أَصْحَابِهِ وَمَعَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ؛ لِيَتَلَمَّسُوا السُّنَنَ، وَيَقْتَفُوا الْأَثَرَ؛ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِمْ لَهُ، وَشَوْقِهِمْ إِلَيْهِ، فَلَا يَشْغَلُهُمْ عَنْ سِيرَتِهِ وَأَخْبَارِهِ شَاغِلٌ .. لَا تَسْتَغْنِي قُلُوبُهُمْ عَنْهَا، وَلَا يَسْتَبْدِلُونَ غَيْرَهَا بِهَا.

فَانْظُرُوا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- هَلْ أَنْتُمْ كَذَلِكَ؟ فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَاهُ، وَلْيَسْأَلْهُ الثَّبَاتَ، وَلْيَزْدَدْ خَيْرًا إِلَى خَيْرِهِ، وَمَنْ كَانَ مُقَصِّرًا فَلْيُرَاجِعْ نَفْسَهُ، وَلْيُدْرِكْ مَا بَقِيَ مِنْ أَيَّامِهِ، وَلْيُعَوِّضْ مَا مَضَى مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّتِهِ وَسِيرَتِهِ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي حَيَاتِهِ بِالْتِزَامِ سُنَّتِهِ، وَقِرَاءَةِ سِيرَتِهِ، وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِ، وَسَعِدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالشُّرْبِ مِنْ حَوْضِهِ، وَبِمُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ حُجِزَ عَنْ حَوْضِهِ لِتَقْصِيرِهِ وَإِحْدَاثِهِ وَتَبْدِيلِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

❊ ❊ ❊

٣٥٣- رحيل النبي ﷺ (٢)
الوفاة والدفن والحزن

١١/٣/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْقَيُّومِ الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ؛ كَتَبَ الْمَوْتَ عَلَى الْأَحْيَاءِ، وَتَفَرَّدَ بِالْعِزِّ وَالْبَقَاءِ، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الْعَظِيمَةِ، وَآلَائِهِ الْجَسِيمَةِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحمن: ٢٧]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا وُتِرَتْ أُمَّتُهُ بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ وَتْرِهَا بِهِ، فَبَكَتْهُ الْقُلُوبُ قَبْلَ الْعُيُونِ، وَفَقَدَهُ أَزْوَاجُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَبِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا، كَمْ مِنْ خَيْرٍ نَالَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِدَعْوَتِهِ؟! وَكَمْ مِنْ عَذَابٍ رُفِعَ عَنْهُمْ بِاسْتِغْفَارِهِ وَمَسْأَلَتِهِ؟! فَهُوَ أَمَانُهُمْ مَا دَامَ فِيهِمْ، فَلَمَّا قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بَقِيَ فِيهِمْ مَا عَلَّمَهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنِ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ مَا فَرِحُوا بِشَيْءٍ أَعْظَمَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَمَا حَزِنُوا عَلَى شَيْءٍ أَشَدَّ مِنْ حُزْنِهِمْ لَمَّا فَقَدُوهُ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَوْ كَانَ لَهَا وَزْنٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لَأَنَالَهَا أَحَبَّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ، وَأَخْلَصَهُمْ لَهُ، النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَهَا دَارَ امْتِحَانٍ وَبَلَاءٍ، وَمَهْمَا طَالَ عُمْرُ الْوَاحِدِ فِيهَا فَهُوَ مُفَارِقُهَا إِلَى دَارِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، وَلَا نَجَاةَ لَهُ إِلَّا بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ، وَقَدْ خَاطَبَ اللهُ تَعَالَى خِيرَةَ خَلْقِهِ وَأَفْضَلَ رُسُلِهِ ﷺ بِذَلِكَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا

لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] فَتَزَوَّدُوا -عِبَادَ اللَّهِ- مِنْ دُنْيَاكُمْ لِأُخْرَاكُمْ، وَمِنْ حَيَاتِكُمْ لِمَوْتِكُمْ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى دِينَهُ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ، وَرَضِيَ دِينَهُ لِعِبَادِهِ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ ﷺ مَا كُلِّفَ بِإِبْلَاغِهِ؛ أَذِنَ سُبْحَانَهُ بِقَبْضِ رَسُولِهِ، وَأَعْلَمَهُ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، فَحَجَّ بِالنَّاسِ حَجَّةَ الْوَدَاعِ، وَعَلَّمَهُمْ مَنَاسِكَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا بِمَكَانِي هَذَا**»[١]، وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ ﷺ: «**لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**»[٢]. وَخَصَّ بَعْضَ أَصْحَابِهِ وَبَعْضَ أَهْلِ بَيْتِهِ فَصَرَّحَ لَهُمْ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَقُرْبِ وَفَاتِهِ، وَعَرَّضَ لِعَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا، فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَبَكَى، وَفَدَاهُ بِالآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَخَفِيَتْ عَلَى غَيْرِهِ.

كَانَ الْيَهُودُ فِي خَيْبَرَ قَدْ وَضَعُوا لَهُ ﷺ السُّمَّ فِي شَاةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا، مُدَّعِينَ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ كَانَ كَذَّابًا ارْتَاحُوا مِنْهُ حَسَبَ زَعْمِهِمْ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ لَمَّا ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ، فَأَثَّرَ فِيهِ ذَلِكَ السُّمُّ، وَلَا يَزَالُ يَجِدُ أَثَرَهُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ؛ بِصُدَاعٍ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ حَتَّى يَعْصِبَ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ[٣]، وَحُمَّى تَأْخُذُهُ حَتَّى يُفْرِغَ عَلَى نَفْسِهِ سَبْعَ قِرَبٍ يُخَفِّفُهَا[٤].

وَاشْتَدَّ بِهِ ﷺ الْمَرَضُ فَثَقُلَ عَنِ الصَّلَاةِ بِالنَّاسِ، وَوَكَّلَ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بِالنِّيَابَةِ

---

(١) رواه من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه: أحمد (٤/ ٨٢)، والدارمي واللفظ له (٢٢٧).

(٢) رواه من حديث جابر رضي الله عنه: مسلم (١٢٩٧).

(٣) انظر في ذلك: حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٦٧٩١)، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري أيضًا (٨٨٥).

(٤) انظر: حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (١٩٥).

عَنْهُ. وَآخِرُ صَلَاةٍ أَمَّ النَّاسَ فِيهَا كَانَتْ صَلَاةَ المَغْرِبِ قَرَأَ فِيهَا بِالمُرْسَلَاتِ(٥).

وَفِي آخِرِ لَحَظَاتِهِ خُيِّرَ ﷺ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ ﵂ قَالَتْ: «كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَبِيٌّ حَتَّى يُخَيَّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَأَخَذَتْهُ بُحَّةٌ يَقُولُ: «**مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**» قَالَتْ: فَظَنَنْتُهُ خُيِّرَ حِينَئِذٍ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦).

وَبَاتَ ﷺ لَيْلَةَ الِاثْنَيْنِ وَقَدْ بَدَأَهُ المَوْتُ، ورَأَى ذَلِكَ مِنْهُ عَمُّهُ الْعَبَّاسُ وَزَوْجُهُ عَائِشَةُ ﵂(٧)، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَجَدَ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً وَنَشَاطًا، فَأَرْخَى سِتْرَ حُجْرَتِهِ يَنْظُرُ إِلَى أَصْحَابِهِ ﵃ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ، فَتَبَسَّمَ فَرِحًا بِمَا رَأَى مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، وَاجْتِمَاعِ أَمْرِهِمْ، وَتَآلُفِ قُلُوبِهِمْ. وَفَرِحُوا هُمْ ﵃ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَظَنُّوا أَنَّهُ خَارِجٌ إِلَيْهِمْ، فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ فِي الصَّفِّ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبْقَى، ثُمَّ أَرْخَى ﷺ السِّتْرَ(٨).

وَلَمَّا اشْتَدَّ الضُّحَى، وَارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ حَضَرَهُ المَوْتُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ عُلْبَةٌ بِهَا مَاءٌ، فَكَانَ يُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِهِ سَكَرَاتِ المَوْتِ بِالمَاءِ، فَيُدْخِلُ يَدَهُ فِي المَاءِ،

---

(٥) كما في حديث أم الفضل بنت الحارث ﵂ عند: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٩)، ومسلم في الصلاة، باب القراءة في الصبح (٤٦٢)

(٦) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة ﵂ (٢٤٤٤)

(٧) ينظر خبر ذلك في الخطبة الماضية ص(٧٣).

(٨) كما في حديث أنس ﵁ عند: البخاري في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة (٦٨٠)، ومسلم في الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٩).

فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ»[٩].

قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: «وَوَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَثْقُلُ فِي حِجْرِي، قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا بَصَرُهُ قَدْ شَخَصَ وَهُوَ يَقُولُ: «بَلِ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ»، فَقُلْتُ: خُيِّرْتَ فَاخْتَرْتَ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ! قَالَتْ: وَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١٠].

وَحَوَّلَتْهُ عَائِشَةُ ﵂ مِنْ حِجْرِهَا إِلَى وِسَادَةٍ[١١]، وَسَجَّتْهُ بِثَوْبِ حِبَرَةٍ[١٢]، وَهِيَ مِنْ ثِيَابِ الْيَمَنِ، وَحَزِنَتْ أَشَدَّ الْحُزْنِ، وَبُهِتَتْ بِمَا رَأَتْ.

وَأَوَّلُ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ﷺ: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَالمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ﵄، اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ فَأَذِنَتْ لَهُمَا، وَجَذَبَتْ إِلَيْهَا الْحِجَابَ، «فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَاغْشَيَاهْ! مَا أَشَدَّ غَشْيَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! ثُمَّ قَامَا، فَلَمَّا دَنَوَا مِنَ الْبَابِ قَالَ الْمُغِيرَةُ: يَا عُمَرُ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! قَالَ: كَذَبْتَ، بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ تَحُوسُكَ فِتْنَةٌ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُفْنِيَ اللهُ ﷻ المُنَافِقِينَ»[١٣].

وَبَدَأَ النَّاسُ يَتَنَاقَلُونَ خَبَرَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عُمَرُ ﵁: «وَاللَّهِ لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ إِلَّا ضَرَبْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا». وَكَانَ النَّاسُ أُمِّيِّينَ

---

(٩) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٤٩).

(١٠) رواه أحمد (٦/ ٢٧٤)، وأصله في الصحيحين: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٥)، ومسلم في الفضائل، باب في فضل عائشة ﵂ (٢٤٤٤).

(١١) رواه أحمد (٦/ ٢٧٤).

(١٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب تسجية الميت (٩٤٢).

(١٣) رواه من حديث عائشة ﵂: أحمد (٦/ ٢١٩)، وإسحاق بن راهويه (١٣٣٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد ثقات (٩/ ٣٣).

لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَهُ فَأَمْسَكَ النَّاسُ(١٤).

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فِي مَنْزِلِهِ الَّذِي بِالسُّنُحِ مِنْ عَوَالِي المَدِينَةِ، فَجَاءَ رضي الله عنه عَلَى فَرَسِهِ وَعُمَرُ قَائِمٌ فِي المَسْجِدِ يَخْطُبُ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَائِشَةَ فَرَفَعْتِ الْحِجَابَ، فَنظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «إِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ! ثُمَّ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَانَبِيَّاهْ! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ حَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: وَاصَفِيَّاهْ! ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَحَدَرَ فَاهُ وَقَبَّلَ جَبْهَتَهُ، وَقَالَ: وَاخَلِيلَاهْ! مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا»(١٦).

خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مِنْ حُجْرَةِ عَائِشَةَ وَعُمَرُ رضي الله عنه يَخْطُبُ فِي النَّاسِ وَيَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى، فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ المُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ، يَزْعُمُونَ -أَوْ قَالَ: يَقُولُونَ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ»(١٧).

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: «أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْلِكَ! فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ

---

(١٤) رواه من حديث سالم بن عبيد -وكان من أهل الصفة- رضي الله عنه: عبد بن حميد (٣٦٥)، والنسائي في الكبرى (٧١١٩)، والترمذي في الشمائل(٣٩٧)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٢٩٩).

(١٥) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٣).

(١٦) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» (٣٦٦٧).

(١٧) رواه من حديث أنس رضي الله عنه: أحمد (٣/١٩٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٢٠).

جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ﴾ فَنَشَجَ الناس يَبْكُونَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٨].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ فَمَا يُسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوهَا»[١٩].

وَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: وَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؟! مَا شَعَرْتُ أَنَّهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى!![٢٠].

وَفِي رِوَايَةٍ: قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا، فَعُقِرْتُ حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٢١].

قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّمَا كَانَتْ عَلَى وُجُوهِنَا أَغْطِيَةٌ فَكُشِفَتْ»[٢٢].

وَانْشَغَلَ النَّاسُ يَوْمَهُمْ ذَاكَ بِمُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه بِالْخِلَافَةِ.

---

(١٨) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٦).

(١٩) رواه البخاري في الجنائز، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤١).

(٢٠) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٣).

(٢١) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٥٤).

(٢٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٧)، والبزار (١٠٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير علي بن المنذر وهو ثقة (٩/ ٣٨).

فَلَمَّا أَصْبَحُوا يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ «أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي، أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا أَمْ نُغَسِّلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ النَّوْمَ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لَا يَدْرُونَ مَنْ هُوَ: أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَسَّلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ، يَصُبُّونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ، وَيُدَلِّكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَّلَهُ إِلَّا نِسَاؤُهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٢٣).

وَأَمَرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَنْ يُغَسِّلَهُ بَنُو أَبِيهِ(٢٤)؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَغَسَّلَهُ عَلِيٌّ وَالْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَشُقْرَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٢٥).

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «لَمْ يُخْتَلَفْ فِي أَنَّ الَّذِينَ غَسَّلُوهُ عَلِيٌّ وَالْفَضْلُ بْنُ عَبَّاسٍ، وَاخْتُلِفَ فِي الْعَبَّاسِ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَقُثَمَ بْنِ الْعَبَّاسِ وَشُقْرَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ شَهِدُوا غُسْلَهُ، وَقِيلَ: لَمْ يُغَسِّلْهُ غَيْرُ عَلِيٍّ، وَالْفَضْلُ كَانَ يَصُبُّ الْمَاءَ وَعَلِيٌّ يُغَسِّلُهُ، وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ قَدْ تَنَازَعُوا ذَلِكَ، فَصَاحَ أَبُو بَكْرٍ: يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، كُلُّ قَوْمٍ أَوْلَى بِجَنَائِزِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَانْطَلَقَ الْأَنْصَارُ إِلَى الْعَبَّاسِ فَكَلَّمُوهُ، فَأَدْخَلَ مَعَهُمْ أَوْسَ بْنَ خَوْلِيٍّ، وَكَانَ الْفَضْلُ وَالْعَبَّاسُ يُقَلِّبَانِهِ وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَقُثَمُ يَصُبَّانِ الْمَاءَ عَلَى عَلِيٍّ رحمه الله.

---

(٢٣) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: أبو داود في الجنائز، باب في ستر الميت عند غسله (٣١٤١)، وصححه ابن حبان (٦٦٢٨).

(٢٤) قطعة من الحديث المخرج في حاشية (١٤).

(٢٥) رواه عن الشعبي -رحمه الله تعالى-: أبو داود في الجنائز، باب كم يدخل القبر (٣٢٠٩).
ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في الكبير (١٠/٣٢٦) رقم (١٠٧٩٩)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤٦٤).

وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ: «أَنَّ الْعَبَّاسَ كَانَ بِالْبَابِ لَمْ يَحْضُرِ الْغُسْلَ يَقُولُ: لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَحْضُرَهُ إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أُرَاهُ ﷺ يَسْتَحِيي أَنْ يَرَانِي أَرَاهُ حَاسِرًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ جَمِيعِ صَحَابَتِهِ وَأَزْوَاجِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا»اهـ[٢٦].

قَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «غَسَّلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونُ مِنَ المَيِّتِ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، وَكَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا ﷺ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ[٢٧].

ثُمَّ كَفَّنُوهُ ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سُحُولِيَّةٍ، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ[٢٨].

وَقَالَ الصَّحَابَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: «يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، أَيُصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، ثُمَّ يَدْخُلُ قَوْمٌ فَيُكَبِّرُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ، حَتَّى يَدْخُلَ النَّاسُ. قَالُوا: يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ، أَيُدْفَنُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَيْنَ؟ قَالَ: فِي المَكَانِ الَّذِي قَبَضَ اللهُ فِيهِ رُوحَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ إِلَّا فِي مَكَانٍ طَيِّبٍ»رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ[٢٩].

فَحَفَرُوا لَهُ فِي المَكَانِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَلَحَدَ قَبْرَهُ الَّذِي يَشُقُّ لُحُودَ قُبُورِ الشُّهَدَاءِ رضي الله عنهم[٣٠]، وَنَزَلَ فِي قَبْرِهِ ﷺ: الْعَبَّاسُ وَعَلِيٌّ وَالْفَضْلُ وَقُثَمُ ابْنَا الْعَبَّاسِ،

---

(٢٦) التمهيد (٢٤/ ٤٠٢).

(٢٧) رواه البزار (٥١٩)، والبيهقي (٤/ ٥٣)، والحاكم، وصححه، وقال: على شرط الشيخين (٣/ ٦١).

(٢٨) كما في حديث عائشة رضي الله عنها: عند البخاري في الجنائز، باب موت يوم الاثنين (١٣٢١)، ومسلم في الجنائز باب في كفن الميت رقم (٩٤١).

(٢٩) هذا جزء من حديث سالم بن عبيد رضي الله عنه المخرج في حاشية (١٤).

(٣٠) رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن الجارود (٥٤٦)، وصححه ابن حبان (٦٥٩٩).

وَأُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ.

فَلَمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ ﷺ، قَالَ الْمُغِيرَةُ: «قَدْ بَقِيَ مِنْ رِجْلَيْهِ شَيْءٌ لَمْ يُصْلِحُوهُ، قَالُوا: فَادْخُلْ فَأَصْلِحْهُ، فَدَخَلَ وَأَدْخَلَ يَدَهُ، فَمَسَّ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: أَهِيلُوا عَلَيَّ التُّرَابَ، فَأَهَالُوا عَلَيْهِ التُّرَابَ، حَتَّى بَلَغَ أَنْصَافَ سَاقَيْهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَكَانَ يَقُولُ: أَنَا أَحْدَثُكُمْ عَهْدًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٣١).

وَدُفِنَ ﷺ لَيْلَةَ الْأَرْبَعَاءِ(٣٢)، وَرُفِعَ قَبْرُهُ نَحْوًا مِنْ شِبْرٍ(٣٣).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ عَلَى مَا قَضَى وَقَدَّر؛ لَا يَقْضِي قَضَاءً لِمُؤْمِنٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السُّخْطُ، نَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى

---

(٣١) رواه أحمد (٦/ ٨١)، وابن عساكر (٤/ ٢٩٦)، ونقل المزي عن الحاكم جزمه أن قثم بن العباس كان آخر الناس عهدًا برسول الله ﷺ، وهكذا جاء عن ابن عباس، كما في الطبقات لابن سعد (٢/ ٣٠٣).

(٣٢) رواه من حديث عائشة رضي الله عنها: أحمد (٦/ ١١٠).

(٣٣) رواه من حديث جابر رضي الله عنه: البيهقي (٣/ ٤١٠)، وصححه ابن حبان (٦٦٣٥).

كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ حَدَثًا مُهِمًّا فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا أَتْبَاعُهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ لِأُمَّتِهِ لَمَّا أَحَسَّ بِدُنُوِّ أَجَلِهِ، وَأَمَرَهُمْ بِاسْتِحْضَارِ الْمُصِيبَةِ بِهِ ﷺ عِنْدَ أَيِّ مُصِيبَةٍ تَنْزِلُ بِأَحَدِهِمْ؛ لِيَتَسَلَّى بِذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ -أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ(٣٤).

وَأَحَسَّ الصَّحَابَةُ بَعْدَ دَفْنِهِ ﷺ بِعَظِيمِ الْأَسَى، وَالْتَاعَتْ قُلُوبُهُمْ بِفَقْدِهِمْ لَهُ إِمَامًا وَمُعَلِّمًا وَهَادِيًا، فَابْنَتُهُ فَاطِمَةُ ﵂ قَالَتْ: «يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي التُّرَابِ وَرَجَعْتُمْ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: قَالَتْ فَاطِمَةُ ﵂: «يَا أَنَسُ، أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ»(٣٥).

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَسٌ ﵁ حَالَهُمْ بِمَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ مُهَاجِرًا، ثُمَّ حَالَهُمْ بِوَفَاتِهِ ﷺ فَقَالَ: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَقَالَ: مَا نَفَضْنَا عَنْ

---

(٣٤) أخرجه من حديث عائشة ﵂: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨) وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وضعفه النووي في خلاصة الأحكام (٣١٨٠)، لكن صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠).

(٣٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٦٢)، وأحمد (٣/ ٢٠٤)، والطيالسي (١٣٧٤)، وعبد بن حميد (١٣٦٤)، والدارمي (٨٧)، وأبو يعلى (٣٣٧٩)، وابن حبان (٦٦٢٢).

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا» رَوَاهُ أَحْمَدُ(٣٦).

وَرَوَى مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ: «أَنَّ حَاضِنَةَ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّ أَيْمَنَ رضي الله عنها بَكَتْ عَقِبَ وَفَاتِهِ، فَقِيلَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ قَدْ أَكْرَمَ اللهُ نَبِيَّهُ فَأَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ، وَأَرَاحَهُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا، فَقَالَتْ: إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ، كَانَ يَأْتِينَا غَضًّا جَدِيدًا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَقَدِ انْقَطَعَ وَرُفِعَ، فَعَلَيْهِ أَبْكِي، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهَا»(٣٧).

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما زَارَاهَا فَبَكَتْ، وَقَالَتْ: «أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٣٨).

وَقَدْ وَصَفَ إِمَامُ أَهْلِ السِّيَرِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حَالَ الصَّحَابَةِ عَقِبَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَاشْرَأَبَّتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ، وَنَجَمَ النِّفَاقُ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ كَالْغَنَمِ الْمَطِيرَةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ لِفَقْدِ نَبِيِّهِمْ، حَتَّى جَمَعَهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه»(٣٩).

وَبَعْضُ أَهْلِ السِّيَرِ لَمَّا دَوَّنُوا أَحْدَاثَ مَرَضِ النَّبِيِّ ﷺ وَوَفَاتِهِ قَالُوا: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ(٤٠)؛ طَلَبًا لِلْأَجْرِ، وَتَطْبِيقًا لِلْآيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَامْتِثَالًا لِلسُّنَّةِ

---

(٣٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل النبي ﷺ، وقال: حديث غريب صحيح (٣٦١٨) وابن ماجه في الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣١) وعبد بن حميد (١٢٨٩) وأبو يعلى (٣٢٩٦)، وصححه ابن حبان (٦٦٣٤).

(٣٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (٧/ ٢٦٦)

(٣٨) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها (٢٤٥٤).

(٣٩) سيرة ابن هشام (٦/ ٨٨) وسيرة ابن كثير (٤/ ٥٥٤).

وأخرجه عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما: ابن الجوزي في المنتظم (٤/ ٧٤).

(٤٠) ينظر: الرحيق المختوم (٤٣١).

=

النَّبوِيَّةِ. فَنَقُولُ كَمَا قَالُوا: إِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَمِمَّا يُعَزِّي المُؤْمِنَ فِي وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيُسَلِّي حُزْنَهُ عَلَيْهِ: مَا رَوَى أَبُو مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ عز وجل إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةَ أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيُّهَا حَيٌّ، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٤١)].

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَجْعَلَ نَبِيَّنَا وَإِمَامَنَا وَقُرَّةَ أَعْيُنِنَا مُحَمَّدًا ﷺ فَرَطًا لَنَا، وَسَلَفًا بَيْنَ أَيْدِينَا، وَمُسْتَقْبِلًا لَنَا بَعْدَ الْبَعْثِ عَلَى حَوْضِهِ لِيَسْقِيَنَا بِيَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرْبَةً لَا نَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

وَلَئِنْ فَقَدَتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ حَبِيبَهَا وَنَبِيَّهَا مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ سُنَّتَهُ الشَّرِيفَةَ، وَهَدْيَهُ الْمُبَارَكَ بَيْنَ أَيْدِينَا، قَدْ حَفِظَهَا اللهُ تَعَالَى لَنَا كَيْمَا نَنْهَلَ مِنْ مَعِينِهَا، وَنَلْتَزِمَ أَحَادِيثَهَا، فَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ أَحَبَّ سِيرَتَهُ وَسُنَّتَهُ، وَأَحَبَّ مَنْ يَلْتَزِمُهَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَبْغَضَ مَنْ يُبْغِضُهَا أَوْ يَنْتَقِصُهَا أَوْ يَسْخَرُ بِشَيْءٍ مِنْهَا أَوْ يَرُدُّهَا لِرَأْيٍ رَآهُ، أَوْ قَوْلٍ سَمِعَهُ.

وَلَيْسَتْ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الِاحْتِفَالِ بِمَوْلِدِهِ، وَلَا فِي إِنْشَادِ الْقَصَائِدِ الْبِدْعِيَّةِ وَالشِّرْكِيَّةِ فِي إِطْرَائِهِ وَمَدْحِهِ، بَلْ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ الَّتِي لَا يَرْضَاهَا اللهُ تَعَالَى وَلَا رَسُولُهُ ﷺ، وَقَدْ حَذَّرَ مِنْهَا فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ، وَقَالَ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ**

= وكتب أبو بكر كتابًا قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ، إلى زياد بن لبيد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن النبي ﷺ توفي، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فانظر ولا قوة إلا بالله أن تقوم قيام مثلك، ويبايع من عندك ... الاكتفاء للكلاعي (٢/ ١٥٩).

(٤١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها (٢٢٨٨).

فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»(٤٢)، وَقَالَ ﷺ: «**وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(٤٣)، فَالْتَزِمُوا -عِبَادَ اللَّهِ- سُنَّتَهُ، وَاتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا.

وَصَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا . . .



(٤٢) أخرجه من حديث عائشة ﵂: البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧) ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور (١٧١٨).

(٤٣) أخرجه من حديث العرباض بن سارية ﵁: أبو داود في السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)، والدارمي (٩٦)، وصححه ابن حبان (٥).

٣٥٤- رحيل النبي ﷺ (٣)
وصاياه للأمة قبل موته

٦/ ٣/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: تَعْظُمُ الْمُصِيبَةُ بِالْأَمْوَاتِ عَلَى قَدْرِ الِانْتِفَاعِ بِهِمْ فِي الْحَيَاةِ، وَتَشْتَدُّ رَزِيَّةُ النَّاسِ بِفَقْدِهِمْ بِقَدْرِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَمُوتُ فَلَا يَفْتَقِدُهُ أَحَدٌ، بَلْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ مَوْتُهُ رَاحَةً لِلْأَحْيَاءِ عَلَى الْأَرْضِ؛ كَمَوْتِ الْكَافِرِ وَالْفَاجِرِ الَّذِي يَضُرُّ النَّاسَ وَلَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**أَنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا**

إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ الْفَاجِرَ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ فَقْدُه ثُلْمَةٌ، وَمَوْتُهُ مَوْتُ أُمَّةٍ؛ كَالْقَادَةِ الْعَادِلِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الرَّبَّانِيِّينَ. وَالْعِلْمُ يُقْبَضُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، وَعَلَامَةُ هَلَاكِ النَّاسِ ذَهَابُ عُلَمَائِهِمْ، وَهُوَ نَقْصُ الْأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا، وَفِي عَصْرِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ قَالَ مُحَمَّدُ الْبِيْكَنْدِيُّ: «لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَزِيدَ فِي عُمْرِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ مِنْ عُمُرِي لَفَعَلْتُ؛ فَإِنَّ مَوْتِي يَكُونُ مَوْتَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَمَوْتَه ذَهَابُ الْعِلْمِ»(٢).

إِذَا كَانَ هَذَا يُقَالُ فِي حَقِّ مَنْ تَعَلَّمُوا الشَّرِيعَةَ فَبَلَّغُوهَا لِلنَّاسِ، فَمَاذَا يُقَالُ فِي الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ؟ وَمَاذَا يُقَالُ فِي فَقْدِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْصَحُهُمْ لِعِبَادِهِ؟

لَقَدْ كَانَتْ وَفَاةُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَتْ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ، كُلُّ الْمَصَائِبِ وَإِنْ عَظُمَتْ فَهِيَ دُونَهَا، وَكُلُّ الرَّزَايَا مَهْمَا كَانَتْ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَهَا؛ فَأَعْظَمُ خَيْرٍ حُزْنَاهُ وَهُوَ الْإِيمَانُ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ، وَأَعْظَمُ شَرٍّ اجْتَنَبْنَاهُ وَهُوَ الْكُفْرُ كَانَ حَذَرُنَا مِنْهُ بِسَبَبِهِ ﷺ.

نَفَعَنَا اللهُ تَعَالَى بِهِ أَكْثَرَ مِنِ انْتِفَاعِنَا بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْنَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ -بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى- قَدْرَ مَا لَهُ ﷺ عَلَيْنَا، فَكَانَتْ وَفَاتُهُ ﷺ هِيَ أَعْظَمَ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وَهِيَ

---

(١) أخرجه من حديث أبي قتادة بن ربعي رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب سكرات الموت (٦١٤٧)، ومسلم في الجنائز، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه (٩٥٠).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (٢/ ٢٤)، وابن عساكر في تاريخه (٥٢/ ٨٨)، والمزي في تهذيب الكمال (٢٤/ ٤٦٠).

أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِبْنَا بِهَا بَعْدَ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ عَامًا مِنْ وَفَاتِهِ[٣]، وَهِيَ أَعْظَمُ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا مُؤْمِنٌ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

لَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمَّتِهِ هَذَا المَعْنَى الْعَظِيمَ؛ لِيُسَلِّيَ أَصْحَابَهُ ﷺ بِفَقْدِهِ حِينَ دَنَا أَجَلُهُ، وَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، وَعَلِمَ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ؛ كَمَا رَوَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها قَالَتْ: «فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَشَفَ سِتْرًا، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ، فَحَمِدَ اللهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ، ورجاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ: أَيُّمَا أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ -أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ- أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنِ المُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي؛ فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي»** رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[٤].

وَمِنْ نُصْحِهِ ﷺ لِأُمَّتِهِ، وَشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ: وَصِيَّتُهُ لَهُمْ بِوَصَايَا عَظِيمَةٍ، وَالْعَادَةُ أَنَّ المَرِيضَ يُشْغَل بِمَرَضِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ مَا شَغَلَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ، وَوَطْأَةِ المَرَضِ، وَاسْتِقْبَالِ المَوْتِ عَنِ الْوَصِيَّةِ لِلْأُمَّةِ بِمَا يَحْتَاجُونَهُ.

وَمَا وَصَّاهُمْ بِهَذِهِ الْوَصَايَا فِي مَرَضِ مَوْتِهِ إِلَّا لِأَهَمِّيَّتِهَا، أَوْ لِاحْتِمَالِ غَفْلَةِ

---

(٣) على الخطيب أن يراعي فرق السنوات إذا خطب بها أو يحذف هذه الفقرة؛ فإن عدد السنوات هذا صحيح في هذه السنة ١٤٢٩هـ ويتغير بانتهائها.

(٤) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في الصبر على المصيبة (١٥٩٩)، وأحمد في فضائل الصحابة (٢١٦)، والطبراني في الأوسط (٤٤٤٨) وفي الصغير (٦١٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٥٤)، وضعفه النووي في خلاصة الأحكام (٣١٨٠)، لكن صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٠٠)، وذكر له شواهد في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١٠٦).

النَّاسِ عَنْهَا، أَوْ جَهْلِهِمْ بِهَا، وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى تَفْرِيطِهِمْ فِيهَا؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ انْتَفَعَ بِهَا أَعْظَمَ النَّفْعِ، فَهِيَ آخِرُ وَصَايَا مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ، وَمِنْ تِلْكُمُ الْوَصَايَا الْعَظِيمَةِ: إِحْسَانُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا رَوَى جَابِرٌ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: **«لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٥)].

وَمِمَّا حُفِظَ مِنْ وَصَايَاهُ فِي مَرَضِهِ ﷺ: أَنَّهُ نَهَاهُمْ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَأَمَرَهُمْ بِتَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي الرُّكُوعِ، وَبِالدُّعَاءِ فِي السُّجُودِ؛ كَمَا رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ، أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا؛ فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عز وجل، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؛ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ»** رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(٦)].

وَآخِرُ مَرَّةٍ صَعِدَ فِيهَا المِنْبَرَ كَانَتْ فِي مَرَضِهِ ذَلِكَ، أَوْصَى الْأُمَّةَ فِيهَا بِالْأَنْصَارِ رضي الله عنهم؛ كَمَا فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ أَبُو بَكْرٍ وَالْعَبَّاسُ رضي الله عنهما بِمَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْأَنْصَارِ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكُمْ؟ قَالُوا: ذَكَرْنَا مَجْلِسَ النَّبِيِّ ﷺ مِنَّا، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ عَصَبَ عَلَى رَأْسِهِ حَاشِيَةَ بُرْدٍ، قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَلَمْ يَصْعَدْهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: **«أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ؛ فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ**

---

(٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بإحسان الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧).

(٦) أخرجه مسلم في الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (٤٧٩).

وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٧).

قَالَ ابْنُ الْجَوزِي -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَرِشِي وَعَيْبَتِي، أَيْ: خَاصَّتِي وَمَوْضِعَ سِرِّي»(٨).

وَفِي حَدِيثِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِمِلْحَفَةٍ قَدْ عَصَّبَ بِعِصَابَةٍ دَسْمَاءَ، حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ**، فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٩).

وَأَوْصَى ﷺ بِثَلَاثِ وَصَايَا حَفِظَ رَاوِيهَا اثْنَتَيْنِ وَنَسِيَ الثَّالِثَةَ؛ كَمَا رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سَمِعَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يَقُولَ: «يَوْمُ الْخَمِيسِ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ ثُمَّ بَكَى حَتَّى بَلَّ دَمْعُهُ الْحَصَى، قُلْتُ: يَا ابنِ عَبَّاسٍ، مَا يَوْمُ الْخَمِيسِ؟ قَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ فَقَالَ: «**ائْتُونِي بِكَتِفٍ أَكْتُبْ لَكُمْ**

---

(٧) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم، واللفظ له (٣٥٨٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل الأنصار رضي تعالى الله عنهم (٢٥١٠).

(٨) غريب الحديث (٢/ ١٣٨)، والنهاية لابن الأثير (٣/ ٣٢٧).
وقال ابن الأثير في موضع آخر: «أراد أنهم بطانته وموضع سره وأمانته، والذين يعتمد عليهم في أموره، واستعار الكرش والعيبة لذلك؛ لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته» النهاية (٤/ ١٦٣).
وقال القاضي عياض في مشارق الأنوار: «أي: جماعتي وموضع ثقتي، والكرش الجماعة من الناس» (١/ ٣٣٩).

(٩) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٩).

كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»، فَتَنَازَعُوا، وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، فَقَالُوا: مَا لَهُ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ، فَقَالَ: «**ذَرُونِي؛ فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**»، فَأَمَرَهُمْ بِثَلَاثٍ قَالَ: «**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ بِنَحْوِ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ**»، وَالثَّالِثَةُ خَيْرٌ، إِمَّا أَنْ سَكَتَ عنها، وَإِمَّا أَنْ قَالَهَا فَنَسِيتُهَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٠]. وَالنَّاسِي لِلثَّالِثَةِ هُوَ سُلَيْمَانُ الْأَحْوَلُ الرَّاوِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ[١١].

وَأَفَادَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ بِأَنَّهَا الْوَصِيَّةُ بِالْقُرْآنِ، أَوِ الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ، أَوْ بِإِنْفَاذِ جَيْشِ أُسَامَةَ، أَوِ النَّهْيُ عَنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ وَثَنًا يُعْبَدُ[١٢].

أَمَّا الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ فَجَاءَتْ مَعَ الْوَصِيَّةِ بِالْمَمَالِيكِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: «كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ: **الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ[١٣].

---

(١٠) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب (٢٩٩٧)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧).

(١١) قال الحافظ في الفتح: يحتمل أن يكون القائل ذلك هو سعيد بن جبير، ثم وجدت عند الإسماعيلي التصريح بأن قائل ذلك هو ابن عيينة، وفي مسند الحميدي ومن طريقه أبو نعيم في المستخرج قال سفيان: قال سليمان -أي بن أبي مسلم-: لا أدري أذكر سعيد بن جبير الثالثة فنسيتها أو سكت عنها، وهذا هو الأرجح (٨/ ١٣٥).

(١٢) قال الداودي: الثالثة: الوصية بالقرآن، وبه جزم ابن التين. وقال المهلب: بل هو تجهيز جيش أسامة، وقواه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة قال لهم أبو بكر: إن النبي ﷺ عهد بذلك عند موته، وقال عياض: يحتمل أن تكون هي قوله: «ولا تتخذوا قبري وثنًا» فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود، ويحتمل أن يكون ما وقع في حديث أنس أنها قوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» فتح الباري (٨/ ١٣٥).

(١٣) أخرجه ابن ماجه في الوصايا، باب هل وصى رسول الله ﷺ (٢٦٩٧)، والنسائي في الكبرى (٧٠٩٤-٧٠٩٥)، وأحمد (٣/ ١١٧)، وعبد بن حميد (١٢١٤)، وأبو يعلى (٢٩٣٣)، وصححه ابن حبان (٦٦٠٥)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣/ ١٣٩).

وَهَذِهِ الْوَصِيَّةُ الْعَظِيمَةُ هِيَ آخِرُ وَصَايَاهُ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ، اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[١٤].

وَفِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «كَانَ مِنْ آخِرِ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: **الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**، حَتَّى جَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ يُلَجْلِجُهَا فِي صَدْرِهِ وَمَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهْ[١٥].

لَقَدْ تَضَمَّنَ مَجْمُوعُ مَا نُقِلَ مِنْ وَصَايَاهُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ ﷺ أُمُورًا عِدَّةً:

مِنْهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقِيدَةِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِإِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي الْعِبَادَاتِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِالصَّلَاةِ، وَبَيَانُ مَا يُقَالُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ.

وَمِنْهَا مَا لَهُ صِلَةٌ بِالْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ؛ كَوَصِيَّتِهِ بِالْأَنْصَارِ رضي الله عنهم؛ اعْتِرَافًا بِجَمِيلِهِمْ، وَوَفَاءً لَهُمْ عَلَى إِجَابَتِهِمْ دَعْوَتَهُ، وَنُصْرَتِهِمْ لِدِينِهِ.

وَكَذَلِكَ وَصِيَّتُهُ بِالْمَمَالِيكِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْخَدَمُ وَالْعُمَّالُ وَضَعَفَةُ النَّاسِ.

وَمِنْهَا مَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ الْوَصِيَّةُ بِإِجَازَةِ الْوُفُودِ وَإِكْرَامِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا مُسْلِمِينَ أَمْ كُفَّارًا[١٦]؛ وَذَلِكَ لِتَأْلِيفِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، أَوْ

---

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في حق المملوك (٥١٥٦)، وابن ماجه في الوصايا، باب هل وصى رسول الله ﷺ (٢٦٩٨)، والبخاري في الأدب المفرد (١٥٨)، وأحمد (١/ ٧٨).

(١٥) أخرجه من حديث أم سلمة: ابن ماجه في الجنائز، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٣١١-٣٢١)، والنسائي في الكبرى (٧١٠٠)، قال البوصيري في مصباح الزجاجة: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا بجميع رواته (١/ ٥٤٠).

(١٦) ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ٩٤).

لِانْتِفَاعِ الْأُمَّةِ بِهِمْ، أَوْ لِكَفِّ شَرِّهِمْ.

وَكَذَا الْأَمْرُ بِإِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَالمَقْصُودُ بِذَلِكَ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَسُلْطَانٌ يُقِيمُونَ بِهَا دِينَهُمْ، وَيُظْهِرُونَ شَعَائِرَهُمْ؛ كَمَا جَاءَ مُفَسَّرًا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: «كَانَ آخِرُ مَا عَهِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ قَالَ: لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

وَكَوْنُ الصَّلَاةِ آخِرَ وَصَايَاهُ يَدُلُّ عَلَى فَخَامَةِ شَأْنِهَا، وَعَظِيمِ أَمْرِهَا، وَقَدْ كَرَّرَ ﷺ الْوَصِيَّةَ بِهَا؛ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، فَمَنْ ضَيَّعَهَا أَوْ فَرَّطَ فِيهَا بِتَرْكِهَا أَوْ تَأْخِيرِهَا عَنْ وَقْتِهَا أَوْ تَخَلَّفَ عَنْ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ، أَوْ قَصَّرَ فِي اسْتِكْمَالِ شُرُوطِهَا أَوْ أَرْكَانِهَا أَوْ وَاجِبَاتِهَا؛ فَقَدْ ضَيَّعَ مِنْ وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَدْرِ تَفْرِيطِهِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْعِنَايَةُ بِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ كُلِّهَا؛ وَذَلِكَ بِتَعَلُّمِهَا، وَفَهْمِ مَعَانِيهَا، وَالْعَمَلِ بِهَا؛ فَإِنَّهُ ﷺ مَا وَصَّى بِهَا إِلَّا لِأَهَمِّيَّتِهَا، وَعَظِيمِ مَكَانَتِهَا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ أَخَذَ بِهَا حَازَ الْخَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُم ...

❁ ❁ ❁

---

(١٧) أخرجه أحمد (٦/ ٢٧٤)، والطبراني في الأوسط (١٠٦٦). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه أحمد، والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع (٥/ ٣٢٥).
وجاء مرسلًا عن الزهري وعن عمر بن عبد العزيزعند: مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٢)، وعنه عبدالرزاق (٩٩٨٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ التَّعْبِيرَ الْحَقِيقِيَّ عَنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ يَكْمُنُ فِي اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَلُزُومِ هَدْيِهِ؛ فَهُوَ أَكْمَلُ الْهَدْيِ وَأَحْسَنُهُ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وَلَقَدْ أَخْطَأَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الزَّمَنِ حِينَ ظَنُّوا أَنَّ الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّتِهِ. وَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ تَنْتَشِرُ مَظَاهِرُ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَتُنْقَلُ شَعَائِرُهَا إِلَى الْمُسْلِمِينَ عَبْرَ الْفَضَائِيَّاتِ وَالْإِذَاعَاتِ؛ مِمَّا يُرَسِّخُ هَذِهِ الْبِدْعَةَ الْمُنْكَرَةَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ جَهَلَةِ الْمُسْلِمِينَ. وَتَتَضَمَّنُ هَذِهِ الِاحْتِفَالَاتُ إِنْشَادَ الْمَدَائِحِ الَّتِي فِيهَا غُلُوٌّ وَرُبَّما تَضَمَّنَتْ شِرْكًا، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ تَغْلُوَ فِيهِ كَمَا غَلَتِ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ عليه السلام.

وَمِنَ الْمُوَافَقَاتِ الْعَجِيبَةِ فِي بَابِ الْبِدْعَةِ: أَنَّ النَّصَارَى أَحْدَثُوا الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ الْمَسِيحِ عليه السلام فِي الْمِئَةِ الْمِيلَادِيَّةِ الرَّابِعَةِ، كَمَا أَحْدَثَ بَنُو عُبَيْدٍ الْبَاطِنِيُّونَ الِاحْتِفَالَ بِمَوْلِدِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْمِئَةِ الرَّابِعَةِ الْهِجْرِيَّةِ!![١٨].

(١٨) أول احتفال للنصارى بعيد ميلاد المسيح عليه السلام كان عام ٣٣٦م، ينظر: الموسوعة العربية العالمية (١٦/ ٧١١). وللمزيد عن ذلك وعن رأس السنة وحكمهما، راجع خطبة: عيدا الميلاد ورأس السنة النصرانيين مجلد (٦) رقم الخطبة (٢١٧).

وَالْعَجِيبُ أَيْضًا أَنَّ الْفِرَقَ الصُّوفِيَّةَ وَمَنْ وَافَقَهَا مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ فِي الِاحْتِفَالِ بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ وَمَثِيلَاتِهَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَوْقِفٌ مُشَرِّفٌ حِينَ اعْتَدَى كَفَرَةُ الْغَرْبِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِرُسُومِهِمُ الْخَبِيثَةِ، وَفِي أَوَّلِ ظُهُورِ هَذِهِ الرُّسُومِ الْخَبِيثَةِ قَبْلَ سَنَتَيْنِ رَصَدَ بَعْضُ الْمُهْتَمِّينَ أَكْثَرَ الْمَوَاقِعِ الصُّوفِيَّةِ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا إِدَانَةً وَلَا اسْتِنْكَارًا لِهَذِهِ الرُّسُومِ، وَلَا شَيْئًا يَتَعَلَّقُ بِهَا(١٩)، وَإِلَى الْآنَ لَمْ نَرَ لِلْمُتَصَوِّفَةِ الَّذِينَ يَصِيحُونَ بِمَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَحْتَفِلُونَ بِمَوْلِدِهِ وَهِجْرَتِهِ وَإِسْرَائِهِ جُهْدًا يُذْكَرُ فِي التَّعْرِيفِ بِالنَّبِيِّ ﷺ، أَوْ نُصْرَتِهِ، أَوِ الذَّبِّ عَنْ عِرْضِهِ!! فَهَلِ انْحَصَرَ جُهْدُهُمْ فِي الدِّعَايَةِ لِأَنْفُسِهِمْ بِهَذِهِ الِاحْتِفَالَاتِ الَّتِي يَبْتَزُّونَ بِهَا أَتْبَاعَهُمْ، وَيَخْدَعُونَ بِهَا عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ؟!

إِنَّ الْمِنَّةَ الْعُظْمَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ هِيَ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَتْ بِمَوْلِدِهِ،

---

(١٩) قال الشيخ د.عبد العزيز آل عبد اللطيف: أخبرني صاحبي -وهو من الراصدين مواقع الصوفية على شبكة «الإنترنت»- أنه تصفح قرابة ستين موقعًا للصوفية أثناء نازلة تطاول «الدانمارك» على سيّد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، فلم يرَ للقوم حديثًا، ولم يسمع لهم همسًا في تلك الحادثة التي غدت مَشْغَلة السمع والبصر في جميع الأصقاع؛ ثم تدارك صاحبي قائلًا: اللهمّ إلا أن واحدًا من تلك الستين قد نقل مقالة من أحد المواقع السنية!

وختم هذا الصاحب كلامه قائلًا: هؤلاء الصوفية يعرفون الرسول عند الطمع، ويتخلون عنه عند الفزع.

ولئن كشفت هذه الحقيقة زيف محبة القوم لرسول الله ﷺ، وتهافت دعاويهم العريضة، فهي تبيّن حالة «السُّكْر» الذي أغرقهم، و«الفناء» الذي استحوذ عليهم، فكأن الأمر لا يعنيهم، وكما لو كانوا خارج العالم! ولو كان «السُّكر» و«الاصطلام» أمرًا ملازمًا لهم لهان الخَطْب؛ فالمجنون معفو عنه، إلا أن هذا السكر سرعان ما يزول عند صوفية الأرزاق، إذا كان في الصحو تحقيق لحظوظهم الشخصية ومطامعهم الدنيوية.اهـ من مجلة البيان، عدد (٢٢٢) ص(٨).

وَبِهَذَا تَنَزَّلَتِ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ؛ فَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام دَعَا رَبَّهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وَفِي الْقُرْآنِ نَصٌّ عَلَى ذَلِكَ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَفِي آيَةِ الْجُمُعَةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فَالْأَهَمِّيَّةُ الْكُبْرَى هِيَ لِبَعْثَتِهِ ﷺ لَا لِمَوْلِدِهِ؛ لِأَنَّهُ مَكَثَ بَعْدَ مَوْلِدِه أَرْبَعِينَ سَنَةً كَانَ النَّاسُ فِيهَا عَلَى الشِّرْكِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْ حَالِهِمْ شَيْءٌ.

وَمَا كَانَ الْخَيْرُ الْعَظِيمُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَمُحَارَبَةُ الشِّرْكِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّا أَعْمَى اللهُ تَعَالَى الْمُبْتَدِعَةَ عَنْهُ، فَاحْتَفَلُوا بِالمَوْلِدِ وَلَيْسَ هُوَ تَارِيخَ التَّغْيِيرِ فِي الْأَرْضِ، وَعَمُوا عَنِ الْبَعْثَةِ وَهِيَ تَارِيخُ التَّغْيِيرِ فِي الْأَرْضِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ رَأْيِهِمْ، وَقِلَّةِ تَوْفِيقِهِمْ!! وَمَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ حَدَثًا فَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ التَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، وَعَمَلُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ، بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها[٢٠].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَاسْتَمْسِكُوا بِسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْزَمُوا هَدْيَهُ، وَخُذُوا بِوَصِيَّتِهِ، وَذُبُّوا عَنْ عِرْضِهِ، وَانْصُرُوهُ بِمَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَقْوَاهُ: الدَّعْوَةُ إِلَى دِينِهِ، وَإِظْهَارُ سُنَّتِهِ الَّتِي أَغَاظَتِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فَسَخِرُوا مِنْهُ وَمِنْ دِينِهِ؛ لِعَجْزِ بَاطِلِهِمْ أَمَامَ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِبَهْرَجِ الْمُحْتَفِلِينَ بِالمَوَالِدِ وَنَحْوِهَا وَلَوْ كَثُرُوا، وَزَيَّنُوا بَاطِلَهُمْ،

(٢٠) أخرجه البخاري في الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور (١٧١٨).

وَنَشَرُوهُ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ حَقٌّ وَإِنْ قَلَّ أَتْبَاعُهُ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَثُرَ أَنْصَارُهُ، وَالْحَقُّ يُعْرَفُ بِالدَّلِيلِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَيْسَتِ الْكَثْرَةُ دَلِيلًا صَحِيحًا عَلَى الْحَقِّ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .



٣٥٥- توقير السلف للنبي ﷺ (١) من أخبار الصحابة رضي الله عنهم

٢٥/ ١/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ اصْطَفَى رُسُلَهُ مِنْ بَيْنِ الْعَالَمِينَ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [الْحَجّ: ٧٥]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ اخْتَارَ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا، وَأَصْدَقَهُمْ حَدِيثًا ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [الْبَيِّنَة: ٨]، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ اخْتَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَخْتَصَّ بِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، فَهُوَ صَاحِبُ اللِّوَاءِ الْمَعْقُودِ، وَالْحَوْضِ الْمَوْرُودِ، وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهَا وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: فَضَّلَ اللهُ تَعَالَى الرُّسُلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَفَاوَتَ بَيْنَهُمْ فِي كَثْرَةِ أَتْبَاعِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، وَقُوَّةِ هَؤُلَاءِ الْأَتْبَاعِ وَضَعْفِهِمْ، وَقَدْ عُرِضَتِ الْأُمَمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ قَالَ ﷺ: «**حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ**

السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ»[١] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ؛ وَلِذَلِكَ غَبَطَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى كَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ[٢].

وَأَفْضَلُ النَّاسِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ هُمْ مَنْ صَحِبُوا رَسُولَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِهِ، مُدَافِعِينَ عَنْهُ، دَاعِينَ إِلَى دِينِهِ، وَمَنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ مِمَّنْ لَمْ يُدْرِكُوا الرَّسُولَ فَآمَنُوا بِهِ أُلْحِقُوا بِهِمْ فِي الْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوبَة: ١٠٠]، وَقَالَتِ الْأَنْصَارُ رضي الله عنهم: «يَا رَسُولَ اللَّهِ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَتْبَاعٌ، وَإِنَّا قَدِ اتَّبَعْنَاكَ فَادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ أَتْبَاعَنَا مِنَّا، فَدَعَا بِهِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٣].

وَلَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم أَصْحَابَ أَفْضَلِ نَبِيٍّ ﷺ؛ كَانُوا أَفْضَلَ الْأَصْحَابِ، وَخَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهُمُ السَّابِقُونَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ وَالنُّصْرَةِ. صَدَّقُوا حِينَ كَثُرَ الْمُكَذِّبُونَ، وَاتَّبَعُوا إِذْ قَلَّ الْمُتَّبِعُونَ، وَتَحَمَّلُوا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ هَجْرَ الْأَوْطَانِ، وَمُفَارَقَةَ الْأَهْلِ وَالْوِلْدَانِ، وَمُعَادَاةَ الْعَشِيرَةِ وَالْخُلَّانِ، وَمَهْمَا

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الطب، باب مَنِ اكْتَوَى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو (٥٣٧٨)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢٢٠).

(٢) في حديث الإسراء الطويل من رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «**فلما خلصت فإذا موسى، قال: هذا موسى فسَلِّمْ عَلَيْهِ، فسَلَّمْتُ عليه، فرد ثُمَّ قال: مرحبًا بالأخِ الصالح، والنَّبِيِّ الصالح، فلما تجاوَزْتُ بَكَى، قيل له: ما يُبْكِيكَ؟ قال: أَبْكِي لأن غلامًا بُعِثَ بَعْدِي يدخل الجنة مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَر ممن يدخلها مِنْ أُمَّتِي**» أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج (٣٦٧٤).

(٣) أخرجه من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب أتباع الأنصار (٣٥٧٦)، والطيالسي (٦٧٥)، وأحمد (٤/ ٣٧٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٧٦٩)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٨٦).

عَمِلَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَلَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَهُمْ، وَلَنْ يَحُوزُوا فَضْلَهُمْ، أَوْ يُدْرِكُوا سَبْقَهُمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ يَلْحقُونَ بِهِمْ فِي الْفَوْزِ وَالْجَنَّةِ، لَا فِي الْفَضْلِ وَالدَّرَجَةِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٤)، وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ»(٥).

إِنَّهُمْ رضي الله عنهم أَعْظَمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا ﷺ إِيمَانًا وَيَقِينًا، وَأَكْثَرُهُمْ تَضْحِيَةً وَبَذْلًا، فَاسْتَحَقُّوا مَا نَالُوا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَتِهِ بِهِمْ، وَاصْطِفَائِهِ لَهُمْ؛ لِيَكُونُوا أَحْبَابَ خَاتَمِ رُسُلِهِ ﷺ، وَأَخْبَارُهُمْ رضي الله عنهم غَزِيرَةٌ فِي تَصْدِيقِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ، وَوَفَائِهِمْ وَفِدَائِهِمْ لَهُ ﷺ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى كُلِّ مَحْبُوبٍ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَفِي بَابِ مَحَبَّتِهِ ﷺ يُقَدِّمُ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى قَرَابَتِهِ(٦)، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَحَبَّتِهِ الصَّادِقَةِ.

---

(٤) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا» (٣٤٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٤٠) واللفظ له.

(٥) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٦٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، وأحمد في فضائل الصحابة (١٥-٢٠-١٧٢٩-١٧٣٦)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٧)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاج وقال: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات (١/ ٢٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(٦) قال أبو بكر رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي» أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، ومنقبة فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ (٣٥٠٨).

وَالْفَارُوقُ عُمَرُ ﷺ يُخْبِرُ النَّبِيَّ ﷺ بِأَنَّهُ يُحِبُّهُ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى مِنْ نَفْسِهِ(٧). وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ المَحَبَّةِ الْعَظِيمَةِ أَحَبَّ عُمَرُ إِسْلَامَ الْعَبَّاسِ ﷺ أَكْثَرَ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِإِسْلَامِ الْخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ مَعَ أَنَّهُ وَالِدُهُ(٨)؛ لِمَكَانِ الْعَبَّاسِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَسُئِلَ عَلِيٌّ ﷺ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «كَانَ وَاللَّهِ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَمِنَ المَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَإِ»(٩).

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ: «مَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٠).

إِنَّهُمْ ﷺ قَدَّمُوهُ ﷺ عَلَى آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، حَتَّى هَمَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ أَنْ يَقْتُلَ أَبَاهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ(١١).

---

(٧) عن عبد الله بن هشام ﷺ قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا مِنْ نفْسِي، فقال النبي ﷺ: **لَا، والَّذِي نفسي بِيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**. فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إليّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: **الآن يَا عُمَرُ**» أخرجه البخاري في الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ (٦٢٥٧).

(٨) قال عمر ﷺ: «يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أَسْلَمَ، وما ذاك إلا أني قد عَرَفْت أن إسلامك كان أَحَبَّ إِلَى رسول الله مِنْ إسلام الخطاب لو أَسْلَمَ» أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٥/ ٥٩)، والطبري في تاريخه (٢/ ١٥٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ١١) رقم (٧٢٦٤)، والبيهقي في الدَّلَائِل (٥/ ٣٤)، وصححه الحافظ ابن حجر في المطالِبِ العالية (٤٣٠١)، والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٣٤١).

(٩) الشفاء للقاضي عياض (٢/ ٢٠).

(١٠) أخرجه مسلم في الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما كان قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١).

(١١) أخرجه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٤/ ٢٥٥)، والطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٦٢).

وَلَمَّا اعْتَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ وَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ ﵁ دَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ حَفْصَةَ ﵂ مُغْضَبًا، فَقَالَ: «لَقَدْ بَلَغَ مِنْ شَأْنِكِ أَنْ تُؤْذِي اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَا يُحِبُّكِ وَلَوْلَا أَنَا لَطَلَّقَكِ، فَبَكَتْ أَشَدَّ الْبُكَاءِ، فَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، فَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ، فَقَالَ عُمَرُ لِلْبَوَّابِ: يَا رَبَاحُ، اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ظَنَّ أَنِّي جِئْتُ مِنْ أَجْلِ حَفْصَةَ، وَاللَّهِ لَئِنْ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِضَرْبِ عُنُقِهَا لَأَضْرِبَنَّ عُنُقَهَا»(١٢).

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ المَحَبَّةُ الْعَظِيمَةُ مِنْهُمْ زَعْمًا كَاذِبًا، أَوْ ظَنًّا مَشْكُوكًا فِيهِ، أَوْ مُجَرَّدَ دَعْوَى لَيْسَ عَلَيْهَا بُرْهَانٌ؛ إِذْ لَمَّا جَدَّ الْجِدُّ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ، وَحَضَرَتِ المَنَايَا مَيْدَانَ المَعْرَكَةِ تَخْطِفُ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ؛ كَانَتْ أَجْسَادُ الصَّحَابَةِ ﵃ فِدَاءً لِنَبِيِّهِمْ ﷺ، وَسُيُوفُهُمْ أَسْبَقَ إِلَى المُشْرِكِينَ مِنْ أَنْ يَصِلَ الْأَذَى لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَفِي المَغَازِي مِنْ بَدْرٍ إِلَى حُنَيْنٍ مَوَاقِفُ مَشْهُورَةٌ، وَبُطُولَاتٌ مَشْهُودَةٌ، تُبَرْهِنُ أَنَّ الْقَوْمَ صَدَقُوا فِي مَحَبَّتِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

وَلَيْسَتْ تِلْكَ المَحَبَّةُ، وَالتَّضْحِيَاتُ فِي سَبِيلِهَا مَوْقُوفَةً عَلَى مُوَاطِنِ الْعِزِّ وَالِانْتِصَارِ؛ بَلْ ظَهَرَتْ حَتَّى فِي حَالِ الْهَزِيمَةِ وَالِانْكِسَارِ، وَاسْأَلُوا غَزْوَةَ أُحُدٍ تُنَبِّئُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَتُخْبِرُكُمْ أَنَّ سَبْعَةً مِنَ الْأَنْصَارِ اسْتَمَاتُوا فِي الدِّفَاعِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا أَحَاطَ بِهِ المُشْرِكُونَ حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ؟ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: **«مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ»**(١٣)، فَكَانَ هَؤُلَاءِ

---

(١٢) أخرجه من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب ﵄: مسلم في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (١٤٧٩).

(١٣) أخرجه من حديث أنس ﵁: مسلم في الجهاد والسير باب غزوة أحد (١٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٨٦٥١)، وأحمد (٣/ ٢٨٦)، وأبو يعلى (٣٣١٩)، وابن حبان (٤٧١٨)، والبيهقي (٩/ ٤٤)، وأبو عوانة (٦٨٧١).

السَّبْعَةُ هُمْ مِمَّنْ رَدُّوا المُشْرِكِينَ عَنْهُ، حَتَّى جَادُوا بِأَرْوَاحِهِمْ فَدَاءً لَهُ ﷺ.

وَشُلَّتْ يَدُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رضي الله عنه فِي أُحُدٍ مِنْ شِدَّةِ صُمُودِهِ دِفَاعًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(١٤).

وَكَانَ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه رَجُلًا رَامِيًا شَدِيدَ النَّزْعِ كَسَرَ يَوْمَئِذٍ قَوْسَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ بِجَعْبَةٍ مِنَ النَّبْلِ فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ**، وَيُشْرِفُ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ وَأَبُو طَلْحَةَ يَحْمِيهِ وَيَدْرَأُ عَنْهُ الْمُشْرِكِينَ بِالنِّبَالِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تُشْرِفْ يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ»(١٥).

وَالشَّاعِرُ مِنْهُمْ كَانَ يُدَافِعُ عَنْهُ ﷺ بِالشِّعْرِ كَمَا كَانَ حَسَّانُ رضي الله عنه يَفْعَلُ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُ: «**اهْجُهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ**»(١٦).

وَلَمْ تَكُنْ مَحَبَّتُهُ ﷺ حِكْرًا عَلَى الرِّجَالِ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم، بَلْ كَانَ لِنِسَائِهِمْ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حَظٌّ أَوْفَى مِنْ تِلْكَ المَحَبَّةِ؛ ابْتِدَاءً بِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حِينَ خَيَّرَهُنَّ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ الْبَقَاءِ مَعَهُ ﷺ وَالصَّبْرِ عَلَى شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ الْمُؤْنَةِ، وَشِدَّةِ الْحَالِ، وَبَيْنَ الْفِرَاقِ وَالتَّمَتُّعِ بِطَيِّبَاتِ الدُّنْيَا، فَاخْتَرْنَهُ ﷺ عَلَى مَتَاعِ الدُّنْيَا، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «فَبَدَأَ بِي أَوَّلَ امْرَأَةٍ فَقَالَ: **إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا وَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**. قَالَتْ رضي الله عنها: قَدْ

---

(١٤) كما روى قيس بن أبي حازم -رحمه الله تعالى- قال: «رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ شَلَّاءَ وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ» أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٣٦)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (١٢٨)، وأحمد (١/ ١٦١).

(١٥) أخرجه من حديث أنس رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة النساء مع الرجال (١٨١١).

(١٦) أخرجه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: البخاري في الأدب، باب هجاء المشركين (٥٨٠١)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه (٢٤٨٦).

أَعْلَمُ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: أَفِي هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ، ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ، فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧)، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ وَأَرْضَاهُنَّ، اخْتَرْنَهُ ﷺ عَلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا، فَلَا عَجَبَ حِينَئِذٍ أَنْ يَمُرَّ شَهْرَانِ كَامِلَانِ لَا تُوقَدُ النَّارُ لِلطَّبْخِ فِي بُيُوتِهِنَّ(١٨)، وَمَا يَجِدْنَ إِلَّا التَّمْرَ وَالمَاءَ، وَمَا شَبِعْنَ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ(١٩)، وَمَا ضَجِرْنَ وَلَا اشْتَكَيْنَ؛ لِأَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَرْنَهُ، وَنِعْمَ الِاخْتِيَارُ اخْتِيَارُهُنَّ!!

وَلِلصَّحَابِيَّاتِ الْأُخْرَيَاتِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ- حَظُّهُنَّ مِنْ مَحَبَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَقْدِيمِهِ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَزْوَاجِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ؛ كَمَا فَعَلَتْ إِحْدَى الْأَنْصَارِيَّاتِ لَمَّا قُتِلَ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا فِي أُحُدٍ، فَمَا سَأَلَتْ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ أَنَسٌ ﵁: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ حَاصَ أَهْلُ المَدِينَةِ حَيْصَةً قَالُوا: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، حَتَّى كَثُرَتِ الصَّوَارِخُ فِي نَاحِيَةِ المَدِينَةِ، فَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مُتَحَزِّمَةً فَاسْتُقْبِلَتْ بِابْنِهَا وَأَبِيهَا وَزَوْجِهَا وَأَخِيهَا، لَا أَدْرِي أَيُّهُمُ اسْتُقْبِلَتْ بِهِ أَوَّلَ، فَلَمَّا مَرَّتْ عَلَى آخِرِهِمْ قَالَتْ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: أَبُوكِ أَخُوكِ زَوْجُكِ ابْنُكِ،

---

(١٧) هذا جزء من الحديث المخرج في حاشية (١٢).

(١٨) جاء ذلك في حديث عائشة ﵂: «إن كنا للنظر إلى الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار ...» الحديث. أخرجه البخاري في الهبة وفضلها، باب فضلها والتحريض عليها (٢٤٢٨)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٢).

(١٩) كما في حديث عائشة ﵂ قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين ...» أخرجه مسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

وَهِيَ تَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَيَقُولُونَ: أَمَامَكِ، حَتَّى دَفَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَتْ بِنَاحِيَةِ ثَوْبِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أُبَالِي إِذْ سَلِمْتَ مِنْ عَطَبٍ»(٢٠).

وَهُمْ ﷺ مَا أَحَبُّوهُ هَذِهِ المَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ، وَلَوْ أَخْبَرَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْتَادُوا وُقُوعَهُ لَصَدَّقُوا خَبَرَهُ، وَأَوَّلُهُمْ تَصْدِيقًا أَبُو بَكْرٍ ﷺ حَتَّى نُعِتَ بِالصِّدِّيقِ عَلَى إِثْرِ حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ؛ إِذْ كَذَّبَ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمُوهُ، وَاسْتَهْزَأُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ ﷺ: «هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ؟ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَتُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ(٢١).

وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ فَقَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: **بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**، فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ! فَقَالَ ﷺ: **فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**. وَمَا هُمَا ثَمَّ. **وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ**،

---

(٢٠) أخرجه من حديث أنس بن مالك ﷺ: أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٣٢)، والطبراني في الأوسط (٧٤٩٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه محمد شعيب ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات» (٦/ ١١٥)، وله شاهد مرسل من حديث عكرمة رحمه الله تعالى عن ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٧٧٤) رقم (٤٢٣٩)، وقال الحافظ ابن حجر في العجاب: «هذا مرسل رجاله من رجال البخاري» (٢٣٨).

(٢١) أخرجه من حديث عائشة ﷺ: الحاكم وصححه (٣/ ٦٥).

فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي؟ فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ! قَالَ ﷺ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. وَمَا هُمَا ثَمَّ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٢]، وَقَوْلُ الرَّاوِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: وَمَا هُمَا ثَمَّ. أَيْ: لَيْسَا حَاضِرَيْنِ يَوْمَ حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْحَدِيثِ.

وَكَانُوا رضي الله عنهم أَسْرَعَ النَّاسِ امْتِثَالًا لِمَا يَقُولُ، رَوَى نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَوْ تَرَكْنَا هَذَا الْبَابَ لِلنِّسَاءِ. قَالَ نَافِعٌ: فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ ابْنُ عُمَرَ حَتَّى مَاتَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[٢٣].

اللهُمَّ ارْضَ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَاجْزِهِمْ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَنْ حُسْنِ صُحْبَتِهِمْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَانْتَقِمْ مِمَّنْ شَتَمَهُمْ أَوْ تَنَقَّصَهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ؟

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

---

(٢٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٨٤)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٢٣٨٨).

(٢٣) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال (٤٦٢)، والطيالسي (١٨٢٩)، والطبراني في الأوسط (١٠١٨).

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ مِنْ تَوْقِيرِ الصَّحَابَةِ ﵃ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمِهِمْ لَهُ: أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ الْأَدَبَ بِحَضْرَتِهِ، وَلَا يَتَكَلَّمُونَ أَوْ يَفْعَلُونَ الْفِعْلَ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

وَبَلَغَ مِنْ أَدَبِهِمْ مَعَهُ ﷺ أَنَّ الرَّاوِيَ يُشَبِّهُ هُدُوءَهُمْ وَسَكِينَتَهُمْ بِمَنْ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطَّيْرُ، قَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﵁ يَصِفُ حُضُورَهُمْ جِنَازَةً يُجَهَّزُ لَحْدُهَا: «فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَكَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ»(٢٤).

وَلَمْ تَكُنْ سَكِينَتُهُمْ تِلْكَ حَالَ حُضُورِ الْجِنَازَةِ فَحَسْبُ، أَوْ لِمَكَانِ الْقَبْرِ مِنَ الْقَلْبِ؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ حَالَهُمْ حَتَّى فِي مَجْلِسِهِمْ مَعَهُ أَثْنَاءَ تَحْدِيثِهِمْ وَتَعْلِيمِهِمْ أُمُورَ دِينِهِمْ، قَالَ أُسَامَةُ بْنُ شَرِيكٍ ﵁: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الرَّخَمَ، مَا يَتَكَلَّمُ مِنَّا مُتَكَلِّمٌ، إِذْ جَاءَهُ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتِنَا فِي كَذَا، أَفْتِنَا فِي كَذَا»(٢٥).

وَإِذَا حَدَّثَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَخَذَتْهُ هَيْبَةٌ عَظِيمَةٌ، حَتَّى بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِجْلَالًا لِحَدِيثِهِ، كَمَا رَوَى عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ فَقَالَ: «مَا أَخْطَأَنِي عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إِلَّا آتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فِيهَا، فَمَا سَمِعْتُهُ بِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَكَسَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَرَأَيْتُهُ مَحْلُولَ أَزْرَارِ قَمِيصِهِ، قَدِ انْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، وَاغْرَوْرَقَتْ

---

(٢٤) أخرجه أبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، والنسائي في الكبرى (٢١٢٨)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وابن المبارك في الزهد (١٢١٩)، وابن منده في الإيمان (١٠٦٢)، وابن أبي شيبة (٣/ ٤)، وصححه الطبري في تهذيب الآثار (٧٢٠)، والحاكم (١/ ٩٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٥٠).

(٢٥) أخرجه ابن ماجه في الطب، باب ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء (٣٤٣٦)، والطيالسي (١٢٣٢)، وأحمد (٤/ ٢٧٨)، وصححه ابن حبان واللفظ له (٤٨٦).

عَيْنَاهُ، فَقَالَ: أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ أَوْ دُونَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ أَوْ شِبْهَ ذَلِكَ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ(٢٦).

وَبَلَغَ مِنْ أَدَبِهِمْ مَعَهُ أَنَّهُمْ يَقْرَعُونَ بَابَهُ إِنْ أَرَادُوهُ بِالْأَظَافِيرِ(٢٧)، وَمَا كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِحَضْرَتِهِ ﷺ، وَمَنْ كَانَ جَهْوَرِيَّ الصَّوْتِ مِنْهُمْ جَاهَدَ نَفْسَهُ عَلَى خَفْضِ صَوْتِهِ بَعْدَ نُزُولِ آيَةِ الْحُجُرَاتِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الْحُجُرَات: ٢] قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما: «فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ خَشْيَةَ حُبُوطِ الْعَمَلِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٨)، وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: **اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٩).

---

(٢٦) أخرجه مسلم في التمييز (٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٢٣) رقم (٨٦١٧).

(٢٧) عن أنس بن مالك أن أبواب النبي ﷺ كانت تقرع بالأظافير، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٠٨٠)، وفي التاريخ الكبير (٧١٥)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٧/ ١٨)، والبيهقي في الشعب (١٥٣٠)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٢٨).

(٢٨) أخرجه البخاري في التفسير باب ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ (٤٥٦٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الحجرات (٣٢٦٦)، وأحمد (٤/ ٦).

(٢٩) أخرجه البخاري (٤٥٦٥) واللفظ له، ومسلم في الإيمان، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله (١١٩).

وَكَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ مَأْذُونًا لَهُمْ فِي مُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَا لَا يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، وَلَرُبَّمَا وُفِّقَ بَعْضُهُمْ فِي إِصَابَةِ الْحَقِّ كَمَا أَصَابَهُ عُمَرُ رضي الله عنه غَيْرَ مَرَّةٍ، وَمَعَ هَذَا الْإِذْنِ فِي الْمُرَاجَعَةِ لَهُمْ فَإِنَّهُ كَانَ أَشَدَّ شَيْءٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يُرَاجِعَهُ فِي أَمْرٍ ثُمَّ يَكُونَ الْحَقُّ بِخِلَافِهِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِعُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ يُصِيبُ الْحَقَّ كَثِيرًا؛ إِذْ رَاجَعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ فَكَانَ الْحَقُّ عَلَى خِلَافِ مَا أَرَادَ، يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه: «فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا؟ فَقَالَ ﷺ: **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ يَقُولُ عُمَرُ رضي الله عنه: «مَا زِلْتُ أَصُومُ وَأَتَصَدَّقُ وَأُصَلِّي وَأُعْتِقُ مِنَ الَّذِي صَنَعْتُ؛ مَخَافَةَ كَلَامِي الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ يَوْمَئِذٍ، حَتَّى رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا»[٣٠].

وَكَانُوا ﷺ يَتَفَقَّدُونَ أَحْوَالَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَتَأَلَّمُونَ لِآلَامِهِ، وَيَبْذُلُونَ الْغَالِيَ وَالنَّفِيسَ لِأَجْلِهِ، وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ رَأَى جَابِرٌ رضي الله عنه بِالنَّبِيِّ ﷺ الْجُوعَ فَانْكَفَأَ إِلَى امْرَأَتِهِ وَقَالَ: «هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٣١].

وَإِذْ ذَاكَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ عَصَبَ بَطْنَهُ بِالْحِجَارَةِ، وَلَمْ يَذُقْ طَعَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، مِمَّا جَعَلَ جَابِرًا يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ: «رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا مَا كَانَ فِي ذَلِكَ صَبْرٌ،

---

(٣٠) أخرجه من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما: البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٥٨١)، وأحمد واللفظ له (٤/ ٣٢٥)، وفي رواية البخاري: قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا.

(٣١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (٤١٠٢)، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك (٢٠٣٩).

فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟»[٣٢]، ثُمَّ ضَيَّفَهُ جابِرٌ فَضَيَّفَ النَّبِيُّ ﷺ أَهْلَ الْخَنْدَقِ كُلَّهُمْ عَلَى وَلِيمَةِ جَابِرٍ، وَطَرَحَ اللهُ تَعَالَى الْبَرَكَةَ فِي طَعَامِهِمْ فَشَبِعُوا.

وَفِي غَزَاةٍ أُخْرَى أَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالمَسِيرِ كُلَّ اللَّيْلِ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه: «فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ وَأَنَا إِلَى جَنْبِهِ قَالَ: فَنَعَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى تَهَوَّرَ اللَّيْلُ مَالَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، قَالَ: فَدَعَمْتُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُوقِظَهُ حَتَّى اعْتَدَلَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، قَالَ: ثُمَّ سَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ مَالَ مَيْلَةً هِيَ أَشَدُّ مِنَ المَيْلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ حَتَّى كَادَ يَنْجَفِلُ، فَأَتَيْتُهُ فَدَعَمْتُهُ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: **مَنْ هَذَا؟** قُلْتُ: أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: **مَتَى كَانَ هَذَا مَسِيرَكَ مِنِّي؟** قُلْتُ: مَا زَالَ هَذَا مَسِيرِي مُنْذُ اللَّيْلَةِ، قَالَ: **حَفِظَكَ اللهُ بِمَا حَفِظْتَ بِهِ نَبِيَّهُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٣٣].

وَرُبَّمَا بَكَى أَحَدُهُمْ لِحَالِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا وَقَعَ مِنْ عُمَرَ رضي الله عنه، يَقُولُ رضي الله عنه: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ وَإِذَا أَفِيقٌ -وَهُوَ الْإِهَابُ الَّذِي قَدْ ذَهَبَ شَعْرُهُ وَلَمْ يُدْبَغْ- فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ فَقَالَ: **مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟** قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَا لِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ وَلَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ؟! قَالَ: **يَا ابْنَ الخَطَّابِ**،

---

(٣٢) مضى تخريجه في الحاشية السابقة (٣١).

(٣٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها (٦٨١).

أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمُ الدُّنْيَا؟ قُلْتُ: بَلَى» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ[٣٤].

وَمِنْ عَجِيبِ مَا يُرْوَى فِي مَحَبَّةِ الصَّحَابَةِ ﷺ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه يُقَالُ لَهُ: كَابِسُ بْنُ رَبِيعَةَ، كَانَ يُشْبِهُ النَّبِيَّ ﷺ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَأَشْخَصَهُ لِذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَأَقْطَعَهُ الْمِرْغَابَ[٣٥]، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ قَامَ لَهُ، فَقِيلَ لَهُ: «أَتَقُومُ لِهَذَا الشَّيْخِ وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنِّي رَأَيْتُ فِيهِ مُشَابِهًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنَا أَقُومُ لِذَلِكَ لَا لَهُ»[٣٦]، وَكَانَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ إِذَا رَآهُ بَكَى، وَقَالَ: «هَذَا أَشْبَهُ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[٣٧].

هَكَذَا كَانَتْ سِيرَةُ الْقَوْمِ مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ؛ وَلِذَا شَرُفُوا بِصُحْبَتِهِ، وَعَسَى أَنْ نَأْخُذَ الْعِبَرَ مِنْ سِيرَتِهِمْ، وَنَسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ، وَنَقْتَفِيَ أَثَرَهُمْ، وَنَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِمَّنْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ..

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ...

❁ ❁ ❁

---

(٣٤) هذا جزء من الحديث المخرج في حاشية (١٢)، وهذه الرواية لمسلم وابن حبان (٤١٨٨).

(٣٥) هو نهر في البصرة، كما ذكر ياقوت في معجم البلدان (٥/ ١٠٨)، وابن منظور في اللسان (١/ ٤٢٤) في مادة رغب.

(٣٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٦٨/ ١٢٧).

(٣٧) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٠/ ٣)، وينظر: الإكمال لابن ماكولا (٦/ ٢٠)، وكشف المشكل لابن الجوزي (١/ ٤٢).

٣٥٦- توقير السلف للنبي ﷺ (٢) من أخبار التابعين والعلماء

١٥/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ للَّهِ؛ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِالإِسْلَامِ، وَبَعَثَ إِلَيْنَا خَيْرَ الأَنَامِ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ؛ فَهَدَى بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَرْشَدَ بِهِ مِنَ الْغَوَايَةِ، وَأَبَانَ بِهِ الحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: حَقُّ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ عَظِيمٌ، وَفَضْلُهُ عَلَيْهِمْ كَبِيرٌ؛ فَبِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أُخْرِجُوا مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الإِسْلَامِ، وَمِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ إِلَى أَسْبَابِ السَّعَادَةِ، وَمِنْ مُوجِبَاتِ النَّارِ إِلَى مُوجِبَاتِ الجَنَّةِ.

كَانَ ﷺ رَحِيمًا بِأُمَّتِهِ، حَرِيصًا عَلَيْهِمْ، يَعِزُّ عَلَيْهِ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]؛ وَلِذَا كَانَ يَتْرُكُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُرِيدُهُ خَشْيَةَ أَنْ يُفْرَضَ عَلَيْهِمْ فَلَا يُطِيقُونَهُ.

كَانَ ﷺ يَتَأَلَّمُ لِأَلَمِهِمْ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، وَيَفْرَحُ بِهِدَايَتِهِمْ، وَيَخْشَى

عَذَابَهُمْ، وَيَدْعُو لَهُمْ؛ كَمَا رَوَى عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ﵄: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ . . . رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: **اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: **يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟** فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ -وَهُوَ أَعْلَمُ- فَقَالَ اللهُ: **يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «نَفَخَ فِي آخِرِ سُجُودِهِ فَقَالَ: **أُفْ أُفْ**، ثُمَّ قَالَ: **رَبِّ أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟! أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ؟!**»[1].

وَلِكُلِّ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ﵈ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، دَعَوْا رَبَّهُمْ فَاسْتَجَابَ دَعَوَاتِهِمْ، وَأَعْطَاهُمْ مَسَائِلَهُمْ، إِلَّا رَسُولَنَا ﷺ فَإِنَّهُ ادَّخَرَ دَعْوَتَهُ شَفَاعَةً لِأُمَّتِهِ فِي مَوْقِفٍ هُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ لِشَفَاعَتِهِ[2]، فَصَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

إِنَّ نَبِيًّا بَلَغَ حِرْصُهُ عَلَيْنَا، وَرَحْمَتُهُ بِنَا هَذَا المَبْلَغَ لَحَرِيٌّ بِنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُصَدِّقَهُ، وَأَنْ نُعَزِّرَهُ وَنُوَقِّرَهُ، وَأَنْ نَتَّبِعَهُ وَنُطِيعَهُ، وَأَنْ نُحِبَّهُ أَشَدَّ مِنْ مَحَبَّتِنَا لِأَنْفُسِنَا وَآبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَهُوَ -بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى- هِدَايَتُنَا وَنَجَاتُنَا، وَهُوَ حَيَاتُنَا وَسَعَادَتُنَا، فَمَا بُعِثَ بِهِ كَانَ غَيْثَ قُلُوبِنَا وَحَيَاتَهَا،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم (٢٠٢)، والرواية الثانية لأبي داود في الصلاة، باب من قال يركع ركعتين (١١٩٤)، ومن طريقه البيهقي (٢/ ٢٥٢).

(٢) عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**» أخرجه البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة (٦٣٠٤)، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته (١٩٨-١٩٩).

وَزَكَاءَ نُفُوسِنَا وَصَفَاءَهَا، وَأَعْظَمُ خَيْرٍ بَلَغَنَا -وَهُوَ الإِيمَانُ- إِنَّمَا بَلَغَنَا عَنْ طَرِيقِهِ، وَأَعْظَمُ شَرٍّ خِفْنَاهُ -وَهُوَ الكُفْرُ- إِنَّمَا جَانَبْنَاهُ؛ لِأَنَّهُ حَذَّرَنَا مِنْهُ، وَمَنْ مَاتَ مِنَّا عَلَى الإِيمَانِ، وَنَالَ الجَنَّةَ وَالرِّضْوَانَ، فَمَا نَالَ ذَلِكَ إِلَّا بِسَبَبِهِ؛ فَهَلْ تَرَوْنَ لِأَحَدٍ حَقًّا عَلَيْكُمْ -بَعْدَ حَقِّ اللَّهِ ﷻ- أَعْظَمَ مِنْ حَقِّ أَبِي القَاسِمِ ﷺ، بِآبَائِنَا هُوَ وَأُمَّهَاتِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَمْوَالِنَا.

لَقَدْ عَرَفَ السَّلَفُ الصَّالِحُ فَضْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلُوهُ المَنْزِلَةَ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا، آمَنُوا بِهِ وَأَحَبُّوهُ، وَصَدَّقُوهُ وَأَطَاعُوهُ، وَوَقَّرُوهُ وَعَزَّرُوهُ، وَلَمْ يَعْبُدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا فَعَلَتِ النَّصَارَى مَعَ ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام. وَأَخْبَارُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم فِي ذَلِكَ مُسْتَفِيضَةٌ، وَأَخْبَارُ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ فِيهِ كَثِيرَةٌ.

يَبْكِي وَاحِدُهُمْ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَهُ مَحَبَّةً لَهُ وَتَوْقِيرًا وَإِجْلَالًا، قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ: عَنْ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ: «كَانَ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى أَرْحَمَهُ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مِنْهُ مَا رَأَيْتُ، وَإِجْلَالَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَتَبْتُ عَنْهُ»(٣).

وَكَأَنَّ هَذَا الإِجْلَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَانَ سَجِيَّةً عِنْدَ السَّلَفِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا قَدْرَهُ وَمَنْزِلَتَهُ، وَعَلِمُوا مَا لَهُ مِنَ الفَضْلِ عَلَيْهِمْ، كَمَا حَدَّثَ بِذَلِكَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ شُيُوخِهِ رَأَى مِنْ حَالِهِمْ مَا رَأَى عِنْدَ ذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ، رَوَى مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: كَانَ مَالِكٌ إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَغَيَّرُ لَوْنُهُ وَيَنْحَنِي حَتَّى يَصْعُبَ ذَلِكَ عَلَى جُلَسَائِهِ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَمَا أَنْكَرْتُمْ عَلَيَّ مَا تَرَوْنَ، لَقَدْ كُنْتُ أَرَى مُحَمَّدَ بْنَ المُنْكَدِرِ -وَكَانَ سَيِّدَ القُرَّاءِ- لَا نَكَادُ نَسْأَلُهُ عَنْ حَدِيثٍ أَبَدًا إِلَّا يَبْكِي حَتَّى نَرْحَمَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ -وَكَانَ كَثِيرَ الدُّعَابَةِ وَالتَّبَسُّمِ- فَإِذَا

---

(٣) التمهيد (١/ ٣٤٠)، والتعديل والتجريح لأبي الوليد الباجي (١/ ٣٨٦).

ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ اصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَمَا رَأَيْتُهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا عَلَى طَهَارَةٍ . . . وَلَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْقَاسِمِ يَذْكُرُ النَّبِيَّ ﷺ فَيُنْظَرُ إِلَى لَوْنِهِ كَأَنَّهُ نَزَفَ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ جَفَّ لِسَانُهُ فِي فَمِهِ؛ هَيْبَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي عَامِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى حَتَّى لَا يَبْقَى فِي عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الزُّهْرِيَّ -وَكَانَ لَمِنْ أَهْنَإِ النَّاسِ وَأَقْرَبِهِمْ- فَإِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَكَأَنَّهُ مَا عَرَفَكَ وَلَا عَرَفْتَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ آتِي صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ -وَكَانَ مِنَ الْمُتَعَبِّدِينَ الْمُجْتَهِدِينَ- فَإِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ بَكَى، فَلَا يَزَالُ يَبْكِي حَتَّى يَقُومَ النَّاسُ وَيَتْرُكُوهُ»(٤).

وَهَذَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كَانَ يَبْكِي إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثِ الجِذْعِ الَّذِي بَكَى لَمَّا فَارَقَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: «يَا عِبَادَ اللَّهِ، الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَيْهِ»(٥).

وَكَانَ مِنَ الْمُسْتَقِرِّ عِنْدَهُمْ -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ-: تَوْقِيرُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ كَتَوْقِيرِ الصَّحَابَةِ ﵃ لَهُ فِي حَيَاتِهِ، فَلَا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي مَسْجِدِهِ إِجْلَالًا وَتَوْقِيرًا لَهُ ﷺ؛ وَلِذَلِكَ لَمَّا رَفَعَ رَجُلَانِ أَصْوَاتَهُمَا فِي مَسْجِدِهِ ﷺ فِي عَهْدِ عُمَرَ ﵁ اسْتَنْكَرَ عُمَرُ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى السَّائِبُ بْنُ يَزِيدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «كُنْتُ قَائِمًا فِي المَسْجِدِ، فَحَصَبَنِي رَجُلٌ فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَقَالَ: اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا، قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا؟ أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟ قَالَا: مِنْ

---

(٤) الشفاء للقاضي عياض (٢/ ٤١-٤٢)، وعنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٢٢٧)

(٥) أخرجه أبو يعلى (٢٧٥٦)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٢١٩)، واللالكائي في السنة (١٤٧٣)، والطبراني في الأوسط (١٤٠٨)، وصححه ابن حبان (٦٥٠٧)، والضياء المقدسي في المختارة (١٨٦١).

أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!!»(٦).

بَلْ كَانَ بَعْضُ التَّابِعِينَ يَرَى أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ فِي مَجَالِسِ الحَدِيثِ كَرَفْعِ الصَّوْتِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ الحَدِيثَ حَدِيثُهُ، قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كُنَّا عِنْدَ أَيُّوبَ السِّخْتِيَانِيِّ فَسَمِعَ لَغَطًا فَقَالَ: مَا هَذَا اللَّغَطُ؟ أَمَا بَلَغَهُمْ أَنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ عِنْدَ الحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَرَفْعِ الصَّوْتِ عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ؟!»(٧).

وَكَانَ مِنْ تَوْقِيرِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ لَا يُحَدِّثُونَ بِحَدِيثِهِ إِلَّا وَهُمْ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَهَيْئَةٍ، وَيُرَبُّونَ أَتْبَاعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ أَبُو سَلَمَةَ الخُزَاعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ لِيُحَدِّثَ تَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، وَلَبِسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ، وَلَبِسَ قَلَنْسُوَةً، وَمَشَّطَ لِحْيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: أُوَقِّرُ بِهِ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»(٨).

وَيُحَدِّثُ أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ عَنْ مَجْلِسِ وَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ فِي التَّحْدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقُولُ: «لَا يُتَحَدَّثُ فِي مَجْلِسِهِ، وَلَا يُبْرَى قَلَمٌ، وَلَا يُتَبَسَّمُ، وَلَا يَقُومُ أَحَدٌ قَائِمًا، كَانُوا فِي مَجْلِسِهِ كَأَنَّهُمْ فِي صَلَاةٍ، فَإِنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ شَيْئًا انْتَعَلَ وَدَخَلَ»(٩).

---

(٦) أخرجه البخاري في المساجد، باب رفع الصوت في المساجد (٤٥٨).

(٧) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٣٢).

(٨) أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٠٢)، وابن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٧٣١)، والرامهرمزي في المحدث الفاصل (٥٨٥).

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (١/ ٢٣٢)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٢٤)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (ص١٤٠)، وجاء مثله عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله تعالى.

وَمَرَّ الإِمَامُ مَالِكٌ عَلَى أَبِي حَازِمٍ وَهُوَ يُحَدِّثُ فَجَازَهُ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: لَمْ أَجِدْ مَوْضِعًا فَكَرِهْتُ أَنْ آخُذَ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا قَائِمٌ(١٠).

وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ يَتَحَدَّثُ فَيَضْحَكُ، فَإِذَا جَاءَ الحَدِيثُ خَشَعَ(١١).

وَجَاءَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ فِي مَرَضِهِ فَجَلَسَ وَحَدَّثَ بِهِ، فَقِيلَ لَهُ: وَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تَتَعَنَّ، فَقَالَ: كَرِهْتُ أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَأَنَا مُضْطَجِعٌ(١٢).

وَسُئِلَ ابْنُ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ حَدِيثٍ وَهُوَ يَمْشِي، فَقَالَ: «لَيْسَ هَذَا مِنْ تَوْقِيرِ الْعِلْمِ»(١٣).

وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ غَزِيرَةٌ، وَأَحْوَالُهُمْ فِيهِ عَجِيبَةٌ؛ تَوْقِيرًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمًا لِحَدِيثِهِ. وَمِنْ أَعْجَبِ شَيْءٍ يُرْوَى فِي ذَلِكَ: مَا جَاءَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا امْتُحِنَ فِي فِتْنَةِ خَلْقِ الْقُرْآنِ، وَتَعَاقَبَ ثَلَاثَةٌ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ: الْمَأْمُونُ وَالْمُعْتَصِمُ وَالْوَاثِقُ عَلَى امْتِحَانِهِ وَسَجْنِهِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى الْحَقِّ لَمْ يُغَيِّرْ وَلَمْ يُبَدِّلْ، وَحُمِلَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- إِلَى مَجْلِسِ الْوَاثِقِ مُقَيَّدًا فِي أَغْلَالِهِ، وَنَاظَرَهُمْ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَخَصَمَهُمْ، وَقَطَعَ حُجَّتَهُمْ، وَأَبْطَلَ مَكِيدَتَهُمْ، وَفَتَحَ اللهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِ الْخَلِيفَةِ الْوَاثِقِ فَعَلِمَ صِدْقَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَكَوْنَهُ عَلَى الْحَقِّ، فَأَمَرَ أَنْ يُفَكَّ قَيْدُهُ، فَفُكَّ وَأَخَذَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ،

---

(١٠) أخرجه الترمذي في العلل الصغير (٧٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١٨)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٦٨).

(١١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥٣/ ٢٠٧)، والخطيب في الجامع لأخلاق الرواي (٩٨٥).

(١٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (٦٩٣)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٩٧٣)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٢٥٥).

(١٣) أخرجه البيهقي في المدخل (٦٩٦)، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٣٩٣).

فَنَازَعَهُ إِيَّاهُ السَّجَّانُ، فَأَمَرَ الْوَاثِقُ أَنْ يُدْفَعَ الْقَيْدُ إِلَى الْإِمَامِ فَدُفِعَ إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ الْوَاثِقُ عَنْ سَبَبِ أَخْذِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ يَنْوِي بِهِ أَنْ يُخَاصِمَ بِهِ مَنْ ظَلَمُوهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: أَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ هَذَا لِمَ قَيَّدَنِي وَرَوَّعَ أَهْلِي وَوَلَدِي وَإِخْوَانِي بِلَا حَقٍّ أَوْجَبَ ذَلِكَ عَلَيَّ؟ وَبَكَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، فَبَكَى الْوَاثِقُ وَبَكَى مَنْ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ سَأَلَهُ الْوَاثِقُ أَنْ يَجْعَلَهُ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ مِمَّا نَالَهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي حِلٍّ وَسَعَةٍ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ؛ إِكْرَامًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ كُنْتَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِهِ»[١٤].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: هَكَذَا كَانَ حَالُ أَسْلَافِكُمْ مِنَ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ، وَكِبَارِ الْعُلَمَاءِ الْمَتْبُوعِينَ، وَالأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ؛ تَوْقِيرًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمًا لِحَدِيثِهِ، وَأَدَاءً لِحُقُوقِهِ عَلَيْهِمْ، وَأَخْبَارُهُمْ فِي ذَلِكَ تَعِزُّ عَلَى الْحَصْرِ، وَتَسْتَعْصِي عَلَى الْجَمْعِ، مِنْ كَثْرَتِهَا وَتَنَوُّعِهَا، يَجْمَعُهَا مَعْرِفَتُهُمْ قَدْرَ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِدْرَاكُهُمْ مِنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ؛ إِذْ بَعَثَهُ فِيهِمْ ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فَكَانُوا بِتَوْقِيرِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَتَعْظِيمِ حَدِيثِهِ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ مِنَ الْمُفْلِحِينَ الَّذِينَ أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى وَوَالِدِينَا وَأَوْلَادَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ، وَحَشَرَنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ فِي زُمْرَتِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . .

---

(١٤) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (١٠/ ٧٨)، وهو في السير للذهبي (١١/ ٣١٥).

الخُطبَةُ الثّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ؛ أَمَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَأَرْشَدَ لِلْخَيْرِ وَالْهُدَى، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ وَأَعْطَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَهْدَى وَأَسْدَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْمُجْتَبَى، وَالْعَبْدُ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُ وَاهْتَدَى.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَ مِنْ تَوْقِيرِ السَّلَفِ الصَّالِحِ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- لِلنَّبِيِّ ﷺ: تَعْظِيمُهُمْ لِسُنَّتِهِ، وَالْعِنَايَةُ بِهَا، وَتَقْدِيمُهَا عَلَى أَقْوَالِ الرِّجَالِ وَآرَائِهِمْ مَهْمَا بَلَغَتْ عُلُومُهُمْ، وَعَلَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَمَا مِنْ إِمَامٍ مَتْبُوعٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمَشْهُورَةِ إِلَّا وَيُعْلِنُ فِي أَتْبَاعِهِ وَتَلَامِذَتِهِ أَنَّ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ مَذْهَبُهُ، وَأَنَّ أَيَّ قَوْلٍ لَهُ يُخَالِفُ السُّنَّةَ فَهُوَ يَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْهُ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كُلُّ حَدِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَهُوَ قَوْلِي، وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوهُ مِنِّي»(١٥)، وَقَالَ أَيْضًا: «إِذَا وَجَدْتُمْ سُنَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خِلَافَ قَوْلِي فَخُذُوا بِالسُّنَّةِ، وَدَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي أَقُولُ بِهَا»(١٦).

وَذَكَرَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حَدِيثًا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تَأْخُذُ بِهِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «أَفِي الْكَنِيسَةِ أَنَا؟! أَوَ تَرَى عَلَى وَسَطِي زُنَّارًا؟! نَعَمْ أَقُولُ

---

(١٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥١/ ٣٨٩)، وهو في السير (١٠/ ٣٥).

(١٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٥١/ ٣٨٩)، والسمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١٠٩).

بِهِ، وَكُلُّ مَا بَلَغَنِي عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قُلْتُ بِهِ»(١٧).

وَرَوَى الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فَقَالَ: «سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ -وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ- فَقَالَ لَهُ: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ لَهُ السَّائِلُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ تَقُولُ بِهِ؟ قَالَ الرَّبِيعُ: فَرَأَيْتُ الشَّافِعِيَّ أَرْعَدَ وَانْتَفَضَ، وَقَالَ: يَا هَذَا، أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي إِذَا رُوِّيتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثًا فَلَمْ أَقُلْ بِهِ؟! نَعَمْ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنَيْنِ، عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنَيْنِ»(١٨).

فَمَا زِنَةُ هَذَا الْكَلَامِ الْمَتِينِ مِنْ هَذَا الْإِمَامِ الْكَبِيرِ عِنْدَ مَنْ يَرُدُّ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِرَأْيٍ رَآهُ، أَوْ هَوًى ابْتَغَاهُ؟!

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ وَعَظَّمَ سُنَّتَهُ وَاتَّبَعَ شَرِيعَتَهُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَوَّلَ النُّصُوصَ الْمُحْكَمَةَ الْوَاضِحَةَ؛ لِيُوَافِقَ بِهَا أَهْوَاءَ الْبَشَرِ وَمُرَادَهُمْ؛ لِجَاهٍ يَبْتَغِيهِ، أَوْ مَالٍ يَطْلُبُهُ، أَوْ دُنْيَا يُرِيدُهَا؟ وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي هَذَا الزَّمَنِ! إِذْ أَيْسَرُ شَيْءٍ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَكْذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَيُبَدِّلَ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى؛ اتِّبَاعًا لِهَوَاهُ وَهَوَى مَنْ يَطْلُبُ رِضَاهُمْ مِنَ الْبَشَرِ دُونَ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى.

وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُبَدِّلُونَ الْمُغَيِّرُونَ الَّذِينَ يُذَادُونَ عَنْ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ يَرِدُهُ الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَفِيهِمْ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَا عَلَى حَوْضِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ، فَيُؤْخَذُ بِنَاسٍ مِنْ دُونِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي؟! فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي، مَشَوْا عَلَى الْقَهْقَرَى**. قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَرْجِعَ عَلَى أَعْقَابِنَا أَوْ نُفْتَنَ»(١٩). وَفِي رِوَايَةٍ: «**فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا**

---

(١٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٠٦)، وفي تاريخ أصبهان (٢٢٤)، وابن عساكر (٥١/ ٣٨٧).

(١٨) أخرجه ابن عساكر (٥١/ ٣٨٩).

(١٩) أخرجه من حديث أسماء ﵄: البخاري في الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (٦٦٤١).

سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٠].

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ يَسْخَرُونَ مِنْ سُنَّتِهِ، وَيُطَالِبُونَ بِاطِّرَاحِ دِينِهِ، وَيَسْعَوْنَ سَعْيًا حَثِيثًا فِي صَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ إِلَى مَنَاهِجِ مَلَاحِدَةِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ؟ وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي أَهْلِ الصَّحَافَةِ وَالإِعْلَامِ، الَّذِينَ يَحْتَفُونَ بِالزَّنَادِقَةِ وَالمُلْحِدِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَالمُرْتَدِّينَ أَكْثَرَ مِنِ احْتِفَائِهِمْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَيَقْضُونَ بِأَقْوَالِهِمُ الْكُفْرِيَّةِ عَلَى النُّصُوصِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى إِسْلَامٍ حَضَارِيٍّ لِيبْرَالِيٍّ مُتَسَامِحٍ، وَمَا يَدْعُونَ وَاللَّهِ إِلَّا إِلَى إِلْحَادِ الْغَرْبِ وَكُفْرِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَانْحِلَالِهِمْ!!

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنِ اسْتَهْزَأَ بِشَيْءٍ مِنْ هَدْيِهِ فِي الهَيْئَةِ وَاللِّبَاسِ؛ كَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ وَإِكْرَامِ اللِّحَى وَإِعْفَائِهَا؟ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَسْخَرُونَ بِهَذَا الهَدْيِ النَّبَوِيِّ المُبَارَكِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَسْخَرُونَ مِنَ الأَشْخَاصِ لَا مِنَ الهَدْيِ النَّبَوِيِّ، ثُمَّ نَرَاهُمْ يَحْتَفُونَ بِمَنِ انْتَكَسَ بَعْدَ الِاسْتِقَامَةِ، وَزَاغَ بَعْدَ الْهِدَايَةِ، وَنَزَعَ مَظَاهِرَ السُّنَّةِ مِنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ، وَيُعَظِّمُونَهُ وَيُقَدِّمُونَهُ، وَيَخْتَصُّونَهُ بِالرِّعَايَةِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَيَفْتَحُونَ لَهُ المَجَالَاتِ الصَّحَفِيَّةِ، وَإِذْ ذَاكَ لَمْ تَكُنْ سُخْرِيَتُهُمْ بِالأَشْخَاصِ وَإِنَّمَا كَانَتْ بِسُنَّةِ المُصْطَفَى ﷺ.

وَهَلْ وَقَّرَ النَّبِيَّ ﷺ مَنْ حَادَ عَنْ طَرِيقَتِهِ، وَاسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ فِي شَرِيعَتِهِ، وَابْتَدَعَ فِي دِينِهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَتَرَكَ مِنَ السُّنَّةِ بِقَدْرِ بِدْعَتِهِ، كَمَنْ يُحْيُونَ المَوَالِدَ، وَيَخُصُّونَ بَعْضَ اللَّيَالِي بِفَضْلٍ وَعِبَادَاتٍ لَمْ تَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مِنَ الِاحْتِفَاءِ بِلَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ،

---

(٢٠) أخرجه البخاري في الفتن، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ (٦٦٤٣)، ومسلم في الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته (٢٢٩٠).

وَتَخْصِيصِ لَيْلَتِهَا بِالْقِيَامِ، وَيَوْمِهَا بِالصِّيَامِ، مُخَالِفِينَ بِذَلِكَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ، مُبْتَدِعِينَ فِي دِينِهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؟

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا لِنَبِيِّكُمْ ﷺ حَقَّهُ، وَوَقِّرُوهُ وَعَزِّرُوهُ، وَعَظِّمُوا سُنَّتَهُ، وَاحْفَظُوا لَهُ مَكَانَتَهُ، وَأَنْزِلُوهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِيَّاهَا بِلَا إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ، وَلَا غُلُوٍّ وَلَا تَقْصِيرٍ، وَاقْرَؤُوا سِيرَتَهُ، وَتَزَوَّدُوا مِنْ حَدِيثِهِ، وَأَطِيعُوا أَوَامِرَهُ، وَاجْتَنِبُوا زَوَاجِرَهُ؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى تُنَالُ بِذَلِكَ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...

❀ ❀ ❀

٣٥٧- عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

٩/ ٤/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: اخْتِيَارُ الْعِبَادِ، وَرَفْعُهُمْ إِلَى أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، وَتَشْرِيفُهُمْ بِأَشْرَفِ الْمُهِمَّاتِ؛ هِبَةٌ يَهَبُهَا اللهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وَهَذَا الِاخْتِيَارُ يَكُونُ بِمُقْتَضَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى اصْطَفَى الْأَنْبِيَاءَ عليهم السلام مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبَشَرِ؛ لِعِلْمِهِ عز وجل بِصَلَاحِ قُلُوبِهِمْ، وَاخْتَارَ لَهُمْ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْأَتْبَاعِ أَبَرَّ النَّاسِ وَأَتْقَاهُمْ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ

قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ . . .» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

وَأَعْظَمُ خَيْرٍ فِي الْأُمَّةِ كَانَ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ فِي زَمَنِ أَصْحَابِهِ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ فِي زَمَنِ أَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ، وَيَتَنَاقَصُ الْخَيْرُ بِتَقَادُمِ الزَّمَنِ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ وَاثِلَةَ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَنِي، وَاللَّهِ لَا تَزَالُونَ بِخَيْرٍ مَا دَامَ فِيكُمْ مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي وَصَاحَبَ مَنْ صَاحَبَنِي»**(٢).

وَمِنْ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ، وَكِبَارِ الْأَصْحَابِ، وَسَادَةِ الْأَنَامِ: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ. تَقَدَّمَ إِسْلَامُهُ حَتَّى كَانَ ثَامِنَ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٧٩)، وفي فضائل الصحابة (٥٤١)، والطيالسي (٢٤٦)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١١٢) برقم (٨٥٨٣)، والبزار كما في كشف الأستار(١٣٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٧٥-٣٧٦)، والبغوي في شرح السنة (١٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثوقون» (١/ ١٧٧-١٧٨)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٣٦٠٠).
وقد جاء مرفوعًا من حديث أنس بن مالك ﷺ، أخرجه الخطيب في تاريخه (٤/ ٦٥)، وعنه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٨٠)، ولا يصح مرفوعًا بل هو موضوع، في سنده سليمان بن عمرو بن عبد الله النخعي الكوفي، كذبه أحمد وابن معين وإسحاق بن راهويه وأبو حاتم وابن حبان وغيرهم، ينظر: تاريخ ابن معين (٢/ ٢٣٢)، والتاريخ الصغير للبخاري (٢/ ٢٦٦)، والضعفاء للعقيلي (٢/ ١٣٤-١٣٥)، والجرح والتعديل (٤/ ١٣٢-١٣٣)، والمجروحين (١/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٠٥)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٥) برقم (٢٠٧)، وفي مسند الشاميين (٧٩٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٧).

ثَمَانِيَةٍ أَسْلَمُوا أَوَّلًا[٣]، وَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ[٤]، وَهُوَ أَحَدُ الْعَشَرَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ[٥]، كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الْكَعْبَةِ، فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ الرَّحْمَنِ[٦]، شَهِدَ الْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثَبَتَ فِي أُحُدٍ حَتَّى أُصِيبَ عِشْرِينَ إِصَابَةً بَعْضُهَا فِي رِجْلِهِ؛ فَكَانَ رضي الله عنه مِنْ جَرَّائِهَا أَعْرَجَ[٧].

كَانَ رضي الله عنه مِثَالًا لِلتَّاجِرِ الْمُسْلِمِ الَّذِي يُحْسِنُ الضَّرْبَ فِي الْأَسْوَاقِ، وَيُجِيدُ إِدَارَةَ الْأَمْوَالِ، هَاجَرَ فَقِيرًا لَا مَالَ لَهُ؛ فَمَا تَرَكَ الْمُشْرِكُونَ فِي مَكَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ شَيْئًا! فَتَنُوهُمْ فِي دِينِهِمْ، وَصَادَرُوا أَمْوَالَهُمْ، وَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ فِرَارًا مِنَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ لَا شَيْءَ مَعَهُمْ.

قَدِمَ ابْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه الْمَدِينَةَ وِلَا مَالَ لَهُ، فَآخَى رَسُولُ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ أَحَدِ النُّقَبَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ[٨].

---

(٣) سير أعلام النبلاء (١/ ٦٨)، وفي طبقات ابن سعد من طريق الواقدي أنه رضي الله عنه أسلم قبل أن يدخل النبي ﷺ دار أرقم بن أبي الأرقم (٣/ ٩٢).

(٤) طبقات ابن سعد، ونقله عن الواقدي وابن إسحاق (٢/ ٩٢).

(٥) جاء ذلك في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعلي في الجنة، وعثمان في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة**» أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٢٠٩)، وفي الفضائل (٢٧٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه (٣٧٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٨١٩٤)، والبغوي في شرح السنة (٣٩٦)، وصححه ابن حبان (٧٠٠٢).

وجاء أيضًا من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٤٨)، وابن ماجه في المقدمة، باب فضائل العشرة رضي الله عنهم (١٣٣)، والنسائي في الكبرى (٨١٩٣)، وأحمد (١/ ١٨٧).

(٦) الطبقات (٣/ ٩٢).

(٧) أخرجه عن محمد بن إسحاق: الحاكم (٣/ ٣٠٨)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٨) برقم (٦١).

(٨) الطبقات (٣/ ٩٣)، والسير (١/ ٩١).

وَإِزَاءَ هَذِهِ المُؤَاخَاةِ الْعَجِيبَةِ فِي مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا، وَتَنْفِيذِ الصَّحَابَةِ لَها؛ يَخْضَعُ التَّارِيخُ، وَيَنْفَدُ مِدَادُ الْأَقْلَامِ، فَمَا عَرَفَ التَّارِيخُ قَدِيمًا وَلَا حَدِيثًا مُؤَاخَاةً كَمُؤَاخَاةِ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّه عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

مُؤَاخَاةٌ صَادِقَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا، وَخَالِصَةٌ لَا رِيَاءَ مَعَهَا، وَلَيْسَتْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ، أَوْ مَصَالِحَ شَخْصِيَّةٍ. أَظْهَرَ فِيهَا الْأَنْصَارُ الْبَذْلَ وَالْإِيثَارَ، وَقَابَلَهُمْ إِخْوَانُهُمُ المُهَاجِرُونَ بِغِنَى النَّفْسِ وَالاسْتِعْفَافِ.

وَلَسْتُ أَعْلَمُ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ حَادِثَةً نَزَلَ فِيهَا قَوْمٌ عَلَى آخَرِينَ فَعَرَضُوا عَلَيْهِمْ شَطْرَ أَمْوَالِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَدُورِهِمْ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ.

نَعَمْ، قَدْ يُوجَدُ أَفْرَادٌ نُبَلَاءُ، وَرِجَالٌ كُرَمَاءُ، يَكُونُ الْكَرَمُ سَجِيَّتَهُمْ، وَالْإِيثَارُ خُلُقَهُمْ؛ كَمَا كَانَ مِنْ حَاتِمٍ طَيِّئٍ، وَلَكِنَّهُمْ يَظَلُّونَ أَفْرَادًا لَا أُمَّةً.

أَمَّا الْأَنْصَارُ فَهُمْ قَبِيلَتَانِ كَبِيرَتَانِ، اسْتَقْبَلُوا المُهَاجِرِينَ خَيْرَ اسْتِقْبَالٍ، وَقَاسَمُوهُمُ الْأَمْوَالَ وَالضِّيَاعَ؛ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَدَاءً لِحَقِّ المُؤَاخَاةِ.

وَمَا حَادِثَةُ ابْنِ الرَّبِيعِ مَعَ ابْنِ عَوْفٍ ﵄ إِلَّا صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ الْإِيثَارِ الْجَمَاعِيِّ، وَمَا عِفَّةُ ابْنِ عَوْفٍ عَنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا مِثَالٌ عَلَى الِاسْتِعْفَافِ الْجَمَاعِيِّ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: «لَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ: أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا، فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي، وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا، قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ، قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ، ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ . . » رواهُ الْبُخَارِيُّ[٩].

---

(٩) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] (١٩٤٣). =

إِيثَارٌ عَجِيبٌ مِنِ ابْنِ الرَّبِيعِ، وَعِفَّةٌ أَعْجَبُ مِنِ ابْنِ عَوْفٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى المَالِ، فَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْ سَعْدٍ وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ.

لَازَمَ ابْنُ عَوْفٍ السُّوقَ حَتَّى جَمَعَ المَالَ الْوَفِيرَ، وَحَازَ الْعِقَارَ الْكَثِيرَ، وَأَدَارَ تِجَارَةً عَظِيمَةً، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: «كَانَ مَجْدُودًا فِي التِّجَارَةِ، خَلَّفَ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةَ آلَافِ شَاةٍ، وَمِئَةَ فَرَسٍ، وَكَانَ يَزْرَعُ بِالْجُرْفِ عَلَى عِشْرِينَ نَاضِحًا»(١٠).

وَلَمَّا بَلَغَ مِنَ التِّجَارَةِ وَجَمْعِ المَالِ مَا بَلَغَ؛ مَا قَالَ مَقُولَةَ قَارُونَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وَلَا ظَنَّ كَمَا ظَنَّ غَيْرُهُ أَنَّهُ وَرِثَهُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ؛ بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَقَرَّ بِحَقِّهِ فِيهِ، فَأَطْعَمَ بِهِ المِسْكِينَ، وَبَلَّغَ بِهِ ابْنَ السَّبِيلِ، وَأَنْفَقَ فِي الْجِهَادِ، وَسَدَّ حَاجَةَ الْمُحْتَاجِ؛ حَتَّى قَالَ الزُّهْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «تَصَدَّقَ ابْنُ عَوْفٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشَطْرِ مَالِهِ أَرْبَعَةِ آلَافٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَحَمَلَ عَلَى خَمْسِ مِئَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى خَمْسِ مِئَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ عَامَّةُ مَالِهِ مِنَ التِّجَارَةِ»(١١).

عَلِمَ ابْنُ عَوْفٍ مَا لِأُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَقِّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فَتَعَاهَدَهُنَّ بِمَالِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِنَّ الْعَطَايَا؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ

= وجاء من حديث أنس رضي الله عنه عند: الشافعي في مسنده (١/ ٢٤٦) برقم (١٢١١)، وأحمد (٣/ ١٩٠-٢٠٤-٢٧١)، والبخاري في البيوع (٢٠٤٩)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في مواساة الأخ (١٩٣٣)، والنسائي في النكاح، باب الهدية لمن عرس (٦/ ١٣٧)، وأبي يعلى (٣٧٨١).

(١٠) السير (١/ ٩٢)، وأخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٦)، والحاكم (٣/ ٣٤٩) عن عثمان بن الشريد رحمه الله تعالى، ومعنى مجدودًا، أي: محظوظًا، يكسب ما يحرمه غيره. ينظر: النهاية (٣/ ١٩١)، واللسان (١٢/ ٣٩٣).

(١١) السير (١/ ٩٢).

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي مِنْ بَعْدِي**»، فَأَوْصَى لَهُنَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِحَدِيقَةٍ قُوِّمَتْ بِأَرْبَعِ مِئَةِ أَلْفٍ(١٢).

وَبَاعَ أَرْضًا بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَقَسَمَهَا فِي فُقَرَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، وَفِي الْمُهَاجِرِينَ، وَفِي أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمَّا أُتِيَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها بِنَصِيبِهَا مِنْهُ قَالَتْ: «مَنْ أَرْسَلَ بِهَذَا؟ فَقِيلَ لَهَا: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَتْ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **لَا يَحْنُو عَلَيْكُنَّ بَعْدِي إِلَّا الصَّابِرُونَ، سَقَى اللهُ ابْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الْجَنَّةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٣).

وَرَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَزْوَاجِهِ: «**إِنَّ الَّذِي يَحْنُو عَلَيْكُنَّ بَعْدِي لَهُوَ الصَّادِقُ الْبَارُّ، اللَّهُمَّ اسْقِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ مِنْ سَلْسَبِيلِ الْجَنَّةِ**»(١٤).

---

(١٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال: حسن غريب (٣٧٥٠)، وأبو يعلى (٥٩٢٤)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١-٣١٢)، واللفظ للحاكم.

(١٣) أخرجه من حديث أم بكر بنت المسور أن عبد الرحمن بن عوف .. أحمد (٦/ ١٠٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٢)، والحاكم وصححه، وقال الذهبي في التلخيص: ليس بمتصل (٣/ ٣١١).
وأخرجه بنحوه من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها: أحمد في فضائل الصحابة (١٢٥٨)، والترمذي في المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وقال: حسن صحيح غريب (٣٧٤٩)، وصححه ابن حبان (٦٩٩٥).

(١٤) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٩-٣٠٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٤١٣)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٨٨) برقم (٦٣٦)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائده للهيثمي (٩٧٨)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٣١١).
قلت: وفي سنده محمد بن إسحاق يرويه عن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين عن عوف بن الحارث عن أم سلمة به، وابن إسحاق مدلس، وقد عنعن، لكن يشهد له حديث عائشة المذكور قبله.

وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عِيَالًا عَلَيْهِ؛ ثُلُثٌ يُقْرِضُهُمْ مَالَهُ، وَثُلُثٌ يَقْضِي دَيْنَهُمْ، وَيَصِلُ ثُلُثًا[١٥].

قَالَ جَعْفَرُ بْنُ بُرْقَانَ: «بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ أَعْتَقَ ثَلَاثِينَ أَلْفَ بَيْتٍ»[١٦].

وَإِذَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ بِمَالٍ عَظِيمٍ، وَخَيْرٍ وَفِيرٍ؛ فَإِنَّ لَذَّتَهُ تَكْتَمِلُ إِذَا صَاحَبَهَا جَاهٌ وَسُلْطَانٌ، وَكَانَ ذَلِكَ لابْنِ عَوْفٍ، وَلَكِنَّهُ زَهِدَ فِيهِ؛ إِذْ جَعَلَهُ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا طُعِنَ مِنَ السِّتَّةِ أَهْلِ الشُّورَى، فَعَزَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسَهُ مِنَ الْأَمْرِ، وَاخْتَارَ لِلْأُمَّةِ مَنْ أَشَارَ بِهِ أَهْلُ الحَلِّ وَالْعَقْدِ، فَنَهَضَ فِي ذَلِكَ أَتَمَّ نُهُوضٍ عَلَى جَمْعِ الْأُمَّةِ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَلَوْ كَانَ مُحَابِيًا فِي الْخِلَافَةِ لَأَخَذَهَا لِنَفْسِهِ، أَوْ لَوَلَّاهَا ابْنَ عَمِّهِ وَأَقْرَبَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ: سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ[١٧].

وَلَمَّا أَشَارَ عَلَيْهِ سَعْدٌ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى نَفْسِهِ -وَهُوَ أَهْلٌ لِلْخِلَافَةِ- قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، إِنَّهُ لَنْ يَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ أَحَدٌ بَعْدَ عُمَرَ إِلَّا لَامَهُ النَّاسُ»[١٨].

جَاءَتْ بِشَارَةُ ابْنِ عَوْفٍ إِلَيْهِ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ؛ إِذْ مَرِضَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رضي الله عنهما، وَغُشِيَ عَلَيْهِ، قَالَ ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ: «غُشِيَ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فِي وَجَعِهِ غَشْيَةً، فَظَنُّوا أَنَّهَا قَدْ فَاضَتْ نَفْسُهُ فِيهَا، حَتَّى قَامُوا مِنْ عِنْدِهِ وَجَلَّلُوهُ ثَوْبًا، وَخَرَجَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ امْرَأَتُهُ إِلَى المَسْجِدِ تَسْتَعِينُ فِيمَا أُمِرَتْ بِهِ مِنَ الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ، فَلَبِثُوا سَاعَةً وَهُوَ فِي غَشْيَةٍ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ: اللهُ

---

(١٥) السير (١/ ٨٨).

(١٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩٩)، وهو في السير (١/ ٩٢).

(١٧) السير (١/ ٨٦).

(١٨) السير (١/ ٨٧).

أكبر، فَكَبَّرَ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَمَنْ يَلِيهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: غُشِيَ عَلَيَّ آنِفًا؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: صَدَقْتُمْ، فَقَالَ: إِنَّهُ انْطَلَقَ بِي فِي غَشِيَّتِي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا فِيهِ شِدَّةٌ وَفَظَاظَةٌ، فَقَالَا: انْطَلِقْ نُحَاكِمْكَ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. فَقَالَ: أَرْجِعَاهُ فَإِنَّهُ مِنَ الَّذِينَ كَتَبَ اللهُ لَهُمُ السَّعَادَةَ وَالمَغْفِرَةَ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَأَنَّهُ سَيَتَمَتَّعُ بِهِ بَنُوهُ إِلَى مَا شَاءَ اللهُ. فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ شَهْرًا» رَوَاهُ الْحَاكِمُ وصَحَّحَهُ(١٩)، لَقَدْ أَتَتْهُ بِشَارَتُهُ ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِشَهْرٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَسَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

وَقَدْ غَبَطَهُ عَلِيٌّ ﷺ؛ فَإِنَّهُ قَالَ يَوْمَ وَفَاةِ ابْنِ عَوْفٍ: «اذْهَبْ يَا ابْنَ عَوْفٍ، فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا، وَسَبَقْتَ رَنْقَهَا»(٢٠). أَيْ: كَدَرَهَا.

رَضِيَ اللهُ عَنِ ابْنِ عَوْفٍ وَأَرْضَاهُ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَجَمَعَنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، آمِينْ ..

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ

---

(١٩) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١١٢) برقم (٢٠٠٦٥)، والحاكم واللفظ له (٢/ ٢٦٩) و(٣/ ٣٤٧)، وقال في الموضع الأول: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وسكت عنه في الموضع الثاني.

وأخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده، كما ذكر الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٣٩٧٦)، وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة: رواه إسحاق بن راهويه بسند صحيح (٦٧١٢).

(٢٠) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٢٥٥-١٢٥٧)، وابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٠)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٨) برقم (٢٦٢)، والحاكم (٣/ ٣٠٨).

وقوله «رنقها» أي: كدرها، فالرنق هو الكدر، يقال: ماء رنق، أي: كدر، ينظر: اللسان (١٠/ ١٢٧).

ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يَزِيدُ نِعَمَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَالْتَزِمُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَتْ سِيرَةُ ابْنِ عَوْفٍ كَسِيرَةِ إِخْوَانِهِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ، وَالتَّضْحِيَةِ لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى؛ طَلَبًا لِمَغْفِرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ، وَقَدِ اشْتُهِرَ ابْنُ عَوْفٍ رضي الله عنه بِأَنَّهُ كَانَ مِنْ تُجَّارِ الصَّحَابَةِ وَأَغْنِيَائِهِمْ، كَمَا اشْتُهِرَ غَيْرُهُ بِأَعْمَالٍ أُخْرَى، وَكَانَ رضي الله عنه يَخَافُ أَشَدَّ الْخَوْفِ مِنْ مَالِهِ(٢١)، رَغْمَ أَنَّ مَالَهُ كَانَ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ حَلَالٍ، بَيْدَ أَنَّهُ خَافَ طُولَ الْحِسَابِ؛

(٢١) من أدلة ذلك: ما رواه شقيق بن سلمة -رحمه الله تعالى- فقال: «دخل عبد الرحمن بن عوف على أم سلمة فقال: يا أم المؤمنين، إني أخشى أن أكون قد هلكت، إني من أكثر قريش مالًا، بعت أرضًا بأربعين ألف دينار، فقالت: أنفق يا بني، فإني سمعت =

فَأَنْفَقَ النَّفَقَاتِ الْكَبِيرَةَ فِي الْجِهَادِ، وَبَذَلَ الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ لِذَوِي الْحَاجَاتِ، وَكَفَلَ أُسَرًا كَثِيرَةً، وَلَازَمَهُ خَوْفُهُ مِنْ مَالِهِ حَتَّى كَانَ يُبْكِيهِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ.

رَوَى ابْنُهُ إِبْرَاهِيمُ: «أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا، فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ، وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ، وَأُرَاهُ قَالَ: وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنَ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ، أَوْ قَالَ: أُعْطِينَا مِنَ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[٢٢].

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ ﷺ مِثَالٌ صَالِحٌ، وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِكُلِّ تَاجِرٍ مُسْلِمٍ يَخَافُ تَبِعَةَ الْأَمْوَالِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْحِسَابَ عَلَيْهَا سَيَكُونُ فِي الْكَسْبِ وَالْإِنْفَاقِ؛ فَلَا يَأْخُذُهَا إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يُنَمِّي تِجَارَتَهُ إِلَّا بِالْحَلَالِ، مَعَ الْبُعْدِ عَنِ الْمُتَشَابِهِ، فَضْلًا عَنِ الْحَرَامِ، ثُمَّ إِذَا حَازَ الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ أَنْفَقَهَا فِي الْحَقِّ، وَكُلَّمَا تَخَفَّفَ صَاحِبُ الْمَالِ مِنْ مَالِهِ فِي الدُّنْيَا بِالْإِنْفَاقِ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ؛ كَانَ ذَلِكَ أَخَفَّ لِحِسَابِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ، وَأَصْحَابَ الْأَمْوَالِ بِوَجْهٍ أَخَصَّ، يُدْخِلُونَ فِي تِجَارَاتِهِمْ مُعَامَلَاتٍ مُحَرَّمَةً، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ عَنْ تَنْمِيَةِ أَمْوَالِهِمْ بِالْمُشْتَبِهِ وَبِمَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَرَامِ، فِي تَنَافُسٍ مَحْمُومٍ عَلَى زِيَادَةِ الْأَرْبَاحِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى الْوَسِيلَةِ. وَإِذَا كَانَ ابْنُ عَوْفٍ ﷺ قَدْ خَافَ مِنْ مَالِهِ، وَبَكَى لِأَجْلِ ذَلِكَ، وَتِجَارَتُهُ حَلَالٌ؛ فَأَوْلَى أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَنْ كَانَ فِي تِجَارَتِهِ حَرَامٌ أَوْ شُبْهَةٌ! فَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ ذَلِكَ،

= رسول الله ﷺ يقول: «إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه ..» أخرجه أحمد واللفظ له (٦/ ٣٧)، والبزار كما في مختصر زوائده للحافظ ابن حجر وصححه (١٨٨٣)، وأبو يعلى (٧٠٠٣).

(٢٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد (٣٨١٩)، وابن حبان (٧٠١٨).

وَيُطَهِّرَ أَمْوَالَهُ مِنَ الْحَرَامِ، وَيَتَوَرَّعَ عَنِ الْمُتَشَابِهِ.

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ رضي الله عنه وَهُوَ يَبْذُلُ المَالَ الْوَفِيرَ فِي وُجُوهِ الْحَقِّ كَانَ يُلَاحِظُ أَنَّ هَذَا المَالَ مَالُ اللَّهِ تَعَالَى، قَدْ مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ، فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، خِلَافًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَثْرِيَاءِ الَّذِينَ يَنْسُبُونَ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنْفُسِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ وَاسْتِشَارَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: الشُّحُّ بِالمَالِ، وَالِاسْتِئْثَارُ بِهِ، وَغِيَابُ الْبَذْلِ وَالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَرَى أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ فِي مَالِهِ!!

وَلَوْ أَنَّ أَثْرِيَاءَ الْمُسْلِمِينَ رَدُّوا بَعْضَ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَأَوْقَفُوا الْأَوْقَافَ لِأَجْلِ ذَلِكَ؛ لَمَا رَأَيْنَا فِي مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الطَّبَقِيَّةَ المَذْمُومَةَ، الَّتِي تَجْعَلُ أُنَاسًا فِي مَصَافِّ الثَّرَاءِ الْفَاحِشِ، وَآخَرِينَ لَا يَجِدُونَ بُلْغَةً مِنْ عَيْشٍ كَرِيمٍ!!

وَمَا يَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَحْقَادٍ وَضَغَائِنَ، وَأَخْلَاقٍ رَدِيئَةٍ؛ كَالسَّرِقَةِ وَالِاخْتِلَاسِ وَالتَّسَوُّلِ، لَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ.

إِنَّ ابْنَ عَوْفٍ رضي الله عنه قُدْوَةٌ حَسَنَةٌ لِكُلِّ ذِي جَاهٍ وَمَالٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فِي تَوَاضُعِهِ وَلِينِهِ وَرَأْفَتِهِ بِالْفُقَرَاءِ وَالمُعْوِزِينَ، وَقَدْ نُقِلَ عَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ لَا يُعْرَفُ مِنْ بَيْنِ عَبِيدِهِ(٢٣)، فَهُوَ يَأْكُلُ مَعَهُمْ، وَلَا يَتَمَيَّزُ عَلَيْهِمْ.

---

(٢٣) السير (١/ ٨٩).

تنبيه: جاءت أحاديث عدة مفادها أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يتأخر في دخول الجنة، أو يدخلها حبوًا بسبب تجارته وأمواله الكثيرة، وهذه الأحاديث لا يصح منها شيء، بل هي بين منكر ومنقطع وضعيف، وهي كذلك معارضة للأحاديث الصحيحة التي تثبت فضل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وسابقته في الإسلام، وإنفاقه في الجهاد وغير ذلك.

وإنما نبهت على هذه الأحاديث المنكرة والضعيفة؛ لئلا يغتر بها بعض الخطباء فينقلها =

. . . .

= من كتب الحديث أو الزهد على علاتها، ولا سيما إذا كان يخطب عن الزهد، أو التحذير من فتنة الدنيا، أو فتنة المال، أو نحو هذه الموضوعات.

ومن تلك الأحاديث المنكرة الواردة في ذلك: حديث أنس ﷺ قال: «بينما عائشة في بيتها إذ سمعت صوتًا في المدينة، فقالت: ما هذا؟ قالوا: عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شي، قال: فكانت سبع مئة بعير، قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوًا، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف، فقال: إن استطعت لأدخلنها قائمًا، فجعلها بأقتابها وأحمالها في سبيل الله ﷻ» أخرجه أحمد (٦/ ١١٥)، والبزار (٢٥٨٦)، والطبراني في الكبير (١/ ١٢٩) برقم (٢٦٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٩٨).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٨): «رواه أحمد والبزار بنحوه والطبراني، وفيه عمارة بن زاذان ضعفه النسائي والدارقطني، وقد شهد عبد الرحمن بن عوف ﷺ بدرًا والحديبية، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة وصلى خلفه».

قلت: وهو حديث منكر تفرد به عمارة بن زاذان الصيدلاني، قال الإمام أحمد: يروي عن أنس أحاديث مناكير.

وفي معناه أحاديث أخرى عن أبي أمامة وحفصة بنت عمر وعبد الله بن أبي أوفى ﷺ، وكلها أحاديث ضعيفة، وفيها المنكر؛ فلا يجوز الاحتجاج بها، كما أفاد ذلك المحققون من العلماء. ينظر: عدة الصابرين لابن القيم (١٢٨-١٣١)، ومسند الإمام أحمد طبعة دار الرسالة، تحقيق الأرناؤوط وآخرين (٣٦/ ٥٦٥-٥٦٨) برقم (٢٢٢٣٢)، وأيضًا (٤١/ ٣٣٧-٣٣٩) برقم (٢٤٨٤٢) وزوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة تحقيق: الدكتور خلدون الأحدب (٩/ ٣٧١-٣٧٥) برقم (٢١٠٩).

وقال ابن الجوزي بعد أن أورد حديث أنس السابق ذكره: «وبمثل هذا الحديث الباطل يتعلق جهلة المتزهِّدين، ويرون أن المال مانع من السبق إلى الخير، ويقولون: إذا كان ابن عوف يدخل الجنة زحفًا لأجل ماله كفى ذلك في ذم المال، والحديث لا يصح، وحوشي عبد الرحمن المشهود له بالجنة أن يمنعه ماله من السبق؛ لأن جمع المال مباح، وإنما المذموم كسبه من غير وجهه، ومنع الحق الواجب فيه، وعبد الرحمن ينزه عن الحالين، وقد خلف طلحة ثلاث مئة حمل من الذهب وخلف الزبير وغيره، ولو علموا أن ذلك مذموم لأخرجوا الكل، وكم قاص يتشوق بمثل هذا الحديث الباطل يحث على =

. . . .

= الفقر ويذم الغنى، فلله در العلماء الذين يعرفون الصحيح، ويفهمون الأصول» اهـ من الموضوعات (١/ ٣٢٧).

وقد تعقب ابن القيم ابن الجوزي في ذلك فقال في عدة الصابرين(٣١) بعد أن أورد كلام ابن الجوزي: «وقد بالغ في رده هذا الحديث، وتجاوز الحدّ في إدخاله في الأحاديث الموضوعة المختلقة على رسول الله ﷺ، وكأنه استعظم احتباس عبد الرحمن بن عوف وهو أحد السابقين الأولين المشهود لهم عن السبق إليها، ودخول الجنة حبوًا، ورأى ذلك مناقضًا لسبقه ومنزلته التي أعدها الله تعالى له في الجنة، وهذا وهم منه رحمه الله تعالى، وهب أنه وجد السبيل إلى الطعن في هذين الخبرين أفيجد سبيلًا إلى القدح في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمس مئة عام**» قال الترمذي: حديث صحيح، وفي حديث ابن عمر الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «**إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا**».

ثم ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أحاديث أخرى صحيحة في المعنى، ثم قال: «فهذا الحديث وأمثاله صحيح صريح في سبق فقراء الصحابة إلى الجنة لأغنيائهم وهم في السبق متفاوتون؛ فمنهم من يسبق بخمس مئة عام، ومنهم من يسبق بأربعين عامًا، ولا يقدح ذلك في منزلة المتأخرين في دخول الجنة؛ فإنهم قد يكونون أرفع منزلة ممن سبقهم إلى الدخول، وإن تأخروا بعدهم للحساب؛ فإن الإمام العادل يوقف للحساب ويسبقه من لم يل شيئًا من أمور المسلمين إلى الجنة، فإذا دخل الإمام العادل بعده كانت منزلته أعلى من منزلة الفقير، بل قد يكون أقرب الناس إلى الله منزلة ... إلى أن قال: ولا يلزم من احتباس عبد الرحمن بن عوف لكثرة ماله حتى يحاسبه عليه، ثم يلحق برسول الله ﷺ وأصحابه غضاضة عليه، ولا نقص من مرتبته، ولا يضاد ذلك سبقه وكونه مشهودًا له بالجنة، وأما حديث دخوله الجنة زحفًا فالأمر كما قال فيه الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: إنه كذب منكر، وكما قال النسائي: إنه موضوع، ومقامات عبد الرحمن وجهاده ونفقاته العظيمة وصفاته تقتضي دخوله مع المارين كالبرق أو كالطرف أو كأجاويد الخيل، ولا يدعه يدخلها زحفًا» اهـ.

وقد ذكر ابن القيم حديث دخول عبد الرحمن بن عوف الجنة حبوًا في المنار المنيف، وقال: «قال: شيخنا -يعني ابن تيمية-: لا يصح عن النبي ﷺ» اهـ (٣٠٦). =

وَالتَّوَاضُعُ خُلُقُ المُتَّقِينَ، وَالْكِبْرُ بِالمَالِ، وَالتَّعَالِي بِالْجَاهِ هُوَ صِفَةُ الضُّعَفَاءِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَسْتَخِفُّهُمْ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى، فَيَتَعَالَوْنَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ.

وَالْقَوِيُّ مِنَ النَّاسِ مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِيَدِهِ، وَلَمْ تَلِجْ إِلَى قَلْبِهِ؛ فَإِنَّهَا إِنْ دَخَلَتْ قَلْبَهُ أَفْسَدَتْهُ، وَأَفْسَدَتْ دِينَهُ وَآخِرَتَهُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا مِنْ سِيَرِ الصَّالِحِينَ، وَأَخْبَارِ المُتَّقِينَ عِبْرَةً وَعِظَةً، تَقُودُكُمْ إِلَى الاقْتِدَاءِ وَالتَّأَسِّي؛ فَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .



= وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٤١-٤٢): «وقد ورد من غير ما وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يدخل الجنة حبوًا لكثرة ماله، ولا يسلم أجودها من مقال، ولا يبلغ شيء منها بانفراده درجة الحسن، ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**» فأنَّى تنقص درجاته في الآخرة أو يقصر به دون غيره من أغنياء هذه الأمة؟ فإنه لم يرد هذا في حق غيره، إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق، والله أعلم» اهـ.

٣٥٨- حكيم بن حزام رضي الله عنه

١٥/ ٢/ ١٤٢٤هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أيُّها النَّاسُ: لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا طَعَامُهُ الَّذِي يَسُدُّ بِهِ جُوعَهُ، وَلِبَاسُهُ الَّذِي يُوَارِي جَسَدَهُ، وَمَرْكُوبُهُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَدَارُهُ الَّتِي تَكُنُّهُ، وَمَا زَادَ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْلِكُهُ وَلَا يَتَمَوَّنُهُ، وَيَتَمَتَّعُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ كَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ.

وَإِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا عَمَلُهُ الَّذِي يُجَازَى بِهِ، وَمَآثِرُهُ الَّتِي يَذْكُرُهُ النَّاسُ بِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مَآثِرَ خَيْرٍ أَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالَ سُوءٍ ذَكَرُوهُ بِالشَّرِّ.

وَتَارِيخُ الْمُسْلِمِينَ خَلَّدَ فِي صَفَحَاتِهِ الَّتِي دَوَّنَهَا الْمُؤَرِّخُونَ رِجَالًا أَفْذَاذًا كِرَامًا، كَانُوا رُؤُوسَ قَوْمِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ كَانُوا

رُؤُوسًا فِي الْإِسْلَامِ، وَسَادَةً تُفَاخِرُ بِهِمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وَقَدْ قَالَ رَأْسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﷺ لَمَّا سُئِلَ عَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ: «**خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[(١)].

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَفْذَاذِ الْعَرَبِ، وَسَادَةِ قُرَيْشٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثُمَّ فِي الْإِسْلَامِ: الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ الْأَسَدِيُّ الْقُرَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

عَاشَ أَرْبَعًا وَسَبْعِينَ سَنَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَسِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً فِي الْإِسْلَامِ[(٢)]. وَكَانَ لَهُ مَوَاقِفُ مَشْهُودَةٌ، وَآرَاءُ مَشْهُورَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي الْإِسْلَامِ.

دَخَلَتْ أُمُّهُ الْكَعْبَةَ وَهِيَ حُبْلَى بِهِ مَعَ نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ وَأَعْجَلَتْهَا الْوِلَادَةُ، فَوَضَعَتْ حَكِيمًا فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ، وَلَا يُعْرَفُ أَحَدٌ غَيْرُهُ كَانَتْ وِلَادَتُهُ فِي الْكَعْبَةِ[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (٤٦٨٩)، ومسلم في الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام (٢٣٧٨).

(٢) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (٨/ ٥٥)، والذهبي في السير (٣/ ٤٥) أن حكيمًا رضي الله عنه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين أخرى في الإسلام، ونقلوه عن البخاري، وهو في التاريخ الكبير للبخاري (٣/ ١١) حيث قال رحمه الله تعالى في ترجمته: «حَكيم بْنُ حِزام، أبو خَالِدٍ، الأَسَدِيّ، هَلَكَ سَنَةَ سِتِّينَ، وَهُوَ ابن عِشْرِينَ ومئة سَنَةٍ. الحِجازيّ، القُرَشِيّ، عَاشَ فِي الجَاهِلِيَّةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَفِي الإِسْلام سِتِّينَ سَنَةً. قالهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ المُنْذِرِ» اهـ. وتَعَقَّبه الذهبي فقال: «لم يَعِشْ في الإسلام إلا بضعًا وأربعين سنة». قلت: إن ثبت ما نقله أهل السير أن عمره حين مات مئة وعشرين سنة، فيكون قد عاش في الجاهلية أربعًا وسبعين سنة، وفي الإسلام ستًّا وأربعين سنة؛ لأنه وُلِدَ قَبْلَ عام الفيل بثلاث عشرة سنة، كما ذكر أهل السير، والنبي ﷺ وُلِدَ عام الفيل، وهاجر إلى المدينة وعمره ثلاث وخمسون سنة، فيكون عمر حكيم رضي الله عنه وقت الهجرة ستًّا وستين سنة، وعمره حين أَسْلَم عام الفتح سنة ثمان: أربعًا وسبعين سنة، وعاش إلى سنة أربع وخمسين، وهذه مئة وعشرون سنة.

(٣) المنتظم (٥/ ٢٦٩)، وصفة الصفوة (١/ ٣١٢)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٥)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٤٦)، والإصابة (٢/ ٢٧٨).

وَكَانَ قَبْلَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ صَدِيقًا لَهُ وَلِآلِ بَيْتِهِ، وَلَمْ يَتَنَكَّرْ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ الْبَعْثَةِ، بَلْ بَقِيَ عَلَى صِلَتِهِ وَصَدَاقَتِهِ لَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يُسْلِمِ اتِّبَاعًا لِكُبَرَاءِ قُرَيْشٍ وَسَادَتِهَا[٤].

وَهُوَ الَّذِي اشْتَرَى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه مِنْ سُوقِ عُكَاظٍ، وَأَهْدَاهُ لِعَمَّتِهِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضي الله عنها، فَلَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ خَدِيجَةَ رضي الله عنها وَهَبَتْهُ زَيْدًا فَأَعْتَقَهُ[٥].

وَلَمَّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ بِسَبَبِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَحَاصَرُوهُمْ فِي الشِّعْبِ، وَمَنَعُوهُمُ الطَّعَامَ، كَانَ حَكِيمٌ رضي الله عنه يُرْسِلُ الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ، وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي جَهْلٍ خُصُومَاتٌ بِسَبَبِ ذَلِكَ، قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَأَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمْزَةَ: أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حَصَرُوا بَنِي هَاشِمٍ فِي الشِّعْبِ، وَكَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ تَأْتِيهِ الْعِيرُ تَحْمِلُ الْحِنْطَةَ مِنَ الشَّامِ، فَيُقْبِلُ بِهَا إِلَى الشِّعْبِ، ثُمَّ يَضْرِبُ أَعْجَازَهَا فَتَدْخُل عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُونَ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحِنْطَةِ»[٦].

وَلَمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ فِي جِهَادِ الْمُشْرِكِينَ حَضَرَ حَكِيمٌ بَدْرًا وَهُوَ فِي صَفِّ الْمُشْرِكِينَ، وَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يُقَاتِلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرْجِعُوا إِلَى مَكَّةَ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى كَبِيرِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهَا الْمُطَاعِ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَقَالَ لَهُ: «يَا أَبَا الْوَلِيدِ، إِنَّكَ كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا الْمُطَاعُ فِيهَا، هَلْ لَكَ إِلَى أَمْرٍ لَا تَزَالُ تُذْكَرُ فِيهِ بِخَيْرٍ إِلَى آخِرِ دَهْرِكَ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا حَكِيمُ؟ قَالَ: تَرْجِعُ بِالنَّاسِ»[٧]، فَفَعَلَ، وَلَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ غَلَبَهُمْ عَلَى الْبَقَاءِ

---

(٤) الإصابة (٢/ ٢٧٨).

(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٩-٣٠)، والمنتظم (٥/ ٢٧٢).

(٦) المنتظم (٥/ ٢٧١)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٥).

(٧) سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٢).

وَالْقِتَالِ، وَكَانَ رَأْيُ حَكِيمٍ أَنَّهُمْ لَنْ يُنْصَرُوا فِي بَدْرٍ[٨]، وَوَقَعَتِ الْمَعْرَكَةُ، وَهُزِمَ الْمُشْرِكُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنْجَى اللهُ سُبْحَانَهُ حَكِيمًا مِنَ الْقَتْلِ.

وَظَلَّ عَلَى شِرْكِهِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وَمَا مَنَعَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اتِّبَاعُهُ لِكُبَرَاءِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ يَصِلُ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، وَيُهْدِي إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ، يَقُولُ رضي الله عنه: «كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ أَحَبَّ رَجُلٍ فِي النَّاسِ إِلَيَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا تَنَبَّأَ وَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ شَهِدَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ الْمَوْسِمَ وَهُوَ كَافِرٌ، فَوَجَدَ حُلَّةً لِذِي يَزَنَ تُبَاعُ، فَاشْتَرَاهَا بِخَمْسِينَ دِينَارًا لِيُهْدِيَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَدِمَ بِهَا عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ، فَأَرَادَهُ عَلَى قَبْضِهَا هَدِيَّةً فَأَبَى، قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُغِيرَةِ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّا لَا نَقْبَلُ شَيْئًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ إِنْ شِئْتَ أَخَذْنَاهَا بِالثَّمَنِ**»، فَأَعْطَيْتُهُ حِينَ أَبَى عَلَيَّ الْهَدِيَّةَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلطَّبَرَانِيِّ وَالْحَاكِمِ: «فَلَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْهُ يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ أَعْطَاهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، فَرَآهَا حَكِيمٌ عَلَى أُسَامَةَ، فَقَالَ: يَا أُسَامَةُ أَنْتَ تَلْبَسُ حُلَّةَ ذِي يَزَنَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَاللَّهِ لَأَنَا خَيْرٌ مِنْ ذِي يَزَنَ، وَلَأَبِي خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ، قَالَ حَكِيمٌ: فَانْطَلَقْتُ إِلَى مَكَّةَ أُعَجِّبُهُمْ بِقَوْلِ أُسَامَةَ»[٩].

---

(٨) جاء في بعض السير من رواية محمد بن عمر الأسلمي والبلاذري: «أن قريشًا لما نَزَلَتْ ببدر بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليهم، يقول لهم: ارجعوا؛ فإنه إن يلي هذا الأمر مني غيركم أحب إليَّ مِنْ أن تلوه مني، وأن أليه من غيركم أحبّ إليَّ من أن أليه منكم. فقال حكيم بن حزام: قد عرض نصحًا فاقبلوه، فوالله لا تنتصرون عليه بعد ما عرض من النصح، فقال أبو جهل: والله لا نرجع بعد أن مكننا الله منهم» ينظر: سبل الهدى والرشاد (٤/ ٣٣)، والسيرة الحلبية (٢/ ٣٩٩).

قلت: إرسال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لمفاوضة المشركين في بدر غير مشهور، ولست أعلم أنه في كتب السيرة المعروفة، ومثل هذه السفارة لو وقعت فحقها أن تشتهر وتُعْرَف كما عُرِف ما هو أقل منها، والله أعلم.

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٢-٤٠٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥٩٢)، =

شَهِدَ حَكِيمٌ بَدْرًا وَأُحُدًا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِ خَيْرًا إِذْ نَجَّاهُ مِنَ الْقَتْلِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَزِمَ بَيْتَهُ، وَلَمْ يَخْرُجْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَغَازِيهِمْ حَتَّى أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ يَبْكِي عَلَى تَأَخُّرِ إِسْلَامِهِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: ما يُبْكِيكَ يَا أَبَهْ؟ قَالَ: خِصَالٌ كُلُّهَا أَبْكَانِي، أَمَّا أَوَّلُهَا: فَبُطْءُ إِسْلَامِي حَتَّى سُبِقْتُ فِي مَوَاطِنَ كُلُّهَا صَالِحَةٌ، وَنَجَوْتُ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ أُحُدٍ، فَقُلْتُ: لَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ، وَلَا أُوضَعُ مَعَ قُرَيْشٍ مَا بَقِيتُ، فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ، وَيَأْبَى اللهُ أَنْ يَشْرَحَ قَلْبِي لِلْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنِّي أَنْظُرُ إِلَى بَقَايَا مِنْ قُرَيْشٍ لَهُمْ أَسْنَانٌ مُسْتَمْسِكِينَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَقْتَدِي بِهِمْ، وَيَا لَيْتَ أَنِّي لَمْ أَقْتَدِ بِهِمْ، فَمَا أَهْلَكَنَا إِلَّا اقْتِدَاؤُنَا بِآبَائِنَا وَكُبَرَائِنَا . . .»[١٠].

فَلَمَّا أَسْلَمَ يَوْمَ الْفَتْحِ فَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِسْلَامِهِ، وَأَعْطَاهُ مَعَ مَنْ أَعْطَى مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ مِنْ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِهِمْ، وَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهُ، فَأَعْطَاهُ ﷺ حَتَّى رَضِيَ، ثُمَّ نَصَحَهُ بِالِاسْتِعْفَافِ، يَقُولُ حَكِيمٌ رضي الله عنه: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: «**يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**»، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ

= والطبراني في الكبير (٣/ ١٩٣) برقم (٣٠٩٤)، وأيضًا (٣/ ٢٠٢) برقم (٣١٢٥)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٣/ ٤٨٤-٤٨٥)، وذكره الهيثمي في الزوائد، وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير، وإسنادهما جيِّد، رجاله ثقات» (٤/ ١٥١).

(١٠) المنتظم (٥/ ٢٦٩-٢٧٠).

عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ فيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّي» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِعَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: «فَمَاتَ حَكِيمٌ حِينَ مَاتَ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ مَالًا»[١١].

لَقَدْ كَانَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ رضي الله عنه سَيِّدًا مُطَاعًا، كَرِيمًا جَوَادًا، لَهُ مَآثِرُ فِي جَاهِلِيَّتِهِ وَإِسْلَامِهِ، وَكَانَ يَشْتَرِي الظَّهْرَ وَالْأَدَاةَ وَالزَّادَ ثُمَّ لَا يَجِيئُهُ أَحَدٌ يَسْتَحْمِلُه فِي السَّبِيلِ إِلَّا حَمَلَهُ[١٢]، وَقَدْ جَاءَ عَنْهُ أَنَّهُ أَعْتَقَ مِئَةَ رَقَبَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَعْتَقَ مِثْلَهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَحَمَلَ عَلَى مِئَةِ بَعِيرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَحَمَلَ عَلَى مِثْلِهَا فِي الْإِسْلَامِ[١٣]، وَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لَا أَدَعُ شَيْئًا صَنَعْتُهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا صَنَعْتُ مِثْلَهُ فِي الْإِسْلَامِ»[١٤]، وَقَدْ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي كَانَ يَعْمَلُهَا فِي جَاهِلِيَّتِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ صِلَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ، هَلْ لِي فِيهَا أَجْرٌ؟! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ لَكَ مِنْ خَيْرٍ**» أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ[١٥].

---

(١١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٧٢)، والنسائي في الزكاة، باب مسألة الرجل في أمر لا بد منه (٥/ ١٠١-١٠٢)، والترمذي في الزهد، باب رقم (٢٩) (٢٤٦٣)، وأحمد (٣/ ٤٠٣). والرواية الثانية لعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٠٢) برقم: (٢٠٠٤١)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٨٨) برقم: (٣٠٧٨) وعزاه الحافظ في الفتح لإسحاق بن راهويه (٣/ ٣٩٥).

(١٢) المنتظم (٥/ ٢٧٢).

(١٣) صفة الصفوة (١/ ٣١٣)، والمنتظم (٥/ ٢٧١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٤٩).

(١٤) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٩).

(١٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب مَنْ تَصَدَّقَ في الشرك ثم أسلم (١٤٣٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده (١٢٣).

وَكَانَتْ دَارُ النَّدْوَةِ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا حُكَمَاءُ قُرَيْشٍ لِلرَّأْيِ والمَشُورَةِ بِيَدِهِ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ رضي الله عنهما بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَلَامَهُ عَبْدُاللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما، وَقَالَ لَهُ: «بِعْتَ مَكْرُمَةَ قُرَيْشٍ؟!» فَقَالَ حَكِيمٌ رضي الله عنه: «ابْنَ أَخِي، ذَهَبَتِ المَكَارِمُ؛ فَلَا كَرَمَ إِلَّا التَّقْوَى، يَا ابْنَ أَخِي، إِنِّي اشْتَرَيْتُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِزِقٍّ مِنْ خَمْرٍ، وَلأَشْتَرِيَنَّ بِهَا دَارًا فِي الْجَنَّةِ، أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى»(١٦)، فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهَا كُلِّهِ.

حَجَّ حَكِيمٌ رضي الله عنه، فَأَوْقَفَ مَعَهُ بِعَرَفَةَ مِئَةَ عَبْدٍ فِي أَعْنَاقِهِمْ أَطْوَاقُهُمْ، فَأَعْتَقَهُمْ لِلَّهِ عز وجل فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، فَضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ وَالدُّعَاءِ يَقُولُونَ: «رَبَّنَا هَذَا عَبْدُكَ قَدْ أَعْتَقَ عَبِيدَهُ، وَنَحْنُ عَبِيدُكَ فَأَعْتِقْنَا»(١٧).

وَأَهْدَى يَوْمَ النَّحْرِ مِئَةَ بَدَنَةٍ مُجَلَّلَةٍ، وَمِئَةَ بَقَرَةٍ، وَأَلْفَ شَاةٍ؛ تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى(١٨).

وَكَانَ يَشْفَعُ لِلنَّاسِ، وَيُعِينُهُمْ عَلَى نَوَائِبِهِمْ، وَيَقْضِي حَوَائِجَهُمْ، وَيَفْرَحُ بِخِدْمَةِ أَصْحَابِ الْحَاجَاتِ، وَيَقُولُ: «مَا أَصْبَحْتُ وَلَيْسَ بِبَابِي صَاحِبُ حَاجَةٍ إِلَّا عَلِمْتُ أَنَّهَا مِنَ المَصَائِبِ الَّتِي أَسْأَلُ اللهَ الْأَجْرَ عَلَيْهَا»(١٩).

وَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَدْ كُنْتُ أَخْشَاكَ، وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ»(٢٠).

---

(١٦) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٨٦) برقم (٣٠٧٢)، وحسنه الهيثمي في الزوائد (٩/ ٣٨٤)، وينظر: المنتظم (٥/ ٢٧١)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦).

(١٧) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٥٦)، وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٤/ ٤٤٢)، والمنتظم (٥/ ٢٧١)، والسير (٣/ ٥٠)، ولطائف المعارف لابن رجب (٤٩٤).

(١٨) السير (٣/ ٥٠)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦).

(١٩) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٤/ ٤٢٤)، والسير (٣/ ٥١).

(٢٠) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٧٧)، وتاريخ الإسلام (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٥١)، وتهذيب الكمال (٧/ ١٩٧).

تُوُفِّيَ ﷺ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَعُمْرُهُ مِئَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً(٢١).

اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْهُ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ.

❋ ❋ ❋

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا نِقْمَتَهُ فَلَا تَعْصُوهُ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي سِيرَةِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَالْهِدَايَةُ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ هِبَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَهَبُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَالْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ مِنْ بِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَسُمَيَّةَ وَيَاسِرٍ وَعَمَّارٍ سَبَقُوا إِلَى الْإِسْلَامِ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ فِي قَبَائِلِهِمْ، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ قَادَةِ قُرَيْشٍ وَكُبَرَائِهَا مِمَّنْ كَانُوا رُؤُوسًا فِي قَوْمِهِمْ وَفِي الْعَرَبِ مَاتُوا عَلَى الشِّرْكِ، وَمَصِيرُهُمْ إِلَى النَّارِ عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ.

---

(٢١) المنتظم (٥/ ٢٧٣)، وصفة الصفوة (١/ ٣١٣)، والبداية والنهاية (٨/ ٥٦)، وتاريخ الإسلام (٤/ ١٩٩)، والسير (٣/ ٥١).

فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ دِينِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَمْ يَرْتَضِ غَيْرَهُ، وَعَلَيْنَا أَنْ لَا نَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْمُعْرِضِينَ عَنْهُ، أَوِ النَّاقِمِينَ عَلَيْهِ مِمَّنْ هُمْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً، وَأَكْثَرُ عَدَدًا، وَلَدَيْهِمْ مِنْ عُلُومِ الدُّنْيَا وَبَهْجَتِهَا مَا لَيْسَ لَدَيْنَا، فَصَنَادِيدُ قُرَيْشٍ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ كَانُوا فِي وَقْتِهِمْ أَشَدَّ قُوَّةً، وَأَعْظَمَ سِيَادَةً، وَلَدَيْهِمْ مِنَ الْخِبْرَةِ وَالمَعْرِفَةِ مَا لَيْسَ لَدَى غَيْرِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ صَرَفَهُم عَنِ الْهِدَايَةِ.

لَقَدْ دَلَّتْ سِيرَةُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ ﷺ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ الرَّاجِحَ، وَالرَّأْيَ الصَّائِبَ؛ لَا يَكْفِي لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ إِذَا لَمْ يُحَالِفْ صَاحِبَهُ تَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ أَسَدُّ رَأْيًا، وَلَا أَرْجَحُ عَقْلًا، وَلَا أَبْلَغُ حِكْمَةً مِنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، حَتَّى إِنَّهُ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ، وَسَدَادِ رَأْيِهِ؛ أُدْخِلَ دَارَ النَّدْوَةِ وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ قَانُونُهُمْ يَمْنَعُ مَنْ كَانَ دُونَ الْأَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْ دُخُولِهَا[٢٢]، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ عَقْلَ حَكِيمٍ الرَّاجِحَ وَرَأْيَهُ الصَّائِبَ؛ لَمْ يَنْفَعْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِهِدَايَتِهِ فِي فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَادَ أَنْ يُقْتَلَ عَلَى الشِّرْكِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ؛ إِذْ تَخَبَّطَهُ أَسَدُ الْإِسْلَامِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، وَكَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَهُ سَحَبُوهُ أَرْضًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْ حَمْزَةَ ﷺ، وَلَمْ يَنْسَ حَكِيمٌ هَذَا الْمَوْقِفَ أَبَدًا، وَكَانَ يَبْكِي إِذَا تَذَكَّرَهُ، وَيَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى عَلَى نِعْمَتِهِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ إِذَا اجْتَهَدَ فِي يَمِينِهِ يَقُولُ: «وَالَّذِي نَجَّانِي يَوْمَ بَدْرٍ»[٢٣]؛ لِأَنَّهُ أَوْشَكَ عَلَى الْهَلَاكِ، لَوْلَا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَدَارَكَتْهُ؛ فَسَحَبَهُ قَوْمُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَلَ عَلَى الشِّرْكِ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ ﷻ عَلَيْهِ بِالْإِسْلَامِ عَامَ الْفَتْحِ.

---

(٢٢) جمهرة نسب قريش (١/ ٣٧٦)، والمنتظم (٥/ ٢٦٩)، والسير (٣/ ٤٩-٥٠).

(٢٣) البداية والنهاية (٨/ ٥٥-٥٦)، والإصابة (٢/ ٢٧٨).

وَالسَّبَبُ الَّذِي مَنَعَ حَكِيمًا مِنَ التَّقَدُّمِ فِي الْإِسْلَامِ حَتَّى سَبَقَهُ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ هُوَ اتِّبَاعُهُ لِلْكُبَرَاءِ وَالسَّادَةِ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ، وَتَقْلِيدُهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَلَمْ يَنْفَعْهُ شَيْئًا عَقْلُهُ الرَّاجِحُ، وَلَا رَأْيُهُ الصَّائِبُ؛ لِأَنَّهُ عَطَّلَ عَقْلَهُ بِتَقْلِيدِهِمْ، حَتَّى قَالَ ﷺ: «مَا أَهْلَكَنَا إِلَّا اقْتِدَاؤُنَا بِآبَائِنَا وَكُبَرَائِنَا».

إِنَّ التَّقْلِيدَ الْأَعْمَى لِقَادَةِ الضَّلَالِ سَبَبٌ يُرْدِي مَنْ قَلَّدَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، فَلَا يَرَى إِلَّا بِأَعْيُنِهِمْ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا بِآذَانِهِمْ، وَلَا يَعْقِلُ إِلَّا بِعُقُولِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ وَالضُّلَّالِ إِنَّمَا أَصَرُّوا عَلَى بِدَعِهِمْ وَضَلَالِهِمْ بِسَبَبِ تَقْلِيدِهِمُ الْأَعْمَى لِشُيوخِهِمْ وَأَئِمَّتِهِمْ، مَعَ أَنَّهُمْ يُمَارِسُونَ فِي بِدَعِهِمْ شَعَائِرَ لَا تَقْبَلُهَا الْعُقُولُ، وَتَأْبَاهَا الْفِطَرُ، وَيَخْجَلُ بَعْضُ مَنْ يُمَارِسُوهَا، وَرُبَّما أَخْفَوْهَا عَنِ النَّاسِ؛ حَيَاءً مِنْهُمْ، وَخَوْفًا مِنَ التَّعْيِيرِ وَالتَّشْهِيرِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُصِرُّونَ عَلَيْهَا وَلَوْ ظَهَرَ لَهُمْ أَنَّها إِثْمٌ وَضَلَالٌ، وَمَا إِصْرَارُهُمْ عَلَيْهَا إِلَّا تَقْلِيدًا لِمَشَايِخِهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ.

وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ﷺ نَدِمَ عَلَى تَأَخُّرِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَحَاوَلَ التَّكْفِيرَ عَنْ ذَلِكَ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ أَدَّاهَا، وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ بِأَنْ يَعْمَلَ حَالَ إِسْلَامِهِ مَا عَمِلَ فِي جَاهِلِيَّتِهِ مِنْ عِتْقٍ وَصَدَقَةٍ وَصِلَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ؛ فَالْإِسْلَامُ قَدْ زَادَهُ كَرَمًا إِلَى كَرَمِهِ، وَأَخْلَاقًا إِلَى أَخْلَاقِهِ، وَلَمَّا أَرْشَدَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الاسْتِعْفَافِ تَرَكَ حَقَّهُ مِنْ بَيْتِ المَالِ طِيلَةَ سَنَوَاتِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَزَمَنًا مِنْ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ ﷺ، وَإِنَّهُ لَعَجِيبٌ أَنْ يَغْلِبَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِ حَقٍّ لها لِمَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَيَدُومَ عَلَى ذَلِكَ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً[٢٤]، لَوْلَا تَوْفِيقُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، ثُمَّ قُوَّةُ عَزِيمَتِهِ.

إِنَّهَا سِيرَةٌ مِنْ أَعْجَبِ السِّيَرِ، وَفِيهَا دُرُوسٌ مِنْ أَحْسَنِ الدُّرُوسِ، رَضِيَ اللهُ

---

(٢٤) وذلك أن حكيمًا ﷺ وعد النبي ﷺ لما أعطاه من غنائم حنين، وزاده بعد ما ألح في مسألته، وغزوة حنين كانت سنة ثمان من الهجرة، إلى أن توفي ﷺ سنة أربع وخمسين من الهجرة.

تَعَالَى عَنْ صَاحِبِهَا وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَإِنَّنَا نُشْهِدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، وَعَلَى بُغْضِ مَنْ يُبْغِضُهُمْ، وَالْبَرَاءَةِ مِمَّنْ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.



٣٥٩- مقتل الشيخ أحمد ياسين

٥/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ ﷻ لَمَّا خَلَقَ الْعِبَادَ مُفَاضَلَتُهُ بَيْنَهُمْ، وَاصْطِفَاؤُهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ؛ فَجَعَلَ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالْعُلَمَاءَ وَالْمُصْلِحِينَ، وَالْقَادَةَ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَجَعَلَ فِيهِمْ طُلَّابَ الدُّنْيَا وَطُلَّابَ الْآخِرَةِ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣-٣٤].

وَآدَمُ ﵇ لَمَّا أَرَاهُ اللهُ تَعَالَى نَسَمَاتِ ذُرِّيَّتِهِ «**فَرَأَى فِيهِمُ الْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ،**

وَالْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ وَالْمُبْتَلَى، قَالَ: يَا رَبِّ، أَلَا سَوَّيْتَ بَيْنَهُمْ، قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أُشْكَرَ» رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى(١).

وَأَقْدَارُ الرِّجَالِ تُعْرَفُ بِسِيَرِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَتُوزَنُ حَيَاتُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَمُنْجَزَاتِهِمْ، وَكَمْ مِنْ شَرِيفٍ فِي قَوْمِهِ، عَظِيمٍ فِي سُلْطَانِهِ، غَنِيٍّ بِمَالِهِ، قَوِيٍّ بِجَاهِهِ، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ فَلَا يَتَحَرَّكُ لِمَوْتِهِ أَحَدٌ، وَيُطْوَى ذِكْرُهُ بِقَبْرِهِ، فَيَكُونُ نَسِيًا مَنْسِيًّا!!

وَكَمْ مِنْ صُعْلُوكٍ فِي قَوْمِهِ، ضَعِيفٍ بَيْنَ أَقْرَانِهِ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى، فَمَيَّزَهُ بِعِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جِهَادٍ أَوْ دَعْوَةٍ، فَطَارَ ذِكْرُهُ فِي الْآفَاقِ، وَتَنَاقَلَتْ سِيرَتَهُ الرُّكْبَانُ، وَحِينَ يَمُوتُ تَتَحَرَّكُ الْقُلُوبُ لِمَوْتِهِ، وَتَسِيلُ الْمَدَامِعُ لِفَقْدِهِ!!

وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ، وَغَرْسُ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ؛ لَا يُمْكِنُ لِصَاحِبِ مَالٍ أَنْ يَشْتَرِيَهَا بِمَالِهِ، أَوْ يَنَالَهَا وَجِيهٌ بِجَاهِهِ، أَوْ يَحُوزَهَا سُلْطَانٌ بِسُلْطَانِهِ، وَلَا تَكُونُ بِالظُّهُورِ وَالشُّهْرَةِ، وَلَكِنَّهَا أَمْرٌ عَجِيبٌ يَغْرِسُهُ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ حِيلَةً، وَلَا لَهُ دَفْعًا، فَيَكُونُ صَاحِبُهَا ذَا قَبُولٍ فِي الْأَرْضِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأعراف، وقال: حديث حسن صحيح (٣٠٧٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٦)، وابن خزيمة في التوحيد (٦٧)، والحاكم وصححه وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٦٤)، وهذه الرواية زيادة في الحديث أخرجها أبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٩)، ومسلم في البر والصلة، باب إذا أحب الله عبدًا أمر جبرائيل فأحبه وأحبه أهل السماء (٢٦٣٧)، وأحمد (٢/ ٢٦٧).

وَصَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ، وَصَدَقَ رَسُولُهُ الْكَرِيمُ ﷺ؛ فَكَمْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ انْعَقَدَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، وَاجْتَمَعَتِ الْأَلْسُنُ عَلَى ذِكْرِهِمْ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ مَا أَعْطَوُا النَّاسَ نَقِيرًا وَلَا قِطْمِيرًا، وَلَا نَفَعُوهُمْ كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، فَهِيَ مَحَبَّةٌ صَادِقَةٌ لَا كَذِبَ فِيهَا، خَالِصَةٌ لَا رِيَاءَ مَعَهَا، جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ لِعُلَمَاءَ رَبَّانِيِّينَ، وَدُعَاةٍ عَامِلِينَ، وَسَاسَةٍ مُخْلِصِينَ، وَقَادَةٍ وَمُجَاهِدِينَ، لَوِ اجْتَمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى أَنْ يَنْزِعُوهَا مِنَ الْقُلُوبِ لَمَا اسْتَطَاعُوا ذَلِكَ.

وَفِي وَاقِعِنَا الْمُعَاصِرِ شَوَاهِدُ تَشْهَدُ لِذَلِكَ، فَكَمْ قَصَدَ الْإِعْلَامُ الْعَالَمِيُّ أَشْخَاصًا لَهُمْ قَبُولٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَحَشَدَ وَسَائِلَهُ ضِدَّهُمْ، وَسَخَّرَ عُمَلَاءَهُ لِتَشْوِيهِ صُورَتِهِمْ، وَالْقَدْحِ فِي سِيرَتِهِمْ، وَنَزْعِ مَحَبَّتِهِمْ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ، فَمَا زَادَ النَّاسَ إِلَّا حُبًّا لَهُمْ، وَقَنَاعَةً بِهِمْ، وَعَادَ مَكْرُ الْمَاكِرِينَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ تَدْبِيرُ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.

كَانَ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْأَفْذَاذِ الَّذِينَ حَازُوا الْقُلُوبَ، وَاسْتَوْلَوْا عَلَى مَحَبَّةِ النَّاسِ بِلَا مَالٍ وَلَا جَاهٍ: قَائِدُ الْمُجَاهِدِينَ فِي فِلَسْطِينَ، الْقَائِدُ الشَّيْخُ يَاسِينُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَأَسْكَنَهُ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ. كَانَتْ سِيرَتُهُ أُعْجُوبَةً مِنَ الْعَجَائِبِ، وَأَعْجَبُ مِنْهَا قِيَادَتُهُ وَحُنْكَتُهُ، وَصَبْرُهُ وَثَبَاتُهُ، حَتَّى لَقِيَ اللهَ ﷻ، فَأَحَبَّهُ النَّاسُ حُبًّا شَدِيدًا، فَسَمَّوْا مَوَالِيدَهُمْ بِاسْمِهِ، وَسَأَلُوا اللهَ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُهُمْ مِثْلَهُ.

وُلِدَ فِي بِدَايَاتِ النُّفُوذِ الصِّهْيَوْنِيِّ فِي فِلَسْطِينَ الَّذِي أَعْقَبَهُ الِاحْتِلَالُ وَالدَّمَارُ وَالْإِذْلَالُ، وَذَاقَ الْيُتْمَ وَلَمْ يَبْلُغِ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ[٣].

---

(٣) ولد الشيخ أحمد إسماعيل ياسين في قرية (جورة عسقلان) عام ١٩٣٦م، وتوفي والده وعمره خمس سنوات.

وَاكْتَوَى بِالْهَزِيمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْكُبْرَى وَلَمَّا يُنَاهِزِ الْحُلُمَ، وَهِيَ النَّكْبَةُ الَّتِي صَيَّرَتْ لِلْيَهُودِ دَوْلَةً دَاخِلَ فِلَسْطِينَ، وَشَهِدَ المَجَازِرَ المُرَوِّعَةَ الَّتِي حَلَّتْ بِبَنِي بَلَدِهِ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ(٤).

وَكَانَ مِنْ آثَارِ تِلْكَ النَّكْبَةِ عَلَيْهِ أَنْ شَرَّدَهُمُ الصَّهَايِنَةُ مِنْ قَرْيَتِهِمْ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ، فَازْدَادَ وَأُسْرَتُهُ فَقْرًا إِلَى فَقْرِهِمْ، وَجُوعًا إِلَى جُوعِهِمْ؛ حَتَّى كَانَ قُوتُهُمْ مَا يَفْضُلُ مِنْ طَعَامِ الْجُنُودِ الْعَرَبِ(٥).

وَلَمَّا نَاهَزَ الْحُلُمَ، وَبَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ؛ أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ فِي رَقَبَتِهِ، حَبَسَتْهُ فِي جَسَدِهِ، فَصَارَ رَهِينَ شَلَلٍ تَامٍّ(٦)، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ مَا انْكَسَرَتْ، وَلَا فَتَّ ذَلِكَ فِي عَضُدِهِ؛ فَوَاصَلَ دِرَاسَتَهُ، وَجَاهَدَ بِلِسَانِهِ، يَخْطُبُ فِي النَّاسِ وَيُحَرِّضُهُمْ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ الصَّائِلِ الْمُحْتَلِّ؛ حَتَّى عَلَا نَجْمُهُ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَأَثَّرَ فِي النَّاسِ كَلَامُهُ، فَسَجَنَهُ الصَّهَايِنَةُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَعَذَّبُوهُ وَضَرَبُوهُ وَهُوَ مَشْلُولٌ، فَفَقَدَ أَكْثَرَ بَصَرِهِ، وَمَا بَقِيَ لَهُ إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْ سَمْعِهِ، ثُمَّ تَبِعَ ذَلِكَ أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ فِي تَنَفُّسِهِ وَأَمْعَائِهِ، وَمَا أَقْعَدَهُ ذَلِكَ عَنِ الْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ، وَالْعَمَلِ وَالْخَطَابَةِ.

وَلَمَّا هُزِمَ الْعَرَبُ فِيمَا سُمِّيَ بِالنَّكْسَةِ(٧)، وَاحْتَلَّ الْيَهُودُ بَقِيَّةَ فِلَسْطِينَ مَا أَيِسَ

---

(٤) هي نكبة عام ١٩٤٨م التي هُزِمَتْ فيها الجيوش العربية، وكان عمر الشيخ آنذاك (١٢ سنة)، وذكر الشيخ أن الجيوش العربية نزعت السلاح من الأهالي بحجة أنه لا ينبغي وجود قوة أخرى غير قوة الجيش، فارتبط مصير السكان بمصير الجيوش العربية، فلما هزمت وقع السكان ضحية هذه الهزيمة، فَعَمِلَ فيهم اليهود المذابح المروعة، قال الشيخ: «ولو كانت أسلحتنا بأيدينا لتغيرت مجريات الأحداث».

(٥) المقصود بهم جنود الجيوش العربية، وخاصة الجيش المصري الذي كان مرابطًا قرب قرية الشيخ آنذاك.

(٦) لما بلغ الشيخ السادسة عشرة من عمره أصابته ضربة في رقبته وهو يلعب مع أقرانه، في إحدى فقرات العنق، وذلك عام ١٩٥٢م، ومن جرائها حدث له الشلل التام.

(٧) هي هزيمة عام (١٩٦٧م) التي استحوذت فيها إسرائيل على بقية فلسطين بما في ذلك غزة.

وَلَا انْتَكَسَ، بَلْ زَادَهُ ذَلِكَ إِصْرَارًا عَلَى جِهَادِ الْيَهُودِ إِلَى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَتَحْرِيضِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ إِلَى آخِرِ كَلِمَةٍ مِنْ لِسَانِهِ.

لَقَدْ كَانَ مِنْ حَسَنَاتِ الشَّيْخِ الْكَثِيرَةِ -وَحَيَاتُهُ جُلُّهَا حَسَنَاتٌ وَتَضْحِيَاتٌ- أَنَّهُ عَدَّلَ مَسَارَ الْقَضِيَّةِ، وَوَجَّهَهَا وِجْهَتَهَا الصَّحِيحَةَ، بَعْدَ أَنْ ضَلَّتِ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً، كَانَتْ سَبَبًا فِي الْهَزَائِمِ الْمُتَوَالِيَةِ[٨].

لَقَدْ كَانَتْ قَضِيَّةُ فِلَسْطِينَ تُطْرَحُ فِي المَحَافِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَالدَّوْلِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا قَضِيَّةٌ عَلْمَانِيَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بِالتُّرَابِ وَالْوَطَنِ، وَعَلَى ذَلِكَ اجْتَمَعَتِ الْقُوَى الْفِلَسْطِينِيَّةُ مِنْ وَطَنِيَّةٍ وَيَسَارِيَّةٍ، إِلَى أَنْ قَادَ الشَّيْخُ جُمْهُورًا مِنَ الْأُمَّةِ فِي فِلَسْطِينَ؛ فَصَبَغَ قَضِيَّتَهَا بِالصِّبْغَةِ الصَّحِيحَةِ، وَجَعَلَهَا عَقَائِدِيَّةً إِسْلَامِيَّةً[٩]. وَهَذَا مَا أَقَضَّ مَضَاجِعَ الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمُ الْغَرْبِيِّينَ.

كَانَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً يُخَاطِبُ الْأُمَّةَ، وَيَكْتُبُ إِلَيْهَا؛ يَسْتَنْهِضُ الْهِمَمَ، وَيَشْحَذُ الْعَزَائِمَ، وَيُلَامِسُ شِغَافَ الْقُلُوبِ، بِخِطَابٍ يَعْلُوهُ نُورُ الْإِسْلَامِ، وَتُزَيِّنُهُ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فِي إِيمَانٍ مَتِينٍ، وَتَوَكُّلٍ عَجِيبٍ، وَيَقِينٍ رَاسِخٍ، لَا تُزَعْزِعُهُ الْأَحْدَاثُ الْمُزَلْزِلَةُ، وَلَا تُرْهِبُهُ قُوَّةُ الْأَعْدَاءِ وَمَا يَمْلِكُونَ مَهْمَا كَانَتْ وَأَيًّا كَانُوا.

كَانَ يَخْطُبُ فِي أَهْلِ فِلَسْطِينَ فَيَقُولُ: «أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا الْمُقَاوَمَةُ وَالْقِتَالُ، لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا الْجِهَادُ وَالِاسْتِشْهَادُ، لَا خِيَارَ لَنَا إِلَّا أَنْ نُقَدِّمَ دِمَاءَنَا

---

(٨) وذلك بشعارات غير إسلامية وتحت قيادة منظمات كثيرة منها: منظمة فتح، والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، وغيرها.

(٩) أسس الشيخ مع بعض إخوانه وتلاميذه منظمة حماس في قطاع غزة عام ١٩٨٧م تحت اسم (حركة المقاومة الإسلامية)، وكانت المقاومة قبلها تحت منظمات وطنية لا تهتم لأمر الإسلام.

رَخِيصَةً مِنْ أَجْلِ الْإِسْلَامِ . . فَالدُّنْيَا لَا تُعْطَى لِلْقَاعِدِينَ النَّائِمِينَ، الدُّنْيَا تُعْطَى لِلْمُجَاهِدِينَ الْمُقَاتِلِينَ الصَّابِرِينَ، فَلْنَكُنْ كَذَلِكَ، وَالْأَعْمَارُ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فَلِمَاذَا لَا نَخْتَارُ مَوْتَةً شَرِيفَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟! لِمَاذَا؟! كُلُّنَا سَنَمُوتُ إِمَّا عَلَى الْفِرَاشِ أَوْ فِي الطَّائِرَةِ أَوْ فِي الْبَحْرِ أَوْ فِي السَّيَّارَةِ، لِمَاذَا لَا نُقَاتِلُ؟! لِمَاذَا لَا نُجَاهِدُ؟! لِمَاذَا لَا نَبْذُلُ كُلَّ مَا نَمْلِكُ مِنْ أَجْلِ دِينِنَا وَأُمَّتِنَا؟! لمَاذَا لَا نَغْزُو جَمِيعًا؟! الْقَادِرُ بِجِسْمِهِ، وَغَيْرُ الْقَادِرِ بِمَالِهِ، وَلْيَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ انْتِصَارًا لِدِينِ اللَّهِ، وَتَحْرِيرًا لِأَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ . . .»(١٠).

اجْتَمَعَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَتَرَبَّوْنَ عَلَى خُطَبِهِ وَإِمْلَاءَاتِهِ، شَبَابًا وَكُهُولًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، فَصَارُوا يُوَاجِهُونَ الْعَدُوَّ الْمُدَجَّجَ بِالسِّلَاحِ، وَنُفُوسُهُمْ تَتُوقُ لِلشَّهَادَةِ؛ إِعْلَاءً لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَدِفَاعًا عَنْ حُرُمَاتِهِ، فَمَا ضَاعَتْ دِمَاؤُهُمْ هَدَرًا كَمَا كَانَتْ تَضِيعُ مِنْ قَبْلُ تَحْتَ الرَّايَاتِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ، وَصَارُوا يَتَسَابَقُونَ عَلَى الِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ سِبَاقًا عَجِبَ مِنْهُ الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ، وَأَرْعَبَ الْيَهُودَ أَيَّمَا رُعْبٍ؛ حَتَّى بَنَوْا جِدَارًا عَظِيمًا يَفْصِلُهُمْ عَنْ أَبْطَالِ الْإِسْلَامِ الْأَشَاوِسِ عَلَّهُ يَحْمِيهِمْ مِنْهُمْ، وَصَدَقَ اللهُ الْقَائِلُ: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤].

إِنَّ الْيَهُودَ مَا بَنَوْا جِدَارَهُمْ، وَلَا اسْتَعَانُوا بِكُلِّ عُمَلَائِهِمْ، وَلَا اسْتَنْجَدُوا بِحُلَفَائِهِمْ أَيَّامَ الشِّعَارَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ الزَّائِفَةِ، وَلَكِنَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ لمَّا تَسَلَّمَ قِيَادَةَ الصِّرَاعِ مَنْ يُحْسِنُونَ إِدَارَتَهُ، وَيَحْمِلُونَ فِي رُؤُوسِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيَلْهَجُونَ

---

(١٠) هذا مقطع من خطبة طويلة وجهها الشيخ في بداية رمضان الماضي عام (١٤٢٤هـ) تحت عنوان (رسالة خاصة إلى الأمة).

بِالتَّكْبِيرِ، وَيَتَنَافَسُونَ عَلَى المَوْتِ تَنَافُسَ أَعْدَائِهِمْ عَلَى الْحَيَاةِ، يَقُودُهُمْ فِي ذَلِكَ شَيْخُهُمُ الْكَسِيحُ مِنْ عَلَى كُرْسِيِّهِ المُتَحَرِّكِ؛ فَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

وَبَلَغَ الشَّيْخُ أُمْنِيَّتَهُ، وَهُوَ مُقْعَدٌ كَسِيحٌ، فَجُنِّدَتْ لِأَجْلِهِ طَائِرَاتٌ وَصَوَارِيخُ، مَزَّقَتْ أَشْلَاءَهُ، وَأَسَالَتْ دِمَاءَهُ، عَقِبَ أَدَائِهِ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ تَعَالَى(١١)، وَقَدْ أَمْضَى عُمُرًا مَدِيدًا فِي الْجِهَادِ وَالدَّعْوَةِ، سِلَاحُهُ الْإِيمَانُ وَالثَّبَاتُ، وَالصَّبْرُ وَالْيَقِينُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَقَبَّلَهُ فِي الشُّهَدَاءِ، وَأَنْ يُخْلِفَ عَلَى المُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الشُّهَدَاءِ هُوَ وَمَنْ قَضَوْا مَعَهُ، وَسَائِرَ قَتْلَى المُسْلِمِينَ، وَاجْمَعْنَا بِهِمْ فِي دَارِ النَّعِيمِ. اللَّهُمَّ وَأَنْزِلْ غَضَبَكَ وَعَذَابَكَ عَلَى صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ وَصَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَاجْعَلْهُمْ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

---

(١١) وذلك عقب صلاة الفجر من يوم الاثنين ١/ ٢/ ١٤٢٥هـ، وكان الشيخ يعلم أن العدو يستهدفه، وقد أدرجه في قائمة اغتيالاته، ومع ذلك ما ترك ما اعتاده من حضور الصلاة في المسجد مع جماعة المسلمين، وهو بفعله هذا لا شك أنه يتحدى العدو، ويظهر عدم مبالاته بقوته وتهديداته، وتلك والله هي قمة التوكل على الله تعالى، واليقين بأن الأعمار بيده سبحانه دون ما سواه.

ومن العجيب أن الشيخ قبل أيام من اغتياله أصيب بأزمة حادة، لزم العناية المركزة في المستشفى، ويحكى أن الأطباء قدَّروا أن حالته الصحية متردية جدًّا، وأنه لن يعيش إلا أيامًا قلائل، وسبحان الله وبحمده! فلعل الله تعالى ما أراد للشيخ أن يموت على فراشه وهو قد أمضى عقودًا في الجهاد، فهيأ له أسباب الاستشهاد؛ إذ نشط من مرضه، فما هو إلا أن خرج إلى المسجد على عادته، فكان ما كان من أمر الله تعالى وقدره، فالحمد لله رب العالمين، ورحم الله تعالى الشيخ، وبلغه منازل الشهداء، إنه جواد كريم.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ..

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ مَنَّ عَلَيْنَا بِالْهُدَى، وَفَاضَلَ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالتُّقَى. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ الْعَبْدُ الْمُجْتَبَى، وَالنَّبِيُّ الْمُصْطَفَى، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولِي الْبِرِّ وَالتُّقَى، الدَّاعِينَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- فَإِنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَ أَمَدُهَا، وَأَزْهَرَتْ خُضْرَتُهَا، وَبَدَتْ زِينَتُهَا؛ فَهِيَ تَزُولُ وَلَا تَبْقَى، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: يُسْتَفَادُ مِنْ سِيرَةِ هَذَا الْمُجَاهِدِ الرَّاحِلِ دُرُوسٌ كَثِيرَةٌ، وَفَوَائِدُ عِدَّةٌ، يَعْرِفُهَا مَنْ قَرَأَهَا وَتَأَمَّلَهَا.

لَقَدْ أَثْبَتَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ أَنَّ النُّفُوسَ الْكَبِيرَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى الْعِلَلِ وَالْأَوْصَابِ، وَتَتَجَاوَزُ الْمِحَنَ وَالصِّعَابَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَسَلَّحَتْ بِالْإِيمَانِ وَالصَّبْرِ، وَكَانَ لِأَصْحَابِهَا هِمَّةٌ عَالِيَةٌ، وَإِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ، وَإِلَّا فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَجُلٍ كَسِيحٍ مَرِيضٍ، لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ إِلَّا عَقْلُهُ وَلِسَانُهُ، يَقُودُ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ عُزَّلٍ مِنَ السِّلَاحِ، فِي ظُرُوفٍ

عَسْكَرِيَّةٍ صَعْبَةٍ، وَأَمَامَ بَحْرٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ الْأَصْلِيِّينَ وَالْعُمَلَاءِ وَالْخَوَنَةِ، يَمْلِكُونَ أَقْوَى سِلَاحٍ، وَيَشْتَرُونَ الذِّمَمَ بِالمَالِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ أُمَمُ الْأَرْضِ وَمُنَظَّمَاتُهَا الدَّوْلِيَّةُ، يُسْبِغُونَ عَلَى جَرَائِمِهِمُ الشَّرْعِيَّةَ الدَّوْلِيَّةَ؟ وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُودُ جُنْدَهُ فَيُحْسِنُ الْقِيَادَةَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةً إِلَى أَنْ قُتِلَ فِي أَرْضِ مَعْرَكَتِهِ.

لَقَدْ عَذَرَهُ اللهُ تَعَالَى، بَلْ وَاجْتَمَعَتْ فِيهِ الْأَعْذَارُ كُلُّهَا؛ فَالْأَعْمَى لَيْسَ عَلَيْهِ حَرَجٌ، وَهُوَ يُشْبِهُ الْأَعْمَى، وَبَصَرُهُ ضَعِيفٌ، وَالْأَعْرَجُ مَعْذُورٌ وَهُوَ مَشْلُولٌ كَسِيحٌ، وَالمَرِيضُ مَعْذُورٌ وَهُوَ مُصَابٌ بِالْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ.

كَانَ بِإِمْكَانِهِ أَنْ يَقْعُدَ مَعَ الْقَاعِدِينَ، وَيُخَذِّلَ مَعَ المُخَذِّلِينَ، أَوْ يَطْلُبَ الْخُرُوجَ مِنْ بَلَدِهِ؛ لِعِلَاجِ مَرَضِهِ، وَكُلُّ الدُّوَلِ تُرَحِّبُ بِهِ، وَتَسْتَضِيفُهُ وَتُعَالِجُهُ؛ وَلَكِنَّهُ قَدَّمَ أُمَّتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَالَجَ مِحَنَهُ بِصَبْرِهِ، فَغَايَتُهُ أَسْمَى مِنْ جَسَدِهِ، فَضَحَّى بِهِ فِي نَيْلِ مَطْلُوبِهِ، وَتَحْقِيقِ هَدَفِهِ.

لَقَدْ بَلَغَ صَبْرُهُ مَبْلَغًا عَجِيبًا حَتَّى فَاضَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى جُنْدِهِ؛ فَأَخَذُوا عَنْ قَائِدِهِمُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ الَّذِي لَا شِكَايَةَ فِيهِ[١٢]، وَالتَّحَمُّلَ الْعَظِيمَ الَّذِي يُقَدِّرُ المَصْلَحَةَ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ حَاوَلَ الْيَهُودُ وَعُمَلَاؤُهُمْ أَنْ يَجُرُّوهُ وَجُنْدَهُ إِلَى حَرْبٍ أَهْلِيَّةٍ، وَلَكِنَّهُمْ فَشِلُوا بِسَبَبِ صَبْرِهِ وَصَبْرِ جُنْدِهِ عَلَى ظُلْمِ الْقَرِيبِ، وَاسْتِفْزَازِ الْبَعِيدِ، فَلَقَدْ كَانَ مُسْتَمْسِكًا بِهَدَفِهِ الْأَسْمَى وَهُوَ تَوْجِيهُ سِلَاحِهِ لِعَدُوِّهِ وَعَدُوِّ المُسْلِمِينَ، وَيَرَى أَنَّ تَحَمُّلَ الظُّلْمِ وَالِاسْتِفْزَازِ أَهْوَنُ مِنَ الدُّخُولِ فِي مَعَارِكَ أُخْرَى لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهَا إِلَّا الْيَهُودُ.

لَقَدْ عَلَّمَنَا هَذَا الْقَائِدُ الرَّاحِلُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً- أَنَّ الْجَسَدَ

---

(١٢) ذكر الدكتور عبد العزيز الرنتيسي -حفظه الله تعالى- في مقابلة له أنه تَعَلَّمَ مِنْ شيخه ياسين في سجون إسرائيل؛ حيث اعْتُقِلَا سَوِيًّا: الصبر الجميل الذي لا شكاية معه من ألم المرض، وشدة القهر، ووطأة السجن، كما تعلم منه الانتصار على الضعف.

الْهَزِيلَ إِذَا كَانَ يَمْلِكُ إِرَادَةً قَوِيَّةً فَإِنَّهُ يَنْتَصِرُ عَلَى عَوَامِلِ الضَّعْفِ فِيهِ، وَيَصِلُ إِلَى مَا يُرِيدُ، وَإِلَّا فَكَيْفَ بِرَجُلٍ لَا يَتَحَرَّكُ فِيهِ إِلَّا رَأْسُهُ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْمَرَضُ مَا بَلَغَ، يَعْقِدُ الْعَدُوُّ الْأَقْوَى فِي هَذَا الْعَصْرِ مَجَالِسَهُ الْأَمْنِيَّةَ لِبَحْثِ تَصْفِيَتِهِ، وَيُحَاوِلُ اغْتِيَالَهُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، ثُمَّ يُجَنِّدُ الطَّائِرَاتِ وَالصَّوَارِيخَ لِمُقْعَدٍ عَلَى كُرْسِيٍّ مُتَحَرِّكٍ، ثُمَّ لَمَّا تَأَكَّدَ نَبَأُ مَقْتَلِهِ طَارُوا بِذَلِكَ فَرَحًا فِي أَكْبَرِ دَوْلَةٍ وَأَقْوَاهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ؟![13].

وَمَا أَعْظَمَهُ مِنْ دَرْسٍ لِأُمَّةٍ قَدِ اسْتَضْعَفَتْ نَفْسَهَا، وَأَحَاطَ بِهَا الْوَهْنُ وَالذُّلُّ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهَا! حَتَّى اسْتُبِيحَ حِمَاهَا، وَأَسْقَطَ الْعَدُوُّ بَعْضَ دُوَلِهَا، وَعَاثَ فَسَادًا فِي أَرْضِهَا، وَقَدْ رَتَّبَ الدُّوَلَ الْأُخْرَى دَوْلَةً دَوْلَةً عَلَى مَذْبَحِهِ، وَالْكُلُّ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ، وَرُدُودُ الْأَفْعَالِ خَلَتْ حَتَّى مِنَ الْأَقْوَالِ!!

فَأَيْنَ الْأُمَّةُ مِنْ سِيرَةِ هَذَا الْقَائِدِ الْجِهْبِذِ الَّذِي انْتَصَرَ عَلَى كُلِّ عَوَامِلِ الضَّعْفِ فِي نَفْسِهِ، بِإِيمَانِهِ الْعَمِيقِ، وَعَقِيدَتِهِ الرَّاسِخَةِ، وَإِرَادَتِه الْقَوِيَّةِ. وَلِمَ لَا تَفْقَهُ الْأُمَّةُ هَذَا الدَّرْسَ الْعَظِيمَ، فَلَا تَخْنَعُ بِحُجَّةِ الضَّعْفِ، وَقِلَّةِ الْحِيلَةِ، وَلَا تَسْتَكِينُ

---

(١٣) كانت عناوين نشرات الأخبار في أمريكا تدل على ذلك، نحو قولهم: «مقتل الإرهابي الأول»، وقول قناة (فوكس): «الشيخ ياسين كان من أكثر القادة الدمويين في فلسطين» وعرضت الشبكات الأمريكية تصريح وزير الدفاع الإسرائيلي «شاؤول موفاز» حين قال: «سيداتي سادتي .. قتلنا ابن لادن الفلسطيني».
ولم تستضف شبكات التلفزة الأمريكية أي فلسطيني أو عربي عقب الحدث، وإنما استضافت شخصيات صهيونية كان منهم وزير الزراعة اليهودي «يسرائيل كاتس» الذي خرج يهنئ الجيش الإسرائيلي على قوته الرادعة فقال: «لقد قتلنا ابن لادن الخاص بنا»، وقالت عضوة الكنيست «جيلا فينكيلشتن» في إحدى القنوات الأمريكية: «ياسين يستحق الموت تمامًا مثل الرنتيسي ... وابن لادن، العالم يفهم أنه يجب اجتثاث رأس الإرهاب، وأنا أهنئ بالعملية»، وغير ذلك كثير.

لِعَجْزِهَا، أَوْ تَرْكَنُ لِعَدُوِّهَا؟ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنْزِلُ المَعُونَةَ عَلَى قَدْرِ المُؤْنَةِ، وَيُنْزِلُ الصَّبْرَ عَلَى قَدْرِ الْبَلَاءِ(١٤)، وَإِذَا عَلِمَ سُبْحَانَهُ صِدْقَ الْعِبَادِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ، وَتَحْكِيمِ شَرْعِهِ؛ أَعَانَهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

وَالثَّبَاتُ عَلَى المَبْدَإِ دَرْسٌ آخَرُ مِنْ دُرُوسِ سِيرَتِهِ، فَلَقَدْ حَاوَلَ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ؛ مُسَاوَمَتَهُ عَلَى مَبَادِئِهِ، وَرَغَّبُوهُ وَرَهَّبُوهُ، وَسَجَنُوهُ وَعَذَّبُوهُ، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ؛ فَمَا لَانَتْ عَزِيمَتُهُ، وَلَا تَزَعْزَعَ عَنْ مَوْقِفِهِ، وَلَا غَيَّرَ مَبْدَأَهُ الَّذِي أَعْلَنَهُ، فَلَمَّا رَأَى الْعَدُوُّ صَلَابَتَهُ، وَاسْتَنْفَذَ كُلَّ طُرُقِ الْإِغْرَاءِ وَالْإِرْهَابِ مَعَهُ؛ قَرَّرَ قَتْلَهُ، فَنَحْسَبُهُ -وَاللهُ حَسِيبُهُ- أَنَّهُ قَدْ لَقِيَ اللهَ تَعَالَى وَهُوَ ثَابِتٌ ثُبُوتَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي عَلَى مَا أَعْلَنَهُ وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَهُوَ جِهَادُ الْعَدُوِّ الصِّهْيَوْنِيِّ إِلَى أَنْ يَلْقَى اللهَ ﷻ.

وَكَانَ مِنْ عَلَامَةِ الْخَيْرِ لَهُ: أَنَّ قَتْلَهُ كَانَ بَعْدَ فَرِيضَةٍ عَظِيمَةٍ أَدَّاهَا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ﷻ، وَهُوَ مَعْذُورٌ لَوْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ لِشَلَلِهِ وَمَرَضِهِ، وَلَكِنَّ إِيمَانَهُ حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ مَعَ جَمَاعَةِ المُسْلِمِينَ، فَكَانَ خَاتِمَةُ عَمَلِهِ تِلْكَ الْفَرِيضَةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي مَنْ أَدَّاهَا فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَكَانَ الشَّيْخُ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَارِنُوا -رَحِمَكُمُ اللهُ تَعَالَى- ثَبَاتَ هَذَا الْقَائِدِ الْعَظِيمِ بِحَالِ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ غَيَّرُوا مَبَادِئَهُمْ، وَتَنَكَّرُوا لِدِينِهِمْ، وَانْقَلَبُوا عَلَى ثَوَابِتِهِمْ وَمُسَلَّمَاتِهِمْ بِالنَّقْدِ وَالتَّجْرِيحِ، وَالتَّبَرِّي وَالتَّشْكِيكِ؛ إِرْضَاءً لِأَعْدَائِهِمْ، وَكَسْبًا لِوُدِّهِمْ، وَدَرْءًا

(١٤) جاء ذلك في حديث أبي هريرة ﷺ عند: القضاعي في مسند الشهاب (٩٩٢)، والبزار كما في الزوائد لابن حجر (١٥٦)، وجاء من حديث أنس ﷺ كما ذكر الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٦٤).

لِشَرِّهِمْ، وَلَنْ يَنكَفُّوا أَوْ يَرْضَوْا عَنْهُمْ؛ بَلْ هُمْ مَاضُون فِيمَا يَطْلُبُونَ، عَازِمُونَ عَلَى مَا يُرِيدُونَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ بَاعَ دِينَهُ وَاشْتَرَى الدُّنْيَا، وَحَرَّفَ النُّصُوصَ إِبْقَاءً عَلَى دُنْيَاهُ، وَاللَّهِ لَيَخْسَرَنَّ الدِّينَ وَالدُّنْيَا.

وَدُرُوسُ الشَّيْخِ الرَّاحِلِ كَثِيرَةٌ، وَسِيرَتُهُ عَجِيبَةٌ، وَيَكْفِي فِيهَا أَنَّهُ مَا عُرِفَ فِي الْأُمَّةِ، بَلْ وَلَا فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ أَنَّ قَائِدًا قَادَهَا وَهُوَ مَشْلُولٌ فَأَحْسَنَ الْقِيَادَةَ، وَأَقَضَّ مَضَاجِعَ الْأَعْدَاءِ، وَغَيَّرَ مُجْرَيَاتِ الصِّرَاعِ؛ فَرَجَحَتْ كِفَّتُهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى عُبَّادِ الْعِجْلِ.

وَكَمَا كَانَتْ سِيرَتُهُ غَرِيبَةً، فَإِنَّ قِيَادَتَهُ ثُمَّ قَتْلَهُ كَانَ أَشَدَّ غَرَابَةً، وَإِلَّا فَمَا يُرْهِبُ الْيَهُودَ مِنْ مُسِنٍّ مَرِيضٍ مَشْلُولٍ؟! وَلِحَادِثَةِ قَتْلِهِ مَا بَعْدَهَا، وَكَمْ مِنْ دَمٍ أَحْيَا اللهُ تَعَالَى بِهِ أُمَّةً كَامِلَةً؟! وَلَرُبَّمَا نَدِمَ الْيَهُودُ عَلَى قَتْلِهِ أَشَدَّ النَّدَمِ؛ لِمَا يُحْيِي اللهُ تَعَالَى بِدَمِهِ مِنْ رِجَالٍ يُكْمِلُونَ مَسِيرَتَهُ، وَيَسِيرُونَ عَلَى خُطَّتِهِ.

وَإِنَّ قَتْلَ الْيَهُودِ لَهُ لَدَلِيلُ رِبْحٍ وَفَوْزٍ لَهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَهُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ عَلَى خَسَارَةِ الْيَهُودِ وَإِفْلَاسِهِمْ، وَفَشَلِ سِيَاسَتِهِمْ، وَبِدَايَةِ نِهَايَتِهِمْ، وَنِهَايَةِ حُلَفَائِهِمْ مِنْ عُبَّادِ الصَّلِيبِ، عَجَّلَ اللهُ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بِذَلِكَ ...

❁ ❁ ❁

٣٦٠- مقتل حاكم العراق

١٦/١٢/١٤٢٧هـ

الحَمْدُ للَّهِ العَلِيِّ الأَعْلَى؛ خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى، وَنَشْكُرُهُ عَلَى فَضْلِهِ الَّذِي لَا يُنْسَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ قَسَمَ الدِّينَ بَيْنَ عِبَادِهِ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقَسَمَ بَيْنَهُمْ الدُّنْيَا فَيُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لِلْعَالَمِينَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَجَعَلَهُ سِرَاجًا مُنِيرًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَضَوْا بِالحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا طَالَتْ زَالَتْ، وَمَهْمَا أَزْهَرَتْ أَغْبَرَتْ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ تَجَرَّعَ ذُلَّهَا! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ ذَاقَ فَقْرَهَا! وَلَا يَبْقَى لِلْعَبْدِ مِنْهَا إِلَّا مَا عَمِلَ فِيهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَضَى عِيدُ المُسْلِمِينَ الكَبِيرُ بَعْدَ أَنْ وَقَفَتْ جُمُوعٌ مِنْهُمْ عَلَى صَعِيدِ عَرَفَةَ يُقِيمُونَ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُعَظِّمُونَ شَعَائِرَهُ، يُبَاهِي بِهِمْ رَبُّهُمْ ﷻ مَلَائِكَتَهُ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَنْ شَرَعَ لَهُمْ دِينَهُمْ، وَرَضِيَ مِنْهُمْ عَمَلَهُمْ، فَأَدَّوْا لِلَّهِ تَعَالَى نُسُكَهُمْ، فِي لِبَاسٍ وَاحِدٍ، وَمَكَانٍ وَاحِدٍ، وَشِعَارٍ وَاحِدٍ.

وَفِي يَوْمِ الْعِيدِ الأَكْبَرِ ذَبَحَ المُسْلِمُونَ ذَبَائِحَهُمْ، وَتَقَرَّبُوا لِلَّهِ تَعَالَى بِهَدَايَاهُمْ

وَضَحَايَاهُمْ، قَائِلِينَ: «بِسْمِ اللَّهِ وَاللهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ»، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ عِبَادَاتٍ! وَمَا أَجَلَّهَا مِنْ شَعَائِرَ! تَأْخُذُ بِالْقُلُوبِ، وَتُسِيلُ الدُّمُوعَ؛ فَرَحًا بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِالاجْتِمَاعِ عَلَى ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

فَهَنِيئًا لَكُمْ -أَيُّهَا المُسْلِمُونَ- مَا هُدِيتُمْ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَمَا قَامَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ تَعْظِيمِ الشَّعَائِرِ، وَاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى إِذْ هَدَاكُمْ، وَسَلُوهُ الثَّبَاتَ عَلَى دِينِكُمْ.

وَخِلَالَ هَذِهِ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ الَّتِي بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى بِأَنْ جَعَلَهَا أَفْضَلَ أَيَّامِ السَّنَةِ، وَقَضَى بِأَنَّ العَمَلَ الصَّالِحَ فِيهَا أَفْضَلُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا، وَاخْتَصَّهَا بِشَعِيرَتَي الحَجِّ وَالأُضْحِيَةِ. فِي تِلْكُمُ الأَيَّامِ المُبَارَكَةِ كَانَتْ أُمَّةُ النَّصَارَى الضَّالَّةُ تَحْتَفِلُ بِعِيدِ مِيلَادِ المَسِيحِ ﷺ وَعِيدِ رَأْسِ السَّنَةِ المِيلَادِيَّةِ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الشَّعَائِرِ الشِّرْكِيَّةِ، وَالمَرَاسِمِ الشَّهْوَانِيَّةِ الَّتِي تُشْبِعُ غَرَائِزَهُمْ وَلَا تُصْلِحُ قُلُوبَهُمْ، وَتُرْضِي شَيْطَانَهُمْ، وَتُسْخِطُ رَبَّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تَزِيدُهُمْ إِلَّا ضَلَالًا عَلَى ضَلَالِهِمْ، وَبُعْدًا عَنْ مَنَاهِجِ الأَنْبِيَاءِ وَشَرَائِعِهِمْ.

وَقَدْ تَابَعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا جُمْلَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، يَفْرَحُونَ بِأَعْيَادِ الضَّالِّينَ، وَيَشُدُّونَ رِحَالَهُمْ إِلَيْهَا، وَيَبْحَثُونَ عَنْهَا فِي مَظَانِّهَا، يَعُبُّونَ مِنْ شَهَوَاتِهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِزَخَارِفِهَا، وَيُهَنِّئُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِهَا، فِي حِينِ أَنَّهُمْ يَضْجَرُونَ مِنْ أَعْيَادِ المُسْلِمِينَ، فَيُعَطِّلُونَ شَرَائِعَهَا، وَلَا يُعَظِّمُونَ شَعَائِرَهَا، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ بَعْدَ الهُدَى، وَمِنَ الْغَفْلَةِ وَالهَوَى.

وَلَئِنْ شَهِدَتِ الأَيَّامُ المَاضِيَةُ المُبَارَكَةُ فَرَحَ المُسْلِمِينَ بِأَعْيَادِهِمُ الشَّرْعِيَّةِ، وَاحْتَفَلَ فِيهَا النَّصَارَى بِأَعْيَادِهِمُ الْكُفْرِيَّةِ؛ فَإِنَّ الأُمَّةَ الصَّفَوِيَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ قَدْ خَالَفَتْ عُمُومَ المُسْلِمِينَ فِي الْعِيدِ الْكَبِيرِ فَأَخَّرُوهُ عَنِ الْعِيدِ الشَّرْعِيِّ؛ إِمْعَانًا فِي

الْمُخَالَفَةِ، وَقَصْدًا لِتَرْسِيخِ الْبِدْعَةِ، وَخَرْقًا لِإِجْمَاعِ الأُمَّةِ(١)، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى عِيدِ الْمُسْلِمِينَ الأَكْبَرِ فَقَتَلُوا فِيهِ حَاكِمَ الْعِرَاقِ؛ لِيُؤَكِّدُوا لِأَهْلِ السُّنَّةِ حُكْمَهُمْ لِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا حَوْلَهَا، الَّتِي كَانُوا يَحْلُمُونَ بِحُكْمِهَا مُنْذُ الْقَرْنِ السَّابِعِ لَمَّا أَسْقَطَ أَجْدَادُهُمْ بِخِيَانَةِ ابْنِ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيِّ خِلَافَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ تَحْتَ أَقْدَامِ الْمَغُولِ.

فَعَلُوا ذَلِكَ بِحَاكِمِ الْعِرَاقِ يَوْمَ عِيدِ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ يُرَدِّدُونَ الشِّعَارَاتِ الْبِدْعِيَّةَ الْبَغِيضَةَ الَّتِي تَنِمُّ عَنْ تَعَصُّبِهِمْ لِمَذْهَبِهِمْ الضَّالِّ(٢)، وَتَشِي بِمَدَى حِقْدِهِمْ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ قَوْمٌ بُهْتٌ غُدْرٌ، يُظْهِرُونَ الضَّعْفَ وَالْوَدَاعَةَ، حَتَّى إِذَا تَمَكَّنُوا لَمْ يَرْقُبُوا فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً، وَمَا يَفْعَلُونَهُ بِأَبْنَاءِ الْعِرَاقِ مِنَ

---

(١) وذلك أن الرافضة جعلوا العيد يوم الأحد، وجعلوا السبت الوقوف بعرفة، مخالفين جمهور المسلمين الذين وقفوا بعرفة يوم الجمعة وعيدهم السبت.

(٢) صور أحد من حضروا إعدام صدام حسين وقائع الإعدام، وكان الحضور مُلَثَّمِين، ويهتفون بمقتدى الصدر الزعيم الرافضي العراقي، ويصلون على النبي ﷺ على طريقتهم ونغمتهم التي عرفوا بها. وشهد صدام بشهادة الحق قبل شنْقِه، وكان ثابتًا غير هيَّاب، وما كان الرافضة يودون خروج هذا التسجيل، ولكن الله تعالى فضحهم؛ إذ صرحوا قبل تسرب هذا المشهد المصور للناس تصريحات كاذبة، ففضحهم الله تعالى بتسرب مشهد الإعدام إلى الناس؛ إذ بعد إعدامه قال علي المسعدي الذي صور لقطات الفيديو الشهيرة لإعدام صدام حسين لمجلة النيوزويك الأمريكية: إن آخر ما نطق به صدام حسين قبل إعدامه هو أن العراق بلا صدام لا شيء.

وقال موفق الربيعي: إن صدام حسين كان خائفًا .. وأنه قال له: لا تخف.

وظهر كذب هذين الاثنين عقب تسرب تصوير مشهد الإعدام للناس الذي لم يكن فيه صدام خائفًا، بل كان ثابتًا قويًا، ونطق بالشهادة كاملة، ونطق في المرة الثانية بشهادة الألوهية، وشنقوه أثناء نطقه بالشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة.

وجاء هذا الشريط فضيحة للرافضة، ودعاية لصدام -رحمه الله تعالى-؛ إذ انقلب الشارع الإسلامي إلى متعاطف معه، مترحم عليه، بعد أن كان كثير من الناس كارهين له، وآخرون لا يأبهون لأمره.

التَّعْذِيبِ وَالْحَرْقِ، وَتَشْوِيهِ الْأَجْسَادِ وَتَمْزِيقِهَا لَمْ يَفْعَلْهُ إِخْوَانُهُمْ مِنَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، كَأَنَّهُمْ بِقَتْلِهِمْ حَاكِمَ الْعِرَاقِ الْأَسِيرَ فِي الْعِيدِ الْكَبِيرِ يُوصِلُونَ رِسَالَةً مُهِمَّةً لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ لَهُمْ فِيهَا: أَنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِعِيدِكُمْ، وَنَحْنُ نَأْمُرُ وَنَنْهَى فِي عِرَاقِكُمْ، وَقَدْ خَرَجْنَا عَنْ تَقِيَّتِنَا، وَأَعْلَنَّا شِعَارَنَا الطَّائِفِيَّ حَالَ قَتْلِنَا زَعِيمًا مِنْ زُعَمَائِكُمْ، وَحَوَّلْنَا الْإِعْلَامَ مِنَ الاهْتِمَامِ بِحَجِّكُمْ إِلَى مَوَاقِعِ إِهَانَتِكُمْ، وَمَوَاضِعِ ذُلِّكُمْ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ وَمَاذَا سَتَفْعَلُونَ؟ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا عَاجِزُونَ.

حَتَّى إِنَّ كَاتِبًا غَرْبِيًّا أَثَّرَ فِيهِ الْمَشْهَدُ وَتَوْقِيتُهُ فَقَالَ: «إِنَّهُ عِنْدَمَا يَظْهَرُ دِكْتَاتُورٌ عُرِفَ بِوَحْشِيَّتِهِ الاسْتِثْنَائِيَّةِ وَهُوَ يَمُوتُ بِطَرِيقَةٍ مُشَرِّفَةٍ، وَبِشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ عَلَى أَيْدِي مَجْمُوعَةٍ مِنَ السَّفَّاحِينَ قُطَّاعِ الطُّرُقِ الْمُقَنَّعِينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَحُهُ بِكُلِّ تَأْكِيدٍ تَاجَ الشُّهَدَاءِ». إِلَى أَنْ قَالَ: «مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ مَا أَرَادَهُ الْمَالِكِيُّ هُوَ بَعْثُ رِسَالَةٍ مُتَعَمَّدَةٍ إِلَى سُنَّةِ الْعِرَاقِ مُفَادُهَا أَنَّ الشِّيعَةَ هُمُ الْأَسْيَادُ الْآنَ، مِمَّا يُحَوِّلُ الْحُكُومَةَ الْعِرَاقِيَّةَ الْحَالِيَّةَ الَّتِي كَانَ هَدَفُهَا تَوْحِيدَ الْعِرَاقِيِّينَ إِلَى مُجَرَّدِ عِصَابَةٍ طَائِفِيَّةٍ مُصَمِّمَةٍ عَلَى جَعْلِ السُّنَّةِ الْأَقَلِّيَّةَ الَّتِي تَدْفَعُ ثَمَنَ كُلِّ الْقَمْعِ الَّذِي مَارَسَهُ نِظَامُ صَدَّامٍ بِحَقِّ الشِّيعَةِ»(٣).

لَقَدِ الْتَقَتِ الرَّغْبَةُ الْيَمِينِيَّةُ الْإِنْجِيلِيَّةُ مَعَ الْحِقْدِ الصَّفَوِيِّ الْبَاطِنِيِّ، عَلَى هَدَفٍ وَاحِدٍ وَهُوَ هَزِيمَةُ رُوحِ الْمُقَاوَمَةِ عِنْدَ السُّنَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ الْبَدْءُ بِتَشْكِيلِ الْمِنْطَقَةِ، وَكِتَابَةِ تَارِيخٍ يَخُطُّهُ الْمُنْتَصِرُونَ.

إِنَّ مَشْرُوعَ تَرْكِيعِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُطَبَّقَ دُونَ إِجْهَازٍ عَلَى النُّفُوسِ الْمُقَاوِمَةِ لِلظُّلْمِ وَالِاسْتِعْمَارِ وَالتَّغْرِيبِ وَالتَّشْيِيعِ، وَالَّذِي يَحْدُثُ فِي الْعِرَاقِ هُوَ تَجْهِيزٌ لِلْمِنْطَقَةِ بِكَامِلِهَا إِنْ عَلَى مُسْتَوَى الْعُنْفِ وَالْقَتْلِ وَالدَّمَارِ الَّذِي وَصَلَ إِلَى

---

(٣) صحيفة ديلي تلغراف البريطانية عن الساحة السياسية عبر الشبكة العالمية.

مُسْتَوَى الْقَاعِ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْقَاعِ إِلَّا رَمْيُ رَكَائِزِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْجَدِيدِ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى السِّيَاسَاتِ الْعَامَّةِ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى التَّهْيِئَةِ النَّفْسِيَّةِ.

وَاخْتِيَارُ هَذَا المَوْعِدِ لِإِعْدَامِ صَدَّامٍ هُوَ آخِرُ بَالُونَاتِ الِاخْتِبَارِ؛ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ التَّخْدِيرَ قَدْ جَرَى فِي شَرَايِينِ أَبْنَاءِ المِنْطَقَةِ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا يَشْعُرُونَ بِالْأَلَمِ، فَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ![4].

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمَا أَنْ وَقَعَ هَذَا الْحَدَثُ الْكَبِيرُ فِي عَالَمِ السِّيَاسَةِ، وَنَقَلَتْ وَسَائِلُ الْإِعْلَامِ وَقَائِعَ إِعْدَامِ حَاكِمِ الْعِرَاقِ إِلَّا وَتَحَوَّلَ اهْتِمَامُ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَكَثُرَتْ أَقَاوِيلُهُمْ فِيهِ، وَخُصِّصَتْ بَرَامِجُ إِعْلَامِيَّةٌ تَحْكِي سِيرَةَ الزَّعِيمِ المَقْتُولِ، وَعُقِدَتْ مُنَاظَرَاتٌ لِأَجْلِهِ، وَسُوِّدَتْ صَفَحَاتٌ فِي حَيَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَضَاعَ الْعَامَّةُ فِي خِضَمِّ هَذَا الِاخْتِلَافِ.

فَطَائِفَةٌ رَأَوْا فِي الزَّعِيمِ المَقْتُولِ رَمْزًا مِنْ رُمُوزِ الْأُمَّةِ، وَعَلَمًا مِنْ أَعْلَامِهَا، مُدَافِعًا عَنْ قَضَايَاهَا، حَرِيصًا عَلَى مَصَالِحِهَا، حَامِيًا لِبَيْضَتِهَا، وَمَا قَصَدَهُ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَّا لِأَنَّهُ أَعْظَمُ خَطَرٍ عَلَيْهِمْ، وَمَا تَشَفَّى فِيهِ الْفُرْسُ الصَّفَوِيُّونَ وَأَذْنَابُهُمْ إِلَّا لِأَنَّهُ كَانَ السَّدَّ المَنِيعَ دُونَ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ.

وَيَرَى هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّاسِ أَنَّ إِعْدَامَهُ هُوَ إِعْدَامٌ لِلنِّظَامِ الْعَرَبِيِّ بِرُمَّتِهِ، وَهُوَ رِسَالَةٌ لِكُلِّ مَنْ يَقِفُ حَائِلًا دُونَ المَشْرُوعَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ أَوِ المَشْرُوعَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الصَّفَوِيَّةِ بِأَنَّهُ سَيَلْقَى نَفْسَ المَصِيرِ.

وَبَالَغَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَجَعَلُوهُ شَهِيدَ الأُمَّةِ الَّذِي لَنْ يَتَوَحَّدَ الْعِرَاقُ بَعْدَهُ، وَلَا خَيْرَ فِي الْأُمَّةِ عَقِبَهُ، وَعَدُّوهُ فِي مَصَافِّ قَادَةِ الْإِسْلَامِ الْعُظَمَاءِ، وَتَأَلَّى بَعْضُهُمْ عَلَى

---

(٤) من مقالة (أضحية اليمين المحافظ) د.عبدالله بن موسى الطاير، الساحة السياسية.

اللَّهِ تَعَالَى فَحَكَمَ لَهُ بِالشَّهَادَةِ وَالجَنَّةِ.

وَفِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَالأُمَّةُ الْعَاجِزَةُ المَظْلُومَةُ تَتَعَلَّقُ بِأَيِّ رَمْزٍ تَرَاهُ قَدْ تَحَدَّى أَعْدَاءَ الأُمَّةِ فِي الْعَلَنِ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ حَيْدَةٌ عَنْ مَنْهَجِهَا وَرِسَالَتِهَا، وَفِي زَمَنِ الذُّلِّ تَتَعَلَّقُ الْقُلُوبُ بِمَنْ فِيهِمْ عِزَّةٌ، وَحَالِ انْتِشَارِ الْخَوْفِ وَالْجُبْنِ يُحِبُّ النَّاسُ الشُّجَاعَ فِيهِمْ، وَتُعْمِيهِمْ شَجَاعَتُهُ وَعِزَّتُهُ عَمَّا فِيهِ مِنْ خَلَلٍ وَقُصُورٍ.

فِي مُقَابِلِ هَذَا الْفَرِيقِ فَرِيقٌ آخَرُ لَمْ يَرَوْا فِي حَاكِمِ الْعِرَاقِ إِلَّا خَائِنًا لِأُمَّتِهِ، مُمَالِئًا لِأَعْدَائِهَا، سَفَّاكًا لِدِمَائِهَا، غَشُومًا فِي حُكْمِهَا، قُوَّتُهُ عَلَى شَعْبِهِ لَا عَلَى أَعْدَائِهِ. وَسِيَاسَاتُهُ الخَرْقَاءُ وَتَصَرُّفَاتُهُ الرَّعْنَاءُ جَرَّتِ المِنْطَقَةَ إِلَى وَيْلَاتٍ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا، وَوَطَّنَتْ لِلْصَّلِيبِيِّينَ وَالصَّهَايِنَةِ مَوَاضِعَ أَقْدَامٍ مِنَ الْعَسِيرِ زَحْزَحَتُهَا، وَيَعْزُو هَذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّاسِ كُلَّ بَلَاءِ الأُمَّةِ إِلَيْهِ، وَيَجْزِمُونَ بِأَنَّهُ الصَّفْحَةُ السَّوْدَاءُ الْوَحِيدَةُ فِي بِلَادِ الرَّافِدَيْنِ، وَلَا يَرَوْنَ لَهُ حَسَنَةً وَاحِدَةً.

وَيَعُدُّونَ تَغَيُّرَهُ فِي آخِرِ فَتْرَةِ حُكْمِهِ، وَاتِّجَاهَهُ لِبِنَاءِ المَسَاجِدِ، وَتَوْسِيعِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعِنَايَةِ بِالْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ . . يَعُدُّونَ ذَلِكَ انْتِهَازِيَّةً لِجَمْعِ النَّاسِ عَلَيْهِ بَعْدَ ضَجَرِهِمْ مِنَ الحِصَارِ، وَمُسَاوَمَةً مِنْهُ لِلْغَرْبِ، وَاسْتِخْدَامًا مِنْهُ لِلدِّينِ سِلَاحًا يُهَدِّدُهُمْ بِهِ.

كَمَا يَرَوْنَ أَنَّ ثَبَاتَهُ فِي مُحَاكَمَتِهِ، وَاصْطِحَابَهُ مُصْحَفَهُ، وَمُحَافَظَتَهُ عَلَى الصَّلَاةِ فِي سِجْنِهِ، مَا هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْبَائِسِ الْيَائِسِ الَّذِي فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ، فَرَكَنَ إِلَى الدِّينِ لِيَخْدَعَ النَّاسَ، وَيَكْسِبَ تَعَاطُفَهُمْ، وَتَأَلَّى بَعْضُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَزَعَمُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَأَنَّ جَهَنَّمَ مَأْوَاهُ، وَأَنَّ نُطْقَهُ لِشَهَادَةِ الْحَقِّ قَبْلَ مَوْتِهِ لَا يَنْفَعُهُ، وَأَنَّ إِيمَانَهُ كَإِيمَانِ فِرْعَوْنَ حَالَ غَرْغَرَتِهِ[٥].

---

(٥) وللعلم فقد أصدر الشيخ عبد الرحمن البراك -حفظه الله تعالى- بيانًا قرر فيه تكفير صدام =

. . . .

= قال فيه:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. أما بعد: فمن المعلوم أن صدام أحد قادة حزب البعث العربي، والمعروف أن حزب البعث يقوم على مبادئ جاهلية وإلحادية، وكان أمين الحزب ميشيل عفلق النصراني، ولم يُعلم أن صدامًا أعلن براءته من حزب البعث بعد احتلال الأمريكان للعراق ولا قبل ذلك.

وأما ما يتظاهر به من الإسلام والنطق بالشهادتين؛ فلا يكفي؛ فإن كثيرًا من الملاحدة المتسبين إلى الإسلام يتكلمون بالشهادتين ويتمسحون بالإسلام.

وعلى هذا فنفوِّض أمر صدام إلى الله ولا نحكم عليه فيما بينه وبين الله؛ ولا نترحم عليه؛ ولا نصلي عليه لو قُدِّمَ للصلاة عليه؛ لأن كل ما أَظْهَرَهُ لا يدل على انتقاله عما كان عليه، وما اشتهر به من زعامته لحزب البعث والإيمان بمبادئه.

وأما الذين قتلوه فهم الصليبيون والرافضة، وعداواتهم له سياسية، وكذلك يعاديه الرافضة من جهة انتسابه لأهل السنة، وأما اختيار يوم العيد لقتله يظهر أنه مضاهاة لقتل أميرٍ من أمراء دولة بني أمية وهو خالد القسري للجعد بن درهم -إمام المعطلة- حيث قتله يوم عيد الأضحى وقال: ضحوا تقبَّلَ الله ضحاياكم فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ فإنه يزعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليمًا، فنزل من المنبر فذبحه .. والرافضة تُوالي الجهمية المعطّلة، ولهذا اعتنقوا مذهب المعتزلة.

فنحن أهل السنة غير آسفين على قتل صدام، فمثله مثل غيره من الزعماء الذين يحاربون الإسلام ويتشدقون بالإسلام، ويظن النصارى والرافضة أن في قتله مراغمة لأهل السنة، وهم واهمون في ذلك.

وإطاحة الأمريكان بدولة صدام ومعاونة الرافضة لهم، من عقوبة الله للظالمين بالظالمين، وقد يُسلَّط على الشرير مَنْ هو أشرّ منه، ونسأل الله سبحانه أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن ينصر المجاهدين في العراق وفي كل مكان .. اهـ كلامه حفظه الله تعالى.

قلت: ومع تقديري وتوقيري الشديدين للشيخ العلامة الجليل فلا أوافقه في فتواه، ولا أعلم أن أحدًا من أهل العلم وافَقَهُ عَلَيْهَا، وأما فتوى الشيخ ابن باز -رحمه الله تعالى- في أزمة الخليج فمختلفة؛ لأنه لم يعلم بتغير الرجل، ولا سمع نطقه بالشهادة قبل موته مباشرة، وكنت قد كتبت خطبة إبان القبض على صدام عنوانها (نهاية طاغية) ورجوت له فيها الهداية قبل موته، وهي مطبوعة في المفيد المجلد (٤) خطبة رقم (١٩٠). وكنت =

. . . .

= وقتها أرى ما يرى الشيخ قبل علمي بتغير الرجل، وتوجهه نحو الدين وأهله، وتركه انحرافاته السابقة، ثم كانت خاتمته الحسنة بثباته ونطقه للشهادتين أكبر دليل على إيمانه إن شاء الله تعالى، ولا أحد ينطق بالشهادة في ذلك الموقف رغبة في الخلق أو رهبة منهم، ولا سيما أن جلاديه من الصفويين يكرهونها منه، ولست أظن أن الله تعالى يوفق عبدًا لنطقها في هذا الموقف العسير، وقلبه لا يؤمن بها، وعمله يخالف مضمونها.

وقد ثبت تغيره -رحمه الله تعالى- من غير وجه، وألف بعض أهل العلم في العراق كتابًا في ذلك قرأته كاملًا، وهو مليء بالحقائق والشواهد على تغير الرجل، بل يجزم أصحاب الكتاب أن تغيره، واتجاهه للدين وأهله هو السبب المباشر لغزو الأمريكان له؛ خشية من خطره عليهم وعلى ربيبتهم إسرائيل.

وأما التعلل بأنه مات على عقيدة حزب البعث؛ فذلك ظن مبني على استصحاب حاله من قبل، ولا يزيل هذا الظن يقين نطقه للشهادتين وختم حياته بها.

ثم إن الشخص قد يكفر بالطاغوت ولا يعلن ذلك لمصلحة تقتضي إخفاء إيمانه كما كان حال مؤمن آل فرعون، وصدام هو رئيس حزب البعث، ولم يبلغ السلطة إلا بواسطته، فليس من الهين أن يعلن كفره به بعد تغيره، وقد ربى الناس على الانتماء إليه ثلاثة عقود، وقد نقل عنه أنه كان يسعى لأسلمة حزب البعث، والقرارات التي فرضها على أعضاء الحزب تؤكد ذلك، كإلزام أفراد الحزب بالصلاة، وحفظ شيء من القرآن وغير ذلك.

فإن قيل: كتمه لإيمانه ظن، وانتماؤه للحزب يقين، واليقين لا يزال بالظن، قيل: وإيمانه بكل مبادئ الحزب مع علمه بها وبموجباتها، ونفي الإكراه والتأويل عنه ظن، واليقين تغيره في آخر حياته، وتوجهه إلى الله تعالى، ومداومته على الصلاة والقرآن بشهادات متواترة، ومشاهدات ظاهرة على شاشات التلفزة، ولا يزال اليقين بالظن.

والرجل قد ينضوي تحت لواء الطاغوت أو حزبه أو منظمته مع عدم إيمانه بكل مبادئه، بل قد يكون انضواؤه لتحقيق مصلحة راجحة، أو دفع مفسدة متأكدة، فهل يكفر بسبب ذلك مع طمأنينة قلبه بالإيمان؟!

وقد ينضوي تحتها ويكون متأولًا لا يرى أن ذلك مناقض لعقيدة التوحيد، أو يكون جاهلًا يعذر بجهله، ومن المعلوم أن الدول الإسلامية كافة قد انضوت تحت المنظمات الدولية بكافة أشكالها؛ لتحقيق مصالح بلدانها، ودفع ضرر المستكبرين عنها، فهل يقال بكفر كل هذه الدول، وكفر كل من يتعامل مع تلك المنظمات الدولية!! =

وَكَمَا أَنَّ فِي حُكْمِ الْفَرِيقِ الأَوَّلِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ فَفِي مَا حَكَاهُ هَؤُلَاءِ أَيضًا حَقٌّ وَبَاطِلٌ، وَبَيْنَ هَذَينِ الرَّأْيَيْنِ المُتَبَايِنَيْنِ آرَاءٌ أُخْرَى كَثِيرَةٌ مُشَرِّقَةٌ وَمُغَرِّبَةٌ، يَضِيعُ كَثِيرٌ مِنَ الحَقِّ فِي ثَنَايَاهَا، وَيَضْرِبُ البَاطِلُ أَوْتَادَهُ فِيهَا.

وَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَهُ كُلُّ مُسْلِمٍ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُطَالِبُ عَامَّةَ النَّاسِ بِالحُكْمِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَآلَاتِهِمْ؛ لِأَنَّ الحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسُوا مُكَلَّفِينَ بِالخَوْضِ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَهُ مِنْ أَحْوَالِ الرِّجَالِ؛ فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهِمْ وَجَبَ أَلَّا يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ، وَأَنْ يَتَحَرَّى الْحَقَّ فِيمَا يَقُولُ وَلَوْ كَانَ ثَقِيلَ الْوَطْأَةِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنْ يُخْلِصَ فِي حُكْمِهِ وَقَوْلِهِ لِلَّهِ تَعَالَى، لَا يَبْتَغِي بِذَلِكَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا يُرِيدُ نَصْرَ طَائِفَةٍ أَوْ حِزْبٍ، أَوِ النِّكَايَةَ وَالشَّمَاتَةَ بِآخَرِينَ، وَاضِعًا نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المَائِدَة:٨]، وَقَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٢].

= بل إن المنظمات الإسلامية التي تقوم على الدعوة والإغاثة ونفع المسلمين في أرجاء الأرض تستبق لتسجيل عضويتها في منظمات دولية طاغوتية ظالمة، وتكون تحت مظلتها؛ لتسلم من الملاحقة والحصار والتضييق؛ ولتحفظ لها حقوقها، فهل يقال إن القائمين على هذه المنظمات كفار لإيمانهم بالطاغوت وعدم براءتهم منه؟!

وأيضًا: فصدام من عوام المسلمين، ومن جهلتهم بالعلم الشرعي، ولا علم لديه بأنه يلزمه في توبته الصدع بالكفر بحزب البعث والتبري منه، والذي أراه -والعلم عند الله تعالى- أنه يُصَلّى عليه، ويستغفر له، وترجى له الرحمة.

وأقول أيضًا: لا يجوز الطعن في الشيخ العلامة الجليل بسبب هذه الفتوى؛ لأنه مجتهد ولا يسعه أن يقول إلا ما يدين الله تعالى به، وما نحن -طلبة العلم والدعاة- إلا عيال عليه في العلم، ولن نبلغ مبلغ علمه وعمله وفضله وسابقته، نحسبه كذلك والله تعالى حسيبه، وهو بين أجر وأجرين، واجتهاده حفظه الله تعالى له حظ من الدليل والنظر، وإن لم يوافقه عليه كثير من طلبة العلم، والله أعلم.

لَقَدْ مَرَّتْ بِحَاكِمِ الْعِرَاقِ أَطْوَارٌ وَأَحْوَالٌ جَعَلَتِ النَّاسَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَيَحْتَارُونَ فِي أَمْرِهِ، فَهُوَ رُبَّانُ حِزْبِ الْبَعْثِ الْكَافِرِ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمُؤْمِنِ بِالعُرُوبَةِ، وَهُوَ فَارِضُهُ عَلَى أَفْرَادِ شَعْبِهِ، وَمَا بَلَغَ الحُكْمَ إِلَّا عَلَى سَيْلٍ مِنَ الدِّمَاءِ، وَأَكْوَامٍ مِنَ الجُثَثِ، ثُمَّ لَمَّا حَكَمَ النَّاسَ أَمْعَنَ فِي ظُلْمِهِمْ، وَأَسْكَتَ أَصْوَاتَهُمْ، وَسَارَ سِيرَةَ فِرْعَونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وَكَانَتْ جَرِيمَتُهُ الشَّنْعَاءُ بِخِيَانَتِهِ لِجِيرَانِهِ، وَاجْتِيَاحِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتِحْلَالِ دِمَائِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، مِمَّا أَوْجَدَ المَعَاذِيرَ لِلدُّوَلِ الْمُحْتَلَّةِ أَنْ تَضَعَ أَقْدَامَهَا، وَتَنْصِبَ قَوَاعِدَهَا فِي مِنْطَقَةٍ حُرِمَتْ مِنْهَا.

فَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى مِنَ الحَرْبِ وَالحِصَارِ، فَتَغَيَّرَ عَقِبَ ذَلِكَ، وَقَوَّى الدِّينَ وَأَهْلَهُ، وَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ أَعْلَمُ بِنِيَّتِهِ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا الحُكْمُ عَلَى ظَاهِرِهِ، ثُمَّ ازْدَادَ تَمَسُّكُهُ بِدِينِهِ عَقِبَ أَسْرِهِ، فَمَا فَارَقَهُ مُصْحَفُهُ بِشَهَادَةِ أَعْدَائِهِ قَبْلَ أَصْحَابِهِ، وَظَهَرَ اعْتِزَازُهُ بِدِينِهِ أَثْنَاءَ مُحَاكَمَتِهِ حَتَّى أَحْرَجَ قُضَاةَ الزُّورِ بِثَبَاتِهِ وَعِزَّتِهِ، ثُمَّ كَانَتِ الْخَاتِمَةُ الْحَسَنَةُ بِرَبَاطَةِ جَأْشِهِ -وَالْحَبْلُ عَلَى رَقَبَتِهِ- وَنُطْقِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ قَبْلَ شَنْقِهِ **«وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»**(٦).

وَلَمَّا قَتَلَ أُسَامَةُ ﵁ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَ نُطْقِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ أَنْكَرَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَزَعَمَ أُسَامَةُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّيْفِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(٦) أخرجه من حديث معاذ ﵁: أبو داود في الجنائز، باب في التلقين (٣١١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢) رقم (٢٢١)، والبزار (٢٦٢٦)، وصححه الحاكم (١/ ٥٠٣)، وابن منده في الإيمان (١/ ٢٤٨).

ويشهد له حديث عثمان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»** أخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٦).

لِأُسَامَةَ رضي الله عنه: «**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٧).

فَنَرْجُو لِحَاكِمِ الْعِرَاقِ بِنُطْقِهِ الشَّهَادَتَيْنِ المَغْفِرَةَ وَالجَنَّةَ، وَلَا نَجْزِمُ لَهُ بِذَلِكَ، فَلَا يَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَلَا نَجْعَلُ مَاضِيَهُ الْأَسْوَدَ حَائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَبُولِ التَّوْبَةِ؛ فَقَدْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَى تَوْبَةَ مَنْ هُمْ أَكْثَرُ كُفْرًا وَإِجْرَامًا مِنْهُ، فَنَقَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ كُفَّارٍ فَجَرَةٍ إِلَى مُؤْمِنِينَ بَرَرَةٍ، كَبَعْضِ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَحَاوَلُوا قَتْلَهُ، وَحَارَبُوهُ وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ.

وَقَبِلَ سُبْحَانَهُ تَوْبَةَ مَنْ قَتَلَ مِئَةَ نَفْسٍ وَهَاجَرَ تَائِبًا إِلَى قَرْيَةٍ مُسْلِمَةٍ، فَقُبِضَتْ رُوحُهُ قَبْلَ بُلُوغِهَا، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَوَسِعَتْهُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَوَلَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ(٨).

وَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لِرَجُلٍ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَمَرَ أَنْ يُحْرَقَ جَسَدُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَأَنْ يُنْثَرَ رَمَادُهُ فَتَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، فَلَا يَجْمَعُهُ اللهُ تَعَالَى، فَشَكَّ فِي قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى جَمْعِهِ، وَلَكِنْ مَا حَمَلَهُ عَلَى مَا فَعَلَ إِلَّا خَوْفُهُ مِنْهُ عز وجل، فَغَلَبَ خَوْفُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى شَكَّهُ فِي قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ، فَغَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ: «**فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لَهُ لَمَّا جَمَعَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: خَشْيَتَكَ يَا رَبِّ، فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

---

(٧) أخرجه من حديث أسامة رضي الله عنه: مسلم في الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦)، وأبو داود في الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، والنسائي في الكبرى (٨٥٩٤)، وأحمد (٥/ ٢٠٧).

(٨) ينظر خبره في صحيح البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٨٣)، وصحيح مسلم في التوبة، باب توبة القاتل وإن كثر قتله (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الأنبياء، باب حديث الغار (٣٢٩٤)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٦).

وَلَعَلَّ مَا أَصَابَ حَاكِمَ الْعِرَاقِ مِنْ عَظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَالِابْتِلَاءِ بِخَسَارَةِ عَرْشِهِ، وَقَتْلِ بَنِيهِ وَبَنِيهِمْ، وَتَشْرِيدِ أُسْرَتِهِ، وَسَجْنِهِ وَمُحَاكَمَتِهِ وَقَتْلِهِ، مَعَ تَوْبَتِهِ وَنُطْقِهِ لِلشَّهَادَتَيْنِ . . لَعَلَّ ذَلِكَ مُكَفِّرًا لِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِ.

وَأَمَّا حُقُوقُ الْعِبَادِ وَدِمَاؤُهُمْ، وَظُلْمُهُ لَهُمْ؛ فَالحُكْمُ فِيهَا لِلْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، وَسَيَقِفُ هُوَ وَخُصُومُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَامَ حَكَمٍ عَدْلٍ لِلْقِصَاصِ، وَاسْتِيفَاءِ الْحُقُوقِ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا.

وَالْوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ الَّذِي شَاهَدَ هَذَا المَشْهَدَ أَنْ يَفْرَحَ بِتَوْبَةِ جَبَّارِ الْعِرَاقِ حِينَ تَابَ، وَبِنُطْقِهِ الشَّهَادَتَيْنِ، وَلَا يَكُونُ كُرْهُهُ لِطُغْيَانِهِ وَأَفْعَالِهِ السَّيِّئَةِ مَانِعًا لَهُ مِنَ الْفَرَحِ بِتَوْبَتِهِ، أَوْ يَتَمَنَّى أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، أَوْ خُتِمَ لَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ؛ فَإِنَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ مَحَبَّةُ بَقَاءِ الْكُفْرِ فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَإِرَادَتُهُ مِنْ بَعْضِ الْأَشْخَاصِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى.

وَقَدْ فَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ بِتَوْبَةِ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ رَغْمَ أَذَاهُمْ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ ﷺ، وَفَرِحَ ﷺ بِتَوْبَةِ الْغُلَامِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي زَارَهُ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ المَوْتِ، فَدَعَاهُ لِلْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: «**الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَنقَذَهُ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[١٠].

وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَفْرَحَ بِإِيمَانِ الْكَافِرِ، وَتَوْبَةِ الْعَاصِي، وَيَتَمَنَّى أَنْ يُخْتَمَ بِالحُسْنَى لِكُلِّ النَّاسِ. كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَخَّى الْعَدْلَ فِي أَحْكَامِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَيَتَجَرَّدَ مِنَ الْهَوَى فِي حُكْمِهِ، وَلَا يَحْكُمَ إِلَّا بِعِلْمٍ، وَلَا يَقُولَ فِي الرِّجَالِ بِالظَّنِّ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى سَائِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن

---

(١٠) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (١٢٩٠)، وأبو داود في الجنائز، باب في عيادة الذمي (٣٠٩٥)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٨)، وأحمد (٣/ ٢٢٧)، وابن حبان (٢٩٦٠).

قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ....



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَخُذُوا مِمَّا تَرَوْنَ مِنْ أَحْدَاثٍ عِبَرًا؛ فَإِنَّ السَّعِيدَ مَنِ اعْتَبَرَ بِغَيْرِهِ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: فِي ضَجَّةِ هَذَا الْحَدَثِ الْكَبِيرِ بِمَقْتَلِ زَعِيمٍ مِنْ زُعَمَاءِ الْعَرَبِ كَانَتْ لَهُ صَوَلَاتٌ وَجَوَلَاتٌ يَهْتَمُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بِذَاتِ الْحَدَثِ، وَيَنْشَغِلُونَ بِمُجْرَيَاتِهِ وَتَفَاصِيلِهِ عَنْ دُرُوسِهِ وَعِبَرِهِ، فَيَكُونُ الْحَدَثُ -مَعَ أَهَمِّيَّتِهِ- عَدِيمَ الْفَائِدَةِ بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ. وَكَمْ مَرَّتْ بِالنَّاسِ مِنْ أَحْدَاثٍ قَلَّ فِي النَّاسِ مَنِ اسْتَفَادَ مِنْهَا، بِسَبَبِ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ، وَكَثْرَةِ الشَّهَوَاتِ وَالمُلْهِيَاتِ؟

وَدُرُوسُ هَذَا الْحَدَثِ الْجَدِيدِ كَثِيرَةٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؛ فَمِمَّا يُسْتَفَادُ مِنْهُ: أَنَّ عَاقِبَةَ الظُّلْمِ وَخِيمَةٌ، وَنِهَايَةَ الظَّالِمِينَ أَلِيمَةٌ، وَلَعَلَّ مَا أَصَابَ حَاكِمَ الْعِرَاقِ عُقُوبَةٌ لَهُ عَلَى ظُلْمِهِ أَيَّامَ سَطْوَتِهِ وَجَبَرُوتِهِ، وَلَرُبَّمَا رَفَعَ مَظْلُومٌ يَدَيْهِ إِلَى رَبِّهِ فِي حَبِيبٍ قَتَلَهُ أَزْلَامُهُ فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى دَعْوَتَهُ، فَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى.

وَلمَّا نُكِبَ الْبَرَامِكَةُ فِي دَوْلَةِ الرَّشِيدِ الْعَبَّاسِيِّ قَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِأَبِيهِ -وَهُمْ فِي الْقُيُودِ وَالْحَبْسِ-: يَا أَبَتِ، بَعْدَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ أَصَارَنَا الدَّهْرُ إِلَى الْقُيُودِ وَلُبْسِ الصُّوفِ وَالْحَبْسِ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: يَا بُنَيَّ، دَعْوَةُ مَظْلُومٍ سَرَتْ بِلَيْلٍ غَفَلْنَا عَنْهَا وَلَمْ يَغْفُلِ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا(١١).

وَفِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَالمُعَاصِرِ عِبَرٌ فِي مَصَارِعِ الظَّالِمِينَ .. تَأَمَّلُوا مَصْرَعَ فِرْعَوْنَ وَأَبِي جَهْلٍ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ وَأَبِي طَاهِرٍ الْقِرْمِطِيِّ، وَفِي التَّارِيخِ المُعَاصِرِ مَاذَا كَانَتْ نِهَايَةُ هِتْلَرَ النَّازِيِّ، وَمُوسُولِينِي الْفَاشِيِّ، وَشَاهْ إِيرَانَ، وَطَاغِيَةِ رُومَانْيَا تشاوشسكُوا، وَطَاغِيَةِ الصِّرْبِ ميليسُوفِتْش، وَغَيْرِهِمْ كَثِيرٌ؟ لَقَدْ طَغَوْا وَتَجَبَّرُوا وَظَلَمُوا، ثُمَّ أَذَاقَهُمُ اللهُ تَعَالَى الذُّلَّ فِي الدُّنْيَا.

لَقَدْ زَالُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا، وَيَا وَيْلَهُمْ مِنْ مَظَالِمَ تَنْتَظِرُهُمْ! فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تَعَالَى وِلَايَةً كَبِيرَةً أَوْ صَغِيرَةً أَلَّا يَغْتَرَّ بِسُلْطَتِهِ وَقُوَّتِهِ، وَأَنْ يَتَوَخَّى الْعَدْلَ فِي رَعِيَّتِهِ، وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْ سِيَرِ الظَّالِمِينَ وَمَصَارِعِهِمْ أَعْظَمَ الْعِظَةِ وَالْعِبْرَةِ.

وَعَلَى كُلِّ عَاقِلٍ أَلَّا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا؛ فَإِنَّ تَقَلُّبَاتِهَا كَثِيرَةٌ، وَكَمْ مِنْ عَزِيزٍ ذَاقَ ذُلَّهَا! وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَوْجَعَهُ فَقْرُهَا! وَلَقَدْ مَرَّتْ أَيَّامٌ عَلَى حَاكِمِ الْعِرَاقِ ظَهَرَ فِيهَا مَزْهُوًّا أَمَامَ الشَّاشَاتِ، وَالْجُمُوعُ تَحُفُّ بِمَوْكِبِهِ، وَتَطَأُ عَقِبَهُ، وَتَهْتِفُ لَهُ، تَمَنَّى أَثْنَاءَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَكَانَتَهُ، وَحَلَمُوا بِأَمْوَالِهِ وَقُصُورِهِ وَرَفَاهِيَتِهِ، وَلَوْ عَلِمُوا نِهَايَتَهُ لَمَا تَمَنَّى وَاحِدٌ مِنْهُمْ سُلْطَانَهُ، وَلَا غَبَطَهُ عَلَى مَا هُوَ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ؛ لِعِلْمِهِ بِالْبُؤْسِ الَّذِي بَعْدَهُ، وَلَا حَسَدَهُ عَلَى عِزٍّ يَعْقُبُهُ ذُلٌّ؛ وَأَيُّ ذُلٍّ!!

وَقَدْ حُسِدَ قَارُونُ مِنْ قَبْلُ عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا وَأَمْوَالِهَا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

(١١) أخرجه الخطيب في تاريخه (١٤/ ١٣١).

قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]. وَلَكِنْ مَا أَنْ حَلَّ الْعَذَابُ بِهِ، وَعَلِمُوا عَاقِبَتَهُ حَتَّى نَدِمُوا عَلَى أُمْنِيَّتِهِمْ، وَأَدْرَكُوا أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ المَالِ وَالنَّعِيمِ كَانَ وَبَالًا عَلَيهِ ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢].

ثُمَّ تَأَمَّلُوا حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا يُقَدِّرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مِمَّا يَظُنُّونَهُ شَرًّا لَهُمْ، وَفِيهِ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ، فَإِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى ظَنِّنَا أَنَّ حَاكِمَ الْعِرَاقِ لَمَّا اكْتَمَلَتْ لَهُ الدُّنْيَا كَانَ بَعِيدًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، مُحَارِبًا لِأَوْلِيَائِهِ، مُمَالِئًا لِأَعْدَائِهِ، قَدْ أَسْكَرَتْهُ السُّلْطَةُ عَنْ تَذَكُّرِ رَبِّهِ ﷻ، وَأَغْفَلَهُ المُلْكُ عَنْ مَعْرِفَةِ دِينِهِ، وَلَوْ خُيِّرَ وَقْتَهَا أَنْ يَمُوتَ عَلَى حَالِهِ أَوْ يَفْقِدَ مُلْكَهُ لَاخْتَارَ المَوْتَ.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى قَضَى عَلَيْهِ مَا لَمْ يَخْتَرْ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ؛ إِذْ كَانَ فِيمَا حَاقَ بِهِ مِنْ عُقُوبَاتٍ وَابْتِلَاءَاتٍ مَعَ الْإِمْدَادِ لَهُ فِي عُمُرِهِ، وَعَدَمِ تَمَكُّنِ أَعْدَائِهِ مِنْ قَتْلِهِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ فُرْصَةٌ لِمُرَاجَعَةِ نَفْسِهِ، وَتَفَقُّدِ قَلْبِهِ؛ فَتَغَيَّرَ حَالُهُ فِي الْهَزِيمَةِ وَالْحِصَارِ، ثُمَّ فِي الأَسْرِ وَالذُّلِّ عَنْ حَالِهِ فِي المُلْكِ وَالعِزِّ.

وَهَكَذَا فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ يُصَابُ فِي نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ مَالِهِ فَيَكُونُ مُصَابُهُ سَبَبًا لِيَقَظَتِهِ مِنْ رَقْدَتِهِ، وَتَنْبِيهِهِ حَالَ غَفْلَتِهِ، فَيَعُودُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، وَقَدْ كَرِهَ مِنْ قَبْلُ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَقَضَاءَهُ فِيهِ، فَكَانَ مَا اخْتَارَهُ اللهُ تَعَالَى لَهُ خَيْرًا مِمَّا يَخْتَارُ هُوَ لِنَفْسِهِ، فَاعْرِفُوا حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عُقُوبَاتِهِ وَابْتِلَاءَاتِهِ، وَتَأَمَّلُوا رَحْمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَلُطْفَهُ بِعِبَادِهِ؛ إِذْ يُجْرِي لَهُمُ الخَيْرَ الْعَظِيمَ مِنْ أَبْوَابٍ يَظُنُّهَا الْعِبَادُ شَرًّا مَحْضًا، وَرَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ لَا يَخْلُقُ شَرًّا مَحْضًا، وَالخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، وَتَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم ..

الفكر والثقافة

٣٦١- تبديل ألفاظ الشريعة (١) تزوير المصطلحات.

٣٦٢- تبديل ألفاظ الشريعة (٢) مصطلح الآخر.

٣٦٣- تبديل ألفاظ الشريعة (٣) التعايش السلمي.

٣٦٤- القلم الطيب والقلم الخبيث.

٣٦٥- الحرب على اللغة العربية.

٣٦٦- تفضيل الرجال على النساء.

٣٦٧- تحرير المرأة.

٣٦٨- مؤتمر المرأة في بكين.

٣٦٩- منتدى المرأة والألفية.

٣٧٠- نقض دعوى حرية الرأي.

٣٧١- الحرب الدينية والحرب القومية.

٣٦١- تبديل ألفاظ الشريعة (١)
تزوير المصطلحات

١٣/ ٧/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النِّسَاء: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأَحْزَاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَائِمٌ مَا دَامَ فِي النَّاسِ كُفْرٌ وَإِيمَانٌ، وَبِدْعَةٌ وَسُنَّةٌ؛ فَأَهْلُ الْحَقِّ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى الْحَقِّ، وَأَهْلُ الْبَاطِلِ يَسْعَوْنَ جَادِّينَ فِي صَرْفِ النَّاسِ إِلَى بَاطِلِهِمْ.

وَالْحَرْبُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَدْ تَكُونُ حَرْبًا سِيَاسِيَّةً أَوِ اقْتِصَادِيَّةً أَوْ عَسْكَرِيَّةً، أَوْ ثَقَافِيَّةً فِكْرِيَّةً. وَالْأَخِيرَةُ أَخْطَرُهَا وَأَشَدُّهَا فَتْكًا؛ ذَلِكَ أَنَّ الْحُرُوبَ السِّيَاسِيَّةَ وَالِاقْتِصَادِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ تُوَلِّدُ التَّحَدِّيَ لَدَى الْأُمَمِ، وَتَسْتَنْهِضُ هِمَمَ النَّاسِ

لِلْمُدَافَعَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ، أَمَّا حُرُوبُ الثَّقَافَةِ وَالْفِكْرِ فَهِيَ تَتَسَلَّلُ إِلَى الْعُقُولِ فَتُتْلِفُهَا، وَإِلَى الْقُلُوبِ فَتُفْسِدُهَا، وَتُدَمِّرُ النَّاسَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

وَمَيَادِينُ الْحُرُوبِ الْفِكْرِيَّةِ كَثِيرَةٌ، وَأَسَالِيبُهَا عَدِيدَةٌ، وَمِنْ أَخْفَاهَا وَأَخْطَرِهَا: تَزْوِيرُ الْمُصْطَلَحَاتِ، وَتَغْيِيرُ الْمُسَمَّيَاتِ، وَالْقَذْفُ بِمُصْطَلَحَاتٍ ظَاهِرُهَا حَقٌّ وَبَاطِنُهَا بَاطِلٌ؛ لِإِقْنَاعِ النَّاسِ بِهَا، وَبِنَاءِ الْعُقُولِ وَالثَّقَافَاتِ عَلَيْهَا، حَتَّى تَكُونَ أَمْرًا مُسَلَّمًا عِنْدَ النَّاسِ لَا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَادِلَ فِيهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرُدَّهُ أَوْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ. وَمِنْ ثَمَّ إِخْضَاعُ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْحَادِثَةِ، وَتَحْكِيمُهَا فِيهَا؛ لِتُسْتَبْدَلَ أَلْفَاظُ الشَّرِيعَةِ، وَتُعَطَّلَ أَحْكَامُهَا، وَيُبْطَلَ الْعَمَلُ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، أَوْ تُحَرَّفَ وَتُأَوَّلَ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَارَضُ مَعَ تِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي اسْتَقَرَّتْ فِي عُقُولِ أَصْحَابِهَا، وَأَضْحَتْ مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ الَّتِي لَا تُنَاقَشُ.

وَكَانَ الْيَهُودُ -وَلَا يَزَالُونَ- مِنْ أَبْرَعِ النَّاسِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْإِضْلَالِ وَالتَّزْوِيرِ، وَتَغْيِيرِ الْأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ؛ لِفَرْضِ بَاطِلِهِمْ، وَإِلْغَاءِ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَحَقِّ غَيْرِهِمْ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ٤٦]، وَلِذَا خُوطِبُوا فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ٧١] فَنَهَاهُمْ عَنْ لَبْسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَكِتْمَانِ الْحَقِّ.

«وَلَبْسُهُ بِهِ خَلْطُهُ بِهِ حَتَّى يَلْتَبِسَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ . . . فَإِذَا لَبَسَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَكُونُ قَدْ أَظْهَرَ الْبَاطِلَ فِي صُورَةِ الْحَقِّ؛ فَالظَّاهِرُ حَقٌّ، وَالْبَاطِنُ بَاطِلٌ»[1].

---

(١) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٩)، والصواعق المرسلة (٣/ ٩٢٦).

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ حَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنَ التَّلَاعُبِ بِالْمُصْطَلَحَاتِ وَالْمُسَمَّيَاتِ؛ لِإِسْبَاغِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَلَبْسِهِ بِالْحَقِّ، وَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الدَّاءَ سَيَقَعُ فِي النَّاسِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ رضي الله عنه: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٢].

وَوَقَعَ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْمُصْطَفَى ﷺ؛ إِذْ سَمَّوُا الْخَمْرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَشْرُوبَاتٍ رُوحِيَّةً، وَالرِّبَا فَائِدَةً، وَالرَّقْصَ وَالْخَلَاعَةَ فَنًّا، وَالزِّنَا حُرِّيَّةً جِنْسِيَّةً، وَسَبَّ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبَهُ وَرُسُلَهُ حُرِّيَّةً فِكْرِيَّةً، وَمُحَارَبَةَ الْعَمَلِ الدَّعَوِيِّ وَالْخَيْرِيِّ وَتَجْفِيفَ مَنَابِعِهِمَا مُكَافَحَةَ إِرْهَابٍ، وَرَفْضَ الْحُدُودِ الشَّرْعِيَّةِ حُقُوقَ إِنْسَانٍ، وَهَكَذَا فِي سِلْسِلَةٍ لَا تَكَادُ تَنْتَهِي مِنْ تَزْوِيرِ الْمُصْطَلَحَاتِ، وَتَغْيِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَفَرْضِ هَذَا اللَّبْسُ وَالطَّمْسُ عَلَى عُقُولِ النَّاسِ بِأَسَالِيبَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَوَسَائِلَ مُتَعَدِّدَةٍ.

---

(٢) أخرجه أبو داود في الأشربة، باب في الداذي (٣٦٨٨)، وابن ماجه في الفتن، باب العقوبات (٤٠٢٠)، وأحمد (٥/ ٣٤٢)، وصححه ابن حبان (٦٧٥٨).
وأخرجه من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: ابن ماجه في الأشربة، باب الخمر يسمونها بغير اسمها (٣٣٨٤)، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة بعبد السلام بن عبد القدوس (٤/ ٤٠)، وقال أبو حاتم: هذا حديث منكر، كما في العلل (١٥٧١).
وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: ابن ماجه في الأشربة، باب الخمر يسمونها بغير اسمها (٣٣٨٥)، وأحمد (٥/ ٣١٨)، وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٣٣)، وقال الحافظ في الفتح: وسنده جيد (١٠/ ٥١).
وأخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: الدارمي (٢١٠٠)، وأبو يعلى (٤٣٩٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ١٦٤) وقال الحافظ في الفتح: بسند لين (١٠/ ٥٢).
وأخرجه عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: النسائي في الأشربة، باب منزلة الخمر (٨/ ٣١٢)، وأحمد (٤/ ٢٣٧)، والطيالسي (٥٨٦). والظاهر أن الصحابي المبهم هنا هو عبادة بن الصمت رضي الله عنه. وأخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الطبراني في الكبير (١١/ ١١٨) رقم (١١٢٢٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله ثقات (٥/ ٥٧).
وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: الطبراني في مسند الشاميين (٤٣٠).

وَقَدْ عَانَى أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالمُبْتَدِعَةِ؛ إِذْ كَانُوا يُحْدِثُونَ المُصْطَلَحَاتِ، أَوْ يَسْتَجْلِبُونَهَا مِنْ ثَقَافَاتٍ أُخْرَى، وَيُلْبِسُونَهَا أَلْبِسَةً شَرْعِيَّةً؛ لِيَجْعَلُوهَا حُجَّةً عَلَى النُّصُوصِ، ثُمَّ يُزَوِّرُونَ المُصْطَلَحَاتِ الشَّرْعِيَّةَ لِكَيْلَا تَصْطَدِمَ مَعَهَا، كَمَا فَعَلَ الْفَلَاسِفَةُ وَأَهْلُ الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا تَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهَا لَبْسًا لِلْحَقِّ بِالْبَاطِلِ مَعَ كَتْمِ الْحَقِّ لِإِضْلَالِ الْعَامَّةِ، وَالتَّشْوِيشِ عَلَى عَقَائِدِ النَّاسِ وَإِفْسَادِهَا، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي حَكَاهَا اللهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ، وَنَهَاهُمْ عَنْهَا.

وَلِذَا فَإِنَّ إِمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي وَقْتِهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا كَتَبَ رَدَّهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَصَفَهُمْ فِي مُقَدِّمَةِ رَدِّهِ بِقَوْلِهِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ، مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ، مُتَّفِقُونَ عَلَى مُفَارَقَةِ الْكِتَابِ، يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ وَفِي اللَّهِ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، يَتَكَلَّمُونَ بِالمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يَلْبِسُونَ عَلَيْهِمْ» اهـ[٣].

وَهَذَا الْكَلَامُ المُتَشَابِهُ الَّذِي يَخْدَعُونَ بِهِ جُهَّالَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْأَلْفَاظَ المُتَشَابِهَةَ المُجْمَلَةَ الَّتِي يُعَارِضُونَ بِهَا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتِلْكَ الْأَلْفَاظُ تَكُونُ مَوْجُودَةً مُسْتَعْمَلَةً فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ النَّاسِ لَكِنْ بِمَعَانٍ أُخَرَ غَيْرِ المَعَانِي الَّتِي قَصَدُوهَا هُمْ بِهَا، فَيَقْصِدُونَ هُمْ بِهَا مَعَانِيَ أُخَرَ فَيَحْصُلُ الِاشْتِبَاهُ وَالْإِجْمَالُ[٤].

وَانْبَرَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِمُوَاجَهَةِ حَمَلَاتِ

(٣) الرد على الزنادقة والجهمية (ص٦)، ونقله عنه ابن تيمية في مواضع كثيرة من كتبه منها: بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٦٠)، ودرء التعارض (١/ ١٨ و٢٢٢، و٢/ ٣٠٢، و٥/ ١٦٤)، والنبوات (٥/ ١٦٤).

(٤) درء التعارض (١/ ٢٢٢).

الْمُبْتَدِعَةِ فِي مُحَاوَلَاتِهِمْ إِقْنَاعَ النَّاسِ بِمُصْطَلَحَاتٍ حَادِثَةٍ، وَتَحْكِيمِهَا فِي نُصُوصِ الْوَحْيِ؛ لِإِلْغَاءِ مَعَانِيهَا، وَإِبْطَالِ أَحْكَامِهَا، وَكَانَ لَهُ صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ فِي هَذَا الْمَيْدَانِ الدَّقِيقِ، وَكُتُبُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- مَلْأَى بِإِحْقَاقِ الْحَقِّ، وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْمَجَالِ الْمُهِمِّ، مَعَ التَّأْسِيسِ وَالتَّقْعِيدِ لَهُ.

يَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الَّذِينَ يُعَارِضُونَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ بِمَا يُسَمُّونَهُ عَقْلِيَّاتٍ مِنَ الْكَلَامِيَّاتِ وَالْفَلْسَفِيَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِنَّمَا يَبْنُونَ أَمْرَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ مُشْتَبِهَةٍ مُجْمَلَةٍ تَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُتَعَدِّدَةً، وَيَكُونُ مَا فِيهَا مِنَ الِاشْتِبَاهِ لَفْظًا وَمَعْنًى يُوجِبُ تَنَاوُلَهَا لِحَقٍّ وَبَاطِلٍ، فَبِمَا فِيهَا مِنَ الْحَقِّ يُقْبَلُ مَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ لِأَجْلِ الِاشْتِبَاهِ وَالِالْتِبَاسِ، ثُمَّ يُعَارِضُونَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْبَاطِلِ نُصُوصَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا مَنْشَأُ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَنَا، وَهُوَ مَنْشَأُ الْبِدَعِ؛ فَإِنَّ الْبِدْعَةَ لَوْ كَانَتْ بَاطِلًا مَحْضًا لَظَهَرَتْ وَبَانَتْ وَمَا قُبِلَتْ، وَلَوْ كَانَتْ حَقًّا مَحْضًا لَا شَوْبَ فِيهِ لَكَانَتْ مُوَافِقَةً لِلسُّنَّةِ؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ لَا تُنَاقِضُ حَقًّا مَحْضًا لَا بَاطِلَ فِيهِ، وَلَكِنَّ الْبِدْعَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى حَقٍّ وَبَاطِلٍ» اهـ[٥].

وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ يُقَرِّرُ وُجُوبَ التَّثَبُّتِ وَالِاسْتِفْصَالِ فِي الْمُصْطَلَحَاتِ قَبْلَ قَبُولِهَا، فَيَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِنَّ الْمُنَاظَرَةَ بِالْأَلْفَاظِ الْمُحْدَثَةِ الْمُجْمَلَةِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُحْتَمِلَةِ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِذَا أَثْبَتَهَا أَحَدُ الْمُتَنَاظِرَيْنِ وَنَفَاهَا الْآخَرُ كَانَ كِلَاهُمَا مُخْطِئًا، وَأَكْثَرُ اخْتِلَافِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جِهَةِ اشْتِرَاكِ الْأَسْمَاءِ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ فَسَادِ الْعَقْلِ وَالدِّينِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَإِذَا رَدَّ النَّاسُ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَالْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ ثَابِتَةٌ فِيهِمَا، وَالْمُحِقُّ يُمْكِنُهُ بَيَانُ مَا يَقُولُهُ مِنَ الْحَقِّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» اهـ[٦].

---

(٥) درء التعارض (١/ ١٦٤-١٦٥).

(٦) درء التعارض (١/ ٢٣٣).

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ الْأَلْفَاظَ نَوْعَانِ: نَوْعٌ مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ وَكَلَامِ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ، فَهَذَا يَجِبُ اعْتِبَارُ مَعْنَاهُ، وَتَعْلِيقُ الْحُكْمِ بِهِ؛ فَإِنْ كَانَ الْمَذْكُورُ بِهِ مَدْحًا اسْتَحَقَّ صَاحِبُهُ الْمَدْحَ، وَإِنْ كَانَ ذَمًّا اسْتَحَقَّ الذَّمَّ، وَإِنْ أَثْبَتَ شَيْئًا وَجَبَ إِثْبَاتُهُ، وَإِنْ نَفَى شَيْئًا وَجَبَ نَفْيُهُ؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقٌّ، وَكَلَامَ رَسُولِهِ ﷺ حَقٌّ، وَكَلَامَ أَهْلِ الْإِجْمَاعِ حَقٌّ . . . وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ فَتِلْكَ لَا يَجُوزُ تَعْلِيقُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ وَالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ عَلَى مَعْنَاهَا إِلَّا أَنْ يَبِينَ أَنَّهُ يُوَافِقُ الشَّرْعَ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي تُعَارِضُهَا النُّصُوصُ هِيَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ» اهـ[٧].

وَإِذَا كَانَ أَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ قَدْ عَانَوْا قَدِيمًا مِنْ تَلْبِيسَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَحْرِيفَاتِهِمْ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ وَالنِّفَاقِ فِي زَمَنِنَا هَذَا قَدْ عَمِلُوا مَا عَمِلَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَأَخَذُوا عَنْهُمْ كَثِيرًا مِنْ مُصْطَلَحَاتِهِمُ الْمُبْتَدَعَةِ، وَأَحْدَثُوا مُصْطَلَحَاتٍ جَدِيدَةً يَضْرِبُونَ بِهَا الْإِسْلَامَ، وَيَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَلْبِسُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، وَيُفْسِدُونَ عَقَائِدَهُمْ، وَيُخَرِّبُونَ عُقُولَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ، وَكُلُّ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي ضَلَّ بِهَا مَنْ يُسَمَّوْنَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَلُوكُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَيُسَوِّدُنَّ بِهَا كُتُبَهُمْ وَصُحُفَهُمْ إِنَّمَا أَخَذُوهَا عَنْ نُظَّارِ الْغَرْبِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ، وَسَلَّمُوا لَهُمْ بِهَا عَلَى أَنَّهَا حَقٌّ مَحْضٌ، ثُمَّ حَاكَمُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِلَيْهَا، فَمَا وَافَقَهَا قَبِلُوهُ، وَمَا عَارَضَهَا رَفَضُوهُ أَوْ تَأَوَّلُوهُ، فَجَعَلُوهَا هِيَ الْأَصْلَ، وَجَعَلُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَهَا تَبَعًا، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ مَا أَفْسَدَ كَثِيرًا مِنَ الْعُقُولِ، وَحَرَّفَهَا عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَقْوَالِ الْبَشَرِ وَآرَائِهِمْ، وَتِلْكَ هِيَ الْفِتْنَةُ الَّتِي حَذَّرَنَا مِنْهَا رَبُّنَا

---

(٧) درء التعارض (١/ ٢٤١).

جَلَّ جَلَالُهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النُّور: ٦٣].

نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ، وَالْمُوَافَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ....

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا إِلَى فَنَاءٍ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فَاطِر: ٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ كَانَتْ حَمْلَةُ تَزْوِيرِ الْمُصْطَلَحَاتِ بِهَذِهِ الْخُطُورَةِ الَّتِي جَعَلَتْ عُلَمَاءَ الْمُسْلِمِينَ يَنْبَرُونَ لَهَا؛ لِإِحْقَاقِ الْحَقِّ مِنْهَا، وَإِبْطَالِ بَاطِلِهَا، وَإِزَالَةِ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ اللَّبْسِ وَالْغُمُوضِ، وَكَشْفِ مَعَانِيهَا لِلنَّاسِ حَتَّى لَا يَغْتَرُّوا بِهَا؛ فَإِنَّهَا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَشَدُّ خَطَرًا عَلَى النَّاسِ، وَأَمْضَى فَتْكًا بِالْعُقُولِ، وَإِفْسَادًا لِلْقُلُوبِ، وَذَلِكَ مِنْ جِهَاتٍ أَرْبَعٍ:

الْجِهَةُ الْأُولَى: كَثْرَةُ مَا تُنْتِجُهُ دَوَائِرُ الِاسْتِشْرَاقِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَمَكَاتِبُ

الِاسْتِخْبَارَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي يَتَلَقَّفُهَا عَنْهُمْ وُكَلَاؤُهُمْ، وَالْمُسَوِّقُونَ لِبِضَاعَتِهِمْ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَهِيَ مُصْطَلَحَاتٌ تُعَارِضُ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَتُصَادِمُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَلَازِمُ الْقَوْلِ بِهَا فِيهِ إِبْطَالٌ لِلنُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ، وَتَعْطِيلٌ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ مِثْلِ مُصْطَلَحَاتِ: الْحُرِّيَّةِ، وَالْمُسَاوَاةِ، وَالْحِوَارِ، وَقَبُولِ الْآخَرِ، وَحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَالتَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وَتَجْدِيدِ الْخِطَابِ الدِّينِيِّ، وَالدَّوْلَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَالْجِهَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا مُصْطَلَحَاتٌ تُفْرَضُ عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ، وَيُرَوَّجُ لَهَا عَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ؛ لِتُبْنَى عَلَيْهَا عُقُولُ النَّاشِئَةِ وَالشَّبَابِ، وَتُتْلَفُ بِهَا عُقُولُ الْكُهُولِ وَالشُّيُوخِ.

وَالْجِهَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا مُصْطَلَحَاتٌ ظَاهِرُهَا حَقٌّ، وَمَلْمَسُهَا جَمِيلٌ، وَيَرَى أَكْثَرُ النَّاسِ أَنَّ فِيهَا خَلَاصًا لِلْعَالَمِ مِنْ مُشْكِلَاتِ الِاخْتِلَافِ وَالِاحْتِرَابِ وَالِاقْتِتَالِ؛ وَلِذَا سَمِعْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأَلْسُنِ تَلُوكُهَا، وَتَهْتِفُ لَهَا، وَتُنَادِي بِهَا، وَتَدْعُو إِلَيْهَا، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَنْ أَحْدَثُوهَا وَرَوَّجُوا لَهَا لَمْ يُرِيدُوا مَا فِيهَا مِنْ مَعَانٍ قَدْ تَكُونُ حَقًّا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مَا فِيهَا مِنْ بَاطِلِهِمْ؛ لِيَجْعَلُوهُ حَكَمًا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، مُبْطِلًا لِأَحْكَامِهَا.

وَالْجِهَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ وَالنِّفَاقِ اسْتَطَاعُوا بِمَكْرِهِمْ وَكَثْرَةِ إِلْحَاحِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا تِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْمُبْتَدَعَةَ سَيْفًا مُصْلَتًا عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ، يُرْهِبُونَهُمْ بِهَا، وَيُنَفِّرُونَ النَّاسَ مِنْهُمْ بِسَبَبِهَا، وَيُعَرْقِلُونَهُمْ عَنْ نَشْرِ حَقِّهِمْ، وَهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ. فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَفْرِضُونَ فِيهِ بَاطِلَهُمْ عَلَى النَّاسِ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ قُوَّةٍ؛ فَيَصِمُونَ مَنْ يُعَارِضُهُمْ بِأَنَّهُمْ أَعْدَاءُ الْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ،

وَلَا يَقْبَلُونَ الْآخَرَ، وَلَا يَعْرِفُونَ التَّعَايُشَ السِّلْمِيَّ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخَوِّفُونَ بِهِ مَنْ يَعْتَرِضُ طَرِيقَهُمْ، أَوْ يَكْشِفُ مُخَطَّطَاتِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةَ.

هَذَا؛ وَلْيَعْلَمْ كُلُّ مَخْدُوعٍ بِتِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْبَرَّاقَةِ أَنَّ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانٍ جَمِيلَةٍ فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ حِكْرٌ عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَلَا حَقَّ لِلضُّعَفَاءِ فِيهِ، وَلَوْ آمَنُوا بِهَا، وَهَتَفُوا لَهَا، وَدَعَوْا إِلَيْهَا؛ فَهَذِهِ الدُّوَلُ الْقَوِيَّةُ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْحِوَارِ، وَتَفْرِضُهُ عَلَيْهِمْ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَغْزُو فِيهِ بِلَادَهُمْ، فَتَضْرِبُهُمْ وَتَقْتُلُهُمْ وَتَسْتَعْمِرُهُمْ، وَتُدَمِّرُ عُمْرَانَهُمْ، وَتَنْهَبُ ثَرَوَاتِهِمْ وَلَا تُحَاوِرُهُمْ، وَلَا تَرَى لَهُمْ أَيَّ حَقٍّ فِي حِوَارٍ أَوْ حُرِّيَّةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ تَدْعُو إِلَى الْحِوَارِ وَإِلَى الْحُرِّيَّةِ.

وَفِي مَجَالِ حُقُوقِ الْأَطْفَالِ كَانَتْ وَلَا زَالَتِ الْمُنَظَّمَاتُ الدَّوْلِيَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ تَعِيبُ عَلَى دُوَلِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ إِهْدَارَ الطُّفُولَةِ، وَقَتْلَ بَرَاءَتِهَا، وَتُلْقِي الدُّرُوسَ وَالْمَوَاعِظَ فِي ذَلِكَ، وَتَسُنُّ الْقَوَانِينَ الْمُشَدَّدَةَ لِحِفْظِ حُقُوقِ الْأَطْفَالِ، وَضَمَانِ حُرِّيَّاتِهِمْ، وَتَجْعَلُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ مِنْ ضِمْنِ أَوْرَاقِ الضَّغْطِ لِتَحْقِيقِ مَزِيدٍ مِنَ النُّفُوذِ وَالْإِخْضَاعِ لِتِلْكَ الدُّوَلِ الْمُسْتَهْدَفَةِ.

وَلَكِنْ مَا يُنَادُونَ بِهِ مِنْ حَقِّ الطُّفُولَةِ، وَحِفْظِ بَرَاءَتِهَا هُوَ مَقْصُورٌ عَلَى أَطْفَالِهِمْ دُونَ أَطْفَالِ الْعَالَمِينَ الَّذِينَ لَا حَقَّ لَهُمْ، وَلَا بَرَاءَةَ فِيهِمْ!!

وَفِي كُلِّ الْأَدْيَانِ وَالْأَعْرَافِ وَالْأَفْكَارِ الْمُعْلَنَةِ، الْحَقِّ مِنْهَا وَالْبَاطِلِ لَا يَسُوغُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْصِدَ طِفْلًا بَرِيئًا بِأَيِّ ضَرَرٍ لِأَيِّ هَدَفٍ كَانَ، وَمُنَظَّمَاتُهُمُ الدَّوْلِيَّةُ تَنُصُّ عَلَى ذَلِكَ، وَتُشَدِّدُ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقَفَ الْعَالَمُ الْغَرْبِيُّ الْمُتَحَضِّرُ بِدُوَلِهِ الْكُبْرَى، وَاتِّحَادِهِ الْأُورُبِّيِّ، وَاسْتَخْدَمَ كُلَّ نُفُوذِهِ، وَأَدَوَاتِ ضَغْطِهِ؛ لِحِمَايَةِ ثُلَّةٍ مِنَ الْمُمَرِّضَاتِ الْمُجْرِمَاتِ قَتَلْنَ بَرَاءَةَ عَشَرَاتِ الْأَطْفَالِ فَحَقَنُوهُمْ بِفَيْرُوسِ الْإِيدْزِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَقَلَّبُ فِي أَوْجَاعِ الْمَرَضِ وَآلَامِهِ، لَا ذَنْبَ لَهُمْ إِلَّا

أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ، وَكُوفِئَ المُجْرِمُونَ بِإِطْلَاقِ سَرَاحِهِمْ(٨)، وَبُثَّتِ احْتِفَالَاتُهُمْ عَلَى

---

(٨) هذا إشارة إلى ما قام به خمس ممرضات بلغاريات وطبيب فلسطيني يعملن في إحدى مستشفيات ليبيا بحقن مئات الأطفال بفيروس الإيدز، عُلم عن أربعمئة وثلاثين طفلًا، منهم خمسون فارقوا الحياه لتلوث دمائهم بهذا الفيروس، وذلك في عام ١٤٢٠ واستمرت محاكمتهم ثماني سنوات، وحكمت عليهم المحكمه بالإعدام، ومع الضغوط الأوربية والأمريكية والدولية ووساطة بعض الدول العربية خفف الحكم إلى السجن المؤبد، ومن ثم اقترحت فرنسا أن ينقل سجنهن من ليبيا إلى بلغاريا، فوافقت ليبيا.
وقبل نزولهم مع الطبيب الفلسطيني من سلم الطائرة في بلغاريا أصدر حاكم بلغاريا عفوًا عنهم، ومنح الطبيب الفلسطيني الجنسية البلغارية، ومن ثم احتجت الحكومة الليبية على ذلك، وما ينفع الاحتجاج وقد أطلقتهم؟! وكوفئ المجرمون على جريمتهم، ونقلت احتفالات استقبالهم في بلغاريا في نشرات الأخبار. والعجيب أن بعض القنوات العربية عبرت عن فرحتها بذلك، وجعلت عنواين الخبر: انتهاء أزمة الممرضات، ونقلت فرحة ذويهن بعودتهن إلى بلغاريا، ولم تنقل معاناة الأطفال الليبيين وأسرهم.
وقد وقفت على مقال مميز للشيخ محمد بن سيف عقب الإفراج عن الممرضات، رأيت إيراده هنا ليستفيد القارئ منه، ويعلم تفاصيل بعض ما جرى في هذه الجريمة المنكرة التي تدمي القلب، والمقال بعنوان: (.... **الضمير الأوربي ذبح أطفالنا**).
سُئل المفكر العظيم ..... عن تفسيره للانهيار الأخلاقي في الغرب، فجحظت عيناه (الجاحظتان أصلًا من شدة الانبهار بالغرب)، وأجاب بدهشةٍ وعَجَب: «أيُّ انهيار أخلاقي؟! ... هذا غلط، الأخلاق ليست هي الجنس ... عندما يدخل الإنسان قصرًا فخمًا أنيقًا فيه كل ما يبعث الانبهار والروعة ثم لا ينظر إلا إلى صندوق الزبالة!!».
ثم أضاف المفكر -ولا زالت عيناه جاحظتين-: «أخلاقهم عالية. الجانب الإنساني عندهم قوي. الجانب الإنساني عندهم رائع إلى أبعد الحدود!» .. «هم ليس عندهم نفاق، لأن ليس عندهم ما يخفونه ... لا يخافون مما يعلنونه حتى يخفوه».
أما مفكر .....، فقد سبق له أن ملأ الدنيا بمعلقات المديح لليبرالية الغربية و«تقدميتها التي تعانق إنسانية الإنسان!».
و........ سبق أن زاد في الغباوة فأعلن أن التسامح المثالي المنشود لا يمكن أن يأتي من جهة الشرق أبدًا، وأعلن أنه سيبقى واقفًا ينتظر أن يتفرغ الغربيون ليشرحوا له دين الإسلام شرحًا «بروتستانتيًا متسامحًا!». =

. . . .

= هذه المقولات لهذا الثلاثي المستغرب كانت تمر بذاكرتي وأنا أتابع ردة فعل الضمير الغربي وحسه المرهف تجاه جريمة ذاك الطبيب القذر والممرضات البلغاريات التي ارتكبوها بحق أربعمائة وثمانية وثلاثين طفلًا بريئًا، من أجل حفنة دولارات قبضوها لهم من جهة أجنبية.

هم متسامحون!

ليس عندهم نفاق!

الجانب الإنساني عندهم قوي!

تقدميتهم تعانق إنسانية الإنسان!

الجانب الإنساني عندهم رائع إلى أبعد الحدود!

هذا ما اتفقت عليه كلمة شعراء بلاط البيت الأبيض الأمريكي وسيراميك الاتحاد الأوربي.

فما الذي سيقوله الآن أولئك الشعراء الغاوون تعليقًا على هذه الإنسانية الراقية تجاه أطفال ليبيا الأطهار ؟!

أربعمائة وثمانية وثلاثون طفلًا بريئًا جاؤوا للمستشفى طلبًا للدواء، فتُحشا أجسادهم الغضة الطرية الطاهرة بأفتك فيروس ممرض تعرفه البشرية، فيهب الضمير الغربي الإنساني المتسامح مباشرة لا للمطالبة بحقوق أولئك الأطهار، وإنما للدفاع عن قتلتهم المجرمين، بمجرد أن زعم القذافي أن محاكمة ستعاقبهم بالإعدام!

تحركت دول (محور الخير) كلها.

الاتحاد الأوربي يهدد بإعادة النظر في تطبيع علاقاته مع ليبيا إذا نفذت الحكم!

المنظمات الحقوقية تستنكر ... والإعلام يتابع ويحلل ويفسر!

الرئيس الأمريكي يدخل على الخط، ويعلن أن ليبيا إذا نفذت الحكم، فسوف يكون ذلك عقبةً في سبيل خروجها من عزلتها الدولية.

وخلال ذلك كله كان القذافي يرقص على تلك الإيقاعات، ويتفنن في المتاجرة بأرواح أولئك الأطفال الطاهرة، وبعذابات أسرهم المنكوبة.

وبعد ثماني سنوات من المفاوضات التجارية، يقدِّم العقيد للأوربيين عرضه الأخير المتضمن تخفيضات مغرية في قيمة رأس الطفل الليبي. عندها يقنع «الإنسانيون» «المتسامحون» بربحية الصفقة، ثم يوقع الطرفان العقد، ليتنازل العقيد الفذُّ عن عقوبة الإعدام، ولتتحول العقوبة -مؤقتًا- إلى سجن مؤبَّد في سجون بلغاريا وليس ليبيا. وفي =

. . . .

= اليوم نفسه يصل المجرمون إلى بلغاريا فيستقبلهم الرئيس البلغاري بنفسه في المطار، ليعلن من فوره البندَ الثاني من بنود الصفقة، والمتضمن العفو عن المجرمين وإسقاط عقوبة السجن عنهم، فيمضي القتلة مبتسمين مع أهليهم الذين استقبلوهم بالزهور في المطار، وتنتهي القصة، وكأن شيئًا لم يكن!

ثم يأتي دور الرئيس الفرنسي، فيعلن أنه سيتوجه شخصيًّا في اليوم التالي إلى ليبيا لإكمال باقي متعلقات الصفقة. وكانت زوجته قد سبقته إلى هناك للمشاركة في المساومة والمفاوضات قبل التوقيع على العقد. عقد الإنسانية الفريدة!

الإعلام الغربي -بما فيه (قناة العربية)- اجتهد في تغطية فرح البلغار والأوربيين بنهاية الأزمة، متجاهلًا حال الأسر الليبية المفجوعة. بل ربما طُرحت إيحاءات بأن التهمة كلها ملفقة، وأنه لم تكن هناك جريمة أصلًا. مع أن كلَّ عارفٍ بالأمور يدرك أن سيادة العقيد صاحب ثورة الفاتح أعجز من أن يحتجز فأرًا تجري في عروقه الدماء الأوربية ما لم يكن هناك تهمةٌ حقيقيةٌ.

كما أن الأوربيين لديهم من العجرفة والتعالي ما يحول بينهم وبين الدخول في مفاوضات وتنازلات مع سيادة العقيد دون مبرِّرٍ.

السؤال الذي يبرز الآن: هل سيجرؤ شعراء البلاط الغربي بعد هذه الواقعة على الحديث عن «الإنسانية»، و«التسامح» الغربيين؟!

وهل يستطيع أحدٌ منهم أن يذكر لنا من تواريخ الأمم السابقة (المتخلفة) وحشيةً وهمجيةً كهذه التي أهداها لنا الغربيون أصحاب الحضارة الاستثنائية؟!

مذبحة مروِّعةٌ بكل المقاييس، غير أنها مذبحة عصرية حسب الشريعة الغربية الليبرالية الحرة المتسامحة!

مذبحةٍ لم ترتكب بحقِّ جنودٍ في معركةٍ، ولا معارضين سياسيين، ولا «إرهابيين» في تورا بورا، وإنما بحق أطفال في مستشفى!

كما تعاني ابنتي (جود) من أعراض البرد، دخلت الطفلة (هدير) ذات الأربعين يومًا إلى المستشفى الليبي لتعالج التهابًا عاديًّا في الصدر. وبدل أن يُعالجَ صدرها، دسَّتْ الممرضة المتوحشة في وريد رجلها الصغيرة أنبوبًا لتمرير الفيروس القاتل إلى جسدها الندي.

(منى) و(عاشور) أخوان دخلا المستشفى ليعالجا من الحساسية. ثم خرجا يحملان فيروس الإيدز. =

. . . .

= أما (منى) فلا زالت تعاني عذاباتها. وأما (عاشور) فقد توفي بعد أن نقل الفيروس إلى أمه عن طريق الرضاعة.

وملفات القضية تقول: إن هناك ثمانية عشر أمًّا أخريات انتقل لهن الإيدز من أطفالهن عن طريق الرضاعة.

(جمعة رمضان) الذي أعطي حقنة الموت وعمره سنتان، أصبح الآن معاقًا وهو في العاشرة من عمره، ولا زال يعاني من تطورات الفيروس.

(يحيى إدريس) الذي يبلغ الآن سبعة عشر عامًا، يذكر جيدًا ما حدث له تلك الليلة حين كان عمره ثماني سنوات. يقول: كان ذلك في يوم العيد!! كان أكثر الأطباء في إجازة، وفي ظلمة الليل جاءت الممرضة وأخرجت أمي من الغرفة، ثم أحضرت الحقنة!

وتتكرر هذه الصور البشعة أكثر من أربعمائة وثلاثين مرة. والتقارير تقول: إن خمسين طفلًا توفوا إلى الآن، والباقون لا زالوا يعانون آلام الموت البطيء دون جرمٍ ارتكبوه.

وحتى يكتمل القُبح، فإن الممرضات الحقيرات ذكرنَ في التحقيق أنهنّ اخترن الأطفال بالذات لأنهم غير قادرين على الكلام.

فهل هناك «إنسانية» أعظم من هذه يا بليهي؟!

أيُّ قلوبٍ هذه! وأيُّ وحشيةٍ تلبَّستْ أولئك الشياطين!

من كان لديه طفل (ابن أو ابنة، أخ أو أخت) فلينظر إلى براءته وهو يلهو ويلعب ويضحك. ثم ليسرحْ بخاطره متفكرًا: ماذا لو تعرَّض طفلي هذا لمثل تلك الجريمة البشعة؟ عندها سوف يدرك بعض معاناة وآلام مئات الأطفال والأسر في ليبيا. علمًا أن بعض الأطفال المجني عليهم لم يتجاوز عمرهم الثلاثة أشهر، وهم الآن مع أسرهم يعيشون عزلة اجتماعية شديدة بسبب خوف الناس من انتقال العدوى إليهم.

والعجيب أن الإعلام الغربي بضميره الحي، ظل طيلة السنوات التي تلت الجريمة مشغولًا بمعاناة الممرضات مع المحاكم الليبية. وأما الأطفال وأسرهم، فليشربوا من ماء البحر إن لم ترضهم حفنة دولارات ستدفع لهم، ليقتسموها مع قائد ثورة الفاتح!

ماذا لو كان المجني عليهم أطفالًا أوربيين؟

بل ماذا لو كان المجني عليه طفلًا واحدًا يحمل في عروقه دماء الأوربيين الزرقاء؟

بل ماذا لو كان كلبًا أو قطًّا أوروبيًّا تعرض لانتهاك حقوقه؟

في العام ١٤٢٤هـ نشرت الواشنطن بوست خبرًا مفاده أن الأمريكي جيمس أندرو ينتظر =

. . . .

= حكمًا بالسجن المؤبد؛ لأنه قتل كلبًا بطريقة وحشية!
وفي العام الذي يليه نقلت البي بي سي أن محكمة أمريكية حكمت بتعويض مقداره (٤٥٠٠٠) دولار لامرأة، لأن كلب جارتها قتل قطتها.
وفي هلسنكي بفنلندا حكمت محكمة بالغرامة على بائع أسماك؛ لأنه كان يسيء معاملة أسماكه أثناء عرضها للبيع!
وأعجب من هذا كله أن مسلمًا في الثمانينات في بلغاريا نفسها حكم عليه بالسجن خمس سنوات؛ لأنه أجرى عملية ختان لابنه!
واليوم ما يقرب من خمسمائة طفلٍ يُحقن السم القاتل في عروقهم، فلا تتحرك «الإنسانية» الأوربية ولا «العدالة» الأمريكية، ولا يرف لهما جفن. لتبقى حركة الضمير الغربي معلقةً بإنسانية خاصة بعرقهم الأزرق.
الإنسانية الأوربية كلمة تقرأ من اليسار إلى اليمين فقط. أما من اليمين إلى اليسار فلا إنسانية هناك يمكن قراءتها!
أما القذافي فليس أهلًا لأن يشتم؛ إذ ليس في القواميس لغة يمكن أن تنحط لمستواه السافل. وما كنا ننتظر منه أقل من هذه الخيانة.
وأما الطبيب والممرضات فهم من جنس سائر القتلة السفلة والمجرمين الهمجيين الذين لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلًا. لكن ماذا عن حضارة «الإنسانية» و«العدالة» و«حقوق الإنسان»؟!!
أليست هذه الحضارة هي نفسها التي شنقت صدام حسين لأنه قتل (١٤٨) رجلًا في الدجيل بعد أن جرت محاولة لاغتياله هناك؟!!
أليست هذه هي الحضارة التي تصب علينا كلَّ عامٍ تقاريرها عن انتهاكات حقوق الإنسان في بلادنا؟!!
أليست هذه هي الحضارة التي لا زالت تلهج بلعن طالبان وانتهاكاتها لحقوق الإنسان؟!
أليست هذه هي الحضارة التي أشعلت الدنيا غضبًا لهدم أصنام بوذا في باميان؟!
أليست هذه هي الحضارة التي أعلن أحد شياطينها أنها تمثل «نهاية التاريخ» وخاتمة الارتقاء في سلم الإنسانية؟!
أليست هذه هي الحضارة التي باتت تفكر في فرض قوانين وعقوبات لمحاسبة الناس حتى على مشاعر الكراهية؟ =

. . . .

= بالنسبة لي لا جديد في هذه الحادثة سوى دليلٍ آخر يضاف لركام الأدلة على زيف تلك الدعاوى الماكرة وكذبها. وأظن الأمر كذلك بالنسبة للكثيرين.

لكن ماذا عن شعراء البلاط الأمريكي الأوربي؟ هل سيتوقفون عند مثل هذه الحادثة لإعادة النظر في قناعاتهم الساذجة؟!

لست متفائلًا حيال ذلك. فالتجارب تدل على أن هذه النوعية من البشر لن تعتبر، ولن تتحرك فيها شعرة واحدة. بل إن شغفهم بالمدائح (البلاطية) ربما يجعلهم لا يبصرون في هذه القصة كلها سوى جانبٍ واحدٍ، وهو (عناية بلغاريا والدول الغربية بمواطنيها ودفاعها عنهم). وأما سائر جوانب القصة الأليمة فلا أظنهم يتوقفون عندها، ولا يبدو أنها ستغير من قناعاتهم شيئًا إلا أن يشاء الله.

وقد رأينا بعض هؤلاء حين ظهرت فظائع سجن أبي غريب، وضج لها الناس، رأيناهم يتحدثون فقط عن روعة النظام الذي أدى لاكتشاف مثل هذه الممارسات! فمن الواضح أن الغشاوة غطت على أبصارهم، بعد أن ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

حادثة الأطفال الليبيين ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة. وشعارات إنسانية الحضارة الغربية باتت مكشوفة العورة تمامًا، فهي تغيب دائمًا حين توجد المصالح والدولارات.

وإذا كان الأطفال الليبيون -وبسبب جريمة أوربية- يعانون الآن ويلات الإيدز. فهناك ثمانية وعشرون مليون إفريقي آخر يعانون المرض نفسه. والقيم الغربية «الإنسانية» «الرائعة» لها يدٌ طولى في تعميق هذه المعاناة.

أدوية الإيدز تصنعها في أمريكا شركة (pfizer) وتبيعها بأثمان باهظة تعادل تسعة أضعاف كلفة إنتاجها.

بالمقابل هناك ثلاث دول في العالم (الهند-البرازيل-الأرجنتين) تستطيع تصنيع هذا الدواء وبيعه بثلث السعر الأمريكي. لكن الأمريكيين ظلوا لسنواتٍ يمنعونهم من ذلك بعد أن كبلوهم باتفاقيات منظمة التجارة الدولية. وليذهب الأفارقة إلى مصيرهم المظلم فداءً لقيم الحضارة الغربية الإنسانية الرائعة كما في رواية البليهي!

فما أعظم هذه «الإنسانية»، وما أرقاها؟

هذه «الإنسانية» الفريدة هي التي تحرك قريحة شعراء البلاط، وتهيج مواهبهم لتدبيج الثناء والمديح لمن يتفنن في قتل الشعوب ومص دمائها ودماء أطفالها في سبيل الدولار. ثم يرفع بعد ذلك بكل براءة شعارات «الإنسانية» وقيم «العدالة» و«العالم الحر». =

الْعَالَمِ كُلِّهِ، فِي جَرِيمَةٍ لَسْتُ أَعْلَمُ جَرِيمَةً مُعْلَنَةً فِي حَقِّ الْأَطْفَالِ هِيَ أَبْشَعُ مِنْهَا، فَأَيْنَ هِيَ حُقُوقُ الطُّفُولَةِ الْبَرِيئَةِ وَحِمَايَتُهَا الَّتِي مَا فَتِئُوا يَبْتَزُّونَ غَيْرَهُمْ بِهَا، وَيُعَاقِبُونَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا؟

= حين أسمع أخبار تدخّل «بوش» لمنع معاقبة الممرضات البلغاريات رغم جنايتهن بحق أطفال لا ذنب لهم، أتذكر بكائياته وعباراته التي يكررها دائمًا في خطاباته المنافقة: «إذا ظل الشرق الأوسط، حتى بعد عشرين عامًا من الآن، خاضعًا لسيطرة حكام طغاة ... فإن (أطفالنا وأحفادنا) سيعيشون في عالم يسيطر عليه كابوس الخطر» ... «إذا تراجعنا وسمحنا بوجود حكومات استبدادية ... فسيكون العالم الذي سينمو فيه (أطفالنا) عالمًا عدوانيًّا».

انظروا مقدار الشفقة التي يظهرها الفاجر على الأطفال، ثم تذكروا حكمة إبراهيم البليهي حين قال: (هم ليس عندهم نفاق)!!

وإذا كان النفاق يقبح من الضعيف، فهو أقبح وأقبح حين يأتي من القوي.

أذكر قبل سنوات حين هلك الجنرال السفاح (أوغستو بينوشيه) حاكم تشيلي السابق خرج متحدثًا باسم البيت الأبيض يقول: «فترة استبداد أوغوستو بينوشيه شكلت أحد أصعب الفترات في تاريخ هذا البلد (تشيلي)»، ثم قال: «إن قلوبنا تتجه اليوم إلى ضحايا عهده وإلى أسرهم».

هذا ما قاله المتحدث باسم بيت الإنسانية الأبيض، لكن ما لم يقله هو أن بينوشيه وصل للحكم عن طريق انقلاب عسكري مدعوم من الرئيس الأمريكي نيكسون ضد رئيس تشيلي المنتخب. هذا الرئيس المنتخب الذي اختاره شعبه لم يكن «ديكتاتورًا» ولا «إرهابيًّا». لكن مشكلته أنه مؤمن بالاشتراكية، وهذا ما اعتبره الأمريكيون جريمةً وكفرًا. فليسقط إذًا الرئيس المنتخب، وليحل مكانه المجرم الطاغية، وليقتل وليخطف وليعذب الآلاف من شعبه. ثم إذا مات بعد سنوات، لا بأس بكلمات أمريكية تتباكي على ضحايا إجرام الجنرال الطاغية!

لاحرج في ذلك كله، فالعالم مليء بالأغبياء الذين سوف يتفهمون موقف العالم الحر، ويكررون ببلاهة: (الغرب ليس عنده نفاق)!

هذه صورة واحدة من ألبوم يحوي المئات من الصور.

والذي يريد الوقوف عليها لا يحتاج للتفتيش في كتب التواريخ.

بل يكفيه فقط أن يتابع الأخبار بعقل واعٍ غير قابل لأن يخدع. وسوف يرى الصورة كاملة أمام عينيه بكل قبحها وبشاعتها. =

إِنَّهَا ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ؛ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ هُنَا مُسْلِمُونَ، وَلَا حَقَّ لِمُسْلِمٍ فِي شَيْءٍ!!

كَانَ اللهُ تَعَالَى فِي عَوْنِ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ وَآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ، وَأَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ لَهُمْ إِذْ لَمْ يَنْتَصِرْ لَهُمْ أَحَدٌ؛ فَالْبَشَرُ بَيْنَ ظَالِمٍ وَعَاجِزٍ.

فَمَتَى -يَا عِبَادَ اللَّهِ- يَعِي الْمَخْدُوعُونَ أَنَّ تِلْكَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْوَافِدَةَ، وَالشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةَ لَا يُرَادُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْهَا إِلَّا مَا فِيهَا مِنْ بَاطِلٍ؛ لِإِفْسَادِ عَقَائِدِهِمْ، وَإِبْطَالِ شَرِيعَتِهِمْ، وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ إِلَى بَاطِلِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّ مَا فِيهَا مِنْ حَقٍّ فَهُوَ مَقْصُورٌ عَلَيْهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَلَا نَصِيبَ لِلْمُسْلِمِ فِي شَيْءٍ مِنْهُ.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢-٣٣].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



= لكن إن كان من شعراء البلاط الغربي فهو يقينًا لن يبصر أمامه إلا صورة جمهورية أفلاطون الفاضلة، وجنة جون لوك الموعودة.

٣٦٢- تبديل ألفاظ الشريعة (٢) مصطلح الآخر

٣/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَوَاسِعِ مَغْفِرَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ؛ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَعَلَى أَعْمَالِكُمْ مُحَاسَبُونَ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ١٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: خَتَمَ اللهُ تَعَالَى النُّبُوَّاتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَكْمَلَ الدِّينَ بِوَفَاتِهِ، فَمَا فَارَقَ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَّا وَقَدْ كَمُلَ الدِّينُ، وَتَمَّتِ النِّعْمَةُ، وَاسْتَقَرَّتِ الشَّرِيعَةُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُحْكَمَ بِهَا النَّاسُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائِدَة: ٣].

هُوَ دِينُ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمَصْنُوعَةِ وَالْمُحَرَّفَةِ فَهِيَ الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ الَّذِي كَشَفَهُ الْقُرْآنُ، وَحَذَّرَ مِنْهُ، وَأَبْدَأَ فِيهِ وَأَعَادَ، وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُسْلِمًا إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَالتَّسْلِيمِ بِهَا، وَالِانْقِيَادِ لَهَا، وَالْعَمَلِ بِالْآثَارِ النَّاتِجَةِ عَنْهَا.

وَمَنْ شَكَّ فِي هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، أَوْ تَرَدَّدَ فِي قَبُولِهَا، أَوْ ظَنَّ أَنَّهَا مُحْتَمَلَةٌ، أَوْ قَالَ: لَا أَعْلَمُ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ؛ إِذْ لَازِمُ ذَلِكَ أَنَّهُ يَشُكُّ فِي الْإِسْلَامِ، وَيُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ، وَلَمْ يُصَدِّقِ الرَّسُولَ ﷺ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣].

وَلَمَّا كَانَ دِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ، كَانَ أَعْدَاؤُهُ هُمْ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَلَا شَكَّ، وَكَانَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْأَفْكَارِ مِنْ سَائِرِ الدِّيَانَاتِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْأَجْنَاسِ أَنْ يُحَارِبُوهُ؛ لِأَنَّهُمْ حَمَلَةُ الْبَاطِلِ وَحُمَاتُهُ، وَهَذَا الْحَقُّ الْمُتَمَثِّلُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ يَكْشِفُ بَاطِلَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا بُدَّ مِنْ صَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يُجْذَبُ النَّاسُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ عَرْضِهِ عَلَيْهِمْ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٦].

وَهَكَذَا كَانَ حَالُ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مَعَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، مُنْذُ أَنْ جَهَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِدَعْوَتِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَسَتَظَلُّ الْحَرْبُ قَائِمَةً إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٥١]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الْفُرْقَان: ٢٠]، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

وَفِي زَمَانِنَا هَذَا وَمَعَ اشْتِدَادِ الْحَمْلَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ، وَالطَّعْنِ فِي رُمُوزِهِ وَشَعَائِرِهِ؛ أَحْدَثَ الْمُبْتَدِعُونَ مُصْطَلَحَاتٍ وَضْعِيَّةً لِتَحُلَّ مَحَلَّ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، الْقَصْدُ مِنْهَا تَمْيِيعُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ، وَالْقَضَاءُ عَلَى عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَإِحْلَالُ وَلَاءَاتٍ وَبَرَاءَاتٍ أُخْرَى مَكَانَهَا، تُبْنَى عَلَى عَالَمِ الدُّنْيَا الْمُشَاهَدِ، مَعَ إِلْغَاءِ الْعَالَمِ

الْأُخْرَوِيِّ الْغَيْبِيِّ فِي بِنَاءِ تِلْكَ الْعَلَاقَاتِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَقَصْرِ عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى التَّعَبُّدَاتِ الْمَحْضَةِ الَّتِي لَا شَأْنَ لَهَا بِوَاقِعِ النَّاسِ وَمَعَاشِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ.

وَمِنْ هُنَا ظَهَرَتْ مُصْطَلَحَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا: التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ، وَالسَّلَامُ الْعَالَمِيُّ، وَالْأُخُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَزَمَالَةُ الْأَدْيَانِ وَتَقَارُبُهَا وَوَحْدَتُهَا، وَإِلْغَاءُ الْأَيْدُلُوجِيَّاتِ، وَمُحَارَبَةُ التَّفْرِقَةِ الْعُنْصُرِيَّةِ عَلَى أَسَاسٍ دِينِيٍّ، وَمَنْعُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ، وَبِنَاءُ الْعَلَاقَاتِ عَلَى أُسُسٍ دُنْيَوِيَّةٍ لَا دِينِيَّةٍ، وَالضَّغْطُ بِهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ الطَّاغُوتِيَّةِ عَلَى الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ لِتَمْكِينِ الْأَقَلِّيَّاتِ الْبِدْعِيَّةِ وَالْكُفْرِيَّةِ، مِنْ نَصْرَانِيَّةٍ وَبَاطِنِيَّةٍ وَإِلْحَادِيَّةٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ كَمَرْحَلَةٍ أُولَى، ثُمَّ تَسْلِيمُهَا فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ -لَوْ نَجَحُوا- زِمَامَ الْأُمُورِ لَتَحْكُمَ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، كَمَا مَكَّنُوا لِبَعْضِ الطَّوَائِفِ الْمُنْحَرِفَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ.

وَمِنْ أَشْهَرِ الْمُصْطَلَحَاتِ الَّتِي عُقِدَتْ لَهَا عَشَرَاتُ الْمُحَاضَرَاتِ وَالنَّدَوَاتِ، وَدُبِّجَتْ فِيهَا مِئَاتُ الْكُتُبِ وَالْمَقَالَاتِ، وَامْتَلَأَتْ بِبَحْثِهَا الصُّحُفُ وَالْمَجَلَّاتُ، وَتَنَاوَلَتْهَا بِالْجِدَالِ وَالْمُنَاقَشَةِ الْفَضَائِيَّاتُ وَالْإِذَاعَاتُ: مُصْطَلَحُ الْعَلَاقَةِ مَعَ الْآخَرِ، وَهُوَ مُصْطَلَحٌ طَارَ فِي الْآفَاقِ، وَانْتَشَرَ بَيْنَ النَّاسِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَجْرِي عَلَى أَلْسُنِ الْعَوَامِّ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَدْرِي مَنْ هُوَ هَذَا الْآخَرُ؟ وَمَاذَا يُرَادُ مِنَ الْمُسْلِمِ تُجَاهَهُ؟ وَلِمَاذَا ظَهَرَ هَذَا الْمُصْطَلَحُ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ وَمَا هُوَ الْبَيَانُ الشَّرْعِيُّ فِيهِ؟

إِنَّ الْعَقَبَةَ الْكَأْدَاءَ أَمَامَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لِتَغْيِيرِ عَقْلِيَّةِ الْمُسْلِمِ، وَنَقْلِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْإِلْحَادِ، تَتَمَثَّلُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُوقِنُ الْمُسْلِمُ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يَتَطَرَّقُ الشَّكُّ إِلَيْهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَكُلُّ أَخْبَارِهِ أَخْبَارُ

صِدْقٍ وَحَقٌّ، وَإِذَا وَصَفَ الْقُرْآنُ أَقْوَامًا بِوَصْفٍ أَيْقَنَ الْمُؤْمِنُ أَنَّ ذَلِكَ الْوَصْفَ فِيهِمْ لَا مَحَالَةَ؛ لِثِقَتِهِ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَقِينِهِ بِعِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ حَوَتْ آيَاتُ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ تَفْصِيلَ الْعَلَاقَةِ مَعَ الْآخَرِينَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَمَلَاحِدَةٍ وَمُشْرِكِينَ وَمُنَافِقِينَ، وَكَشَفَتْ حَقَائِقَهُمْ، وَعَرَضَتْ لِتَارِيخِهِمْ، وَبَيَّنَتْ مَوَاقِفَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِ الرُّسُلِ عليهم السلام.

وَالمُسْلِمُ يَتَعَبَّدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقِرَاءَةِ تِلْكَ التَّفَاصِيلِ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَيَسْتَغْرِقُ جُزْءًا كَثِيرًا مِنْ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ يَسْتَمِعُ إِلَيْهَا مِنْ إِذَاعَتِهِ وَآلَةِ تَسْجِيلِهِ وَإِمَامِ مَسْجِدِهِ، وَهِيَ تُرَسِّخُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ فِي عَقْلِهِ عَنْ مُمَارَسَاتِ وَأَخْلَاقِيَّاتِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، وَتَصَرُّفَاتِهِمُ المَشِينَةِ مَعَ المُؤْمِنِينَ، وَمُعَادَاتِهِمُ الصَّرِيحَةِ لَهُمْ، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ، وَلَا حِيلَةَ لِلْأَعْدَاءِ إِلَّا بِصَرْفِ النَّاسِ عَنْهُ، وَلَمْ يَنْصَرِفُوا عَنْهُ كُلِّيَّةً رَغْمَ تَكْثِيفِ وَسَائِلِ الشَّهَوَاتِ وَبَثِّ الشُّبُهَاتِ فِيهِمْ، فَعَمَدُوا قَبْلَ عَامٍ إِلَى فُرْقَانِهِمُ المَصْنُوعِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَبَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَحْرِيفِهَا[1]، مَعَ حَذْفِ كُلِّ الْآيَاتِ الْفَاضِحَةِ لِلْكُفَّارِ وَالمُنَافِقِينَ، وَنَشَرُوهُ فِي أَوْسَاطِ المُسْلِمِينَ لِيَكُونَ بَدِيلًا عَنِ الْقُرْآنِ، فَمَا حَفَلَ المُسْلِمُونَ بِقُرْآنِهِمْ، وَلَا الْتَفَتُوا إِلَيْهِ، فَجَاءَتْ هَذِهِ المُحَاوَلَةُ ضِمْنَ مُحَاوَلَاتٍ كَثِيرَةٍ لِقَطْعِ الصِّلَةِ بَيْنَ المُسْلِمِ وَبَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَذَلِكَ بِتَغْيِيرِ المُسَمَّيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَعْلَامًا وَأَوْصَافًا عَلَى المُخَالِفِينَ، وَكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْكُفْرِ وَالْكَافِرِينَ، وَالنِّفَاقِ وَالمُنَافِقِينَ، وَالْبِدْعَةِ وَالمُبْتَدِعِينَ؛ لِيَحُلَّ مَحَلَّهَا: المَوْقِفُ

---

(١) هذا قرآن اخترعه بعض النصارى العرب الموجودين في أمريكا، وكتب بالعربية والإنجليزية، ودمجت ألفاظ وجمل قرآنية ببعض نصوص من الإنجيل المحرف. وقد سبق عرض سوره وبعض آياته وسخافاته في خطبة ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ فيراجعه من شاء في المجلد (٦) خطبة رقم (٢٢٥).

مِنَ الْآخَرِ، وَالْحِوَارُ مَعَ الْآخَرِ، وَالتَّعَايُشُ مَعَ الْآخَرِ، وَفَهْمُ الْآخَرِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، مَعَ إِبْرَازِ نُصُوصِ التَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ وَالْمُحَاوَرَةِ مَعَهُ، وَإِلْغَاءِ نُصُوصِ مُقَارَعَتِهِ وَجِهَادِهِ وَفَضْحِهِ وَالْإِغْلَاظِ عَلَيْهِ، وَحُجَّةُ مَنْ يَدْعُو إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ الْجَدِيدِ: وُجُودُ الْمُشْتَرَكَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالتَّرْكِيزُ عَلَيْهَا، مَعَ تَهْوِينِهِمْ مِنْ شَأْنِ الْمُفَارَقَاتِ الدِّينِيَّةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْآخَرِينَ، وَالنَّتِيجَةُ النِّهَائِيَّةُ لِهَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ: إِخْضَاعُ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لِحُكْمِ الطَّاغُوتِ الْمُتَسَلِّطِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَلَى دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ.

إِنَّ هَذَا الْآخَرَ الَّذِي أُرِيدَ لَهُ أَنْ يَكُونَ أَخًا لِلْمُسْلِمِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ قَدْ وُصِفَ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٠١]، وَفِي الْمُنَافِقِينَ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [الْمُنَافِقُون: ٤]، فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ اشْتِرَاكَهُ مَعَ الْمُسْلِمِ فِي الْعَيْشِ عَلَى الْأَرْضِ، فَكَذَلِكَ الْحَيَوَانُ يَعِيشُ مَعَ الْإِنْسَانِ عَلَى الْأَرْضِ فَهَلْ هُوَ أَخُوهُ؟! وَإِنْ كَانَ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ تَكْرِيمَهُ بِالْعَقْلِ، فَغَيْرُ الْمُؤْمِنِ قَدْ عَطَّلَ عَقْلَهُ وَأَلْغَاهُ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنِ اسْتَنْكَفَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَلَمْ يَخْضَعْ لِشَرِيعَتِهِ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَا يَعْقِلُونَ، وَلَا يَفْقَهُونَ، فَقَالَ عَنِ الْكُفَّارِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٧١]، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الْأَنْفَال: ٦٥]، وَقَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْمَائِدَةِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٢]، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ فِي الْحَشْرِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الْحَشْر: ١٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، وَرَمَى ﷻ الْمُنَافِقِينَ بِالْفَسَادِ وَالسَّفَهِ، فَقَالَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣]، وَفِي بَرَاءَةَ: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

يَفْقَهُونَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٧]، وَفِي أُخْرَى: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٩٣]، وَفِي سُورَتِهِمْ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ٨].

بَلْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَبْلَغُ فِي شَأْنِ مَنِ اسْتَكْبَرَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ إِذْ قُرِنُوا بِالْحَيَوَانِ، ثُمَّ فَضَّلَ الْقُرْآنُ الْعَجْمَاوَاتِ مِنَ الْحَيَوَانِ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٩]، وَفِي الْفُرْقَانِ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفُرْقَان: ٤٤]، وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ شَرُّ خَلْقِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البَيِّنَة: ٦].

وَالْبَرِيَّةُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى، فَهُمْ شَرُّ الْخَلِيقَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلِذَلِكَ قَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٢٢]، ثُمَّ بَيَّنَ مَنْ هُمْ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأَنْفَال: ٥٥]، وَوَصَفَهُمْ سُبْحَانَهُ بِالنَّجَاسَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التَّوْبَة: ٢٨]، فَهَلْ سَيَرْضَى الْآخَرُ كَافِرًا كَانَ أَمْ مُنَافِقًا أَمْ مُرْتَدًّا بِتِلْكَ الْأَوْصَافِ فِيهِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرًا، أَمْ سَيُكَذِّبُ الْمُسْلِمُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَطْرَحُونَهُ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا لِإِرْضَاءِ هَذَا الْآخَرِ؟!

إِنَّ اخْتِرَاعَ مُسَمَّيَاتٍ أُخْرَى لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ وَالْمُرْتَدِّ لَنْ يُغْنِيَ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا،

وَلَنْ يُزِيلَ حَسَدَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَنْ يَدْرَأَ عَدَاوَتَهُمْ عَنْهُمْ، بَلْ سَيَزِيدُهُمْ تَسَلُّطًا إِلَى تَسَلُّطِهِمْ، وَاسْتِكْبَارًا إِلَى اسْتِكْبَارِهِمْ، وَطَمَعًا إِلَى طَمَعِهِمْ فِي تَغْيِيرِ الْإِسْلَامِ كُلِّهِ، وَإِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُ، إِذَا مَا رَأَوْا فِئَامًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُغَيِّرُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامَهُ لِأَجْلِهِمْ.

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَحَفِظَ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ حُقُوقَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، فَأَهْلُ الْعُقُودِ تُوَفَّى لَهُمْ عُقُودُهُمْ، وَأَهْلُ الذِّمَّةِ وَالْأَمَانِ يُعْطَوْنَ حُقُوقَهُمْ، بَلْ حَتَّى فِي حَالِ الْحَرْبِ مَعَهُمْ يُحْسَنُ إِلَى أَسِيرِهِمْ، وَيُدَاوَى جَرِيحُهُمْ، حَتَّى يَحْكُمَ فِيهِمْ إِمَامُ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ حَكَمَ بِقَتْلِهِمْ فَلَا يُعَذَّبُونَ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِمْ، بَلْ تُحْسَنُ قِتْلَتُهُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ تَعَدٍّ مِنْهُمْ فَيُفْعَلُ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي فَعَلُوهُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ بَابِ الْعُقُوبَةِ بِالْمِثْلِ، وَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ. وَيُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَيُجَادَلُونَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ لَعَلَّهُمْ مِنْ كُفْرِهِمْ يَتُوبُونَ، وَإِلَى رَبِّهِمْ يَرْجِعُونَ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ فَيُعَامَلُ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِ أَخْذًا بِظَاهِرِ حَالِهِ، وَسَرِيرَتُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى كُفْرِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فَيُؤْخَذُ بِهِ عَلَى حَسَبِهِ.

وَالصِّرَاعُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ سَيَظَلُّ قَائِمًا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَلَنْ يُوقِفَهُ تَغْيِيرُ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَاسْتِبْدَالُ الْمُصْطَلَحَاتِ الْوَضْعِيَّةِ بِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الصِّرَاعَ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى، وَالْقَوِيُّ فِي هَذَا الصِّرَاعِ سَيُقْصِي الضَّعِيفَ، وَيَتَسَلَّطُ عَلَيْهِ؛ كَمَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ فِي التَّارِيخِ، وَدَلَّ عَلَيْهِ الْوَاقِعُ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي حَالِ الْقُوَّةِ بِالْعَدْلِ حَتَّى مَعَ أَعْدَائِهِمْ، فَأَوْلَى لِلْمُسْلِمِينَ التَّمَسُّكُ بِدِينِهِمْ مِنْ إِرْضَاءِ أَعْدَائِهِمْ.

وَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ إِلْغَاءَ هَذَا الصِّرَاعِ الْأَبَدِيِّ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالتَّقْرِيبِ بَيْنَ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَالْأَحْكَامِ الْوَضْعِيَّةِ، بِتَغْيِيرِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلْغَاءِ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَإِحْلَالِ أُخْرَى مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ مَحَلَّهَا، مَا هُمْ إِلَّا مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِطَبِيعَةِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا يَعْرِفُونَ سُنَنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ، وَلَوْ وَصَفُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْمُفَكِّرِينَ وَالْمُثَقَّفِينَ، وَلَوْ وَطِئَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، وَلَمَّعَهُمْ مُرِيدُوهُمْ فِي إِعْلَامِهِمْ.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ، وَالْإِخْبَارِ بِهِ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَتَمَنَّى إِشْعَالَ الصِّرَاعِ الْحَضَارِيِّ -وَإِنْ كَانَ فِي وَاقِعِ الْحَالِ مُشْتَعِلًا، وَيَزْدَادُ اضْطِرَامًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ- لِأَنَّ الْمُسْلِمَ يَنْطَلِقُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَامَ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَقَالَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا الْفِقْهَ فِي الدِّينِ، وَأَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ،

---

(٢) أخرجه من حديث عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمنى لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢).

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ يُنْهَى عَنْ تَزْيِيفِ الْحَقَائِقِ، وَتَغْيِيرِ الْمُسَمَّيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالتَّلَاعُبِ بِأَحْكَامِ الدِّينِ؛ لِتَخْدِمَ الْأَفْكَارَ الْوَضْعِيَّةَ الْهَدَّامَةَ، وَتُوَافِقَ الْقُلُوبَ الْمَفْتُونَةَ، وَتُسَايِرَ الْوَاقِعَ الضَّاغِطَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؛ فَهُوَ كَذَلِكَ مَنْهِيٌّ عَنْ تَوْظِيفِ النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّةِ تَوْظِيفًا خَاطِئًا يَخْدِمُ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، وَيُقْدِمُ عَلَى تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِلَا دَلِيلٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالشُّبْهَةِ، وَرُبَّمَا الِانْتِصَارِ لِلنَّفْسِ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى السَّلَامَةَ.

وَيَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ: نَكْثُ الْبَيْعَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمُنَازَعَةُ السُّلْطَانِ فِي سُلْطَانِهِ، وَالْخُرُوجُ الْمُسَلَّحُ عَلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ اسْتِهْدَافُ أَمْنِ الْمُسْلِمِينَ وَاقْتِصَادِهِمْ[٣]، وَقَصْدُ الْمَعْصُومِينَ بِالْقَتْلِ وَالتَّرْوِيعِ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الْفَسَادِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُمَكِّنُ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَا يُسَرُّ بِهِ إِلَّا أَعْدَاءُ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ، وَآثَارُهُ شَنِيعَةٌ مَقِيتَةٌ، وَعَوَاقِبُهُ أَلِيمَةٌ وَخِيمَةٌ، وَهُوَ بَابٌ مِنَ الْفِتْنَةِ عَرِيضٌ، لَا يَلِجُهُ أَحَدٌ ثُمَّ يَسْلَمُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَالتَّارِيخُ مَلِيءٌ بِالْعِبَرِ فِي ذَلِكَ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعِصْمَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنْ عُمُومِ الْإِفْسَادِ، فَكَيْفَ بِقَصْدِ التَّخْرِيبِ فِي

---

(٣) هذه إشارة إلى ما حصل هذا الأسبوع من محاولة بعض المطلوبين أمنيًّا تفجير مصفاة بقيق النفطية، ولكنهم فشلوا بحمد الله تعالى.

بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي مَهْبِطِ الْوَحْيِ، وَمَنْبَعِ الرِّسَالَةِ.

وَمَهْمَا سَوَّغَهُ الْمُسَوِّغُونَ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ الْمُسْتَدِلُّونَ، وَاعْتَذَرَ لَهُ الْمُعْتَذِرُونَ فَهُوَ فِعْلٌ آثِمٌ، وَإِفْسَادٌ ظَاهِرٌ، لَا يَسَعُ مُسْلِمًا إِلَّا أَنْ يَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَسْوِيغِهِ، فَضْلًا عَنِ الْمُوَافَقَةِ عَلَيْهِ وَالرِّضَا بِهِ.

وَلَأَنْ يَصْبِرَ الْمُسْلِمُ عَلَى أَذَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ، وَتَنْكِيلِهِمْ بِالْمُسْلِمِينَ، وَاحْتِلَالِ بُلْدَانِهِمْ؛ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَنْزِعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَيُفَارِقَ الْجَمَاعَةَ، ثُمَّ يَعِيثَ فَسَادًا وَتَخْرِيبًا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، كَيْفَ؟ وَعُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ﷺ يَقُولُ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٤]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٥].

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ أَنْ يَهْدِيَ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَكْبِتَ الْمُفْسِدِينَ. اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ وَالْمُسْلِمِينَ بِسُوءٍ فَاشْغَلْهُ فِي نَفْسِهِ، وَرُدَّ كَيْدَهُ إِلَى نَحْرِهِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

---

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الناس الإمام (٦٧٧٤)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية (١٧٠٩).

(٥) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: سترون بعدي أمورًا تنكرونها (٦٦٤٦)، ومسلم في الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة (١٨٤٩).

٣٦٣- تبديل ألفاظ الشريعة (٣) التعايش السلمي

١٠/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَعَلَّمَنَا الْحِكْمَةَ وَالْقُرْآنَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، أَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ نِعَمِهِ، وَأَشْكُرُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ وَمِنَنِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَصَرَفَتْهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَلَّتْ لَهُمْ مَا حَرَّمَ رَبُّهُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ ﷻ فِي عِبَادِهِ أَنِ ابْتَلَاهُمْ بِالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَجَعَلَهُمْ حِزْبَيْنِ، فَحِزْبٌ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ أَعْدَاءُ الشَّيْطَانِ، وَحِزْبٌ آخَرُ هُمْ أَعْدَاءُ الرَّحْمَنِ، أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ. وَكَلَّفَ سُبْحَانَهُ أَوْلِيَاءَهُ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَوَعَدَهُمْ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَابْتَلَاهُمْ بِأَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيُحَارِبُونَ أَوْلِيَاءَهُ ﷻ.

إِنَّهُمَا فَرِيقَانِ: فَرِيقُ حَقٍّ، وَفَرِيقُ بَاطِلٍ، وَجُنْدَانِ: جُنْدُ الرَّحْمَنِ، وَجُنْدُ الشَّيْطَانِ، هَكَذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى؛ ابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا لِلْبَشَرِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التَّغَابُن: ٢]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فَاطِر: ٨]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٠]، وَفِي آيَةٍ رَابِعَةٍ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشُّورَى: ٧].

وَكَانَ ﷻ -وَلَا يَزَالُ- قَادِرًا عَلَى جَعْلِ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَعَلَى هِدَايَتِهِمْ كُلِّهِمْ لِلْإِيمَانِ، وَمُجَانَبَتِهِمْ لِلْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَكِنَّ إِرَادَتَهُ النَّافِذَةَ، وَحِكْمَتَهُ الْبَالِغَةَ تَأْبَى ذَلِكَ؛ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ [الْأَنْعَام: ١٠٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجْدَة: ١٣]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [الْأَنْعَام: ٣٥]، وَفِي رَابِعَةٍ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هُود: ١١٨، ١١٩].

بَلْ بَيَّنَ ﷻ أَنَّ الْهِدَايَةَ لَهُ، وَأَنَّ الْخَلْقَ مَهْمَا عَمِلُوا عَلَى هِدَايَةِ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَلَنْ يَهْتَدِيَ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الْجَاثِيَة: ٢٣].

وَخَاطَبَ رَسُولَهُ ﷺ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ بِهَذَا الْمَعْنَى الْعَظِيمِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يُونُس: ٩٩، ١٠٠]، وَفِي أُخْرَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الْقَصَص: ٥٦]، وَفِي ثَالِثَةٍ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الْمَائِدَة: ٤١]، وَفِي رَابِعَةٍ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النَّحْل: ٣٧]، وَفِي خَامِسَةٍ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النَّمْل: ٨١].

وَبِسَبَبِ هَذَا الِاخْتِلَافِ وَالتَّمَايُزِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَانَتِ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، وَالِاحْتِرَابُ وَالْقِتَالُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاء: ٧٦]، وَيُخَاطِبُ الْمُؤْمِنِينَ يُحَذِّرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء: ١٠١].

حَقَائِقُ نَاصِعَةٌ لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا غُمُوضَ، وَآيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مُحْكَمَةٌ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ وَبَيَانٍ، نَزَلَتْ مِنْ لَدُنْ لَطِيفٍ خَبِيرٍ يُخْبِرُنَا فِيهَا رَبُّنَا جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ طَبِيعَةِ الصِّرَاعِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ، وَأَنَّهُ صِرَاعٌ عَلَى الدِّينِ، لَا عَلَى الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَأَنَّهُ دَائِمٌ مَا دَامَ عَلَى الْأَرْضِ كُفَّارٌ وَمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ لَا يَزَالُونَ جَادِّينَ فِي إِخْرَاجِ النَّاسِ مِنْ دِينِهِمْ لَوِ اسْتَطَاعُوا، وَأَنَّهُمْ مُتَفَانُونَ فِي إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ الْإِيمَانُ، وَمُسْتَمِيتُونَ فِي جَعْلِ كَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ سُفْلَى، وَيَأْبَى اللهُ تَعَالَى إِلَّا أَنْ يُتِمَّ دِينَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَ كَلِمَتَهُ هِيَ الْعُلْيَا؛ وَذَلِكَ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَأْيِيدِهِمْ بِجُنْدِهِ، وَدَحْرِ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [الْبَقَرَة: ٢١٧]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التَّوْبَة: ٣٢، ٣٣]، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

وَإِذَا كَانَ الْكُفَّارُ قَدْ فَعَلُوا بِالرُّسُلِ عليهم السلام مَا فَعَلُوا مِمَّا قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْنَا خَبَرَهُ فِي الْقُرْآنِ، فَكَيْفَ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِأَتْبَاعِ الرُّسُلِ فِي هَذَا الزَّمَانِ؟! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ﴾ [إِبْرَاهِيم: ١٣]،

وَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ قَالُوا لَهُ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، وَالْكُفَّارُ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ عليه السلام تَآمَرُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النَّمل: ٥٦].

وَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى عَنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُمُ اجْتَمَعُوا عَلَى الشَّرِّ، وَتَوَاصَوْا بِالْبَاطِلِ، وَتَمَالَئُوا عَلَى النَّيْلِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ ابْنُ قَبِيلَتِهِمْ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِيهِمْ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦].

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا الْأَصْلُ الْعَظِيمُ الَّذِي قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ، مِنْ دَوَامِ عَدَاوَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا، وَأَنَّهَا عَدَاوَةٌ دِينِيَّةٌ لَا دُنْيَوِيَّةٌ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُخْدَعَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَكْبَرِ خُدْعَةٍ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَهِيَ خُدْعَةُ التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ.

إِنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ضِدَّانِ لَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَنْتَفِيَانِ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ مُحَالًا؛ إِذْ فِي الزَّعْمِ بِإِمْكَانِ اجْتِمَاعِهِمَا وَتَآلُفِهِمَا وَتَعَايُشِهِمَا تَكْذِيبٌ لِمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى مِنْ دَيْمُومَةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَنَفْيٌ لِتَارِيخٍ طَوِيلٍ مِنْ تَنَازُعِهِمَا وَاحْتِرَابِهِمَا، وَفِي الزَّعْمِ بِانْتِفَائِهِمَا تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ الَّذِي أَخْبَرَ بِبَقَائِهِمَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَتَعْطِيلٌ لِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي ابْتِلَاءِ الْبَشَرِ وَامْتِحَانِهِمْ بِبَقَائِهِمَا.

وَأَمَّا التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحَقِّ وَأَتْبَاعِ الْبَاطِلِ فَغَيْرُ وَاقِعٍ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، وَلَا هُوَ مُمْكِنٌ أَيْضًا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مَأْمُورُونَ بِنَشْرِ الْحَقِّ وَنَصْرِهِ، وَالْقَضَاءِ بِهِ عَلَى الْبَاطِلِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ مَدْفُوعُونَ مِنَ الشَّيَاطِينِ إِلَى نَشْرِ بَاطِلِهِمْ وَنَصْرِهِ، وَالْقَضَاءِ بِهِ عَلَى الْحَقِّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَخْضَعَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ لِلْآخَرِ،

وَفِي حَالِ خُضُوعِ أَنْصَارِ أَحَدِهِمَا، وَهَيْمَنَةِ أَنْصَارِ الْآخَرِ يَسُودُ هُدُوءٌ يُسَمِّيهِ الْجَاهِلُونَ تَعَايُشًا سِلْمِيًّا، وَهُوَ خُنُوعٌ وَضَعْفٌ أَصَابَ أَنْصَارَ أَحَدِهِمَا لِحِسَابِ أَنْصَارِ الآخَرِ.

فَإِنْ كَانَ الضَّعْفُ قَدْ أَصَابَ أَنْصَارَ الْحَقِّ لِحِسَابِ جُنْدِ الْبَاطِلِ كُفَّارًا كَانُوا أَمْ مُبْتَدِعَةً ضُلَّالًا؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ وَالْخَوْفَ يَسُودُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي سَادَ فِيهَا الْبَاطِلُ، وَتُسْفَكُ دِمَاءٌ بَرِيئَةٌ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ وَجُنْدِهِ؛ كَمَا حَصَلَ فِي أَزْمَانِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَالِاجْتِيَاحِ التَّتَرِيِّ، ثُمَّ الِاسْتِعْمَارِ بِشِقَّيْهِ الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَكَمَا وَقَعَ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ الْبَاطِنِيِّينَ لَمَّا تَمَكَّنُوا فِي بَعْضِ دِيَارِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَكَمَا يَقَعُ فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي كَانَتِ الْغَلَبَةُ فِيهِ لِصَهَايِنَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ.

بَلْ إِنَّ التَّارِيخَ يُثْبِتُ أَنَّ الظُّلْمَ وَالْبَغْيَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَ أَهْلِ الْبَاطِلِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، فِي حُرُوبٍ عَقَائِدِيَّةٍ شَرْقِيَّةٍ وَغَرْبِيَّةٍ خَلَّفَتْ دُمُوعًا وَدَمَارًا، وَأَفْنَتْ بَشَرًا كَثِيرًا.

وَأَمَّا إِنْ كَانَتِ الدَّائِرَةُ لِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ فَإِنَّ الْعَدْلَ وَالْأَمْنَ يَسُودُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي سَادَ الْحَقُّ فِيهَا؛ كَمَا وَقَعَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا فَتَحُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَحَكَمُوا بَيْنَ الْعِبَادِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَالرَّحْمَةُ، وَبِشَهَادَةِ الْكُفَّارِ مِنَ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَالتُّرْكِ وَاللَّاتِينِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ حُكْمَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَيَّامَ الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَانَ أَعْدَلَ فِيهِمْ وَأَرْحَمَ بِهِمْ مِنْ حُكْمِ مُلُوكِهِمْ وَأَبَاطِرَتِهِمْ، وَمَا نَعِمَتْ كَثِيرٌ مِنْ شُعُوبِهِمْ بِالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ إِلَّا لَمَّا تَفَيَّأَتْ ظِلَالَ حُكْمِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَفْرَادِهِمْ يَهْرُبُونَ مِنْ ظُلْمِ مُلُوكِهِمْ إِلَى عَدْلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَدُونَ الْمُكَذِّبِينَ وَالْمُشَكِّكِينَ فِي ذَلِكَ كَمٌّ كَبِيرٌ مِنْ كُتُبِ التَّارِيخِ، وَشَهَادَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ.

إِنَّ مُصْطَلَحَ التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ، بَلْ فِيهِمَا مَا يُنَاقِضُهُ وَيُبْطِلُهُ، وَلَا وَقَعَ عَمَلِيًّا فِي التَّارِيخِ الْقَدِيمِ وَلَا الْمُعَاصِرِ، وَإِنَّمَا تَمَّ سَكُّ هَذَا الْمُصْطَلَحِ فِي أَرْوِقَةِ السِّيَاسَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ صُدِّرَ لِلْمُسْلِمِينَ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً[1] عَقِبَ انْتِصَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ فِي حَرْبِ الْعَاشِرِ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ إِدْخَالِ النِّفْطِ سِلَاحًا فِي الْحَرْبِ؛ فَاخْتَرَعَ الصَّهَايِنَةُ هَذَا الشِّعَارَ وَرَفَعُوهُ لِتَخْفِيفِ الضَّغْطِ عَلَيْهِمْ، وَرَدِّ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، فَحَصَلَ لَهُمْ مَا أَرَادُوا[2]، ثُمَّ صَارَ سِلَاحًا يَسْتَخْدِمُونَهُ إِذَا رَأَوْا أَنَّ الْمَعَارِكَ لَيْسَتْ فِي صَالِحِهِمْ.

وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ تَمَّ تَطْوِيرُ هَذَا الْمُصْطَلَحِ الْحَادِثِ، وَتَحَوَّلَ إِلَى دَعْوَةٍ فِكْرِيَّةٍ، لَهَا امْتِدَادٌ عَقَدِيٌّ يَسْعَى بِجِدٍّ لِنَشْرِ الْإِلْحَادِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ بِالسَّمَاحِ لِلْمُرْتَدِّينَ بِإِظْهَارِ رِدَّتِهِمْ، وَتَمْكِينِ الْمُنَصِّرِينَ مِنَ الْعَمَلِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَضَاءِ عَلَى عَقِيدَةِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ، وَادِّعَاءِ أَنَّ الْحَقَّ خَفِيٌّ، وَأَنَّ الْأَدْيَانَ قَدْ فَرَّقَتِ الْبَشَرَ، وَلَا يَجْمَعُهُمْ إِلَّا قَبُولُ أَهْلِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، بَلْ إِخْضَاعُ الْحَقِّ لِبَاطِلِهِمُ الْإِلْحَادِيِّ، وَكُلُّ هَذَا الضَّلَالِ يَجْرِي تَرْوِيجُهُ وَنَشْرُهُ، وَالدِّعَايَةُ لَهُ تَحْتَ مُسَمَّى: «التَّعَايُشُ السِّلْمِيُّ» الَّذِي مَا رَأَيْنَاهُ إِلَّا قَيْدًا قُيِّدَ بِهِ أَهْلُ الْحَقِّ عَنْ نَشْرِ حَقِّهِمْ، وَالْمُطَالَبَةِ بِمَا يَجِبُ لَهُمْ، وَرَدِّ الْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ، وَكَانَ هَذَا الشِّعَارُ عَوْنًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فِي نَشْرِ بَاطِلِهِمْ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اغْتَصَبُوهُ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَحُقُوقِهِمْ؛ لِيَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي ظِلِّهِ، وَيَخْدَعُوا بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْطَلِقُونَ إِلَى ظُلْمٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ الِاسْتِعْدَادِ الْجَيِّدِ، وَتَخْدِيرِ

---

(١) على الخطيب أن ينتبه للتاريخ، ويحسب السنوات بما يوافق سنته التي هو فيها؛ لأن عدد السنوات هذا صحيح هذه السنة ١٤٢٧هـ.

(٢) ينظر: تسامح الغرب لعبد اللطيف الحسين (٣٨-٥٣)، والحوار العربي الأوربي، أحمد صوتي الدجاني (١)، والتعايش السلمي لهيو كتسكل (٣).

الْمُسْلِمِينَ، وَهَكَذَا رَأَيْنَا فِيمَا عِشْنَا مِنْ سَنَوَاتٍ مَاضِيَةٍ.

إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَأَمَرَ بِالتَّعَامُلِ مَعَ الْمُخَالِفِينَ كُلٌّ بِحَسَبِ فِعْلِهِ وَجَرِيرَتِهِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ وَلَا بَخْسٍ وَلَا تَعَدٍّ؛ فَالْمُحَارِبُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَهُمُ الْحَرْبُ وَالْقِتَالُ بِمَا يَدْفَعُ شَرَّهُمْ، وَيُزِيلُ خَطَرَهُمْ، وَيَكْسِرُ شَوْكَتَهُمْ. وَأَمَّا الْمُسَالِمُونَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْأَمَانَ، وَقَدْ قَبِلُوا بِحُكْمِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فَلَهُمُ الْحِمَايَةُ وَالذِّمَّةُ وَالْأَمَانُ، تُوَفَّى لَهُمْ عُهُودُهُمْ، وَتُبْذَلُ لَهُمْ حُقُوقُهُمْ، لَا يَظْلِمُونَ وَلَا يُظْلَمُونَ، مَعَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَالْبِرِّ فِيهِمْ، وَتَأْلِيفِهِمْ عَلَى الْإِسْلَامِ لَعَلَّهُمْ يُسْلِمُونَ.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَإِنْ أَظْهَرُوا رِدَّتَهُمْ عُومِلُوا مُعَامَلَةَ الْمُرْتَدِّينَ، وَإِنْ أَخْفَوْهَا عُومِلُوا مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ، وَوُكِلَتْ سَرَائِرُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ مُصْطَلَحَاتٌ مَائِعَةٌ، وَلَا شِعَارَاتٌ بَرَّاقَةٌ خَادِعَةٌ، وَلَا يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ لِمَنْ يُكْمِلُ لَهُمْ نَقْصًا فِي دِينِهِمْ، أَوْ يَدُلُّهُمْ عَلَى خَيْرٍ أَغْفَلَتْهُ نُصُوصُهُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا قَبَضَ رَسُولَهُ ﷺ إِلَّا وَقَدْ أَكْمَلَ دِينَهُ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ ﷺ هَذَا الدِّينَ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَلَا تُخْدَعُوا بِشِعَارَاتِ أَعْدَائِكُمْ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَا كَلَّفَ الْعِبَادَ أَنْ يُغَيِّرُوا الْوَاقِعَ وَهُمْ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُمْ بِالتَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَمْ يَكْتَفِ أَهْلُ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِقُوَّتِهِمُ الْمَادِّيَّةِ فِي حَرْبِهِمْ لِأَهْلِ الْحَقِّ، بَلْ عَمَدُوا إِلَى التَّزْوِيرِ وَالْخِدَاعِ بِالْقَذْفِ بِهَذِهِ الشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ لِيَتَلَقَّفَهَا الْمَخْدُوعُونَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ، وَيَظُنُّوا أَنَّ الْخَلَاصَ سَيَكُونُ بِهَا، فَيَثِقُونَ فِيهَا أَعْظَمَ مِنْ ثِقَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِهَا أَكْثَرَ مِنْ تَمَسُّكِهِمْ بِدِينِهِمْ، وَيُنَافِحُونَ عَنْهَا أَشَدَّ مِنْ مُنَافَحَتِهِمْ عَنْ حُقُوقِهِمْ، ثُمَّ مَا يَلْبَثُونَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يَتَبَيَّنُوا أَنَّهَا كَانَتْ شِعَارَاتٍ كَاذِبَةً، وَأَمَانِيَ خَادِعَةً، قَذَفَ بِهَا الْأَعْدَاءُ إِلَيْهِمْ لِيَخْدَعُوهُمْ لَيْسَ غَيرَ ذَلِكَ، وَرُبَّمَا عَلِمُوا وَلَكِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ فِيهَا أَمَلَ الْمَرِيضِ الْهَالِكِ فِي الْمُسَكِّنَاتِ الَّتِي تُسَكِّنُ أَلَمَهُ وَلَا تُزِيلُ مَرَضَهُ، بَلْ رُبَّمَا زَادَتْهُ مَرَضًا إِلَى مَرَضِهِ.

إِنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَدْعُونَ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ وَهُمْ لَا يَزَالُونَ جَادِّينَ فِي إِنْتَاجِ الْأَسْلِحَةِ الْمُدَمِّرَةِ، وَافْتِعَالِ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ، وَزِيَادَةِ مِيزَانِيَّاتِ التَّسَلُّحِ، وَإِجْرَاءِ التَّجَارِبِ النَّوَوِيَّةِ، وَالسَّعْيِ فِي نَزْعِ أَسْلِحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَمُرَاقَبَتِهِمْ وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانُوا يَنْوُونَ التَّعَايُشَ السِّلْمِيَّ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَلِأَيِّ حَرْبٍ هَذَا السِّلَاحُ كُلُّهُ؟!

إِنَّهُمْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَدْعُونَ فِيهِ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ يَقْتُلُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَيُدَمِّرُونَ بُلْدَانَهُمْ بِوَحْشِيَّةٍ بَالِغَةٍ، وَهَمَجِيَّةٍ لَا يَتَخَيَّلُهَا إِنْسَانٌ، وَيُلْقُونَ

قَنَابِلَهُمُ الْمُدَمِّرَةَ الَّتِي لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ مُقَاتِلٍ وَغَيْرِ مُقَاتِلٍ، وَرَأَيْنَا صُوَرًا مِنْ تَعَايُشِهِمُ السِّلْمِيِّ فِيمَا أَقَامُوهُ مِنْ حُرُوبٍ وَغَزْوٍ لِبُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَقَلَتْ عَدَسَاتُهُمْ قَبْلَ أَيَّام صُوَرًا لِأَطْفَالٍ يَهُودٍ يَكْتُبُونَ عَلَى صَوَارِيخِهِمْ وَقَنَابِلِهِمْ رَسَائِلَ لِأَطْفَالِ لِبْنَانَ يَقُولُونَ فِيهَا: «مُوتُوا مَعَ كُلِّ الْحُبِّ، مُوتُوا بِسَلَامٍ».

وَفِي رِسَالَةٍ أُخْرَى كَتَبَتْ صَبِيَّةٌ يَهُودِيَّةٌ: «صَدِيقِي اللِّبْنَانِيّ: وَاثِقَةٌ جِدًّا أَنَّكَ سَوْفَ تَسْمَعُ رِسَالَتِي قَبْلَ أَنْ تَقْرَأَهَا؛ فَهِيَ قَوِيَّةٌ إِلَى حَدِّ الشَّلَلِ، وَمُدَوِّيَةٌ إِلَى حَدِّ التَّمَزُّقِ، أَشْتَاقُ إِلَيْكَ كَثِيرًا، كُنْ بِالْقَبْرِ»[٣]، وَصَدَقَتْ هَذِهِ الصَّبِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ فِيمَا كَتَبَتْ؛ إِذْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْقَنَابِلُ عَلَى أَهْلِ قَانَا فِي لِبْنَانَ، فَأَوْرَدَتْ كَثِيرًا مِنْ أَطْفَالِهِمْ مَقَابِرَهُمْ[٤].

وَمِنْ صُوَرِ تَعَايُشِهِمُ السِّلْمِيِّ مَعَنَا أَنَّ مَجْلِسَ حَاخَامَاتِهِمْ فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ قَدْ دَعَا الْحُكُومَةَ الْيَهُودِيَّةَ إِلَى إِصْدَارِ الْأَوَامِرِ بِقَتْلِ الْمَدَنِيِّينَ فِي لِبْنَانَ وَغَزَّةَ، مُشِيرًا إِلَى أَنَّ التَّوْرَاةَ تُجِيزُ قَتْلَ الْأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ فِي زَمَنِ الْحَرْبِ[٥].

وَأَمَّا أَذْنَابُهُمْ مِنْ بَنِي جِنْسِنَا فَكَمْ مَلَئُوا الْأَسْمَاعَ وَالْأَبْصَارَ دَاعِينَ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ، وَنَبْذِ الْعَصَبِيَّةِ لِلدِّينِ، ثُمَّ مَا رَأَيْنَاهُمْ يَتَعَايَشُونَ هُمْ سِلْمِيًّا مَعَ مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّعَايُشِ السِّلْمِيِّ؛ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ الْمُحَارِبِينَ لَهُمْ، يَسْخَرُونَ مِنْ دِينِهِمْ، وَيُحَرِّضُونَ الْأَعْدَاءَ عَلَيْهِمْ، وَيَدُلُّونَ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَقْبَلُونَ فِي صُحُفِهِمْ وَفَضَائِيَّاتِهِمْ إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤَدْلَجًا لِخِدْمَةِ الْأَعْدَاءِ مِثْلَهُمْ، حَتَّى سُمُّوا

---

(٣) بثت هذه الرسائل في وسائل الإعلام المقروءة والمرئية، وعرضت صور الصبايا اليهوديات وهن يكتبن هذه الرسائل على الصواريخ والقذائف.

(٤) هذا إشارة إلى المذبحة التي قضى فيها جمع كثير من أهل قانا أكثرهم أطفال ونساء جراء القصف الإسرائيلي عليهم.

(٥) نشر هذه الفتوى مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية على الشبكة العالمية.

بِالمَارِينْزِ الْعَرَبِ مِنْ شِدَّةِ تَفَانِيهِمْ فِي حَرْبِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ، وَخِدْمَتِهِمْ لِأَعْدَائِهِمْ، فَيَا لَهُ مِنْ تَعَايُشٍ سِلْمِيٍّ نَطَقُوا بِهِ، وَدَعَوْا غَيْرَهُمْ إِلَيْهِ! وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى ظُلْمِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ.

تِلْكُم يَا عِبَادَ اللَّهِ حَقِيقَةُ هَذِهِ الدَّعَاوَى الَّتِي لَا يُصَدِّقُهَا مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مُسْكَةَ عَقْلٍ، فَضْلًا عَنْ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ يَرَى أَنَّ الْأَحْدَاثَ تُكَذِّبُهَا، وَيَرَى أَنَّ تِلْكَ الشِّعَارَاتِ أَضْحَتْ مِنْ أَسْلِحَةِ الْأَعْدَاءِ يَسْتَخْرِجُونَهَا مَتَى أَرَادُوا الْمُنَاوَرَةَ وَالْخِدَاعَ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَا يُلْدَغُ مُؤْمِنٌ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، وَقَدْ لُدِغَ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ جُحُورِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ، فَمَتَى يَسْتَفِيقُونَ؟!

وَلَا خَلَاصَ لِأَهْلِ الْحَقِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَاسْتِضْعَافِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ لَهُمْ إِلَّا بِتَوْبَتِهِمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَتَعْظِيمِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَنَبْذِ كُلِّ مَا لَا يَتَوَافَقُ مَعَهَا أَيًّا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَمَهْمَا كَانَ قَائِلُهُ، مَعَ إِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀

٣٦٤- القلم الطيب والقلم الخبيث

٨/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٢-٤] أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ تَفَرَّدَ بِالْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالشَّرْعِ، فَلَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا شَرْعَ يُوصِلُ إِلَى رِضَاهُ إِلَّا شَرْعُهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، مَنْ أَطَاعَهُ نُجِّيَ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَمَنْ عَصَاهُ فَإِنَّهُ يَضُرُّ نَفْسَهُ وَلَا يَضُرُّ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ فِتَنُ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَغَرِقَ فِي لُجَجِهَا مَنْ غَرِقَ، وَعَصَمَ اللهُ تَعَالَى مَنْ عَصَمَ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِلُزُومِ التَّقْوَى ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: كَانَتِ الْبَعْثَةُ النَّبَوِيَّةُ مِيلَادًا جَدِيدًا لِأُمَّةٍ جَدِيدَةٍ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى لَهَا الْخَيْرِيَّةَ عَلَى كُلِّ الْأُمَمِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَاخْتَصَّهَا بِأَحْسَنِ كُتُبِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْهَا بِخَاتَمِ رُسُلِهِ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٦٤].

نَعَمْ وَاللَّهِ كَانُوا قَبْلَ بَعْثَتِهِ ﷺ فِي ضَلَالِ الشِّرْكِ وَالْجَهْلِ الَّذِي أَوْرَثَهُمُ الذُّلَّ وَالضَّعْفَ وَالتَّفَرُّقَ، وَسَوَّغَ لَهُمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْإِثْمِ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ.

إِنَّهَا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا تَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ وَلَا الْحِسَابَ إِلَّا نُزَّاعٌ مِنْهُمْ كَانُوا يَقْرَأُونَ لَهُمْ وَيَكْتُبُونَ وَيَحْسُبُونَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[(١)].

وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِهَا ﷺ الْأَمْرُ بِالْقِرَاءَةِ، وَجَاءَ ذِكْرُ الْقَلَمِ فِي أَوَّلِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ؛ مِمَّا يَشِي بِأَهَمِّيَّةِ الْقَلَمِ وَشَرَفِهِ وَمَكَانَتِهِ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعَلِّمَ الْبَشَرَ دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى الْقَلَمِ، وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْقَلَمُ وَسِيلَةَ التَّعْلِيمِ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ وَزَادَ مِنْ شَرَفِهِ وَعُلُوِّهِ إِقْسَامُ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ عَلَى الْوَحْيِ الْمَكْتُوبِ ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢]، وَالْقَلَمُ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ لِيُكْتَبَ بِهِ الْقَدَرُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[(٢)].

---

(١) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري في الصوم، باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب» (١٨١٤)، ومسلم في الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٠٨٠).

(٢) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أبو داود في السنة، باب القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة (ن) وقال: حسن غريب (٣٣١٩)، والطيالسي (٥٧٧)، وأحمد (٥/ ٣١٧)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤)، وأبو القاسم البغوي في مسند ابن الجعد (٣٤٤٤)، والبزار (٢٦٨٧)، واللالكائي في السنة (٣٥٧)، وابن وهب في القدر (٢٦)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود. =

وَكَمَا بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْقَلَمَ خُلِقَ أَوَّلًا لِكِتَابَةِ المَقَادِيرِ فَقَدْ بَيَّنَ ﷺ تَارِيخَ الْقَلَمِ فِي الْبَشَرِ، وَذَكَرَ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ ﷺ عَنْ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ**»(٣).

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ مَقَادِيرُ الْعَامِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَان: ٤]، وَبِالْقَلَمِ يُكْتَبُ مَصِيرُ الْأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**يَدْخُلُ المَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ**»(٤).

وَبِالْقَلَمِ يَكْتُبُ المَلَائِكَةُ أَقْوَالَ المُكَلَّفِينَ وَأَفْعَالَهُمْ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٨]؛ أَيْ: بِكِتَابَةِ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفِطار: ١٠-١٢].

وَبِالْقَلَمِ يَكْتُبُ النَّاسُ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى كِتَابَتِهِ مِمَّا تَنْتَظِمُ بِهِ مَصَالِحُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَعْلَى ذَلِكَ وَأَشْرَفُهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدِ اتَّخَذَ النَّبِيُّ ﷺ كُتَّابًا يَكْتُبُونَ الْوَحْيَ، وَقَصَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ ﷺ: «**لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ**

= وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا عند: الضياء المقدسي في المختارة (٣٦٠-٣٦١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٦٨) رقم (١٢٥٠٠).
كما جاء موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما عند: ابن أبي شيبة (٧/ ٢٥٩)، والحاكم (٢/ ٤٩٢)، وقد مضى عرض الخلاف في أول المخلوقات في مجلد (١) خطبة رقم (١) بداية الخلق والتكليف، حاشية (٤).

(٣) أخرجه من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطيالسي (٤٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦-١٦٧)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧) رقم (٧٨٧١)، وصححه ابن حبان (٣٦١).

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفيه خلق الآدمي في بطن أمه (٢٦٤٤)، وأحمد (٤/ ٦).

كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٥].

ثُمَّ رَخَّصَ لَهُمْ فِي كِتَابَةِ كُلِّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما فَقَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ عَنْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ حَتَّى ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: **اكْتُبْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٦].

وَرُبَّمَا قَدِمَ عَلَيْهِ وَفْدٌ مِنَ الْوُفُودِ فَعَلَّمَهُمْ سُنَّةً مِنَ السُّنَنِ، وَبَلَّغَهُمْ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ فَيَطْلُبُ بَعْضُهُمْ أَنْ يُكْتَبَ لَهُ ذَلِكَ، فَيَقُولُ ﷺ: «**اكْتُبُوا لِأَبِي فُلَانٍ**»[٧].

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِمَّا يَجْرِي أَجْرُهُ لِلْمُسْلِمِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَأَعْظَمُ وَسِيلَةٍ لِحِفْظِ هَذَا الْعِلْمِ الْمُنْتَفَعِ بِهِ: كِتَابَتُهُ، وَانْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ مَا خَطَّتْهُ أَقْلَامُ أَسْلَافِكُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْكُمْ تُدْرِكُوا قِيمَةَ الْقَلَمِ وَالْكِتَابَةِ.

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ وَأَيَّامُهُمْ، وَتُدَوَّنُ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ

---

(٥) أخرجه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: مسلم في الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٣٠٠٤)، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢)، والدارمي (٤٥٠)، وأبو يعلى (١٢٨٨).

(٦) أخرجه أبو داود في العلم، باب كتاب العلم (٣٦٤٦)، وأحمد (٢/ ١٦٢)، والدارمي (٥٠١) والطبراني في الكبير (١٣/ ٤٢٢) رقم (١٤٢٦٤)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (١/ ١٠٤-١٠٥).

(٧) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في العلم، باب كتابة العلم (١١٢)، ومسلم في الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها ... (١٣٥٥)، وهذا الرجل المبهم هو أبو شاه، وهو من أهل اليمن كما جاء في الروايات الأخرى للبخاري، وكذلك سُمِّي في رواية مسلم.

وَأَخْبَارُهُمْ، وَتُحْفَظُ تَجَارِبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، وَمَا وَصَلَتِ الْبَشَرِيَّةُ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ تَنَوُّعِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، وَتَقَدُّمِ الْعُمْرَانِ وَالصِّنَاعَاتِ إِلَّا بِمَا دُوِّنَ مِنْ تَجَارِبِ السَّابِقِينَ وَأَبْحَاثِهِمْ وَخِبْرَاتِهِمْ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُتَخَيَّلَ حَالُ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِلَا قَلَمٍ وَعِلْمٍ وَكِتَابَةٍ، إِلَّا كَحَالِ الْحَيَوَانِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ شَيْئًا.

وَبِالْقَلَمِ تُكْتَبُ عُقُودُ النَّاسِ وَشُرُوطُهُمْ فِي السِّلْمِ وَالْحَرْبِ، وَفِي التِّجَارَةِ وَالْبَيْعِ، وَفِي الْقَرْضِ وَالرَّهْنِ وَالدَّيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، وَفِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ رضي الله عنه: «**اكْتُبِ الشَّرْطَ بَيْنَنَا**»(٨)، «**هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قُرَيْشًا**»(٩)، وَدَعَا ﷺ مُلُوكَ الْعَالَمِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِكُتُبٍ كَتَبَهَا وَأَرْسَلَهَا إِلَيْهِمْ.

وَبَلَغَ مِنْ عِنَايَتِهِ ﷺ بِالْقَلَمِ أَنَّهُ جَعَلَ فِدَاءَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِدَاءَ نَفْسِهِ بِالمَالِ مِنْ أَسْرَى الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ أَنْ يُعَلِّمَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَشَرَةً مِنْ غِلْمَانِ المَدِينَةِ الْكِتَابَةَ، فَكَثُرَتِ الْكِتَابَةُ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ رضي الله عنه: «**عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْكِتَابَةَ وَالْقُرْآنَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١٠).

---

(٨) أخرجه من حديث البراء رضي الله عنه في حديث طويل في قصة الحديبية: البخاري في المغازي، باب عمرة القضاء (٤٠٠٥)، ومسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبيه واللفظ له (١٧٨٣).

(٩) أخرجه من حديث على رضي الله عنه في حديث طويل في قصة مقاتلة علي رضي الله عنه للخوارج: أحمد (١/ ٨٦)، وأبو يعلى (٤٧٤)، والبيهقي (٨/ ١٨٠)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٦٦)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات (٦/ ١٣٧).

(١٠) أخرجه أبو داود في الإجارة، باب في كسب المعلم (٣٤١٦)، وابن ماجه في التجارات، باب الأجرة على تعلم القرآن (٢١٥٧)، وابن أبي شيبة (٤/ ٣٤١)، وأحمد (٥/ ٣١٥)، وصححه الحاكم (٢/ ١٢٥)، والضياء المقدسي في المختارة (٣٠٤-٣٠٦)، والبيهقي (٦/ ١٢٥)، وضعفه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الهداية، وذكر له شاهدًا آخر من حديث أبي رضي الله عنه (٢/ ١٨٨)، لكن صححه الألباني في صحيحي أبي داود وابن ماجه.

وَرَخَّصَ ﷺ لِلنِّسَاءِ فِي تَعَلُّمِ الْكِتَابَةِ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ الشِّفَاءِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنها قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا عِنْدَ حَفْصَةَ فَقَالَ لِي: أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيهَا الْكِتَابَةَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١١).

وَالْكَلِمَةُ الْمَنْطُوقَةُ وَالْمَكْتُوبَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ فِي مَعَاشِهِمْ أَوْ مَعَادِهِمْ، وَتِلْكَ هِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِمَّا يَضُرُّ النَّاسَ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ.

وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ، كَمَا أَنَّ الْكَلِمَةَ الْخَبِيثَةَ كَالشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى مَثَلًا فِي الْقُرْآنِ؛ لِيُسَارِعَ النَّاسُ إِلَى طَيِّبِ الْكَلِمِ، وَيُجَانِبُوا خَبِيثَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ

---

(١١) أخرجه أبو داود في الطب، باب ما جاء في الرقى (٣٨٨٧)، وأحمد (٣٧٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣١٧٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢١٨٤)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١٣) رقم (٧٩٠)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣٢٦)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٤/ ٦٣)، وأخرجه عبد الرزاق بلاغًا من حديث الزهري رحمه الله تعالى (١٩٧٦٨).

وقد جاء ما يعارض هذا الحديث وهو ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لاتسكنوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور» أخرجه الحاكم وصححه وتعقَّبَهُ الذَّهَبِي فقال: بل هو موضوع، وآفته عبد الوهاب، قال أبو حاتم: كذاب (٢/ ٤٣٠)، واستنكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٦٩).

وعبد الوهاب هو ابن الضحاك، قال أبو حاتم: كان يكذب. الجرح والتعديل (٦/ ٧٤)، وجاء من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن لا يصح شيء منها، والحديث منكر في متنه فكيف يرد فيه: لا تسكنوهن الغرف، والنبي ﷺ أسكن نساءه الغرف، وقد أفاض محمد شمس الحق آبادي في رد ذلك في عون المعبود (١٠/ ٢١٧)، وأفرد رسالة بعنوان: (عقود الجمان في جواز تعليم الكتابه للنسوان).

مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

وَإِنَّمَا يُعْرَفُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ مِنَ الْخَبِيثِ مَنْطُوقًا كَانَ أَمْ مَكْتُوبًا بِعَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ اعْتِبَارٍ لِقَائِلِهِ وَمَصْدَرِهِ، فَمَا كَانَ مُوَافِقًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ الَّذِي يُرْفَعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠].

وَمَا كَانَ مُعَارِضًا لَهُمَا فَهُوَ الْكَلَامُ الْخَبِيثُ، وَلَا يَصْدُرُ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ وَطَيِّبَةٍ، كَمَا أَنَّ مَصْدَرَ الْكَلَامِ الْخَبِيثِ كُلُّ خَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النُّور: ٢٦] قَالَ جُمْهُورُ السَّلَفِ: الْكَلِمَاتُ الْخَبِيثَةُ لِلْخَبِيثِينَ، وَمِنْ كَلَامِ بَعْضِهِمْ: الْأَقْوَالُ وَالْأَفْعَالُ الْخَبِيثَةُ لِلْخَبِيثِينَ(١٢).

(١٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٤٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. أخرجه الطبري (١٨/ ١٠٦-١٠٧). وروى الطبري مثله عن مجاهد وابن نجيح والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء رحمة الله تعالى عليهم. ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٠٨).

وقيل: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء،، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. قاله ابن زيد فيما رواه الطبري (١٨/ ١٠٨). ورجح الطبري القول الأول؛ لأن الآيات في سياق حادثة الإفك، ومقولتهم الخبيثة في عائشة رضي الله عنها، ورجحه القرطبي بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]؛ أي: عائشة وصفوان رضي الله عنهما مبرؤون مما يقول الخبيثون والخبيثات فيهم. ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢١١).

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشه رضي الله عنها من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾» (٣/ ٢٧٩).

وَالْكَذِبُ مِنْ أَخْبَثِ الْكَلَامِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَتَرْوِيجِ الْبَاطِلِ، وَغِشِّ النَّاسِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْكَذِبُ يَبْلُغُ الْآفَاقَ عَبْرَ صَحِيفَةٍ مَكْتُوبَةٍ، أَوْ قَنَاةٍ مَعْرُوضَةٍ، أَوْ إِذَاعَةٍ مَسْمُوعَةٍ؛ ازْدَادَ خُبْثًا إِلَى خُبْثِهِ. وَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الْقَائِمِينَ عَلَى وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ أَصْنَافِ الْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثَاتِ، فَإِنَّهُمْ يُرَوِّجُونَ لِكُلِّ فِكْرٍ وَمَنْهَجٍ وَسُلُوكٍ خَبِيثٍ، وَيَمْتَهِنُونَ الْكَذِبَ الْمَفْضُوحَ فِي ذَلِكَ، وَلَا يَحْتَرِمُونَ عُقُولَ الْمُتَلَقِّينَ عَنْهُمْ، وَلَا يَخْجَلُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ، وَقَدْ دَأَبَ عَوَامُّ النَّاسِ عَلَى وَصْفِ مَا يُشَكِّكُونَ فِي صِحَّتِهِ بِأَنَّهُ كَلَامُ جَرَائِدَ، أَوْ كَلَامُ إِعْلَامٍ.

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ خُطُورَةِ هَذَا الْمَسْلَكِ الْخَبِيثِ، وَبَيَّنَ «**أَنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَزِلُّ بِهَا إِلَى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١٣).

وَرَأَى ﷺ مِنْ أَصْنَافِ الْمُعَذَّبِينَ: كَذَّابًا يَبْلُغُ كَذِبُهُ الْآفَاقَ، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْهُ، فَقَالَ عليه السلام: «**أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(١٤).

وَالْمُسْلِمُ كَمَا هُوَ مَأْمُورٌ بِمُجَانَبَةِ كُلِّ خَبِيثٍ وَخَبِيثَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَهُوَ كَذَلِكَ مَأْمُورٌ بِمُجَانَبَةِ الْخَبِيثِ مِنَ الْكَلَامِ سَمَاعًا مِنْ قَنَاةٍ أَوْ إِذَاعَةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ مِنْ صَحِيفَةٍ أَوْ مَجَلَّةٍ أَوْ رِوَايَةٍ أَوْ كِتَابٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ الْخَبِيثَ يُفْسِدُ قَلْبَهُ، وَيَصْرِفُهُ عَنْ طَيِّبِ الْكَلَامِ.

وَإِذَا كَانَ الْمُسْلِمُ مَأْمُورًا بِاجْتِنَابِ اللَّغْوِ مَنْطُوقًا كَانَ أَمْ مَكْتُوبًا وَهُوَ فِي الشَّرِّ

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦١١٢)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(١٤) أخرجه من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه في حديث طويل في رؤيا النبي ﷺ: البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٢٠).

وَالْإِفْسَادِ أَخَفُّ مِنَ الْخَبِيثِ، فَكَيْفَ إِذَنْ بِخَبِيثِ المَنْطُوقِ وَالمَكْتُوبِ، وَمِنْ صِفَاتِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ اللَّغْوِ يَكُونُ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ مَصَادِرِهِ وَوَسَائِلِهِ الَّتِي ابْتُلِيَ النَّاسُ بِهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ أَشَدَّ ابْتِلَاءٍ.

وَجَاءَ النَّهْيُ عَنْ حُضُورِ المَجَالِسِ الَّتِي يُخَاضُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى جَهْلًا أَوِ اسْتِكْبَارًا، وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَهْلَهَا ظَالِمِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

بَلْ جَاءَ أَنَّ مَنْ جَالَسَ المُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَمْ يَكْتُبْ أَوْ يَقُلْ شَيْئًا ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] فَكَمْ مِنَ المُسْلِمِينَ مَنْ يَقْتَنِي مِنْ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ وَفَضَائِيَّاتٍ قَدْ كَرَّسَتْ مُهِمَّتَهَا لِلاسْتِهْزَاءِ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّلَاعُبِ بِشَرِيعَتِهِ، وَإِخْضَاعِهَا لِآرَاءِ الْبَشَرِ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، وَلَا يُحَرِّكُ ذَلِكَ سَاكِنًا عِنْدَ مَنْ يَقْتَنِيهَا!!

بَلْ يَضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ، وَيَنَامُ مِلْءَ جَفْنِهِ، وَكَأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَعْنِيهِ، وَلِسَانُ حَالِهِ أَنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا يَحْمِيهِ، وَقَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ لِمَا يُكْتَبُ وَيُنْطَقُ مِنْ خَبِيثِ الْكَلَامِ وَرَدِيئِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُحَاسَبُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنِ اسْتِحْكَامِ الْغَفْلَةِ، وَتَمَكُّنِ الْهَوَى، وَذَهَابِ الْغَيْرَةِ عَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُخَفِّفَ عَنَّا وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ أَنَارَ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ، وَجَعَلَ مِنْ عِبَادِهِ هُدَاةً مُهْتَدِينَ، لَا ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ، أَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَأَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ الْمُذْنِبِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَإِلَهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِمَامُ الْمُرْسَلِينَ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَسَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا رَافِعَةُ النِّعَمِ، جَالِبَةُ النِّقَمِ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْكِتَابَةُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قَلَمٍ لَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِذَا كَانَ قَلَمُهُ مَصْدَرَ ضَرَرٍ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ فَبِئْسَ الْقَلَمُ، وَبِئْسَ صَاحِبُهُ، وَكَسْرُهُ خَيْرٌ مِنْ بَقَائِهِ.

إِنَّ الْكِتَابَةَ أَضْحَتْ حِرْفَةً فِي هَذَا الزَّمَنِ، وَكُلُّ صَاحِبِ فِكْرٍ وَمَبْدَإٍ يُنَافِحُ عَنْ فِكْرِهِ وَمَبْدَئِهِ بِقَلَمِهِ، وَمِنَ الْكُتَّابِ مَنْ يَتَأَكَّلُ بِكِتَابَتِهِ فَيَنْتَقِلُ مِنْ أَقْصَى الشَّمَالِ إِلَى أَقْصَى الْيَمِينِ، وَيُثْنِي الْيَوْمَ عَلَى مَنْ كَانَ يَشْتُمُ بِالْأَمْسِ؛ لِأَنَّهُ يَكْتُبُ لِمَنْ يَدْفَعُ أَكْثَرَ، أَوْ يَدُورُ مَعَ الْقَوِيِّ حَيْثُ كَانَ، وَكَثِيرٌ مِنْ كُتَّابِ الصُّحُفِ وَالْمَجَلَّاتِ كَانُوا أَيَّامَ الْمَارْكِسِيَّةِ مِنْ أَشَدِّ أَعْدَاءِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْإِمْبِرْيَالِيَّةِ، وَبَعْدَ أُفُولِ الشُّيُوعِيَّةِ انْتَقَلُوا

بِكُلِّ صَفَاقَةٍ وَوَضَاعَةٍ إِلَى اللِّيبْرَالِيَّةِ يَتَسَوَّلُونَ عَلَى أَبْوَابِهَا، وَيَخْطُبُونَ وُدَّ أَصْحَابِهَا، حَتَّى صَارُوا أَشَدَّ إِمْبِرْيَالِيَّةً مِنْ أَهْلِهَا.

وَمِنْ أَصْحَابِ الْأَقْلَامِ مَنْ يَتَأَكَّلُ بِالشَّهَوَاتِ وَالْغَرَائِزِ، فَيَتَقَيَّأُ انْحِرَافَاتِهِ وَشُذُوذَاتِهِ الْجِنْسِيَّةَ عَلَى أَوْرَاقِهِ؛ لِيُشَكِّلَ مِنْهَا رِوَايَةً تُغْوِي الْقَارِئِينَ وَالْقَارِئَاتِ، وَتَسْتَهْوِي الْمُرَاهِقِينَ وَالْمُرَاهِقَاتِ، وَإِذَا مَا أَرَادَ شُهْرَةً وَاسِعَةً، وَرَوَاجًا لِرِوَايَتِهِ، وَحِمَايَةً لَهُ وَلَهَا فِي الدَّوَائِرِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ وَالصَّلِيبِيَّةِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُضَمِّنَ رِوَايَتَهُ سُخْرِيَةً بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ وَعَلَى قَدْرِ سُخْرِيَتِهِ بِمُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ يَنَالُ نَصِيبَهُ مِنَ الْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ، وَيَحْصُدُ الْجَوَائِزَ وَالْهِبَاتِ وَالْأَوْسِمَةَ، وَلَرُبَّمَا بَلَغَ بِذَلِكَ جَائِزَةَ نُوبِلَ لِلْأَدَبِ، كَمَا حَازَهَا الْكَاتِبُ الْهَالِكُ نَجِيب مَحْفُوظ عَلَى رِوَايَتِهِ الَّتِي سَخِرَ فِيهَا بِكُلِّ مُقَدَّسَاتِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَنَ فِي نِهَايَتِهَا مَوْتَ الْإِلَهِ لِصَالِحِ الْمَادِّيَّةِ، فِي رَمْزِيَّةٍ جَبَانَةٍ، وَإِلْحَادٍ صَارِخٍ، وَزَنْدَقَةٍ ظَاهِرَةٍ، تَعَالَى اللهُ عَنْ إِلْحَادِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا[١٥].

إِنَّ هَذَا الْكَاتِبَ الْهَالِكَ الَّذِي امْتَلَأَتِ الصُّحُفُ بِالْكِتَابَةِ عَنْهُ، وَأَفْرَدَتْ لِسِيرَتِهِ وَغَوَايَتِهِ صَفَحَاتٍ كَامِلَةً[١٦] لَا تُفْرَدُ لِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ، بَلْ وَلَا لِلزُّعَمَاءِ، مَا هُوَ فِي

(١٥) وهي رواية «أولاد حارتنا» التي صور فيها الدنيا بالحارة، وأولادها هم البشر والملائكه والشياطين، وجعل الجبلاوي المتسلط في روايته على البقية رمزًا لله تعالى، وقاسم رمزًا للنبي ﷺ، وجبل رمزًا لموسى عليه السلام، ورفاعة رمزًا لعيسى عليه السلام، وعرفة رمزًا للعلم الذي يقتل الجبلاوي.

(١٦) أكثر الصحف أفردت بين ثلاث وأربع صفحات كاملة، وبعضها ملونة عن هذا الروائي الهالك، وخلعوا عليه ألقابًا، ووصفوه بأوصاف لم يحظ بعشرها كبار العلماء ولا الزعماء ولا كبار الأطباء والمهندسين. هذا في يوم الخميس المنصرم، ويتوقع أن يستمر هذا التطبيل عدة أيام أخرى، كما أن القنوات الفضائية العربية قد خصته ببرامج طويلة عن حياته وأقواله ورواياته، وعرضت أقوال أقرانه وتلامذته والمعجبين به، فيها تلبيس عجيب وخداع لعامة الناس.

وَاقِعِ الْأَمْرِ إِلَّا خَبِيثٌ يَحْمِلُ قَلَمًا خَبِيثًا، سَطَّرَ بِهِ فِكْرَهُ الْخَبِيثَ، فَهُوَ حَامِلُ هَمِّ إِحْيَاءِ الْفِكْرِ الْفِرْعَوْنِيِّ، وَهُوَ الدَّاعِي إِلَى الْفِكْرِ الِاشْتِرَاكِيِّ، وَيَكْفِيهِ سَبْقًا فِي الْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ أَنَّهُ التِّلْمِيذُ الْوَفِيُّ لِلنَّصْرَانِيِّ الْقِبْطِيِّ سَلَامَة مُوسَى الْحَاقِدِ عَلَى كُلِّ شَعِيرَةٍ مِنْ شَعَائِرِ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِي كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى نَقْلِ مِصْرَ مِنْ إِسْلَامِهَا إِلَى الْفِرْعَوْنِيَّةِ(١٧).

إِنَّ هَذَا الرِّوَائِيَّ الْهَالِكَ لَمْ يَخْرُجْ فِي جُلِّ رِوَايَاتِهِ عَنْ أَصْلَيْنِ عَاشَ حَيَاتَهُ مِنْ

---

(١٧) يقول نجيب محفوظ: كان سلامة موسى هو الراعي والمربي الأدبي لي، نشر لي وأنا بعد في الثانوي، ثم في الجامعة عشرات المقالات وكتابًا مترجمًا وأول رواياتي، إنه أستاذي العظيم. ينظر: نجيب محفوظ بين الإلحاد والإيمان، ديب علي حسن (ص: ٣٠).
ويقول أيضًا: كان لسلامة موسى أثر قوي في تفكيري؛ فقد وجَّهَنِي إلى شيئين مهمين هما: العلم والاشتراكية، ومنذ دخلا مخّي لم يخرجا منه إلى الآن. ينظر: نجيب محفوظ يتذكر، لجمال الغيطاني (ص: ٨٨).
قلت: والاشتراكيون يريدون بالعلم: المادة التي يلزم منها إنكار الغيب بما فيه إنكار الرب جل في علاه.
ويقول أستاذه سلامة موسى: إذا خرج الدين من دائرة علاقة الإنسان بالكون، وأخذ مقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وامتلاك وحكومة ونحو ذلك، فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به. ينظر: مؤلفاته الكاملة (١/ ٢٣).
ويقول أيضًا: الرابطة الدينية وقاحة؛ فإننا أبناء القرن العشرين أكبر مِنْ أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا. المؤلفات الكاملة (١/ ٦٦١).
يريد بذلك الوصول إلى أن فكرة الدين والإيمان بالرب جل جلاله سيقضي عليها العِلْم المادي، حتى يصبح الناس ملاحِدَة على شاكلته وشاكلة أساتذته الماديين الملحدين، تعالى الله سبحانه وتقَدَّسَ عن إفْكِهِ وزَعْمِهِ، وسيبقى لعدو الله تعالى مايسوؤه مِنْ بقاء الدين وعُلُوِّه وانْدِحَارِ الإلحاد وسفوله. ينظر في روايته الإلحادية: دراسة المضمون الروائي في أولاد حارتنا، عبدالله المهنا، دار عالم الكتب. وجوانيات الرموز المستعارة لكبار أولاد حارتنا، د. عبد العظيم المعطني، والطريق إلى نوبل عبر حارة نجيب محفوظ د.محمد يحيى ومعتز شكري، ومجلة البيان، الأعداد (١٠٩-١١٠-١٢٩).

أَجْلِهِمَا، وَكَرَّسَ قَلَمَهُ فِي خِدْمَتِهِمَا: وَهُمَا الدَّعْوَةُ إِلَى الْإِلْحَادِ بِاسْمِ الْعِلْمِ فِي مُقَابِلِ الدِّينِ، وَنَشْرُ الْإِبَاحِيَّةِ وَالشُّذُوذِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ.

قَابَلَهُ أَحَدُ الْمُعْجَبِينَ بِهِ فَقَالَ لَهُ: مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّكَ أَصْبَحْتَ تَمِيلُ إِلَى الْفِكْرِ الْمَارْكِسِيِّ؛ فَالْمَارْكِسِيُّونَ فِي رِوَايَاتِكَ هُمُ الْأَبْطَالُ الشُّهَدَاءُ، وَحَامِلُو الزُّهُورِ الْحَمْرَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُضِيئُونَ الْحَيَاةَ بِنُورِ الْأَمَلِ فِي الظُّلُمَاتِ ... فَرَدَّ عَلَيْهِ الرِّوَائِيُّ الْهَالِكُ: لَقَدْ شَخَّصْتَنِي فَأَجَدْتَ التَّشْخِيصَ(١٨).

وَقَامَ أَحَدُ مُرِيدِيهِ وَالْمُعْجَبِينَ بِهِ وَبِرِوَايَاتِهِ بِقِرَاءَتِهَا وَسَبْرِ مَوَادِّهَا، فَعَرَفَ الْقَاسِمَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهَا، وَأَعْلَنَ نَتِيجَةَ ذَلِكَ فَقَالَ: حَفَلَتْ رِوَايَاتُهُ بِحَشْدٍ هَائِلٍ مِنَ الْبَغَايَا وَالرَّاقِصَاتِ وَالْقَوَّادِينَ وَالدَّيُّوثِينَ وَاللُّصُوصِ وَالنَّشَّالِينَ وَالْفُتُوَّاتِ وَصَانِعِي الْعَاهَاتِ وَالْمُرْتَشِينَ وَالْمُلْحِدِينَ(١٩).

وَفِي مَقَامٍ آخَرَ يَزْعُمُ أَنَّ الْغَرْبِيِّينَ حَلُّوا الْمُشْكِلَةَ الْجِنْسِيَّةَ بِنَشْرِ الْإِبَاحِيَّةِ، وَأَنَّ هَذَا الْحَلَّ فِي نَظَرِهِ نَاجِعٌ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَقُولُ: أَمَّا عَنْ حَلِّ الْمُشْكِلَةِ الْجِنْسِيَّةِ فِي مُجْتَمَعِنَا فَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهُ، وَلَا أَنْتَ تَكْتُبُهُ! وَلَكِنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ: «أُورُوبَّا تَمَكَّنَتْ مِنْ حَلِّ الْمُشْكِلَةِ الْجِنْسِيَّةِ بِطَرِيقَتِهَا الْخَاصَّةِ، تَجِدُ أَنَّ الْبِنْتَ عُمْرُهَا خَمْسَةَ عَشَرَ عَامًا تَلْتَقِي فِي حُرِّيَّةٍ تَامَّةٍ مَعَ أَيِّ شَابٍّ، لَا مُشْكِلَةَ جِنْسِيَّةٍ، وَلَا مُشْكِلَةَ عَفَافٍ وَلَا بَكَارَةٍ، وَحَتَّى إِذَا أَثْمَرَتِ الْعَلَاقَةُ طِفْلًا، فَالطِّفْلُ يَذْهَبُ إِلَى الدَّوْلَةِ كَيْ تُرَبِّيَهِ إِذَا كَانَتْ أُمُّهُ لَا تُرِيدُ»(٢٠).

وَهَكَذَا يُرِيدُ لِبَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُنَّ بَغَايَا وَفَاسِقَاتٍ كَمَا كَانَ نِسَاءُ الْغَرْبِ.

---

(١٨) قائل ذلك هو خليل عبد الكريم، كما نقله أنور الجندي في كتابه: كتاب العصر (٢٠١).
(١٩) المصدر السابق (٢٠١).
(٢٠) نجيب محفوظ بين الالحاد والإيمان، ديب علي حسين (ص: ١٤٤).

لَقَدْ مَضَى هَذَا الْهَالِكُ إِلَى رَبٍّ عَدْلٍ سَيُحَاسِبُهُ عَلَى مَا خَطَّ بِقَلَمِهِ وَلَا يَظْلِمُهُ شَيْئًا، وَلَكِنَّ الْجَرِيمَةَ كُلَّ الْجَرِيمَةِ، وَالتَّزْوِيرَ كُلَّ التَّزْوِيرِ مَا يُمَارِسُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْإِعْلَامِيِّينَ وَالصَّحَفِيِّينَ مِنْ تَضْلِيلِ الْعُقُولِ، وَمُمَارَسَةِ الْكَذِبِ عَلَى المَكْشُوفِ بِالْإِشَادَةِ بِهَذَا الْهَالِكِ، مَعَ إِخْفَاءِ حَقِيقَةِ فِكْرِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ النَّاسِ، بَلْ وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ، وَالنَّيْلِ مِمَّنْ يَفْضَحُونَهُ.

وَسِيلَتُهُمْ فِي ذَلِكَ: الْكَذِبُ وَالتَّزْوِيرُ، فَأَيْنَ احْتِرَامُ الْعُقُولِ؟! بَلْ أَيْنَ احْتِرَامُ زَبَائِنِهِمْ مِنْ قُرَّاءِ صُحُفِهِمْ؟! أَفَلَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّجَاعَةِ قَدْرٌ يُظْهِرُونَ بِهِ حَقِيقَةَ فِكْرِهِ لِقُرَّائِهِمْ، ثُمَّ يَخْتَارُ الْقُرَّاءُ بَيْنَ دِينِهِمْ وَبَيْنَ رِوَائِيِّهِمُ الْهَالِكِ؟!

لَقَدْ كَذَبُوا ثُمَّ كَذَبُوا، وَدَافَعُوا عَنْ إِلْحَادِهِ وَزَنْدَقَتِهِ، وَوَصَفُوهُ بِالرَّاحِلِ الْكَبِيرِ، وَبِالْقَامَةِ الشَّامِخَةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَقَلُوا كَمًّا كَبِيرًا مِنْ أَقْوَالِ زُمَلَائِهِ وَتَلَامِذَتِهِ وَمُرِيدِيهِ، وَلَمْ يَنْقُلُوا شَيْئًا مِنْ أَقْوَالِ مَنْ أَبَانُوا حَقِيقَةَ فِكْرِهِ، بَلْ هَاجَمُوهُمْ وَوَصَفُوهُمْ بِأَبْشَعِ الْأَوْصَافِ، فَأَيْنَ هِيَ المَوْضُوعِيَّةُ الَّتِي يَتَشَدَّقُونَ بِهَا؟ وَأَيْنَ هِيَ دَعْوَتُهُمْ إِلَى قَبُولِ الْآخَرِ وَاحْتِرَامِ الْآرَاءِ الْأُخْرَى؟

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ مِنْ وَصْفِ بَعْضِ الصُّحُفِ لِرِوَائِيِّهِمْ بِأَنَّهُ مُتَدَيِّنٌ، فَيَا لِضَحَالَةِ عُقُولِهِمْ! وَيَا لَسَخَافَةِ أَقْلَامِهِمْ! وَلَوْ خَرَجَ صَاحِبُهُمْ مِنْ قَبْرِهِ لَوَبَّخَهُمْ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُفَاخِرُ بِحَرْبِهِ لِلدِّينِ، فَكَيْفَ يَصِفُونَهُ بِالمُتَدَيِّنِ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْهَوَى وَالرَّدَى، وَنَسْأَلُهُ الْهُدَى وَالتُّقَى.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إِنَّ هَذَا الرِّوَائِيَّ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَى رُبُوبِيَّتِكَ وَعَلَى مَلَائِكَتِكَ وَكُتُبِكَ وَرُسُلِكَ، وَسَخِرَ بِشَعَائِرِ دِينِكَ، اللَّهُمَّ فَعَامِلْهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ فَأَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ.

اللَّهُمَّ مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُ فَاحْشُرْهُ مَعَهُ، وَمَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ

حَالَهُ فَتُبْ عَلَيْهِ مِنْ زَلَّتِهِ، وَأَنِرْ بَصِيرَتَهُ، وَخُذْ بِيَدِهِ لِلْبِرِّ وَالتَّقْوَى.

اللَّهُمَّ وَاهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصْلِحْ أَحْوَالَهُمْ، وَأَمِّنْهُمْ فِي أَوْطَانِهِمْ، وَاكْفِهِمْ شَرَّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدَ الْفُجَّارِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



٣٦٥- الحرب على اللغة العربية

٤/٣/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ جَعَلَنَا مِنْ أُمَّةِ الْأُمِّيِّينَ، وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الْكَرِيمَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ؛ نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا وَاجْتَبَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا وَأَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ بِالرُّسُلِ، وَابْتَلَى الرُّسُلَ بِعِبَادِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ عَلَّمَهُ رَبُّهُ ﷻ فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهُ، وَأَدَّبَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ، آتَاهُ جَوَامِعَ الْكَلَامِ، وَأَعْطَاهُ مَعَاقِدَ الْبَيَانِ، وَبَعَثَهُ لِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِكُمْ وَأَحْيَانِكُمْ، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٤٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ شَعَائِرُهَا وَمَنَاسِكُهَا الَّتِي تَنْسُكُهَا، وَتَتَمَسَّكُ بِهَا، وَتَدْعُو إِلَيْهَا، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [الْمَائِدَة: ٤٨]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الْحَجّ: ٦٧].

وَلِسَانُ الْقَوْمِ هُوَ وَسِيلَةُ الْخِطَابِ بَيْنَهُمْ، وَلُغَتُهُمْ هِيَ وِعَاءُ مَنْسَكِهِمْ وَشَعِيرَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، وَكُلُّ قَوْمٍ يُفَاخِرُونَ بِلِسَانِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى لُغَتِهِمْ.

وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أُمَّةِ الْعَرَبِ بِأَفْصَحِ لِسَانٍ، وَأَقْوَى بَيَانٍ، ثُمَّ كَانَ تَاجَ ذَلِكَ وَتَتِمَّتَهُ بَعْثَةُ أَفْصَحِ الْبَشَرِ ﷺ مِنْهُمْ، وَنُزُولُ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِلِسَانِهِمْ، ﴿وَإِنَّهُ

لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢-١٩٥]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(١).

وَحُفِظَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ، حَتَّى قِيلَ: لَوْلَا الْقُرْآنُ مَا كَانَتْ عَرَبِيَّةٌ(٢).
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩].

وَلَمْ تُحْفَظْ سَائِرُ لُغَاتِ الْبَشَرِ، بَلْ كَانَتْ عَبْرَ الْعُصُورِ تَنْدَثِرُ وَتَتَبَدَّلُ وَتَتَغَيَّرُ، وَبَقِيَتْ عَرَبِيَّةُ الْيَوْمِ هِيَ عَرَبِيَّةُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ.

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ شِعَارُ الدِّينِ وَوِعَاؤُهُ، وَالْقُرْآنُ لَا يُقْرَأُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَّا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا يُتَعَبَّدُ بِتِلَاوَتِهِ إِلَّا بِهَا، وَكُلُّ النُّصُوصِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا فَضْلُ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّمَا مُرَادُهَا قِرَاءَتُهُ بِلِسَانِ الْعَرَبِ، وَمِنْ هُنَا كَانَ تَعَلُّمُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ دَائِرًا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ؛ فَمَا لَا تَتِمُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِهِ، كَقِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْرَأَهَا الْأَعْجَمِيُّ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ، وَلَا تُغْنِيهِ تَرْجَمَتُهَا أَوْ فَهْمُ مَعَانِيهَا شَيْئًا، وَلَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ إِلَّا بِهَا.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنَ الدِّينِ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرْضٌ وَاجِبٌ؛ فَإِنَّ فَهْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرْضٌ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفَهْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، ثُمَّ مِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْأَعْيَانِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْكِفَايَةِ»(٣).

وَلِأَجْلِ هَذَا كَانَتِ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَكَانَ الْمَسَاسُ بِهَا، أَوِ احْتِقَارُهَا

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (٢٩٧٧)، ومسلم في أوائل كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).
(٢) فصول في فقه اللغة العربية، لرمضان عبد التواب (٩٠).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢٠٧).

احْتِقَارًا لِلدِّينِ، وَلِلْقُرْآنِ الَّذِي أُنْزِلُ بِهَا، وَمُحَارَبَتُهَا مُحَارَبَةٌ لِلدِّينِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِهَا دَعْوَةٌ ضِدَّ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ»[٤]. وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ-رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ شِعَارُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَاللُّغَاتُ مِنْ أَعْظَمِ شَعَائِرِ الْأُمَمِ الَّتِي بِهَا يَتَمَيَّزُونَ»[٥].

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ هِيَ مَنْزِلَةَ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّ أَعْدَاءَ الْمِلَّةِ كَرَّسُوا حَرْبَهُمْ لَهَا، وَسَلَقُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِتَحْقِيرِهَا وَتَصْغِيرِهَا، وَسَنُّوا أَقْلَامَهُمْ لِنَقْدِهَا وَعَيْبِهَا؛ لِأَنَّهَا لِسَانُ الْقُرْآنِ وَبَيَانُهُ، وَلِعِلْمِهِمْ أَنَّهَا وِعَاءُ الْإِسْلَامِ وَشِعَارُهُ، فَتَنْفِيرُ النَّاسِ مِنْهَا، وَصَرْفُهُمْ عَنْهَا، مَا هُوَ إِلَّا صَرْفٌ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

لَقَدِ اشْتَدَّتْ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ حَرْبُهُمْ، وَتَنَوَّعَتْ أَسَالِيبُهُمْ وَوَسَائِلُهُمْ، وَمَا وَهَنَتْ عَزِيمَتُهُمْ، وَلَا يَئِسُوا مِنْ تَحْقِيقِ مُرَادِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مُحَاوَلَاتِهِمُ الْبَائِسَةِ ادِّعَاؤُهُمْ صُعُوبَةَ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى إِصْلَاحِهَا وَالتَّعْدِيلِ عَلَيْهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا إِلَى إِلْغَاءِ الْإِعْرَابِ وَتَسْكِينِ أَوَاخِرِ الْكَلِمَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا إِلَى تَدْمِيرِ

---

(٤) الاقتضاء (٢٠٧)، ولم أقف عليه مسندًا بهذا اللفظ، لكن جاء عَنْ أبي رجاء مُحمد بْن سيف قَالَ: سَأَلْتُ الحسن عَن مصحف ينقط بالعربية، قَالَ: لا بأس به، أوَمَا بلغك عَن كتاب عُمَر أنه كتب: تعلموا العربية وتفقهوا في الدين وأحسنوا عبارة الرؤيا؟ أخرجه سعيد بن منصور (٢/ ٣١٤).

وقال عمر ﷺ: «تعلموا العربية؛ فإنها تثبت العقل وتزيد في المروءة» أخرجه البخاري في الكنى (٦٣٣)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٣٩٩)، والبيهقي في الشعب (١٦٧٦).

وعن أبي بن كعب ﷺ قال: تعلموا العربية كما تعلمون حفظ القرآن. أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١١٦).

(٥) الاقتضاء (٢٠٣).

قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ فِي ذَلِكَ: إِنَّ سَبَبَ تَرَاجُعِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ تَمَسُّكُهَا بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّنْوِينِ(٦).

وَسَخِرَ أَحَدُهُمْ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعَا إِلَى تَرْكِهَا فِي مَقَالَةٍ عَنْوَنَهَا بِقَوْلِهِ: «هَذَا الصَّرْفُ وَهَذَا النَّحْوُ. أَمَا لِهَذَا اللَّيْلِ مِنْ آخِرٍ؟!»(٧).

وَآخَرُونَ مِنْهُمْ رَكَّزُوا هُجُومَهُمْ عَلَى الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ، وَدَعَوْا إِلَى كِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ أَقْنَعَهُمْ بَعْضُ الْمُسْتَشْرِقِينَ بِهَذَا الْإِثْمِ الْمُبِينِ، وَأَلَّفُوا كُتُبًا فِي ذَلِكَ، وَقَامُوا بِتَجَارِبَ وَمُحَاوَلَاتٍ اسْتَجْلَبُوهَا مِنْ فِعْلِ التُّرْكِ لَمَّا كَتَبُوا اللُّغَةَ التُّرْكِيَّةَ بِالْأَحْرُفِ اللَّاتِينِيَّةِ(٨).

وَكَانَتْ أَكْبَرَ مُحَاوَلَةٍ لِإِلْغَاءِ لُغَةِ الْقُرْآنِ دَعْوَةُ بَعْضِهِمْ إِلَى اللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ الْمَحَلِّيَّةِ بَدِيلًا عَنِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَنَشِطَ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَأَذْنَابُ الْمُسْتَعْمِرِينَ لِإِنْجَاحِ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، وَفِي الْقَرْنِ الْمَاضِي بَذَلُوا جُهُودًا مُضْنِيَةً فِي هَذَا السَّبِيلِ الْمُظْلِمِ، وَتَفَرَّغَ بَعْضُ الْأُورُبِّيِّينَ لِدِرَاسَةِ لَهَجَاتِ مُدُنِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَأَلَّفُوا كُتُبًا فِيهَا، وَوَضَعُوا -بِزَعْمِهِمْ- قَوَاعِدَ لَهَا، وَدَعَا أَحَدُهُمْ إِلَى أَنْ تَكُونَ اللَّهْجَةُ الْعَامِّيَّةُ هِيَ اللُّغَةَ الْوَحِيدَةَ لِلْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، وَأَلْقَى مُسْتَشْرِقٌ مُحَاضَرَةً قَالَ فِيهَا بِكُلِّ صَفَاقَةٍ وَوَقَاحَةٍ: إِنَّ مَا يُعِيقُ الْمِصْرِيِّينَ عَنِ الِاخْتِرَاعِ هُوَ كِتَابَتُهُمْ بِالْفُصْحَى!

---

(٦) هو «لطفي السيد» الذي يسمونه أستاذ الجيل، ينظر: الاتجاهات الوطنية، محمد محمد حسين (٢/ ٣٦٩).

(٧) قائل ذلك هو «أنيس فريحة» خريج الجامعة الأمريكية في بيروت، وهذا المقال نشره في مجلة أبحاث عام ١٩٥٥م وكله سخرية من اللغة العربية، ينظر: لماذا يزيفون التاريخ ويعبثون بالحقائق؟ إسماعيل الكيلاني (٣٣٣).

(٨) هو «عبد العزيز فهمي» عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وبدلًا من دفاعه عن الحرف العربي يحاربه. ينظر: الاتجاهات الوطنية (٢/ ٣٦٥).

وَأَعْلَنَ فِي آخِرِ مُحَاضَرَتِهِ عَنْ مُسَابَقَةٍ لِلْخَطَابَةِ بِالْعَامِّيَّةِ، وَمَنْ تَكُونُ خُطْبَتُهُ جَيِّدَةً نَاجِحَةً فَلَهُ مُكَافَأَةٌ مُجْزِيَةٌ(٩).

وَتَوَّجَ هَذَا الضَّلَالَ وَالِانْحِرَافَ قِبْطِيٌّ شُيُوعِيٌّ، حِينَ كَتَبَ كِتَابًا دَعَا فِيهِ إِلَى كَسْرِ رَقَبَةِ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِلَى الْكِتَابَةِ بِالْعَامِّيَّةِ(١٠).

وَتَعَدَّى هَذَا الْعُدْوَانُ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، فَكَرَّسَ أَحَدُ الْمُنْحَرِفِينَ وَقْتَهُ فِي ضَبْطِ أَحْوَالِ الْعَامِّيَّةِ فِي لِبْنَانَ، وَتَقْيِيدِ شَوَارِدِهَا؛ لِاسْتِخْدَامِهَا فِي كِتَابَةِ الْعُلُومِ، وَادَّعَى أَنَّهُ وَجَدَ أَسْبَابَ التَّخَلُّفِ فِي التَّمَسُّكِ بِالْفُصْحَى، ثُمَّ وَرِثَ ابْنُهُ عَنْهُ ضَلَالَهُ، فَأَكْمَلَ مَسِيرَةَ أَبِيهِ الضَّالَّةَ، وَزَعَمَ الِابْنُ بَعْدَ أَبِيهِ أَنَّ اخْتِلَافَ لُغَةِ الْحَدِيثِ عَنْ لُغَةِ الْكِتَابَةِ هُوَ أَهَمُّ أَسْبَابِ تَخَلُّفِهِمْ! ثُمَّ قَالَ: وَلِي أَمَلٌ بِأَنْ أَرَى الْجَرَائِدَ الْعَرَبِيَّةَ وَقَدْ غَيَّرَتْ لُغَتَهَا، وَهَذَا أَعُدُّهُ أَعْظَمَ خُطْوَةٍ نَحْوَ النَّجَاحِ، وَهُوَ غَايَةُ أَمَلِي(١١). وَتَمَنَّى أَحَدُ مَوَارِنَةِ الشَّامِ أَنْ يَرَى عَمَلًا عَسْكَرِيًّا سِيَاسِيًّا يَفْرِضُ اللُّغَةَ الْعَامِّيَّةَ عَلَى النَّاسِ(١٢).

وَالْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي خَيَّبَ أَمَلَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَبَقِيَ لَهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ قُوَّةِ لُغَةِ الضَّادِ وَمَتَانَتِهَا، وَحَاجَةِ الْعَرَبِ إِلَيْهَا.

وَلَيْسَ الْعِرَاقُ بَعِيدًا عَنِ الشَّامِ، إِذْ وَصَلَتْ إِلَيْهِ دَعْوَةُ إِلْغَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، وَدَعْوَى

---

(٩) هو مهندس الري في مصر إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر «وليام كولكس»، قال ذلك في محاضرة ألقاها عام ١٨٩٣م بعنوان: (لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن؟).

(١٠) هو «لويس عوض». ينظر: الهجمة على اللغة العربية، إبراهيم بن سعد الحقيل، مجلة البيان عدد (١٤٧) ص(٤٦).

(١١) هو الماروني اللبناني «عيسى إسكندر المعلوف». ينظر كلامه في: لماذا يزيفون التاريخ (٣٢٦).

(١٢) قائل ذلك هو «أنيس فريحة». ينظر كلامه في: لماذا يزيفون التاريخ؟ (٣٣٣).

أَنَّهَا سَبَبُ التَّخَلُّفِ، فَهَذَا شَاعِرٌ عِرَاقِيٌّ يَقُولُ: فَتَّشْتُ طَوِيلًا عَنِ انْحِطَاطِ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ أَجِدْ غَيْرَ سَبَبَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: حِجَابُ الْمَرْأَةِ، وَالثَّانِي: هُوَ كَوْنُ الْمُسْلِمِينَ -وَلَا سِيَّمَا الْعَرَبُ مِنْهُمْ- يَكْتُبُونَ بِلُغَةٍ غَيْرِ الَّتِي يَحْكُونَهَا(١٣).

وَفِي الْقَرْنِ الْفَائِتِ تَزَامَنَ فِي دُوَلِ الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ مَعَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْعَامِّيَّةِ إِصْدَارُ جَرَائِدَ وَمَجَلَّاتٍ وَكُتُبٍ بِاللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، حَتَّى بَلَغَتْ سَبْعَ عَشْرَةَ جَرِيدَةً وَمَجَلَّةً عَامِّيَّةً(١٤)، غَيْرَ عَشَرَاتٍ مِنْ قَصَصِ الْأَطْفَالِ وَالنَّاشِئَةِ تُكْتَبُ بِاللَّهَجَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ؛ لِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهَا، وَإِحْلَالِهَا مَحَلَّ لُغَةِ الْقُرْآنِ(١٥).

وَتَسَابَقَ الْمُسْتَشْرِقُونَ عَلَى إِصْدَارِ عَشَرَاتِ الدِّرَاسَاتِ وَالْكُتُبِ عَنِ اللَّهَجَاتِ الْعَامِّيَّةِ، وَأُصُولِهَا، وَمُحَاوَلَةِ وَضْعِ الْقَوَاعِدِ لَهَا؛ وَكُلُّهَا مُحَاوَلَاتٌ فَشِلَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَمَامَ عَظَمَةِ لُغَةِ الضَّادِ، وَهَلَكَ أَصْحَابُهَا، وَهَلَكَتْ مَشَارِيعُهُمُ التَّخْرِيبِيَّةُ.

وَلَمَّا اخْتُرِعَتِ الْإِذَاعَةُ وَالتَّلْفَزَةُ نَشِطَتْ هَذِهِ الدَّعَوَاتُ الْآثِمَةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَبَنَّى الدَّعْوَةَ إِلَيْهَا تَلَامِذَةُ الْمُفْسِدِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَدَعَوْا فِي حِوَارَاتٍ وَبَرَامِجَ إِلَى إِمَاتَةِ لُغَةِ الْقُرْآنِ وَاسْتِبْدَالِ غَيْرِهَا بِهَا، وَسَخَّرُوا الْمَشَاهِدَ التَّمْثِيلِيَّةَ وَالْمَسْرَحِيَّةَ الْهَزْلِيَّةَ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْقَذِرَةِ، فَصَوَّرُوا مُدَرِّسِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي أَشْكَالِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ فِي صُوَرِ الْبُلْهِ وَالْمَعَاتِيهِ وَالدَّرَاوِيشِ، وَجَعَلُوهُمْ أُضْحُوكَةً لِلْمُشَاهِدِينَ وَالْمُسْتَمِعِينَ، وَمَا مِنْ نَقِيصَةٍ إِلَّا أَلْصَقُوهَا بِهِمْ، وَلَا مَحْمَدَةٍ إِلَّا نَفَوْهَا عَنْهُمْ،

---

(١٣) تيارات مسمومة ونظريات هدامة، أنور الجندي (١٩٦).

(١٤) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي (١٢٧).

(١٥) وقد رأيت جملة منها في بعض زياراتي لمصر، منها ما هو في المكتبات العامة ومكتبات الجامعات للاطلاع، ومنها ما هو معروض للبيع في سوق الأزبكية.

فَوَصَمُوهُمْ بِالْغِشِّ وَالْكَذِبِ وَالِاسْتِغْلَالِ وَالْجَهْلِ وَالتَّخَلُّفِ وَالْجُبْنِ؛ لِيَنْقَدِحَ فِي ذِهْنِ الْمُسْتَمِعِ وَالْمُشَاهِدِ أَنَّ هَيْئَتَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِمَّا يُدَرِّسُونَ مِنْ قَوَاعِدِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَلَاغَتِهَا وَنَحْوِهَا وَصَرْفِهَا، فَيَنْصَرِفُ النَّاسُ عَنْهُمْ وَعَنِ الْمَوَادِّ الَّتِي يُدَرِّسُونَهَا، وَتُلْقَى فِي قُلُوبِهِمْ كَرَاهِيَتُهَا.

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْمُهِينَةِ الَّتِي ظَلَمُوا بِهَا مُعَلِّمِي الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّهُمْ يُصَوِّرُونَ مُدَرِّسِي اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ فِي أَحْسَنِ هَيْئَةٍ وَأَبْهَى حُلَّةٍ، وَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْصَافِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ وَالْكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ مَا أَكْثَرُهُ كَذِبٌ وَتَزْيِيفٌ؛ لِيَسْتَقِرَّ فِي ذِهْنِ الْمُشَاهِدِ وَالْمُسْتَمِعِ أَنَّ هَيْئَتَهُمْ وَأَخْلَاقَهُمْ وَثَقَافَتَهُمْ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ الَّتِي يُدَرِّسُونَهَا؛ فَيُحِبُّهُمُ النَّاسُ، وَيَتَمَنَّوْنَ لِأَوْلَادِهِمْ مَا لَهُمْ.

وَهُنَاكَ عَشَرَاتُ الْمَشَاهِدِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَالْمَسْرَحِيَّةِ الْمَحْفُوظَةِ شَاهِدَةٌ عَلَى هَذَا التَّزْيِيفِ وَالْإِضْلَالِ لِلنَّاسِ، وَهَكَذَا تُصَاغُ الْعُقُولُ عَبْرَ الْإِعْلَامِ، وَيُطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَتُزَيَّفُ الْحَقَائِقُ، وَتُزَوَّرُ الْمَعْلُومَاتُ بِمَا يُوَافِقُ رَغَبَاتِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَأَذْنَابِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ كُلُّ هَذَا الْإِضْلَالِ قَدْ وَقَعَ فِي الْمَشْرِقِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّ الْمَغْرِبَ الْعَرَبِيَّ قَدْ نَالَ حَظَّهُ الْوَافِرَ مِنْ حَرْبٍ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَعُلُومِهَا، وَعَلَى مَنْ بَلَّغَ قُرْآنَهَا وَدِينَهَا؛ إِذْ أَصْبَحَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ لُغَةً ثَانِيَةً بَعْدَ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَجَاءَ فِي تَقْرِيرٍ أَعَدَّتْهُ لَجْنَةُ الْعَمَلِ الْمَغَارِبِيَّةُ الْفَرَنْسِيَّةُ: إِنَّ أَوَّلَ وَاجِبٍ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ هُوَ التَّقْلِيلُ مِنْ أَهَمِّيَّةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَصَرْفُ النَّاسِ عَنْهَا، بِإِحْيَاءِ اللَّهَجَاتِ الْمَحَلِّيَّةِ وَاللُّغَاتِ الْعَامِّيَّةِ فِي شَمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ(١٦).

---

(١٦) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن الميداني (٣٧٦).

وَبَلَغَ مِنِ اسْتِمَاتَةِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي الْقَضَاءِ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ بِفَرَنْسِيَّتِهِمْ أَنَّهُمُ اخْتَرَعُوا قَوَاعِدَ لِلُّغَةِ الْبَرْبَرِيَّةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ، وَأَقْنَعُوا كَثِيرًا مِنَ المَغَارِبَةِ أَنَّ أُصُولَهُمْ بَرْبَرِيَّةٌ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْبِذُوا الْعَرَبَ وَمَا جَاءَهُمْ بِهِ نَبِيُّ الْعَرَبِ ﷺ، وَأَنْ يُحْيُوا ثَقَافَتَهُمْ وَلُغَتَهُمْ، وَيَعْتَزُّوا بِأَصْلِهِمْ بَدَلَ انْتِمَائِهِمْ لِأُمَّةِ الْعَرَبِ.

يَقُولُ أَحَدُ الْبَاحِثِينَ: شَعَرَ الْمُسْتَعْمِرُ بِاسْتِحَالَةِ اقْتِلَاعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ أَرْضِ الْجَزَائِرِ وَغَرْسِ اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مَكَانَهَا، فَلَجَؤُوا إِلَى وَسِيلَةٍ مُسَاعِدَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ الْإِيحَاءُ لِأَكْبَرِ عَدَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْجَزَائِرِ بِأَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ لُغَةً أَصْلِيَّةً فِي الْجَزَائِرِ، وَإِنَّمَا اللُّغَةُ الْأَصْلِيَّةُ لِسُكَّانِ الْجَزَائِرِ هِيَ اللُّغَةُ الْبَرْبَرِيَّةُ لُغَةُ الْأَمَازِيغِ، وَقَدْ تَطَوَّعَ الْفَرَنْسِيُّونَ لِوَضْعِ أَبْجَدِيَّةٍ لَهَا كَيْمَا يُمْكِنُ كِتَابَتُهَا(١٧).

وَفَرَنْسَا تَقُومُ بِمَعُونَاتٍ ثَقَافِيَّةٍ مَجَّانِيَّةٍ بِإِرْسَالِ مُدَرِّسِي اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ، وَإِغْرَاقِ الْأَسْوَاقِ المَغْرِبِيَّةِ بِالْكُتُبِ وَالْأَفْلَامِ الْفَرَنْسِيَّةِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْبَرَامِجِ التِّلِفِزْيُونِيَّةِ؛ وَأُوقِفَ مَشْرُوعُ التَّعْرِيبِ فِي الْبُلْدَانِ المَغْرِبِيَّةِ بِحُجَّةِ أَنَّ التَّعْرِيبَ أَدَّى لِلْأُصُولِيَّةِ وَالتَّطَرُّفِ!

وَوَقَفَ أَحَدُ الْمُسَوِّقِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ لِلُّغَةِ الْأَمَازِيغِيَّةِ خَطِيبًا فِي أَتْبَاعِهِ يَقُولُ: إِذَا كَانَ الْعَرَبُ فِي وَقْتٍ سَابِقٍ قَدْ وَصَلُوا فَوْقَ النِّيَاقِ إِلَى المَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ، فَأَنَا سَأَكُونُ مَعَهُمْ رَفِيقًا وَأُعِيدُهُمْ عَلَى مَتْنِ «الْبُوِينْغِ» إِلَى بِلَادِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ(١٨).

---

(١٧) القائل هو الكاتب والمترجم السوري «شحادة الخوري». ينظر: الهجمة على اللغة العربية، مجلة البيان عدد (١٤٧) ص(٤٦).

(١٨) الأمازيغ بين تآمر الحكم والهيمنة الفرنكفوانية، حسن الرشيدي، مجلة البيان، عدد (١٦٤)، ص(٧٨).

وَمَا عَلِمَ هَذَا الْجَاهِلُ الْمَخْبُولُ الْمَرْذُولُ أَنَّ أَجْدَادَهُ الْبَرْبَرَ -رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى- هُمْ مَنْ فَتَحُوا الْأَنْدَلُسَ، وَهُمْ مَنْ عَلَّمُوا أَهْلَهَا الْعَرَبِيَّةَ، وَدَعَوْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِقِيَادَةِ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ الْأَمَازِيغِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ أَنْ عَبَرَ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ عَبْرَ مَضِيقٍ سُمِّيَ بِاسْمِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّمُ الطُّلَّابُ الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهُمْ يَعْتَمِدُونَ مَتْنَ الْآجُرُومِيَّةِ فِي مَبَادِئِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيَدِينُونَ بِالْفَضْلِ الْعَظِيمِ لِمُؤَلِّفِهِ، وَيَتَرَحَّمُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ قِرَاءَةِ جُزْءٍ مِنْ مَتْنِهِ، وَهُوَ مَغْرِبِيٌّ أَمَازِيغِيٌّ بَرَعَ فِي النَّحْوِ، فَكَتَبَ فِيهِ هَذَا الْمَتْنَ الْمُخْتَصَرَ الْمُفِيدَ، فَكَانَ مَرْجِعًا لِطُلَّابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي طُولِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ وَعَرْضِهِ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً(١٩).

وَكَثِيرٌ مِمَّنْ كَتَبُوا فِي النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ وَعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ لَمْ تَكُنْ أُصُولُهُمْ عَرَبِيَّةً، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِسْلَامِ، وَفَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابَ اللُّغَةِ وَمَغَالِيقَهَا، فَبَرَعُوا فِيهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ أُصُولُهُمْ عَرَبِيَّةً، فَاسْتَقْرَؤُوا كَلَامَ الْعَرَبِ وَشِعْرَهُمْ، وَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ قَوَاعِدَ اللُّغَةِ وَقَانُونَهَا، فَجَمَعَهُمُ الْإِسْلَامُ مِنْ شَتَّى الْأَجْنَاسِ وَالْأَعْرَاقِ، فَاتَّحَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِ الْإِسْلَامِ، وَانْحَازُوا عَنْ لُغَاتِهِمُ الْأَعْجَمِيَّةِ إِلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، فَتَعَلَّمُوهَا دِيَانَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَاسْتَعْذَبُوهَا تَدَبُّرًا لِكِتَابِهِ سُبْحَانَهُ، فَرَزَقَهُمُ اللهُ تَعَالَى فَهْمَهَا وَتَقْعِيدَهَا.

ثُمَّ نَبَتَتْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ نَبْتَةٌ عَاقَّةٌ سَيِّئَةٌ تُنَادِي بِالرُّجُوعِ إِلَى عَصَبِيَّاتِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتُطَالِبُ بِنَبْذِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لُغَةِ الْقُرْآنِ الَّذِي آمَنُوا بِهِ، وَأَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ أَجْدَادَهُمْ؛ فَنَقَلَهُمْ بِهِ مِنَ الرِّقِّ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْقِيَادَةِ وَالسِّيَادَةِ.

كَمَا نَبَتَ فِي الْعَرَبِ نَبْتَةٌ سَيِّئَةٌ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى نَبْذِ لُغَتِهِمْ وَاسْتِبْدَالِ اللُّغَاتِ

---

(١٩) وهو محمد بن محمد بن داود الصنهاجي أبو عبد الله، المتوفى سنة ٧٢٣هـ.

الْأَجْنَبِيَّةِ بِهَا، بِحُجَّةِ أَنَّهَا لُغَاتُ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ.

وَلَنْ يَكِلَّ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى بَاطِلِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ دَحْضِ الْحَقِّ بِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى مُبْطِلٌ كَيْدَهُمْ، وَمُحْبِطٌ عَمَلَهُمْ، وَمَظْهِرٌ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

فَاسْتَمْسِكُوا -عِبَادَ اللَّهِ- بِدِينِكُمْ، وَاعْرِفُوا مَكَانَةَ لُغَتِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ عِزِّكُمْ، فَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تُفَرِّطُوا فِيهَا! فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْهَا: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ وَحْدَهُ، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يُوسُف: ٤٠]، نَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا، وَنَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمْ تَكُنِ الدُّوَلُ الْخَلِيجِيَّةُ بَعِيدَةً عَنِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَأَذْنَابِهِمْ فِي حَرْبِهِمْ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ إِذْ سَلَّطُوا عَلَيْهَا اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةَ، وَمَكَّنُوا لَهَا لِتُزَاحِمَ

الْعَرَبِيَّةَ فِي الْمَدَارِسِ وَالْمَعَاهِدِ وَالْجَامِعَاتِ، وَمَا فَرْضُ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَى طُلَّابِ التَّعْلِيمِ الْعَامِّ إِلَّا خُطْوَةٌ فِي هَذَا الْمَشْرُوعِ التَّدْمِيرِيِّ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، ثُمَّ كَانَتِ الْكَارِثَةُ الْكُبْرَى بِالسَّمَاحِ لِلْمَدَارِسِ الْأَهْلِيَّةِ أَنْ تَضَعَ مِنْهَاجَهَا، وَتُدَرِّسَ طُلَّابَهَا بِاللُّغَةِ الَّتِي تَخْتَارُهَا؛ لِتَتَوَزَّعَ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ الْمَدَارِسُ الْأَهْلِيَّةُ عَلَى لُغَاتِ الْعَالَمِ، وَيُصْبِحَ مُجْتَمَعُنَا مَجْمَعًا لِتِلْكَ اللُّغَاتِ، وَانْتِمَاءُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَائِهِ وَوَلَاؤُهُ لِأَهْلِ اللُّغَةِ الَّتِي أَضْحَتْ لُغَتَهُ التَّعْلِيمِيَّةَ الْأُولَى؛ لِأَنَّهُ دَرَسَهَا فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ دِرَاسَتِهِ.

إِنَّ لِلُّغَةِ تَأْثِيرًا كَبِيرًا فِي تَرْسِيخِ الْوَلَاءِ، وَتَكْرِيسِ الِانْتِمَاءِ، وَالْوَاحِدُ مِنَ النَّاسِ يَأْلَفُ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ، وَمَنْ تَتَبَّعَ أَحْوَالَ الْمُسَافِرِينَ فِي مَحَطَّاتِ سَفَرِهِمْ ثَبَتَتْ لَهُ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ.

وَالْمُغْتَرِبُونَ لِلدِّرَاسَةِ أَوْ لِلْعَمَلِ أَوْ لِلْعِلَاجِ تُؤَلِّفُهُمُ اللُّغَةُ، وَتَجْمَعُهُمْ بُلْدَانُهُمْ، فَكُلُّ أَهْلِ بَلَدٍ لَهُمْ رَابِطَةٌ تُوَحِّدُهُمْ، وَمُسْتَقَرٌّ يَجْمَعُهُمْ، وَأَقْوَى دَافِعٍ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَوْنُ لَهَجَاتِهِمْ وَاحِدَةً.

وَكُلُّ دَوْلَةٍ غَرْبِيَّةٍ نَرَاهَا تَسْتَمِيتُ فِي نَشْرِ لُغَاتِهَا فِي أَدْغَالِ أَفْرِيقِيَّة، وَفِي الْبُلْدَانِ الْفَقِيرَةِ، وَتَبْذُلُ أَمْوَالًا طَائِلَةً فِي هَذَا السَّبِيلِ، وَالسِّبَاقُ بَيْنَ الدُّوَلِ الْغَرْبِيَّةِ عَلَى أَشُدِّهِ فِي هَذَا الْمِضْمَارِ. فَلِمَاذَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَنْشُدُونَ مِنْ أَفْرَادٍ يُعَلِّمُونَهُمْ لُغَتَهُمْ وَهُمْ مُتَخَلِّفُونَ عَنْ حَضَارَتِهِمْ بِمِئَاتِ السِّنِينَ؟!

إِنَّهُمْ يَنْشُدُونَ وَلَاءَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ انْتِمَاءَهُمْ، وَيُدْرِكُونَ أَنَّ تَبْدِيلَ أَلْسُنِ هَذِهِ الشُّعُوبِ إِلَى لِسَانِهِمْ يُكَرِّسُ تَبَعِيَّتَهُمْ لَهُمْ، وَالدُّوَلُ الْمُسْتَعْمِرَةُ مِنْ أَوَّلِ مَا تَقُومُ بِهِ إِذَا احْتَلَّتْ بَلَدًا أَنْ تَضَعَ لِلُغَتِهَا مَوْضِعَ قَدَمٍ فِيهِ.

يَقُولُ الرَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «مَا ذَلَّتْ لُغَةُ شَعْبٍ إِلَّا ذُلَّ، وَلَا انْحَطَّتْ

إِلَّا كَانَ أَمْرُهُ فِي ذَهَابٍ وَإِدْبَارٍ، وَمِنْ هَذَا يَفْرِضُ الْأَجْنَبِيُّ الْمُسْتَعْمِرُ لُغَتَهُ فَرْضًا عَلَى الْأُمَّةِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا، وَيُشْعِرُهُمْ عَظَمَتَهُ فِيهَا، وَيَسْتَلْحِقُهُمْ مِنْ نَاحِيَتِهَا، فَيَحْكُمُ عَلَيْهِمْ أَحْكَامًا ثَلَاثَةً فِي عَمَلٍ وَاحِدٍ:

أَمَّا الْأَوَّلُ: فَحَبْسُ لُغَتِهِمْ فِي لُغَتِهِ سَجْنًا مُؤَبَّدًا.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَالْحُكْمُ عَلَى مَاضِيهِمْ بِالْقَتْلِ مَحْوًا وَنِسْيَانًا.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَتَقْيِيدُ مُسْتَقْبَلِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ الَّتِي يَصْنَعُهَا، فَأَمْرُهُمْ مِنْ بَعْدِهَا لِأَمْرِهِ تَبَعٌ»[٢٠].

وَالرَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- حِينَ يَكْتُبُ هَذَا الْكَلَامَ فَإِنَّهُ قَدْ عَاصَرَ الِاسْتِعْمَارَ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَأَى مَا يَفْعَلُ الْغُزَاةُ مِنْ طَمْسٍ لِلُغَةِ مَنْ يَسْتَعْمِرُهُمْ وَإِحْلَالِ لُغَتِهِ مَكَانَهَا.

إِنَّ الْيَهُودَ قَدْ أَخْرَجُوا عِبْرِيَّتَهُمْ مِنْ قَبْرِهَا، وَأَحْيَوْا مَوَاتَهَا، وَجَعَلُوهَا اللِّسَانَ الْوَحِيدَ بَيْنَهُمْ، وَارْتَضَوْهَا لُغَةَ التَّدْرِيسِ لِطُلَّابِهِمْ، حَتَّى فِي الْمَوَادِّ الْعِلْمِيَّةِ وَالتَّجْرِيبِيَّةِ لَا يُدَرِّسُونَهَا لِأَوْلَادِهِمْ إِلَّا بِالْعِبْرِيَّةِ.

وَالْيَابَانِيُّونَ الَّذِينَ بَلَغُوا مِنَ التَّقَدُّمِ مَا بَلَغُوا حَافَظُوا عَلَى لُغَتِهِمْ، وَجَعَلُوهَا لُغَةَ الْعِلْمِ فِي بِلَادِهِمْ، وَتَرْجَمُوا كُتُبَ الْغَرْبِيِّينَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَفْرِضُوا اللُّغَاتِ الْغَرْبِيَّةَ عَلَى طُلَّابِهِمْ.

وَهَكَذَا فَعَلَ الْكُورِيُّونَ، وَهُمْ فِي الصِّنَاعَةِ وَالتِّقْنِيَّاتِ مَا تَعْلَمُونَ، وَأَمَّا الصِّينِيُّونَ فَأَمْرُهُمْ عَجَبٌ؛ إِذْ مَا يَصْدُرُ الْيَوْمَ كِتَابٌ عِلْمِيٌّ فِي الْغَرْبِ إِلَّا وَيَنْبَرِي لَهُ الْمُتَرْجِمُونَ لِيُطْبَعَ مِنَ الْغَدِ بِاللُّغَةِ الصِّينِيَّةِ.

وَأَمَّا الْبِلَادُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي رَضِيَتْ لِطُلَّابِهَا أَنْ تُزَاحِمَهُمُ اللُّغَاتُ الْأَجْنَبِيَّةُ فِي

---

(٢٠) وحي القلم (٣/ ٢٧).

مَدَارِسِهِمْ، فَتُفْسِدَ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَذْوَاقَهُمْ، فَمَا رَأَيْنَاهَا تَقَدَّمَتْ بِهَذِهِ اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَقَدْ عَاشَتْ فِي هَذَا الضَّلَالِ عُقُودًا كَثِيرَةً، بَلْ هِيَ تَرْسُفُ فِي أَغْلَالِ التَّخَلُّفِ وَالضَّعْفِ وَالتَّبَعِيَّةِ لِلْغَيْرِ!

أَيَغَارُ الْيَهُودُ وَأَهْلُ الصِّينِ وَالْيَابَانِ وَكُورْيَا عَلَى لُغَاتِهِمْ، وَيُحَافِظُونَ عَلَى أَلْسُنِ طُلَّابِهِمْ، مَعَ أَنَّ لُغَاتِهِمْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ لُغَةِ الْقُرْآنِ فِي مُفْرَدَاتِهَا وَجُمَلِهَا وَبَلَاغَتِهَا، وَاسْتِيفَائِهَا لِحَاجَاتِ الْعَصْرِ وَمُصْطَلَحَاتِهِ وَمُتَطَلَّبَاتِهِ؛ وَيَتَنَكَّرُ الْعَرَبُ لِلُغَتِهِمُ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي اخْتَارَهَا اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ بِهَا، فَيُزَاحِمُونَهَا بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ بِحُجَّةِ التَّقَدُّمِ وَالتَّطَوُّرِ، وَاسْتِيفَاءِ حَاجَاتِ الْعَصْرِ؟!

كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْبِلَادَ الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي زَاحَمَتْ عَرَبِيَّتَهَا بِاللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ مَا أَفْلَحَتْ وَلَا تَقَدَّمَتْ؟ وَيَرَوْنَ أَنَّ الْبِلَادَ الْوَثَنِيَّةَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي الشَّرْقِ قَدْ حَافَظَتْ عَلَى لِسَانِهَا، وَطَوَّعَتِ الْعُلُومَ لِلُغَاتِهَا، وَمَا ضَرَّهَا ذَلِكَ؟!

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا يَكُونُ أَنْ يَدْعُوَ الدَّاعُونَ إِلَى الْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ، وَالِانْتِمَاءِ الْوَطَنِيِّ، ثُمَّ تُفْرَضَ عَلَيهِمِ اللُّغَاتُ الْأَجْنَبِيَّةُ، وَيُمَكَّنَ لَهَا فِي بِلَادِهِمْ؛ لِتَحُلَّ مَحَلَّ الْعَرَبِيَّةِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ وِعَاءُ الْوَلَاءِ وَالِانْتِمَاءِ، فَكَيْفَ يَنْتَمِي قَوْمٌ لِبِلَادٍ رَضِيَتْ أَنْ تُزَاحِمَ لُغَتَهَا لُغَاتٌ أَجْنَبِيَّةٌ؟!

وَمَنْ تَعَلَّمَ مُنْذُ صِغَرِهِ لُغَةً حَتَّى أَضْحَتْ لُغَتَهُ الْأُولَى فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَعَلَّمَ جُذُورَهَا وَثَقَافَتَهَا وَتَارِيخَ أَهْلِهَا، فَيَنْتَمِي إِلَيْهِمْ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بِلَادِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ نَشَئُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَلْسُنِ الْغَرْبِ وَلُغَاتِهِمْ كَانَ وَلَاؤُهُمْ إِلَيْهِمْ أَكْثَرَ مِنْ وَلَائِهِمْ لِأُمَّتِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا فَضْلَ لُغَتِكُمْ، وَمَكَانَتَهَا مِنْ دِينِكُمْ، وَقَوِّمُوا بِهَا أَلْسُنَ أَوْلَادِكُمْ؛ فَإِنَّهَا لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَلُغَةُ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، وَكَانَ السَّلَفُ يَعْتَنُونَ

بِهَا، وَيُؤَدِّبُونَ أَوْلَادَهُمْ عَلَى اللَّحْنِ فِيهَا. قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «مَنْ تَكَلَّمَ فِي مَسْجِدِنَا بِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ أُخْرِجَ مِنْهُ»[٢١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❁ ❁ ❁

(٢١) فتاوى ابن تيمية (٣٢/ ٢٥٥).

٣٦٦- تفضيل الرجال على النساء

١/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ خَالِقِ الخَلْقِ، وَمَالِكِ المُلْكِ، وَمُدَبِّرِ الأَمْرِ، أَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَأَشْكُرُهُ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُشْكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ كُلُّ الخَلْقِ طَوْعُ أَمْرِهِ، خَاضِعُونَ لِحُكْمِهِ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ؛ اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى العَالَمِينَ، فَجَعَلَهُ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَاسْتَمْسِكُوا بِمَا أَنْزَلَ مِنَ العِلْمِ وَالهُدَى، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا نَجَاةَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فَوْزَ فِي الآخِرَةِ إِلَّا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ، وَطَاعَةِ رُسُلِهِ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ: أَنْ جَعَلَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فِي الأَرْضِ شَطْرَيْنِ؛ فَشَطْرٌ ذُكُورٌ، وَالشَّطْرُ الآخَرُ إِنَاثٌ، مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَحَيَوَانٍ وَطَيْرٍ وَحَشَرَاتٍ وَنَبَاتٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .. بَلْ جَاءَ فِي القُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ

السُّنَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ وَذَلِكَ القَانُونَ الإِلَهِيَّ عَامٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩][1].

---

(١) روى الطبري عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ قال: «الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، والسماء والأرض، والإنس والجنّ» (٢٢/ ٤٣٩).
وقال البغوي: «صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد» (٧/ ٣٧٩).
وقال ابن كثير: «أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات، جن وإنس، ذكور وإناث، والنباتات، ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له» تفسير ابن كثير (٧/ ٤٢٤).
وقال الراغب في المفردات: «﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فتنبيه أنّ الأشياء كلّها مركّبة من جوهر وعرض، ومادّة وصورة، وأن لا شيء يتعرّى من تركيب يقتضي كونه مصنوعًا، وأنه لا بدّ له من صانع تنبيهًا أنه تعالى هو الفرد، وقوله: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فبيّن أنّ كلّ ما في العالم زوج من حيث إنّ له ضدًّا، أو مثلًا ما، أو تركيبًا ما، بل لا ينفكّ بوجه من تركيب، وإنما ذكر هاهنا زوجين تنبيهًا أنّ الشيء - وإن لم يكن له ضدّ، ولا مثل- فإنه لا ينفكّ من تركيب جوهر وعرض، وذلك زوجان» المفردات (٣٨٥).
وقال الشيخ عطية سالم في تكملة الأضواء: «ثبت علميًّا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط حتى الحصاة الصغيرة، فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات، والذرة لها نواة ومحيط، وبينهما ارتباط وعن طريقهما التفجير الذي اكتشف في هذا العصر، حتى في أدق عالم الصناعة؛ كالكهرباء؛ فإنها من سالب وموجب، وهكذا لا بد من دورة كهربائية للحصول على النتيجة من أي جهاز كان، حتى الماء الذي كان يظن به البساطة؛ فهو زوج وشفع من عنصرين: أوكسجين وهيدروجين، ينفصلان إذا وصلت درجة حرارة الماء إلى مائة -أي: الغليان- ويتآلفان إذا نزلت الدرجة إلى حد معين فيتقاطران ماء، وهكذا.
=

وَهَذَا التَّقْسِيمُ هُوَ مِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ ﷻ وَوَحْدَانِيَّتِهِ؛ وَلِذَا جَاءَ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ فِي مَعْرِضِ الرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦]، كَمَا اسْتُدِلَّ بِهِ عَلَى البَعْثِ وَالنُّشُورِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩]، وَمِنْ هَذَيْنِ الزَّوْجَيْنِ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ يَكُونُ التَّنَاسُلُ وَالتَّكَاثُرُ عَبْرَ الِاتِّصَالِ وَالتَّزَاوُجِ، وَفِي مَا يَخُصُّ بَنِي آدَمَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

وَالأَصْلُ فِي هَذَا الخَلْقِ الرَّجُلُ، ثُمَّ خُلِقَتِ الأُنْثَى مِنْهُ كَمَا بَيَّنَهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وَفِي آيَةِ الأَعْرَافِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فَهَذَا البَيَانُ العَظِيمُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ يُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ وُجِدَ الْبَشَرُ .. وَيَكْشِفُ عَنِ الأَصْلِ الَّذِي تَنَاسَلُوا مِنْهُ. وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ بَدَهِيَّةٌ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ هُمْ يَتَلَقَّوْنَهَا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مُبَاشَرَةً صِغَارًا وَكِبَارًا، رِجَالًا وَنِسَاءً، وَهِيَ مِنَ الْوُضُوحِ بِمَا لَا يُحِيجُ الْمُتَلَقِّينَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى تَفْسِيرِهَا أَوْ مُرَاجَعَةِ أَحَدٍ

= ونفس الهواء عدة غازات وتراكيب، فلم يبق في الكون شيء قط فردًا وترًا بذاته، إلا ما نص عليه الحديث: «إن الله وِتْر يُحِبّ الوِتْرَ»، ويمكن حمل الحديث على معنى الوتر فيه مستغن بذاته عن غيره، والواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فصفاته كلها وتر؛ كالعلم بلا جهل والحياة بلا موت .. إلخ. بخلاف المخلوق، وقلنا: المستغني بذاته عن غيره؛ لأن كل مخلوق شفع، فإن كل عنصر منه في حاجة إلى العنصر الثاني؛ ليكون معه ذاك الشيء والله سبحانه بخلاف ذلك» (٨/ ٥٢٢).

فِي فَهْمِهَا، وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: فَلِمَاذَا إِذن تُذْكَرُ فِي هَذَا الوَقْتِ، وَيَتِمُّ التَّأْكِيدُ عَلَيْهَا بِسَرْدِ الآيَاتِ فِي إِثْبَاتِهَا؟

إِنَّنَا -أَيُّهَا الإِخْوَةُ- فِي زَمَنٍ صَارَتْ فِيهِ الحَقَائِقُ أَوْهَامًا، وَأَضْحَتِ الثَّوَابِتُ ظُنُونًا، وَقُلِبَ الحَقُّ إلى بَاطِلٍ؛ بِسَبَبِ الدِّعَايَاتِ الإِعْلَامِيَّةِ الْكَاذِبَةِ، المُؤَيَّدَةِ بِالقُوَى الإِلْحَادِيَّةِ الظَّالِمَةِ المُسْتَكْبِرَةِ الَّتِي تَفْرِضُ رُؤْيَتَهَا الإِلْحَادِيَّةَ الشَّاذَّةَ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْبَشَرِ عَلَى كَافَّةِ الشُّعُوبِ وَالأُمَمِ. وَمَعَ كَثْرَةِ الطَّرْقِ الإِعْلَامِيِّ، وَالضُّغُوطِ الاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالتَّخْوِيفِ بِالقُوَّةِ العَسْكَرِيَّةِ تَتَغَيَّرُ كَثِيرٌ مِنَ القَنَاعَاتِ تَأَثُّرًا بِتِلْكَ الأُطْرُوحَاتِ الآثِمَةِ، أَوْ مُسَايَرَةً لِلْوَاقِعِ الضَّاغِطِ عَلَى الإِسْلَامِ وَشَرِيعَتِهِ.

إِنَّ النُّصُوصَ القُرْآنِيَّةَ -الآنِفَ ذِكْرُهَا- تُقَرِّرُ أَنَّ الأَصْلَ فِي الوُجُودِ البَشَرِيِّ هُوَ الجِنْسُ الذَّكَرِيُّ، وَمِنْ ثَمَّ خُلِقَتِ المَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، فَالرَّجُلُ أَصْلُ المَرْأَةِ، وَالمَرْأَةُ فَرْعٌ عَنْهُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْهُ، وَالفَرْعُ لَا يَكُونُ مِثْلَ الأَصْلِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْهُ.

وَهَذِهِ الحَقِيقَةُ الَّتِي قُرِّرَتْ فِي القُرْآنُ لَا تُرْضِي المَلَاحِدَةَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ادِّعَائِهِمُ القَاضِي بِالمُسَاوَاةِ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ؛ حَتَّى بَلَغُوا مَا بَلَغُوا فِي إِلْحَادِهِمْ بِزَعْمِهِمْ إِلْغَاءَ تَقْسِيمِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ الجِنْسَ البَشَرِيَّ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَإِبَاحَةَ تَغْيِيرِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِرْجَالِ النِّسَاءِ وَتَأْنِيثِ الرِّجَالِ، وَاكْتِفَاءِ الرِّجَالِ بِالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ بِالنِّسَاءِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الهَوَى وَالرَّدَى، وَالتَّعَدِّي عَلَى رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ الأَعْلَى.

إِنَّ اللهَ ﷻ هُوَ خَالِقُ الخَلْقِ، وَمُقَسِّمُ البَشَرِ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَهُوَ الَّذِي يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ أَفْرَادًا؛ كَالأَنْبِيَاءِ، وَقَبَائِلَ؛ كَقُرَيْشٍ، وَجِنْسًا؛

كَالْعَرَبِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَى ذَلِكَ، وَإِلَّا لَكَانَ مُنَازِعًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِهِ وَحُكْمِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وَقَدْ خَلَقَ جَلَّ فِي عُلَاهُ جِنْسَ الرِّجَالِ، وَخَلَقَ جِنْسَ النِّسَاءِ مِنْ ضِلْعِ أَوَّلِ رَجُلٍ خَلَقَهُ، وَفَضَّلَ الرِّجَالَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ وَلَا نُبُوَّةَ فِي النِّسَاءِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

وَالوِلَايَةُ العَامَّةُ، وَالنِّيَابَةُ عَنْهَا، كَالْقَضَاءِ وَالْوَزَارَةِ وَغَيْرِهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ، وَلَا يُعْرَفُ خِلَافُ ذَلِكَ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ إِلَّا شُذُوذًا لَا يُعْتَدُّ بِهِ، اجْتَرَّهُ بَعْضُ المَفْتُونِينَ بِالْحَضَارَةِ المُعَاصِرَةِ؛ لِيَجْعَلُوهُ حُجَّةً عَلَى النُّصُوصِ الوَاضِحَةِ؛ وَقَدْ قَالَ المُبَلِّغُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»[٢].

وَالمَرْأَةُ لَا تَمْلِكُ وِلَايَتَهَا عَلَى نَفْسِهَا فِي النِّكَاحِ فَلَا تُنْكَحُ إِلَّا بِوَلِيِّها فَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الأَمْرُ يَخُصُّهَا، فَكَيْفَ إِذَنْ بِوِلَايَتِهَا عَلَى غَيْرِهَا؟!

وَطَلَاقُهَا لَيْسَ بِيَدِهَا، بَلْ هُوَ فِي يَدِ مَنْ يَمْلِكُ عِصْمَتَهَا وَهُوَ زَوْجُهَا، وَأَوْلَادُهَا فِي تَسْمِيَتِهِمْ لَا يُنْسَبُونَ إِلَى قَبِيلَتِهَا وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الحَامِلَ وَالمُرْضِعَ وَالحَاضِنَ؛ وَلَوْ كَانَتْ بِنْتَ الأَشْرَفِينَ، وَكَانَ زَوْجُهَا ابْنَ الأَرْذَلِينَ؛ بَلْ يُنْسَبُونَ إِلَى أَبِيهِمْ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا فَاجِرًا، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا وَلَوْ لَمْ يُؤَدِّ حُقُوقَهَا عَلَيْهِ.

---

(٢) أخرجه من حديث أبي بكرة رضي الله عنه: البخاري في المغازي، باب في كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤١٦٣)، والترمذي في الفتن، باب (٧٥) (٢٢٦٢)، والنسائي في آداب القضاة، باب النهي عن استعمال النساء في الحكم (٨/ ٢٢٧)، وأحمد (٥/ ٥٠).

وَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فِي المِيرَاثِ، وَشَهَادَةُ الرَّجُلِ عَنْ شَهَادَةِ امْرَأَتَيْنِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ من الآية [البقرة: ٢٨٢].

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النِّسَاءَ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ[٣]، وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ فِي الرِّجَالِ.

وَاطَّلَعَ ﷺ فِي النَّارِ قَالَ: «**فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٤]، وَلَا ذَكَرَ ذَلِكَ فِي حَقِّ الرِّجَالِ.

وَالمَوْلُودُ الذَّكَرُ يُعَقُّ عَنْهُ بِشَاتَيْنِ، وَالأُنْثَى بِشَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَدِيَةُ المَرْأَةِ نِصْفُ دِيَةِ الرَّجُلِ.

وَالمَرْأَةُ قَدْ وُضِعَ عَنْهَا الجِهَادُ لِضَعْفِهَا وَعَجْزِهَا وَشِدَّةِ عَاطِفَتِهَا، وَغَايَةُ جِهَادِهَا الحَجُّ وَالعُمْرَةُ. وَالجُمَعُ وَالجَمَاعَاتُ وَالنِّدَاءُ لِلصَّلَاةِ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ.

وَالرَّجُلُ يُسَافِرُ مَتَى شَاءَ، وَأَمَّا المَرْأَةُ فَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تُسَافِرَ مَسِيرَةَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ؛ كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[٥].

---

(٣) كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند: البخاري في الحيض، باب ترك الحائض للصوم (٢٩٨).
وأخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

(٤) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في الكسوف، باب طول السجود في الكسوف (١٠٠٤)، ومسلم في الكسوف، باب ما عرف عن النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٩٠٧).
وجاء من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه عند: البخاري (٤٩٠٢).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في تقصير الصلاة، باب في كم تقصر الصلاة (١٠٣٨)، ومسلم في الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٨).

وَالمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، وَالرَّجُلُ لَيسَ كَذَلِكَ، وَالْبَنَاتُ ابْتِلَاءٌ يَبْتَلِي اللهُ تَعَالَى بِهِ مَنْ شَاءَ مِنَ الآبَاءِ؛ لِضَعْفِهِنَّ وَحَاجَتِهِنَّ لِمَنْ يَقُومُ بِشُؤُونِهِنَّ؛ وَلِذَلِكَ رُتِّبَ عَلَى رِعَايَتِهِنَّ مِنَ الْأُجُورِ لِلْآبَاءِ مَا لَمْ يُرَتَّبْ عَلَى رِعَايَةِ الذُّكُورِ مِنَ الأَوْلَادِ؛ كَمَا رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ بِشَيْءٍ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(٦)، فَجَعَلَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ جُمْلَةِ مَا يُبْتَلَى بِهِ الآبَاءُ، وَلَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي حَقِّ الأَبْنَاءِ.

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ»(٧).

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيهِنَّ وَيَكْفِيهِنَّ وَيَرْحَمُهُنَّ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ البَتَّةَ**، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ القَوْمِ: وَثِنْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **وَثِنْتَيْنِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي الأَدَبِ المُفْرَدِ(٨).

وَالزَّوْجُ قَائِمٌ عَلَى زَوْجَتِهِ لَا خُرُوجَ لَهَا عَنْ أَمْرِهِ، إِلَّا إِذَا أَمَرَهَا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِذَا أَرْضَتِ المَرْأَةُ زَوْجَهَا فَقَدْ أَرْضَتْ رَبَّهَا، وَإِذَا أَغْضَبَتْهُ أَغْضَبَتْ رَبَّهَا، وَمِنْ أَسْبَابِ دُخُولِهَا الجَنَّةَ: طَاعَتُهَا لِزَوْجِهَا.

---

(٦) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة (١٣٥٢)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٢٩).

(٧) أخرجه مسلم في الكتاب والباب السابقين (٢٦٣١)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات (١٩١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٩٤).

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٨).
وجاء بنحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه عند: أحمد (٨٤٢٥)، والبيهقي في الشعب (٨٦٧٨).
وجاء بنحوه عن أنس رضي الله عنه عند: أحمد (١٢٥٩٣)، وأبي يعلى (٣٤٤٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩٥).

وَهَذَا القِيَامُ الَّذِي اخْتَصَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ الرِّجَالَ دُونَ النِّسَاءِ بَيَّنَ القُرْآنُ أَنَّ عِلَّتَهُ تَفْضِيلُ جِنْسِ الرِّجَالِ عَلَى جِنْسِ النِّسَاءِ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤](٩)، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى

(٩) قال البغوي: «أي: مسلطون على تأديبهن، والقَوَّام والقَيِّمُ بمعنى واحد، والقوَّام أبْلَغ، وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: فَضَّلَ الرجال على النساء بزيادة العقل والدين والولاية، وقيل: بالشهادة، لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وقيل: بالجهاد، وقيل: بالعبادات من الجمعة والجماعة، وقيل: هو أن الرجل ينكح أربعًا ولا يحل للمرأة إلا زوج واحد، وقيل: بأن الطلاق بيده، وقيل: بالميراث، وقيل: بالدية، وقيل: بالنبوة» تفسير البغوي (٢/ ٢٠٧).
وقال الزمخشري: «يقومون عليهن آمرين ناهين، كما يقوم الولاة على الرعايا. وسموا قوّاما لذلك. والضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ للرجال والنساء جميعًا، يعني: إنما كانوا مسيطرين عليهن بسبب تفضيل الله بعضهم وهم الرجال، على بعض وهم النساء. وفيه دليل على أنّ الولاية إنما تُسْتَحَقّ بالفضل، لا بالتغلب والاستطالة والقهر. وقد ذكروا في فضل الرجال: العقل، والحزم، والعزم، والقوّة، والكتابة في الغالب، والفروسية، والرمي، وأنّ منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والاعتكاف، وتكبيرات التشريق عند أبي حنيفة، والشهادة في الحدود، والقصاص، وزيادة السهم، والتعصيب في الميراث، والحمالة، والقسامة، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، وهم أصحاب اللحى والعمائم» تفسير الزمخشري (١/ ٥٠٥).
وقال السعدي: «أي: قوامون عليهن بإلزامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضًا بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع. وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلَد الذي ليس للنساء مثله. وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال ويتميزون عن النساء.
=

ذَكَرَ اللهُ ﷻ أَحْكَامَ الطَّلَاقِ؛ وَقَرَّرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا طَلَّقَ زَوْجَتَهُ فَلَهُ مُرَاجَعَتُهَا بِلَا اخْتِيَارِهَا مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨][١٠]، وَقَدْ أَقَرَّ اللهُ ﷻ مَقُولَةَ امْرَأَةِ عِمْرَانَ حِينَ رُزِقَتْ

= ولعل هذا سر قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾، وحذف المفعول ليدل على عموم النفقة. فعُلِمَ مِنْ هذا كلِّهِ أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعاه الله به. ووظيفتها: القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعات لله تعالى ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ تَوَكَّلَ على الله كفاه ما أَهَمَّه من أمر دينه ودنياه» تفسير السعدي (١٧٧).

(١٠) قال أبو بكر بن العربي: «هذا نص في أنه مُفَضَّل عَلَيْهَا مُقَدَّم في حقوق النكاح فوقها، لكن الدرجة هاهنا مجملة غير مبين ما المراد بها منها؟ وإنما أخذت من أدلة أخرى سوى هذه الآية، وأعلم الله تعالى النِّسَاء هاهنا أن الرجال فوقهن، ثم بين على لسان رسوله ذلك.
وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الدرجة على أقوال كثيرة؛ فقيل: هو الميراث، وقيل: هو الجهاد، وقيل: هو اللحية؛ فطوبى لعبد أمسك عَمَّا لا يعلم، وخصوصًا في كتاب الله العظيم.
ولا يخفى على لبيب فضل الرجال على النساء، ولو لم يكن إلا أن المرأة خلقت من الرجل فهو أصلها. لكن الآية لم تأت لبيان درجة مطلقة حتى يتصرف فيها بتعديد فضائل الرجال على النساء؛ فتعين أن يطلب ذلك بالحق في تقدمهن في النكاح؛ فوجدناها على سبعة أوجه:
الأول: وجوب الطاعة، وهو حق عام.
الثاني: حق الخدمة، وهو حق خاص، وله تفصيل، بيانه في مسائل الفروع.
الثالث: حجر التصرف إلا بإذنه.
الرابع: أن تقدم طاعته على طاعة الله تعالى في النوافل، فلا تصوم إلا بإذنه، ولا تحج إلا معه.
الخامس: بذل الصداق.
السادس: إدرار الإنفاق. =

= السابع: جواز الأدب له فيها» أحكام القرآن (١/ ٢٥٦-٢٥٧).
ونقل القرطبي كلام ابن العربي السابق ثم قال: «وعلى الجملة فدرجة تقتضي التفضيل، وتشعر بأن حق الزوج عليها أوجب من حقها عليه، ولهذا قال ﷺ: «**ولو أَمَرْتُ أحَدًا بالسجُودِ لِغَيْرِ الله لأَمَرْتُ المرأَةَ أنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**». وقال ابن عباس: الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق، أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. قال ابن عطية: وهذا قول حسن بارع. قال الماوردي: يحتمل أنها في حقوق النكاح، له رفع العقد دونها، ويلزمها إجابته إلى الفراش، ولا يلزمه إجابتها. قلت: ومن هذا قوله ﷺ: «**أيما امْرَأةٍ دَعَاهَا زوجُهَا إلى فِرَاشِهِ فأَبَتْ عَلَيْهِ لَعَنَتْهَا الملائِكَةُ حتَّى تُصْبِحَ**»» تفسير القرطبي (٣/ ١٢٥).
وللرازي كلام جيد في ذلك، قال: «واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية:
أما الصفات الحقيقية: فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين: إلى العلم، وإلى القدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، والكتابة في الغالب والفروسية والرمي، وإن منهم الأنبياء والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، وفي الأنكحة عند الشافعي رضي الله عنه، وزيادة النصيب في الميراث والتعصيب في الميراث، وفي تحمل الدية في القتل والخطأ، وفي القسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء.
والسبب الثاني: لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يعني: الرجل أفضل من المرأة؛ لأنه يعطيها المهر وينفق عليها» تفسير الرازي (١٠/ ٧١).
واستدل الرازي بآية المواريث على فضل الرجال على النساء ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ ... ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: ١٢] فقال: في الآية ما يدل على فضل الرجال على النساء؛ لأنه تعالى حيث ذكر الرجال في هذه الآية ذكرهم على سبيل المخاطبة، وحيث ذكر النساء ذكرهن على سبيل المغايبة، وأيضًا: خاطب الله الرجال في هذه الآية سبع مرات، وذكر النساء فيها على سبيل الغيبة أقل من ذلك، وهذا يدل على تفضيل الرجال على النساء، وما أحسن ما راعى هذه الدقيقة؛ لأنه تعالى فَضَّلَ الرجال على النساء في النصيب، ونَبَّهَ بهذه الدقيقة على مَزِيد فَضْلِهِمْ عَلَيْهِنَّ» تفسير الرازي (٩/ ٥٢١).

بِمَرْيَمَ عليها السلام، وَقَلَّلَتْ مِنْ شَأْنِ الأُنْثَى إِزَاءَ الذَّكَرِ، وَأَنْزَلَ اللهُ هَذَا الإِخْبَارَ مِنْهَا قُرْآنًا يُتْلَى مَا دَامَتِ الدُّنْيَا: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦][(١١)].

---

(١١) قال الطبري: «﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾؛ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدْس والقيام بخدمة الكنيسة؛ لما يعتريها من الحيض والنفاس. ثم نقل الطبري بسنده عن قتادة قال: كانت المرأة لا يستطاع أن يصنع بها ذلك، يعني: أن تحرر للكنيسة، فتجعل فيها، تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى، فعند ذلك قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾» تفسير الطبري (٦/ ٣٣٤-٣٣٥)

وقال ابن عطية: «وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياق قصتها يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها، وانتفت عنه صفات الكمال للغرض المراد» المحرر الوجيز (١/ ٤٣٢).

وقال الزمخشري: «﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وما أرادت إلى هذا القول؟

قلت: قالته تحسرًا على ما رأت من خيبة رجائها وعكس تقديرها، فتحزنت إلى ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا، ولذلك نذرته محررًا للسدانة، ولتكلمها بذلك على وجه التحسر والتحزن قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيمًا لموضوعها، وتجهيلًا لها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت، وما عُلِّق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئًا، فلذلك تحسَّرَت، وفي قراءة ابن عباس: (واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتِ) على خطاب الله تعالى لها، أي: إنك لا تعْلَمِين قدْرَ هذا الموهوب، وما علم الله مِنْ عِظَمِ شأنه وعُلُوِّ قدره، وقرىء (وضعت) بمعنى: ولَعَلَّ لله تعالى فيه سرًّا وحكمة، ولعل هذه الأنثى خير من الذكر؛ تسلية لنفسها» الكشاف (١/ ٣٨٤).

وذكر الرازي قولين في الآية:

«الأول: أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه:

أحدها: أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث.

والثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى؛ لمكان الحيض، وسائر عوارض النسوان.

والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى؛ فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة.

والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. =

. . . .

= والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى.
فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.
والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت: الذكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه» تفسير الرازي (٨/ ٢٠٤).
وقال أبو السعود: «أي: ليس الذكرُ الذي كانت تطلُبه وتتخيل فيه كمالًا قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأنثى التي وُهِبتْ لها؛ فإن دائرةَ علمِها وأمنيتها لا تكاد تحيط بما فيه من جلائل الأمور، هذا على القراءتين الأُولَيَيْن، وأما على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه: وليس الذكر كهذه الأنثى في الفضيلة، بل أدنى منها، وأما على التفسير الأول لها فمعناه: تأكيدُ الاعتذارُ ببيان أن الذكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزية وصلاحيةِ خدمة المتعبّدات؛ فإنهن بمعزل من ذلك، فاللامُ للجنس» تفسير أبي السعود (٢/ ٢٨-٢٩).
وقال السعدي: «كأن في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس؛ حيث كان نذرها بناء على أنه يكون ذكرًا يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجَبَرَ الله قلبها، وتقَبَّلَ الله نَذْرَهَا، وصارت هذه الأنثى أَكْمَلَ وأَتَمَّ مِنْ كثير من الذكور، بل مِنْ أَكْثَرِهِمْ، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحْصُلُ بالذكر، ولهذا قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلًا» تفسير السعدي (٩٦٦).
وحاصل كلام المفسرين المنقول:
الأول: تفضيل جنس الذكورة على الأنوثة، وأن امرأة عمران ﷺ رغبت في ذكر؛ لأنه الأفضل والأكمل لنذرها، والناذر يطلب الكمال فيما ينذر، فلما وضعتها أنثى تحسرت لفوات هذا الكمال.
الثاني: أن فيه ترجيح هذه الأنثى بخصوصها على الذكر الذي تطلبه، فهي أفضل من كثير من الذكور، وما وقع بعد ذلك لمريم ﷺ من قنوتها وعبادتها وحملها بالمسيح ﷺ بلا وطء دليل على أن هذا هو المعنى المقصود.
الثالث: بعض المفسرين نحا إلى أن الآية لا تدل على فاضل ومفضول، وإنما تدل على =

أَفَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي يَجِبُ الْوُقُوفُ عِنْدَهَا، وَالتَّحَاكُمُ إِلَيْهَا؛ يَأْتِي أَفَّاكُونَ مُنَافِقُونَ، أَوْ أَغْرَارٌ جَاهِلُونَ؛ أَوْ جُبَنَاءُ مَخْذُولُونَ لِيَقُولُوا لَنَا: إِنَّ الذَّكَرَ كَالْأُنْثَى وَلَا فَرْقَ؟! وَيُصَدِّقُهُمْ مُسْلِمُونَ خَاضِعُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَهُ،

= أن نذر امرأة عمران لا يمكن أن يتحقق إلا بذَكَر، فلما وضعت أنثى فاتها الوفاء بنذرها؛ لعدم صلاحية الأنثى للمهمة التي نَذَرَتِ المولود لأجلها.

هذا موجز كلام المفسرين مما نقلته وما وقفت عليه مما لم أنقله خشية الإطالة، ولم أقف على من استدل بهذه الآية على تفضيل جنس النساء على جنس الرجال، كيف؟ وصريح القرآن يدل على خلاف ذلك في آيات كثيرة، ويدل على تفضيل جنس الرجال على النساء، كما في الآيات المذكورة في صلب الخطبة، وقال تعالى عن امرأتي نوح ولوط ﷺ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التَّحريم: ١٠] فجعل سبحانه الزوجة تحت الزوج، فلا تكون مساوية له فضلًا عن أن تكون أفضل منه من جهة جنسه وجنسها، وقد خلقت المرأة مِنَ الرجل، فهي جزء منه، ولا يكون الجزء أفضل من الأصل ولا مساويًا له، والأدلة في ذلك كثيرة.

هذا فيما يتعلق بجنس الذكورة والأنوثة، لكن في آحاد النساء مَنْ هُنَّ أفضل من كثير من الرجال، وأسد رأيًا، وأكمل عقلًا، ومؤمنة واحدة أفضل من كل الكفار من الرجال.

وما دعاني لكتابة هذا أنني اطلعت في زمن العجائب هذا على مقولة لامرأة استدلت بمقولة امرأة عمران: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] على تفضيل النساء على الرجال، وذلك في الملتقى النسائي المفتوح الذي عُقِدَ هذه الأيام في جدَّة لمناقشة وضع المرأة السعودية، فقالت رئيسة جمعية الإيمان الخيرية، ورئيسة لجنة الأسرة في منظمة حقوق الإنسان «الجوهرة العنقري» ما نصه: «إن مفهوم الآية القرآنية في سورة آل عمران ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ يعني: أن الأنثى أفضل من الرجل، فليس الرجل مثل المرأة» ووافقتها في هذا الخطأ الدكتورة «وفاء عز» بقولها: «من المعروف في قواعد البلاغة أن هناك المشبه والمشبه به، فهنا امرأة عمران تخبر ربها بأنها وضعت أنثى وليس الذكر كالأنثى، فالأفضلية للأنثى، مثلما نقول: الرجل ليس كالأسد، فالأسد هنا هو الأفضل» ونشر كلامهما في الصحف التي غطت وقائع الملتقى، ينظر: صحيفة الشرق الأوسط: ١٨/٣/١٤٢٦.

وهذا التقرير الذي ادعته المشاركتان في الملتقى شذوذ من القول، مصادم لنصوص الكتاب والسنة، ولم يقل به أحد من أهل التفسير قديمًا وحديثًا -فيما وقفت عليه من كتبهم- والنصوص المذكورة في الخطبة تدل على خطأ هذه الفهم للآية الكريمة.

وَيَجِدُونَ فِيهِ هَذِهِ المُفَاضَلَةَ بَيْنَ الجِنْسَيْنِ، وَالفُرُوقَاتِ الكَثِيرَةَ بَيْنَهُمَا، أَهُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ الَّذِي خَلَقَ الخَلْقَ وَدَبَّرَهُمْ، وَشَرَعَ لَهُمْ شَرَائِعَ تَتَنَاسَبُ وَسُنَنَهُ الكَوْنِيَّةَ فِي الأَنْفُسِ وَالآفَاقِ، فَمَنِ انْحَرَفَ عَنْهَا فَهُوَ يَجْنِي عَلَى نَفْسِهِ، وَإِنْ نَشَرَ انْحِرَافَهُ فِي النَّاسِ جَنَى عَلَيْهِمْ؟! فَإِنْ كَانَ الانْحِرَافُ عَنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى يُقَنَّنُ عَالَمِيًّا، وَيُفْرَضُ عَلَى الْبَشَرِ بِالْقُوَّةِ، فَوَيْلٌ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَوَيْلٌ لِمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَلِمَنْ حَرَّفَ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِتُوَائِمَ إِلْحَادَهُمْ، وَيْلٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ عُقُوبَاتٍ عَاجِلَةٍ ظَهَرَ بَعْضُهَا فِي أَمْرَاضٍ فَتَّاكَةٍ، وَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ مُوجِبَاتِ سَخَطِهِ، وَنَسْأَلُهُ الثَّبَاتَ عَلَى الإِسْلَامِ إِلَى المَمَاتِ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ قَضِيَّةَ تَفْضِيلِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ فِي الْجُمْلَةِ، هِيَ قَضِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ شَرْعًا، لَا يُجَادِلُ فِيهَا إِلَّا مُكَابِرٌ يُمَارِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا يُنْكِرُهَا إِلَّا مُجَازِفٌ بِتَكْذِيبِ آيِ الْقُرْآنِ، وَرَدِّ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

وَلَا يَمْنَعُ مِنْ تَقْرِيرِ ذَلِكَ أَنْ يُوجَدَ مِنْ آحَادِ النِّسَاءِ مَنْ هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الرِّجَالِ، بَلْ إِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الطَّائِعَةَ لِرَبِّهَا الْمُحْصِنَةَ لِفَرْجِهَا هِيَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنَ الكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ.

وَهَذَا التَّفْضِيلُ لِجِنْسِ الرِّجَالِ عَلَى جِنْسِ النِّسَاءِ يَجِبُ أَنْ يَرْضَى بِهِ كِلَا الْجِنْسَيْنِ؛ لِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَالْمُشَاقَّةُ فِيهِ مُشَاقَّةٌ لِلَّهِ تَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ، وَمَنِ اعْتَرَضَ عَلَى ذَلِكَ فَيَلْزَمُهُ الِاعْتِرَاضُ عَلَى اصْطِفَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى سَائِرِ الرِّجَالِ وَهُمْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ؛ لِيَكُونَ فِي عِدَادِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَرَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَالنُّبُوَّةُ لَا تُكْتَسَبُ، بَلْ هِيَ اصْطِفَاءٌ وَاخْتِيَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

بَلْ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَتَمَنَّى مَنْزِلَةَ الرَّجُلِ أَوْ عَمَلَهُ، وَلَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَغْزُو الرِّجَالُ وَلَا نَغْزُو، وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ المِيرَاثِ؟ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢][١٢].

(١٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٦٢٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة النساء (٣٠٢٢)، وقال: هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسلًا أن أم سلمة قالت: ... فذكره، وأحمد (٦/ ٣٢٢)، وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١٥٦)، والطبري في تفسيره (٨/ ٢٦٢)، وأبو يعلى (٦٩٥٩)، والحاكم وصححه، وقال: على =

فَإِذَا نُهِيَ عَنْ مُجَرَّدِ تَمَنِّي أَحَدِ الجِنْسَيْنِ مَنْزِلَةَ الجِنْسِ الآخَرِ فَكَيْفَ إِذًا بِمَنْ يُنَازِعُ اللهَ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَيَرُدُّ حُكْمَهُ، وَيَنْفِي حِكْمَتَهُ؛ بِتَقْرِيرِ المُسَاوَاةِ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ؛ مُوَافَقَةً لِأَهْلِ الإِلْحَادِ فِي إِلْحَادِهِمْ؟!

وَأَيُّ إِسْلَامٍ يَدَّعِيهِ مَنْ تَلَطَّخَ بِهَذَا الإِثْمِ المُبِينِ، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَصِيحُونَ بِذَلِكَ، وَهُمْ لَا يُدْرِكُونَ مَغَبَّةَ مَا يَفْعَلُونَ! نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الهِدَايَةَ وَالعِصْمَةَ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: احْتَفَلَ المُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بِاليَوْمِ العَالَمِيِّ لِلْمَرْأَةِ(١٣)، وَتَنَادَوْا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ، وَرَفَعُوا عَقِيرَتَهُمْ فِي مَشَارِقِ الأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا مُطَالِبِينَ بِرَفْعِ وِصَايَةِ الرِّجَالِ عَنِ النِّسَاءِ فِي البِلَادِ المُسْلِمَةِ، فِي الوَقْتِ الَّذِي تَنْشُرُ فِيهِ صُحُفُهُمُ الفَاجِرَةُ إِحْصَائِيَّاتٍ مُخِيفَةً عَنْ وَاقِعِ الأُسْرَةِ فِي البِلَادِ الغَرْبِيَّةِ بَعْدَ رَفْعِ وِصَايَةِ الرَّجُلِ عَنْهَا، وَإِحْصَائِيَّاتٍ أُخْرَى عَنْ تَزَايُدِ العُنْفِ الأُسَرِيِّ لَدَيْهِمْ، وَفِي بِلَادِ التَّنْوِيرِ الحَدِيثِ، وَثَوْرَةِ الحُرِّيَّةِ المُعَاصِرَةِ تُفِيدُ تَقَارِيرُهُمْ أَنَّ رِجَالَهُمُ المُتَحَرِّرِينَ يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمُ المُتَحَرِّرَاتِ ضَرْبَ غَرَائِبِ الإِبِلِ(١٤)، فَأَيُّ حَيَاةٍ يَعِيشُونَهَا؟ وَأَيُّ اسْتِقْرَارٍ أُسَرِيٍّ يَهْنَؤُونَ بِهِ؟ كَمَا تُفِيدُ

= شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ٣٠٥)، وصَحَّحَهُ الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري، وأثبت في كلام طويل أن الحديث متصل، وأن مجاهدًا رواه عن أم سلمة مباشرة (٨/ ٢٦٢-٢٦٣).

ويُنْظَر حول هذا المعنى كلام نفيس للشيخ العلامة بكر أبي زيد في رسالته المتينة «حراسة الفضيلة» طبع مكتبة السنة في مصر (١٧-١٩).

(١٣) كان يوم الثلاثاء ٢٧/ ١/ ١٤٢٦هـ.

(١٤) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة بثت شبكة التلفزة الفرنسية التي تسمى بلاد النور والعطور برامج مخصصة لحملة ضخمة ضد ما يسمونه (العنف الزوجي)، بعد تزايد ضرب رجالهم لنسائهم ضربًا مبرحًا، يُحْدِث عاهات وتوسيمًا في الوجه، ويصل أحيانًا إلى حد القتل، وذكرت تقاريرهم أنه في فرنسا تموت ست نساء كل شهر نتيجة ضرب أزواجهم لهُنَّ، وتموت في فرنسا ست نساء كل شهر نتيجة العنف الذي يَحْدُثُ في البيوت. =

تَقَارِيرُهُمْ بِأَنَّ الْفَقْرَ قَدْ تَأَنَّثَ بِنِسْبَةِ الثُّلُثَيْنِ، أَيْ: أَنَّ سَبْعِينَ فِي المِائَةِ مِنَ الْفَقْرِ فِي الْعَالَمِ هُوَ مِنْ نَصِيبِ النِّسَاءِ[١٥]، وَهَذَا لَيْسَ بِمُسْتَغْرَبٍ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ حَقَّ المَعْرِفَةِ

= وتشير آخر إحصائية رسمية إلى أن وَاحِدَة من كل عشر نساء تتعَرَّض للعنف الزوجي. وتتراوح أشكال العنف ما بين الضغوط النفسية والاعتداءات الجَسَدِيَّةِ والاغتصاب أو غيره من ممارسات مهينة للمرأة. وتستند هذه الإحصائية إلى أولئك اللَّوَاتِي يتقدمن بشكاوى فقط، ولا تشمل النساء اللواتي يفضلن الصمت والإذعان للواقع.
ودفعت هذه المشكلة -التي من النادر أن يتحدث عنها الفرنسيون علنًا- مخرجين شابين هما فرنسوا راب وفليسي دوتيرتر إلى التبرع بعمل سلسلة من اللقطات التلفزيونية المعبرة عن معاناة النساء المضروبات. واستغرق عمل هذه الأفلام القصيرة جدًّا سنة من الجهد، ووافقت جميع القنوات العاملة في فرنسا على بثها اعتبارًا مِنْ هذا الأسبوع في حملة وطنية ضد العنف الزوجي. ولجأ المخرجان إلى أسلوب الصدمة للتعبير عن عمق معاناة الزوجات المضروبات. وتضمنت الأفلام لقطات قوية لنساء يختبئن تحت قطع الأثاث هربًا من اللطمات، أو لنساء ينتهين في أدراج المشرحة بسبب ضربة من زوج هائج أو سكير أو مُدْمِن على المخدرات. وتسعى تشريعات جديدة في فرنسا إلى حماية النساء من عنف الأزواج.
ولم تكن مراكز الشرطة تأخذ بكثير من الاهتمام البلاغات التي تتقدم بها النساء ضد شركائهن، رغم وجود تقارير طبية تؤكد وقائع تعرضهن للعنف الجسدي. لكن الإجراءات الجديدة بدأت تتيح إحالة الزوج إلى المحكمة إذا ثَبَتَ أنه تسبب لزوجة بضرر يُعِيقها عن العمل لأربعة أيام. وتشير تقارير معهد الطب الشرعي في باريس إلى أن ٦٥% من النساء اللواتي تعَرَّضْن للقتل خلال العقد الأخير من القرن العشرين مِتْنَ على يَد الزوج أو الصديق. صحيفة الشرق الأوسط، الاثنين ٢٧ محرم ١٤٢٦ هـ ٧ مارس ٢٠٠٥ العدد (٩٥٩٦).

(١٥) في مقالة للصحفية ثريا الشهري بعنوان (يوم المرأة لم يتغير شيء للأسف) تعترف بما يحصل للمرأة من امتهان وأذى في الدول الديمقراطية، وهي من الداعيات لتحرير المرأة وفي جزء من مقالاتها تقول: فلا يخطئنا القول إذا اعترفنا بأن العولمة بسوقها الاقتصادي العالمي قد استوعبت المرأة في جميع مراحلها العمرية، إلّا أنها في الوقت ذاته قد همّشت من مكانتها، ورسمت لها تخطيطًا آخر جرها بقوة مغناطيسية نحو الأسواق الاستهلاكية. فبينما استطاعت النساء من خلال تكامل السوق العالمية أن يحصلن على أماكن عمل أوسع من الرجال نسبيًّا، نكتشف أنهن خسرن أجرًا ونوعية. ففي بلد يتوقع له أن ينافس على قطبية العالم في السنوات القادمة، وهو الصين، نجد أن جنوبه المتفوق على شماله =

طَبِيعَةَ الرَّجُلِ وَطَبِيعَةَ الْمَرْأَةِ، وَمَا كَانَ الْبَشَرُ يَحْسُبُونَ إِحْصَائِيَّاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ الْفَرْدِيَّةِ الْغَرِيبَةِ إِلَّا لَمَّا فَصَلُوا الْمَرْأَةَ عَنِ الرَّجُلِ فِي تَكْوِينِ الْأُسْرَةِ ثُمَّ هَا هُمْ يَشْتَكُونَ الْأَرْقَامَ الْمُرْعِبَةَ الَّتِي تُثْبِتُ فَقْرَ النِّسَاءِ لِصَالِحِ الرِّجَالِ.

فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَرَبُّوا عَلَيْهِ أَبْنَاءَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ، وَأَخْبِرُوهُمْ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ الْوَافِدَةَ الآثِمَةَ لَا يُبْطِلُهَا إِلَّا التَّمَسُّكُ بِالشَّرِيعَةِ الْغَرَّاءِ، وَقَنَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ بِهَا رِجَالًا وَنِسَاءً؛ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى كُلِّ نَاعِقٍ وَنَاعِقَةٍ، وَمُفْسِدٍ وَمُفْسِدَةٍ، يُرِيدُونَ تَبْدِيلَ

= في معادلة مقلوبة، تشتغل فيه أكثر من مليوني امرأة في معامل مشبعة بمواد كيماوية خطرة وعلى ماكينات قديمة، وبساعات عمل إضافية إلزامية، ترتفع فيها نسبة الحرائق والتسمم من دون أية حماية أو ضمان صحي، فإذا نطقت المغبونة واحتجت ضد الظروف التعسفية كما حدث مع عاملات النسيج في نهاية عام ١٩٩٦ في كمبوديا، هددت ثلاثون شركة في هونغ كونغ وماليزيا وتايوان، بالانسحاب الفوري من البلاد، ما لم تحمِ الحكومة استثماراتها.

ثم هل لنا أن ننسى أن هذا العصر الكارثي على النساء قد بعث معه عبوديتهن من رقادها والمتمثلة هذه المرة في مهنة الخادمات، فإحصائيات العالم الليبرالي تُقَرِّرُ أن أربعة ملايين فلبينية امْتَهَنَّ الخدمة خارج الوطن، ناهيك من البولونيات اللاتي يهاجرن للعمل في مواسم الصيف، ليرغمن فيما بعد على عمل من نوع آخر يتعامل مع أجسادهن وحدها، بل وربما تباع الواحدة منهن إلى أية جهة طالبة، والكلام عن مافيات تجارة النساء عابرة للقارات، وهو جزء منظم لجريمة ترتبط بتجارة المخدرات والسيارات، فأي امتهان أبشع؟!

باختصار، مع العولمة تدمر الضمان والنسيج الاجتماعي، وقضى على ما بقي للأنثى من أوقات فراغ كانت ملكًا لها ولأسرتها، ثم تركها تبحث عن هوية ثقافية غير هويتها، عدا عمَّا ولّده لديها من قلق متزايد حاصر إحساسها بالاستقرار، الذي هو أهم عنصر في حياتها. فإذا عرفنا أن الفقر قد تأنث نتيجة إحصائية تقول إن ٧٠٪ من مجموع فقراء العالم هم من النساء، ومع هذا فإنهن يعولن ٣٥٪ من مجموع الأسر في العالم، فلا تستمروا معشر الرجال في ترديد: ماذا يردن النساء؟

صحيفة الشرق الأوسط، الاثنين ٢٧ محرم ١٤٢٦ هـ ٧ مارس ٢٠٠٥ العدد (٩٥٩٦).

كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْطِيلَ شَرِيعَتِهِ، وَاسْتِبْدَالَ الْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ بِهَا. تِلْكَ الْمَنَاهِجَ الَّتِي مَا أَنْتَجَتْ فِي بِلَادِ الْكَافِرِينَ إِلَّا هَدْمَ أُسَرِهِمْ، وَتَدْمِيرَ بُيُوتِهِمْ، وَضَيَاعَ نِسَائِهِمْ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



٣٦٧- تحرير المرأة

٥/ ٨/ ١٤١٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَبْدَعَهُ، وَسَنَّ الدِّينَ وَشَرَعَهُ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، لَمْ يَزَلْ عَلَى الْخَلْقِ مُسْتَعْلِيًا، وَبِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ مُتَّصِفًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا وَجْهُهُ، وَلَا يَدُومُ إِلَّا مُلْكُهُ، وَالمَصِيرُ إِلَى حُكْمِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَمُلَ نَسَبًا وَأَصْلًا، وَزَانَ خَلْقًا وَخُلُقًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ فَتَحُوا فِي الْإِسْلَامِ أَقْطَارًا، وَدَكُّوا لِلْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ حُصُونًا، وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَتِلْكَ وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْإِسْلَامُ دِينٌ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وَرَتَّبَ المَسْئُولِيَّاتِ عَلَى كُلٍّ بِحَسَبِهِ، وَالْأُسْرَةُ فِي الْإِسْلَامِ مَحَلُّ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ ابْتِدَاءً بِمَعَايِيرِ اخْتِيَارِ الزَّوْجَةِ، وَانْتِهَاءً بِتَنْشِئَةِ الْجِيلِ نَشْأَةً صَالِحَةً.

وَأَحْكَامُ المَرْأَةِ وَوَاجِبَاتُ الزَّوْجَةِ وَحُقُوقُهَا اسْتَحْوَذَتْ عَلَى أَبْوَابٍ مِنَ الْفِقْهِ كَامِلَةٍ، وَاسْتَغْرَقَتْ أَحْكَامًا مِنَ الشَّرْعِ كَثِيرَةً، فَالنِّسَاءُ فِي الْإِسْلَامِ شَقَائِقُ الرِّجَالِ، وَالمُسْلِمَةُ فِي ظِلِّ دِينِهَا لَيْسَتْ سِلْعَةً تُبَاعُ وَتُشْتَرَى، وَلَا هِيَ عَشِيقَةُ مِزَاجٍ وَهَوًى، وَإِنَّمَا هِيَ نِصْفُ المُجْتَمَعِ، وَقِيَامُ النِّصْفِ الْآخَرِ عَلَى يَدَيْهَا؛ فَهِيَ المُجْتَمَعُ كُلُّهُ، لَهَا حُقُوقُهَا، وَعَلَيْهَا مَسْئُولِيَّتُهَا.

الْعَالِمُ وَالْقَائِدُ، وَالمُفَكِّرُ وَالصَّانِعُ، وَالطَّبِيبُ وَالمُعَلِّمُ، وَالمُنْتِجُونَ مِنْ أَبْنَاءِ

الْمُجْتَمَعِ، هَلْ وُجِدُوا مِنْ غَيْرِ نِسَاءٍ؟! وَهَلْ تَرَبَّوْا إِلَّا عَلَى أَيْدِي النِّسَاءِ؟

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ تَوَالَتِ الْحَمَلَاتُ الْيَهُودِيَّةُ وَالصَّلِيبِيَّةُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَلَقَدْ نَعِقَ النَّاعِقُونَ بِشِعَارَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ؛ لِهَدْمِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَتَقْوِيضِ دَعَائِمِ الْفَضِيلَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ بِاسْمِ الْحُرِّيَّةِ وَالْعَمَلِ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْحُقُوقِ، وَالتَّثْقِيفِ الْجِنْسِيِّ.

وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الَّتِي لَا يَزَالُ الْغَرْبُ وَعُمَلَاؤُهُمْ مِنَ الْعَرَبِ يَصِيحُونَ بِهَا طَاغُوتٌ يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ.

خَدَعُوا بِهِ جَمَاهِيرَ الْأُمَّةِ، وَلَبَّسُوا بِهِ عَلَى جُهَّالِ الْمُسْلِمِينَ وَضُعَفَائِهِمْ، وَهُوَ شِعَارٌ اخْتَرَعَهُ الْيَهُودُ؛ لِيَخْتَرِقُوا بِهِ الشُّعُوبَ، وَلَقَدْ قَالَ قَائِلٌ مِنَ الْيَهُودِ: «كُنَّا قَدِيمًا أَوَّلَ مَنْ صَاحَ فِي النَّاسِ بِالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ، إِنَّ صَيْحَتَنَا بِالْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ قَدْ جَلَبَتْ إِلَى صُفُوفِنَا فِرَقًا كَامِلَةً مِنْ زَوَايَا الْعَالَمِ الْأَرْبَعِ عَنْ طَرِيقِ وُكَلَائِنَا الْمُغَفَّلِينَ، وَقَدْ حَمَلَتْ هَذِهِ الْفِرَقُ أَلْوِيَتَنَا فِي نَشْوَةٍ. إِنَّ الطَّبَقَاتِ الْمُتَعَلِّمَةَ سَتَخْتَالُ زَهْوًا أَمَامَ أَنْفُسِهَا بِعِلْمِهَا، وَسَتَأْخُذُ جُزَافًا فِي مُزَاوَلَةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي حَصَّلَتْهَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي قَدَّمَهُ إِلَيْهَا وُكَلَاؤُنَا؛ رَغْبَةً فِي تَرْبِيَةِ عُقُولِهَا حَسَبَ الِاتِّجَاهِ الَّذِي تَوَخَّيْنَاهُ. سَوْفَ نَقُولُ: حَقُّ الْحُرِّيَّةِ وَوَاجِبُ الْمُسَاوَاةِ، وَبِهَا سَنَمْسِكُ الثَّوْرَ مِنْ قَرْنَيْهِ» اهـ[1].

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الْمَزْعُومَةُ هِيَ الْحُرِّيَّةُ فِي التَّمَرُّدِ عَلَى الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، حُرِّيَّةٌ فِي تَمَرُّدِ الْبَنَاتِ عَلَى وَاجِبِ الْوَالِدَيْنِ فِي حِفْظِهِنَّ، وَحُرِّيَّةٌ فِي تَمَرُّدِ الزَّوْجَةِ عَلَى زَوْجِهَا، وَحُرِّيَّةٌ فِي إِسْقَاطِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ فِي مَهَاوِي الرَّذِيلَةِ وَالْفَاحِشَةِ، هَذَا هُوَ مَفْهُومُ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَ الْأَعْدَاءِ مِنْ صَهَايِنَةِ

---

(١) أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة (٦٥٠).

وَصَلِيبِيِّينَ، لَكِنْ لَمْ تَكُنِ الْحُرِّيَّةُ مَضْمُونَةً لِلْبَنَاتِ الْمُسْلِمَاتِ اللَّائِي يَرْتَدِينَ الْحِجَابَ، بَلْ طُرِدْنَ مِنْ مَدَارِسِهِنَّ، فَأَيْنَ هُوَ حَقُّ الْحُرِّيَّةِ؟ وَلَمْ تَكُنِ الْحُرِّيَّةُ الْمَزْعُومَةُ مَضْمُونَةً لِلنِّسَاءِ الْمُسْتَمْسِكَاتِ بِدِينِهِنَّ، الدَّاعِيَاتِ إِلَيْهِ، بَلْ حُورِبْنَ بِشَتَّى الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ، وَاتُّهِمْنَ بِالْعَمَالَةِ أَوِ التَّخَلُّفِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ هَدْمًا لِلْمُجْتَمَعَاتِ شُيُوعُ الْفَاحِشَةِ، وَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ عَبْرَ وَسَائِلِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ يَسْعَوْنَ بِقُوَّةٍ فِي ذَلِكَ، فَعَقِبَ عُهُودِ الِاسْتِعْمَارِ أَلْقَى الْمُسْتَعْمِرُونَ فِي غَزْوِهِمُ الثَّقَافِيِّ بِثِقَلٍ كَبِيرٍ عَلَى الْمَرْأَةِ، وَجَعَلُوا الْمَرْأَةَ الَّتِي تُنَادِي بِالتَّحَرُّرِ وَنَبْذِ الْحِجَابِ بَطَلَةً مِنْ أَبْطَالِ الْحُرِّيَّةِ، وَرَمْزًا مِنْ رُمُوزِ التَّقَدُّمِ وَالثَّقَافَةِ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ فِي حَادِثَةٍ مِنْ حَوَادِثِ التَّحَرُّرِ، كَيْفَ جَاءَتِ النِّسَاءُ الْمُتَحَرِّرَاتُ وَوَقَفْنَ أَمَامَ الْمُسْتَعْمِرِ، وَأَلْقَيْنَ الْحِجَابَ، وَأَحْرَقْنَهُ بِالنَّارِ، وَوَطِئْنَهُ بِالْأَقْدَامِ، وَهُنَّ يَهْتِفْنَ بِالْحُرِّيَّةِ، وَالْمُسْتَعْمِرُ يُصَفِّقُ لَهُنَّ بِحَرَارَةٍ، وَيَرْسُمُ عَلَى شَفَتِهِ ابْتِسَامَةَ الرِّضَا، ثُمَّ يُدِيرُ مِدْفَعَهُ وَأَسْلِحَتَهُ وَيُعِيدُهَا إِلَى بِلَادِهِ، فَيَحْصُلُ الِاسْتِقْلَالُ، فَإِذَا النَّاسُ يُصَابُونَ بِدَهْشَةٍ، حِينَمَا يُعْلَنُ أَنَّ تِلْكَ النِّسَاءَ الْمُتَحَرِّرَاتِ طَرَدْنَ الْمُسْتَعْمِرَ فَيَجِبُ عَلَى النِّسَاءِ أَنْ يَحْذُونَ حَذْوَهُنَّ، وَيُنْسَى جِهَادُ شَعْبٍ كَامِلٍ، وَلَمْ يُدْرِكِ النَّاسُ وَقْتَهَا أَنَّ الْمُسْتَعْمِرَ لَمْ يَخْرُجْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَصَّبَ أَفْرَاخَهُ أُمَنَاءَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ.

وَتَبْدَأُ بَعْدَهَا السِّينِمَا وَفَنُّ التَّمْثِيلِ الَّذِي مَا بَدَأَ فِي الْعَرَبِ إِلَّا بِعَنَاصِرَ يَهُودِيَّةٍ، أَوْ تَرَبَّتْ فِي أَحْضَانِ الْيَهُودِ، فَيَزْدَهِرُ سُوقُهُ، فَتَنْتَشِرُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَفْلَامُ وَالْمُسَلْسَلَاتُ وَالْمَسْرَحِيَّاتُ الْهَابِطَةُ، يُحِيطُ بِهَا زَخَمٌ كَبِيرٌ مِنَ الْقَصَصِ وَالْمَجَلَّاتِ، وَصُحُفِ الْفَنِّ وَأَهْلِهِ، أَخْبَارُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ، لِبَاسُهُمْ وَأَكْلُهُمْ وَشَرَابُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَصْبَحُوا شَيْئًا مُهِمًّا فِي الْمُجْتَمَعِ، فَهُمْ يُجَاهِدُونَ بِفَنِّهِمْ،

وَالْعَدُوُّ يَخَافُهُمْ، فَتَأَمَّلُوا .. كَيْفَ تُزَوَّرُ الْحَقَائِقُ، وَتُقْلَبُ الْمَوَازِينُ، فَيُصْبِحُ سَقَطُ الْمَتَاعِ، وَشُذَّاذُ النَّاسِ، وَعَالَةُ الْمُجْتَمَعِ عُظَمَاءَ الْأُمَّةِ، وَرُوَّادًا يُسَجِّلُهُمُ التَّارِيخُ، وَلَا يَزَالُونَ يَصِيحُونَ بِكُلِّ صَفَاقَةٍ أَنَّ الْأُمَّةَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْعَيْشَ بِدُونِهِمْ، وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى إِنْتَاجِهِمْ فِي فَنِّهِمُ الْمَزْعُومِ لَوَجَدْتَ أَنَّ أَكْثَرَهُ مُسَلَّطٌ لِإِفْسَادِ الْمَرْأَةِ وَالنَّاشِئَةِ.

أَفْلَامُهُمْ وَمُسَلْسَلَاتُهُمْ فِيهَا مُحَارَبَةُ التَّعَدُّدِ، فَيُصَوَّرُ الرَّجُلُ الَّذِي يَنْوِي تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ عَلَى أَنَّهُ مُجْرِمٌ، وَإِذَا فَعَلَ مَا نَوَى صُوِّرَتْ حَيَاتُهُ بِأَنَّهَا عَذَابٌ دَائِمٌ، وَجَحِيمٌ مُسْتَمِرٌّ، عَلَى نِسَائِهِ وَأَوْلَادِهِ وَنَفْسِهِ، وَأَنَّ الْعِلَاجَ فِي الطَّلَاقِ.

وَفِي إِنْتَاجِ الْفَنِّ لَا يُشْرَعُ التَّعَدُّدُ أَبَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَتِ الزَّوْجَةُ الْأُولَى لَا تُنْجِبُ، فَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْإِنْجَابِ وَجَبَ طَلَاقُ الْأُولَى قَبْلَ الدُّخُولِ بِالثَّانِيَةِ، هَذَا مَا يُنْتِجُهُ الْفَنُّ وَأَهْلُهُ وَيَقْذِفُونَ بِهِ بُيُوتَنَا. وَأَمَّا فِي الْإِسْلَامِ فَإِنَّ الْأَصْلَ تَعَدُّدُ النِّسَاءِ، إِلَّا إِذَا خِيفَ مِنَ الْمَيْلِ.

وَفِي إِنْتَاجِ الْفَنِّ إِذَا طُلِّقَتِ الْمَرْأَةُ حَرُمَ عَلَيْهَا الزَّوَاجُ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ لَا تَنْجَحُ زَوْجَةً! وَأَمَّا إِذَا مَاتَ زَوْجُهَا فَمِنَ الْخِيَانَةِ الْعُظْمَى لِحَقِّهِ أَنْ تَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ! وَرَضِيَ اللهُ عَنْ نِسَاءِ الصَّحَابَةِ؛ إِذْ كَانَتِ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ إِذَا تَرَمَّلَتْ تَزَوَّجَتْ، فَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ تَزَوَّجَهَا جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمَّا مَاتَ تَزَوَّجَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَبَعْدَهُ تَزَوَّجَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَجْمَعِينَ[٢].

---

(٢) قيل: أسلمت قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر بها زوجها جعفر الطيار إلى الحبشة، فولدت له هناك: عبد الله، ومحمدًا، وعونًا. فلما هاجرت معه إلى المدينة سنة سبع، واستشهد يوم مؤتة، تزوج بها أبو بكر الصديق، فولدت له محمدًا وقت الإحرام، فحجت حجة الوداع، ثم توفي الصديق، فغسلته، وتزوج بها علي بن أبي طالب. سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٨٣). =

وَأَمَّا المُسَاوَاةُ فِي الْحُقُوقِ وَالمُسَاوَاةُ فِي الْعَمَلِ، فَشِعَارٌ يُرْفَعُ فِي كُلِّ مُنَاسَبَةٍ، وَيُذْكَرُ فِي كُلِّ مَجَالٍ، يُظْهِرُونَ الشَّفَقَةَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ أَنَّ نِصْفَهَا يَقْبَعُ فِي المَنْزِلِ وَلَا يَعْمَلُ، وَيُحِيلُونَ تَأَخُّرَ الْأُمَّةِ، وَتَخَلُّفَهَا المَادِّيَّ، وَضَعْفَهَا الِاقْتِصَادِيَّ عَلَى عَدَمِ مُشَارَكَةِ المَرْأَةِ لِلرَّجُلِ فِي الْعَمَلِ، وَأَمَّا بَاطِنُهُمْ فَيَنْضَحُ بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ . . يَزْعُمُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ المَرْأَةَ فِي المُجْتَمَعَاتِ المُتَحَضِّرَةِ لَا تَزَالُ تَصْرُخُ وَتَسْتَجْدِي مَنْ يُرْجِعُهَا إِلَى مَنْزِلِهَا، وَيُعِيدُهَا إِلَى مُهِمَّتِهَا الَّتِي خَلَقَهَا اللهُ ﷻ لَهَا.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ أَنَّ أُولَئِكَ المُتَحَرِّرِينَ يَحْشُدُونَ جَمِيعَ النُّصُوصِ وَالْقَصَصِ الَّتِي فِيهَا أَنَّ المَرْأَةَ عَمِلَتْ وَخَرَجَتْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ تُنْتِجُ وَتُدَاوِي الْجَرْحَى، وَتَسْقِي المَاءَ، وَتُتَاجِرُ فِي السُّوقِ، وَلَا يُمَيِّزُونَ صَحِيحَهَا مِنْ سَقِيمِهَا، وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَخْبَارِ التَّارِيخِيَّةِ، وَيَتَغَافَلُونَ عَنْ هَيْئَةِ المَرْأَةِ وَلُبْسِهَا حَالَ خُرُوجِهَا إِذَا احْتَاجَتْ لِلْخُرُوجِ، هَلْ كَانَتْ سَافِرَةً مُتَبَرِّجَةً؟ وَهَلْ كَانَتْ مُتَبَذِّلَةً لِلرِّجَالِ؟ وَهَلْ شَارَكَتِ الرِّجَالَ فِي أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَخْتَصُّونَ بِهَا؟ وَهَلْ خَالَطَتْهُمْ فِي مَحِلَّاتِهِمْ؟ كَلَّا، وَلَوْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا.

أَيْنَ هُمْ مِنْ نُصُوصِ الْحِجَابِ وَالْعَفَافِ ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢] ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؟ وَهَلْ طَبَّقَ هَذِهِ النُّصُوصَ النِّسَاءُ المُتَحَرِّرَاتُ المُتَبَذِّلَاتُ فِي عَصْرِنَا؟!

= قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «وأخرج ابن السّكن بسند صحيح، عن الشعبي، قال: تزوّج عليّ أسماء بنت عميس، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر، فقال كل منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها عليّ: اقضي بينهما. فقالت: ما رأيت شابًّا خيرًا من جعفر، ولا كهلًا خيرًا من أبي بكر، فقال لها عليّ: فما أبقيت لنا؟!» الإصابة (٨/ ١٦).

وَأَمَّا تَمَسُّكُ الْمُسْلِمَاتِ بِالْحِجَابِ فَهُوَ أَمْرٌ أَزْعَجَهُمْ جِدًّا، فَلَا زَالُوا يَسْخَرُونَ مِنْ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمُتَحَجِّبَةِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَمَقَالٍ، فَيَعْرِضُونَ فِي مُسَلْسَلَاتِهِمْ وَأَفْلَامِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمُ الْمَرْأَةَ الَّتِي غَطَّتْ شَعْرَهَا وَجَلَسَتْ فِي مُصَلَّاهَا، وَأَخْفَتْ كَثِيرًا مِنْ زِينَتِهَا وَإِنْ كَانَ وَجْهُهَا بَادِيًا ... يَعْرِضُونَهَا فِي حَالَةٍ مِنَ الْغَبَاءِ وَالدَّرْوَشَةِ وَالْجَهْلِ وَعَدَمِ الْإِدْرَاكِ؟ فَهِيَ عِنْدَهُمْ لَا تَهْتَمُّ بِعَمَلِهَا وَلَا بِبَيْتِهَا، بَلْ هِيَ مَشْغُولَةٌ بِعِبَادَتِهَا وَمُصَلَّاهَا، وَلَا يُهِمُّهَا أَمْرُ أَوْلَادِهَا وَتَرْبِيَتُهُمْ، وَيُرْجِعُونَ ذَلِكَ إِلَى تَزَمُّتِهَا بِالْحِجَابِ، فَهَلِ الْمُحَجَّبَاتُ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ الطَّاهِرَاتِ كَذَلِكَ؟! أَلَا سَاءَ مَا يَصِفُونَ! كَيْفَ وَفِي الْمُنْتَقَبَاتِ وَالْمُحَجَّبَاتِ مَنْ يَحْمِلْنَ أَعْلَى الْمُؤَهِّلَاتِ، وَيَدْرُسْنَ أَدَقَّ التَّخَصُّصَاتِ، وَقَدْ بَرَعْنَ فِي ذَلِكَ بِمَا لَا يُنْكِرُهُ مُنْصِفٌ.

فَمَاذَا يُرِيدُ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْمَرْأَةِ حِينَمَا يُنَفِّرُونَ مِنَ التَّعَدُّدِ، وَيُسَهِّلُونَ أَسْبَابَ الطَّلَاقِ، وَيَضَعُونَ الْعَرَاقِيلَ أَمَامَ الزَّوَاجِ، وَيَفْتَحُونَ أَبْوَابَ الِاخْتِلَاطِ؟

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِفْسَادَ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِ، وَالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ؛ فَالْمَرْأَةُ عَمَلُهَا أَهَمُّ مِنَ الزَّوَاجِ وَالْأَوْلَادِ، وَإِذَا حَدَثَ ذَلِكَ فَعَزَفَ النِّسَاءُ عَنِ الزَّوَاجِ لِأَجْلِ الْعَمَلِ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسَيْنِ أَنْ يُشْبِعَ رَغْبَتَهُ الْجِنْسِيَّةَ خَارِجَ الْإِطَارِ الْمَشْرُوعِ، وَحِينَذَاكَ سَيَرْفَعُونَ شِعَارَ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ، وَإِبَاحَةِ الْفَاحِشَةِ، وَالنَّتِيجَةُ فَسَادُ الْأُسْرَةِ، وَكَثْرَةُ اللُّقَطَاءِ، وَانْتِشَارُ الْفَوَاحِشِ، وَتَدْمِيرُ الْأُمَّةِ، أَبْطَلَ اللهُ كَيْدَهُمْ، وَأَحْبَطَ عَمَلَهُمْ.

اللَّهُمَّ احْفَظْنَا مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ، وَحَرْبِ الْفُجَّارِ، وَاسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا، وَاحْفَظْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِينَا وَمِنْ خَلْفِنَا، وَعَنْ أَيْمَانِنَا وَعَنْ شَمَائِلِنَا.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى كَمَا أَمَرَ، وَاحْذَرُوا الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ: إِنَّ نَجَاحَ الْمُجْتَمَعِ وَنُهُوضَ الْأُمَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِحِفْظِ شَبَابِهَا وَنَاشِئَتِهَا مِنَ الِانْحِرَافِ، وَحِفْظُ الشَّبَابِ وَالنَّاشِئَةِ مَرْهُونٌ بِحِفْظِ نِسَاءِ الْأُمَّةِ، فَالمَرْأَةُ هِيَ الْمُرَبِّيَةُ فِي الْمَنْزِلِ، وَإِذَا حُفِظَتِ الْبِنْتُ فَلَنْ يَجِدَ الشَّابُّ مَا يُفْتَتَنُ بِهِ فَتَسْتَقِيمُ وَيَسْتَقِيمُ.

وَإِنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الْمُسْتَمْسِكَةَ بِدِينِهَا وَطُهْرِهَا لَا زَالَتْ بِحِجَابِهَا تَقْهَرُ الْأَعْدَاءَ قَهْرًا يَفُوقُ قُوَّةَ السِّلَاحِ، وَخِدَاعَ السِّيَاسَةِ، وَلَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مَرْجِعُهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا.

أَخَذَ الْمُسْتَعْمِرُونَ عَدَدًا مِنْ بَنَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ لِتَرْبِيَتِهِنَّ وَتَعْلِيمِهِنَّ، ثُمَّ إِرْجَاعِهِنَّ رَائِدَاتٍ فِي بِلَادِهِنَّ، وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنَ التَّلْوِيثِ الْفِكْرِيِّ، وَالْمَسْخِ الْأَخْلَاقِيِّ، كَانَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ يُخْفِينَ تَمَسُّكَهُنَّ بِدِينِهِنَّ، وَيُجَارِينَ الْوَضْعَ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِنَّ، وَفِي حَفْلِ التَّخْرِيجِ وَأَمَامَ جَمْهَرَةٍ مِنَ النَّاسِ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَ أُولَئِكَ الْفَتَيَاتِ سَافِرَاتٍ مُتَبَرِّجَاتٍ، وَكَانَ الْأَسْيَادُ وَالْمُرَبُّونَ يَنْتَظِرُونَ هَذِهِ اللَّحْظَةَ الْحَاسِمَةَ بِغِبْطَةٍ بَالِغَةٍ؛ لِيُبَرْهِنُوا نَجَاحَهُمْ فِي إِفْسَادِ الشُّعُوبِ الْمُسْلِمَةِ، فَإِذَا بِالْفَتَيَاتِ يُفَاجِئْنَ الْحُضُورَ بِالْخُرُوجِ مُتَحَجِّبَاتٍ مُحْتَشِمَاتٍ، فَيُصَابُ الْمُسْتَعْمِرُونَ

بِالصَّدْمَةِ، وَيَقُولُ كَبِيرُهُمْ: وَمَاذَا أَصْنَعُ إِذَا كَانَ الْقُرْآنُ أَقْوَى مِنَّا؟![٣].

إِنَّ المَرْأَةَ المُسْلِمَةَ عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ كَانَتْ بِدِينِهَا تُوَجِّهُ صَفَعَاتٍ مُوجِعَةً لِوُجُوهِ الْأَعْدَاءِ وَالمُسْتَعْمِرِينَ، وَهَا هِيَ المَرْأَةُ مِنْ جَدِيدٍ تَعُودُ لِرَبِّهَا، وَتَتَزَيَّا بِحِجَابِهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْعَالَمِ، مَعَ مَا تُوَاجِهُهُ مِنْ ضُغُوطٍ وَمُضَايَقَاتٍ، وَلَكِنَّهَا لَا تَزَالُ أَبِيَّةً قَوِيَّةً، لَا يُهِمُّهَا أَنْ تُفْصَلَ مِنْ مَدْرَسَتِهَا أَوْ جَامِعَتِهَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ حِجَابِهَا وَفِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا تَلْتَفِتُ المُمَثِّلَاتُ وَالمُغَنِّيَاتُ إِلَى انْتِقَادَاتِ أَهْلِ الْعَفَنِ الْفَنِّيِّ إِذَا هِيَ خَرَجَتْ مِنْ جَحِيمِهِمْ وَعَادَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، حَتَّى أَصْبَحَ الْحِجَابُ -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- ظَاهِرَةً فِي كُلِّ مَكَانٍ حَتَّى فِي دُوَلِ الِانْحِلَالِ، بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ غُرْبَةِ الْحِجَابِ فِي أَوْسَاطِ النِّسَاءِ.

وَصَارَتْ تَوْبَةُ نِسَاءِ الْفَنِّ اللَّاتِي قَضَيْنَ فِيهِ سَنَوَاتٍ طِوَالًا أَمْرًا مَلْحُوظًا، عَادَ كَثِيرٌ مِنْهُنَّ إِلَى رَبِّهِنَّ رَغْمَ أُنُوفِ المُفْسِدِينَ، فَتَنَفَّسَتِ الْأَحْقَادُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَبَدَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَرُجُوعُ النَّاسِ إِلَى رَبِّهِمْ أَثَارَ حَنَقَهُمْ وَغَضَبَهُمْ، فَسَوَّدُوا الصُّحُفَ،

(٣) في ذكرى مرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر وقف الحاكم الفرنسي في الجزائر يقول: (يجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم ... ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم) مجلة المنار ٩/ ١١/ ١٩٦٢.

وبعد ذلك بسنوات قلائل: قامت فرنسا -من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر- بتجربة عملية، فتم انتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، ولَقَّنَتْهُنّ الثقافة الفرنسية، وعلمتهن اللغة الفرنسية، فأصبحن كالفرنسيات تمامًا. وبعد أحد عشر عامًا من الجهود هيأت لهن حفلة تخرج رائعة، دُعِيَ إليها الوزراء والمفكرون والصحفيون .. ولما ابتدأت الحفلة فوجئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري .. فثارت ثائرة الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عامًا؟! أجاب (لاكوست) وزير المستعمرات الفرنسي: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟! جريدة الأيام عدد ٧٧٨٠ - بتاريخ ٦ كانون الأول ١٩٦٢. عن عودة الحجاب (١/ ٢٨٩).

وَكَتَبُوا المَقَالَاتِ مُعْلِنِينَ حَرْبًا لَا هَوَادَةَ فِيهَا عَلَى التَّائِبِينَ الْآيِبِينَ وَالتَّائِبَاتِ الْآيِبَاتِ، أَلَا كَسَرَ اللهُ تَعَالَى أَقْلَامَهُمْ، وَشَلَّ أَرْكَانَهُمْ، وَأَخْرَسَ أَلْسِنَتَهُمْ، وَسَوَّدَ صَحَائِفَهُمْ، وَنَكَّسَ رَايَاتِهِمُ النِّفَاقِيَّةَ.

وَرَغْمَ الِانْتِقَادَاتِ الشَّدِيدَةِ لِلتَّائِبِينَ وَالتَّائِبَاتِ، وَالْحَرْبِ الْإِعْلَامِيَّةِ الشَّرِسَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ ظَاهِرَةَ الصَّحْوَةِ وَالتَّوْبَةِ تَزْدَادُ نُمُوًّا وَقُوَّةً.

وَكَمْ هُوَ جَمِيلٌ كَلَامُ رَجُلٍ غَرْبِيٍّ أَسْلَمَ وَوَصَفَ حَالَ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ الصَّابِرَةِ عَلَى دِينِهَا، الْمُتَأَبِّيَةِ عَلَى التَّغْرِيبِ رَغْمَ مَا تَتَعَرَّضُ لَهُ مِنْ إِهَانَةٍ وَإِيذَاءٍ، قَالَ: فَكُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ صَبْرِهَا وَجَلَدِهَا، فَلَمَّا أَسْلَمْتُ وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ أَدْرَكْتُ أَنَّ السِّرَّ فِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَاحْفَظُوا عَوْرَاتِكُمْ.

اللهَ اللهَ فِي نِسَائِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ، احْفَظُوهُنَّ، وَلَا يَكُنِ التَّرَفُ سَبَبًا فِي إِهْمَالِهِنَّ وَضَيَاعِهِنَّ، فَالْغَيْرَةُ عَلَى الْعِرْضِ مَحْمُودَةٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ تُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ، وَالدَّيُّوثُ هُوَ الَّذِي يُقِرُّ الْخَبَثَ فِي أَهْلِهِ، وَالْجَنَّةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ، وَمُقَدِّمَاتُ الْفَسَادِ وَالِانْحِلَالِ: التَّبَرُّجُ وَالسُّفُورُ، وَعَدَمُ الْحَذَرِ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَلَوْ كَانَ سَائِقًا أَوْ خَادِمًا، وَالِاخْتِلَاطُ بِالرِّجَالِ فِي الْأَسْوَاقِ وَغَيْرِهَا. فَكُلُّهَا مُقَدِّمَاتٌ لِذَهَابِ الْحَيَاءِ، وَانْتِزَاعِ الْخَجَلِ، وَالْمَرْأَةُ لَا تَصْلُحُ إِلَّا بِالْحَيَاءِ.

أَدَامَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمَاتِ السَّتْرَ وَالْعَفَافَ، وَحَفِظَهُنَّ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ وَالْفَسَادِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٣٦٨- مؤتمر المرأة في بكين

١٣/ ٤/ ١٤١٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الرَّجُلَ وَالمَرْأَةَ فِي مِيزَانِ الْإِسْلَام جَنَاحَانِ لَا تَقُومُ الحَيَاةُ الْبَشَرِيَّةُ إِلَّا بِهِمَا، وَلَا تُنْتِجُ أُسْرَةٌ صَالِحَةٌ إِلَّا بِالمُوَاءَمَةِ بَيْنَهُمَا؛ فَالْحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ المَرْأَةِ هِيَ الْحِكْمَةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا الرَّجُلُ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَعَلَّقَ ﷻ سَعَادَةَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ بِأَدَاءِ هَذِهِ المُهِمَّةِ الْجَلِيلَةِ، وَجَعَلَ التَّعَاسَةَ وَالشَّقَاءَ فِي الْإِعْرَاضِ عَنْهَا ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

وَالْإِسْلَامُ فِي تَعَالِيمِهِ لَمْ يَجْعَلْ عَلَاقَةَ الرَّجُلِ بِالمَرْأَةِ عَلَاقَةَ صِرَاعٍ وَمُنَافَسَةٍ، يُثْبِتُ فِيهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وُجُودَهُ عَلَى حِسَابِ الْآخَرِ، وَيَفْرِضُ آرَاءَهُ دُونَهُ، بَلْ بَيَّنَ الْإِسْلَامُ عَلَاقَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِنْسَيْنِ بِالْآخَرِ؛ فَالزَّوْجَانِ فِي بَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ

لِكُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى الآخَرِ حُقُوقُهُ وَعَلَيْهِ وَاجِبَاتُهُ، وَلِلْأَوْلَادِ حُقُوقٌ أُخْرَى، وَالْقَرَابَةُ لَهُمْ حُقُوقُهُمْ.

وَحَقُّ المُجْتَمَعِ عَلَى المَرْأَةِ أَنْ تَتَزَيَّا بِالْحِجَابِ، وَتَتَخَلَّقَ بِالْحَيَاءِ، وَلَا تَفْتِنَ الرِّجَالَ. وَحَقُّ المُجْتَمَعِ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ لَا تَمْتَدَّ عَيْنُهُ إِلَى غَيْرِ مَحَارِمِهِ، وَلَا يَبْحَثَ عَنْ سِوَى أَهْلِهِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى المَرْأَةِ الْعِنَايَةُ بِالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ وَالْبَيْتِ، وَزَوْجُهَا يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ لِيُوَفِّرَ الْغِذَاءَ وَاللِّبَاسَ وَالمَسْكَنَ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وَهَكَذَا تَكُونُ الْأُسْرَةُ سَوِيَّةً تَسِيرُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ صِرَاعٌ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ عَلَى تَقْرِيرِ المَصِيرِ، أَوْ فَرْضِ الْحُقُوقِ، فَذَلِكَ مُنْتَظِمٌ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ؛ حَيْثُ خَاطَبَ اللهُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ بِذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، وَإِذَا خَاطَبَ الشَّرْعُ الرِّجَالَ دَخَلَ النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْخِطَابِ، إِلَّا فِيمَا يَخُصُّهُمْ.

مُنَاسَبَةُ هَذَا الْحَدِيثِ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مَا تَسْمَعُونَ بِهِ مِنْ مُؤْتَمَرِ المَرْأَةِ الَّذِي يُعْقَدُ فِي بِكِينَ، وَلَيْسَ الْحَدِيثُ عَنْ بُنُودِهِ وَوَثِيقَتِهِ المَلِيئَةِ بِالشُّذُوذِ وَالْفَسَادِ، وَالظُّلْمِ لِلْمَرْأَةِ وَلِلطِّفْلِ وَالْأُسْرَةِ؛ فَذَلِكَ أَمْرٌ ظَهَرَ لِلنَّاسِ، وَتَحَدَّثَ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَكِنَّ الْجَدِيرَ بِالتَّأَمُّلِ هُوَ ذَلِكُمُ الضَّجِيجُ الَّذِي يُثِيرُهُ الْغَرْبُ وَأَذْنَابُهُمُ الْعَلْمَانِيُّونَ حَوْلَ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ، وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهَا كَمَا يَزْعُمُونَ.

يَقُولُونَ: نُرِيدُ تَحْرِيرَهَا مِنْ قُيُودِ الدِّينِ الَّذِي يُعِيقُ انْطِلَاقَهَا مِنَ المَنْزِلِ، وَمُنَافَسَتَهَا لِلرِّجَالِ فِي الْأَعْمَالِ وَالسِّيَاسَةِ؛ لِكَيْ تَتَبَوَّأَ مَكَانَةً عَالِيَةً، وَتُحْفَظَ كَرَامَتُهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشِّعَارَاتِ الْبَرَّاقَةِ الَّتِي يَلُوحُونَ بِهَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ، وَالمُسَاوَاةِ، وَحَقِّ التَّعْلِيمِ، وَحَقِّ الْعَمَلِ، وَحَقِّ السِّيَاسَةِ. وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْغَرْبَ

وَمِنْ وَرَائِهِمْ أَذْنَابُهُمْ مِنَ الْعَلْمَانِيِّينَ الْعَرَبِ حِينَمَا يَهْتِفُونَ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ لَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ عَنْهُمُ الْعَدْلُ، بَلْ هُمْ أَهْلُ الْقَهْرِ وَالظُّلْمِ وَالتَّسَلُّطِ عَلَى الْغَيْرِ.

كَمْ نَاصَرَتْ تِرَسَانَةُ الْغَرْبِ الْعَسْكَرِيَّةُ الظُّلْمَ وَالْعُدْوَانَ؟ وَقَدْ خَلَتْ أَقْلَامُ الْعَلْمَانِيِّينَ وَأَلْسِنَتُهُمْ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ! هَذَا مُؤْتَمَرُهُمْ لَمْ يَتَعَرَّضْ مِنْ قَرِيبٍ وَلَا مِنْ بَعِيدٍ لِحُقُوقِ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ نِسَاءِ الْبُوسْنَةِ الْمُغْتَصَبَاتِ، وَلَمْ يَذْكُرْ شَيْئًا عَنْ حُقُوقِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي كَشْمِيرَ، وَالشِّيشَانِ، وَفِلَسْطِينَ، وَالْفِلِبِّينِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَنْكُوبَةِ مِمَّنْ يُوَاجِهْنَ أَبْشَعَ صُوَرِ الْإِهَانَةِ وَالِاحْتِقَارِ وَالِاغْتِصَابِ.

لَمْ يَتَنَاوَلْ مُؤْتَمَرُهُمُ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ الَّتِي قُتِلَ زَوْجُهَا، وَسُرِقَ أَطْفَالُهَا، وَأُخْرِجَتْ مِنْ دَارِهَا، وَبِيعَتْ إِلَى تُجَّارِ الْبِغَاءِ فِي سُوقِ الرَّقِيقِ الْأُورُبِّيَّةِ! هَلْ يُوجَدُ ظُلْمٌ لِلْمَرْأَةِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا الظُّلْمِ، أَمْ أَنَّ الْمُسْلِمَةَ لَيْسَ لَهَا حُقُوقٌ؟! أَيْنَ هُمُ الْعَرَبُ الْمُتَحَرِّرُونَ؟ فَلْيَنْطِقُوا وَلْيَكْتُبُوا أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذِهِ الْمُؤْتَمَرَاتِ هُوَ إِفْسَادُ الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ.

وَإِلْصَاقُ ظُلْمِ الْمَرْأَةِ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ قَدِ انْكَشَفَ عُوَارُهُ، وَظَهَرَ لِجَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ زُورُهُ، بَلْ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ مُفَكِّرِي الْغَرْبِ يَعْلَمُونَ أَنَّ تِلْكَ الْمَقُولَةَ الْقَدِيمَةَ مَا هِيَ إِلَّا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الزُّورِ وَالْبُهْتَانِ؛ فَالَّذِينَ عَايَشُوا الْمُسْلِمِينَ، وَعَرَفُوا الْإِسْلَامَ يُدْرِكُونَ أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُسْلِمَةَ تَتَبَوَّأُ فِي الْمُجْتَمَعِ الَّذِي يُطَبِّقُ الْإِسْلَامَ مَكَانَةً عَالِيَةً، مَكَانَةً حَفِظَتْ لَهَا كَرَامَتَهَا وَآدَمِيَّتَهَا، وَصَانَتْ عَفَافَهَا.

لَمْ يَعْتَبِرِ الْإِسْلَامُ الْمَرْأَةَ جُرْثُومَةً خَبِيثَةً، أَوْ سَبَبًا لِلْخَطِيئَةِ الْأُولَى كَمَا اعْتَبَرَتْهَا الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ، بَلْ إِنَّ الْإِسْلَامَ يُقَرِّرُ الْحَقِيقَةَ الْمُهِمَّةَ الَّتِي تُزِيلُ الْإِهَانَةَ عَنِ

المَرْأَةِ، وَقَدْ وَصَمَتْهَا بِهَا الْأَدْيَانُ المُحَرَّفَةُ. إِنَّ الْإِسْلَامَ يُثْبِتُ أَنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنَ الرَّجُلِ، وَأَنَّ خَلْقَ المَرْأَةِ كَانَ نِعْمَةً يَنْبَغِي أَنْ يَحْمَدَ الرِّجَالُ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَيْهَا ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وَالمَرْأَةُ مِثْلُ الرَّجُلِ فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ؛ تَتَنَاوَلُهَا الْأَوَامِرُ وَالنَّوَاهِي الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ تُحْمَدُ إِذَا اسْتَجَابَتْ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُذَمُّ إِنْ تَنَكَّبَتِ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وَالتَّنَاصُرُ فِي المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ، وَالْقِيَامُ بِالْأَعْبَاءِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، يَشْمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، وَإِيذَاءُ المُؤْمِنَاتِ هُوَ مِثْلُ إِيذَاءِ المُؤْمِنِينَ، يَمْقُتُ اللهُ تَعَالَى صَاحِبَهُ، وَيَسْتَوْجِبُ عُقُوبَتَهُ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

كُلُّ هَذِهِ النُّصُوصِ وَغَيْرِهَا تُظْهِرُ بِجَلَاءٍ وَوُضُوحٍ أَنَّ الْإِسْلَامَ حَمَّلَ المَرْأَةَ المَسْئُولِيَّةَ كَمَا حَمَّلَهَا الرَّجُلَ، لَكِنَّهُ اسْتَثْنَى المَرْأَةَ مِنْ بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي فِي صَالِحِهَا أَنْ تُسْتَثْنَى مِنْهَا.

يُرِيدُ قَوْمُنَا المُتَحَرِّرُونَ مِنْ تَعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ أَنْ تَكُونَ المَرْأَةُ عِنْدَنَا كَمَا هِيَ فِي الْغَرْبِ، لَيْسَتْ ذَاتَ مَسْئُولِيَّةٍ وَلَا مَنْزِلٍ، وَلَا زَوْجٍ وَلَا أَوْلَادٍ، تُقَدِّسُ الْعَمَلَ، وَتَدُورُ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الرِّجَالِ، يَلَغُونَ فِيهَا كَمَا تَلَغُ الْكِلَابُ المَسْعُورَةُ فِي فَرِيسَتِهَا.

يُرِيدُونَهَا أَنْ تكُونَ مُسْتَنْقَعًا لِلْقَاذُورَاتِ، وَمَصْرِفًا لِلشَّهَوَاتِ، فَهُمْ -قَاتَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى- يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِسْلَامَ حفظ حَقَّ الْمَرْأَةِ، وَحَفِظَهَا مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ يُخْفُونَ تِلْكَ الْحَقِيقَةَ؛ لِأَنَّ شَهَوَاتِهِمْ تَأْبَى إِظْهَارَهَا، وَهَا هُوَ الْمُجْتَمَعُ الْغَرْبِيُّ الْمُنْحَلُّ يَغْرِقُ فِي الْإِثْمِ، وَيَجْنِي ثَمَنَ الْفَاحِشَةِ .. أَوْبِئَةً وَجَرَائِمَ وَمُشْكِلَاتٍ، سَبَبُهَا الْأَعْظَمُ احْتِرَافُ كَثِيرٍ مِنْ نِسَائِهِمُ الْبِغَاءَ، وَإِطْلَاقُ الْحُرِّيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ بِلَا ضَوَابِطَ إِلَّا التَّرَاضِي بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، حَتَّى قَالَتْ عَجُوزٌ أَيرْلَنْدِيَّةٌ ثَمَانِينِيَّةٌ وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى التَّفَكُّكِ الْأُسَرِيِّ بِسَبَبِ الْفَسَادِ الْمُسْتَشْرِي: إِنَّنِي أَعِيشُ وَحِيدَةً .. أَوْلَادِي وَأَحْفَادِي يَعِيشُونَ فِي مُونْتِرْيَال، أَتَلَقَّى مِنْهُمُ الرَّسَائِلَ بِانْتِظَامٍ، وَأَشْعُرُ أَنَّ عَمَلِيَّةَ تَنَاوُلِ الرَّسَائِلِ بَاتَتْ (مِيكَانِيكِيَّةً)؛ لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ مِنَ الْوُدِّ الْحَقِيقِيِّ ...، هَذَا لَيْسَ ذَنْبَهُمْ ..، أَعُودُ سِتِّينَ عَامًا إِلَى الْوَرَاءِ، عِنْدَمَا كَانَتْ حَيَاتُنَا أَشْبَهَ بِالْمِهْرَجَانِ الدَّائِمِ، الْآنَ تَبَدَّلَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَبْدُو أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ يَسِيرُونَ (فِي جَنَازَةٍ هُمُ الْأَمْوَاتُ فِيهَا)[١].

وَذَكَرَتْ تَقَارِيرُهُمْ أَنَّ سَبَبَ ارْتِفَاعِ مُعَدَّلِ جَرِيمَةِ النِّسَاءِ: هُوَ أَنَّ الْمَرْأَةَ مُنِحَتْ حُقُوقًا مُتَسَاوِيَةً مَعَ الرَّجُلِ، وَأَنَّ ذَلِكَ شَجَّعَهَا عَلَى ارْتِكَابِ نَفْسِ الْجَرَائِمِ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الرِّجَالُ؛ لِأَنَّهَا صَارَتْ مِثْلَهُمْ.

إِنَّ عُقَلَاءَ الْغَرْبِ وَمُفَكِّرِيهِمْ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ يَصِيحُونَ بِقُوَّةٍ لِإِرْجَاعِ الْمَرْأَةِ الْغَرْبِيَّةِ إِلَى مَنْزِلِهَا، ذَكَرَتْ بَاحِثَةٌ مِنْهُمُ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي تَعِيشُهَا الْمَرْأَةُ فِي بِلَادِهِمْ فَقَالَتْ: إِنَّ الْمَرْأَةَ السُّوِيدِيَّةَ فَجْأَةً اكْتَشَفَتْ أَنَّهَا اشْتَرَتْ وَهْمًا هَائِلًا -تَقْصِدُ الْحُرِّيَّةَ- بِثَمَنٍ مُفْزِعٍ هُوَ سَعَادَتُهَا الْحَقِيقِيَّةُ[٢]، فَهِيَ تُرِيدُ الْآنَ أَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ

(١) من واقع الحضارة الغربية، أبو البراء عبد العزيز بن محمد، مجلة البيان، عدد (٤١) ص(٣٧).
(٢) قائلة ذلك هي القاضية السويدية: بريجيت أوف هاهر.

مُعْظَمِ حُرِّيَّتِهَا فِي سَبِيلِ كُلِّ سَعَادَتِهَا.

أَلَمْ يَقْرَأْ دُعَاةُ تَحْرِيرِ المَرْأَةِ هَذَا الْكَلَامَ الصَّادِرَ مِنْ نَفْسِ الْبِلَادِ الْمُتَحَرِّرَةِ؟ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ نِسَاءَ الْغَرْبِ تُمَزِّقُهُنَّ مَأْسَاةٌ مُؤْلِمَةٌ؟ فَهُنَّ يَحْمِلْنَ عَلَى أَكْتَافِهِنَّ ظُلْمَ الرِّجَالِ وَصُعُوبَةَ الْحَيَاةِ . . يَحْمِلْنَ عَلَى أَكْتَافِهِنَّ أَطْفَالًا حُرِمُوا حَنَانَ الْأُبُوَّةِ، لَا تَزَالُ المَرْأَةُ تَحْمِلُ فِي أَحْشَائِهَا طِفْلًا لَا تَدْرِي مَنْ هُوَ أَبُوهُ. المَرْأَةُ فِي عَالَمِ التَّحْرِيرِ لَمْ تَخْسَرِ الْحَيَاةَ فَقَطْ، بَلْ خَسِرَهَا النَّاسُ وَالْمُجْتَمَعُ، خَسِرَتِ الْمُجْتَمَعَاتُ فِيهَا الْمُرَبِّيَةَ الْكَبِيرَةَ لِلْأَجْيَالِ الضَّائِعَةِ.

خَسِرَ الْغَرْبُ صَانِعَةَ الْحَنَانِ فِي مُجْتَمَعٍ سَادَتْ فِيهِ المَادَّةُ، خَسِرُوا الزَّوْجَةَ الْكَرِيمَةَ، وَالشَّرِيكَةَ الْفَاضِلَةَ المُحَافِظَةَ؛ فَقَدْ شُغِلَتِ المَرْأَةُ بِالْعَمَلِ وَتَحْصِيلِ المَتَاعِ الرَّخِيصِ.

هَا هِيَ المَرْأَةُ فِي الْمُجْتَمَعَاتِ الْمُتَحَرِّرَةِ تُطَالِبُ بِمَنْعِ اسْتِغْلَالِ جَسَدِهَا وَمَفَاتِنِهَا فِي الدِّعَايَاتِ التِّجَارِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ أَفْجَرَ الْمُمَثِّلَاتِ وَالرَّاقِصَاتِ بَدَأْنَ يَشْعُرْنَ بِسُقُوطِ المَرْأَةِ أَمَامَ قَدَمَيِ الرَّجُلِ وَنَفْسِيَّتِهِ الْجَشِعَةِ فِي ظِلِّ الْحُرِّيَّةِ المَزْعُومَةِ.

وَلَعَلَّكُمْ قَرَأْتُمْ ذَلِكُمُ الْخَبَرَ عَنْ مُمَثِّلَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ كَانَتْ تُمَثِّلُ مَشْهَدًا قَذِرًا أَمَامَ الْكَامِيرَا، فَثَارَتْ ثَوْرَةً عَارِمَةً، وَصَاحَتْ فِي وَجْهِ المُمَثِّلِ وَالمُخْرِجِ، وَكَالَتْ لَهُمْ سَيْلًا مِنَ الشَّتَائِمِ المُقْذِعَةِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَنْتُمُ الرِّجَالُ، لَا تُرِيدُونَ مِنَّا النِّسَاءِ إِلَّا أَجْسَادَنَا؛ حَتَّى تُصْبِحُوا مِنْ أَصْحَابِ المَلَايِينِ عَلَى حِسَابِنَا، ثُمَّ انْفَجَرَتْ بَاكِيَةً.

لَقَدِ اسْتَيْقَظَتْ فِطْرَةُ هَذِهِ المَرْأَةِ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْحَيَاةِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي تَغْرَقُ فِيهَا، اسْتَيْقَظَتْ لِتُقَدِّمَ الدَّلِيلَ الْقَاطِعَ عَلَى المَأْسَاةِ الْكُبْرَى الَّتِي تَعِيشُهَا المَرْأَةُ الَّتِي قَالُوا: إِنَّهَا مُتَقَدِّمَةٌ وَمُتَحَضِّرَةٌ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَرَاهَا قَوْمُنَا

بِلَادَ التَّحَضُّرِ وَالتَّطَوُّرِ. هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُحَاوِلُ الْمُنَافِقُونَ إِخْفَاءَهَا.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، وَجَعَلَ تَدْبِيرَهُمْ تَدْمِيرَهُمْ، وَأَرَاهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ وَاقْتَفَى أَثَرَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ وَاجَهَتِ الشُّعُوبُ الْإِسْلَامِيَّةُ أَنْوَاعًا مِنَ الْغَزْوِ الْفِكْرِيِّ، وَالتَّسَلُّطِ الْعَسْكَرِيِّ، وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ هَدَفًا مُهِمًّا لِلْغَازِي، وَنَجَحَ ذَلِكَ الْغَزْوُ حِينًا، وَفَشِلَ أَحْيَانًا أُخْرَى، فَالْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ يَتَجَاذَبُهَا طَرَفَانِ: تَعَالِيمُ دِينِهَا وَمَبَادِئِهَا وَأَخْلَاقِهَا الْمَصْحُوبَةِ بِالْفَقْرِ وَالْقَهْرِ وَالتَّسَلُّطِ مِنْ قِبَلِ الْأَعْدَاءِ؛ فَلَا تَزَالُ تُتَّهَمُ بِأَنَّهَا رَجْعِيَّةٌ، وَأَنَّ دِينَهَا سَبَبُ فَقْرِهَا.

وَطَرَفٌ آخَرُ مُفْسِدٌ يَجْبِذُهَا إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ زَهْرَةُ الدُّنْيَا، وَمَكَافَأَةُ الْمُسْتَعْمِرِ، وَمُغْرِيَاتُ الْغُزَاةِ، بِاسْمِ الْفَنِّ وَالثَّقَافَةِ وَالْحُرِّيَّةِ. تُعْطَى الْأَوْسِمَةَ، وَتُمْنَحُ الْأَمْوَالَ وَالْجَوَائِزَ، وَتُزَيِّنُ أَغْلِفَةَ الْمَجَلَّاتِ، وَتُعْرَضُ فِي الدِّعَايَاتِ نَظِيرَ تَخَلِّيهَا عَنْ دِينِهَا، وَقَتْلِ حَيَائِهَا، فَانْزَلَقَ نِسَاءٌ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الرَّدِيئَةِ، وَحَقَّقْنَ مُرَادَ

الْمُسْتَعْمِرِينَ، وَتَحَلَّى أُخْرَيَاتٌ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ عَلَى شَظَفِ الْعَيْشِ، وَقِلَّةِ ذَاتِ الْيَدِ، وَسَيْلِ الِاتِّهَامَاتِ الْمُتَدَفِّقِ مِنْ أَلْسُنِ الشَّانِئِينَ، وَأَقْلَامِ الْمُنَافِقِينَ. صَبَرْنَ مِنْ أَجْلِ دِينِهِنَّ وَأَخْلَاقِهِنَّ، ثُمَّ فِي عَصْرِنَا هَذَا تَنَبَّهَ كَثِيرٌ مِمَّنِ انْزَلَقْنَ فِي الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْآسِنَةِ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ إِلَى أَنَّهُنَّ كُنَّ يَسِرْنَ فِي طَرِيقِ الْخَطِيئَةِ، فَعُدْنَ إِلَى دِينِهِنَّ وَحِجَابِهِنَّ، حَتَّى فِي الْبِلَادِ الَّتِي رَسَخَتْ فِيهَا الْعَلْمَانِيَّةُ وَدَعْوَى تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ.

وَلَكِنَّ الْمُلْفِتَ لِلنَّظَرِ، وَالْجَدِيرَ بِالتَّأَمُّلِ هُوَ أَنَّ ذَلِكُمُ النَّجَاحَ وَالْفَشَلَ الَّذِي يَدُورُ الْغُزَاةُ فِي فَلَكِهِ لَهُ سَبَبٌ مُهِمٌّ فِي كِلَا الْجَانِبَيْنِ؛ فَسَبَبُ نَجَاحِهِمْ وُجُودُ الْقَابِلِيَّةِ لِلْفَسَادِ وَالتَّحَرُّرِ مِنْ قُيُودِ الدِّينِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يَسْتَعْمِرُونَهَا. وَسَبَبُ الْفَشَلِ يَكُونُ بِإِصْرَارِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ، وَإِصْرَارِ الْمُسْلِمَاتِ عَلَى حِجَابِهِنَّ وَعَفَافِهِنَّ.

فَإِذَا لَمْ تُوجَدِ الْقَابِلِيَّةُ لِلِاسْتِعْمَارِ وَالْإِفْسَادِ لَدَى الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ فَلَنْ يَسْتَطِيعَ الْغَازِي بِقَنَوَاتِهِ وَمُغْرِيَاتِهِ، وَلَا بِدُورِ أَزْيَائِهِ وَمَجَلَّاتِهِ أَنْ يُغَيِّرَ الْمَرْأَةَ، وَيُفْسِدَ دِينَهَا، وَيُذْهِبَ أَخْلَاقَهَا. كَمَا لَنْ يَسْتَطِيعَ الْمُسْتَعْمِرُ بِدَبَّابَتِهِ وَبُنْدُقِيَّتِهِ أَنْ يَنْزِعَ حِجَابَ الْمَرْأَةِ بِالْقُوَّةِ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَسُنَّةٌ تَارِيخِيَّةٌ.

وَلَكِنْ مَتَى تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِقَبُولِ مَا عِنْدَ الْمُسْتَعْمِرِينَ الْمُفْسِدِينَ؟ وَمَتَى لَا تُوجَدُ؟

لَا تُوجَدُ حِينَمَا يَكُونُ عِنْدَ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ حَصَانَةٌ شَرْعِيَّةٌ، وَتَدَيُّنٌ صَادِقٌ، وَاتِّبَاعٌ صَحِيحٌ، وَابْتِعَادٌ عَنِ الْمُغْرِيَاتِ.

لَا تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِلْفَسَادِ حِينَمَا تُدْرِكُ الْمَرْأَةُ أَنَّ فَوْزَهَا وَسَعَادَتَهَا هِيَ فِي دِينِهَا، وَأَنَّ عَدُوَّهَا يُرِيدُ إِخْرَاجَهَا مِنْهُ.

لَا تُوجَدُ حِينَمَا يَأْبَى الْمُجْتَمَعُ كُلُّهُ أَيَّ لَوْنٍ مِنْ أَلْوَانِ التَّبَعِيَّةِ وَالتَّقْلِيدِ،

وَمَشْرُوعَاتِ الْإِفْسَادِ وَالتَّغْرِيبِ، وَيَرْفُضُ أَسَالِيبَ الْعَلْمَانِيِّينَ فِي الْإِفْسَادِ، وَيَعُدُّهُمْ جُرْثُومَةً تَضُرُّ الْمُجْتَمَعَ وَالْأُسْرَةَ، وَأَنَّ أَفْكَارَهُمْ وَأُطْرُوحَاتِهِمْ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُلْقَى فِي النُّفَايَاتِ.

وَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِلْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَنَجَاحِ خُطَطِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَالتَّغْرِيبِيِّينَ إِذَا أُشْرِبَتِ الْأُمَّةُ حُبَّ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَالتَّبَعِيَّةِ الْبَغِيضَةِ، وَالْحُرِّيَّةِ بِمَفَاهِيمِهَا الْغَرْبِيَّةِ.

وَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ إِذَا غَفَلَتِ الْمَرْأَةُ عَنْ دِينِهَا، وَتَغَافَلَ عَنْهَا وَلِيُّهَا، وَأَصْبَحَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي أَيْدِي النِّسَاءِ، وَتَمَكَّنَ أَرْبَابُ الْفَسَادِ وَالتَّغْرِيبِ مِنْ نَشْرِ غَيِّهِمْ وَفَسَادِهِمْ.

وَسَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَمَا تُقْبِلُ الْبُيُوتُ عَلَى الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ، وَتَكْثُرُ أَعْدَادُ الْمُسَافِرِينَ بِاسْمِ السِّيَاحَةِ لِلْبِلَادِ الْكَافِرَةِ، وَيَكْثُرُ ابْتِعَاثُ الْجِنْسَيْنِ لِلدِّرَاسَةِ بِلَا حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ.

سَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَمَا تُضَيَّقُ سُبُلُ الزَّوَاجِ، وَيُغَالَى فِي الْمُهُورِ، وَيُصْبِحُ عَمَلُ الْمَرْأَةِ ضَرُورَةً تُقَدَّمُ عَلَى الْبَيْتِ وَالزَّوْجِ وَالْأَوْلَادِ.

سَوْفَ تُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ حِينَما يُكْسَى عَمَلُ الْمَرْأَةِ بِالصِّبْغَةِ الْمُقَدَّسَةِ، وَتُخْدَعُ بِأَنَّهَا الْمُنْتِجَةُ وَالْمُدَبِّرَةُ خَارِجَ الْمَنْزِلِ، وَتَتَوَلَّى الْعِمَامَةُ الْمُنْحَرِفَةُ، وَاللِّحْيَةُ الْمُتَأَكِّلَةُ بِالدِّينِ عَمَلِيَّةَ إِقْنَاعِهَا بِتَزْوِيرِ أَحْكَامِ الدِّينِ، وَإِبَاحَةِ الْمُحَرَّمَاتِ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنَ الِاخْتِلَاطِ وَالْخَلْوَةِ وَالتَّبَرُّجِ وَالسُّفُورِ.

سَتُوجَدُ الْقَابِلِيَّةُ لِإِفْسَادِ الْمَرْأَةِ وَالْأُسْرَةِ حِينَ يَخْدَعُونَ النَّاسَ بِالْكَلَامِ الْمُنَمَّقِ، وَالْعِبَارَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَالشِّعَارَاتِ الرَّنَّانَةِ الزَّائِفَةِ الَّتِي خَدَعُوا بِهَا الْمَرْأَةَ الْمُتَحَرِّرَةَ الْمِسْكِينَةَ فِي شَتَّى بِقَاعِ الْعَالَمِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ لَا يَحْسُدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ الْأُسَرِيَّةِ السَّوِيَّةِ الَّتِي يَعِيشُهَا الْمُسْلِمُونَ، فَهَلْ نُفْسِدُهَا بِأَيْدِينَا؟!

إِنَّ التَّحَدِّيَ الَّذِي نُوَاجِهُهُ كَبِيرٌ لَا يَسَعُنَا التَّغَافُلُ عَنْهُ، أَوِ التَّقْلِيلُ مِنْ خَطَرِهِ وَشَرِّهِ.

يَجِبُ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا، وَأُفْسِدَتْ أَخْلَاقُهَا قَادَتِ الْمُجْتَمَعَ كُلَّهُ إِلَى بُؤَرِ الدَّمَارِ وَالْهَلَاكِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا يَخْدِشُ الْحَيَاءَ، وَيُخِلُّ بِالْأَخْلَاقِ، فَصَلَاحُ النِّسَاءِ هُوَ صَلَاحُ الْأَوْلَادِ، وَالْأَوْلَادُ هُمْ عِمَادُ الْأُمَّةِ وَمُسْتَقْبَلُهَا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...



٣٦٩- منتدى المرأة والألفية

٢١/ ١١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ لَهُ الْحِكْمَةُ الْعَظِيمَةُ فِيمَا شَرَعَ، وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِيمَا حَكَمَ، وَلَوْ شَاءَ سُبْحَانَهُ لَهَدَى الْعِبَادَ أَجْمَعِينَ ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يُونُس: ٩٩]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى؛ فَقَدْ هَدَانَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِهَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ. وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ مُؤْمِنِينَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنِ الدِّينِ الْقَوِيمِ إِلَى سُبُلِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ، تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ؛ اسْتَيْقَظَ ﷺ لَيْلَةً فَزِعًا وَهُوَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ وَمَاذَا أَنْزَلَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟** -يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ- **رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ**»(١)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ فَإِنَّ الْفِتَنَ تَتْرَى، وَلَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا لِمَنْ نَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى، وَالنَّجَاةُ يُدْرِكُهَا الْعَبْدُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَظِيمِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ أَنْ كَرَّمَهُمْ عَلَى سَائِرِ

(١) أخرجه من حديث أم سلمة ﵂: البخاري في الفتن، باب لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه (٦٦٥٨).

الْحَيَوَانِ بِالْعُقُولِ، وَفَتَحَ لَهُمْ بِعُقُولِهِمْ كَثِيرًا مِنْ مَغَالِيقِ الْعُلُومِ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحل: ٧٨]. وَالْعَقْلُ مَأْخُوذٌ مِنْ عِقَالِ الْإِبِلِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِمَّا لَا يَحْسُنُ بِهِ، قَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي، فَأَنْتَ عَاقِلٌ»(٢).

وَالْعَقْلُ حِجْرٌ يَحْجُرُ الْعَاقِلَ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَكُونُ سَبَبًا فِي هَلَاكِهِ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الْفَجْر: ٥] أَيْ: لِذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنْ تَعَاطِي مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ»(٣).

فَالْعَقْلُ إِذَن قَيْدٌ يُقَيِّدُ صَاحِبَهُ، يَهْتَدِي فِي هَذَا التَّقْيِيدِ بِشَرْعٍ مُنَزَّلٍ، أَوْ بِعُرْفٍ سَادَ فِي النَّاسِ، وَمَنْ رَفَضَ هَذَا الْقَيْدَ فَهُوَ يُرِيدُ إِلْغَاءَ الْعَقْلِ لِصَالِحِ الشَّهْوَةِ، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ ثَمَّةَ فَرْقٌ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ إِلَّا النُّطْقَ بِكَلَامٍ مَفْهُومٍ.

وَالْعَقْلُ لَا يَسْتَقِلُّ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ حَسَنٍ وَقَبِيحٍ، وَلَا كُلِّ نَافِعٍ وَضَارٍّ؛ وَلِذَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى الشَّرَائِعَ لِتُكْمِلَ مَا فِي الْعَقْلِ مِنْ نَقْصٍ، وَتَسُدَّ مَا فِيهِ مِنْ عَجْزٍ عَنْ إِدْرَاكِ ذَلِكَ؛ فَكَانَتِ الشَّرِيعَةُ نِعْمَةً أُخْرَى يَهْتَدِي بِهَا الْعِبَادُ لِتَحْصِيلِ مَصَالِحِهِمُ الْعَاجِلِ مِنْهَا وَالْآجِلِ.

إِنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْبَشَرِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَاهِبُ الْعُقُولِ، وَمُنْزِلُ الشَّرَائِعِ، فَمَصْدَرُ الْعَقْلِ وَالشَّرِيعَةِ وَاحِدٌ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا، وَإِذَا وَقَعَ التَّعَارُضُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ فَهُوَ لِخَلَلٍ فِي عُقُولِهِمْ وَطَرَائِقِ تَفْكِيرِهِمْ، أَوْ فِي مَا نُسِبَ إِلَى الشَّرِيعَةِ

---

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب العقل وفضله (٣٥)، وابن عساكر في تاريخه (٢٦/ ٢٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٠٨).

وَلَيْسَ مِنْهَا. وَشَرْعُ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَاكِمُ، وَالْعَقْلُ تَبَعٌ لِذَلِكَ، وَلَا يُقْضَى بِالْعَقْلِ عَلَى الشَّرْعِ؛ لِقُصُورِ الْعَقْلِ عَنْ إِدْرَاكِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلِشُمُولِ الشَّرِيعَةِ كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، هَذَا فِي شَرِيعَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَدِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ كَامِلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُهُ النَّاسُ مِنْ أَوَّلِ الزَّمَانِ إِلَى آخِرِهِ، وَفِي خُصُوصِ الْقُرْآنِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النَّحل: ٨٩].

وَمَنْ عَارَضَ ذَلِكَ فَهُوَ مُصَادِمٌ لِلْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، مُتَّبِعٌ لِهَوَاهُ، مُسْتَنْكِفٌ عَنْ عِبَادَةِ مَوْلَاهُ، وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى الْهَوَى إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفُرْقَان: ٤٣]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة: ٢٣].

وَمِنْ صُوَرِ اتِّخَاذِ الْهَوَى إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى: مُعَارَضَةُ الشَّرِيعَةِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ بِأَفْكَارِ الْبَشَرِ وَنَظَرِيَّاتِهِمْ وَتَخَبُّطَاتِهِمْ، وَتَقْدِيمِ أَقْوَالِهِمْ عَلَى أَقْوَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَقْوَالِ رَسُولِهِ ﷺ، وَقَدِ اسْتَشْرَى ذَلِكَ فِي الْبَشَرِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَجَالَاتِ بَعْدَ انْتِشَارِ مَوْجَاتِ الْإِلْحَادِ وَإِنْكَارِ الْغَيْبِ فِي دُوَلِ الْغَرْبِ، وَلَمْ تَسْلَمْ مِنْ شَرِّهِ دُوَلُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَلَا سِيَّمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِشُؤُونِ الْأُسْرَةِ وَالْمَرْأَةِ؛ فَقَدْ أَجْلَبَ الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ وَالْجَاهِلُونَ فِي دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْلِهِمْ وَرَجِلِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ الْمَرْأَةِ يُرِيدُونَ تَغْيِيرَهَا، وَيَرْفَعُونَ عَقِيرَتَهُمْ بِتَبْدِيلِهَا، مُدَّعِينَ أَنَّهُمْ يُحَطِّمُونَ الْأَغْلَالَ الَّتِي غَلَّتْهَا، وَيَرْفَعُونَ وِصَايَةَ الرَّجُلِ عَنْهَا؛ لِيَنْقُلُوهَا لَوِ اسْتَطَاعُوا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى عِبَادَةِ الْمَبَادِئِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِلْحَادِيَّةِ.

إِنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالمَرْأَةِ قَدْ كَثُرَ الْقَوْلُ فِيهَا، وَسُوِّدَتْ فِيهَا أُلُوفُ الْكُتُبِ وَالمَقَالَاتِ، وَأَفْرَدَتْهَا بِالْبَحْثِ وَالنِّقَاشِ مِئَاتُ الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ، وَتَنَاظَرَ فِيهَا الْمُتَنَاظِرُونَ، وَاخْتَصَمَ مِنْ أَجْلِهَا الْمُخْتَصِمُونَ، وَعُقِدَتْ لِبَحْثِهَا الْمُؤْتَمَرَاتُ، وَشُكِّلَتْ لَهَا عَشَرَاتُ اللِّجَانِ وَالْجَمْعِيَّاتِ، وَالْبَشَرُ مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ مُنْذُ مِائَةِ عَامٍ وَزِيَادَةٍ وَهُمْ يَدُوكُونَ فِيهَا، وَيُنَاقِشُونَ تَفَاصِيلَهَا، وَتَاللَّهِ لَهِيَ أَيْسَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ لَوْلَا الضَّلَالُ وَالْهَوَى، وَالتَّقْلِيدُ عَلَى غَيْرِ هُدًى.

إِنَّ الْقَضِيَّةَ بِكُلِّ يُسْرٍ وَاخْتِصَارٍ تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الذَّكَرَ، وَمِنَ الذَّكَرِ خَلَقَ الْأُنْثَى، وَجَعَلَهُمَا سُبْحَانَهُ جِنْسَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي التَّرْكِيبِ الْبَدَنِيِّ وَالْعَقْلِيِّ وَالنَّفْسِيِّ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النَّجم: ٤٥، ٤٦]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القِيَامَة: ٣٦-٣٩]، فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ اخْتِلَافَ كُلِّ جِنْسٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، فَسَمَّى أَحَدَهُمَا ذَكَرًا، وَسَمَّى الْآخَرَ أُنْثَى، وَلَوْ كَانَا وَاحِدًا لَمَا سَمَّاهُمَا زَوْجَيْنِ، وَلَمَا أَفْرَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَصْفٍ يَخْتَصُّ بِهِ.

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ مِنْهُمَا يُكَمِّلُ الْجِنْسَ الْآخَرَ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، وَلَا تَكْتَمِلُ سَعَادَتُهُ إِلَّا بِهِ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: ٢١]، وَلَوْ كَانَا مُتَمَاثِلَيْنِ لَمَا احْتَاجَ أَحَدُهُمَا إِلَى الْآخَرِ، وَلَجَازَ أَنْ يَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهِ عَنْ زَوْجِهِ.

بَلْ إِنَّ مِنْ دَلَائِلِ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى زَوْجِهِ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ٤٩]، فَلَا أَحَدَ

صَمَدًا يَحْتَاجُ الْخَلْقُ إِلَيْهِ وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

وَلَا أَدَلَّ عَلَى هَذَا التَّفْرِيقِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى مِنَ النَّصِّ عَلَى ذَلِكَ صَرَاحَةً فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ؛ إِذْ حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةِ عِمْرَانَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عِمْرَان: ٣٦]، وَأَقَرَّهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَقُولَتِهَا تِلْكَ، وَلَمْ يُنْكِرْهَا مِنْهَا، أَوْ يُعَقِّبْ عَلَيْهَا.

وَجَاءَتْ شَرَائِعُ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ﷺ مُوَافِقَةً لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْوَحْيُ وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَةُ وَالْحِسُّ؛ فَثَمَّةَ أَحْكَامٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْجِنْسَانِ، وَهِيَ أَغْلَبُ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَأَحْكَامٌ يَخْتَصُّ بِهَا جِنْسٌ دُونَ الْآخَرِ، كَاخْتِصَاصِ الرِّجَالِ بِالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ، وَاخْتِصَاصِ النِّسَاءِ بِالرَّضَاعَةِ وَالْحَضَانَةِ، وَلَمْ يُسَوِّ اللهُ تَعَالَى بَيْنَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ وَالنَّفَقَةِ وَلَا فِي الْوِلَايَةِ وَالْقِوَامَةِ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّسَاء: ١٧٦]، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: ٣٤]، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٨]، وَالرَّجُلُ يُنْفِقُ عَلَى الْمَرْأَةِ أُمًّا كَانَتْ أَمْ زَوْجَةً أَمْ بِنْتًا، وَلَوْ كَانَ أَفْقَرَ النَّاسِ وَهِيَ أَغْنَاهُمْ.

وَلُغَاتُ الْبَشَرِ عَلَى اخْتِلَافِ بُلْدَانِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ مُنْذُ الْقِدَمِ قَدْ مَيَّزَتِ الذَّكَرَ عَنِ الْأُنْثَى، وَخَصَّتْ كُلَّ جِنْسٍ مِنْهُمَا بِخَصَائِصَ فِي التَّسْمِيَةِ وَالْخِطَابِ وَالضَّمِيرِ وَالنِّدَاءِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ عَاشَ الْبَشَرُ قُرُونًا تِبَاعًا، إِلَى أَنْ جَاءَ مَلَاحِدَةُ هَذَا الْعَصْرِ بِبِدْعَةِ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا مَهْمَا كَانَ مَصْدَرُهُ، وَلَوْ كَانَ قُرْآنًا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ الْخَالِقِ ﷻ، أَوْ كَانَ حُكْمًا مِمَّنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ، وَيُرِيدُونَ فَرْضَ هَذَا الضَّلَالِ عَلَى كُلِّ الْبَشَرِ بِالْبَطْشِ وَالْقُوَّةِ، وَأَعَانَهُمْ بَعْضُ

الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ بِتَسْوِيقِ هَذَا الْفَسَادِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَوْسَاطِ الْمُسْلِمِينَ، وَالدِّعَايَةِ الْفَجَّةِ لَهُ، وَمُخَادَعَةِ الْمَغْرُورِينَ بِهِ، وَإِرْهَابِ كُلِّ مَنْ يُعَارِضُهُ أَوْ يَنْتَقِدُهُ أَوْ يُنَاقِشُهُ، وَتَهْدِيدِهِ بِقُوَّةِ الْأَعْدَاءِ.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ جِنْسِ النِّسَاءِ وَجِنْسِ الرِّجَالِ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَالْقَضَاءِ عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا وَلَوْ كَانَ مَصْدَرُ هَذَا التَّمْيِيزِ شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى، يَلْزَمُهُمْ أَنْ يُلْحِدُوا، وَيُنْكِرُوا أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، عَلَى غِرَارِ مَا يَدِينُ بِهِ مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا نَظَرِيَّةَ الْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ؛ إِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الْخَالِقَ جَلَّ وَعَلَا، وَيَجْعَلُونَ الْحَيَاةَ مَادَّةً أَوْجَدَتْهَا الصُّدْفَةُ، أَوْ أَفْرَزَتْهَا الطَّبِيعَةُ.

فَإِنْ كَانَ الْمُسَوِّقُونَ لِهَذِهِ الْبِدْعَةِ النَّكْرَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فَلْيَخْضَعُوا إِذَنْ لِشَرِيعَتِهِ، وَلْيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ، وَلْيَقْبَلُوا تَمْيِيزَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ؛ إِذْ إِنَّ مِنَ الْمُتَقَرِّرِ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ أَنَّ الصَّانِعَ أَدْرَى بِصَنْعَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ، فَالْخَالِقُ كَذَلِكَ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ مِنْهُمْ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النَّحل: ١٧]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلْك: ١٤].

فَإِنْ أَبَوْا إِلَّا عُلُوًّا وَاسْتِكْبَارًا، وَأَصَرُّوا عَلَى خَطَئِهِمْ وَضَلَالِهِمْ؛ فَلْيَخْلُقُوا خَلْقًا آخَرَ غَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلْيَعْبَثُوا فِيهِ مَا شَاءُوا، وَلْيَجْعَلُوهُ جِنْسَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ لَا تَمَايُزَ بَيْنَهُمَا، أَمَا وَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ، فَلْيَدَعُوا الْخَلْقَ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا شَاءَ، وَيُمَيِّزُ بَيْنَهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَيَجْعَلُ لِلذَّكَرِ مَا لَهُ، وَلِلْأُنْثَى مَا لَهَا، فَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ جَلَّ فِي عُلَاهُ، وَلْيَتْرُكُوا لِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَمَا لَهُمْ وَلِأُنَاسٍ قَدِ ارْتَضَوْا شَرِيعَةَ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا، وَلْيَبْحَثُوا لَهُمْ عَنْ بِلَادٍ أُخْرَى غَيْرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِيُسَوِّقُوا إِلْحَادَهُمْ

فِيهَا؛ كَفَى اللهُ تَعَالَى الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ شَرَّهُمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَذَاقَهُمْ ذُلَّ الدُّنْيَا قَبْلَ خِزْيِ الْآخِرَةِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

آمَنَّا بِاللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَرَضِينَا بِهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَبِشَرِيعَتِهِ مَنْهَجًا وَإِمَامًا، وَلْيَقُلْ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ، وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَى دِينِنَا إِلَى المَمَاتِ، وَأَنْ نَلْقَاهُ غَيْرَ مُغَيِّرِينَ وَلَا مُبَدِّلِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤]، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٦، ٧].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ قَضَى بِالْحَقِّ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٢]. وَأَشْهَدُ أَنَّ

مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: شَأْنُ الْمَرْأَةِ فِي الْإِسْلَامِ كَبِيرٌ، وَقَدْ أَكْرَمَهَا اللهُ ﷻ بِمَا كَلَّفَهَا بِهِ مِنْ أَحْكَامٍ، وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا مِنْ حُقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ تُجَاهَ زَوْجِهَا وَأُسْرَتِهَا وَأُمَّتِهَا، وَحَفِظَ لَهَا حَقَّهَا، وَصَانَ لَهَا كَرَامَتَهَا وَعِفَّتَهَا بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّ مَرْضَى الْقُلُوبِ يَأْبَوْنَ إِلَّا إِهَانَتَهَا بِمُزَاحَمَتِهَا لِلرِّجَالِ، وَالصِّدَامِ مَعَهُمْ صِدَامًا تَخْسَرُ فِيهِ نَفْسَهَا وَدِينَهَا وَبَيْتَهَا وَزَوْجَهَا وَوَلَدَهَا، وَيَخْسَرُهَا الْمُجْتَمَعُ أُمًّا حَانِيَةً، وَزَوْجَةً فَاضِلَةً، وَبِنْتًا غَافِلَةً مُحْصَنَةً.

لَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ مِنْ دُعَاةِ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ يُرَاهِنُونَ عَلَى نَجَاحِ الْمَرْأَةِ إِنْ تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا وَعَفَافِهَا، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ دِينَهَا وَأَخْلَاقَهَا أَغْلَالٌ قَدْ غَلَّتْهَا عَنِ الرُّقِيِّ وَالتَّقَدُّمِ، وَيَجْعَلُونَ مَثَلَهَا الْأَعْلَى فِي ذَلِكَ عَرَايَا بَنِي الْأَصْفَرِ اللَّائِي ابْتُذِلْنَ أَعْظَمَ ابْتِذَالٍ، ثُمَّ أُلْقِينَ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ كَمَا يُلْقَى الْمَتَاعُ الْقَدِيمُ؛ لِتُوَاجِهَ الْوَاحِدَةُ مِنْهُنَّ صَخَبَ الْحَيَاةِ وَمُشْكِلَاتِهَا وَحْدَهَا، فَلَا أَبَ يَحْنُو عَلَيْهَا، وَلَا زَوْجَ يَرْعَاهَا وَيَصُونُهَا، وَلَا وَلَدَ يَرْحَمُ شَيْبَتَهَا إِنْ بَلَغَتْ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.

فَلَمَّا خَسِرَ رِهَانُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ بِقُدْرَةِ الْمَرْأَةِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ دِينِهَا وَحِجَابِهَا وَبَيْنَ دِرَاسَتِهَا وَعَمَلِهَا، وَأَبْدَعَتْ فِي ذَلِكَ أَيَّمَا إِبْدَاعٍ، وَحَازَتْ شَهَادَاتٍ عُلْيَا، وَأَثْبَتَتْ عَمَلِيًّا أَنَّ الْمَرْأَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ وَاجِبَاتِ دِينِهَا وَمُتَطَلَّبَاتِ دِرَاسَتِهَا وَعَمَلِهَا، إِذَا تَمَّ فَصْلُهَا كُلِّيًّا عَنْ مَجَالَاتِ الرِّجَالِ وَأَعْمَالِهِمْ

وَمَدَارِسِهِمْ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ الْمُبَارَكَةُ أُنْمُوذَجًا يُحْتَذَى فِي ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا فِي تَعْلِيمِ الْبَنَاتِ، فَلَمَّا نَجَحَتْ فِي ذَلِكَ، وَأَغَاظَتِ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ؛ رَاحَ الْأَبَالِسَةُ مِنْهُمْ يُضَيِّقُونَ مَجَالَاتِ عَمَلِ الْمَرْأَةِ الْمُنْفَصِلِ عَنِ الرِّجَالِ، وَيُوَسِّعُونَ مَجَالَاتِ الِاخْتِلَاطِ، وَلَا يَقْبَلُونَ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، وَمَنْ تَمَسَّكَتْ بِحِجَابِهَا -رَغْمَ مَا يَفْعَلُونَ- تَتِمُّ مُضَايَقَتُهَا، وَالتَّسَلُّطُ عَلَيْهَا لِتَتْرُكَ عَمَلَهَا؛ لِأَنَّ مَنْظَرَهَا يُزْعِجُهُمْ، وَيَجْعَلُ أُخْرَيَاتٍ يَقْتَدِينَ بِهَا.

يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَهُمْ يَصِيحُونَ بِأَعْلَى أَصْوَاتِهِمْ مُطَالِبِينَ بِمَجَالَاتٍ أَكْثَرَ لِعَمَلِ الْمَرْأَةِ، وَلَقَدْ بَانَ لِلنَّاسِ مَاذَا يُرِيدُونَ، وَعُرِفَ مَاذَا يَقْصِدُونَ؟!

إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَجَالَاتٍ أَوْسَعَ لِلِاخْتِلَاطِ وَالْخَلْوَةِ، وَنَشْرِ السُّوءِ وَالرَّذِيلَةِ، وَالْقَضَاءِ عَلَى الْعَفَافِ وَالْفَضِيلَةِ، وَإِزَاحَةِ الْقُيُودِ الدِّينِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تُقَيِّدُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَتُعِيقُهُمْ عَنْ تَنْفِيذِ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّخْرِيبِيَّةِ فِي الْمُجْتَمَعِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا زُورًا وَبُهْتَانًا بِالْمَشْرُوعَاتِ التَّقَدُّمِيَّةِ، وَحَجَّتُهُمُ الَّتِي مَلَّ النَّاسُ تَكْرَارَهَا: أَنَّ الْعَالَمَ سَبَقَنَا وَلَا زِلْنَا نَتَأَخَّرُ، وَلَا تَقَدُّمَ فِي مَفْهُومِهِمْ إِلَّا بِالْفَسَادِ وَالْإِفْسَادِ، وَلَقَدْ حَرَمُوا نِسَاءً كَثِيرَاتٍ مِنَ الْعَمَلِ؛ لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَجِدْنَ إِلَّا مَجَالَاتٍ مُلَوَّثَةً بِالِاخْتِلَاطِ وَالسُّفُورِ.

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي ثَبَتَ فِيهِ لِلْعَالَمِ بِشَرْقِهِ وَغَرْبِهِ مَا خَلَّفَهُ اخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ مِنْ مُشْكِلَاتٍ لَا عِلَاجَ لَهَا إِلَّا بِالْفَصْلِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ، لَا يَزَالُ كَثِيرٌ مِمَّنْ هُمْ فِي غَيِّهِمْ يَعْمَهُونَ يُصِرُّونَ عَلَى الْمُكَابَرَةِ وَالْإِفْسَادِ؛ فَفِي أَمْرِيكَا الَّتِي يَحْتَذُونَهَا فِي التَّقَدُّمِ وَالْقُوَّةِ وَالصِّنَاعَةِ صَرَّحَ رَئِيسُهَا بُوشْ بِلُزُومِ فَصْلِ الطُّلَّابِ عَنِ الطَّالِبَاتِ فِي الدِّرَاسَةِ، بَعْدَ أَنْ أَثْبَتَتِ الدِّرَاسَاتُ التَّرْبَوِيَّةُ أَنَّ اخْتِلَاطَ الْجِنْسَيْنِ أَدَّى إِلَى ضَعْفِ التَّحْصِيلِ فِي الدِّرَاسَةِ.

وَفِي دُوَلِ الِاتِّحَادِ الْأُورُبِّيِّ صَدَرَتْ دِرَاسَاتٌ مَيْدَانِيَّةٌ وَأَبْحَاثٌ جَادَّةٌ تُثْبِتُ أَنَّ أَعْظَمَ وَبَالٍ مُنِيَتْ بِهِ الْحَضَارَةُ الْمُعَاصِرَةُ هُوَ اخْتِلَاطُ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ.

وَفِي الشَّرْقِ الْوَثَنِيِّ عَمِلُوا عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الْحَافِلَاتِ وَالْقِطَارَاتِ، بِسَبَبِ كَثْرَةِ شِكَايَةِ النِّسَاءِ مِنْ تَحَرُّشِ الرِّجَالِ بِهِنَّ.

كُلُّ هَذَا -وَغَيْرُهُ كَثِيرٌ- يُثْبِتُ مَا تَنْعَمُ بِهِ بِلَادُنَا -وَلِلَّهِ الْحَمْدُ- مِنْ خَيْرٍ عَظِيمٍ بِالْفَصْلِ بَيْنَ الْجِنْسَيْنِ فِي الدِّرَاسَةِ وَالْعَمَلِ، وَلَكِنَّ فِئَامًا مِنْ بَنِي قَوْمِنَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالشَّهْوَانِيِّينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَفْكَارٍ قَدِيمَةٍ مُتَخَلِّفَةٍ تَلَقَّوْهَا قَبْلَ خَمْسِينَ سَنَةً، فَاسْتَقَرَّتْ فِي عُقُولِهِمْ، وَتَغَيَّرَ الْعَالَمُ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ عُقُولُهُمْ بَعْدُ، بَلْ شَابُوا عَلَى ضَلَالِهِمْ وَسَفَاهَتِهِمْ، وَلَا حِيلَةَ فِي سَفَهِ الشَّيْخِ؛ إِذْ لَا حُلُمَ بَعْدَهُ!

وَحِينَ تُعْقَدُ الْمُؤْتَمَرَاتُ وَالْمُنْتَدَيَاتُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي تُعْنَى بِشَأْنِ الْمَرْأَةِ(٤) لَا يُرَشِّحُونَ لَهَا مَنْ يُمَثِّلُ نِسَاءَ الْمُجْتَمَعِ مِنَ النِّسَاءِ الْمُتَعَلِّمَاتِ الْمُهَذَّبَاتِ، وَإِنَّمَا يَعْمِدُونَ إِلَى عَجَائِزَ لِيبْرَالِيَّاتٍ أَضَعْنَ أَعْمَارَهُنَّ فِي الْأَفْكَارِ الضَّائِعَةِ، وَشَرِبْنَ مِنَ الْمُسْتَنْقَعَاتِ الْآسِنَةِ حَتَّى ثَمِلْنَ، وَلَا يَعْرِفْنَ عَنْ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا أَقَلَّ الْقَلِيلِ، فَيُطَالِبْنَ بِمَا يُعَارِضُ شَرْعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْفُضُهُ الْكَثْرَةُ الْكَاثِرَةُ مِنْ نِسَاءِ وَرِجَالِ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَشْتَكِي فِيهِ هَذِهِ الْفَصِيلَةُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ تَأَخُّرِ ثَقَافَةِ الْحِوَارِ، وَعَدَمِ قَبُولِ الْآخَرِ، وَهُمْ وَهُنَّ لَا يُحَاوِرُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ، وَلَا يَقْبَلُونَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ، فَأَيُّ حِوَارٍ يَدْعُونَ إِلَيْهِ؟! وَأَيُّ آخَرَ يَقْبَلُونَهُ؟!

إِنَّهُمْ فِئَةٌ قَلِيلَةٌ فِي النَّاسِ لَا تُمَثِّلُ إِلَّا نَفْسَهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يُرِيدُونَ خَرْقَ سَفِينَةِ

---

(٤) ومن ذلك: منتدى المرأة والألفية الذي عقد هذا الأسبوع في الرياض من ١٥-١٧ ذي القعدة ١٤٢٦هـ.

الْمُجْتَمَعِ، وَإِغْرَاقَهُ فِي لُجَجٍ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ لَا عَافِيَةَ مِنْهَا، وَمَا الْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي سَبَقَتْ إِلَى إِفْسَادِ الْمَرْأَةِ وَتَحْرِيرِهَا مِنْ قُيُودِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ إِلَّا أَمْثِلَةٌ شَاهِدَةٌ عَلَى مَا يُرِيدُ هَؤُلَاءِ الْمُفْسِدُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ أَنْ يُوصِلُوا مُجْتَمَعَنَا وَنِسَاءَنَا إِلَيْهِ.

وَوَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُجَاهِدَهُمْ بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ فَضْحِ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَكَشْفِ عَوْرَاتِهِمْ، وَتَحْذِيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ خَطَرِ أَفْكَارِهِمْ وَأُطْرُوحَاتِهِمْ، مَعَ تَحْصِينِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفَتَيَاتِهِمْ مِنْ أَفْكَارِهِمُ الضَّالَّةِ الَّتِي يُزَوِّرُونَهَا بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ، وَيُرَوِّجُونَهَا بِشِعَارَاتٍ بَرَّاقَةٍ تَنْطَلِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهُمْ، وَحَقِيقَةَ مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ فَسَادٍ وَانْحِلَالٍ، وَلَا أَجِدُ وَصْفًا أَدَقَّ فِيهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ: دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ قَذَفُوهُ فِيهَا.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِيَ الْمُسْلِمِينَ شُرُورَهُمْ، وَأَنْ يُحْبِطَ كَيْدَهُمْ، وَأَنْ يُرِيَهُمْ مَا يَسُوؤُهُمْ مِنْ تَمَسُّكِ الْمُسْلِمِينَ رِجَالًا وَنِسَاءً، وَفَتَيَاتٍ وَفِتْيَانًا بِتَعَالِيمِ دِينِهِمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، وَالْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

❀ ❀ ❀



٣٧٠- نقض دعوى حرية الرأي

١٤٢٨/٢/١٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَحَاطَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِحُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القَصَص: ٦٨]، نَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ عَطَائِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ امْتِنَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص: ٧٠]، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا، وَقَضَى بِهَيْمَنَةِ دِينِهِ عَلَى كُلِّ الْأَفْكَارِ وَالْمِلَلِ، وَالْآرَاءِ وَالنِّحَلِ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائِدَة: ٤٨]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَنْقَى هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا، وَأَزْكَاهُمْ أَعْمَالًا؛ أَخْلَصُوا لِرَبِّهِمْ، وَاتَّبَعُوا نَبِيَّهُمْ، وَنَصَرُوا دِينَهُمْ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّكُمْ فِي زَمَنٍ كَثُرَتْ فِتَنُهُ، وَاشْتَدَّتْ مِحَنُهُ، وَازْدَادَتْ غُرْبَةُ الدِّينِ وَأَهْلِهِ فِيهِ، فَتَمَسَّكُوا بِدِينِكُمْ وَلَوْ تَفَلَّتَ النَّاسُ مِنْهُ، وَالْزَمُوا هَدْيَ نَبِيِّكُمْ ﷺ وَلَوْ أَحْدَثُوا فِيهِ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ عَمَلِهِ لَا عَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٤٣، ٤٤].

أَيُّهَا النَّاسُ: يَحْتَكِمُ الْبَشَرُ فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ إِلَى مَا يَرْتَضُونَهُ مِنْ شَرِيعَةٍ أَوْ عُرْفٍ أَوْ قَانُونٍ؛ فَأَتْبَاعُ الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ لَا يَرْضَوْنَ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ

حَكَمًا بَيْنَهُمْ، فَهِيَ قَانُونُهُمْ وَنِظَامُهُمْ، يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِهَا، وَيَلْتَزِمُونَ قُيُودَهَا.

وَأَهْلُ الشَّرَائِعِ المُحَرَّفَةِ أَوِ المُبَدَّلَةِ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ فِيمَا ارْتَضَوْهُ مِنْ شَرَائِعِهِمْ، وَالمَلَاحِدَةُ لَهُمْ قَانُونٌ يَلْتَزِمُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، بَلْ إِنَّ جَهَلَةَ النَّاسِ مِنْ أَعْرَابِ الصَّحْرَاءِ، وَمَنْ يَعِيشُونَ فِي الْأَدْغَالِ، وَلَمْ يَطَّلِعُوا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَضَارَاتِ وَالمَعَارِفِ لَهُمْ أَعْرَافُهُمْ وَأَنْظِمَتُهُمْ الَّتِي يُنَظِّمُونَ بِهَا شُئُونَهُمْ، وَيَعْرِفُ أَفْرَادُهُمْ بِوَاسِطَتِهَا حُقُوقَهُمْ، وَلَا يُوجَدُ بَشَرٌ مَهْمَا كَانُوا لَيْسَ لَهُمْ نِظَامٌ وَلَا قَانُونٌ يَلْتَزِمُونَهُ.

وَهَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مُفْتَقِرٌ لِلْعُبُودِيَّةِ؛ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِخَالِقِهِ سُبْحَانَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ يُسَمَّى حُرِّيَّةً مُطْلَقَةً، لَا فِي الْأَفْعَالِ وَلَا فِي الْأَقْوَالِ، خِلَافًا لِمَا يَزْعُمُهُ الزَّاعِمُونَ مِنْ أَنَّ الْإِنْسَانَ وُلِدَ حُرًّا بِلَا قُيُودٍ عَلَيْهِ، فَلَهُ أَنْ يَدِينَ بِمَا يَشَاءُ، وَأَنْ يُفَكِّرَ كَيْفَ يَشَاءُ، وَأَنْ يَقُولَ وَيَفْعَلَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبَ وَيَنْشُرَ مَا شَاءَ، وَهَذِهِ كُلُّهَا دَعَاوَى عَرِيضَةٌ لَيْسَ لَهَا وُجُودٌ فِي وَاقِعِ الْبَشَرِ، لَا فِي زَمَانِنَا هَذَا وَلَا قَبْلَهُ، وَلَا فِي دُوَلِ الشَّرْقِ وَلَا فِي دُوَلِ الْغَرْبِ، بَلِ المَوْجُودُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَفِي كُلِّ الدُّوَلِ وَعِنْدَ كُلِّ الْبَشَرِ أَنْظِمَةٌ وَقَوَانِينُ تَضْبِطُ أَقْوَالَ النَّاسِ وَأَفْعَالَهُمْ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ فِي أَيِّ جُزْءٍ مِنَ الْأَرْضِ أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَنْشُرَ مَا يَشَاءُ. هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ المُشَاهَدُ.

وَفِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، لِلْعَبْدِ حُدُودٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ لَا يَجُوزُ لَهُ تَجَاوُزُهَا، وَإِلَّا حُوسِبَ عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البَقَرَة: ١٨٧]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٩]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [الطَّلَاق: ١].

وَفِي الْإِسْلَامِ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَكْتُبَ مَا يَشَاءُ، أَوْ يَنْشُرَ مَا يَشَاءُ؛ فَقَدْ يَقُولُ كَلِمَةً أَوْ يَكْتُبُهَا أَوْ يَنْشُرُهَا فَيَكْفُرُ بِهَا، وَيَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ بِسَبَبِهَا، وَقَدْ يَقُولُ السُّوءَ فِي شَخْصٍ فَيُجْلَدُ حَدًّا أَوْ تَعْزِيرًا. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَسُبَّ اللهَ تَعَالَى أَوْ رَسُولَهُ ﷺ أَوْ دِينَ الْإِسْلَامِ، وَإِلَّا اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ. وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْذِفَ بِالسُّوءِ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِلَّا عُوقِبَ، هَكَذَا يُؤَاخَذُ الْإِنْسَانُ بِمَا يَقُولُ وَبِمَا يَكْتُبُ، مُسْلِمًا كَانَ أَمْ كَافِرًا.

وَالرَّأْيُ أَوِ الْكَلِمَةُ الَّتِي يَزْعُمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْإِنْسَانَ حُرٌّ فِيهَا قَدْ تُودِي بِالْإِنْسَانِ إِلَى النَّارِ، وَتَسْتَجْلِبُ غَضَبَ الْجَبَّارِ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ أَوْ رَأْيٍ قَالَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يَنْزِلُ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**» مُتَفَقٌ عَلَيهِ. وَفِي لَفْظٍ لِلتِّرْمِذِيِّ: «**يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ**»[١].

وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ أَنْ يَكُفُّوا أَلْسِنَتَهُمْ عَمَّا لَا يَنْفَعُ مِنَ الْكَلَامِ، قَالَ لَهُ مُعَاذٌ رضي الله عنه: «وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: **ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حفظ اللسان (٦١١٢-٦١١٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨)، والترمذي في الزهد، باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٤)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٠).

(٢) أخرجه من حديث معاذ رضي الله عنه: الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة وقال: حديث حسن صحيح (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه في الفتن، باب كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٣)، وعبد الرزاق (٢٠٣٠٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١)، والطيالسي (٥٦٠)، وعبد بن حميد (١١٢)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٧٣) رقم =

وَفِي كُلِّ قَوَانِينِ الْبَشَرِ الْوَضْعِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ ضَوَابِطُ لِمَا يُقَالُ وَمَا يُكْتَبُ وَمَا يُنْشَرُ، وَعُقُوبَاتٌ لِتَجَاوُزِ هَذِهِ الضَّوَابِطِ، خِلَافًا لِمَا يَزْعُمُهُ دُعَاةُ الْحُرِّيَّةِ بِأَثْوَابِهَا الْغَرْبِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلِذَا قَرَنُوا فِي تَعْرِيفَاتِهِمْ لِلْحُرِّيَّةِ بَيْنَ الْحُرِّيَّةِ وَالمَسْئُولِيَّةِ، وَجَعَلُوا حُرِّيَّةَ الشَّخْصِ تَنْتَهِي عِنْدَ حُرِّيَّةِ الْآخَرِ، وَجَعَلُوا مِنْ ضِمْنِ الْأَذَى المَمْنُوعِ فِي بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ: الْأَذِيَّةَ بِالْقَوْلِ أَوِ الْكِتَابَةِ؛ كَالْكَذِبِ عَلَى الْأَشْخَاصِ، أَوِ النَّمِيمَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ نَشْرِ إِشَاعَةٍ مُغْرِضَةٍ تَضُرُّ بِبَعْضِهِمْ، وَقَوَانِينُهُمْ تُعَاقِبُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ التَّصَرُّفَاتِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا غَيْرَ مَسْئُولَةٍ، وَلَا يُجِيزُونَهَا بِدَعْوَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ أَوْ حُرِّيَّةِ الْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ. وَكَمْ سَمِعْنَا مِنْ قَضَايَا رُفِعَتْ عَلَى أَقْوَامٍ تُسَمَّى دَعَاوَى التَّشْهِيرِ.

وَلَوْ صَاحَ بِالنَّاسِ إِنْسَانٌ فِي أَكْبَرِ بِلَادِ الدُّنْيَا حُرِّيَّةً أَنَّ حَرِيقًا قَدِ اشْتَعَلَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، أَوْ أَنَّ قُنْبُلَةً قَدْ وُضِعَتْ فِي طَائِرَتِهِمْ، وَكَانَ كَاذِبًا مُتَعَمِّدًا لِلْكَذِبِ لَعُوقِبَ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْأَذَى لِلنَّاسِ وَتَرْوِيعِهِمْ، وَالْإِزْعَاجِ لِلسُّلُطَاتِ المَسْئُولَةِ، وَلَا تَشْفَعُ دَعْوَى حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، أَوْ مَحَبَّةِ الْمِزَاحِ لِصَاحِبِهَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْتَدِ عَلَى أَحَدٍ لَا بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ.

وَكُلُّ دَوْلَةٍ فِيهَا مِنَ الْقَوَانِينِ مَا يُجَرِّمُ إِفْشَاءَ الْأَسْرَارِ لِلدُّوَلِ الْأُخْرَى، وَقَدْ

= (١٣٧)، وصححه الحاكم وقال: على شرط الشيخين (٢/ ٤٤٧).

وأعله الحافظ ابن رجب بعلتين:

الأولى: أنه من رواية أبي وائل -رحمه الله تعالى- عن معاذ ﷺ ولم يثبت سماعه منه، وإن أدركه بالسن مع اختلاف بلديهما.

الثانية: أنه يرويه حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ ﷺ. قال الدارقطني: وهو أشبه بالصواب؛ لأنه حديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه. قال ابن رجب: رواية شهر عن معاذ مرسلة يقينًا، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه. جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٩).

تَصِلُ عُقُوبَةُ ذَلِكَ إِلَى الْقَتْلِ، مَعَ أَنَّ مُفْشِيَ الْأَسْرَارِ لَمْ يَتَجَاوَزْ إِلَّا أَنْ قَالَ قَوْلًا، أَوْ كَتَبَ كِتَابًا نَبَذَهُ إِلَى مَنْ يَنْتَفِعُ مِنْهُمْ.

وَلَوْ شَهِدَ شَاهِدٌ عَلَى قَضِيَّةٍ ثُمَّ اتَّضَحَ كَذِبُهُ فِي شَهَادَتِهِ لَعَاقَبَتْهُ كُلُّ قَوَانِينِ الْقَضَاءِ فِي الْأَرْضِ، شَرْعِيَّةً كَانَتْ أَمْ وَضْعِيَّةً، مَعَ أَنَّهُ بِشَاهَدَتِهِ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ إِطَارِ الْقَوْلِ، وَبَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ مُولَعًا بِشَهَادَةِ الزُّورِ، أَوْ يَتَأَكَّلُ بِهَا، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّ شَهَادَةَ الزُّورِ تَجُوزُ مِنْ بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ[٣].

وَفِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ تُمْنَعُ الْكُتُبُ، وَتُحْجَبُ المَقَالَاتُ، وَتُقَيَّدُ حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ وَالْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ إِذَا خَالَفَتْ سِيَاسَةَ المُهَيْمِنِينَ عَلَى الْأَحْزَابِ المُتَنَفِّذَةِ، أَوْ كَانَ فِيهَا فَضْحٌ لِمُمَارَسَاتِهِمْ، أَوْ تَجْيِيشٌ لِلْجَمَاهِيرِ ضِدَّهُمْ، أَوْ كَانَ فِيهَا مَا يُعَكِّرُ عَلَى مَشَارِيعِهِمُ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ.

وَفِي الدَّوْلَةِ اللِّيبْرَالِيَّةِ الْأُولَى فِي الْعَالَمِ مَنَعُوا كِتَابَ الْخَدِيعَةِ الْكُبْرَى[٤]؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَشْكِيكٍ فِيمَا يُعْرَفُ بِأَحْدَاثِ سِبْتَمْبِرَ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ رَأْيًا رَآهُ صَاحِبُهُ، وَحَلَّلَ الْحَدَثَ بِمُوجَبِ رَأْيِهِ.

وَلَمَّا وَقَفَتِ الصَّحَفِيَّةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ رِيتْشِلْ كُورِي أَمَامَ بِلْدُوزَرٍ يَهُودِيٍّ فِي مُحَاوَلَةٍ مِنْهَا لِمَنْعِ سَائِقِهِ مِنْ تَدْمِيرِ مَنْزِلٍ فِلَسْطِينِيٍّ، فَدَهَسَهَا الْبِلْدُوزَرُ عَنْ عَمْدٍ ثُمَّ عَادَ إِلَى

---

(٣) ينظر: سخافة التعلل بحرية التعبير، د. شيخ جعفر إدريس، مجلة البيان، عدد (٢٢٣) ص(٣٢).

(٤) كتاب الخديعة الكبرى ألفه الصحفي الفرنسي، تيري ميسان، وفكرته تقوم على أن أحداث سبتمبر صنعتها أمريكا وخدعت العالم بها؛ لتمرير سياسات معينة، وتبرير غزوها للدول الأخرى، وذكر عددًا من الأدلة على ذلك، وأيد كلامه في مقابلة تلفزيونية إلى أن الإدارة الأمريكية منعت محاكمة جادة في هذه العملية وخلفياتها، وأن عائلات الضحايا التي استلمت تعويضًا طلب منهم أن يوقعوا على وثيقة يتنازلون فيها عن حقوقهم في رفع دعوى أمام محكمة أمريكية جنائية أو مدنية. وكتابه المذكور ممنوع من البيع في أمريكا.

الْخَلْفِ لِيَدْهَسَهَا مَرَّةً أُخْرَى، لمَّا فَعَلَتْ ذَلِكَ وَفَقَدَتْ حَيَاتَهَا -ثَمَنًا لِمَوْقِفِهَا الشُّجَاعِ- تَفَاعَلَتْ مَعَهَا زَمِيلَةٌ لَهَا، فَأَرَادَتْ أَنْ تَعْمَلَ مَسْرَحِيَّةً بِاسْمِهَا، فَمُنِعَتْ مِنْ ذَلِكَ فِي بِلَادِ الْحُرِّيَّةِ الَّتِي يَؤُمُّهَا دُعَاةُ الْحُرِّيَّةِ عِنْدَنَا، وَهَذَا الْمَنْعُ الَّذِي يُعَدُّ اغْتِيَالًا لِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، عَلَّقَ عَلَيْهِ أَشْهَرُ الصَّحَفِيِّينَ الْإِنْجِلِيزِ سَاخِرًا وَهُوَ يَقُولُ: كَانَتْ شَجَاعَةُ رِيتْشِلْ مِنَ النَّوْعِ الْخَطَإِ، وَكَانَتْ تُدَافِعُ عَنْ حُرِّيَّةِ الشَّعْبِ الْخَطَإِ(٥).

وَبَاحِثَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ نَصْرَانِيَّةٌ دَرَسَتْ كُتُبَ الشَّيْخِ الْمُجَدِّدِ ابْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-، وَخَلَصَتْ فِي مُقَابَلَةٍ لَهَا إِلَى أَنَّ كُتُبَ الشَّيْخِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِمَا يَجْرِي فِي الْأَرْضِ مِنْ عُنْفٍ وَإِرْهَابٍ، خِلَافًا لِمَا يُرَوِّجُهُ زَنَادِقَةُ الْعَصْرِ، فَاتُّهِمَتْ بِأَنَّهَا وَهَّابِيَّةٌ وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ، وَلَمْ تَشْفَعْ لَهَا حُرِّيَّةُ الرَّأْيِ، وَكَوْنُهَا بَاحِثَةً مُتَجَرِّدَةً فِي ذَلِكَ(٦).

---

(٥) قائل ذلك هو الصحفي البريطاني المشهور (روبرت فيسك) وهو الذي كتب عن قصة صاحبة المسرحية الممنوعة وهي بعنوان (اسمي ريتشل كوري)، ومنتجة المسرحية (رويال كورت)، وذكر في نفس مقالته: أن صديقه (انتوني لونسستن) وهو صحفي وأكاديمي يهودي استرالي قد تم التضييق عليه بسبب كتاب له عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.
وذكر أنه وصلته رسالة من الإسرائيلية الأمريكية (باربارة جولة شيدر) ذكرت فيها أنها تتعرض لهجوم شديد بسبب أنها اختارت عنوانًا عربيًّا لروايتها عن الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وعنوان روايتها (النكبة: الصراع الفلسطيني الإسرائيلي).
وذكر فيسك في مقالته أن له مقالة عن حرب لبنان سحبت من النشر، واعتذر منه الناشر بأنه لا يقوى على نشرها خوفًا من الملاحقة القضائية، ثم ختم مقالته بعد أن أورد الأمثلة السابقة من كبت حرية الرأي والبحث بقوله: علي أن أتذكر أن درجة الإهانة والتهديدات المباشرة التي يتعرض لها أي شخص يجرؤ على انتقاد إسرائيل قد ارتفعت إلى حدٍّ كبير، إن محاولة إجبار الصحافة على إطاعة قوانين وقواعد إسرائيل أصبحت دولية وتتنامى باستمرار. اهـ من الإندبندنت. ومنقول إلى صحيفة الوطن، الجمعة ١٧/ ٢/ ١٤٢٧هـ.

(٦) هي الدكتورة ناتانا دي لونج، ورسالتها الدكتوراه في الشيخ محمد بن عبد الوهاب =

وَلَنْ يَجِدَ أَيُّ سَائِحٍ أَوْ بَاحِثٍ فِي كُلِّ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَيَّ كِتَابٍ يُشَكِّكُ فِي المَحَارِقِ النَّازِيَّةِ لِلْيَهُودِ، أَوْ يُقَلِّلُ مِنْ خَسَائِرِهَا، أَوْ يُوجِدُ مُسَوِّغَاتٍ لَهَا، وَلَوْ سَوَّلَتْ لِكَاتِبٍ غَرْبِيٍّ نَفْسُهُ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ حَقِيقَةِ ذَلِكَ، وَيَنْشُرَهُ عَلَى النَّاسِ لَكَانَ مَصِيرُهُ المُحَاكَمَةَ وَالسِّجْنَ، وَلَحُوسِبَتْ دَارُ النَّشْرِ الَّتِي تَنْشُرُ لَهُ، وَلَسُحِبَ كِتَابُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ تَحْتَ دَعْوَى مُعَادَاةِ السَّامِيَّةِ، مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْرُجُ عَنْ مُجَرَّدِ الرَّأْيِ وَالْبَحْثِ. وَقَدْ أُوذِيَ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ وَالمُؤَرِّخِينَ وَالصَّحَفِيِّينَ الْغَرْبِيِّينَ.

وَفِي الْبِلَادِ الْأُولَى فِي الْحُرِّيَّةِ فُصِلَتْ مُؤَرِّخَةٌ أَمْرِيكِيَّةٌ مِنْ مَجْلِسِ النُّوَّابِ لِمُجَرَّدِ أَنَّهَا قَالَتْ: وِجْهَةُ نَظَرِ النَّازِيِّينَ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ عَدَمِ شَعْبِيَّتِهَا لَا تَزَالُ وِجْهَةَ نَظَرٍ، وَلَا تَأْخُذُ حَقَّهَا فِي التَّعْبِيرِ(٧).

وَفِي كَنَدَا حَكَمَ قَاضٍ عَلَى امْرَأَةٍ بِالسِّجْنِ مَدَى الْحَيَاةِ؛ لِأَنَّهَا ذَبَحَتْ زَوْجَهَا بِسِكِّينٍ، ثُمَّ عَلَّقَ عَلَى بَشَاعَةِ جَرِيمَتِهَا بِقَوْلِهِ: لَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ المَرْأَةَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرَ عُنْفًا مِنَ الرَّجُلِ، حَتَّى النَّازِيُّ لَمْ يُعَذِّبْ ضَحَايَاهُ الْيَهُودَ قَبْلَ قَتْلِهِمْ. فَثَارَتْ ثَوْرَةُ الْجَمْعِيَّاتِ النِّسْوِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ عَلَيْهِ حَتَّى أَفْقَدَتْهُ مَنْصِبَهُ، بِسَبَبِ هَذَا التَّعْلِيقِ

= -رحمه الله تعالى-، وقد قرأت أهم كتب الشيخ ومنها: كتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وكثيرًا من فتاواه ورسائله، وخلصت إلى أن ابن تيمية وابن عبد الوهاب وسيد قطب -رحمهم الله تعالى- لا تحوي كتبهم أي مواد متطرفة أو تدعو إلى العنف، وقد ذكرت ذلك في مقابلة لها مع صحيفة الشرق الأوسط في ١/١٢/١٤٢٧هـ أثناء زيارتها للمملكة، ثم علمت من أحد الإخوة الفضلاء أن اللوبي الصهيوني تحرك ضدها في أمريكا بسبب هذه المقابلة، وأنها أوذيت وهددت حتى همت بالاعتذار عما قالت، لولا أنها استشارت من أوصاها بأن لا تتعجل في الاعتذار.

(٧) انظر: حرية التعبير في الغرب .. الحقيقة والوهم، د. أحمد محمد الدغشي، مجلة البيان عدد (٢٢٢) ص(٦٠) وقد ذكر أمثلة كثيرة جدًّا على انتهاكات الغربيين لحرية الرأي والنشر، فيحسن الرجوع إليه لمن يهمه الموضوع.

الْبَسِيطِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ رَأْيًا رَآهُ[٨].

وَحُوسِبَ أُسْتَاذٌ جَامِعِيٌّ فِي فَرَنْسَا؛ لِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ الْأَرْمَنُ قَدْ تَعَرَّضُوا لِإِبَادَةٍ جَمَاعِيَّةٍ عَلَى أَيْدِي الْقُوَّاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْفَائِتِ[٩].

وَكَمْ مِنْ كُتُبٍ فِي بِلَادِ الْغَرْبِ صُودِرَتْ، وَمَقَالَاتٍ حُجِبَتْ، وَمَسْرَحِيَّاتٍ أُلْغِيَتْ! وَكَمْ مِنْ كُتَّابٍ حُوسِبُوا وَسُجِنُوا عَلَى قَضَايَا فِكْرِيَّةٍ، وَآرَاءٍ رَأَوْهَا، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَعَلَّقَ ذَلِكَ بِالْيَهُودِ وَتَارِيخِهِمْ!

وَقَدْ بَانَ بِهَذِهِ الْحَوَادِثِ - وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ - أَنَّهُ لَا يُوجَدُ حُرِّيَّةٌ مُطْلَقَةٌ فِي الْكِتَابَةِ وَالنَّشْرِ وَالرَّأْيِ فِي أَيِّ مَكَانٍ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْغَرْبِ قَدْ يُجَرَّمُ وَيُعَاقَبُ عَلَى رَأْيٍ رَآهُ، أَوْ كِتَابٍ أَصْدَرَهُ، أَوْ مَقَالٍ نَشَرَهُ، أَوْ قَوْلٍ أَذَاعَهُ إِذَا خَالَفَ قَوَانِينَهُمْ، أَوْ أَزْعَجَ الْمُتَنَفِّذِينَ فِي بِلَادِهِمْ.

وَالْمُسَوِّقُونَ لِبِضَاعَتِهِمُ الرَّدِيئَةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يُرَدِّدُونَ خَلْفَهُمْ كَالْبُلْهِ وَالمَعَاتِيهِ مَا يُلْقُونَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ دُرُوسِ الْحُرِّيَّةِ، دُونَ نَظَرٍ أَوْ مُنَاقَشَةٍ أَوْ سُؤَالٍ عَمَّا يَنْتَهِكُونَهُ هُمْ مِنْ حُرِّيَّاتِ الرَّأْيِ وَالنَّشْرِ، إِذَا لَمْ تَتَوَافَقْ مَعَ أَهْوَائِهِمْ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ حَجْمُ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَمُثَقَّفُونَ، وَيَنْتَفِخُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَلْقَابِهِمُ الَّتِي لَا تُسَاوِي شَيْئًا أَمَامَ الْحَقَائِقِ، وَهُمْ يَسْتَوْرِدُونَ أَسْوَأَ الْبَضَائِعِ الْغَرْبِيَّةِ؛ لِيَفْرِضُوهَا فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِالِاسْتِبْدَادِ وَالْكَذِبِ وَالتَّخْوِيفِ.

حَمَى اللهُ تَعَالَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَكَيْدِهِمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .

---

(٨) تنظر قصة ذلك في المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ اصْطَفَانَا مِنْ عِبَادِهِ مُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَنَا مِنْ خَيْرِ أُمَمِ الْعَالَمِينَ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا اصْطَفَانَا وَاجْتَبَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَانَا وَأَعْطَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَعْتَقِدُ الْمُؤْمِنُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، لَهُ الْأَمْرُ وَلَهُ الْحُكْمُ فِي خَلْقِهِ، لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَأَمَّا الْبَشَرُ فَهُمْ عَبِيدٌ مَخْلُوقُونَ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حُدُودٌ يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا وَلَا يُجَاوِزُونَهَا فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ، وَلَكِنَّ الزَّنَادِقَةَ يَرْفُضُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْإِنْسَانَ مَرْكَزَ الْكَوْنِ وَالْمُتَصَرِّفَ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ، وَتِلْكَ هِيَ الْفِكْرَةُ الَّتِي انْطَلَقَ مِنْهَا مَلَاحِدَةُ الْغَرْبِ، ثُمَّ تَلَقَّفَهَا عَنْهُمْ مَلَاحِدَةُ الْعَرَبِ؛ لِيُبِيحُوا لِلْإِنْسَانِ بِهَا فِعْلَ مَا يَشَاءُ، وَقَوْلَ مَا يَشَاءُ، وَاعْتِقَادَ مَا يَشَاءُ، وَأَيُّ قُيُودٍ دِينِيَّةٍ أَوْ أَخْلَاقِيَّةٍ أَوْ عُرْفِيَّةٍ عَلَى ذَلِكَ فَهِيَ مَرْفُوضَةٌ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةِ؛ لِأَنَّهَا تُعَارِضُ الْحُرِّيَّةَ الْمُقَرَّرَةَ عِنْدَهُمْ، الْمَبْنِيَّةَ عَلَى فِكْرَةِ تَأْلِيهِ الْإِنْسَانِ، وَكَوْنِهِ مَرْكَزَ الْكَوْنِ.

إِنَّهُمْ يَصِيحُونَ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ وَعَلَى حُكُومَاتِهِمْ يُطَالِبُونَهُمْ بِحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ، وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَتَحْطِيمِ الْقُيُودِ الرِّقَابِيَّةِ عَلَى مَا يَنْشُرُونَهُ مِنْ قَيْحِ أَفْكَارِهِمْ، وَرَدْغَةِ شَهَوَاتِهِمْ؛ سَوَاءٌ كَانَتْ قُيُودًا دِينِيَّةً أَمْ سِيَاسِيَّةً أَمْ أَخْلَاقِيَّةً، مُسْتَشْهِدِينَ بِدَسَاتِيرِ الْغَرْبِ وَمُنَظَّمَاتِهِ الْحُقُوقِيَّةِ، وَكَأَنَّهَا الْحَقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ بَانَ لَنَا أَنَّ

حُرِّيَّةَ الرَّأْيِ وَالنَّشْرِ فِي الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ لَا تَخْلُو مِنِ انْتِقَائِيَّةٍ ظَالِمَةٍ، وَلَيْسَتْ مُطْلَقَةً مِنْ كُلِّ الْقُيُودِ.

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ الَّذِينَ ابْتُلِيَتْ بِهِمْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ يُمَارِسُونَ مَا هُوَ أَبْشَعُ مِنِ انْتِقَائِيَّةِ الْغَرْبِ، فَلَا يَسْمَحُونَ لِأَحَدٍ بِانْتِقَادِهِمْ وَلَا مُنَاقَشَةِ أَفْكَارِهِمْ، وَلَا مَنْعِ خَبَالِهِمْ، وَيَفْرِضُونَ فِكْرَهُمُ الْخَبِيثَ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ بِأَشَدِّ جَرَائِمِ التَّزْوِيرِ وَالِاسْتِبْدَادِ، وَالْإِقْصَائِيَّةِ وَالْإِرْهَابِ.

إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَرْتَضُونَ فِي بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، وَالتَّشْهِيرَ بِهِمْ، وَبَثَّ الشَّائِعَاتِ الْمُغْرِضَةِ ضِدَّهُمْ، وَهُمْ يَفْتَرُونَ الْكَذِبَ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُشَهِّرُونَ بِهِمْ، وَيَخْتَلِقُونَ الْإِشَاعَاتِ عَلَيْهِمْ.

وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُبِيحُونَ فِي بَابِ الْحُرِّيَّاتِ أَذِيَّةَ الْغَيْرِ وَلَوْ بِالرَّأْيِ، وَأَيُّ أَذًى أَعْظَمُ مِنْ أَذِيَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي رَبِّهِمْ جَلَّ جَلَالُهُ، وَقَدْ رَوَّجُوا لِكُتُبِ إِنْكَارِهِ، وَزَعْمِ مَوْتِهِ وَالِانْتِصَارِ عَلَيْهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ إِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَآذَوُا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ ﵈ فَفَسَحُوا لِكُتُبِ السُّخْرِيَةِ بِهِمْ، وَتَكْذِيبِهِمْ، وَآذَوُا الْمُؤْمِنِينَ فِي شَرِيعَةِ رَبِّهِمْ فَمَلَئُوا مَعْرِضَهُمْ بِكُتُبِ الطَّعْنِ فِيهَا وَانْتِقَاصِهَا وَرَدِّهَا وَتَكْذِيبِهَا وَتَحْرِيفِهَا(١٠).

نَاهِيكُمْ عَنْ رِوَايَاتِ الْإِثْمِ وَالْفُجُورِ، وَكُتُبِ الْعُهْرِ وَالشُّذُوذِ، وَدَوَاوِينِ الْفِسْقِ وَالْمُجُونِ لِأَشْهَرِ زَنَادِقَةِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، تُعْرَضُ لِلْمُرَاهِقِينَ وَالْمُرَاهِقَاتِ، وَالنِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، وَكَأَنَّهُمْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمُ الْفَاسِدَةَ فِي قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكَأَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا

---

(١٠) هذا إشارة إلى المعرض الدولي للكتاب الذي نظمته وزارة الإعلام في مركز المعارض في الرياض، ولم يكن فيه رقابة على كتب الفجور والإلحاد والشهوات حتى بيعت فيه كتب وروايات ممنوعة في معرض القاهرة الذي هو أكثر المعارض انفتاحًا.

أَنَّهُمْ شَهْوَانِيُّونَ مُنْحَرِفُونَ لَا يُطْفِئُ سُعَارَهُمْ إِلَّا كُتُبُهُمْ وَدَوَاوِينُهُمْ وَرِوَايَاتُهُمُ الْمُنْحَلَّةُ الْهَابِطَةُ؛ فَأَيُّ إِهَانَةٍ أَهَانُوهَا لِجُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ؟! وَأَيُّ جَرِيمَةٍ اقْتَرَفُوهَا فِي حَقِّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ بِاسْمِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ؟! وَأَيُّ اسْتِبْدَادٍ أَعْظَمُ مِنِ اسْتِبْدَادِهِمْ حِينَ فَرَضُوا حُرِّيَّةً غَرْبِيَّةً شَوْهَاءَ عَرْجَاءَ مُعَارِضَةً لِلْإِسْلَامِ عَلَى جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَرْضَوْنَ بِغَيْرِ الْإِسْلَامِ بَدِيلًا؟! وَأَيُّ إِرْهَابٍ فِكْرِيٍّ أَشَدُّ مِنْ إِرْهَابِهِمْ حِينَ صَادَرُوا حُرِّيَّةَ النَّاسِ فِي الرَّأْيِ وَالِاخْتِيَارِ، وَأَلْزَمُوهُمْ بِرُؤَاهُمُ الضَّيِّقَةِ، وَهُمُ الْأَقَلِّيَّةُ الْمُتَنَكِّرَةُ لِدِينِهَا وَوَطَنِهَا وَأُمَّتِهَا؟! عَامَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

إِنَّهُمْ بِاسْمِ حُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَحُرِّيَّةِ الرَّأْيِ قَدْ رَوَّجُوا لِلْكُتُبِ وَالرِّوَايَاتِ وَالدَّوَاوِينِ الَّتِي تَطْعَنُ فِي جَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، وَتَسْخَرُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ، وَتُكَذِّبُ كُتُبَهُ وَشَرْعَهُ، وَتُبِيحُ الْفَوَاحِشَ بِأَنْوَاعِهَا.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ الشَّهْوَانِيِّينَ يُعَظِّمُونَ الْبَشَرَ أَشَدَّ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -هَذَا إِذَا كَانُوا يُعَظِّمُونَهُ-، وَيُظْهِرُونَ احْتِرَامَهُمْ لِلْإِنْسَانِ كَإِنْسَانٍ أَكْثَرَ مِنِ احْتِرَامِهِمْ لِلْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالصَّحَابَةِ وَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، فَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ شَتِيمَةَ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَلَا الْكَذِبَ عَلَيْهِمْ، وَلَا السُّخْرِيَةَ بِهِمْ، وَلَا بَثَّ الشَّائِعَاتِ الْمُغْرِضَةِ عَنْهُمْ، وَلَوْ مِنْ بَابِ حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ وَحُرِّيَّةِ النَّشْرِ، وَلَكِنَّهُمْ يُجِيزُونَ الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَعَلَى مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ﷺ، وَيُجِيزُونَ الطَّعْنَ فِي خِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَسَلَفِهَا الصَّالِحِ، وَيُكَذِّبُونَ بِالثَّوَابِتِ وَالْمُسَلَّمَاتِ، وَيُسَفِّهُونَ النُّبُوَّاتِ وَالدِّيَانَاتِ، وَيُدَمِّرُونَ الْفِطْرَةَ وَالْأَخْلَاقَ.

وَإِذَا كَانَ اللهُ تَعَالَى قَدْ نَهَى عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ اسْتِحْقَاقِهَا لِلسَّبِّ؛ لِئَلَّا يَسُبُّوا اللهَ تَعَالَى ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ

عِلۡمٍۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨]؛ فَكَيْفَ إِذًا بِإِجَازَةِ الْكُتُبِ الَّتِي تَسُبُّ اللهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتَهُ وَكُتُبَهُ وَرُسُلَهُ؛ لِتَأْخُذَ مَوَاقِعَهَا فِي بُيُوتِ المُسْلِمِينَ وَمَكْتَبَاتِهِمْ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْهَوَى وَالضَّلَالِ، وَنَسْأَلُهُ الْهُدَى وَالرَّشَادَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا قَالُوا وَمِمَّا فَعَلُوا وَمِمَّا نَشَرُوا، اللَّهُمَّ إِنْ أَنْزَلْتَ عَذَابًا بِسَبَبِ مَا فَعَلُوا فَخُصَّهُمْ بِهِ وَلَا تَجْعَلْهُ عَامًّا عَلَى عِبَادِكَ.

اللَّهُمَّ احْفَظْ بِلَادَنَا وَبِلَادَ المُسْلِمِينَ مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَفَسَادِ المُفْسِدِينَ، وَتَرَبُّصِ المُتَرَبِّصِينَ، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ، أَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ.



٣٧١- الحرب الدينية والحرب القومية

١٢/ ١/ ١٤١٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْفِتَنَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَتَلَاحَقُ، تُصِيبُ أَقْوَامًا فَيَنْحَرِفُونَ، وَيُثَبِّتُ اللهُ تَعَالَى أَقْوَامًا فَلَا يَتَزَعْزَعُونَ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ: إِطْبَاقُ المِلَلِ شَتَّى عَلَى حَرْبِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ هُمْ يَرْسُفُونَ فِي أَغْلَالِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، بِسَبَبِ التَّفْرِيطِ فِي الدِّينِ، وَالْخَلَلِ فِي التَّوْحِيدِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الشَّرِيعَةِ، مِمَّا يَجْعَلُهُمْ مَطْمَعًا لِلطَّامِعِينَ، وَهَدَفًا لِلْحَاقِدِينَ، وَمَرْمًى لِلْمُتَرَبِّصِينَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِصْدَاقًا لِلْخَبَرِ النَّبَوِيِّ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُنَا ﷺ قَبْلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، حِينَمَا قَالَ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ

اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَلَقَدْ نُزِعَتْ مَهَابَةُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ، وَمَعَ كَثْرَتِهِمْ فَهُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَأَحَبُّوا الدُّنْيَا وَتَنَافَسُوهَا، بَلْ تَقَاتَلُوا عَلَيْهَا، وَكَرِهُوا الْمَوْتَ فَعَطَّلُوا الْجِهَادَ، وَرَاحُوا يُعَلِّقُونَ ضَعْفَهُمْ وَعَجْزَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَجَعَلُوا حَرْبَهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ حَرْبًا سِيَاسِيَّةً أَوِ اقْتِصَادِيَّةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لَا عَلَاقَةَ لَهَا بِالدِّينِ، وَوَاللَّهِ مَا ذُلُّوا إِلَا بَعْدَ أَنْ أَبْعَدُوا الدِّينَ عَنْ مَيْدَانِ المَعْرَكَةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ الْعَدُوُّ يَنْطَلِقُ فِيهَا مِنْ أُصُولٍ دِينِيَّةٍ بِخَلْفِيَّاتٍ تَارِيخِيَّةٍ.

إِنَّ مَحْضَ الْحَقِيقَةِ فِي صِرَاعِنَا مَعَ الْيَهُودِ وَأَعْوَانِهِمْ كَفَانَا الْقُرْآنُ مُؤْنَةَ اسْتِكْنَاهِهَا؛ حَيْثُ رَاحَتْ سِيَاقَاتُهُ تُكَرِّسُ الْمُفَاصَلَةَ الْعَقَدِيَّةَ، نَعَمْ، المُفَاصَلَةُ الْعَقَدِيَّةُ لَيْسَ غَيْرُ، وَتَمْنَحُنَا آيَاتُهُ بُعْدًا صَحِيحًا فِي فَهْمِ الْعَقْلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ضِمْنَ رُؤًى مُسْتَقْبَلِيَّةٍ(٢). ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

هَذِهِ هِيَ الْحَقِيقَةُ الْقُرْآنِيَّةُ أَنَّ الصِّرَاعَ صِرَاعُ عَقَائِدَ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ سُحِبُوا إِلَى المَعْرَكَةِ الْحَرْبِيَّةِ وَالسِّلْمِيَّةِ بِفَصْلٍ تَامٍّ عَنِ الدِّينِ، وَبِالتَّنَادِي عَلَى الْقَوْمِيَّةِ، وَنَجَحَ

(١) أخرجه من حديث ثوبان ﷺ: أبو داود في الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام (٤٢٩٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٨٢)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٢٤)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة من طريقين، ثم قال: فالحديث بمجموع الطريقين صحيح عندي (٩٥٨).

(٢) في موسم الجفاف يجتث نخلنا وينمو غرقدهم، خالد بن صالح السيف، مجلة البيان، عدد (٤٩) ص(٥٤).

الْيَهُودُ فِي هَذَا الْبَتْرِ، وَصَرَّحُوا بِهَذَا النَّجَاحِ قَبْلَ عِشْرِينَ عَامًا مِنَ الْيَوْمِ؛ حَيْثُ جَاءَ فِي إِحْدَى صُحُفِهِمُ الْمَشْهُورَةِ: «إِنَّ عَلَى وَسَائِلِ إِعْلَامِنَا أَنْ لَا تَنْسَى حَقِيقَةً هَامَّةً هِيَ جُزْءٌ مِن اسْتَرَاتِيجِيَّةِ إِسْرَائِيلَ فِي حَرْبِهَا مَعَ الْعَرَبِ، هَذِهِ الْحَقِيقَةُ هِيَ أَنَّنَا قَدْ نَجَحْنَا بِجُهُودِنَا وَجُهُودِ أَصْدِقَائِنَا فِي إِبْعَادِ الْإِسْلَامِ عَنْ مَعْرَكَتِنَا مَعَ الْعَرَبِ طَوَالَ ثَلَاثِينَ عَامًا، وَيَجِبُ أَنْ يَبْقَى الْإِسْلَامُ بَعِيدًا عَنِ الْمَعْرَكَةِ إِلَى الْأَبَدِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ أَلَّا نَغْفُلَ لَحْظَةً وَاحِدَةً عَنْ تَنْفِيذِ خُطَّتِنَا فِي مَنْعِ اسْتِيقَاظِ الرُّوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِأَيِّ شَكْلٍ وَبِأَيِّ أُسْلُوبٍ ...» اهـ[٣].

وَإِذَنْ فَإِنَّ أَخْطَرَ شَيْءٍ يَخْشَاهُ الْيَهُودُ أَنْ تَتَحَوَّلَ حَرْبُهُمْ مَعَ الْعَرَبِ إِلَى حَرْبٍ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَقَدْ سَاوَرَهُمُ الْقَلَقُ مِنْ ذَلِكَ حِينَمَا قَالَ مَسْئُولٌ مِنْهُمْ: «إِنَّ الَّذِي يُثِيرُ قَلَقَنَا هُوَ أَنَّ مَوَاقِفَ الْعَرَبِ دَاخِلَ إِسْرَائِيلَ بَدَأَتْ تَتَحَوَّلُ مِنْ مَوَاقِفَ مَبْنِيَّةٍ عَلَى قَاعِدَةٍ قَوْمِيَّةٍ إِلَى مَوَاقِفَ تَسْتَنِدُ إِلَى قَوَاعِدَ دِينِيَّةٍ» اهـ[٤].

إِنَّ الْيَهُودَ يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْكَنْعَانِيَّةِ، لَا يُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ، وَقَدْ نَجَحُوا نَجَاحًا مُدْهِشًا فِي ذَلِكَ، حَيْثُ كَانَ مَسْئُولٌ قَوْمِيٌّ عَرَبِيٌّ يَصِيحُ بِجَمَاهِيرَ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ دِينِيَّةً قُبَيْلَ الْهَزِيمَةِ الَّتِي سُمِّيَتْ نَكْسَةً، فَيَقُولُ: دَعُونَا مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَصَلَاحِ الدِّينِ، لَا تُثِيرُوهَا حَرْبًا دِينِيَّةً[٥]. وَكَانَتْ كَوْكَبُهُمْ تَصْدَعُ مُغَنِّيَةً، فِي وَقْتٍ

---

(٣) صحيفة: يديعوت أحرنوت، بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٩٧٨م عن الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه، للدكتور يوسف القرضاوي (٢٢١).

(٤) كما في صحيفة هآرتس اليهودية في ٢ شباط ١٩٧٩م، عن الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه (٢٢٥).

(٥) ينظر كتاب: رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر، ليوسف العظم (٦٣).

كَانَ الدَّمُ الْعَرَبِيُّ يَسِيلُ بِغَزَارَةٍ، وَقُوَّاتُهُ تَنْدَحِرُ عَلَى أَيْدِي الْيَهُودِ[٦].

وَلَا زَالَتِ الصَّفَعَاتُ تَتَتَابَعُ عَلَى الْوَجْهِ الْعَرَبِيِّ، وَالتَّغَطْرُسُ الْيَهُودِيُّ يَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَيَنْتَشِي وَهُوَ يُمْسِكُ بِزِمَامِ المُبَادَرَةِ، وَيَفْرِضُ قُوَّتَهُ وَإِرَادَتَهُ. نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ نُذَكِّرَ بِشِعَارِ قَادَةِ الْيَهُودِ أَيَّامَ حَرْبِهِمْ لِلْقَوْمِيِّينَ الْعَرَبِ، الَّذِي كَانَ يَقُولُ: أَنَا أُحَارِبُ إِذَنْ أَنَا مَوْجُودٌ، أَنَا أُسَالِمُ إِذَنْ أَنَا أُخَالِفُ شَرِيعَةَ التَّلْمُودِ[٧]. كَانَ هَذَا شِعَارَ قَادَتِهِمْ آنَذَاكَ.

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَحْتَفِلُ الْيَهُودُ بِمُرُورِ خَمْسِينَ عَامًا عَلَى إِعْلَانِ دَوْلَةِ إِسْرَائِيلَ، تِلْكَ الدَّوْلَةُ المَسْخُ الَّتِي زَرَعَتْهَا أَحْقَادُ الْغَرْبِ، بَيْنَمَا تَعَاهَدَتْهَا بِالرَّيِّ وَالنَّمَاءِ أَخْطَاءُ الْعَرَبِ.

فَمَا كَانَتْ إِسْرَائِيلُ لِتَبْقَى وَتَعْلُوَ، أَوْ لِتُوجَدَ أَصْلًا لَوْلَا سِلْسِلَةٌ مِنْ أَخْطَاءٍ تَتَرَادَفُ، وَخَطَايَا تَتَرَاكَمُ، وَلَوْلَا تَعَمُّدُ الْعَرَبِ أَنْ يُفْرِغُوا هَذَا الصِّرَاعَ مِنْ مُحْتَوَاهُ الِاعْتِقَادِيِّ وَخَلْفِيَّتِهِ الدِّينِيَّةِ مِنْ جَانِبِنَا، فِي مُقَابِلِ تَعَمُّدِ الْيَهُودِ أَنْ يَصْبُغُوا حَرْبَهُمْ بِالصِّبْغَةِ الْعَقَائِدِيَّةِ فِي كُلِّ جُزْئِيَّاتِهِ، فَاسْمُ الدَّوْلَةِ (إِسْرَائِيلُ)، وَرَمْزُهَا (نِجْمَةُ دَاوُدَ)، وَدُسْتُورُهَا (التَّوْرَاةُ وَالتَّلْمُودُ)، وَشِعَارُهَا (أَرْضُ المِيعَادِ)، وَحُلْمُهَا التَّارِيخِيُّ (إِعَادَةُ بِنَاءِ هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ فِي أُورْشَلِيمَ الْقُدْسِ)، فَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا عَقِيدَةٌ وَدِينٌ، أَمَّا بَنُو قَوْمِنَا فَتَحْتَ الرَّايَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ المُتَعَدِّدَةِ قَدْ جَدُّوا وَاجْتَهَدُوا فِي إِبْعَادِ الْإِسْلَامِ عَنِ المَعْرَكَةِ، وَإِقْصَاءِ الْقُرْآنِ عَنْ تَوْجِيهِهَا، وَتَنْحِيَةِ الْعَقِيدَةِ الْحَقَّةِ عَنْ مُوَاجَهَةِ الْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ، فَكَانَتِ النَّتِيجَةُ نَكْسَةً مِنْ بَعْدِ نَكْسَةٍ، وَذُلًّا تَبِعَهُ ذُلٌّ[٨].

---

(٦) المصدر السابق (٧٨).

(٧) اليهود وتذكرة قبل أن نفقد الذاكرة، للدكتور رمضان حافظ (١٨٥).

(٨) بتصرف من: الصراع العربي الإسرائيلي تحت الرايات العلمانية خمسون عامًا من الفشل، عبد العزيز كامل، مجلة البيان عدد (١١٥) ص(٦٨).

إِنَّ الْخَمْسِينَ عَامًا المَاضِيَةَ مِنَ الصِّرَاعِ بِجَمِيعِ فُصُولِهَا وَمَسْرَحِيَّاتِهَا، وَفِي كُلِّ مَرَاحِلِهَا فِي حَرْبِهَا وَسِلْمِهَا، وَاتِّفَاقَاتِهَا وَمُعَاهَدَاتِهَا لَتَدُلُّ عَلَى تَفَوُّقِ المَشْرُوعِ الْيَهُودِيِّ التَّوْرَاتِيِّ التَّلْمُودِيِّ، وَفَشَلِ المَشْرُوعِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ الْعَلْمَانِيِّ، فَحَقَّ لِلْيَهُودِ أَنْ يَحْتَفِلُوا بِتَدْنِيسِ الْبُقْعَةِ المُبَارَكَةِ خَمْسِينَ عَامًا، وَإِقَامَةِ دَوْلَتِهِمُ الَّتِي مَا عَرَفَتْ إِلَّا المَدَّ وَالتَّوَسُّعَ، وَالْقَتْلَ وَالدَّمَارَ خِلَالَ الْخَمْسِينَ عَامًا المَاضِيَةَ، تَحْتَ وَابِلِ قَذَائِفِ الْعَرَبِ الْكَلَامِيَّةِ، وَقَنَابِلِهِمُ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي كَانَ مِنْهَا: الْقِتَالُ حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ مِنَ الدَّمِ، وَتَحْرِيرُ كُلِّ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالنِّضَالُ لِتَحْرِيرِ كُلِّ حَبَّةٍ مِنَ الرَّمْلِ، وَأَبْوَاقُهُمُ الَّتِي كَانَتْ تُزَمْجِرُ وَتَعِدُ بِإِلْقَاءِ إِسْرَائِيلَ فِي الْبَحْرِ، هَذِهِ الشِّعَارَاتُ الَّتِي مَا حَرَّرَتْ أَرْضًا، وَلَا أَعَادَتْ حَقًّا، وَلَا صَانَتْ عِرْضًا.

وَبَعْدَ خَمْسِينَ عَامًا مِنَ الصِّرَاعِ يُطْرَحُ هَذَا السُّؤَالُ: هَلْ حَقًّا ضَاعَتِ الْقُدْسُ بِلَا رَجْعَةٍ كَمَا يُرَوِّجُ الْغَرْبُ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْعَلْمَانِيُّونَ؟!

كَلَّا وَاللَّهِ! لَنْ يَسْتَمِرَّ ضَيَاعُهَا، فَرَغْمَ مَظَاهِرِ الْقَتَامَةِ وَالْعَتَامَةِ الَّتِي تُوحِي بِهَا مَشَاهِدُ الْحَاضِرِ المَهْزُومِ، وَالمُسْتَقْبَلِ الْغَامِضِ المَأْزُومِ، وَرَغْمَ تَكَدُّسِ مَعَالِمِ الْفَشَلِ الْعَرَبِيِّ الْقَوْمِيِّ فِي ظِلِّ الْعَلْمَانِيَّةِ المُتَسَلِّطَةِ المُنْهَزِمَةِ، رَغْمَ كُلِّ هَذَا فَإِنَّنَا -مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ- نَرَى مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا، وَنَصْرًا عَظِيمًا، تَوَهَّجَتْ أَنْوَارُهُ، لِتَكْشِفَ عَنْ رَايَاتِ أَمَلٍ تَخْفِقُ فِي سَمَاءِ مَدِينَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ، لَيْسَ هَذَا تَحَدُّثًا مِنْ مُنْطَلَقِ السِّيَاسَةِ الْقَاصِرَةِ، وَلَا مِنْ مُنْطَلَقِ خُرَافَةٍ ذَاهِلَةٍ، وَلَا هُوَ مِنْ مُعْطَيَاتِ الْوَاقِعِ المَرِيرِ الْيَائِسِ، وَلَكِنَّهَا رُوحٌ مِنَ الْأَمَلِ الدَّافِعِ لِلْعَمَلِ الَّذِي تَغْرِسُهُ فِينَا -أَهْلَ الْإِسْلَامِ- حَقَائِقُ الْوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ، وَهِدَايَاتُ السُّنَّةِ الْخَاتَمَةِ، نَعَمْ! لَنْ تَضِيعَ الْقُدْسُ؛ لِأَنَّ الَّذِي أَكْرَمَهَا بِسَكَنِ الْأَنْبِيَاءِ لَنْ يُدِيمَهَا سَكَنًا لِقَتَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ(٩).

---

(٩) لا لن تضيع القدس، عبد العزيز كامل، مجلة البيان عدد (١١٣) ص(٩٣).

وَإِنَّنَا -مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ- لَنَسْتَبْشِرُ دَائِمًا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**»(١٠).

وَبِهَذَا الْحَدِيثِ نُمَزِّقُ غِشَاءَ التَّشَاؤُمِ، وَنُحَرِّقُ أَسْبَالَ الْهَزِيمَةِ، وَنُتْلِفُ أَعِمَّةَ الْجُبْنِ وَالْهَوَانِ، كُلُّ ذَلِكَ نَسْتَدْعِيهِ بِأَسْبَابِ التَّمْكِينِ، وَأَدَوَاتِ النَّصْرِ عَلَى امْتِدَادِ أَجْيَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَيَوْمَهَا يَنْضَمُّ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ مَعَ الْمُسْلِمِ لِقِتَالِ الْيَهُودِ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا الْغَرْقَدَ وَحْدَهُ؛ حَيْثُ يُحَالِفُ الْيَهُودَ فَلَا يُخْبِرُ عَنْهُمْ خِيَانَةً وَغَدْرًا، فَأَيُّ سَلَامٍ مَعَ أَقْوَامٍ هَذِهِ طِبَاعُ شَجَرِهِمْ؟! هَلْ يَسْلَمُونَ مِنَ الْخِيَانَةِ وَمَا سَلِمَ مِنْهَا غَرْقَدُهُمْ؟!

إِنَّ إِرْهَاصَاتِ قُرْبِ هَذَا الْوَعْدِ النَّبَوِيِّ تَتَكَاثَرُ وَتَتَوَارَدُ؛ حَيْثُ سَخَّرَ اللهُ ﷻ الْيَهُودَ لِزِرَاعَةِ الْغَرْقَدِ حَوْلَ الْمُسْتَوْطَنَاتِ الَّتِي أَقَامُوهَا عَلَى أَرْضِ فِلَسْطِينَ عَلَى هَيْئَةِ أَسْوَارٍ نَبَاتِيَّةٍ مَانِعَةٍ؛ لِأَنَّ لَهُ أَشْوَاكًا قَوِيَّةً حَادَّةً(١١) تَحْمِي الْيَهُودَ، وَتُؤَمِّنُ جُبْنَهُمْ، وَتُهَدِّئُ رَوْعَهُمْ.

فَالْوَعْدُ قَرِيبٌ، وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى عَوْدَةٍ صَادِقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِفَهْمِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَحِينَهَا يَكُونُ النَّصْرُ ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ . .

---

(١٠) أخرجه البخاري في الجهاد، باب قتل اليهود (٧٥١٦)، ومسلم في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١١) الموسوعة في علوم الطبيعة، إدوار غالب (٢٠٣)، عن: مجلة البيان عدد (٤٩) ص(٥٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مِنَ الانْحِطَاطِ الْعَرَبِيِّ، وَالتَّزْوِيرِ الْإِعَلَامِيِّ الَّذِي يَحْجُبُ نَصْرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَجْعَلُ الْيَهُودَ وَأَعْوَانَهُمْ فِي غَايَةِ التَّمَكُّنِ وَالْقُوَّةِ: طَرْحَ الدِّينِ، وَالتَّنَادِيَ عَلى الْقَوْمِيَّةِ الْبَغِيضَةِ، وَالتَّعَصُّبَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، حِينَمَا يُفْجَعُ الْإِعْلَامُ الْعَرَبِيُّ بِهَلَاكِ شَاعِرِ الْإِلْحَادِ وَالزَّنْدَقَةِ، وَأَدِيبِ الْجِنْسِ وَالْإِبَاحِيَّةِ[١٢]، فَتُسَوَّدُ صَحَائِفُهُمُ السُّودُ بِبُكَائِهِ وَرِثَائِهِ، وَخَلْعِ الْأَلْقَابِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِ، وَإِخْفَاءِ حَقِيقَتِهِ؛ إِمْعَانًا فِي تَسْطِيحِ عَقْلِ الْقَارِئِ وَالْمُشَاهِدِ، وَإِيغَالًا فِي التَّضْلِيلِ وَالْخِدَاعِ.

لَقَدْ رَضَعَ هَذَا الشَّاعِرُ الْهَالِكُ لَبَنَ الِاسْتِعْمَارِ حَتَّى ارْتَوَى فَلَمْ يَعُدْ يُعْجِبُه إِلَّا لَبَنُهُ، وَلَمْ يَعُدْ يَتَذَوَّقُ إِلَّا فُنُونَهُ، وَلَمْ يَعُدْ يُغْرِيهِ إِلَّا أَفْكَارُهُ وَمَذَاهِبُهُ فِي الْحَيَاةِ[١٣] الَّتِي أُسِّسَتْ عَلَى الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ.

كَانَ مِنْ أَمْرِهِ قَرِيبًا أَنَّهُ انْبَهَرَ بِعَمَلِيَّةِ الِاسْتِنْسَاخِ الشَّهِيرَةِ، فَسَجَّلَ بِرِيشَتِهِ الْإِلْحَادِيَّةِ مَقَالَةً يَحَادُّ اللهَ تَعَالَى فِيهَا؛ حَيْثُ قَالَ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى وَعَامَلَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ: وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ بَدَءُوا بِتَحَدِّي السَّمَاءِ. وَمَعْنَى هَذَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمْ يَعُدْ لَهُ رَبٌّ يُؤْمِنُ بِهِ، وَيَرْكَعُ فِي مِحْرَابِهِ، وَيُصَلِّي لَهُ، وَيَطْلُبُ رِضَاهُ وَغُفْرَانَهُ؛

---

(١٢) هو الشاعر نزار قباني، قد توفي في يوم الجمعة الموافق ١٤١٩/١/٥هـ، وقد طبل له الإعلام العربي، خاصة الصحافة والفضائيات.

(١٣) ينظر: الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د. أحمد بسام ساعي (١١٣-١١٤).

لِأَنَّ الْمُخْتَبَرَاتِ الْعِلْمِيَّةَ أَخَذَتْ مَكَانَ الرَّبِّ . . . إِلَى أَنْ قَالَ: كَانَ أَسْهَلَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ قَالَبًا وَاحِدًا لِصِنَاعَةِ الْبَشَرِ مِثْلَمَا تَفْعَلُ مَصَانِعُ الْبَلَاطِ وَالْقَرَامِيدِ وَالْأَحْذِيَةِ وَالمَلَابِسِ الْجَاهِزَةِ!!(١٤). تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَتَأَمَّلُوا اسْتِهْزَاءَهُ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ؛ إِذْ يَقِيسُهَا بِصِنَاعَةِ الْأَحْذِيَةِ وَالمَلَابِسِ الْجَاهِزَةِ.

كَانَ رَافِضًا لِلْعَرَبِيَّةِ، سَاخِرًا مِنْهَا يُسَمِّيهَا اللُّغَةَ المُتَعَجْرِفَةَ(١٥). كَمَا كَانَ يُصَرِّحُ بِرَفْضِهِ لِكُلِّ مَا هُوَ شَرْعِيٌّ وَيَقُولُ: أَنَا ضِدُّ الشَّرْعِيَّةِ بِكُلِّ صُوَرِهَا(١٦)، وَأَمَّا إِسْهَامُهُ الْكَبِيرُ فِي هَدْمِ الْأُسْرَةِ وَامْتِهَانِ المَرْأَةِ، فَإِنَّهُ سَخَّرَ قَلَمَهُ لِذَلِكَ مُعْظَمَ حَيَاتِهِ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَقُولَتُهُ الْكُفْرِيَّةُ: لَوْ كُنْتُ حَاكِمًا لَأَلْغَيْتُ مُؤَسَّسَةَ الزَّوَاجِ، وَخَتَمْتُ أَبْوَابَهَا بِالشَّمْعِ الْأَحْمَرِ!(١٧). وَقَوْلُهُ أَخْزَاهُ اللهُ تَعَالَى: الْعُرْيُ أَكْثَرُ حِشْمَةً مِنَ التَّسَتُّرِ(١٨).

وَيَنْقِمُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عَدَمَ قَبُولِهِمْ تَهَتُّكَهُ وَاسْتِخْفَافَهُ فَيَقُولُ: شُعَرَاءُ الْغَزَلِ الْحِسِّيِّ فِي أُورُبَّا وَكُتَّابُ الرِّوَايَاتِ المَسْرَحِيَّةِ لَا يَخُوضُونَ حَرْبًا صَلِيبِيَّةً مَعَ مُجْتَمَعِهِمْ كَمَا يَخُوضُهَا الْكُتَّابُ الْعَرَبُ(١٩).

وَهُوَ فِي حَدِيثِهِ عَنِ المَرْأَةِ لَا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِالْجَسَدِ عَلَى نَحْوٍ عَنِيفٍ مِنَ الْإِيغَالِ فِي مَفَاهِيمِ الِاشْتِهَاءِ وَالِافْتِتَانِ؛ إِذْ يَعْتَبِرُ الْجِنْسَ هُوَ الْحَيَاةَ كُلَّهَا، يَلْعَنُ فِي شِعْرِهِ

---

(١٤) نشر مقالته في جريدة الحياة يوم ٥/ ١١/ ١٤١٧هـ.

(١٥) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي (٤/ ٥٦٦).

(١٦) المصدر السابق (٤/ ٥٦٦)، وينظر: دراسات في الأدب العربي الحديث، د. مصطفى هدارة (١٣٥).

(١٧) الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي (١٦٨).

(١٨) المصدر السابق (١٦٨).

(١٩) قصتي مع الشعر، لنزار قباني (١٣٤)، ودراسات في الأدب العربي الحديث (١٤١).

المَرْأَةَ، وَيَثُورُ عَلَيْهَا، وَيرْفُضُ الالْتِزَامَ بِمُجْتَمَعِهِ وَقِيَمِهِ، وَيَسْخَرُ مِنَ المَوْضُوعَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَيَدْعُو إِلَى لَوْنٍ مِنَ الْفَوْضَى وَالإِبَاحِيَّةِ[٢٠].

وَالْوَاقِعُ أَنَّ شَاعِرَهُمُ الَّذِي احْتَفَوْا بِهِ وَبَالَغُوا فِي تَأْبِينِهِ وَرِثَائِهِ مَا هُوَ إِلَّا نَبْتٌ أَجْنَبِيٌّ مَسْمُومٌ، يُحَاوِلُ أَنْ يُسَوِّقَ بِشِعْرِهِ عَنِ المَرْأَةِ جُمْلَةً مِنَ المَفَاهِيمِ الْفَاسِدَةِ المُنْحَلَّةِ الَّتِي يَطْمَعُ النُّفوذُ الْغَرْبِيُّ أَنْ تَنْتَشِرَ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ، وَتُصْبِحَ مِنَ المُسَلَّمَاتِ عِنْدَ الشَّبَابِ الْجَدِيدِ، حِينَمَا يُشَرِّحُ جَسَدَ المَرْأَةِ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَفْقَ شَرِيعَةِ الْغَابِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ كَانَ مَادَّةَ مَوَائِدِ السُّكَارَى وَالمَخْمُورِينَ وَاللَّاهِينَ وَالْعَابِثِينَ[٢١].

فَأَيْنَ هِيَ المَوْضُوعِيَّةُ فِي التَّنَاوُلِ الإِعْلَامِيِّ المَحَلِّيِّ وَالْعَرَبِيِّ، وَالصِّدْقُ فِي المَعْلُومَةِ، وَأَمَانَةُ الْكَلِمَةِ؟ يَا تُرَى هَلْ يَرْضَى مُسْلِمٌ تَلْمِيعَهُ لَوْ سَمِعَ زَنْدَقَتَهُ وَإِلْحَادَهُ؟!

كَلَّا! وَلَكِنْ تَأْبَى بَعْضُ الْأَقْلَامِ وَالْأَصْوَاتِ إِلَّا تَسْطِيحَ عَقْلِ الْقَارِئِ وَالسَّامِعِ، وَمُمَارَسَةَ أَقْبَحِ صُوَرِ التَّضْلِيلِ وَالْخِدَاعِ بِرَفْعِ شَأْنِ الْكَفَرَةِ وَالزَّنَادِقَةِ وَالمُرْتَدِّينَ، وَتَجَاهُلِ أَعْلَامِ المُسْلِمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالمُجَاهِدِينَ، بَلْ وَالنَّيْلُ مِنْهُمْ عَلَى غِرَارِ فِعْلِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ.

هَلَكَ شَاعِرُهُمُ الزِّنْدِيقُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ، إِلَّا عِنْدَ أَشْبَاهِ الرِّجَالِ وَالشَّهْوَانِيِّينَ وَالمُنَافِقِينَ، لَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَلَا عَفَا عَنْهُ، وَلَا غَفَرَ لَهُ..

اللَّهُمَّ إِنَّ شَاعِرَهُمُ الْهَالِكَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْكَ وَعَلى شَرِيعَتِكَ فَعَامِلْهُ بِمَا يَسْتَحِقُّ

---

(٢٠) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج (٤/ ٥٦٦).

(٢١) كما يعترف بذلك في كتابه: قصتي مع الشعر؛ حيث ذكر أن قصيدته (نهداك) كان الطلبة العراقيون يسكرون عليها على ضفاف دجلة. واللبنانيون كانوا يمزمزونها على موائد العرق في زحلة. ينظر: قصتي مع الشعر (٩٥)، ودراسات في الأدب العربي الحديث (١٤٧).

فِي قَبْرِهِ، وَعِنْدَ نَشْرِهِ وَحَشْرِهِ، اللَّهُمَّ مَنْ أَحَبَّهُ وَرَثَاهُ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُ فَاحْشُرْهُ مَعَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَوْ رَثَاهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ حَالَهُ فَاغْفِرْ لَهُ وَارْزُقْهُ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ، وَاهْدِ ضَالَّ الْمُسْلِمِينَ، وَاحْفَظْ بِلَادَنَا مِنْ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَسِهَامِ الْحَاقِدِينَ، وَاحْفَظْ عُقُولَنَا مِنَ التَّضْلِيلِ، وَقُلُوبَنَا مِنَ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].



القضايا الإسلامية

٣٧٢- الاعتداء على المسجد الأقصى.

٣٧٣- طبيعة الصراع على بيت المقدس.

٣٧٤- كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله.

٣٧٥- ولتعلن علوًّا كبيرًا.

٣٧٦- بين التجمع اليهودي والتفرق العربي.

٣٧٧- علاقة النصارى بالمسلمين.

٣٧٨- حقوق الأسرى في الإسلام.

٣٧٩- مأساة البوسنة (١).

٣٨٠- مأساة البوسنة (٢).

٣٨١- الشرق الإسلامي بين المشروع الروماني والطمع الفارسي.

٣٨٢- الدولة الصفوية (١) نشأتها، عقيدتها، جرائمها.

٣٨٣- الدولة الصفوية (٢) اختطاف قضية فلسطين.

٣٧٢- الاعتداء على المسجد الأقصى

٢٨/ ١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى؛ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ المَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَضَى بِأَنْ يَكُونَ مَوْطِنَ أَكْثَرِ الْأَنْبِيَاءِ، نَحْمَدُهُ عَلَى فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، وَأَوْجَبَ عَلَى الْبَشَرِ تَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ، وَقَضَى بِأَنْ يَكُونَ دِينُهُ ظَاهِرًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، بِطَائِفَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَقَامُوا الدِّينَ، وَنَصَرُوا الشَّرِيعَةَ، وَصَانُوا المُقَدَّسَاتِ، وَعَظَّمُوا الْحُرُمَاتِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَلَقَدْ كَثُرَتْ ذُنُوبُنَا، وَعَظُمَتْ آثَامُنَا؛ فَكَانَتْ سَبَبَ ذُلِّنَا، وَتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْنَا، وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى مُقَدَّسَاتِنَا، وَأَذِيَّتِهِمْ لِإِخْوَانِنَا، فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ ذُنُوبِكُمْ؛ كَشْفًا لِغُمَّتِكُمْ، وَنَصْرًا لِأُمَّتِكُمْ، وَرَفْعًا لِذُلِّكُمْ، وَجَلْبًا لِنَصْرِ رَبِّكُمْ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَيْدَةُ عَنْ مَنْهَجِ اللَّهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِلتَّخَبُّطِ وَالضَّيَاعِ، وَتَعْطِيلُ شَرِيعَتِهِ عُنْوَانُ الْفَشَلِ وَالنِّزَاعِ. وَالْعَرَبُ أُمَّةٌ مَا اجْتَمَعَتْ إِلَّا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا يُفَرِّقُهَا إِلَّا تَرْكُهُ، وَلَا حُلُولَ لِمُشْكِلَاتِهَا إِلَّا بِشَرِيعَتِهِ. وَلَقَدْ كَانَ كَافِيًا لِلْأُمَّةِ مَا تَجَرَّعَتْهُ خِلَالَ الْعُقُودِ المَاضِيَةِ مِنْ تَجَارِبَ مُخْزِيَةٍ مُرَّةٍ، وَاسْتِجْلَابِ حُلُولٍ

مُسْتَوْرَدَةٍ مَا زَادَتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا ضَعْفًا وَذُلًّا وَتَفَرُّقًا.

وَقَضِيَّةُ المَسْجِدِ الْأَقْصَى هِيَ الْقَضِيَّةُ الْفَاضِحَةُ الَّتِي فَضَحَتْ عَجْزَ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَنْ حَلِّهَا، وَأَبَانَتْ عَنْ ذُلِّهِمْ وَهَوَانِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ؛ إِذْ ظَلُّوا نِصْفَ قَرْنٍ وَزِيَادَةً أُلْعُوبَةً بَيْنَ الدُّوَلِ الْكُبْرَى، وَالْمُنَظَّمَاتِ الْأُمَمِيَّةِ، يَتَقَاذَفُونَ قَضِيَّتَهُمْ كَمَا يَتَقَاذَفُ الصِّبْيَانُ كُرَتَهُمْ!!

وَفِي هَذِهِ الْأَيَّامِ يَضِجُّ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ، وَتُحَذِّرُ دُوَلُهُ وَمُنَظَّمَاتُهُ مِنْ مَسَاسِ الْيَهُودِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَقَدْ بَدَأَتْ جَرَّافَاتُهُمْ تَعْمَلُ عَمَلَهَا فِي مُحِيطِهِ؛ إِذْ يَشْهَدُ جِسْرُ بَابِ المَغَارِبَةِ الْقَرِيبِ مِنْ حَائِطِ الْبُرَاقِ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى الْمُبَارَكِ عَمَلِيَّاتِ هَدْمٍ وَتَغْيِيرٍ، وَيُذْكَرُ أَنَّ الْهَدَفَ الْحَقِيقِيَّ مِنْ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ هُوَ بِنَاءُ كَنِيسٍ دَاخِلَ الْحَائِطِ الْغَرْبِيِّ لِلْمَسْجِدِ، بِمَا يَعْنِي تَحْوِيلَ مَسْجِدِ الْبُرَاقِ إِلَى كَنِيسٍ لِلْمُصَلِّيَاتِ الْيَهُودِيَّاتِ.

وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الِاعْتِدَاءَ الْأَوَّلَ عَلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى؛ إِذْ سَبَقَهُ اعْتِدَاءَاتٌ كَثِيرَةٌ مُنْذُ الِاحْتِلَالِ، هَدَفُهَا النِّهَائِيُّ: هَدْمُ مَسْجِدِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَصَلَّى فِيهِ كُلُّ الْأَنْبِيَاءِ ﷺ، وَتَحْوِيلُهُ إِلَى هَيْكَلٍ يَهُودِيٍّ يُبْنَى عَلَى الشَّعَائِرِ الشِّرْكِيَّةِ، وَالنُّبُوءَاتِ الْخُرَافِيَّةِ.

وَالدَّوْلَةُ الْيَهُودِيَّةُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ مَا زُرِعَتْ فِي فِلَسْطِينَ إِلَّا لِأَجْلِ هَذَا الْهَدَفِ الَّذِي يَلْتَقِي عَلَيْهِ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ مَعَ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى، وَأُذِيبَتْ فِي سَبِيلِهِ الْخِلَافَاتُ التَّارِيخِيَّةُ، وَالنِّزَاعَاتُ الدِّينِيَّةُ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ الضَّالَّتَيْنِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

إِنَّ الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ فِي الشَّامِ الَّتِي بُورِكَتْ بِالمَسْجِدِ الْأَقْصَى لَهَا تَارِيخٌ طَوِيلٌ مِنَ النِّزَاعِ حَوْلَ هَذِهِ الْبُقْعَةِ، تَقَاتَلَتْ لِأَجْلِهِ جُيُوشٌ، وَفَنِيَتْ فِي سَبِيلِهِ أُمَمٌ، وَتَنَازَعَ عَلَيْهِ أُمَّةُ الْحَقِّ وَأُمَمُ الْبَاطِلِ مُنْذُ فَتْحِهِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَالمَلَاحِمُ الْكُبْرَى

فِي آخِرِ الزَّمَانِ سَتَكُونُ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَفِي أَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

لَقَدْ كَانَتْ حَادِثَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، وَإِمَامَةُ النَّبِيِّ ﷺ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِعْلَانًا بِأَحَقِّيَّةِ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ؛ لِأَنَّ دِينَهُمْ هُوَ دِينُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَالْأَرْضُ الْمُبَارَكَةُ هِيَ أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ، فَكَانَ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَحَقَّ بِهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَعْدَاءُ الْأَنْبِيَاءِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَكُلُّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَدْ أَقَرُّوا لَهُ بِالرِّسَالَةِ، وَصَلَّوْا خَلْفَهُ، وَأُخِذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقُ لَوْ بُعِثَ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١، ٨٢].

فَوَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَنْ تَوَلَّى عَنِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْفِسْقِ، فَهَلْ يَسْتَحِقُّ أَهْلُ الْفِسْقِ أَنْ يَبْقَوْا فِي الْبِلَادِ الَّتِي بَارَكَهَا اللهُ تَعَالَى؟!

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ سَعَى الْمُسْلِمُونَ فِي السَّنَوَاتِ الْأُولَى مِنَ الْخِلَافَةِ لِفَتْحِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَتَطْهِيرِهِ مِنْ رِجْسِ عَبَدَةِ الصَّلِيبِ وَشِرْكِهِمْ، وَسُيِّرَتِ الْجُيُوشُ لِلشَّامِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، حَتَّى سَقَطَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ، فَسَافَرَ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْمَدِينَةِ لِاسْتِلَامِ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، وَلَمْ يُنِبْ عَنْهُ أَحَدًا فِي هَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْجَلِيلَةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مِيزَةِ هَذَا الْفَتْحِ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْفُتُوحِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْكَثِيرَةِ(١).

لَقَدْ فُتِحَتْ فِي عَهْدِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سُورِيَّةُ وَهِيَ عَاصِمَةُ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، وَأَكْبَرُ دَوْلَةٍ فِي الْأَرْضِ آنَذَاكَ، وَمَا سَارَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهَا لِاسْتِلَامِهَا رَغْمَ أَهَمِّيَّتِهَا آنَذَاكَ،

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٢).

وَفُتِحَتِ المَدَائِنُ عَاصِمَةُ الْفُرْسِ الَّتِي شُهِرَتْ بِالْحَضَارَةِ وَالْعُمْرَانِ، وَامْتَلَأَتْ بِالْأَمْوَالِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَا سَارَ الْخَلِيفَةُ إِلَيْهَا بَلْ نُقِلَتْ نَفَائِسُهَا وَكُنُوزُهَا إِلَيْهِ فِي المَدِينَةِ، وَفُتِحَتْ بِلَادٌ كَثِيرَةٌ مَا خَرَجَ إِلَيْهَا الْخَلِيفَةُ، وَلَكِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ، وَصَلَّى فِيهَا، وَعَادَ بَعْدَ أَنِ اسْتَلَمَهَا وَأَدْخَلَهَا فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ.

وَلمَّا انْتَزَعَ الصَّلِيبِيُّونَ بَيْتَ المَقْدِسِ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ مَا هَنِئَ المُسْلِمُونَ بِعَيْشٍ حَتَّى أَعَادُوهَا عَلَى يَدِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَعْدَ مَا يُقَارِبُ تِسْعِينَ سَنَةً مِن احْتِلَالِهَا[٢].

وَظَلَّتِ الْأَرْضُ المُقَدَّسَةُ مُسْتَقَرًّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ جَاوَرُوا فِي أَرْضِهَا، وَمَوْئِلًا لِلْمُسْلِمِينَ يَشُدُّونَ رِحَالَهُمْ إِلَيْهَا لِزِيَارَةِ مَسْجِدِهَا، وَإِذْ ذَاكَ كَانَتْ أَعْيُنُ أَهْلِ الْكِتَابِ تَرْمُقُهَا، يُرِيدُونَ الِانْقِضَاضَ عَلَيْهَا، وَسَلْبَهَا وَالِاسْتِيطَانَ فِيهَا، فَسَيَّرُوا الْحَمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةَ تِلْوَ الْحَمَلَاتِ لِاحْتِلَالِهَا وَلَكِنَّهُمْ فَشِلُوا.

وَفِي الْقَرْنِ المَاضِي بَلَغَ ضَعْفُ المُسْلِمِينَ وَتَفَرُّقُهُمْ مَدَاهُ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَشَكَّلَتْ فِيهِ المُؤَسَّسَةُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ الْحَدِيثَةُ، وَأَخَذَتْ تُطَالِبُ بِعَوْدَةِ الْيَهُودِ إِلَى الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ لِإِحْيَاءِ النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ المُحَرَّفَةِ، وَتَآزَرَتْ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَذَا الْهَدَفِ الْخَبِيثِ الصِّهْيَوْنِيَّةُ النَّصْرَانِيَّةُ مَعَ الصَّهْيُونِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ، وَرُفِعَ الْخِلَافُ الدِّينِيُّ التَّارِيخِيُّ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى لِمُوَاجَهَةِ المُسْلِمِينَ، وَانْتِزَاعِ الْأَرْضِ المُقَدَّسَةِ مِنْهُمْ، وَتَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ؛ إِذْ دَخَلَتْ جَحَافِلُ المُسْتَعْمِرِينَ مِنْ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى بِلَادَ الشَّامِ، وَأَخْضَعَتِ الْأَرْضَ المُقَدَّسَةَ لِانْتِدَابِهَا، وَأَبَى قَائِدُهُمْ إِلَّا أَنْ يُفْصِحَ عَنِ الْهَدَفِ الدِّينِيِّ الصِّهْيَونِيِّ لِهَذَا الِاسْتِعْمَارِ حِينَ قَالَ: «الْآنَ

---

(٢) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، وخطبة: معركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

انْتَهَتِ الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ»[٣]. وَوَقَفَ جِنِرَالٌ آخَرُ عَلَى قَبْرِ صَلَاحِ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- وَضَرَبَ الضَّرِيحَ بِسَيْفِهِ قَائِلًا: «أَنَا مِنْ أَحْفَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، فَأَيْنَ أَحْفَادُكَ يَا صَلَاحَ الدِّينِ؟!»[٤].

وَدَخَلَتِ الْأُمَّةُ النَّجِسَةُ الْأَرْضَ الطَّاهِرَةَ الْمُقَدَّسَةَ، وَالمَسْجِدُ الْأَقْصَى لَا يَزَالُ تَحْتَ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَشْعَلَتِ الْحُرُوبَ تِلْوَ الْحُرُوبِ عَلَى هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ حَتَّى كَانَتِ النَّكْسَةُ الَّتِي هُزِمَتْ فِيهَا جُيُوشُ الْعَرَبِ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى تَحْتَ حُكْمِ الصَّهَايِنَةِ وَسَيْطَرَتِهِمْ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ، وَفَرِحَ الْيَهُودُ بِذَلِكَ أَشَدَّ الْفَرَحِ، وَهَتَفُوا بِثَارَاتِ خَيْبَرَ، وَنَادَوْا بِاسْتِعَادَةِ يَثْرِبَ، وَأَنْشَدُوا نَشِيدًا مَزَّقَ أَكْبَادَ أَصْحَابِ الْغَيْرَةِ وَالنَّخْوَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانُوا يَرْتَجِزُونَ قَائِلِينَ: «مُحَمَّدٌ مَاتْ وَخَلَّفَ بَنَاتْ» يُرَدِّدُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْعِبْرِيَّةِ[٥].

وَلَكِنْ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ الْمَقَادِسَةُ مُحَافِظِينَ عَلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى رَغْمَ خُضُوعِهِ لِحُكْمِ الْيَهُودِ وَسُلْطَانِهِمْ، يَفْدُونَهُ بِأَرْوَاحِهِمْ، وَيَتَنَاوَبُونَ عَلَى حِرَاسَتِهِ وَحِمَايَتِهِ، وَيُرَمِّمُونَ مَا تَلِفَ مِنْ أَجْزَائِهِ، وَلَا تَزَالُ أَعْيُنُ الصَّهَايِنَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلَى هَدْمِ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ، وَبِنَاءِ هَيْكَلِهِمْ مَكَانَهُ، وَلَكِنَّهُمْ يَجُسُّونَ نَبْضَ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ، وَيُحَاوِلُونَ إِمَاتَةَ شُعُورِهِمْ تُجَاهَ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ، بِأَعْمَالِ الْحَفْرِ وَالْهَدْمِ لِحَرِيمِهِ وَشَوَارِعِهِ وَجُسُورِهِ، وَتَسْلِيطِ مُتَعَصِّبَتِهِمْ عَلَى الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهِ بِالْحَرْقِ وَالْهَدْمِ وَالتَّفْجِيرِ لِبَعْضِ أَجْزَائِهِ؛ رَجَاءَ أَنْ يَسْقُطَ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ.

وَفِي مَا يُسَمَّى بِالنَّكْبَةِ قَبْلَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَإِبَّانَ إِعْلَانِ الْيَهُودِ عَنْ قِيَامِ

---

(٣) حركة التجديد في القرن السادس الهجري، محمد بن حامد الناصر، مجلة الجندي المسلم، عدد (١١٠).

(٤) الحروب الصليبية، أحمد شلبي (١٨).

(٥) رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، محمد عبد الغني النواوي (٥٠٥).

دَوْلَتِهِمْ فِي الْأَرْضِ المُبَارَكَةِ، وَجَعْلِ الْقُدْسِ عَاصِمَةً لَهَا؛ حَاوَلَ الْأَنْجَاسُ هَدْمَ المَسْجِدِ الْأَقْصَى فَأَلْقَتْ عَلَيْهِ قُوَّاتُهُمْ خَمْسًا وَخَمْسِينَ قُنْبُلَةً، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى سَلَّمَ.

وَفِي مَا يُسَمَّى بِالنَّكْسَةِ قَبْلَ مَا يُقَارِبُ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَصَفَ الْيَهُودُ المَسْجِدَ المُبَارَكَ بِمَدَافِعِ الْهَاوِنِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى حَفِظَهُ.

وَعَقِبَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ أَقْدَمَ السَّائِحُ الْيَهُودِيُّ مَايْكِلُ دِينِيسْ عَلَى إِحْرَاقِ مِنْبَرِ صَلَاحِ الدِّينِ وَأَجْزَاءٍ كَبِيرَةٍ مِنَ المَسْجِدِ، وَتَبَاطَأَ المُحْتَلُّونَ فِي إِخْمَادِ النِّيرَانِ، وَأَعَاقُوا جُهُودَ المَقَادِسَةِ المُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَبُّوا لِإِخْمَادِهَا فَتَضَرَّرَ المَسْجِدُ بِذَلِكَ(٦).

أَمَّا مُخَطَّطَاتُ نَسْفِ المَسْجِدِ الْأَقْصَى فَهِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَالمُنَظَّمَاتُ الصِّهْيَوْنِيَّةُ الَّتِي أُنْشِئَتْ لِهَدْمِ المَسْجِدِ وَبِنَاءِ الْهَيْكَلِ تَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ مُنَظَّمَةً، وَالمُحَاوَلَاتُ الْفَرْدِيَّةُ وَالْجَمَاعِيَّةُ الْعُدْوَانِيَّةُ عَلَى المَسْجِدِ بِاحْتِلَالِهِ أَوْ حَرْقِهِ أَوْ تَفْجِيرِهِ أَوْ إِرْهَابِ المُصَلِّينَ فِيهِ تُعَدُّ بِمِئَاتِ المُحَاوَلَاتِ، وَمَا عَمَلِيَّاتُ الْهَدْمِ فِي حَرِيمِ المَسْجِدِ وَشَوَارِعِهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْ تِلْكَ المُحَاوَلَاتِ الْكَثِيرَةِ، الَّتِي لَمْ يَمَلَّ الْيَهُودُ مِنْ تَكْرَارِهَا، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى النَّجَاحِ فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

(٦) مايكل دينيس يهودي أسترالي ينتمي إلى «كنيسة الرب» التي تؤمن بنبوءات التوراة القاضية بأن المسيح ﷺ سينزل بعد بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وتواطؤ السلطات اليهودية معه ثابت من وجهين:
الأول: أنه حاول قبل عام من فعلته الشنيعة حرق المسجد الأقصى لكنه اكتشف، وتسترت عليه سلطات اليهود ليقوم بما عزم عليه بعد سنة.
الثاني: تعمدت سلطات اليهود قطع المياه عن منطقة المسجد الأقصى قبل نشوب الحريق وأثناءه، وتأخير سيارات الإطفاء في القدس عن الوصول إليه وإعاقتها. لكن المسلمين هبوا لإطفاء الحريق إلى أن قدمت سيارات إطفاء من الخليل ورام الله فتم إخماد الحريق بعد أن ألحق الحريق بالمسجد أضرارًا جسيمة.

وَقِصَّةُ هَدْمِ المَسْجِدِ الْأَقْصَى المُبَارَكِ فِي الْعَقْلِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ تَرْتَبِطُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِثَالُوثٍ خَطِيرٍ يُقْنِعُهُمْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ بِالِاقْتِرَابِ كَثِيرًا مِنْ مُخَطَّطِهِمُ الْإِجْرَامِيِّ لِتَحْقِيقِ النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ، وَأَوَّلُ أَرْكَانِ هَذَا الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي تَسَلُّطِ قُوَى الِاسْتِكْبَارِ الْعَالَمِيِّ عَلَى المُسْلِمِينَ وَبُلْدَانِهِمْ، وَدَعْمِهَا المُطْلَقِ لِلْمَشْرُوعَاتِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ، مَعَ عَجْزِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ إِيقَافِ ذَلِكَ، وَإِشْغَالِهَا بِنَفْسِهَا عَنْ مُقَدَّسَاتِ المُسْلِمِينَ وَمَسَاجِدِهِمْ.

وَثَانِي أَرْكَانِ هَذَا الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي انْتِشَارِ المَدَارِسِ وَالمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي تَنْفُخُ نَارَ الْأَحْقَادِ فِي قُلُوبِ الشَّبِيبَةِ الْيَهُودِ عَلَى المُسْلِمِينَ وَقُدْسِهِمْ، وَتُقَوِّي عَزَائِمَهُمْ عَلَى بِنَاءِ الْهَيْكَلِ مَكَانَ المَسْجِدِ، وَأَنَّهُ لَا قِيمَةَ لِدَوْلَتِهِمْ بِدُونِ الْقُدْسِ، وَلَا قِيمَةَ لِلْقُدْسِ بِدُونِ الْهَيْكَلِ، وَتُخَرِّجُ هذه المَعَاهِدُ وَالمَدَارِسُ الْآلَافَ مِنَ الطَّلَبَةِ، وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِالْهَيْكَلِ، وَتَتَسَمَّى بِهِ.

وَثَالِثُ أَرْكَانِ الثَّالُوثِ يَتَمَثَّلُ فِي النُّبُوءَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ الَّتِي أَحْيَاهَا الْبُرُتِسْتَانْتُ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَأَزَالُوا بِسَبَبِهَا الْعَدَاءَ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ. وَلِإِيمَانِهِمُ المُطْلَقِ بِتِلْكَ الْخُرَافَاتِ، وَسَعْيِهِمُ الْحَثِيثِ لِتَحْقِيقِهَا وَطَّنُوا الْيَهُودَ فِي الْأَرْضِ المُبَارَكَةِ؛ لِيَكُونُوا وَسِيلَةً لِنُزُولِ المُخَلِّصِ، وَمِنْ ثَمَّ إِبَادَةُ المُسْلِمِينَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ فِي هِرْمِجْدُونَ حَسَبَ مُعْتَقَدَاتِهِمْ.

لَقَدْ تَحَوَّلَ اعْتِقَادُ الْيَهُودِ فِي الْهَيْكَلِ مِنْ مُجَرَّدِ حُلْمٍ يَرَوْنَ ضَرُورَتَهُ لِحُكْمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى عَقِيدَةٍ يَعْتَقِدُونَ بِمُوجَبِهَا أَنَّ كُلَّ بَلَاءٍ يُحِيطُ بِالْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ وَخَارِجِهَا إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ تَبَاطُئِهِمْ فِي هَدْمِ المَسْجِدِ وَبِنَاءِ الْهَيْكَلِ، وَأَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ زَالَ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْبَلَاءُ مِنْ تَفْجِيرِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ لَهُمْ، وَمِنْ إِخْلَاءِ مُسْتَوْطَنَاتِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا المَعْنَى يَرَى الْحَاخَامُ مُرْدَخَايُ الْيَاهُو: أَنَّ بَقَاءَ جَبَلِ الْهَيْكَلِ تَحْتَ السَّيْطَرَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يُضْعِفُ وَبِشَكْلٍ مُسْتَمِرٍّ إِمْكَانِيَّةَ "إِسْرَائِيلَ" فِي التَّعَاطِي وَالتَّعَامُلِ مَعَ مُشْكِلَاتِهَا وَالضُّغُوطِ النَّازِلَةِ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ المَشَاكِلُ أَوِ الضُّغُوطُ مَحَلِّيَّةً أَوْ خَارِجِيَّةً(٧).

وَهَذَا التَّحَوُّلُ فِي الْقَنَاعَاتِ عِنْدَ أَئِمَّةِ الْيَهُودِ يُشَكِّلُ أَكْبَرَ خَطَرٍ عَلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي تَارِيخِهِ كُلِّهِ؛ إِذْ مَا عَادَتِ المَسْأَلَةُ مُتَعَلِّقَةً بِنُبُوءَاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّةٍ يَنْتَظِرُونَهَا، وَيَسْعَوْنَ خُطْوَةً خُطْوَةً لِتَحْقِيقِهَا. بَلْ أَضْحَى هَدْمُ المَسْجِدِ وَبِنَاءُ الْهَيْكَلِ سَبَبًا لِلْقَضَاءِ عَلَى مَشَاكِلِهِمْ، وَبُطْؤُهُمْ فِي ذَلِكَ هُوَ مَا يُسَبِّبُ كُلَّ المُشْكِلَاتِ لَهُمْ، وَيَسْعَى أَئِمَّتُهُمْ لِإِقْنَاعِ عَوَامِّهِمْ بِعَقِيدَتِهِمْ تِلْكَ.

حَمَى اللهُ تَعَالَى المَسْجِدَ الْأَقْصَى وَالْأَرْضَ المُبَارَكَةَ، وَسَائِرَ مَسَاجِدِ المُسْلِمِينَ وَمُقَدَّسَاتِهِمْ مِنْ كَيْدِهِمْ وَمَكْرِهِمْ، وَرَدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ خَائِبِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ، وَنَسْتَعِينُ بِهِ وَلَا نَكْفُرُهُ، وَنَخْلَعُ مَنْ يَفْجُرُهُ، هُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْهِ أَنَبْنَا وَإِلَيْهِ المَصِيرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ تَرَكَنَا عَلَى بَيْضَاءَ

---

(٧) المسجد الأقصى في خطر، مقال منشور في منتدى صوت الأمة العربية على الشبكة العالمية.

لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا المَعَاصِيَ فَإِنَّهَا سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ وَبَلَاءٍ وَعَذَابٍ، وَمَا نَزَلَ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ وَمَا رُفِعَ إِلَّا بِتَوْبَةٍ؛ فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَطِيبُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ تَوْصِيفُ الصِّرَاعِ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَأَعْدَائِهِمْ عَلَى أَنَّهُ صِرَاعُ أَرْضٍ وَمَصَالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ فَحَسْبُ، وَيَتَشَنَّجُونَ حِينَ يَنْبَرِي بَعْضُ المُسْلِمِينَ لِبَيَانِ الْخَلْفِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ لِهَذَا الصِّرَاعِ الطَّوِيلِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْكُتَّابِ وَالمُفَكِّرِينَ قَدْ نَبَذُوا دِينَهُمْ وَرَاءَهُمْ ظِهْرِيًّا، وَيُحَلِّلُونَ الْأَحْدَاثَ تَحْلِيلًا مَادِّيًّا بَحْتًا، بَلْ حَتَّى التَّارِيخُ أَسْقَطُوا عَلَيْهِ تَحْلِيلَاتِهِمُ المَادِّيَّةَ فَأَفْسَدُوهُ وَزَوَّرُوهُ، وَيَظُنُّونَ أَنَّ المُفَكِّرِينَ وَالسِّيَاسِيِّينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدْ نَبَذُوا دِينَهُمْ مِثْلَهُمْ، وَأَنَّ مُعْتَقَدَاتِهِمْ لَا تُسَيِّرُ كَثِيرًا مِنْ سِيَاسَاتِهِمْ، وَلَا تُبْنَى عَلَيْهَا اسْتِرَاتِيجِيَّاتُهُمْ، وَنَظْرَتُهُمُ الْقَاصِرَةُ هِيَ الَّتِي أَوْرَدَتِ الْأُمَّةَ المَهَالِكَ، وَأَوْصَلَتْهَا إِلَى هَذَا الذُّلِّ الْعَظِيمِ، وَضَيَّعَتْ أَكْثَرَ قَضَايَاهَا، فَلَا حَفِظُوا لِلْمُسْلِمِينَ دُنْيَاهُمْ كَمَا يَعِدُونَ، وَلَا أَبْقَوْا لَهُمْ دِينَهُمْ وَمُقَدَّسَاتِهِمْ.

وَكَثِيرًا مَا سَمِعْنَاهُمْ وَقَرَأْنَا لَهُمْ يَصِيحُونَ بِالمُسْلِمِينَ زَاعِمِينَ أَنَّ زُعَمَاءَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى عَلْمَانِيُّونَ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّ النُّبُوءَاتِ الدِّينِيَّةَ لَا تُمَثِّلُ أَيَّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ، وَلَا تَرْسُمُ سِيَاسَاتِهِمْ.

وَلِتَعْلَمُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْيَهُودَ مَا غَرَسُوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَّا لِأَهْدَافٍ دِينِيَّةٍ تَوْرَاتِيَّةٍ اجْتَمَعَ عَلَى الِاعْتِقَادِ بِهَا صَهَايِنَةُ النَّصَارَى الْإِنْجِيلِيُّونَ مَعَ صَهَايِنَةِ الْيَهُودِ

التَّوْرَاتِيِّينَ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْمُشْكِلَةَ الْيَهُودِيَّةَ لَمَّا تَفَاقَمَتْ فِي أُورُبَّا إِبَّانَ الثَّوْرَتَيْنِ الصِّنَاعِيَّةِ وَالتِّجَارِيَّةِ، وَطَالَبَ كِبَارُ الْيَهُودِ بِدَوْلَةٍ لَهُمْ، اقْتُرِحَتْ عِدَّةُ دُوَلٍ لَمْ تَكُنْ فِلَسْطِينُ ضِمْنَهَا، فَاقْتُرِحَتْ مُوزَمْبِيقُ ثُمَّ الْكُونْغُو، كَمَا اقْتُرِحَتِ الْأَرْجَنْتِينُ وَقُبْرُصُ وَسَيْنَاءُ ثُمَّ أُوغَنْدَا[٨]، وَلَكِنَّ هَذِهِ الدُّوَلَ رُفِضَتْ مِنْ مُهَنْدِسِي الصِّهْيَوْنِيَّةِ مَوْطِنًا لِلْيَهُودِ؛ لِأَنَّ الْعَقَائِدَ الْأُصُولِيَّةَ الْبُرُوتِسْتَانْتِيَّةَ مَعَ الْعَقَائِدِ الْيَهُودِيَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ لَا تَلْتَقِي فِيهَا، فَاخْتِيرَتْ فِلَسْطِينُ؛ لِأَنَّهَا مَجْمَعُ عَقَائِدِهِمْ، وَمُنْتَهَى آمَالِهِمْ.

وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ هِرْتِزِلْ مُؤَسِّسَ الْحَرَكَةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ الَّذِي يُجْمِعُ الْعَلْمَانِيُّونَ الْعَرَبُ عَلَى أَنَّهُ عَلْمَانِيٌّ صِرْفٌ، وَلَا يُؤْمِنُ بِالْخُرَافَاتِ التَّوْرَاتِيَّةِ مَا دَفَعَهُ لِتَأْسِيسِ حَرَكَتِهِ تِلْكَ إِلَّا رُؤْيَا دِينِيَّةٌ رَآهَا فِي مَنَامِهِ، وَقَدْ سَجَّلَ ذَلِكَ فِي يَوْمِيَّاتِهِ؛ فَهَلْ هُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ، أَمْ أَنَّهُمْ يُخَدِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ وَيَخْدَعُونَهُمْ بِإِبْعَادِ الدِّينِ عَنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ.

يَقُولُ هِرْتِزِلْ فِي مُذَكِّرَاتِهِ عَنْ رُؤْيَا رَآهَا: «ظَهَرَ لِيَ الْمَسِيحُ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ مُسِنٍّ فِي مَظْهَرِ الْعَظَمَةِ وَالْوَقَارِ، فَطَوَّقَنِي بِذِرَاعَيْهِ، وَحَمَلَنِي بَعِيدًا عَلَى أَجْنِحَةِ الرِّيحِ ... وَالْتَقَيْنَا عَلَى إِحْدَى تِلْكَ الْغُيُومِ الْقُزَحِيَّةِ بِصُورَةِ مُوسَى، فَالْتَفَتَ الْمَسِيحُ إِلَى مُوسَى مُخَاطِبًا إِيَّاهُ: مِنْ أَجْلِ هَذَا الصَّبِيِّ كُنْتُ أُصَلِّي، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ لِي: اذْهَبْ وَأَعْلِنْ لِلْيَهُودِ بِأَنَّنِي سَوْفَ آتِي عَمَّا قَرِيبٍ لِأَجْتَرِحَ الْمُعْجِزَاتِ الْكَبِيرَةَ، وَأُسْدِيَ الْأَعْمَالَ الْعَظِيمَةَ لِشَعْبِي وَلِلْعَالَمِ»[٩].

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ عَقِيدَةَ «الْمَسِيحِ الْمُنْتَظَرِ» مِحْوَرٌ يَدُورُ حَوْلَهُ الْمُسَلْسَلُ التَّارِيخِيُّ الْيَهُودِيُّ الْقَدِيمُ وَالْمُعَاصِرُ، وَهِيَ عَقِيدَةٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِيَ بِأَنَّهَا فِكْرَةٌ عَلْمَانِيَّةٌ!

---

(٨) فلسطين مسلمة د. علي جريشة، بحث منشور على الشبكة العالمية.

(٩) دولة اليهود بين العجز والإعجاز، د. عبدالعزيز كامل، مجلة البيان، عدد (١١٨) ص(٦٦).

وَفِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ يَوْمِيَّاتِهِ نَجِدُ هِرْتِزِلْ يَتَحَدَّثُ عَنِ «الْأَرْضِ الْمَوْعُودَةِ» الَّتِي اتَّخَذَهَا عُنْوَانًا لِرِوَايَةٍ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى كِتَابَتِهَا، وَهِيَ الَّتِي قَرَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُتَرْجِمَهَا إِلَى بَرْنَامَجٍ عَمَلِيٍّ، تَمَثَّلَ هَذَا الْبَرْنَامَجُ فِي قِيَامِ دَوْلَةِ الْيَهُودِ فِي الْأَرْضِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ[١٠].

ثُمَّ تَوَسَّعَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ حَتَّى ابْتَلَعَتِ الْقُدْسَ، وَرَزَحَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى تَحْتَ حُكْمِهَا، وَلَا يَزَالُ الصَّهَايِنَةُ طَامِعِينَ فِي تَوْسِيعِهَا؛ لِتَشْمَلَ كُلَّ الدُّوَلِ الَّتِي بَيْنَ النِّيلِ وَالْفُرَاتِ، وَلَنْ يَتَحَقَّقَ ذَلِكَ لَهُمْ إِلَّا بِبِنَاءِ الْهَيْكَلِ عَلَى أَنْقَاضِ الْمَسْجِدِ الْمُبَارَكِ.

وَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ -لَا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَى- فَإِنَّهُ عَارٌ وَأَيُّ عَارٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْجَزُوا عَنِ الدِّفَاعِ عَنْ مُقَدَّسَاتِهِمْ، وَلَوْ نَجَحَ الصَّهَايِنَةُ فَلَنْ يُوقِفَهُمْ عَنْ بَاقِي أَطْمَاعِهِمْ أَيُّ شَيْءٍ؛ فَوَاجِبٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِنْ أَرَادُوا حِفْظَ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَصِيَانَةَ مُقَدَّسَاتِهِمْ وَبُلْدَانِهِمْ أَنْ يَسْعَوْا بِكُلِّ الطُّرُقِ وَالْوَسَائِلِ لِإِفْشَالِ مُخَطَّطَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ؛ فَهِيَ لِلْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ، وَلَيْسَتْ لِأَهْلِ فِلَسْطِينَ وَحْدَهُمْ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِنْ تَخَلَّوْا عَنْ إِخْوَانِهِمُ الْيَوْمَ فَسَتَقِفُ غَدًا جَحَافِلُ الْمُسْتَعْمِرِينَ عَلَى أَطْرَافِ بُلْدَانِهِمْ، وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ أَنْ يَقُولُوا حِينَذَاكَ: أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الْأَبْيَضُ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ، وَانْصُرُوا إِخْوَانَكُمْ، وَحَافِظُوا عَلَى مُقَدَّسَاتِكُمْ، وَاعْلَمُوا مَا يَحِيكُ لَكُمْ أَعْدَاؤُكُمْ، وَأَكْثِرُوا مِنَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ يَرُدَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...

---

(١٠) المصدر السابق.

٣٧٣- طبيعة الصراع على بيت المقدس

٢٠/ ١١/ ١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ خَلَقَ الْبَشَرَ فَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَهْلَ حَقٍّ وَأَهْلَ بَاطِلٍ، وَقَضَى بِبَقَاءِ الصِّرَاعِ بَيْنَهُمَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ؛ فَلَا يَجْتَمِعَانِ وَلَا يَرْتَفِعَانِ؛ ابْتِلَاءً مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤]، نَحْمَدُهُ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْمَدَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَظِيمِ مَنِّهِ وَوَاسِعِ فَضْلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَا يَقْضِي قَضَاءً لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَعَلَيْهِ السَّخَطُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّاتِ، وَقَضَى بِهَيْمَنَةِ شَرِيعَتِهِ عَلَى الشَّرَائِعِ كُلِّهَا؛ فَلَا حَقَّ يُوصِلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ إِلَّا مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبُعْدُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضْوَانِهِ ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المَائِدَة: ٤٨] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- وَاعْمَلُوا صَالِحًا؛ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ كُرُبَاتٍ وَشَدَائِدَ لَا ثَبَاتَ فِيهَا، وَلَا مَخْرَجَ مِنْهَا إِلَّا بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَقُوَّةِ الْيَقِينِ بِهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَصِدْقِ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ عَدْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ أَنْ جَعَلَ السِّيَادَةَ وَالرِّيَادَةَ لِمَنْ يَدِينُ بِدِينِهِ وَيُقِيمُ شَرِيعَتَهُ، دُونَ اعْتِبَارٍ لِجِنْسِهِ وَلَوْنِهِ وَلِسَانِهِ وَمَالِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ الْحَقِّ، وَالْحَقُّ أَقْوَى مِنَ الْبَاطِلِ -وَإِنْ طَغَى أَهْلُهُ وَظَلَمُوا- ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وَأَهْلُ الْحَقِّ غَالِبُونَ وَلَوْ كَانُوا قِلَّةً مُسْتَضَامِينَ مُسْتَضْعَفِينَ؛ لِأَنَّهُمْ جُنْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

وَبَنُو إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ قَدْ فَضَّلَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَانُوا قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، بِمَا آتَاهَا اللهُ تَعَالَى مِنَ الْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]. وَإِذَا أُطْلِقَ «إِسْرَائِيلُ» فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليهم السلام(١)، جَعَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) ذكر الرازي -رحمه الله تعالى-: «اتفاق المفسرين على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويقولون إن معنى إسرائيل عبد الله لأن (إسرا) في لغتهم هو العبد و(إيل) هو الله، وكذلك جبريل هو عبد الله، وميكائيل عبد الله. قال القفال: قيل: إن (إسرا) بالعبرانية في معنى إنسان، فكأنه قيل: رجل الله» التفسير الكبير (٣/ ٢٨).
وذكر فيه ابن كثير -رحمه الله تعالى- حديثًا مسندًا فقال: «فإسرائيل هو يعقوب، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال: حَدَّثَنِي عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟ قالوا: اللهم نعم، فقال النبي ﷺ: اللهم اشْهَد» تفسير ابن كثير (١/ ٨٣).
قلت: هو حديث طويل اخْتَصَره ابن كثير، وأخرجه الطيالسي (٢٧٣١)، وأحمد (١/ ٢٧٣)، وابن سعد في الطبقات (١/ ١٧٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٣٣)، والطبري في تفسيره (١/ ٤٣١)، والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٤٦) رقم (١٣٠١٢)، وغيرهم من طرق لا تخلو من ضعف عن ابن عباس رضي الله عنهما، وضعّف الهيثمي طريق الطبراني في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥١-٣١٦).
=

مِنْ ذُرِّيَّتِهِ، وَكَانَ مَوْطِنُهُمْ بَيْتَ المَقْدِسِ بَعْدَ أَنِ اتَّخَذَهُ جَدُّهُمُ الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام

= قال الطبري -رحمه الله تعالى-: «وكان يعقوب يدعى إسرائيل بمعنى: عبد الله وصفوته من خلقه و(إيل) هو الله، و(إسرا) هو العبد؛ كما قيل: جبريل، بمعنى: عبد الله، ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قوله: إن إسرائيل كقولك عبد الله» تفسير الطبري (١/ ٢٤٨).

ونقل القرطبي في تفسيره (١/ ٣٣٠) عن ابن الجوزي قوله: «وليس في الأنبياء من له اسمان غيره إلا نبينا محمد ﷺ فإن له أسماء كثيرة ذكره في كتاب (فهوم الآثار) له، ثم قال القرطبي: قلت: وقد قيل في المسيح: إنه اسم علم لعيسى عليه السلام غير مشتق، وقد سماه الله روحًا، وكلمة، وكانوا يسمونه أبيل الأبيلين، ذكره الجوهري في الصحاح، وذكر البيهقي في دلائل النبوة عن الخليل بن أحمد خمسة من الأنبياء ذوي اسمين: محمد وأحمد نبينا ﷺ، وعيسى والمسيح، وإسرائيل ويعقوب، ويونس وذو النون، وإلياس وذو الكفل صلى الله عليهم وسلم. قلت (القرطبي): ذكرنا أن لعيسى أربعة أسماء، وأما نبينا ﷺ فله أسماء كثيرة بيانها في مواضعها، وإسرائيل اسم أعجمي؛ ولذلك لم ينصرف، وهو في موضع خفض بالإضافة، وفيه سبع لغات:

١- إسرائيل وهي لغة القرآن.

٢- وإسرائيل بمَدَّة مهموزة مختلسة حكاها شنبوذ عن ورش.

٣- وإسرايل بمَدَّة بعد الياء من غير همز، وهي قراءة الأعمش وعيسى بن عمر.

٤- وقرأ الحسن والزهري بغير همز ولا مد.

٥- وإسرائل بغير ياء بهمزة مكسورة.

٦- وإسراءل بهمزة مفتوحة.

٧- وتميم يقولون إسرائين بالنون.

ومعنى إسرائيل:

١- عبد الله قال ابن عباس رضي الله عنهما: إسرا بالعبرانية هو عبد وإيل هو الله.

٢- وقيل: إسرا هو صفوة الله وإيل هو الله.

٣- وقيل إسرا من الشد فكأن إسرائيل الذي شده الله وأتقن خلقه، ذكره المهدوي.

٤- وقال السهيلي: سمي إسرائيل؛ لأنه أسرى ذات ليلة حين هاجر إلى الله تعالى، فسمي إسرائيل، أي: أسرى إلى الله، ونحو هذا، فيكون بعض الاسم عبرانيًا وبعضه موافقًا للعرب، والله أعلم. اهـ من تفسير القرطبي (١/ ٣٣٠-٣٣١)، وينظر: زاد المسير (١/ ٧٢)، وتفسير البيضاوي (١/ ٣٠٧)، والدر المنثور (١/ ١٥٣).

مَوْضِعًا يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى فِيهِ، إِلَى أَنْ جَرَى عَلَى يُوسُفَ مَا جَرَى عَلَيْهِ مِنَ الْمِحْنَةِ وَالِابْتِلَاءِ، ثُمَّ الرِّفْعَةِ وَالتَّمْكِينِ، فَهَاجَرَ يَعْقُوبُ بِبَنِيهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ إِلَى مِصْرَ؛ كَمَا فِي سُورَةِ يُوسُفَ عليه السلام ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٩]، وَمَكَثُوا فِيهَا أَرْبَعَةَ قُرُونٍ وَزِيَادَةً.

كَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ الْوَثَنِيُّونَ يَحْكُمُونَ بَيْتَ المَقْدِسِ وَيُسَمَّوْنَ الْعَمَالِقَةَ وَالْجَبَّارِينَ، فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ عليه السلام، وَجَرَى عَلَيْهِ مَا جَرَى مَعَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى عليه السلام، وَفَرَضَ فِيهَا الْجِهَادَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ(٢)، فَأُمِرُوا بِقِيَادَةِ مُوسَى عليه السلام أَنْ يُطَهِّرُوا بَيْتَ المَقْدِسِ

---

(٢) كان من سنة الله تعالى في المكذبين من عباده أن يهلكهم بعذاب من السماء، كما جرت هذه السنة على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وهامان وقارون وجندهم، فلما شرع الله تعالى الجهاد في شريعة موسى عليه السلام أمسك عذابه عنهم، وجعله بأيدي المؤمنين بالجهاد الشرعي الذي هو باق إلى آخر الزمان، حين يجاهد عيسى عليه السلام والعصبة المؤمنة معه المسيح الدجال ومن معه من اليهود، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، وتضافرت فيه أقوال المفسرين والعلماء:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، وفيما أنزل الله تعالى على موسى الجهاد بدليل قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

٢- ذكر الله تعالى قصة نوح عليه السلام في سورة (المؤمنون) وذكر القرون المهلكة بعده في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ثم ذكر سبحانه إرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه، وقال سبحانه عنهم: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ۝٤٨ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩] فهذا يدل على أن نزول التوراة كان بعد هلاك فرعون وجنده، وفي التوراة شرع الجهاد. =

. . . .

= ٣- عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ من الْأَنْبِيَاءِ، فقال لِقَوْمِه: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وهو يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بها، ولا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا ولم يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، ولا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ وهو يَنْتَظِرُ وِلَادَهَا، فَغَزَا فَدَنَا من الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أو قَرِيبًا من ذلك، فقال لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وأنا مَأْمُورٌ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ -يَعْنِي: النَّارَ- لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا، فقال: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي من كل قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أو ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ، فقال: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فجاؤوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ من الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا، ثُمَّ أَحَلَّ الله لنا الْغَنَائِمَ؛ رأى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لنا» أخرجه البخاري (٢٩٥٦)، ومسلم (١٧٤٧).

وهذا النبي المبهم هنا هو يوشع بن نون ﷺ كما جاء مُعينًا في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشَّمْسَ لم تُحْبَسْ على بَشَرٍ إلا لِيُوشَعَ ليالي سَارَ إلى بَيْتِ المَقْدِسِ» أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥). وكانت هذه الحادثة بعد وفاة موسى ﷺ.

٤- ما قص الله تعالى علينا في سورة البقرة من خبر المعركة بين طالوت وجالوت، وقتل داود لجالوت، وداود ﷺ من أنبياء بني إسرائيل، وهو بعد موسى ﷺ.

٥- حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «ما أهلك الله قومًا ولا قرنًا ولا أمة، ولا أهل قرية منذ أنزل التوراة على وجه الأرض بعذاب من السماء غير أهل القرية التي مسخت قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣] أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٦٢)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٩٢٨)، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٢/ ٤٤٢).

وجاء مرفوعًا وموقوفًا، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار موقوفًا ومرفوعًا ورجالهما رجال الصحيح (٧/ ٨٨)، وقال الألباني بعد أن ساق قول الهيثمي: وأقول: كلاهما صحيح، ولا مخالفة بينهما، فمن الواضح أن الموقوف على الصحابي في حكم المرفوع فيما يتعلق بالتفسير، حتى ولو لم يرد مرفوعًا، فكيف وقد صح مرفوعًا أيضًا؟! سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٢٥٨).

ومن أقوال المفسرين على قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]. =

. . . .

= ١- قال ابن عطية -رحمه الله تعالى-: «وقالت فرقة: إن الآية مضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم، فلم تعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مُسِخَتْ قردة فيما رُوي» المحرر الوجيز (٤/ ٢٨٩).

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: «قال موسى ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، إلى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، إلى قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦]، وليس المراد بالآيات هنا كتابًا منزلًا؛ فإن موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت، وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون، وخلص ببني إسرائيل، فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى﴾ [القصص: ٤٣]، ولكن تكذيبهم بآياته إنكارهم أن تكون آية من الله وقولهم إنها سحر» اهـ من النبوات (١٦٧-١٦٨).

٣- وقال في موضع آخر: «والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم بلاء كما قيل للنبي: «أي الناس أشد بلاء؟ قال: **الأنبياء ثم الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَل فالأمثل، يُبْتَلى الرجلُ عَلَى حسب دينِهِ؛ فإنْ كان في دينه صَلَابة زِيدَ فِي بَلَائِه، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّفَ عنه، ولا يَزَال البلاء بالمؤمِنِ حَتَّى يمْشِيَ علي الأرض وليس عليه خطيئة**». ومن هذا أن الله شرع من عذاب الكفار بعد نزول التوراة بأيدي المؤمنين في الجهاد ما لم يكن قبل ذلك، حتى إنه قيل: لم ينزل بعد التوراة عذاب عام من السماء للأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فإنه قبل ذلك قد أهلك قوم فرعون وقوم شعيب ولوط وعاد وثمود وغيرهم، ولم يهلك الكفار بجهاد المؤمنين، ولما كان موسى أفضل من هؤلاء، وكذلك محمد، وهما الرسولان المبعوثان بالكتابين العظيمين كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ٤٨] إلى قوله: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩]، وأمر الله هذين الرسولين بالجهاد على الدين، وشريعة محمد أكمل؛ فلهذا كان الجهاد في أمته =

. . . .

= أعظم منه في غيرهم، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى للمنافقين: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢]» اهـ من قاعدة في المحبة ١٥٠-١٥١.

٤- وقال أيضًا: «إن الله ﷻ كانت سنته قبل إنزال التوراة إذا كُذِّبَ نَبِيٌّ من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بِعَذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغَرَقِ، وقوم هود بالرِّيحِ الصَّرْصَرِ، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فلما أنزل التوراة أمر أهل الكتاب بالجهاد، فمنهم من نكل ومنهم من أطاع، وصار المقصود بالرسالة لا يحصل إلا بالعلم والقدرة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]» الجواب الصحيح ٥/ ١٠٠-١٠١.

٥- وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادًا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوَّه فرعون وقومه بالغرق في الْيَمّ، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ﴾ [القصص: ٤٣]، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤]، ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان» اهـ تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢).

٦- وقال في موضع آخر: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة =

. . . .

= بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقَّة: ٩-١٠]» تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩١).

٧- وقال السعدي -رحمه الله تعالى-: «مرَّ عليَّ منذ زمان طويل كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد موسى ونزول التوراة رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدبرت هذه الآيات -يقصد آيات سورة المؤمنين المذكورة آنفًا- مع الآيات التي في سورة القصص تبيَّن لي وجهه. أما هذه الآيات -آيات سورة (المؤمنون)- فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم وأنزل عليه التوراة فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص فهي صريحة جدًّا؛ فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]، فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس وهدى ورحمة، ولعل من هذا ما ذكر الله في سورة يونس من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد: نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [يونس: ٧٤، ٧٥] الآيات، والله أعلم» اهـ تفسير السعدي (٥٥٢).

فائدة: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- أن جهاد الكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه:

أحدها: أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم؛ لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله.

الثاني: أن ذلك أنفع للكفار أيضًا؛ فإنهم قد يؤمنون من الخوف، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يسلم أيضًا، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة: وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا من معنى كون محمد ما أرسل إلا رحمة للعالمين؛ فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه، حتى =

مِنْ وَثَنِيَّةِ الْكَنْعَانِيِّينَ؛ فَامْتَنَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَالُوا: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المَائِدَة: ٢٢]، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالتِّيهِ عَلَى عِصْيَانِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً عَلَى مَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي سُورَةِ المَائِدَةِ. تُوُفِّيَ فِيهَا هَارُونُ ثُمَّ مُوسَى عليهما السلام.

وَنَشَأَ جِيلٌ جَدِيدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَقْوَى إِيمَانًا، وَأَصْلَبَ عُودًا، وَأَمْضَى عَزِيمَةً، فَقَادَهُمْ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ عليه السلام إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ فَفَتَحَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ، وَطُهِّرَتِ الْأَرْضُ المُبَارَكَةُ مِنْ شِرْكِ الْكَنْعَانِيِّينَ الْوَثَنِيِّينَ. وَعَمَرَهَا أَتْبَاعُ مُوسَى بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى أَنْ دَبَّ الشِّرْكُ وَالْعِصْيَانُ فِي بَعْضِهِمْ؛ فَكَانَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوَحِّدُونَ، كَمَا كَانَ فِيهِمْ مُشْرِكُونَ.

فَلَمَّا كَثُرَ الْعِصْيَانُ فِيهِمْ سَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةَ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ، فَاحْتَلُّوا بَيْتَ المَقْدِسِ، وَنَكَّلُوا بِهِمْ، فَضَاعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَتَفَرَّقُوا، فَعَمَدُوا إِلَى نَبِيٍّ لَهُمْ؛ لِيُنَصِّبَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا يَسُوسُهُمْ، وَيُعِيدُ مَمْلَكَةَ الْقُدْسِ لَهُمْ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ طَالُوتُ. فَكَانَتِ المَعْرَكَةُ الْعَظِيمَةُ المَذْكُورَةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي انْتَصَرَ فِيهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى الْوَثَنِيِّينَ، وَبَرَزَ فِيهَا دَاوُدَ عليه السلام حِينَ قَتَلَ جَالُوتَ، ثُمَّ آلَ المُلْكُ إِلَيْهِ بَعْدَ طَالُوتَ، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَى النُّبُوَّةَ، فَافْتَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ، وَسُمِّيَتْ مَدِينَةَ دَاوُدَ، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ لِلَّهِ تَعَالَى مَسْجِدًا، سَمَّاهُ الْيَهُودُ: بَيْتَ الرَّبِّ، أَوِ الْهَيْكَلَ[٣]،

= المكذبين له هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره؛ ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال، وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال: «**لا، استأني بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له**».

الثالث: أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله، وأكثر لهم، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك. قاعدة في المحبة (١٥٢-١٥٣).

(٣) كتب د. عبد العزيز كامل -حفظه الله تعالى- مقالة نفيسة بعنوان (بناء الهيكل الثالث ... سباق مع الزمن) في البيان عدد (١٣٥) ص(٧٨) جاء فيها: =

. . . .

= الهيكل تسمية قديمة للمكان المختار للعبادة قبل الإسلام، والهيكل الذي كان موجودًا في الأرض المقدسة يمثل مراحل المسجد الأقصى فيما قبل الرسالة المحمدية، وقد صح أنه ثاني مسجد وضع في الأرض، فقد بناه إبراهيم عليه السلام بعد أن بنى الكعبة بأربعين سنة، وكان الهيكل في القدس قبلة لكل أنبياء بني إسرائيل طيلة عهودهم، واستمر المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس زمانًا، حتى تحولت قبلة المسلمين إلى الكعبة، ولكن حادثة الإسراء كانت إيذانًا بانتقال أرض القبلة الأولى إلى إرث الأمة الإسلامية؛ لأنها أرض مقدسة لا يصلح أن تبقى تحت أيدي أهل الملل الكفرية والعبادات الشركية؛ ولهذا كانت أرض بيت المقدس في مقدمة الأراضي التي اتجهت إليها جهود الفتح، بدءًا من غزوة تبوك، حتى تم فتحها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إن اليهود كانوا يتبادلون طوال أزمنة الشتات تحية يقولون فيها: (غدًا نلتقي في أورشليم)! وبعد أن وصلوا إلى أورشليم أو (القدس) واستولوا على حائط (البراق) الذي يسمونه حائط (المبكى)، ابتدع لهم حاخاماتهم دعاءً يرددونه في كل صلاة أمام الحائط، وهو عبارة عن قَسَم وعهد على إعادة بناء الهيكل، ويدعون على أنفسهم باكين بأن تلتصق ألسنتهم في حلوقهم إذا هم نسوه! وأول من ردد ذلك الدعاء والتزم هذا التعهد هم القادة العسكريون عندما دخلوا القدس عام ١٩٦٧م، ووقتها لم يتقدم (موشيه دايان) وزير الدفاع لدخول المدينة المقدسة إلا وراء الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي (شلومو غورين)!، أما (إسحاق رابين) رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي آنذاك والذي تحول بعد إلى (ركن من أركان السلام)، فقد كتب في مذكراته يصف حرارة لحظات دخول القدس والاقتراب من مكان الهيكل فيقول: «كان صبرنا قصيرًا .. كان يجب أن لا نضيع الفرصة التاريخية، كنا كلما اقتربنا من حائط المبكى ازداد الانفعال .. حائط المبكى الذي يميز إسرائيل، لقد كنت أحلم دومًا بأن أكون شريكًا .. ليس فقط في تحقيق قيام إسرائيل، وإنما في العودة للقدس، وإعادة أرض حائط المبكى إلى السيطرة اليهودية .. والآن عندما تحقق هذا الحلم، تعجبت: كيف أصبح هذا ملك يدي؟! وشعرت بأنني لن أصل إلى مثل هذا السمو طيلة حياتي)! ينظر: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، لإسماعيل كيلاني، ص٣٥.

ولكن .. هل اليهود وحدهم، أو النصارى معهم فقط المعنيون بإعادة بناء الهيكل؟! .. لا، إن هناك جماهير غفيرة من المغفلين أولي الديانات والثقافات المختلفة، ينجح اليهود في استدراجهم للعمل لحسابهم تحت مظلة الأندية الماسونية العالمية، تلك الماسونية التي =

وَتُوُفِّيَ عليه السلام قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ، فَخَلَفَهُ ابْنُهُ سُلَيْمَانُ عليه السلام، وَآتَاهُ اللهُ تَعَالَى الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ، فَابْتَنَى الْمَسْجِدَ عَلَى هَيْئَةٍ عَظِيمَةٍ تَلِيقُ بِمُلْكِهِ وَمُلْكِ أَبِيهِ عليهما السلام(٤).

= عرّفها المستشرق الهولندي (دوزي) بأنها: جمهور كبير من مذاهب مختلفة، يعملون لغاية واحدة هي: إعادة بناء الهيكل الذي هو رمز إسرائيل. ينظر: الماسونية في العراء، محمد على الزعبي، ص١٦٣.

ويستوي في ذلك ماسون الغرب وماسون العرب، فقد جاء في النشرة الماسونية الصادرة في نيويورك عام ١٩٠١م: «إن الماسونية الأوروبية ستشيد بناءً حيث يعبد إله إسرائيل إلى الأبد» ينظر: جذور البلاء، لعبد الله التل، ص١٢٧.

ويقول إدريس راغب، وهو من أبرز الماسونيين العرب: «إن الاعتقاد بوجوب إقامة الهيكل يقوّي إيماننا بالوعود المذكورة في الكتاب» ينظر: الماسونية في العراء، ص١٠٥.

(٤) جاء في السنة النبوية أن سليمان عليه السلام هو باني بيت المقدس في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ سُلَيْمَانَ بن دَاوُدَ عليهما السلام لمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ عز وجل خِلَالًا ثَلَاثَةً: سَأَلَ اللهَ عز وجل حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عز وجل مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ من بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ عز وجل حين فَرَغَ من بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ إلا الصَّلَاةُ فيه أَنْ يُخْرِجَهُ من خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»** أخرجه النسائي(٢/ ٣٤)، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٢/ ١٧٦)، وصححه ابن خزيمة (١٣٣٤)، وابن حبان (١٦٣٣) والحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨).

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: «وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذي أسس المسجد الأقصى وهو مسجد إيليا بيت المقدس شرفه الله، وهذا متجه، ويشهد له ما ذكرناه من الحديث -يريد حديث أبي ذر في بناء المسجدين الحرام والأقصى- فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين سنة سواء، وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحاق؛ لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال في دعائه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ... الآيات، وما جاء في الحديث من أن سليمان بن داود عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالًا ثلاثًا ..... فالمراد من ذلك -والله أعلم- أنه جدَّد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة، ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه، وهذا القول لم يُوَافَقْ عَلَيْه ولا سُبِقَ إليه» البداية والنهاية (١/ ١٦٢).

وقال في موضع آخر: «ولما عاد -أي: سليمان عليه السلام- أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء =

. . . .

= محكمًا، وقد قدمنا أنه جدده، وأن أول من جعله مسجدًا إسرائيل ﷺ، كما ذكرنا ذلك عند قول أبي ذر: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: مسجد بيت المقدس، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة. ومعلوم أن بين إبراهيم الذي بنى المسجد الحرام وبين سليمان بن داود ﷺ أزيد من ألف سنة. دع أربعين سنة» البداية والنهاية (٢/ ٢٦).

تنبيه: أشار الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨): إلى حديث يفيد أن داود ابتدأ في بناء البيت فأكمله سليمان، فقال الحافظ: وفي الطبراني من حديث رافع بن عميرة أن داود ﷺ ابتدأ ببناء بيت المقدس ثم أوحى الله إليه: إني لأقضي بناءه على يد سليمان وفي الحديث قصة. اهـ.

قلت: هو حديث رَافِعِ بن عُمَيْرٍ قال: سمعت رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**قال اللهُ ﷻ لِدَاوُدَ ﷺ: ابن لي بَيْتًا في الأَرْضِ، فَبَنَى دَاوُدُ بَيْتًا لِنَفْسِهِ قبل الْبَيْتِ الذي أُمِرَ بِهِ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه: يا دَاوُدُ نَصَبْتَ بَيْتَكَ قبل بَيْتِي، قال: يا رَبِّ هَكَذَا قُلْتَ فِيمَا قَضَيْتَ: من مَلَكَ اسْتَأْثَرَ، ثُمَّ أَخَذَ في بناءِ المَسْجِدِ، فلما تَمَّ السُّورُ سَقَطَ ثُلُثَاهُ فَشَكَا ذلك إلى الله ﷻ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه أَنَّهُ لا يَصْلُحُ أَنْ تَبْنِيَ لي بَيْتًا، قال: أَيْ رَبِّ وَلِمَ ؟قال: لِمَا جَرَتْ على يَدَيْكَ مِنَ الدِّمَاءِ، قال: أَيْ رَبِّ أَوَ لم يَكُنْ في هَوَاكَ وَمَحَبَّتِكَ؟ قال: بَلَى، وَلَكِنَّهُمْ عِبَادِي وأنا أَرْحَمُهُمْ، فَشَقَّ ذلك عليه، فَأَوْحَى اللهُ إليه: لا تَحْزَنْ فَإِنِّي سَأَقْضِي بناءَهُ على يَدَيِ ابْنِكَ سُلَيْمَانَ، فلمَّا مَاتَ دَاوُدُ أَخَذَ سُلَيْمَانُ في بنائِهِ، فلمَّا تَمَّ قَرَّبَ الْقَرَابِينَ وَذَبَحَ الذَّبَائِحَ، وَجَمَعَ بني إِسْرَائِيلَ، فَأَوْحَى اللهُ ﷻ إليه: قد أَرَى سُرُورًا بِبُنْيانِ بَيْتِي فَسَلْنِي أُعْطِكَ، قال: أَسْأَلُكَ ثَلاثَ خِصَالٍ: حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَكَ، وَمُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ من بَعْدِي، وَمَنْ أتى هذا الْبَيْتَ لا يُرِيدُ إلا الصَّلاةَ فيه خَرَجَ من ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. قال رسول الله ﷺ: أَمَّا اثْنَتَيْنِ فَقَدْ أُعْطِيهُمَا، وأنا أَرْجُو أنْ يَكُونَ قد أُعْطِيَ الثَّالِثَةَ**» رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٢٤) رقم (٤٤٧٧)، وفي مسند الشاميين (٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٦-٢٤٧)، وابن حبان في المجروحين (١٠٠٥).

وهذا الحديث منكر سندًا ومتنًا، أما السند فهو من رواية محمد بن أيوب بن سويد الرملي وهو وَضَّاع، قال ابن حبان في المجروحين: يروي عن أبيه عن الأوزاعي الأشياء الموضوعة لا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه.اهـ(٢/ ٢٩٩) وقال الحافظ ابن حجر: «ضعفه الدارقطني، وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه، قال أبو زرعة: رأيته قد أدخل في =

وَظَلَّ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فِي المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ عَلَى وَفْقِ شَرِيعَةِ مُوسَى عليه السلام وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَعَ تَقَادُمِ الْعَهْدِ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَتَحَلَّلُونَ مِنْ شَرَائِعِ أَنْبِيَائِهِمْ شَيْئًا شَيْئًا، فَيَبْعَثُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ أَنْبِيَاءَ يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ، فَرُبَّمَا صَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِمْ أَوْ آذَوْهُمْ أَوْ قَتَلُوهُمْ، فَيُسَلِّطُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ كَمَا سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْفَرَاعِنَةَ وَالْبَابِلِيِّينَ، وَنَتَجَ عَنْ

= كتب أبيه أشياء موضوعة، قلت: من ذلك حديث: لما بنى داود المسجد فسقط، فقيل له إنه لا تصلح أن تتولى بناءه، قال: لم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء، قال: أو لم يكن في هواك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي أرحمهم .. الحديث بطوله. انتهى. وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة» اهـ من لسان الميزان (٥/ ٨٧)

وساق الهيثمي حديثه هذا ثم قال: «رواه الطبراني في الكبير وفيه محمد بن أيوب بن سويد الرملي، وهو متهم بالوضع» مجمع الزوائد (٤/ ٨).

وأما نكارة المتن فقوله: «فلما تم السور سقط ثلثاه، فشكا ذلك إلى الله ﷻ أنه لا يصلح أن يبني لي بيتًا، قال رب: لم؟ قال: لما جرت على يديك من الدماء، قال: أي رب أو لم يكن ذاك في هواك ومحبتك؟ قال: بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم».

ونكارته من وجهين:

الأول: أن ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأعمال كالجهاد في سبيل الله تعالى لا يكون سببًا في العقوبة، وليس محل ذم الشرع، بل صاحبه محمود، وقد أمر الله ﷻ بجهاد الكفار، والإغلاظ عليهم، والإثخان فيهم، ولا يُظن بنبي الله تعالى داود عليه السلام إلا أنه قتل من يستحق القتل من الكفار، وهذا مصرح به في هذا الحديث الموضوع، فكيف يكون سبب عقوبة داود بحرمانه من بناء بيت المقدس، والله تعالى قد أمره بذلك وأحبه منه، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

الثاني: أن قوله: «ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم» معارض لما ثبت في القرآن والسنة مِنْ أَنَّ رَحْمَةَ الله تعالى لا ينالها إلا الموحدون بخلاف المشركين، قال الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ذَلِكَ هَدْمُ المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ، وَخُرِّبَتْ مَدِينَةُ الْقُدْسِ فِي السَّبْيِ الْبَابِلِيِّ، ثُمَّ أُعِيدَ بِنَاؤُهَا وَبِنَاءُ الْهَيْكَلِ لَمَّا انْتَصَرَ الْفُرْسُ عَلَى الْبَابِلِيِّينَ.

وَاسْتَقَرَّ الْحُكْمُ بَعْدَ حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ لِلرُّومَانِ عَلَى بَيْتِ المَقْدِسِ، فَاسْتَرْضَوْا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِمْ، وَلَكِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَمَادَوْا فِي الْبَغْيِ وَالظُّلْمِ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى عليهما السلام، وَكَانَ زَكَرِيَّا رَئِيسَ المَسْجِدِ أَوِ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ الَّذِي كَفَلَ مَرْيَمَ عليها السلام المَنْذُورَةَ لِخِدْمَةِ الْهَيْكَلِ، وَمِنْ مَرْيَمَ جَاءَ المَسِيحُ عِيسَى عليه السلام بِلَا أَبٍ بِمُعْجِزَةٍ رَبَّانِيَّةٍ مَذْكُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ.

وَبَلَغَ مِنْ فَسَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ -كَمَا فِي أَخْبَارِ كُتُبِهِمْ- أَنَّهُمْ قَتَلُوا زَكَرِيَّا، ثُمَّ قَتَلُوا وَلَدَهُ يَحْيَى عليهما السلام؛ لِأَنَّهُ رَفَضَ الْفُتْيَا لَهُمْ بِجَوَازِ الْبِغَاءِ لِأَحَدِ مُلُوكِهِمْ، وَرَمَوْا مَرْيَمَ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ.

وَلَمَّا بُعِثَ فِيهِمْ عِيسَى عليه السلام انْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ آمَنَ بِعِيسَى -وَهُمُ الْأَقَلُّ وَالْأَضْعَفُ- وَهُمُ النَّصَارَى، وَفَرِيقٍ كَفَرَ بِهِ -وَهُمُ الْأَكْثَرُ وَالْأَقْوَى- وَهُمُ الْيَهُودُ، فَوَعَظَهُمْ عِيسَى وَذَكَّرَهُمْ، وَكَانَتْ عَقَائِدُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ قَدْ بَلَغَتِ المُنْتَهَى فِي الْفَسَادِ وَالِانْحِطَاطِ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ جَعَلُوا مَسْجِدَ دَاوُدَ مَلْهًى لَهُمْ، وَسُوقًا لِلْمُرَابِينَ مِنْهُمْ، فَحَذَّرَهُمْ عِيسَى عليه السلام مِنْ عُقُوبَةِ اللَّهِ تَعَالَى(٥).

وَانْتَشَرَتْ دَعْوَةُ عِيسَى عليه السلام وَمَوَاعِظُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَأَثَّرُوا بِهِ، فَخَافَ المُتَنَفِّذُونَ مِنْ رِجَالِ الدِّينِ وَالسِّيَاسَةِ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى نُفُوذِهِمْ مِنْ دَعْوَتِهِ،

---

(٥) جاء في إنجيل متى أن عيسى عليه السلام دخل الهيكل، وأخرج جميع الذين يشترون ويبيعون فيه، وقلب عليهم موائد الصيارفة ثم قال: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم جعلتموه مغارة لصوص» متى (٢١/ ١٢-١٣)، ولما استيأس عليه السلام منهم حذرهم من أن الهيكل سوف يهدم، فقال لهم: «الحق أقول لكم: إنه لا يترك ها هنا حجر على حجر لا ينقض» إنجيل متى (٢٤/ ٢)، وقد وقع ما حذرهم منه عيسى عليه السلام.

وَحَكَمَتِ المَجَامِعُ الدِّينِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ بِقَتْلِ عِيسَى عليه السلام، وَأَغْرَوُا الْحَاكِمَ الرُّومَانِيَّ بِذَلِكَ، وَفَرَّ عِيسَى عليه السلام وَمَنْ مَعَهُ بِدِينِهِمْ، وَقِيلَ: سُمِّيَ المَسِيحَ لِسِيَاحَتِهِ فِي الْأَرْضِ، وَكَثْرَةِ تَنَقُّلِهِ؛ خَوْفًا مِنَ الْيَهُودِ، إِلَى أَنْ عَثَرُوا عَلَيْهِ فَنَجَّاهُ اللهُ تَعَالَى مِنْهُمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ(٦).

---

(٦) اختلف العلماء في تسميته بالمسيح على أقوال:

١- مسيح فعيل بمعنى الفاعل، مثل عليم وعالم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سمي عيسى عليه السلام مسيحًا؛ لأنه ما مسح ذا عاهة إلا برأ.

٢- أنه من فعيل، صرف من مَفعول إلى فعيل، وإنما هو ممسوح، يعني مسحه الله فطهَّره من الذنوب؛ ولذلك قال إبراهيم النخعي: المسيح الصديق، ويكون المسيح بمعنى الكذاب، وبه سمي الدجال، والحرف من الأضداد.

٣- وقال آخرون: مسح بالبركة.

٤-وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن.

٥- وقيل: مسحه جبريل بجناحه حتى لم يكن للشيطان عليه سبيل.

٦- وقيل: لأنه كان مسيح القدم لا أخمص له، وسمي الدجال مسيحًا؛ لأنه كان ممسوح إحدى العينين.

٧- وقيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنه كان يسيح في الأرض ولا يقيم في مكان، وعلى هذا القول تكون الميم فيه زائدة.

٨- وقيل: لأن الجمال مسحه، أي: أصابه وظهر عليه.

٩- وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله أي: خلقه خلقًا حسنًا مباركًا، ومسخه؛ أي: خلقه خلقًا ملعونًا قبيحًا.

١٠- وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحًا، فعرب كما عرب موشى بموسى، وأما الدجال فسمى مسيحًا؛ لأنه ممسوح إحدى العينين، وقد قيل في الدجال: مسيح بكسر الميم وشد السين، وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة، وبعضهم يقول: مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف. والأول أشهر وعليه الأكثر، سُمِّيَ به؛ لأنه يسيح في الأرض؛ أي: يطوفها ويدخل جميع بلدانها، إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول.

=

وَبَعْدَ سَنَوَاتٍ مِنْ رَفْعِ عِيسَى ﷺ، وَأَذِيَّةِ أَتْبَاعِهِ بِأَيْدِي الْيَهُودِ؛ سُلِّطَ الْيَهُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَحَاوَلُوا التَّمَرُّدَ عَلَى الْحَاكِمِ الرُّومَانِيِّ، فَاسْتَبَاحَهُمْ، وَسَبَى كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى رُومَا، وَأَحْرَقَ المَدِينَةَ المُقَدَّسَةَ، وَهَدِمَ الْهَيْكَلُ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، وَتَحَقَّقَتْ فِيهِمْ نُبُوءَةُ عِيسَى ﷺ فَلَمْ يُبْقِ الرُّومَانُ فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، وَانْتَهَى أَمْرُ الْيَهُودِ فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، وَتَفَرَّقُوا فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ، وَانْتَقَلَتْ أَحَقِّيَّةُ المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى النَّصَارَى؛ لِشِرْكِ الْيَهُودِ وَتَوْحِيدِ النَّصَارَى.

وَلَكِنَّ أَتْبَاعَ عِيسَى ﷺ -وَهُمُ النَّصَارَى- مَا لَبِثُوا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى بَدَأَ الِانْحِرَافُ يَدِبُّ فِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ عَلَى التَّوْحِيدِ مِنْهُمْ إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ؛ إِذْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ مِنْ رَفْعِ المَسِيحِ ﷺ أَعْلَنَ حَاكِمُ الرُّومِ «قُسْطَنْطِينُ» عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ عَقِيدَةً مُوَحَّدَةً لِلنَّصَارَى، وَدَخَلَتِ الْأُمَّةُ الرُّومَانِيَّةُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ المُحَرَّفَةِ، وَهَرَبَ المُوَحِّدُونَ مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَى ﷺ فِي الْبَرَارِي وَالْأَدْغَالِ؛ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالتَّثْلِيثِ. وَابْتُنِيَتِ الْكَنَائِسُ فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ وَغَيْرِهَا عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الشِّرْكِيَّةِ، وَأُقِيمَتْ فِيهَا التَّمَاثِيلُ، وَصُوِّرَتْ فِيهَا التَّصَاوِيرُ الَّتِي تُنَاقِضُ دِينَ المَسِيحِ ﷺ. وَظَلَّ مَسْجِدُ دَاوُدَ ﷺ سُورًا خَالِيًا لَا بِنَاءَ فِيهِ.

وَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَسْرَى بِهِ إِلَى المَسْجِدِ الْأَقْصَى، وَأَمَّ فِيهِ الْأَنْبِيَاءَ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ إِيذَانًا بِانْتِقَالِ الْحَقِّ فِي المَدِينَةِ المُقَدَّسَةِ مِنَ النَّصَارَى إِلَى المُسْلِمِينَ.

= ١١- أن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به، فعلى هذا يكون عيسى بدلًا من المسيح من البدل الذي هو هو، وعيسى اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف، وإن جعلته عربيًّا لم ينصرف في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث ويكون مشتقًّا من عاسه يعوسه: إذا ساسه وقام عليه. ينظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٧٠)، وتفسير البغوي (١/ ٣٠١-٣٠٢)، وتفسير القرطبي (٤/ ٨٩)، وتفسير ابن كثير (١/ ٣٦٤).

وَتَمَّ ذَلِكَ فِي فُتُوحِ الشَّامِ فِي عَهْدِ عُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي رَحَلَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِيَتَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهُ مِنْ كِبَارِ النَّصَارَى، وَدَخَلَتِ الْمَدِينَةُ الْمُقَدَّسَةُ وَمَسْجِدُهَا -مَسْجِدُ دَاوُدَ عليه السلام- فِي حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ، وَشُرِعَ شَدُّ الرِّحَالِ إِلَى مَسْجِدِهَا كَمَا شُرِعَ لِحَرَمَيْ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَلَا حَقَّ فِيهَا لِغَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ؛ بِنَاءً عَلَى أَنَّهَا مِنْ حَقِّ مَنْ يُقِيمُ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا دِينَ حَقًّا بَعْدَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا دِينُ الْإِسْلَامِ.

وَأَمَّا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَانْحَرَفُوا عَنْ شَرَائِعِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى بِأَنْبِيَائِهِمْ عليهم السلام مِنْهُمْ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْيَهُودِ: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٧).

وَفِي شَأْنِ عِيسَى عليه السلام قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٨).

وَعِيسَى عليه السلام حِينَ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَإِنَّهُ يُقَاتِلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِهَا(٩).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَنْصَارِهِ، وَأَنْ يَكْبِتَ أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرُدَّ كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَنْ يَجْعَلَهُمْ خَائِبِينَ خَاسِرِينَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ تَعَالَى لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

---

(٧) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: البخاري في مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ، حين قدم المدينة (٣٩٤٣)، ومسلم في الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (١١٣٠).

(٨) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦] (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥).

(٩) ينظر: خطبة نزول عيسى عليه السلام مجلد (٤)، خطبة رقم (١٩٣).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: كَانَ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى عَلَى مَرِّ التَّارِيخِ مَسْجِدًا لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُوجَدَ الْيَهُودُ وَمِنْ بَعْدِ مَا وُجِدُوا؛ فَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام هُوَ أَوَّلُ مَنِ اتَّخَذَ تِلْكَ الْبُقْعَةَ مَسْجِدًا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٦٧].

وَلَيْسَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ -يَهُودًا كَانُوا أَوْ نَصَارَى- عَلَاقَةٌ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى إِلَّا فِي الْفَتَرَاتِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُسْلِمِينَ مَعَ أَنْبِيَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ عليهم السلام، أَمَّا بَعْدَ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَشَتْمِهِمْ إِيَّاهُ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ فَقَدِ انْبَتَّتْ عَلَاقَتُهُمْ بِهَذَا الْمَسْجِدِ الَّذِي تَحَوَّلَ إِلَى إِرْثِ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام.

وَلَكِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى فِي هَذَا الزَّمَنِ لَا يُسَلِّمُونَ بِذَلِكَ، وَيُحَارِبُونَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ؛ إِذْ يَعْتَقِدُ الْيَهُودُ أَنَّ بِنَاءَ الْهَيْكَلِ الثَّالِثِ سَيُخْرِجُ مَلِكًا مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ عليه السلام يَحْكُمُونَ بِهِ الْعَالَمَ، وَيَقْتُلُونَ غَيْرَ الْيَهُودِ، كَمَا يَعْتَقِدُ النَّصَارَى أَنَّ نُزُولَ الْمَسِيحِ سَيَكُونُ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ أَتْبَاعَهُ، وَيَقْتُلُونَ بِهِ غَيْرَ النَّصَارَى؛ فَالصِّرَاعُ عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ هُوَ صِرَاعٌ دِينِيٌّ عَقَائِدِيٌّ، يَعْتَقِدُ صَهَايِنَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَطِيعُوا حُكْمَ الْعَالَمِ إِلَّا بَعْدَ بِنَاءِ الْهَيْكَلِ فِيهِ؛ وَلِذَا فَلَنْ يَتَنَازَلُوا عَنْهُ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ.

وَأَمَّا المَلَاحِدَةُ وَالْعَلْمَانِيُّونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَيَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْعَقَائِدَ الدِّينِيَّةَ الَّتِي تُحَرِّكُ صَهَايِنَتَهُمْ فُرْصَةٌ سَانِحَةٌ لِإِقْنَاعِ شُعُوبِهِمْ وَتَحْرِيكِهِمْ نَحْوَ اسْتِعْمَارِ مِنْطَقَةِ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ، وَبَسْطِ نُفُوذِهِمْ فِيهَا؛ لِتَحْقِيقِ مَكَاسِبَ سِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ بِهَذِهِ المُعْتَقَدَاتِ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ الْأَهْدَافَ الصِّهْيَوْنِيَّةَ الدِّينِيَّةَ وَالْأَهْدَافَ الْعَلْمَانِيَّةَ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَدِ الْتَقَتْ عَلَى هَذِهِ الْبُقْعَةِ المُبَارَكَةِ، وَاتَّفَقَتْ عَلَى لُزُومِ السَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ مُسَوِّغَاتُهُ وَمَشَارِيعُهُ فَإِنَّهُ يَدْعَمُ الْفَرِيقَ الْآخَرَ وَيُؤَيِّدُهُ، بِخِلَافِ المُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْعَلْمَانِيِّينَ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ التَّخَلِّيَ عَنِ الْأَرْضِ المُبَارَكَةِ، وَبَيْعَهَا وَمَسْجِدِهَا لِلْأَعْدَاءِ بِثَمَنٍ بَخْسٍ؛ بَلْ بِلَا ثَمَنٍ، وَيُحَارِبُونَ مَنْ لَا يُوَافِقُهُمْ فِي خِيَانَتِهِمْ بِلَا هَوَادَةٍ.

إِنَّ الْأَرْضَ المُبَارَكَةَ هِيَ أَرْضُ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَسْجِدُهَا أُقِيمَ لِتَوْحِيدِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ أَحَدٍ -كَائِنًا مَنْ كَانَ- أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا لِلْأَعْدَاءِ؛ فَهِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَمَانَةٌ عِنْدَ المُسْلِمِينَ، وَلَنْ تُحَرَّرَ مِنْ رِجْسِ الْيَهُودِ إِلَّا بِالْتِزَامِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي الَّتِي هِيَ سَبَبُ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ المَضْرُوبَيْنِ عَلَى المُسْلِمِينَ.

إِنَّ الْأَرْضَ المُبَارَكَةَ بِمَسْجِدِهَا المُقَدَّسِ لَنْ تُحَرِّرَهَا مُؤْتَمَرَاتٌ تُقَامُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، يَعْقِدُهَا مَنْ سَعَّرُوا الْحُرُوبَ لِإِشْبَاعِ نَزَوَاتِهِمْ؛ فَاسْتَعْمَرُوا الْبُلْدَانَ، وَخَرَّبُوا الْعُمْرَانَ، وَنَهَبُوا الثَّرَوَاتِ، وَقَتَلُوا الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْوِلْدَانَ، هُمُ الْخَصْمُ فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ وَهُمُ الْحَكَمُ، وَهُمْ مَنْ يُمْلُونَ الِاتِّفَاقِيَّاتِ، وَيَشْتَرِطُونَ الشُّرُوطَ، وَيَفْرِضُونَ إِرَادَتَهُمُ الظَّالِمَةَ بِالْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّهْدِيدِ، مَا يَعْقِدُونَ مُؤْتَمَرَاتِهِمْ إِلَّا طَمَعًا فِي تَنَازُلَاتٍ جَدِيدَةٍ، وَلَنْ يَكُونَ حَظُّ المُسْلِمِينَ مِنْ

مُؤْتَمَرِهِمُ الْأَخِيرِ إِلَّا كَحَظِّهِمْ مِنِ اتِّفَاقَاتِ مَدْرِيدَ وَأُسْلُو وَغَيْرِهَا مِنْ مُؤْتَمَرَاتِ الْأَعْدَاءِ.

لَنْ يَنَالَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا إِلَّا تَكْرِيسَ الِاحْتِلَالِ، وَمُكَافَأَةَ الظَّلَمَةِ، وَجَلْدَ الضَّحِيَّةِ، وَتَشْرِيعَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ فَلَا أَمَلَ فِيهِمْ وَلَا فِي مُؤْتَمَرَاتِهِمْ؛ وَإِنَّمَا الْأَمَلُ فِي اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ فِي رِجَالٍ مُؤْمِنِينَ مُرَابِطِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، قَدْ تَحَمَّلُوا عَنِ الْأُمَّةِ كُلِّهَا مَسْئُولِيَّةَ الدِّفَاعِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، فَفَدَوْهُ بِدِمَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، مَا وَهَنَتْ لَهُمْ عَزِيمَةٌ، وَلَا لَانَتْ لَهُمْ عَرِيكَةٌ، جَوَّعَهُمْ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى مَا اخْتَارُوا فَصَبَرُوا وَمَا ضَجِرُوا .. هَدَمَ الْيَهُودُ دِيَارَهُمْ، وَأَتْلَفُوا زُرُوعَهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، وَهُمْ صَابِرُونَ صَامِدُونَ مُرَابِطُونَ، فَلَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَقُّ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ بِأَنْ يُفَرِّجَ اللهُ تَعَالَى كُرْبَتَهُمْ، وَيُقَوِّيَ عَزِيمَتَهُمْ، وَيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَنْصُرَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَيُحَرِّرَ الْأَقْصَى عَلَى أَيْدِيهِمْ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

❁ ❁ ❁

٣٧٤- كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله

٢٤/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ تَفَرَّدَ بِالْجَلَالِ وَالْكَمَالِ، وَبِالْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ، لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَاهُ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ، الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ كَانَ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ، وَأَشَدَّهُمْ ثِقَةً فِيهِ، وَأَكْثَرَهُمْ تَوَكُّلًا عَلَيْهِ، وَإِنَابَةً إِلَيْهِ، وَتَصْدِيقًا بِمَوْعُودِهِ، حَاصَرَهُ الْمُشْرِكُونَ فَمَا تَزَعْزَعَ يَقِينُهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَأَجْمَعَ النَّاسُ حَرْبَهُ فَمَا رَدَّهُ ذَلِكَ عَنْ تَبْلِيغِ دِينِهِ، وَفِي هِجْرَتِهِ وَقَفَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى بَابِ الْغَارِ حَتَّى قَالَ صَاحِبُهُ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»(١)، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَرَاقِبُوهُ فَلَا تَعْصُوهُ، وَاعْتَصِمُوا بِهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلَاق: ٢، ٣].

أَيُّهَا النَّاسُ: مَنْ نَظَرَ فِي أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ضَعْفٍ وَهَوَانٍ، وَتَفَرُّقٍ وَاخْتِلَافٍ أَيْقَنَ بِأَنَّ عِلَلَهُمْ كَثِيرَةٌ، وَأَدْوَاءَهُمْ خَطِيرَةٌ، وَقَدْ شَمِلَتْ مَجَالَاتِ

---

(١) أخرجه من حديث أنس ﷺ: البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] (٤٦٦٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٢٣٨١).

كَثِيرَةً؛ فَفِيهِمْ مِنَ الْعِلَلِ السِّيَاسِيَّةِ مَا جَعَلَهُمْ مُسْتَضَامِينَ مُسْتَضْعَفِينَ، يَسْتَجْدُونَ غَيْرَهُمُ لِلْوُقُوفِ مَعَهُمْ، وَيَطْلُبُونَ الْحِمَايَةَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يُشْعِلُونَ الْحُرُوبَ فِي أَرَاضِيهِمْ وَيُوقِفُونَهَا مَتَى أَرَادُوا، وَلَا مَشُورَةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، بَلْ وَيُصْدِرُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَرَارَاتِ مَا يُضْعِفُهُمْ، وَيَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشُّرُوطِ مَا يُذِلُّهُمْ وَيُهِينُهُمْ.

وَفِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاءِ الِاقْتِصَادِيَّةِ مَا جَعَلَ أَكْثَرَ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَالَةً عَلَى غَيْرِهِمْ، يَشْتَرُونَ خُبْزَهُمْ بِبَيْعِ سِيَادَتِهِمْ، وَيُهْدِرُونَ كَرَامَتَهُمْ فِي سَبِيلِ بَقَائِهِمْ، وَقَدْ غَلَّتْهُمُ الدُّوَلُ الْمُسْتَكْبِرَةُ بِالمُسَاعَدَاتِ وَالْقُرُوضِ الرِّبَوِيَّةِ. وَثَرَوَاتُهُمْ لِغَيْرِهِمْ وَلَيْسَتْ لَهُمْ، وَلَا يَسْمَحُ أَعْدَاؤُهُمْ لَهُمْ بِالْعِتْقِ مِنْ رِقِّهِ وَأَسْرِهِ، حَتَّى إِذَا مَا أَرَادَ الْعَدُوُّ افْتِرَاسَ بَلَدٍ مُسْلِمٍ، وَهَبَّتِ الدُّوَلُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِنَجْدَتِهِ أَوِ الإِنْكَارِ عَلَى عَدُوِّهِ؛ رَفَعَ الْأَصْدِقَاءُ الْأَعْدَاءُ أَوْرَاقَ المُسَاعَدَاتِ وَالْقُرُوضِ فِي وَجْهِهَا، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى حِرَاكٍ مَعَهَا، وَأَعْلَى نِسْبَةُ فَقْرٍ عَالَمِيَّةٍ هِيَ فِي بَعْضِ دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَفِي المُسْلِمِينَ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْإِعْلَامِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ مَا أَفْقَدَ كَثِيرًا مِنْهُمْ شَخْصِيَّتَهُمْ، وَأَذَابَهُمْ فِي المَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ، وَمَنْ رَأَى أَكْثَرَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ عَلِمَ أَنَّهَا لَا تُمَثِّلُ شَخْصِيَّةَ الْأُمَّةِ، وَلَا تُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِهَا، وَلَا تَسْعَى لِنَشْرِ دِينِهَا وَثَقَافَتِهَا، بَلْ هِيَ أَشَدُّ مَا تَكُونُ حَرْبًا عَلَى دِينِ المُسْلِمِينَ وَقِيَمِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، فِي مُقَابِلِ الدِّعَايَةِ الفَجَّةِ وَالتَّرْوِيجِ الفَاضِحِ لِلْمَنَاهِجِ المُنْحَرِفَةِ، وَالسُّلُوكِيَّاتِ المُنْحَطَّةِ، وَالْأَخْلَاقِ الرَّدِيئَةِ، عَنْ طَرِيقِ اسْتِنْسَاخٍ كَامِلٍ لِبَرَامِجِ مَلَاحِدَةِ الْغَرْبِ وَفُسَّاقِهِمْ.

وَفِي المُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ مَا يَجْعَلُ ثِقَةَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ فِي أَعْدَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ثِقَتِهِمْ فِي إِخْوَانِهِمْ، وَالْخِيَانَاتُ المُتَتَابِعَةُ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا قَضِيَّةُ

فِلَسْطِينَ مِثَالٌ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ؛ سَوَاءٌ فِي عُهُودِ الْحُرُوبِ وَالْمُدَافَعَةِ، أَمْ فِي مَرَاحِلِ التَّفَاوُضِ وَالسَّلَامِ وَالْمُنَاقَشَةِ، الَّتِي وَقَّعَهَا الْأَعْدَاءُ مَعَ كُلِّ دَوْلَةٍ عَلَى حِدَةٍ؛ لِيَزِيدَهُمْ ضَعْفًا إِلَى ضَعْفِهِمْ، وَتَفَرُّقًا إِلَى تَفَرُّقِهِمْ.

وَمَعَ هَذِهِ الْعِلَلِ الْمُهْلِكَةِ، وَتِلْكَ الْآفَاتِ الْمُرْدِيَةِ، يَأْتِي الْمُنَافِقُونَ بِهِمَّتِهِمْ وَمُهِمَّتِهِمْ فِي الْقَضَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالتَّخْذِيلِ وَالْإِرْجَافِ، وَالْوَعِيدِ وَالتَّخْوِيفِ -إِنْ أَصَرَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِهِمْ، وَلَمْ يَحِيدُوا عَنْ قُرْآنِهِمْ- زَاعِمِينَ أَنَّ بَلَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَانْكِسَارَهُمْ وَتَخَلُّفَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ الْمَوْرُوثَاتِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي لَا تُنَاسِبُ الزَّمَنَ، مُؤَكِّدِينَ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ الْأُخْرَى مَا تَقَدَّمَتْ وَعَزَّتْ وَانْتَصَرَتْ إِلَّا لَمَّا نَبَذَتْ مَوْرُوثَاتِهَا وَرَاءَهَا ظِهْرِيًّا، فَزَادَ هَؤُلَاءِ الْمَخَذِّلُونَ وَالْمُرْجِفُونَ فِي ضَعْفِ الْأُمَّةِ وَتَمَزُّقِهَا وَتَقَهْقُرِهَا.

إِنَّهَا أَدْوَاءٌ عَظِيمَةٌ، وَفِتَنٌ كَبِيرَةٌ، أَصَابَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَقَاتِلِهِمْ، وَطَاشَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ، فَتَغَيَّرَتْ قَنَاعَاتُهُمْ، وَتَبَدَّلَتْ مَوَاقِفُهُمْ، وَصَارُوا أَبْوَاقًا لِلْأَعْدَاءِ بَدَلَ الدِّفَاعِ عَنْ حُقُوقِهِمْ، وَدِعَايَةً لِلْمَنَاهِجِ الْمُنْحَرِفَةِ بَدَلَ الدَّعْوَةِ إِلَى دِينِهِمْ.

وَلَقَدْ شَهِدْنَا فِي خِضَمِّ هَذِهِ الْفِتَنِ وَالْمِحَنِ تَحَوُّلَاتٍ كَثِيرَةً مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى النِّفَاقِ، وَمِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الزَّنْدَقَةِ وَالْإِلْحَادِ، وَمِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالشَّرِيعَةِ إِلَى الْإِصْرَارِ عَلَى التَّفَلُّتِ مِنْهَا . .

بَلْ رَأَيْنَا وَسَمِعْنَا ذَوِي دَعْوَةٍ وَحِجًا قَدْ نَقَلُوا أَحَادِيثَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْمَذَاهِبِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَالْإِخَاءِ الْبَشَرِيِّ، وَانْتَقَلُوا فِي اسْتِدْلَالَاتِهِمْ مِنْ نُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ إِلَى أَقْوَالِ الْمُفَكِّرِينَ الْغَرْبِيِّينَ.

وَأَصَابَتْ هَذِهِ الْأَدْوَاءُ الْمُهْلِكَةُ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ بِالْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ؛ لِأَنَّهُمْ

يَرَوْنَ أَحْوَالَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَسْوَأَ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَلَى قَنَاعَتِهِ بِدِينِهِ كُلِّهِ، وَلَمْ يَتَنَازَلْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا نُزَّاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ وَالصَّالِحِينَ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ مِمَنْ رَبَطَ اللهُ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِهِمْ وَثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ.

إِنَّ النَّاسَ فِي حَالِ السَّلَامَةِ وَالْعَافِيَةِ يَثْبُتُونَ، وَلَكِنْ إِذَا تَعَاظَمَتِ الْفِتَنُ، وَاسْتَحْكَمَتِ الْمِحَنُ، وَازْدَادَتِ الشُّرُورُ، وَتَسَلَّطَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ فَلَا يَثْبُتُ إِلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ أَفْذَاذِ الرِّجَالِ، وَيَوْمَ ارْتَدَّ الْمُرْتَدُّونَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يَثْبُتْ إِلَّا الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَثَبَّتَ اللهُ تَعَالَى الْأُمَّةَ بِثَبَاتِهِ ﷺ، وَيَوْمَ قَالَتِ الْمُبْتَدِعَةُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَامْتَحَنُوا النَّاسَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ عَلَى كَثْرَةِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إِلَّا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؛ فَرَفَعَ اللهُ تَعَالَى بِثَبَاتِهِ الْمِحْنَةَ، وَنَصَرَ السُّنَّةَ.

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِزَاءَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُتَرَدِّيَةِ، وَالْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَى اسْتِحْضَارِ هَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ؛ فَقَدْ أُوذِيَ ﷺ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُهُ ﷺ، وَهُجِّرُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَاجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ قُوَى الشَّرِّ وَالطُّغْيَانِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَمَا رَأَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ مُتَنَازِلًا أَوْ مُبَدِّلًا، وَلَا يَائِسًا مُحْبَطًا؛ بَلْ تَحْكِي سِيرَتُهُ ﷺ أَنَّهُ فِي حَالِ الْمِحَنِ وَالْفِتَنِ، وَاشْتِدَادِ الْكَرْبِ، وَاجْتِمَاعِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَعَلَى دَعْوَتِهِ، يَكُونُ أَشَدَّ ثَبَاتًا وَعَزْمًا، وَأَكْثَرَ تَفَاؤُلًا وَاسْتِبْشَارًا، وَقَدْ زَخَرَتْ سِيرَتُهُ الْعَطِرَةُ بِأَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ عَلَى ذَلِكَ.

وَفِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ شَكَا الْمُسْتَضْعَفُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَالُوا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ ﷺ: **«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ**

لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٢).

لَقَدْ حَثَّهُمْ ﷺ عَلَى الثَّبَاتِ، وَحَكَى لَهُمْ أَخْبَارَ الثَّابِتِينَ مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنَّصْرِ رَغْمَ حَالَةِ الضَّعْفِ الَّتِي يَعِيشُونَهَا.

وَفِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَنَقَضَتْ يَهُودُ مِنْ دَاخِلِ الْمَدِينَةِ عَهْدَهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاشْتَدَّ الْكَرْبُ، وَعَظُمَتِ الْمِحْنَةُ، وَيَكْفِي فِي وَصْفِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ وَاثِقًا بِرَبِّهِ، مُوقِنًا بِوَعْدِهِ وَنَصْرِهِ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الشِّدَّةِ يُبَشِّرُ أَصْحَابَهُ بِالْكُنُوزِ وَالْفُتُوحِ وَالنَّصْرِ؛ كَمَا رَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رضي الله عنه فَقَالَ: «لَمَّا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَحْفِرَ الْخَنْدَقَ عَرَضَ لَنَا فِيهِ حَجَرٌ لَا يَأْخُذُ فِيهِ الْمِعْوَلُ، فَاشْتَكَيْنَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَلْقَى ثَوْبَهُ وَأَخَذَ الْمِعْوَلَ وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَضَرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الصَّخْرَةِ وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ الْآنَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**، قَالَ: ثُمَّ ضَرَبَ أُخْرَى وَقَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، وَكَسَرَ ثُلُثًا آخَرَ، وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ الْآنَ**، ثُمَّ ضَرَبَ ثَالِثَةً وَقَالَ: **بِسْمِ اللَّهِ**، فَقَطَعَ الْحَجَرُ، وَقَالَ: **اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ**

---

(٢) أخرجه من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه: البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤١٦).

الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْصِرُ بَابَ صَنْعَاءَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٣].

إِنَّهُ لَمَوْقِفٌ عَظِيمٌ، وَتَثْبِيتٌ عَجِيبٌ، يَعِدُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَمْنِ وَهُمْ فِي شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَيُبَشِّرُهُمْ بِكُنُوزِ الْأُمَمِ وَهُمْ فِي عَوَزٍ وَجُوعٍ وَمَخْمَصَةٍ، وَيَذْكُرُ لَهُمْ فَتْحَ الْمُدُنِ الْكُبْرَى فِي وَقْتِهِ وَهُمْ مُحَاصَرُونَ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُدُنِ الَّتِي بَشَّرَ بِفَتْحِهَا أَمْيَالٌ وَأَمْيَالٌ . .

إِنَّهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالثِّقَةُ بِهِ، وَتَصْدِيقُ وَعْدِهِ . .

إِنَّهُ ثَبَاتٌ لَا تُزَعْزِعُهُ الْمِحَنُ، وَلَا تَمِيدُ بِهِ الْفِتَنُ، بَلْ تَزِيدُهُ شِدَّةً وَصَلَابَةً فِي الْحَقِّ، وَإِصْرَارًا عَلَى تَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى . . فَثَبَتَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَهُ، وَفَرِحُوا بِهَذَا الْفَأْلِ وَهَذِهِ الْبِشَارَةِ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَقَالُوا مَا قَالُوا، وَخَذَّلُوا وَأَرْجَفُوا، وَذَهَبُوا خَاسِئِينَ مَذْمُومِينَ، وَكَذَبُوا وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَجَاءَ الْأَمْنُ بَعْدَ الْخَوْفِ، وَالْغِنَى بَعْدَ الْعَوَزِ، وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ مَكَّةَ وَطَافُوا بِالْبَيْتِ، وَدُحِرَ أَهْلُ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ، وَفُتِحَتِ الْمُدُنُ الَّتِي بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِهَا، وَجُلِبَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ كُنُوزُهَا، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنْطَاعٌ عَلَيْهَا الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ؛ مِنْ ذَهَبٍ وَيَاقُوتٍ وَزَبَرْجَدٍ وَلُؤْلُؤٍ يَتَلَأْلَأُ، فَقَالَ رضي الله عنه: «أَيْنَ سُرَاقَةُ بْنُ جُعْشُمٍ، فَأُتِيَ بِهِ أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ دَقِيقَهُمَا، فَأَعْطَاهُ عُمَرُ سُوَارَيْ كِسْرَى، فَقَالَ: الْبَسْهُمَا، فَفَعَلَ، فَقَالَ: قُلِ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، قَالَ: قُلِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَبَهُمَا مِنْ

---

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٨٥٨)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٨)، وأحمد (٤/ ٣٠٣)، وأبو يعلي (١٦٨٥)، والروياني في مسنده (٤١٠)، وحسنه الحافظ في الفتح (٧/ ٣٩٧).

كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشُمٍ أَعْرَابِيًّا مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ»(٤).

إِنَّ حَالَكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- فِي هَذَا الزَّمَنِ كَحَالِ أَسْلَافِكُمْ مِنْ قَبْلُ؛ فِتْنَةً وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً، وَإِنْ تَفَاوَتَ ذَلِكَ بَيْنَ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ، وَشَدِيدٍ وَأَشَدَّ، وَسَيَكُونُ فِي الْأُمَّةِ مُنَافِقُونَ كَمَا كَانُوا مِنْ قَبْلُ، وَسَيَكُونُ فِي الْمُسْلِمِينَ سَمَّاعُونَ لِأَرَاجِيفِهِمْ وَأَبَاطِيلِهِمْ، وَتَخْوِيفِهِمْ بِالْكَافِرِينَ كَمَا كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ، وَسَيَثْبُتُ رِجَالٌ فِي عَصْرِنَا هَذَا رَغْمَ شِدَّةِ الْبَلَاءِ، وَعِظَمِ الْكَرْبِ، قَدِ امْتَلَأَتْ قُلُوبُهُمْ إِيمَانًا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَثِقَةً بِنَصْرِهِ، وَتَصْدِيقًا بِوَعْدِهِ؛ فَإِنْ أَدْرَكُوا وَقْتَ النَّصْرِ فَازُوا بِالْحُسْنَيَيْنِ: حَسَنَةِ الدُّنْيَا وَحَسَنَةِ الْآخِرَةِ، وَإِنْ قُبِضُوا قَبْلَ ذَلِكَ لَقُوا رَبَّهُمْ ثَابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ، مُسْتَمْسِكِينَ بِشَرِيعَتِهِمْ، فَكُونُوا -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مِنْهُمْ، وَاسْأَلُوهُ أَنْ يَنْظِمَكُمْ فِيهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَلِيلٌ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ

(٤) أخرجه البيهقي في السنن (٦/ ٣٥٧)، وفي معرفة السنن والآثار (٤٠١٤) عن الشافعي رحمه الله تعالى، وهو في الأم (٤/ ١٥٧)، وفي مختصر المزني (١/ ١٥٣).

أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٨١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مُنْذُ أَنِ ابْتَلَى اللهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ بِاسْتِيطَانِ الْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ الْمُحْتَلَّةِ، وَمِنْطَقَةُ الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَمْ تَهْنَأْ بِعَيْشٍ، وَلَا نَعِمَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ بِأَمْنٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الِاحْتِلَالَ الِاسْتِيطَانِيَّ هُوَ شَرُّ أَنْوَاعِ الِاحْتِلَالِ، وَلَا يُكْتَبُ لَهُ النَّجَاحُ إِلَّا بِإِبَادَةٍ شَامِلَةٍ لِأَهْلِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ، وَتَهْجِيرِ مَنْ يَبْقَى مِنْهُمْ -كَمَا فَعَلَ الْكَاثُولِيكُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ وَالْبُرُوتِسْتَانْتُ بِالْهُنُودِ الْحُمْرِ فِي أَمْرِيكَا[٥]-، وَلَمْ يَنْجَحِ الْيَهُودُ فِي هَذَا الْمَسْعَى الْآثِمِ بِفَضْلِ اللَّهِ ﷻ ثُمَّ بِثَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَتَمَسُّكِهِمْ بِحَقِّهِمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَزَادَ مِنْ مُشْكِلَةِ الِاسْتِيطَانِ الْيَهُودِيِّ أَنَّهُمْ مُحَاطُونَ بِأَعْدَائِهِمْ، وَقَدْ لَعِبَ بِهِمْ مَنْ وَطَّنُوهُمْ فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَزَرَعُوهُمْ فِي وَسَطِ أَعْدَائِهِمْ؛ وَلَا بَقَاءَ لِلْيَهُودِ إِلَّا بِافْتِعَالِ الْحُرُوبِ فِي الْمِنْطَقَةِ، وَهَذَا دَأْبُهُمْ مُنْذُ أَنِ احْتَلُّوا الْأَرْضَ الْمُبَارَكَةَ، وَيُصَرِّحُ سَاسَتُهُمْ بِذَلِكَ فَرَئِيسُهُمُ الْهَالِكُ بِيجِنْ يَقُولُ: «نَحْنُ نُحَارِبُ، فَنَحْنُ إِذَنْ نَكُونُ».

وَمِنْ سِيَاسَتِهِمُ الْمُعْلَنَةِ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ لَا بُدَّ أَنْ يُشْعِلُوا حَرْبًا جَدِيدَةً، وَقَدْ يُقَلِّصُونَ الْمُدَّةَ إِذَا دَعَتْهُمُ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ، وَفِي هَذَا يَقُولُ شَامِيرُ: «يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا فِي كُلِّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ مَرَّةً أَنْ نُجْلِسَ الْعَرَبَ عَلَى كُرْسِيِّ

---

(٥) ينظر في أفعال الكاثوليك بالمسلمين في الأندلس: دولة الإسلام في الأندلس، عبد الله عنان، المجلد الأخير منه، ففيه وثائق ومعلومات ثرية عن ذلك. وينظر في أفعال البروتستانت بالهنود الحمر: حق التضحية بالآخر، منير العكش، ففيه توثيق لكثير من المذابح والإبادات.

طَبِيبِ الْأَسْنَانِ؛ كَيْ نَقْلَعَ أَسْنَانَهُمُ الَّتِي نَبَتَتْ حَتَّى لَا يَعَضُّونَا بِهَا»(٦).

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْقُرْآنُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَسْعَوْنَ بِالْفَسَادِ، وَيُشْعِلُونَ الْحُرُوبَ، وَكَانَ مَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ لَا يَعْدُو قَوْلَ الْقُرْآنِ فِيهِمْ: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المَائِدَة: ٦٤].

فَقِطَارُ السَّلَامِ لَا يَرْكَبُهُ الْيَهُودُ إِلَّا لِلْوُصُولِ عَبْرَ مَحَطَّاتِهِ إِلَى مَيْدَانِ الْحَرْبِ؛ وَهَذَا أَمْرٌ وَاضِحٌ لِمَنْ رَاقَبَ أَحْوَالَ الْقَوْمِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُطْفِئُ نَارَ الْحُرُوبِ الَّتِي يَفْتَعِلُونَهَا، وَيَرُدُّ كَيْدَهُمْ وَكَيْدَ حُلَفَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ.

وَمِنَ الْمُبَشِّرَاتِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ إِطْفَاءَ نِيرَانِ حُرُوبِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى هَزِيمَتِهِمْ وَخُسْرَانِهِمْ، وَمُشْعِرٌ بِنِهَايَةِ أَمْرِهِمْ، وَاضْمِحْلَالِ دَوْلَتِهِمْ، وَهَذَا مَا يُنْذِرُ بِهِ مُؤَرِّخُوهُمْ وَمُحَلِّلُوهُمْ بَعْدَ فَشَلِهِمْ فِي عُدْوَانِهِمْ عَلَى لِبْنَانَ(٧)؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْفَأَ نَارَ حَرْبِهِمْ، وَكَسَرَ شَوْكَتَهُمْ، وَرَدَّهُمْ خَاسِئِينَ خَاسِرِينَ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يُخْدَعُوا بِيَهُودَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ، وَبِمُبَادَرَاتِهِمْ وَمَشَارِيعِهِمُ الَّتِي تُرِيدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الِاسْتِسْلَامَ الْكَامِلَ لَهُمْ، وَجَعْلَ مَفَاتِيحِ الْمِنْطَقَةِ بِأَيْدِيهِمْ، فَهُمْ قَوْمٌ غُدْرٌ بُهْتٌ لَا يُوقِفُهُمْ عَنْ أَطْمَاعِهِمْ، وَلَا يَرُدُّهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ إِلَّا الْقُوَّةُ، وَلَا قُوَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَلَا نَصْرَ لَهُمْ إِلَّا بِنَصْرِ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٧].

---

(٦) حمَّى سنة ٢٠٠٠ .. عود على بدء، الألفية الثالثة وتفاعلاتها الخطرة، عبد العزيز كامل، مجلة البيان، عدد (١٥٧) ص(٧٨).

(٧) ظهر مصطلح جديد في إسرائيل (المؤرخون الجدد) وهو يطلق على مجموعة من الباحثين لهم كتابات كثيرة تنذر بزوال الدولة العبرية، وتحكي بأن ذلك وشيك.

فَانْصُرُوا اللهَ تَعَالَى -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- بِالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، وَعَدَمِ التَّنَازُلِ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ مَهْمَا كَلَّفَ الْأَمْرُ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْجَلِيلِ وَالْحَقِيرِ.

اعْمَلُوا بِشَرِيعَتِهِ فِي أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَرَاقِبُوا اللهَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ وَلَا تُرَاقِبُوا خَلْقًا مِثْلَكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِإِقَامَةِ فَرَائِضِ دِينِكُمْ، وَمُجَانَبَةِ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ رَبُّكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَوَاهِلَكُمْ، وَتَحَمُّلِ الْمَسْؤُولِيَّاتِ الَّتِي عَلَيْكُمْ.

انْصُرُوهُ سُبْحَانَهُ بِالثِّقَةِ بِهِ وَبِدِينِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا بَاطِلَ فِيهِ، وَأَنَّ مَا عَارَضَهُ فَهُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا حَقَّ فِيهِ.

انْصُرُوهُ بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، وَكَثْرَةِ الِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ نَصَرَكُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَعْدَائِكُمْ، وَلَنْ تَقِفَ قُوَّةٌ مَهْمَا بَلَغَتْ أَمَامَكُمْ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَعَكُمْ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى رَبِّكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

٣٧٥- ولتعلن علوًّا كبيرًا

٢٥/٦/١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اتَّصَفَ بِالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، وَتَفَرَّدَ بِالْجَبَرُوتِ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»[١]، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ وَجْهِهِ، وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَتَبَ الْبَلَاءَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ تَكْفِيرًا لِسَيِّئَاتِهِمْ، وَرَفْعًا لِدَرَجَاتِهِمْ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ اصْطَفَاهُ رَبُّهُ نَبِيًّا وَرَسُولًا، وَجَعَلَهُ عَبْدًا شَكُورًا، وَلَمَّا تَحَزَّبَتِ الْأَحْزَابُ وَحَاصَرُوا الْمَدِينَةَ، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، وَاشْتَدَّتِ الْمِحْنَةُ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَدَعَاهُ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»[٢] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ؛ فَهِيَ الْعُدَّةُ لِلْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر (٢٦٢٠)، وأبو داود واللفظ له في اللباس، باب ما جاء في الكبر (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع (٤١٧٤).

(٢) أخرجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى: البخاري في الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٩٣٣)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو وباب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو (١٧٤٢).

أَيُّهَا النَّاسُ: الْعُلُوُّ عَلَى النَّاسِ، وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ، هُوَ حَصِيلَةُ قَنَاعَاتٍ عَقْلِيَّةٍ، وَاعْتِقَادَاتٍ بَاطِنِيَّةٍ بِالتَّمَيُّزِ وَالتَّفَوُّقِ، تَقُودُ إِلَى الْكِبْرِ، ثُمَّ إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ؛ وَلِذَا جَاءَ الْإِسْلَامُ بِحَسْمِ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْفَاسِدَةِ، وَاسْتِئْصَالِهَا مِنْ نُفُوسِ الْبَشَرِ، وَذَلِكَ بِبَيَانِ أَنَّ أَصْلَ الْبَشَرِ وَجِنْسَهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَّ التَّفَاضُلَ بَيْنَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الْحُجُرَات: ١٣].

وَمَا كَانَ هَذَا النِّدَاءُ الْعَظِيمُ، وَالْبَيَانُ الْكَبِيرُ الَّذِي جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَّا حِمَايَةً لِلْبَشَرِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ أَنْ يَسْرِيَ إِلَى قُلُوبِهِمْ، وَيَفْتِكَ بِأَخْلَاقِهِمْ، فَيَنْتِجَ عَنْهُ الْفَسَادُ وَالدَّمَارُ، وَاسْتِسْهَالُ قَتْلِ النَّاسِ، وَاسْتِرْخَاصُ الدِّمَاءِ، وَتَسْوِيغُ كُلِّ أَشْكَالِ الْحُرُوبِ وَالدَّمَارِ، كَمَا وَقَعَ كَثِيرًا -وَلَا يَزَالُ يَقَعُ- بِأَيْدِي الصَّهَايِنَةِ الْإِنْجِيلِيِّينَ، وَالصَّهَايِنَةِ التَّوْرَاتِيِّينَ؛ فَقَتْلُ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهِمْ أَوْ أَسْرُهُ يُقِيمُ الدُّنْيَا وَلَا يُقْعِدُهَا، وَقَتْلُ مِئَاتٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَأَسْرُ آلَافٍ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَمَلْءُ السُّجُونِ بِهِمْ، وَتَدْمِيرُ بُلْدَانٍ، وَتَشْرِيدُ أُمَمٍ، وَتَيْتِيمُ أَطْفَالٍ، وَتَرْمِيلُ نِسَاءٍ لَا يُحَرِّكُ سَاكِنًا، بَلْ هُوَ أَمْرٌ مَشْرُوعٌ، وَدِفَاعٌ عَنِ النَّفْسِ، مَا دَامَ هَذَا الدَّمَارُ عَلَى غَيْرِ جِنْسِهِمْ وَعِرْقِهِمْ.

إِنَّ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ أَبْدَتْ وَأَعَادَتْ فِي صِفَةِ الْكِبْرِ الذَّمِيمَةِ، وَبَيَّنَتْ أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْآثَامِ، وَطَرِيقٌ إِلَى رَفْضِ الْحَقِّ، وَنَصْرِ الْبَاطِلِ، وَغَمْطِ النَّاسِ؛ وَاللهُ ﷻ قَالَ لِإِبْلِيسَ الطَّرِيدِ اللَّعِينِ حِينَ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ كِبْرِهِ: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الْأَعْرَاف: ١٣]، فَعَامَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِنَقِيضِ مَا أَرَادَ مِنَ الْعُلُوِّ وَالْعَظَمَةِ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ الصَّغَارَ أَبَدًا، وَالصَّغَارُ أَشَدُّ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الْأَعْرَاف: ١٨].

إِنَّ مَنِ اتَّصَفَ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ لَا يَنَالُ إِلَّا الْهَوَانَ وَالصَّغَارَ بِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الْمُتَكَبِّرِ الْمُتَعَالِ[٣] الَّذِي حَكَمَ عَلَى مَنْ رَفَضُوا الْحَقَّ، وَجَادَلُوا فِيهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وَبَيَّنَ ﷻ أَنَّ أَهْلَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ مَصْرُوفُونَ عَنْ تَدَبُّرِ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الشَّرْعِيَّةِ، وَعَنْ فَهْمِ سُنَنِهِ الْكَوْنِيَّةِ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا يُحْلَفُ إِلَّا بِهِ إِنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ لَمَوْجُودَةٌ فِي قُوَى الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ وَسَوَّغَهُ لَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالظَّالِمِينَ وَالْجَاهِلِينَ.

وَلِقَبَاحَةِ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ، وَمَا يَخْلُفُهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الرَّدِيئَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ؛ تَعَوَّذَ مُوسَى عليه السلام مِنْ أَهْلِهِ، وَقَدْ رَأَى فَتْكَهُ بِقَلْبِ فِرْعَوْنَ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

وَأُمَّةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أُمَّةٌ قَدِ اصْطَفَاهَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهَا مِنَ الْأُمَمِ، وَفَضَّلَهَا عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ النُّبُوَّةَ فِيهِمْ، وَامْتَنَّ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧]. وَذَكَّرَهُمْ نَبِيُّهُمْ مُوسَى عليه السلام بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، فَقَالَ لَهُمْ: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

وَلَكِنَّ كُفَّارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَدَّلُوا دِينَ مُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهم السلام، ثُمَّ قَتَلُوا

(٣) أضواء البيان للشنقيطي (٢/ ١٠).

يَحْيَى وَزَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي جُمْلَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ، ثُمَّ كَذَّبُوا عِيسَى وَمُحَمَّدًا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَوَضَعُوا السُّمَّ لِأَفْضَلِ الْبَشَرِ، وَخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ، فَمَاتَ مُتَأَثِّرًا بِسُمِّهِمْ، وَحَاوَلُوا قَتْلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّ اللهَ تَعَالَى نَجَّاهُ مِنْهُمْ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَسَيُنْزِلُهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ لِقِتَالِهِمْ عَلَى دِينِ خَاتَمِ الرُّسُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

إِنَّ أَفْعَالَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقَبِيحَةَ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ، وَاحْتِقَارِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ وَظُلْمِهِمْ، وَبَطَرِ الْحَقِّ، وَغَمْطِ النَّاسِ مَا كَانَ إِلَّا بِسَبَبِ كِبْرٍ وَعُلُوٍّ امْتَلَأَتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَاسْوَدَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَفَسَدَتْ بِهِ أَخْلَاقُهُمْ، فَلَا يَرَوْنَ الْحَقَّ إِلَّا فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ، وَلَا عَجَبَ حِينَئِذٍ أَنْ نَرَى الْيَهُودَ يَعْتَدُونَ عَلَى الدُّوَلِ[٤]، وَيُبِيدُونَ الْبَشَرَ، وَلَا يَذَرُونَ حَجَرًا عَلَى حَجَرٍ، وَلَا عَجَبَ أَيْضًا أَنْ يُؤَيِّدَهُمْ فِي عُلُوِّهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَيُبَارِكَهُ لَهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ صَهَايِنَةِ النَّصَارَى الْإِنْجِيلِيِّينَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ بِظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ إِنَّمَا يُدَافِعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَحَسْبُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَشْرَبَ الطَّائِفَتَيْنِ وَاحِدٌ، وَثَقَافَةَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِكْبَارِ تَرِدُهُمْ مِنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ؛ مِنْ تَوْرَاةٍ مُحَرَّفَةٍ، وَتَلْمُودٍ مُؤَلَّفٍ، جَعَلَ لَهُمْ مِيزَاتٍ عَلَى سَائِرِ الْبَشَرِ، وَمَنَحَهُمُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا مِلْكًا لَهُمْ يَفْعَلُونَ بِهَا وَبِأَهْلِهَا مَا يَشَاءُونَ، مُبَارَكِينَ مِنَ الرَّبِّ ﷻ، هَكَذَا يَعْتَقِدُونَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا يَعْتَقِدُونَ؛ تَعَالَى اللهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ عَنْ إِفْكِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَعَامَلَهُمْ سُبْحَانَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ.

وَعُلُوُّهُمُ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْهُ الْقُرْآنُ لَا يُخْفُونَهُ هُمْ عَنِ النَّاسِ، بَلْ يُظْهِرُونَهُ

---

(٤) هذا إشارة إلى الحرب الشرسة التي أشعلتها إسرائيل ضد الفلسطينيين لما فازت حماس في الانتخابات، ثم بعد أسابيع ضد لبنان زاعمة القضاء على حزب الله الرافضي الذي خطف أفراده جنديين إسرائيليين، ولا تزال دولة اليهود تقصف المرافق الحيوية في لبنان، وتدمر كل شيء حتى الجسور والعمران، بدعوى القضاء على الحزب الرافضي الذي هو في مأمن من اليهود والصليبيين!! وزعمت أمريكا أن ذلك دفاع عن النفس.

وَيُعْلِنُونَهُ، وَيُفَاخِرُونَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فِي عُنْصُرِيَّةٍ بَغِيضَةٍ، وَاحْتِقَارٍ لِغَيْرِهِمْ مَمْقُوتٍ.

وَدُونَكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- بَعْضًا مِنْ أَقْوَالِهِمْ؛ لِتَعْرِفُوا مَدَى عُلُوِّهِمْ، وَتَفْهَمُوا لِمَ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ فِي هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي سَادَ فِيهِ رُعَاةُ الْبَقَرِ، وَأَكَلَةُ الْخِنْزِيرِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ عَصْرُ التَّحَضُّرِ وَالرُّقِيِّ الْبَشَرِيِّ، يَقُولُ كَبِيرُ الصَّهَايِنَةِ التَّوْرَاتِيِّينَ فِي وَقْتِهِ، رَئِيسُهُمُ ابْنُ جُورْيُونْ عَقِبَ انْتِهَاءِ عَمَلِيَّاتِ الْعُدْوَانِ الثُّلَاثِيِّ عَلَى مِصْرَ مُخَاطِبًا جُنْدَهُ: «لَقَدْ أَرْجَعْتُمُونَا إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُعْطِينَا فِيهِ الْقَانُونَ، وَفِيهِ كَلَّفَنَا الرَّبُّ بِأَنْ نَكُونَ شَعْبًا مُخْتَارًا»(٥).

وَيَقُولُ آخَرُ مِنْهُمْ: «سَيَسُودُ شَعْبُنَا الْيَهُودِيُّ كُلَّ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى. إِنَّ إِسْرَائِيلَ هَذِهِ هِيَ الْأُمَّةُ الْعُلْيَا الَّتِي تَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّوَسُّعِ، وَأَنْ تُصْبِحَ سَيِّدَةَ الْعَالَمِ دُونَ النَّظَرِ بِعَيْنِ الِاعْتِبَارِ إِلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُكَلِّفَ هَذِهِ الشُّعُوبَ الْأَدْنَى مَقَامًا؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ الْعُلْيَا وَحْدَهَا فَقَطْ هِيَ زَهْرَةُ الْبَشَرِيَّةِ وَذِرْوَتُهَا، وَمَا خُلِقَتِ الْأُمَمُ الْأُخْرَى جَمِيعًا إِلَّا لِتَخْدِمَ هَذِهِ النُّخْبَةَ»(٦).

وَيَخْطُبُ أَحَدُهُمْ فِيهِمْ فَيَقُولُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ آخَرَ عَلَى الْخَطَإِ، وَأَنْتَ الْيَهُودِيُّ وَحْدَكَ عَلَى الصَّوَابِ، لَا تُوجَدُ إِلاَّ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ فِي الْعَالَمِ وَهِيَ بِكَامِلِهَا مِلْكُكَ أَنْتَ». ثُمَّ يَقُولُ: «إِنَّ التَّوْرَاةَ وَالسَّيْفَ أُنْزِلَا مِنَ السَّمَاءِ مَعًا»(٧). مُشِيرًا إِلَى

---

(٥) قال ذلك في رسالة وجهها للجيش اليهودي في ٧/ تشرين الثاني ١٩٥٦م، ينظر محتوى التعاليم الدينية اليهودية، النزعة العدوانية، بحث منشور في موقع المركز الفلسطيني للإعلام على الشبكة العالمية.

(٦) القائل هو اليهودي آشيز جنز برج، ينظر: المذهب العسكري الإسرائيلي، هيثم الكيلاني، مركز الأبحاث بيروت ١٩٦٩م ص(٢٥).

(٧) القائل هو: الصهيوني المتعصب زئيف فلاديمير جابوتنسكي، كما في الشخصية اليهودية راهنا والحل القرآني، منشور في الشبكة العالمية.

الْعَقِيدَةِ وَالْقُوَّةِ الْمُعْتَمِدَةِ عَلَى السَّيْفِ وَالسِّلَاحِ.

وَيَقُولُ أَحَدُ حَاخَامَاتِهِمْ: «إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْيَهُودِيِّ وَبَيْنَ غَيْرِ الْيَهُودِيِّ كَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الرُّوحِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَشَرِ؛ فَشَعْبُ إِسْرَائِيلَ صَفْوَةُ الشُّعُوبِ؛ إِذْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ، بَيْنَمَا أَرْوَاحُ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى مَخْلُوقَةٌ مِنَ النَّجَاسَاتِ الثَّلَاثِ»[٨]. تَعَالَى اللهُ عَنْ إِفْكِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فَلَا تَعْجَبُوا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مِنْ أَفْعَالِهِمُ الَّتِي تُنْقَلُ إِلَيْكُمْ هَذِهِ الْأَيَّامَ لَحْظَةً بِلَحْظَةٍ فِي فِلَسْطِينَ وَلِبْنَانَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ غَيْرَهُمْ إِلَّا بِحَسَبِ مَقُولَاتِهِمْ وَقَنَاعَاتِهِمْ تِلْكَ.

وَلَا تَعْجَبُوا أَيْضًا مِنْ سُكُوتِ مُخْتَلَفِ طَوَائِفِ النَّصَارَى الْغَرْبِيِّينَ مِمَّنْ يَمْلِكُونَ الْقُدْرَةَ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَوَضْعِ حَدٍّ لِجَرَائِمِهِمْ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ كُفَّارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَوْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى ﵇، وَعَبَدُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَلَسَوْفَ يُقَاتِلُهُمْ مَعَ الطَّائِفَةِ الْمُؤْمِنَةِ مِنْ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَكْسِرُ صَلِيبَهُمْ، وَيَقْتُلُ خِنْزِيرَهُمْ.

وَأَمَّا أُمَّةُ الْعَرَبِ فَقَدْ ضَيَّعُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَكَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنْفُسِهِمْ، فَذَلُّوا وَهَانُوا، وَاسْتُبِيحُوا شَرَّ اسْتِبَاحَةٍ؛ إِذْ أَدَارَ الْمَعَارِكَ الْأُولَى مَعَ الْيَهُودِ قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ أَدَارُوا ظُهُورَهُمْ لِدِينِهِمْ، وَتَنَكَّرُوا لِكِتَابِ رَبِّهِمْ، وَرَفَعُوا شِعَارَاتِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مُقَابِلِ الْقَوْمِيَّةِ الطُّورَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، فَنَقَلُوا الْمَعْرَكَةَ مِنْ مَيْدَانِهَا الدِّينِيِّ الشَّرْعِيِّ إِلَى جَاهِلِيَّةٍ عَمْيَاءَ، وَعَصَبِيَّةٍ خَرْقَاءَ، وَرَكِبُوا مَا رَكِبَ الْيَهُودُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الدَّمِ وَالْعِرْقِ، فَضُرِبُوا فِي النَّكْبَةِ، ثُمَّ قُضِيَ عَلَيْهِمْ فِي النَّكْسَةِ، فَأَعْلَنُوا

---

(٨) القائل هو الحاخام سنيؤرسن أحد قيادي منظمة حاباد الصهيونية الدينية، عن المصدر السابق.

الِاسْتِسْلَامَ، وَاسْتَجْدَوُا السَّلَامَ مِنَ الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمْ فِي الْغَرْبِ، وَوَعَدُوا شُعُوبَهُمْ إِنْ قَبِلُوا الِاسْتِسْلَامَ بِأَحْلَامٍ وَرْدِيَّةٍ، وَجَنَّةِ شَرْقٍ أَوْسَطِيَّةٍ، عَبْرَ السَّلَامِ الْبَارِدِ ثُمَّ الدَّافِئِ ثُمَّ سَلَامِ الشُّجْعَانِ؛ لِيُعْلِنَ هَذِهِ الْأَيَّامَ أَمِينُ الْمُنَظَّمَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَنْ مَوْتِ عَمَلِيَّةِ السَّلَامِ وَانْتِهَائِهَا بَعْدَ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً[٩] مِنَ التَّخَبُّطِ وَالضَّيَاعِ، وَالتَّعَلُّقِ بِالْأَوْهَامِ، وَإِحْسَانِ الظَّنِّ بِالْأَعْدَاءِ، فَيَا لَلْفَضِيحَةِ الَّتِي دَوَّنَهَا التَّارِيخُ بِمِدَادِ الْخِزْيِ وَالْعَارِ فِي هَذَا الزَّمَانِ!

وَكَيْفَ يَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَخْدُوعُونَ أَنَّ الَّذِينَ صَنَعُوا لِلْيَهُودِ دَوْلَةً فِي عُقْرِ دِيَارِنَا، وَمَكَّنُوهُمْ مِنَ التَّفَوُّقِ عَلَى مَجْمُوعِ قُوَّاتِنَا وَجُيُوشِنَا يُمْكِنُ لَهُمْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ أَنْ يَقِفُوا مَعَنَا ضِدَّ الْيَهُودِ، أَوْ يُمَكِّنُونَا مِنْ صَدِّهِمْ أَوْ إِضْعَافِهِمْ؟! هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

وَالْعَجِيبُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَرَبِ لَا يَزَالُونَ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ لَا حَلَّ لِلْأَزْمَةِ مَعَ الْيَهُودِ إِلَّا بِكَسْبِ صَدَاقَةِ أَصْدِقَاءِ الْيَهُودِ، وَالْمُرَاهَنَةِ عَلَى الضُّغُوطِ، الَّتِي تُمَارِسُهَا ضِدَّهُمُ الدُّوَلُ الْكُبْرَى وَالْمُنَظَّمَاتُ الدَّوْلِيَّةُ، وَهَذَا وَهْمٌ آخَرُ؛ فَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢].

وَقَدْ أَزَالَتْ هَذِهِ الْأَحْدَاثُ كَثِيرًا مِنَ الْأَوْهَامِ، وَأَثْبَتَتْ مَا قَرَّرَهُ الْقُرْآنُ مِنْ

---

(٩) وذلك منذ أول سلام للعرب مع اليهود على يد مصر في كامب ديفد الأولى، ووقعه أنور السادات مع مناحيم بيجن، بإشراف الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، وقد أعلن عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية قبل أسبوع حين قصفت إسرائيل لبنان بأن عملية السلام قد ماتت، وأن الصهاينة كانوا يخدعون العرب.

حَقِيقَةِ الْأَعْدَاءِ، وَلَا مَخْرَجَ لِلْأُمَّةِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ الْعَظِيمَةِ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِمْسَاكِ بِدِينِهِ، وَالثِّقَةِ بِهِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَنَبْذِ كُلِّ الْأَسْبَابِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي مَا زَادَتِ الْأُمَّةَ إِلَّا ضَعْفًا وَوَهْنًا، وَزَادَتِ الْأَعْدَاءَ تَسَلُّطًا وَبَغْيًا، وَقَطْعِ كُلِّ الْحِبَالِ إِلَّا حَبْلَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهُوَ حَبْلُ النَّصْرِ وَالْعِزِّ وَالتَّمْكِينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [مُحَمَّد: ٧]. ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٩].

جَعَلَنَا اللهُ تَعَالَى مِنْ أَنْصَارِ دِينِهِ، وَمِنْ أَهْلِ عِزَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ.

اللَّهُمَّ يَا غَوْثَ الْمُسْتَغِيثِينَ، وَيَا نَاصِرَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، انْصُرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ وَمَنْ حَالَفَهُمْ، وَأَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي لِبْنَانَ وَفِي فِلَسْطِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ يَا قَاصِمَ الْجَبَابِرَةِ، وَيَا كَاسِرَ الْأَكَاسِرَةِ، وَيَا مُذِلَّ الْقَيَاصِرَةِ، أَنْزِلِ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ وَالْعَذَابَ عَلَى الْيَهُودِ وَحُلَفَائِهِمْ، وَاجْعَلْهُمْ غَنِيمَةً لِلْمُسْلِمِينَ، أَنْتَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، وَأَنْتَ مَوْلَانَا فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَالنَّصِيرُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللَّهِ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا

سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الْأَحْزَاب: ٧٠، ٧١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ قَضَى اللهُ تَعَالَى -وَقَضَاؤُهُ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ- بِأَنَّ ذِلَّةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهَوَانَهُمْ دَائِمٌ مَعَهُمْ، مُلَازِمٌ لَهُمْ، أَيْنَمَا كَانُوا، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ عَاشُوا، إِلَّا بِحَبْلَيْنِ اثْنَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا: حَبْلٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِدُخُولِهِمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا دَخَلَ فِيهِ سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ﷺ، أَوْ بِدُخُولِهِمْ تَحْتَ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ بِعُقُودِ أَمَانٍ أَوْ ذِمَّةٍ.

وَأَمَّا الْحَبْلُ الثَّانِي فَهُوَ حَبْلُ الْقُوَى النَّافِذَةِ مِنَ الْبَشَرِ، وَهُوَ حَبْلُ النَّاسِ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١١٢].

وَمَنْ قَرَأَ تَارِيخَ الْيَهُودِ طِيلَةَ عُهُودِهِمُ الَّتِي أَعْقَبَتْ عَهْدَ الِاصْطِفَاءِ يَجِدُ أَنَّهُمْ مَا خَرَجُوا عَمَّا قَضَاهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ إِلَّا بِهَذَيْنِ الْحَبْلَيْنِ؛ فَفِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ دَخَلُوا تَحْتَ حِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ حَتَّى سَقَطَتْ خِلَافَةُ بَنِي عُثْمَانَ، فَانْحَازَ الْيَهُودُ إِلَى قُوَى الِاسْتِعْمَارِ يَتَعَلَّقُونَ بِحَبْلِهَا، وَيَسْتَمِدُّونَ الْقُوَّةَ مِنْهَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْفَرِدَ الْيَهُودُ بِقُوَّةٍ وَحْدَهُمْ، وَلَا أَنْ يُوَاجِهُوا غَيْرَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، فَلَا بُدَّ مِنْ حِبَالٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَاقْتِصَادِيَّةٍ تَمُدُّهُمْ بِالمَعُونَةِ وَالْقُوَّةِ، هَذَا هُوَ قَدَرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَحُكْمُهُ فِيهِمْ؛ جَرَّاءَ عُلُوِّهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ.

ثُمَّ قَضَى ﷻ فِيهِمْ بِالْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ إِنْ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ، وَهِيَ أَرْضُ بَيْتِ المَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ مَرَّتَيْنِ، وَأَنَّ عُلُوَّهُمْ

سَيَزْدَادُ، وَأَنَّ تَسْلِيطَ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ يَسْتَبِيحُهُمْ يَكُونُ فِي أَوْجِ عُلُوِّهِمْ وَاسْتِكْبَارِهِمْ، وَأَنَّهُمْ إِنْ عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ عَادَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ عِبَادِهِ، وَتِلْكَ سُنَّةٌ دَائِمَةٌ ثَابِتَةٌ فِيهِمْ، قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، وَوَقَعَتْ فِي تَارِيخِهِمْ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسْرَاء: ٤-٨].

إِنَّ قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِمْ ظَاهِرٌ، وَحُكْمَهُ فِيهِمْ وَاضِحٌ، وَسُنَّتَهُ فِيهِمْ ثَابِتَةٌ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أَيْ: إِنْ عُدْتُمْ إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ عُدْنَا عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْعَذَابِ، وَقَدْ عَادُوا إِلَى الْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ، فَسَلَّطَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْبَابِلِيِّينَ، فَخَرَّبُوا عُمْرَانَهُمْ، وَأَبَادُوا خَضْرَاءَهُمْ. ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَلَّطَ اللهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِمْ فِي غَزَوَاتِ النَّضِيرِ وَقَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَخَيْبَرَ، فَكَانُوا بَيْنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، وَبَيْنَ الطَّرْدِ وَالْجَلَاءِ، ثُمَّ عَادُوا لِلْعُلُوِّ وَالْفَسَادِ فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ أُمَّةَ الْأَلْمَانِ النَّازِيَّةَ، فَطَارَدُوهُمْ وَعَذَّبُوهُمْ وَحَرَّقُوهُمْ.

وَبَعْدَ تَوْطِينِهِمْ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ زَادَ عُلُوُّهُمْ، وَاسْتَفْحَلَ فَسَادُهُمْ، وَأَمَدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ وَحُلَفَاؤُهُمْ وَالْمُسَارِعُونَ فِيهِمْ بِحِبَالِهِمْ؛ لِيَعْلُوا عُلُوًّا كَبِيرًا، وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا، وَلَسَوْفَ يَحِقُّ عَلَيْهِمْ وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى، وَتُدْرِكُهُمْ سُنَّتُهُ الْأَبَدِيَّةُ ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، وَسُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ إِرَادَةِ الْبَشَرِ، وَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ غَالِبَةٌ لِأَسْلِحَتِهِمْ

وَأَسْلِحَةِ مَنْ يَصِلُونَهُمْ بِحِبَالِهِمْ، وَمَا نَفَعَ أَجْدَادَهُمْ مِنْ قَبْلُ مَا تَوَثَّقُوا بِهِ مِنْ حِبَالِ الْبَشَرِ، وَقَطَعَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى كُلَّ حَبْلٍ مَمْدُودٍ إِلَيْهِمْ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر: ٤٣].

وَكُلَّمَا زَادَ عُلُوُّهُمْ، وَاسْتَفْحَلَ فَسَادُهُمْ؛ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُرْبِ عَذَابِهِمْ، وَدُنُوِّ هَلَاكِهِمْ، عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَعُلُوِّهِمْ وَفَسَادِهِمْ.

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ، وَانْصُرُوا إِخْوَانَكُمْ فِي الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ بِكُلِّ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ أَنْوَاعِ النُّصْرَةِ، وَمِنْ أَعْظَمِ ذَلِكَ الدُّعَاءُ الْخَالِصُ الصَّادِقُ، فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.





٣٧٦- بين التجمع اليهودي والتفرق العربي

١٩/ ١٠/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى؛ كَتَبَ الْعِزَّ وَالنَّصْرَ لِمَنْ حَكَّمَ شَرْعَهُ، وَضَرَبَ الذُّلَّ وَالْهَوَانَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَاهُ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَاهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادلَة: ٢٠، ٢١]. أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى الْعِبَادَ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ، وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالمَعْصِيَةِ وَالطَّاعَةِ، وَجَعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمَا أَنْصَارًا وَدُعَاةً يَدْعُونَ إِلَيْهِمَا؛ فَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٣٥]، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفُرْقَان: ٢٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ؛ لِيَهْدِيَ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَيُبْصِرَ بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ أَقَامُوا الْعَدْلَ، وَرَفَعُوا الظُّلْمَ، وَنَشَرُوا دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَكَمُوا بَيْنَ النَّاسِ بِشَرِيعَتِهِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ التَّقْوَى؛ فَلَا رَافِعَ لِلذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَلَا مُنْجِيَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا تُنَالُ رَحْمَتُهُ، وَيُنَجَّى مِنْ عَذَابِهِ، وَيَتَنَزَّلُ نَصْرُهُ بِتَقْوَاهُ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، حَقِيرِهَا وَجَلِيلِهَا.

أَيُّهَا النَّاسُ: أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ بِدِينٍ جَمَعَ شَتَاتَهَا، وَوَحَّدَ كَلِمَتَهَا،

وَأَزَالَ أَسْبَابَ فُرْقَتِهَا، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِ أَبْنَائِهَا ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [**الأنفال: ٦٣**].

فَتَآخَى فِي دِينِ الْإِسْلَامِ الْحَبَشِيُّ بِلَالٌ، وَالرُّومَانِيُّ صُهَيْبٌ، وَالْفَارِسِيُّ سَلْمَانُ، مَعَ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ، وَاجْتَمَعَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَقَدْ فَرَّقَتْهَا الْجَاهِلِيَّةُ سَنَوَاتٍ عِدَّةً، وَأَفْنَتْ أَبْنَاءَهَا حُرُوبٌ سُعِّرَتْ فِي سَبِيلِ فَرَسٍ سَبَقَتْ، أَوْ نَاقَةٍ عُقِرَتْ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، يُتِّمَ بِسَبَبِهَا أَطْفَالٌ، وَرُمِّلَتْ نِسَاءٌ، وَأُزْهِقَتْ أَرْوَاحٌ.

لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ بِرَابِطَةٍ هِيَ أَقْوَى مِنْ رَابِطَةِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ، وَالتُّرَابِ وَالْوَطَنِ، وَالْجِنْسِ وَالْعِرْقِ، وَاللِّسَانِ وَاللُّغَةِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [**الحُجُرَات: ١٠**]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

وَمَثَّلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ الَّذِي إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَأَلَّمَتْ سَائِرُ الْأَعْضَاءِ الْأُخْرَى بِسَبَبِهِ(٢)، وَقَطَعَ ﷺ كُلَّ طَرِيقٍ لِلنَّعَرَاتِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةِ،

---

(١) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه: أبو داود في الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر (٢٧٥١)، وأحمد (٢/ ٢١٥)، وابن الجارود (١٠٧٣).
وأخرجه بنحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ابن ماجه في الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم (٢٦٨٣).

(٢) وذلك في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهِمْ وتَرَاحُمِهِمْ وتعَاطُفِهِمْ مثل الجسَدِ إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحمَّى**» أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٢٥٨٦).

فَأَعْلَنَ فِي أَصْحَابِهِ قَائِلًا: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتَنَ»(٣).

وَلَمَّا عَيَّرَ رَجُلٌ رَجُلًا بِنَسَبِهِ أَغْلَظَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»(٤).

وَلَمَّا تَفَاخَرَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ بِأَيَّامِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَانْتَخَوْا بِهَا غَضِبَ ﷺ وَقَالَ: «أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ»(٥).

وَكُلُّ هَذَا النَّكِيرِ لِأَيِّ عَصَبِيَّةٍ إِلَّا عَصَبِيَّةَ الْإِسْلَامِ إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تَتَّحِدَ الْأُمَّةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِيَكُونَ أَقْوَى لَهَا، وَأَجْمَعَ لِأَمْرِهَا، وَأَمْضَى لِعَزْمِهَا، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمَ سَبَبًا لِلْفَشَلِ وَالْهَزِيمَةِ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٠٣].

وَفِي قَضِيَّةِ فِلَسْطِينَ الَّتِي تُعَدُّ أَطْوَلَ قَضِيَّةٍ مُعَاصِرَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَأَكْثَرَ قَضَايَاهُمْ

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أبو داود في الأدب، باب في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب، باب فضل الشام واليمن، وقال: حسن غريب (٣٩٥٥)، وأحمد (٢/ ٣٦١)، وصححه ابن تيمية في الاقتضاء (٧٣).

(٤) أخرجه من حديث أبي ذر ﷺ: البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣)، ومسلم في الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

(٥) أخرجه من حديث زيد بن أسلم -رحمه الله تعالى-: الطبري في تفسيره (٤/ ٢٣-٢٤)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ (٢/ ٢٧٨).

تَعْقِيدًا، وَظَهَرَ فَشَلُ المُسْلِمِينَ فِي حَسْمِهَا حَرْبًا، كَمَا فَشِلُوا فِي حَلِّهَا سِلْمًا؛ نَجِدُ أَنَّ أَعْظَمَ سَبَبٍ لِهَذَا الْفَشَلِ: التَّفَرُّقُ وَالِاخْتِلَافُ الَّذِي نَتَجَ عَنْ إِلْغَاءِ الرَّابِطَةِ الدِّينِيَّةِ وَإِحْلَالِ الرَّوَابِطِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ، وَنُقِلَتْ بِسَبَبِهِ الْقَضِيَّةُ مِنْ مَيْدَانِهَا الشَّرْعِيِّ إِلَى مَيَادِينِ الْجَاهِلِيَّةِ.

لَقَدْ فَتَحَ الْعَرَبِيُّ الْقُرَشِيُّ الْمُسْلِمُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَاسْتَلَمَهُ مِنْ أَئِمَّةِ النَّصَارَى، وَكَانَ فِي جَيْشِهِ رُومَانٌ وَفُرْسٌ وَأَحْبَاشٌ مُسْلِمُونَ، كَمَا كَانَ فِي جَيْشِهِ أَخْلَاطٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الْمُخْتَلِفَةِ لَا يَنْتَخُونَ إِلَّا بِالْإِسْلَامِ، وَلَا يَعْرِفُونَ رَابِطَةً غَيْرَ رَابِطَةِ الْإِيمَانِ(٦).

وَلَمَّا احْتَلَّ الصَّلِيبِيُّونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي وَقْتٍ ضَعُفَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ وَاخْتَلَفُوا وَتَفَرَّقُوا أَعَادَهَا إِلَى حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ تِسْعِينَ سَنَةً مِنَ الِاحْتِلَالِ صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيُّ الْكُرْدِيُّ الْمُسْلِمُ(٧)، وَكَانَ جَيْشُهُ أَخْلَاطًا مِنَ الْعَرَبِ وَالْفُرْسِ وَالْكُرْدِ وَالتُّرْكِ وَغَيْرِهِمْ، لَا يَجْمَعُهُمْ إِلَّا الْإِسْلَامُ، فَلَمْ يَنْسُبُوا هَذِهِ الْمَنْقَبَةَ الْعَظِيمَةَ لِجِنْسٍ دُونَ جِنْسٍ، وَلَا اسْتَعْلَى بِهَا عِرْقٌ عَلَى عِرْقٍ، بَلْ كَانَتْ مَنْقَبَةً لِلْمُسْلِمِينَ لِكَوْنِهِمْ مُسْلِمِينَ وَكَفَى.

وَلَمَّا ضَعُفَتِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي، وَطَمِعَ فِي ضَعْفِهَا شَيَاطِينُ الْغَرْبِ مِنْ أَحْفَادِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَأَبْنَاءِ الصَّهَايِنَةِ، وَرَأَوْا أَنَّ الْفُرْصَةَ مُوَاتِيَةٌ لِتَوْطِينِ الْيَهُودِ فِي فِلَسْطِينَ تَمَسَّكَ بِهَا السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ التُّرْكِيُّ عَبْدُ الْحَمِيدِ الثَّانِي، وَأَصْدَرَ الْقَرَارَاتِ تِلْوَ الْقَرَارَاتِ لِلْحِفَاظِ عَلَيْهَا، وَمَنَعَ الْيَهُودَ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَيْهَا.

وَرَغْمَ مَا كَانَتْ تُعَانِي مِنْهُ الدَّوْلَةُ الْعُثْمَانِيَّةُ مِنَ الضَّعْفِ وَالِانْحِطَاطِ، وَانْهِيَارِ

---

(٦) ينظر خبر هذا الفتح في خطبة: الفتح الأول لبيت المقدس مجلد (٣)، خطبة رقم (١٤٢).

(٧) ينظر خبر ذلك في خطبتي: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، ومعركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

الِاقْتِصَادِ، وَتَرَاكُمِ الدُّيُونِ؛ فَإِنَّ السُّلْطَانَ الْعُثْمَانِيَّ التُّرْكِيَّ لَمْ يَبِعْ فِلَسْطِينَ الْعَرَبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ لِلْيَهُودِ، وَقَدْ حَاوَلَ كُبَرَاءُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ؛ لِإِغْرَائِهِ بِذَلِكَ، وَقَابَلَهُ كَبِيرُ الصَّهَايِنَةِ آنَذَاكَ هِرْتِزِلُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِشِرَاءِ فِلَسْطِينَ مِنَ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ التُّرْكِيَّةِ، وَلَكِنَّ السُّلْطَانَ رَفَضَ ذَلِكَ، وَكَاتَبُوهُ فِيهَا كَثِيرًا فَلَمْ يَفْلَحُوا. وَأَرَادَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنْ يُيَئِّسَهُمْ مِنْ طَمَعِهِمْ فِيهِ، فَأَرْسَلَ رَئِيسَ وُزَرَائِهِ إِلَيْهِمْ بِرِسَالَةٍ يَقُولُ فِيهَا: «انْصَحُوا الدُّكْتُورَ هِرْتِزِلْ بِأَلَّا يَتَّخِذَ خُطُوَاتٍ جِدِّيَّةً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ شِبْرٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَرْضِ؛ فَهِيَ لَيْسَتْ مِلْكَ يَمِينِي، بَلْ مِلْكَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي جَاهَدَتْ فِي سَبِيلِهَا، وَرَوَتْهَا بِدِمَائِهَا؛ فَلْيَحْتَفِظِ الْيَهُودُ بِمَلَايِينِهِمْ، وَإِذَا مُزِّقَتْ دَوْلَةُ الْخِلَافَةِ يَوْمًا فَإِنَّهُمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَأْخُذُوا فِلَسْطِينَ بِلَا ثَمَنٍ، أَمَّا وَأَنَا حَيٌّ فَإِنَّ عَمَلَ الْمِبْضَعِ فِي بَدَنِي لَأَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَرَى أَرْضَ فِلَسْطِينَ قَدْ بُتِرَتْ مِنَ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَكُونُ. إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ الْمُوَافَقَةَ عَلَى تَشْرِيحِ أَجْسَادِنَا وَنَحْنُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ»(٨).

لَقَدْ حَافَظَ السُّلْطَانُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَلَيْهَا مِنْ مُنْطَلَقٍ إِسْلَامِيٍّ، لَا مِنْ مُنْطَلَقٍ قَوْمِيٍّ أَوْ وَطَنِيٍّ أَوْ عِرْقِيٍّ، وَإِلَّا لَبَاعَهَا لِلْيَهُودِ، وَسَلِمَتْ لَهُ دَوْلَتُهُ التُّرْكِيَّةُ، وَلْيَلْقَ الْعَرَبُ مَصِيرَهُمْ مَعَ الْيَهُودِ. وَمَا ظَفِرَ الْيَهُودُ بِفِلَسْطِينَ إِلَّا عَلَى أَنْقَاضِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ بَعْدَ أَنْ عَمِلَتْ جَمْعِيَّاتُهُمْ عَمَلَهَا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَفَرَّقَتْهُمْ وَمَزَّقَتْهُمْ، وَأَبْدَلَتِ انْتِمَاءَهُمْ إِلَى الْقَوْمِيَّاتِ الْعِرْقِيَّةِ بَدَلَ انْتِمَائِهِمْ إِلَى دِينِهِمْ، فَاسْتَبْدَلَ مَلَاحِدَةُ التُّرْكِ بِدِينِهِمْ الْقَوْمِيَّةَ التُّرْكِيَّةَ الطُّورَانِيَّةَ، وَاسْتَبْدَلَ مَلَاحِدَةُ

---

(٨) ينظر: مذكرات السلطان عبد الحميد (٣٤)، وصحوة الرجل المريض د. موفق بن المرجه (٢٢٤-٢٢٥)، وينظر: تاريخ الدوله العثمانيه يلماز اوزتونا، ترجمة: عدنان محمود سليمان (٢/ ١٥٧-١٥٩)، وانهيار الدولة العثمانية (١٩٠-١٩٥).

الْعَرَبِ بِدِينِهِمُ الْقَوْمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ، فَقُسِّمَتِ الْأُمَّةُ الْوَاحِدَةُ إِلَى عَرَبٍ وَتُرْكٍ، ثُمَّ إِلَى قَوْمِيَّاتٍ أُخْرَى مُتَفَرِّقَةٍ، وَقُسِّمَتْ بُلْدَانُهُمْ إِلَى دُوَلٍ شَتَّى، فَفَرَّقَتْهُمُ الْعَصَبِيَّاتُ الْجَاهِلِيَّةُ وَقَدْ جَمَعَهُمُ الْإِسْلَامُ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ الْقَرْنِ الْمَاضِي زَادُوا التَّفَرُّقَ تَفَرُّقًا بِاخْتِلَافِهِمْ فِي التَّحَالُفِ مَعَ الْقُوَّتَيْنِ الْعُظْمَيَيْنِ؛ فَدُوَلٌ مِنْهُمْ أَعْلَنَتْ وَلَاءَهَا لِلْمُعَسْكَرِ الْإِلْحَادِيِّ الشُّيُوعِيِّ الشَّرْقِيِّ، وَدُوَلٌ أُخْرَى انْضَمَّتْ إِلَى الْمُعَسْكَرِ الْإِلْحَادِيِّ اللِّيبْرَالِيِّ الْغَرْبِيِّ، وَاشْتَدَّتِ الْعَدَاوَاتُ بَيْنَهُمْ فِي سَبِيلِ تِلْكَ التَّحَالُفَاتِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي صَالِحِهِمْ، وَسُعِّرَتْ حُرُوبٌ فِي بُلْدَانِهِمْ تَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَتُدَمِّرُ عُمْرَانَهُمْ، وَتُهْلِكُ شُعُوبَهُمْ، لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ نَصْرٌ، وَهَزِيمَتُهَا عَلَيْهِمْ، فَنَصْرُهُمْ فِيهَا لِلدُّوَلِ الْعُظْمَى الَّتِي تُحَرِّكُهُمْ.

ثُمَّ لَمَّا اسْتَفَاقُوا بَعْدَ خَسَارَتِهِمُ الْعَدِيدَ مِنَ الْحُرُوبِ مَعَ الْيَهُودِ، وَانْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْبَارِدَةِ، وَبَدَلَ أَنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى رَابِطَةِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ تَجَرَّعُوا غُصَصَ التَّفَرُّقِ عُقُودًا مُتَتَابِعَةً؛ عَادُوا مَرَّةً أُخْرَى إِلَى تَفَرُّقٍ جَدِيدٍ بِاسْمِ الْوَطَنِيَّةِ وَالْقُطْرِيَّةِ، وَصَارَ دُعَاةُ الْقَوْمِيَّةِ بِالْأَمْسِ يَلْعَنُونَهَا الْيَوْمَ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ رِفَاقِ الْأَمْسِ، وَيَهْزَءُونَ بِشِعَارَاتِهِمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى الِانْكِفَاءِ عَلَى الْأَوْطَانِ، وَعَدَمِ الِاهْتِمَامِ بِالْآخَرِينَ مَهْمَا كَانَتْ حَاجَتُهُمْ إِلَيْنَا، وَلَوْ كَانُوا إِخْوَةً لَنَا.

وَفِي مَرَاحِلِ هَذَا التَّحَوُّلِ مِنَ الْأُمَّةِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي تَنْضَوِي تَحْتَ لِوَاءِ الْإِسْلَامِ إِلَى دُوَيْلَاتٍ وَجَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، بَيْنَهَا مِنَ التَّنَاحُرِ وَالْعَدَاوَاتِ أَشَدُّ مِمَّا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَعْدَائِهَا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، نَجِدُ أَنَّ الْقَضِيَّةَ الْمَرْكَزِيَّةَ وَهِيَ قَضِيَّةُ فِلَسْطِينَ انْتَقَلَتْ إِلَى مَرَاحِلِ التَّفَرُّقِ هَذِهِ، وَتَأَثَّرَتْ بِكُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْهَا؛ فَانْتَقَلَتْ فِي أَوَّلِ مَرْحَلَةٍ مِنْ كَوْنِهَا قَضِيَّةً إِسْلَامِيَّةً، جَاءَتْ نُصُوصٌ شَرْعِيَّةٌ فِي فَضْلِهَا وَفَضْلِ

مَسْجِدِهَا إِلَى قَضِيَّةٍ عَرَبِيَّةٍ لَا دَخْلَ لِغَيْرِ الْعَرَبِ فِيهَا؛ فَأُدْخِلَ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا مِنْ نَصَارَى الْعَرَبِ وَيَهُودِهِمْ وَمَلَاحِدَتِهِمْ، وَأُخْرِجَ الْمُسْلِمُونَ غَيْرُ الْعَرَبِ مِنْهَا، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الْعَرَبِ وَأَقْوَى، فَضَعُفَ حَظُّ الْعَرَبِ فِيهَا، وَلَمْ يَخْجَلُوا حِينَ أَخْرَجُوا أَعَاجِمَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا وَهُمْ يَقْرَأُونَ فِي التَّارِيخِ أَنَّ كُرْدِيًّا أَعَادَهَا إِلَيْهِمْ مِنْ بَرَاثِنِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَأَنَّ تُرْكِيًّا خَسِرَ سُلْطَانَهُ وَلَمْ يَتَنَازَلْ عَنْهَا، وَمُزِّقَتْ دَوْلَتُهُ بِسَبَبِهَا، ثُمَّ لمَّا انْفَرَدَ الْعَرَبُ بِقَضِيَّتِهِمْ أَضَاعُوهَا.

وَمَا مَضَتْ سَنَوَاتٌ قَلَائِلُ إِلَّا وَدَخَلَتِ الْقَضِيَّةُ الْمَرْحَلَةَ الثَّانِيَةَ مِنَ التَّفَرُّقِ، فَانْتَقَلَتْ مِنْ كَوْنِهَا قَضِيَّةً عَرَبِيَّةً تُهِمُّ كُلَّ عَرَبِيٍّ إِلَى قَضِيَّةٍ قُطْرِيَّةٍ وَطَنِيَّةٍ، شَأْنُهَا لِأَهْلِهَا وَلِلْمُجَاوِرِينَ لَهَا مِنْ دُوَلِ الطَّوْقِ، وَلَا عَلَاقَةَ لِبَقِيَّةِ الْعَرَبِ بِهَا.

ثُمَّ دَخَلَتِ الْقَضِيَّةُ مَرْحَلَةَ التَّفَرُّقِ الثَّالِثَةَ، فَأَضْحَتْ قَضِيَّةً فِلَسْطِينِيَّةً لَا شَأْنَ لِأَحَدٍ بِهَا إِلَّا أَهْلُهَا، وَانْفَرَدَتْ دُوَلُ الطَّوْقِ بِصُلْحٍ وَاتِّفَاقَاتٍ مَعَ الْعَدُوِّ الْغَاصِبِ؛ لِيَتْرُكُوا إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ وَالْعُرُوبَةِ يُوَاجِهُونَ عَدُوَّهُمْ وَحْدَهُمْ. وَلَرُبَّمَا أَعَانَ بَعْضُهُمُ الْيَهُودَ عَلَى إِخْوَانِهِمْ مِنْ بَابِ الْمَصْلَحَةِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي اسْتَقَرَّ الْعَرَبُ فِي آخِرِ تَفَرُّقٍ لَهُمْ عَلَيْهَا، مُلْغِينَ كُلَّ الرَّوَابِطِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِهِمْ.

بَلْ تَجْرِي مُحَاوَلَاتٌ حَثِيثَةٌ مِنَ الْيَهُودِ وَأَعْوَانِهِمْ لِمَشْرُوعِ تَفَرُّقٍ رَابِعٍ بَيْنَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَإِشْعَالِ الْحُرُوبِ وَالْفِتْنَةِ بَيْنَ فَصَائِلِهِمْ وَأَحْزَابِهِمْ؛ لِيُفْنِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَسْتَرِيحَ الْيَهُودُ مِنْ حَرْبِهِمْ مَعَهُمْ.

وَأَمْرَاضُ التَّفَرُّقِ الَّتِي أَصَابَتِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى حَلَّتِ الْأَثَرَةُ مَحَلَّ الْإِيثَارِ، وَسَادَ حُبُّ الذَّاتِ فِي النَّاسِ، وَاسْتَعْلَتِ الْمَصَالِحُ الشَّخْصِيَّةُ الْآنِيَةُ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ لَيْسَ أَهْلُ فِلَسْطِينَ بِمَنْأًى عَنْهَا؛ فَهِيَ أَوْبِئَةٌ انْتَشَرَتْ فِي الْمُسْلِمِينَ لَمَّا

اسْتَبْدَلُوا بِرَابِطَةِ الدِّينِ الَّتِي جَمَعَتْهُمْ وَقَوَّتْهُمُ الرَّوَابِطَ الْجَاهِلِيَّةَ الَّتِي فَرَّقَتْهُمْ وَأَضْعَفَتْهُمْ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ الصَّهَايِنَةَ وَالصَّلِيبِيِّينَ لَمْ يُرْضِهِمْ بَعْدُ مَا فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ، وَيُرِيدُونَ تَقْسِيمَ الْمُقَسَّمِ، وَتَجْزِئَةَ الْمُجَزَّإِ، بِإِثَارَةِ النُّعَرَاتِ الْعِرْقِيَّةِ وَالطَّائِفِيَّةِ فِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ لِيُقَسِّمُوهَا إِلَى دُوَيْلَاتٍ أُخْرَى، وَيُعْلِنُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَلَإِ، وَيَنْشُرُونَهُ فِي وَسَائِلِ إِعْلَامِهِمْ، وَمَا حَرَّكَ ذَلِكَ سَاكِنًا فِي الْمُسْلِمِينَ، وَلَا دَفَعَهُمْ لِلْإِحْسَاسِ بِالْخَطَرِ عَلَى دُوَلِهِمْ، وَمُحَاوَلَةِ جَمْعِ أَمْرِهِمْ، وَتَوْحِيدِ صَفِّهِمْ، وَمُقَاوَمَةِ تِلْكَ الْمَشَارِيعِ التَّوَسُّعِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ.

وَفِي ذَاتِ الْوَقْتِ نَرَى الصَّهَايِنَةَ يَجْمَعُونَ فِي فِلَسْطِينَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ أَبْنَاءِ الْيَهُودِ عَلَى اخْتِلَافِ بُلْدَانِهِمْ وَأَعْرَاقِهِمْ وَلُغَاتِهِمْ، فَفِيهِمْ مَنْ أَتَوْا بِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِ الْبُورْصَاتِ الْعَالَمِيَّةِ فِي الدُّوَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَفِيهِمْ مَنْ أَتَوْا بِهِمْ مِنْ جِبَالِ الْيَمَنِ وَأَدْغَالِ أَفْرِيقِيَّةَ، وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ هَذَا التَّبَايُنُ بَيْنَهُمْ مِنْ أَنْ تَجْمَعَهُمُ الرَّابِطَةُ الْيَهُودِيَّةُ، حَتَّى جَمَعُوهُمْ فِي دَوْلَتِهِمُ النَّشَازِ مِمَّا يَزِيدُ عَلَى سِتِّينَ دَوْلَةً فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ.

فَوَاعَجَبًا لِأَهْلِ الْحَقِّ وَهُمْ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى حَقِّهِمْ، وَوَاعَجَبًا لِأَهْلِ الْبَاطِلِ وَقَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى الْمُشْتَكَى مِنْ أَهْلِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَقَدْ صَارُوا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَهْلَ عِزَّةٍ وَقُوَّةٍ! وَمِنْ أَهْلِ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ وَقَدْ فَرَّطُوا فِي أَسْبَابِ عِزَّتِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المَائِدَة: ٥٤-٥٦].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ نَاصِرِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُذِلِّ أَعْدَائِهِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ مَا فِي الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَدْوَاءِ التَّفَرُّقِ وَالضَّعْفِ وَالْهَوَانِ لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِنَصْرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَنَصْرُهُ سُبْحَانَهُ لَا يُنَالُ إِلَّا بِتَقْوَاهُ وَطَاعَتِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: يَنْطَلِقُ الْيَهُودُ فِي مَذَابِحِهِمْ ضِدَّ أَهْلِ فِلَسْطِينَ مِنْ مُنْطَلَقَاتٍ دِينِيَّةٍ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ظُلْمِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَلَا يَرَى الْيَهُودُ فَرْقًا بَيْنَ الْمُقَاتِلِينَ وَغَيْرِ الْمُقَاتِلِينَ، وَلَا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ؛ فَالْجَمِيعُ هَدَفٌ لِمَذَابِحِهِمُ التَّوْرَاتِيَّةِ التَّلْمُودِيَّةِ، بَلْ إِنَّ فِي عَقَائِدِهِمُ الْمُحَرَّفَةِ أَنَّهُمْ إِذَا سَيْطَرُوا عَلَى الْأَرْضِ أَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ، وَأَبَادُوا النَّصَارَى مَعَهُمْ، وَأَبَادُوا كُلَّ مَنْ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ مُقَرَّرَةٌ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي

يَتَعَبَّدُونَ بِهَا، وَيَصْدُرُونَ عَنْهَا، وَتَرْسُمُ سِيَاسَتَهُمْ مَعَ الْآخَرِينَ وَيُعْلِنُ بِهَا حَاخَامَاتُهُمْ عَلَى الْمَلَإِ دُونَ خَوْفٍ وَلَا وَجَلٍ، يَقُولُ الْحَاخَامُ أَبْرَاهَامُ شَابِير فِي رِسَالَةٍ وَجَّهَهَا لِلشَّبِيبَةِ الْيَهُودِ: «نُرِيدُ شَبَابًا يَهُودِيًّا قَوِيًّا أَوْ شَدِيدًا، نُرِيدُ شَبَابًا يَهُودِيًّا يُدْرِكُ أَنَّ رِسَالَتَهُ الْوَحِيدَةَ هِيَ تَطْهِيرُ الْأَرْضِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ مُنَازَعَتَنَا فِي أَرْضِ الْمِيعَادِ، يَجِبُ أَنْ تُثْبِتُوا لَهُمْ أَنَّكُمْ قَادِرُونَ عَلَى اجْتِثَاثِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ، يَجِبُ أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ كَمَا يَتِمُّ التَّخَلُّصُ مِنَ الْمِيكْرُوبَاتِ وَالْجَرَاثِيمِ»(٩).

وَيُصَرِّحُونَ بِأَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ وَالْتِزَامَ تَعَالِيمِهِ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَالْعَمَلَ بِهِ هُوَ الْعَقَبَةُ الْكَأْدَاءُ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَشَارِيعِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ الْإِجْرَامِيَّةِ، يَقُولُ الْحَاخَامُ الشَّرْقِيُّ الْأَكْبَرُ لِإِسْرَائِيلَ مُرْدَخَايُ إِلْيَاهُو: «لَنَا أَعْدَاءٌ كَثِيرُونَ، وَهُنَاكَ مَنْ يَتَرَبَّصُ بِنَا وَيَنْتَظِرُ الْفُرْصَةَ لِلِانْقِضَاضِ عَلَيْنَا، وَهَؤُلَاءِ بِإِمْكَانِنَا عَبْرَ الْإِجْرَاءَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ أَنْ نُوَاجِهَهُمْ، لَكِنْ مَا لَا نَسْتَطِيعُ مُوَاجَهَتَهُ هُوَ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي يُسَمُّونَهُ (قُرْآنًا) هَذَا عَدُوُّنَا الْأَوْحَدُ، هَذَا الْعَدُوُّ لَا تَسْتَطِيعُ وَسَائِلُنَا الْعَسْكَرِيَّةُ مُوَاجَهَتَهُ»(١٠).

وَيَقُولُ الْحَاخَامُ إِسْحَاقُ بِيرِيتِسْ: «إِذَا اسْتَمَرَّ ارْتِفَاعُ الْأَذَانِ الَّذِي يَدْعُو الْمُسْلِمِينَ لِلصَّلَاةِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ فِي الْقَاهِرَةِ وَعَمَّانَ وَالرِّبَاطِ فَلَا تَتَحَدَّثُوا عَنِ السَّلَامِ»(١١).

إِذَنْ؛ فَالْمُرَادُ هُوَ إِبْعَادُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كِتَابِ رَبِّهِمْ مَصْدَرِ قُوَّتِهِمْ وَعِزَّتِهِمْ،

(٩) نقلًا عن مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية على الشبكة العنكبوتية.

(١٠) المصدر السابق، وفيه أن هذا الحاخام خاطب به مجموعة من الشبان الذين يلتحقون بالجيش اليهودي.

(١١) المصدر السابق، وهذا الحاخام قال ذلك في خطبة أمام مجندين يهود.

وَسَلْخُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ حَتَّى لَا يُنَادَى بِالْأَذَانِ فِيهِمْ، هَذَا مَا يُرِيدُهُ الْيَهُودُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ مِنْ نُصُوصِهِمْ، وَهَذَا مَا يَقُومُ بِهِ وُكَلَاءُ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَجْفِيفِ مَنَابِعِ التَّدَيُّنِ، وَمُحَارَبَةِ الدَّعْوَةِ، وَحَلَقَاتِ تَحْفِيظِ الْقُرْآنِ، وَالسَّعْيِ لِلْقَضَاءِ عَلَى الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاسْمِ مُحَارَبَةِ التَّطَرُّفِ وَالْإِرْهَابِ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَوُكَلَائِهِمْ.

وَالْعَجِيبُ أَنَّ مِنْ أَدَبِيَّاتِ الْيَهُودِ، وَمُقْتَضَيَاتِ عَقَائِدِهِمْ: عَدَمَ التَّوَرُّعِ عَنْ قَتْلِ وُكَلَائِهِمْ، وَالنَّاشِرِينَ لِمَشْرُوعَاتِهِمْ، وَالمُسَوِّقِينَ لِمَبَادِئِهِمْ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ أَهْدَافِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَحْتَقِرُونَ عِرْقَهُمْ وَجِنْسَهُمْ، وَلَوْ كَانُوا ذَوِي خِدْمَةٍ لَهُمْ، وَفِي حَرْبِ ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِينَ وُزِّعَ عَلَى قُوَّاتِهِمُ الَّتِي تَخُوضُ الْحَرْبَ كِتَابًا يَتَضَمَّنُ تَعْلِيمَاتٍ لِجُنْدِهِمْ قَالُوا فِيهِ: «يَنْبَغِي عَدَمُ الثِّقَةِ بِالْعَرَبِيِّ فِي أَيِّ ظَرْفٍ مِنَ الظُّرُوفِ، حَتَّى وَإِنْ أَعْطَى انْطِبَاعًا بِأَنَّهُ مُتَمَدِّنٌ، فَفِي الْحَرْبِ يُسْمَحُ لِقُوَّاتِنَا وَهِيَ تُهَاجِمُ الْعَدُوَّ، بَلْ إِنَّهَا مَأْمُورَةٌ بِقَتْلِ حَتَّى المَدَنِيِّينَ الطَّيِّبِينَ؛ أَيِ: المَدَنِيِّينَ الَّذِينَ يَبْدُونَ طَيِّبِينَ فِي الظَّاهِرِ»[١٢].

تِلْكَ عَقَائِدُهُمُ الَّتِي يَنْطَلِقُونَ مِنْهَا فِي قَتْلِ إِخْوَانِنَا فِي فِلَسْطِينَ، وَقَدْ سَمِعْتُمْ وَرَأَيْتُمُ المَذَابِحَ الَّتِي قَامُوا بِهَا هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا فِيهَا بَيْنَ طِفْلٍ وَلَا امْرَأَةٍ وَلَا شَيْخٍ مُسِنٍّ، وَقَدْ عَجَزَ الْعَرَبُ عَنْ فِعْلِ شَيْءٍ كَمَا يَعْجَزُونَ فِي كُلِّ مَرَّةٍ[١٣].

إِنَّهُ لَا مَخْرَجَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الضَّعْفِ وَالْهَوَانِ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَى أَسْبَابِ تَفَرُّقِهِمْ، وَلَنْ يَجْمَعَهُمْ إِلَّا دِينُ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا لَمْ يَجْتَمِعِ

---

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) هذا إشارة إلى المجازر التي ارتكبها اليهود في حق إخواننا في بيت حانون وما حولها، ولا يزال اليهود يحاصرونهم إلى ساعة كتابة هذه الخطبة، فرَّجَ الله تعالى عن إخواننا ونصرهم على إخوان القردة والخنازير.

الْعَرَبُ فِي تَارِيخِهِمْ، وَلَمْ يَنَالُوا الْعِزَّةَ وَالسِّيَادَةَ إِلَّا بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَانْضِوَاءِ الْعَرَبِ تَحْتَ لِوَاءِ الْإِسْلَامِ، وَلَنْ يَتِمَّ لِلْمُسْلِمِينَ اجْتِمَاعٌ وَتَتَّحِدَ كَلِمَتُهُمْ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ.

يَجِبُ عَلَى أَهْلِ السِّيَاسَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَطَايَاهُمُ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يَبْنُونَ بِهَا الْعَلَاقَاتِ عَلَى الْمَذَاهِبِ الْبُرْجُمَاتِيَّةِ النَّفْعِيَّةِ بَعِيدًا عَنِ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ وَالْمَبَادِئِ وَالْقِيَمِ.

كَمَا يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الِاقْتِصَادِ أَنْ يَتُوبُوا مِنْ خَطَايَا الرِّبَا وَالْغِشِّ وَالِاحْتِكَارِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمُعَامَلَاتِ الْمُحَرَّمَةِ.

وَيَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِعْلَامِ أَنْ يَتُوبُوا مِنْ خَطَايَا تَزْوِيرِ الْحَقَائِقِ، وَالْكَذِبِ عَلَى النَّاسِ، وَالِاسْتِمَاتَةِ فِي صَرْفِهِمْ عَنْ دِينِهِمْ بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَإِفْسَادِهِمْ بِأَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ.

وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ عَاصٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتُوبَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ؛ طَلَبًا لِنَصْرِ رَبِّهِ، وَجَلْبًا لِعِزَّةِ أُمَّتِهِ، وَلْيَشْعُرْ أَنَّ ذَنْبَهُ كَانَ سَبَبًا فِي تَسَلُّطِ الْيَهُودِ عَلَى إِخْوَانِهِ فِي فِلَسْطِينَ، وَهُوَ سَبَبٌ لِتَسَلُّطِ الْأَعْدَاءِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ فَإِنْ أَحَسَّ كُلُّ مُسْلِمٍ بِهَذَا الْإِحْسَاسِ، وَسَيْطَرَ عَلَيْهِ هَذَا الشُّعُورُ، نَجَوْا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَبِعَةِ الذُّنُوبِ، وَمِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَتَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٢٦].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم . . .

❀ ❀ ❀

٣٧٧- علاقة النصارى بالمسلمين

٢٩/ ٨/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ أَنَارَ الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ، وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى الْعَالَمِينَ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، فَهُوَ خَالِقُنَا وَرَازِقُنَا، وَهُوَ رَبُّنَا وَمَعْبُودُنَا، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ وَفَّقَ لِلْهُدَى مَنْ شَاءَ لَهُ السَّعَادَةَ، وَضَلَّ عَنْ دِينِهِ مَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةُ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الْأَعْرَاف: ٣٠]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ النُّبُوَّةَ وَالرِّسَالَةَ، وَأَوْجَبَ عَلَى مَنْ أَدْرَكَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ تَصْدِيقَهُ وَاتِّبَاعَهُ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٨١].

صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ إِلَى الْمَمَاتِ، فَتِلْكَ وَصِيَّةُ آبَائِكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ إِلَيْكُمْ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: بَعَثَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عليه السلام إِلَى أُمَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُصَدِّقًا لِدِينِ مُوسَى عليه السلام، وَمُبَشِّرًا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَانْقَسَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ حِيَالَ دَعْوَتِهِ عليه السلام إِلَى فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٍ آمَنَ بِهِ وَهُمُ النَّصَارَى، وَفَرِيقٍ كَفَرَ بِهِ وَهُمُ الْيَهُودُ

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ﴾ [الصَّف: ١٤].

ثُمَّ إِنَّ الْكُفَّارَ بِدِينِ عِيسَى عليه السلام أَوْغَلُوا صَدْرَ الْحَاكِمِ الرُّومَانِيِّ عَلَيْهِ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ يُنَازِعُهُ الْمُلْكَ، فَصَدَرَ حُكْمُ مَلِكِ الرُّومَانِ فِي فِلَسْطِينَ بِقَتْلِهِ عليه السلام، فَاخْتَفَى هُوَ وَأَتْبَاعُهُ مِنْ جُنْدِ الرُّومَانِ، وَوَشَى بِهِ أَحَدُ أَصْحَابِهِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَكَانِهِ، فَأَلْقَى اللهُ تَعَالَى شِبْهَ عِيسَى عليه السلام عَلَى هَذَا الْوَاشِي فَقُتِلَ وَصُلِبَ، وَرَفَعَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى إِلَيْهِ، وَاشْتَدَّ الْأَذَى عَلَى أَتْبَاعِهِ رضي الله عنهم فَطُورِدُوا وَعُذِّبُوا وَسُجِنُوا، وَقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ، وَظَلَّ الْبَاقُونَ عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ عِيسَى عليه السلام.

ثُمَّ إِنَّ أَحَدَ الْيَهُودِ الَّذِينَ بَالَغُوا فِي تَكْذِيبِ عِيسَى عليه السلام، وَتَلَطَّخَتْ يَدَاهُ بِتَعْذِيبِ أَتْبَاعِهِ زَعَمَ أَنَّهُ رَأَى عِيسَى عليه السلام، وَأَظْهَرَ الْإِيمَانَ بِهِ، وَتَظَاهَرَ بِنَدَمِهِ عَلَى مَا فَعَلَ بِأَتْبَاعِهِ، فَلَمَّا تَمَكَّنَ عِنْدَ النَّصَارَى، وَعَلَا شَأْنُهُ، أَدْخَلَ كَثِيرًا مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ وَالْيَهُودِيَّةِ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، وَدَعَا إِلَى عَقِيدَةِ الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بِزَعْمِ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلَالُهُ حَلَّ فِي المَسِيحِ عليه السلام، ثُمَّ قَالَ بِالتَّثْلِيثِ، وَبِعِبَادَةِ الصَّلِيبِ، فَحَرَّفَ هَذَا الْيَهُودِيُّ النَّصْرَانِيَّةَ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ، وَقَاوَمَ أَفْكَارَهُ بَعْضُ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّصَارَى، لَكِنْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ تَمَكَّنَتِ الْوَثَنِيَّةُ مِنْ دِينِ النَّصَارَى الَّتِي تَوَلَّى كِبَرَ إِحْدَاثِهَا وَنَشْرِهَا الْيَهُودِيُّ بُولَسُ الَّذِي يُسَمَّى فِي الْكُتُبِ الْيَهُودِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ شَاؤُولَ[1].

(١) ينظر في تخريب بولس (شاؤول اليهودي) عقائد النصرانية وإدخال الشرك والتثليث فيها، وإباحة الخمر والخنزير، ومنع الختان وغير ذلك من تبديل الشرائع:
١- الجواب الصحيح لابن تيمية.
٢- اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية، إيليا أبو الروس، منشورات دار الاتحاد، بيروت.
=

وَلأَنَّ عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الْعَقَائِدِ الْوَثَنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ المَبْنِيَّةِ عَلَى تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وَهِيَ عَقِيدَةٌ تَتَعَارَضُ مَعَ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ؛ فَإِنَّ النَّصَارَى اخْتَلَفُوا اخْتِلَافًا كَبِيرًا فِيهَا، وَجَمَعُوا فِيهَا بَيْنَ نَقِيضَيْنِ فَقَالُوا: تَثْلِيثٌ فِي وَحْدَانِيَّةٍ أَوْ وَحْدَانِيَّةٌ فِي تَثْلِيثٍ، وَلِذَا قِيلَ: لَا يَسْتَطِيعُ نَصْرَانِيَّانِ أَنْ يَتَّفِقَا عَلَى مَعْنًى مُحَدَّدٍ لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ لَا يَخْتَلِفَانِ فِيهِ.

وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ زَعْمَ بَابَا الْفَاتِيكَانِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

= ٣- محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.
٤- بولس وتأثيره في المسيحية، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير غير منشور، وهيب أحمد البكري، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.
٥- النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد أحمد الحاج، دمشق، دار القلم.
٦- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزت دروزة، القاهرة، المكتبة العصرية.
٧- انزعوا قناع بولس عن وجه المسيح، أحمد زكي، الرياض، مكتبة الشقري.
٨- المسيحية،أحمد شلبي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
٩- موقف بولس من تعاليم عيسى عليه السلام، عماد الدين عبد الله الشنطي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن.
١٠- اليهودي شاوول (بولس) الطرسوسي وأثره في العقائد الوثنية النصرانية، محمد أحمد ملكاوي، الرياض، دار الإسراء.
١١- أثر اليهودية في تحريف الفكر الديني، بولس وعبد الله بن سبأ أنموذجًا، هاني علي البلوي، رسالة ماجستير في العقيدة غير منشورة، الجامعة الأردنية.
١٢- المسيحية دين الله الذي أنزله على المسيح أم هي ديانة بولس، نبيل نيقولا، وهو كان نصرانيًّا واهتدى للإسلام، ط٢٠٠٧، بدون بيانات طبع.
١٣- بولس وتحريف المسيحية، هيم ماكبي، ترجمة: سميرة عزمي الزين، المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.
١٤- نصرانية عيسى ومسيحية بولس، صلاح العجماوي، طبع في مصر لحساب المؤلف ١٤٠٩هـ.

مُنْقَطِعَةٌ عَنِ الْعَقْلِ[٢] إِنَّمَا هُوَ فِي وَاقِعِ الْأَمْرِ وَصْفٌ لِعَقِيدَتِهِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْتَنِقُهَا، وَيَضْحَكُ هُوَ وَرُهْبَانُهُ بِهَا عَلَى الشُّعُوبِ النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي أَضَلُّوهَا، وَإِلَّا فَأَيُّ عَقْلٍ فِي زَعْمِهِمْ بِحُلُولِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عِيسَى عليه السلام، ثُمَّ قَوْلِهِمْ بِبُنُوَّتِهِ لَهُ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ ﷻ لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ؟!

وَأَيُّ عَقْلٍ وَمَنْطِقٍ فِي عَقِيدَةٍ تَجْعَلُ الْإِلَهَ ثَلَاثَةً: الْأَبَ وَالِابْنَ وَرُوحَ الْقُدُسِ، فَمَنْ يَعْبُدُونَ وَمَنْ يَدْعُونَ، وَعِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلَى أَيِّ الثَّلَاثَةِ يَلْجَأُونَ؟!

وَأَيُّ عَقْلٍ وَمَنْطِقٍ فِي الْخَلْطِ بَيْنَ اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، ثُمَّ عَدَمِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا، بَلْ وَالْعَجْزِ عَنْ إِفْهَامِ أَتْبَاعِهِمْ مَبَادِئَ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي تَجْمَعُ النَّقَائِضَ؛ وَلِذَا فَإِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِمَّا يُنْفِقُهُ الْمُنَصِّرُونَ مِنْ أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَمَا يَبْذُلُونَهُ مِنْ جُهُودٍ جَبَّارَةٍ فِي سَبِيلِ إِقْنَاعِ النَّاسِ بِعَقِيدَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِقْنَاعَهُمْ بِهَا، وَجُلُّ الَّذِينَ تَنَصَّرُوا إِنَّمَا فَعَلُوا ذَلِكَ جَرْيًا خَلْفَ مَنَافِعَ مَادِّيَّةٍ، وَلَيْسَ قَنَاعَةً بِدِينِ الضَّالِّينَ مِنَ النَّصَارَى.

ثُمَّ إِنَّ النَّصَارَى بَعْدَ هَذَا الضَّلَالِ الَّذِي أُدْخِلَ فِي عَقِيدَتِهِمُ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ مَا فِي عِيسَى عليه السلام مِنَ الْإِلَهِيَّةِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ، وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِالْخِلَافِ عَلَى اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، فَانْقَسَمَ النَّصَارَى بِسَبَبِهِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ: الْكَاثُولِيكِ وَالْأَرْثُذُوكْسِ، فَكَانَ الْكَاثُولِيكُ هُمْ نَصَارَى الْغَرْبِ وَعَاصِمَتُهُمْ رُومِيَّةُ، وَكَانَ الْأَرْثُذُوكْسُ هُمْ نَصَارَى الشَّرْقِ وَعَاصِمَتُهُمُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ.

وَلَمَّا أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرِيَّةَ بِبَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيِّ ﷺ

---

(٢) ألقى بابا الفاتيكان بنديكت السادس محاضرة في جامعة ريتسبون الألمانية ادعى فيها أن المشيئة في الإسلام منقطعة عن العقل، وأن إرادة الله تعالى لا تخضع لمحاكمة العقل أو المنطق، واتهم النبي ﷺ بأنه لم يأت إلا بأشياء شريرة، وانتقد الجهاد في الإسلام.

انْقَسَمَ النَّصَارَى تِجَاهَ دَعْوَتِهِ إِلَى طَائِفَتَيْنِ: فَطَائِفَةٌ آمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ، وَعَرَفُوا أَنَّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، قَدْ بَشَّرَتْ بِهِ كُتُبُهُمْ، وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ: صُهَيْبٌ الرُّومِيُّ، وَتَمِيمٌ الدَّارِيُّ، وَالنَّجَاشِيُّ الْحَبَشِيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَفِيهِمْ وَأَمْثَالُهُمْ مِمَّنْ آمَنُوا بِنَبِيِّهِمْ ثُمَّ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ لمَّا بُعِثَ نَزَلَتْ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَمْدَحُهُمْ، وَتُثْنِي عَلَيْهِمْ، وَتُبَيِّنُ عَظِيمَ ثَوَابِهِمْ ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ . .**»، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «**وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٣].

وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى مِنَ النَّصَارَى لَمْ يُؤْمِنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُمْ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ خَضَعُوا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْقِتَالِ، وَصَالَحُوا النَّبِيَّ ﷺ، وَدَفَعُوا الْجِزْيَةَ، فَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَمِنْ هَذَا الْفَرِيقِ: نَصَارَى نَجْرَانَ، وَنَصَارَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ.

وَفَرِيقٌ آخَرُ لَمْ يَخْضَعُوا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ، وَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ، وَهَؤُلَاءِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ لِقِتَالِهِمْ، وَأَرْسَلَ السَّرَايَا إِلَيْهِمْ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ: نَصَارَى مُؤْتَةَ، وَنَصَارَى تَبُوكَ.

وَأَوَّلُ مُوَاجَهَةٍ قِتَالِيَّةٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى كَانَتْ فِي مُؤْتَةَ، ثُمَّ عَزَمَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُوَاجَهَتِهِمْ فِي تَبُوكَ، لَكِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْ قِتَالًا، ثُمَّ بَعْدَ وَفَاةِ

---

(٣) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: البخاري في الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتاب (٢٨٤٩)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ جميع الملل بملته (١٥٤).

النَّبِيِّ ﷺ سَارَتِ الْجُيُوشُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ، فَفَتَحَتْ كَثِيرًا مِنْ بِلَادِ النَّصَارَى، وَأَخْضَعَتْهَا لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ، وَرَفَعَتْ عَنْ أَهْلِهَا عَسْفَ الرُّهْبَانِ، وَتَسَلُّطَ الْقَيَاصِرَةِ، وَاعْتَرَفَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ النَّصَارَى بِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أَرْحَمَ بِهِمْ مِنْ سَاسَتِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ، وَأَنَّ أَكْثَرَ الشُّعُوبِ النَّصْرَانِيَّةِ إِنَّمَا دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ طَوَاعِيَةً لِمَا رَأَوْهُ مِنْ عَدْلِ الْمُسْلِمِينَ مَعَهُمْ، وَرَحْمَتِهِمْ بِهِمْ. يَقُولُ الْمُؤَرِّخُ النَّصْرَانِيُّ جُوسْتَافْ لِبُونْ: وَمَا كَانَتِ انْتِصَارَاتُ الْعَرَبِ لِتُعْمِيَ أَبْصَارَهُمْ لِأَوَّلِ أَمْرِهِمْ، وَتَحْمِلَهُمْ عَلَى الْإِفْرَاطِ الْمَأْلُوفِ عِنْدَ الْفَاتِحِينَ فِي الْعَادَةِ، وَلَا اشْتَدُّوا فِي إِرْهَاقِ الْمَغْلُوبِينَ عَلَى أَمْرِهِمْ، وَلَا فَرَضُوا عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ دِينَهُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي كَانُوا يُرِيدُونَ بَثَّهُ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ، وَلَوْ عَمِلُوا ذَلِكَ لَأَهَاجُوا عَلَيْهِمْ جَمِيعَ الشُّعُوبِ الَّتِي لَمْ تَخْضَعْ لَهُمْ، فَاتَّقَوْا حَقَّ التُّقَاةِ هَذِهِ التَّهْلُكَةَ الَّتِي لَمْ يَنْجُ مِنْهَا الصَّلِيبِيُّونَ الَّذِينَ دَخَلُوا الشَّامَ فِي الْقُرُونِ اللَّاحِقَةِ، بَلْ رَأَيْنَاهُمْ حَيْثُ دَخَلُوا فِي الشَّامِ وَمِصْرَ وَأَسْبَانْيَا يُعَامِلُونَ الشُّعُوبَ بِمُنْتَهَى الرِّفْقِ، تَارِكِينَ لَهُمْ أَنْظِمَتَهُمْ وَأَوْضَاعَهُمْ وَمُعْتَقَدَاتِهِمْ، غَيْرَ ضَارِبِينَ عَلَيْهِمْ فِي مُقَابِلِ السَّلَامِ الَّذِي ضَمِنُوهُ هُمْ إِلَّا جِزْيَةً ضَئِيلَةً كَانَتْ عَلَى الْأَغْلَبِ أَقَلَّ مِنَ الضَّرَائِبِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا مِنْ قَبْلُ، وَمَا عَرَفَتِ الشُّعُوبُ فَاتِحًا بَلَغَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْمُسَامَحَةِ، وَلَا دِينًا حَوَى فِي مَطَاوِيهِ هَذِهِ الرِّقَّةَ وَاللُّطْفَ[٤].

وَمِنْ هُنَا نَعْرِفُ أَنَّ وَصْفَ الْبَابَا الضَّالِّ لِلْإِسْلَامِ بِالدَّمَوِيَّةِ، وَبِأَنَّهُ إِنَّمَا انْتَشَرَ بِحَدِّ السَّيْفِ[٥] هُوَ مِنَ الْكَذِبِ الْمَكْشُوفِ الَّذِي يُحَاوِلُ فِيهِ أَئِمَّةُ النَّصَارَى

(٤) الإسلام والحضارة العربية، لمحمد كرد علي (١/ ١٤٤).

(٥) استشهد البابا بحوار بين إمبراطور بيزنطة ومثقف فارسي، فقال الإمبراطور: أرني ما الجديد الذي جاء به محمد، لن تجد فيه إلا أشياء شريرة وغير إنسانية، مثل أمره بنشر الدين الذي يبشر به بحد السيف.
=

الْمُحَرِّفُونَ صَرْفَ النَّاسِ عَنِ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَتِلْكَ الْأَوْصَافُ الَّتِي أَطْلَقَهَا إِنَّمَا هِيَ أَوْصَافُ دِينِهِ الْمُحَرَّفِ، وَأَوْصَافُ حَمَلَتِهِ الَّذِينَ يُضِلُّونَ النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

إِنَّ الْأُمَّةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ الَّتِي يَتَزَعَّمُ دِينَهَا الْمُحَرَّفَ بَابَاهُمُ الْمُنْحَرِفُ هِيَ أَسْوَأُ أُمَمِ النَّصَارَى، وَأَكْثَرُهَا دَمَوِيَّةً فِي التَّارِيخِ، بَلْ لَا يُبَالِغُ مَنْ يَقُولُ: لَمْ يَمُرَّ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ أُمَّةٌ سَفَكَتْ مِنَ الدِّمَاءِ، وَمَزَّقَتْ مِنَ الْأَشْلَاءِ أَكْثَرَ مِنَ الْكَاثُولِيكِ، وَرَغْمَ فَدَاحَةِ مَا عَمِلَهُ التَّتَارُ الْهَمَجِيُّونَ بِالْمُسْلِمِينَ إِبَّانَ إِسْقَاطِهِمُ الْخِلَافَةَ الْعَبَّاسِيَّةَ فَإِنَّ مَا فَعَلَهُ الْكَاثُولِيكُ بِالْمُسْلِمِينَ فِي الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ وَفِي إِسْقَاطِ الْأَنْدَلُسِ كَانَ أَشَدَّ وَأَنْكَى مِمَّا فَعَلَهُ الْمَغُولُ فِي بَغْدَادَ، وَلَسْتُ أَعْلَمُ أُمَّةً عَانَى الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا الْوَيْلَاتِ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ كَمَا عَانَوْا مِنَ الْيَهُودِ وَالْكَاثُولِيكِ.

وَفِي أُخْرَيَاتِ شَهْرِ شَعْبَانَ مِنْ عَامِ اثْنَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ دَخَلَتْ جَحَافِلُ الصَّلِيبِيِّينَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى فَفَعَلُوا بِالْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَأَنْقُلُ لَكُمْ شَهَادَةَ مُؤَرِّخَيْنِ صَلِيبِيَّيْنِ حَضَرَا تِلْكَ النَّازِلَةَ، وَسَجَّلَا مَا شَاهَدَا بِكُلِّ فَخْرٍ وَاعْتِزَازٍ، يَقُولُ الْمُؤَرِّخُ الصَّلِيبِيُّ فُوشِيه الشَّارْتَرِيُّ: «وَلَوْ أَنَّكَ كُنْتَ مَوْجُودًا هُنَاكَ لَغَاصَتْ قَدَمَاكَ حَتَّى الْعَقِبَيْنِ فِي دِمَاءِ الْمَذْبُوحِينَ، تُرَى مَاذَا أَقُولُ؟ لَمْ نَتْرُكْ مِنْهُمْ أَحَدًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ، وَلَمْ يَنْجُ حَتَّى

= والحق أن الإسلام انتشر بالدعوة والمعاملة الحسنة، وأن السيف كان لإخضاع الدول للانصياع لحكم المسلمين لا لإجبار الأفراد على الدخول في الإسلام، ولذا عاش أهل العهد والذمة في الإسلام آمنين وهم باقون على أديانهم. ولا تثريب على الإسلام في إخضاع الدول لسلطانه؛ وذلك لأن كل الدول المنتصرة تخضع الدول المهزومة لسلطانها، فكيف إذا كان الإسلام أعدل من حكومات الدول الساقطة تحت حكمه من ملوكها ورهبانها في حكم رعاياهم.

النِّسَاءُ وَالْأَطْفَالُ . . . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْقُرُونَ بُطُونَ الْمُسْلِمِينَ بَحْثًا عَنْ ذَهَبٍ فِيهَا، وَأَنَّهُمْ جَمَعُوا فِي أَزِقَّةِ بَيْتِ المَقْدِسِ أَكْوَامًا مِنْ جُثَثِ المُسْلِمِينَ وَأَحْرَقُوهَا»[٦].

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الصَّلِيبِيُّ رِيمُون الْأَجْوِيلَرِيُّ بِأَنَّ جُنُودَهُمْ كَانُوا يُعَذِّبُونَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يَقْذِفُونَهُمْ فِي النَّارِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، يَقُولُ: «وَكَانَتْ أَكْوَامُ الرُّؤُوسِ وَالْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ تَسْتَرْعِي النَّظَرَ فِي شَوَارِعِ المَدِينَةِ، وَكَانَ المَرْءُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِصُعُوبَةٍ بَيْنَ جُثَثِ الرِّجَالِ وَالْخُيُولِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ كَانَتْ أُمُورًا صَغِيرَةً إِذَا قُورِنَتْ بِمَا جَرَى فِي مَعْبَدِ سُلَيْمَانَ، تَرَى مَا الَّذِي حَدَثَ هُنَاكَ؟ إِذَا ذُكِرَتِ الْحَقِيقَةُ فَإِنَّهَا سَتَتَعَدَّى قُدْرَتَكُمْ عَلَى التَّصْدِيقِ، وَلِذَا يَكْفِي أَنْ أَقُولَ: إِنَّهُ فِي مَعْبَدِ سُلَيْمَانَ كَانَ الرِّجَالُ يَخُوضُونَ فِي الدِّمَاءِ حَتَّى رُكَبِهِمْ وَحِزَامِ رِكَابِهِمْ»[٧].

وَذَكَرَ الْمُؤَرِّخُ الْغَرْبِيُّ دِيُورَانْتُ «أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يُقْتَلْنَ طَعْنًا بِالسُّيُوفِ وَالْحِرَابِ، وَالْأَطْفَالُ الرُّضَّعُ يُخْتَطَفُونَ بِأَرْجُلِهِمْ مِنْ أَثْدَاءِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُقْذَفُ بِهِمْ مِنْ فَوْقِ الْأَسْوَارِ، أَوْ تُهَشَّمُ رُؤُوسُهُمْ بِدَقِّهَا بِالْعُمُدِ»[٨].

وَفِي مُقَابِلِ هَذِهِ الصُّورَةِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا الْكَاثُولِيكُ فَإِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا افْتَتَحَ بَيْتَ المَقْدِسِ عَفَا عَنِ الصَّلِيبِيِّينَ، وَسَمَحَ لَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا بِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ آمِنِينَ لَا يَمَسُّهُمْ أَحَدٌ بِسُوءٍ[٩]، فَهَلْ كَانَتِ

---

(٦) أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس فوشيه الشارتري (١١٥- ١٢٨)، والحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية، قاسم عبده قاسم (٢٥٤-٢٥٥).

(٧) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ريمون الأجويلري، ترجمة: جوزيف نسيم يوسف (٢٤٦-٢٤٧)، والحملة الصليبية الأولى، نصوص ووثائق (٢٦٧-٢٦٩) وللمزيد من النقول في ذلك تراجع خطبة: مذابح الصليبيين في القدس مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٦).

(٨) قصة الحضارة (١٥/ ٢٥).

(٩) ينظر خطبتي: سلب الأقصى واسترداده مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٥)، ومعركة حطين مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٧).

الدَّمَوِيَّةُ وَالْعُنْفُ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ كَمَا يَزْعُمُ الْبَابَا وَأَتْبَاعُهُ، أَمْ هِيَ فِي دِينِ الْكَاثُولِيكِ الْمُشْرِكِينَ؟!

وَلَسْتُ أَعْلَمُ أَنَّ المَرْجِعِيَّةَ الْكَاثُولِيكِيَّةَ فِي هَذَا الزَّمَنِ -وَهِيَ الْفَاتِيكَانُ- قَدِ اعْتَذَرَتْ لِلْمُسْلِمِينَ عَمَّا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُمْ بِأَهْلِ بَيْتِ المَقْدِسِ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى، بَلْ إِنَّ بَابَا الْفَاتِيكَانِ الْهَالِكَ يُوحَنَّا بُولُس الثَّانِي لَمَّا زَارَ الشَّامَ قَبْلَ سَنَوَاتٍ قَلَائِلَ عَزَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَذِرَ لِأَهْلِهَا مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُ بِأَجْدَادِهِمْ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ يَحْمِلُونَ ذَاتَ الْعَقْلِيَّةِ الدَّمَوِيَّةِ الَّتِي حَمَلَهَا أَجْدَادُهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَلَوِ اسْتَطَاعُوا لَأَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، وَتِلْكَ حَقِيقَةٌ مُقَرَّرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ١٢٠]، ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الْبَقَرَة: ١٠٥]، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٦٩]، ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائِدَة: ٣]. حَمَى اللهُ تَعَالَى المُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَأَدَارَ دَوَائِرَ السُّوءِ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ

وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْحَمْلَةُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي يَشُنُّهَا أَئِمَّةُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ مُسْتَنْكَرَةً، وَهَذَا دَأْبُهُمْ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَهِيَ حَمْلَةٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ تُصَاحِبُ الْحَمَلَاتِ السِّيَاسِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ الرَّامِيَةَ إِلَى احْتِلَالِ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْسِيمِهَا، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهَا، وَإِشْغَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ عَنْ نَشْرِ دِينِهِمْ.

كَمَا تُصَاحِبُهَا حَمَلَاتُ الْإِفْسَادِ الْمُنَظَّمِ فِي وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَتَوَلَّى كِبْرَهَا، وَيَحْمِلُ وِزْرَهَا الْمُنَافِقُونَ وَالشَّهْوَانِيُّونَ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ وَإِذَاعَاتِهِمْ، وَصُحُفِهِمْ وَمَجَلَّاتِهِمْ، وَأَكْثَرُهُمْ يَقُومُ بِنَفْسِ الدَّوْرِ الَّذِي يَقُومُ بِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنْ كَانَ كَبِيرُ النَّصَارَى قَدِ اعْتَدَى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِمَا قَالَ -عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَسْتَحِقُّ- فَإِنَّ جَمْعًا مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَعْتَدُونَ عَلَى دِينِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَسْخَرُونَ مِنْ شَرِيعَتِهِ، وَيَهْزَأُونَ بِشَعَائِرِهَا، وَيَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى نَبْذِهَا وَتَرْكِهَا.

وَفِي كُلِّ سَنَةٍ يُخَصِّصُونَ رَمَضَانَ الْكَرِيمَ بِجُمْلَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ مَشَاهِدِ السُّخْرِيَةِ بِشَعَائِرِ دِينِ النَّبِيِّ ﷺ كَإِكْرَامِ اللِّحَى، وَتَقْصِيرِ الثِّيَابِ، وَسُنَّةِ السِّوَاكِ، وَحِجَابِ الْمَرْأَةِ، وَتَحْرِيمِ الْخَلْوَةِ بِهَا أَوْ سَفَرِهَا بِلَا مَحْرَمٍ، كَمَا يَسْخَرُونَ بِشَعِيرَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فِي مَشَاهِدَ هَزْلِيَّةٍ يُفْطِرُ عَلَيْهَا الصَّائِمُونَ، بَلْ وَيَسْخَرُونَ مِنْ عَادَاتِ النَّاسِ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَأَلْسِنَتِهِمْ وَلَهَجَاتِهِمْ، وَيُصَوِّرُونَهُمْ فِي صُوَرِ الدَّرَاوِيشِ وَالْمُغَفَّلِينَ، وَيَزْعُمُونَ هُمْ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ أَنَّهُمْ يَنْتَهِجُونَ النَّقْدَ الْبَنَّاءَ

الَّذِي يَكُونُ سَبَبًا لِلإِصْلَاحِ، وَأَنَّ عَمَلَهُمْ هُوَ خِدْمَةٌ لِلْوَطَنِيَّةِ الَّتِي يَتَشَدَّقُونَ بِهَا، ثُمَّ مَعَ زَعْمِهِمْ هَذَا مَا رَأَيْنَاهُمْ يَنْتَقِدُونَ الْمُفْسِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ، فِي عَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَشَعَائِرِهِمُ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَتَقَزَّزُ مِنْهَا الْأَسْوِيَاءُ مِنْ بَنِي الْبَشَرِ، وَلَا رَأَيْنَاهُمْ يَنْقُدُونَ مَشَارِيعَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوَجُّهَاتِ الْمَشْبُوهَةِ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ الدَّوَائِرَ بِالْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، وَيَنْشُرُونَ الْفَسَادَ، وَيَكِيدُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَعْظَمَ الْكَيْدِ!!

وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَغْضَبُونَ إِذَا انْتَهَكَ عِلْجٌ كَافِرٌ دِينَهُمْ، أَوْ سَخِرَ بِنَبِيِّهِمْ، وَلَكِنْ لَا يَغْضَبُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إِذَا صَدَرَ ذَلِكَ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِمْ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؟! إِلَّا أَنَّ الْمُنَافِقَ وَالْمُنْحَرِفَ أَشَدُّ خَطَرًا مِنَ الْكَافِرِ الَّذِي قَدْ عُرِفَ حِقْدُهُ، وَاتُّقِيَ خَطَرُهُ.

إِنَّ حُضُورَ الْمَجَالِسِ الَّتِي يُسْخَرُ فِيهَا بِشَيْءٍ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مُشَارَكَةٌ مِمَّنْ حَضَرَهَا فِي تِلْكَ السُّخْرِيَةِ، وَلَوْ كَانَتِ السُّخْرِيَةُ بِشَعِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ قَدْ لَا يَهْتَمُّ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يُشَاهِدُ مِثْلَ تِلْكَ الْمَشَاهِدِ عَبْرَ الشَّاشَاتِ مُتَفَكِّهًا بِهَا، غَيْرَ مُنْكِرٍ لَهَا؛ فَإِنَّهُ مُشَارِكٌ لِأَهْلِ السُّخْرِيَةِ فِي سُخْرِيَتِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، كَيْفَ؟ وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِمُجَانَبَةِ مِثْلِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ الْمَشْؤُومَةِ الَّتِي يُسْخَرُ فِيهَا بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فَسَمَّاهُمُ اللهُ تَعَالَى ظَالِمِينَ، وَنَهَى عَنِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ، وَأَمَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، مِمَّا يُوجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِعْرَاضَ عَنْ تِلْكَ الشَّاشَاتِ الَّتِي تَبُثُّ مُشَاهِدَ السُّخْرِيَةِ بِشَيْءٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ.

بَلْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى حَكَمَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى عَلَى أَنَّ مَنْ شَهِدَهَا فَهُوَ مِثْلُ

الْمُسْتَهْزِئِ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]. يَقُولُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «أَيْ إِنَّكُمْ إِذَا ارْتَكَبْتُمُ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ»(١٠).

وَأَيُّ إِقْرَارٍ أَعْظَمُ مِنَ التَّفَكُّهِ وَالضَّحِكِ أَثْنَاءَ السُّخْرِيَةِ بِشَيْءٍ مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ؟ بَلْ حَتَّى السُّخْرِيَةُ بِالنَّاسِ لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَحْضُرَ مَجَالِسَهَا إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ، وَمَا كَانَتِ السُّخْرِيَةُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ سَبِيلًا لِلْإِصْلَاحِ، وَلَا عَرَفَ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ ذَلِكَ لَا فِي الْقَدِيمِ وَلَا فِي الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّهُ عَمَى الْبَصَائِرِ، وَاسْتِحْكَامُ الْأَهْوَاءِ، وَاسْتِعْلَانُ الْفَسَادِ وَالنِّفَاقِ.

وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى نِعْمَةِ إِدْرَاكِ رَمَضَانَ قَضَاءُ أَوْقَاتِهِ فِي تِلْكَ الْمَشَاهِدِ الْهَازِلَةِ، وَلَيْسَ مِنَ الْفَرَحِ بِرَمَضَانَ الْفَرَحُ بِهَا، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ يَفْرَحُ بِالْمَعْصِيَةِ فِي رَمَضَانَ، نَعُوذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْخِذْلَانِ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَكُفَّ السُّفَهَاءَ وَالْمُنَافِقِينَ عَنْ غَيِّهِمْ، وَأَنْ يُبْطِلَ سَعْيَهُمْ، وَيَرُدَّ عَلَيْهِمْ كَيْدَهُمْ، كَمَا نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُبَلِّغَنَا هَذَا الشَّهْرَ الْعَظِيمَ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ، وَأَنْ يَقْبَلَ مِنَّا وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ . .

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .

❁ ❁ ❁

(١٠) تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٧-٥٦٨).

٣٧٨- حقوق الأسرى في الإسلام

١٨/ ٣/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: كُلُّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ تَتَعَامَلُ مَعَ غَيْرِهَا بِحَسَبِ دِينِهَا وَمَنْهَجِهَا، وَمَبَادِئِهَا وَأَخْلَاقِهَا، وَلَهَا مَصَادِرُهَا الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا، وَتَصْدُرُ عَنْهَا، وَعِنْدَ التَّحَاكُمِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا.

وَالْأُمَّةُ الْقَوِيَّةُ هِيَ الَّتِي لَا يَسْتَخِفُّهَا فَرَحٌ بِنَصْرٍ، وَلَا يَحِيدُ بِهَا عَنْ مَبَادِئِهَا غُرُورٌ بِقُوَّةٍ. فَإِنْ ضَعُفَتْ أَمَامَ غُرُورِ الْقُوَّةِ فَهِيَ أُمَّةٌ ضَعِيفَةٌ وَلَوْ مَلَكَتْ سِلَاحَ الْأَرْضِ كُلَّهُ.

وَأُمَّةُ الْإِسْلَامِ مَا حَكَمَتْ مُعْظَمَ الْأَرْضِ فِي سَابِقِ عَهْدِهَا لِقُوَّةٍ مَادِّيَّةٍ تَمْتَلِكُهَا،

أَوْ كَثْرَةٍ فِي عَدَدِ أَفْرَادِهَا، أَوْ لِأَنَّ لَدَيْهَا سِلَاحًا فَاتِكًا لَا يَحُوزُهُ غَيْرُهَا، وَلَا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِي أَرْجَاءِ المَعْمُورَةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا لِأَنَّهُ فُرِضَ عَلَيْهِمْ بِالْقُوَّةِ.

وَإِنَّمَا دَخَلَ النَّاسُ فِي الْإِسْلَامِ، وَدَانَتْ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَمِ؛ لِأَنَّهُ رَحْمَةٌ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا الْعِبَادَ، فَأَنْقَذَهُمْ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَوْضَارِ الشِّرْكِ، وَوَجَدُوا فِيهِ مِنَ المَبَادِئِ وَالْقِيَمِ، وَالْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ مَا لَمْ يَجِدُوهُ فِي غَيْرِهِ.

مَبَادِئُ وَقِيَمٌ قَرَّرَتْهَا الشَّرِيعَةُ فِي تَعَامُلِ الْإِنْسَانِ مَعَ إِخْوَانِهِ، وَفِي مُعَامَلَتِهِ لِأَعْدَائِهِ، وَلِلْحَرْبِ أَخْلَاقٌ كَمَا لِلسِّلْمِ أَخْلَاقٌ، وَلِلْأَعْدَاءِ حُقُوقٌ كَمَا لِلْإِخْوَانِ حُقُوقٌ، لَا تُصَادَرُ تِلْكَ الْحُقُوقُ لِعَجْزِ أَصْحَابِهَا عَنِ اسْتِيفَائِهَا، أَوِ المُطَالَبَةِ بِهَا؛ لِضَعْفٍ أَوْ هَزِيمَةٍ؛ فَهِيَ حُقُوقٌ ثَابِتَةٌ بِشَرْعِ اللَّهِ تَعَالَى، يُؤَدِّيهَا المُسْلِمُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ؛ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَطَلَبًا لِرِضَاهُ.

وَالحُرُوبُ فِي الْإِسْلَامِ لَها أَهْدَافُهَا النَّبِيلَةُ، وَغَايَاتُهَا الشَّرِيفَةُ، تَرْتَفِعُ عَنِ المَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ، وَتَسْمُو فَوْقَ الْأَهْدَافِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَأَهْدَافُهَا تَحْرِيرُ النَّاسِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَغَايَاتُهَا إِخْضَاعُ الْبَشَرِيَّةِ لِسُلْطَانِ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّهُ لَا عَدْلَ إِلَّا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتِلْكَ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ حِكَمِ الجِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ.

وَهَذِهِ المَعَارِكُ وَالمُوَاجَهَاتُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَأَعْدَائِهِ تُخَلِّفُ مَا تُخَلِّفُ مِنْ قَتْلَى وَجَرْحَى وَأَسْرَى؛ فَالْقَتِيلُ يُدْفَنُ وَلَا يُمَثَّلُ بِهِ، وَالْأَسِيرُ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِمَامُ بَيْنَ المَنِّ وَالْفِدَاءِ وَالْقَتْلِ وَالِاسْتِرْقَاقِ حَسَبَ المَصْلَحَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَوَفْقَ ضَوَابِطَ جَاءَتْ بِهَا النُّصُوصُ(١).

---

(١) أما المن والفداء فَدَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]. قال الحافظ ابن كثير في =

. . . .

= تفسيره: «يقول تعالى مرشدًا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أي: إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدًا بالسيوف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي: أهلكتموهم قتلًا ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجانًا، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه» اهـ (٤/ ٢٦٥) عند تفسير الآية (٤) من سورة محمد.

وأما قتل الأسير فدل عليه قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وهذه الآية فيها عتاب للنبي ﷺ عقب غزوة بدر على الإكثار من الأسرى في أول الإسلام، وتبين أن الأولى الإثخان في المشركين.

وليس في الآيتين ناسخ ومنسوخ كما توهمه البعض، بل فيهما تفصيل حال المسلمين، فإذا كانوا في ضعف وقلة، فالواجب الإثخان في المشركين؛ حفاظًا على الدين، وإذا كان فيهم كثرة وقوة فلهم المن والفداء.

وصح عن النبي ﷺ أنه بكى لما قبل الفداء في بدر، ونزلت آية الأنفال تعاتبه، فسأله عمر عن بكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: **«أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ»** رواه أحمد (١/ ٣٠-٣١)، ومسلم (١٧٦٣).

وقد صح في السنة النبوية أن النبي ﷺ قتل عقبة بن أبي معيط وهو من أسرى بدر في طريق رجوعهم من بدر إلى المدينة، كما في سنن أبي داود (٢٦٨٦)، وسنن البيهقي (٩/ ٦٤)، والمعجم الكبير للطبراني (١١/٤٠٦)، والأوسط (٢٩٤٩)، والآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (٥٦٥)، ومصنف عبد الرزاق (٩٣٩٤)، وقد جاء من حديث ابن عباس وحديث ابن مسعود ﷺ، وصحح الحاكم حديث ابن مسعود وقال: على شرط الشيخين (٢/ ١٣٥)، وقال الهيثمي عن رواية الطبراني لحديث ابن عباس ﷺ: «ورجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٦/ ٨٩).

وأما الاسترقاق فوقع كثيرًا في السنة، ومن ذلك: سبيه ﷺ لبني المصطلق كما في المسند (٦/ ٢٧٧)، وسنن أبي داود (٣٩٣١)، وصحيح ابن حبان (٤٠٥٤). =

وَمَا دَامَ أَسِيرًا فَلَهُ حُقُوقٌ عَلَى الْجَيْشِ يَأْثَمُ الْمُسْلِمُونَ بِالتَّقْصِيرِ فِيهَا، وَمِنْ رَحْمَةِ الشَّرِيعَةِ بِالْأَسِيرِ الْكَافِرِ: أَنَّهُ قُرِنَ فِي الْقُرْآنِ بِالْيَتِيمِ الْمُسْلِمِ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

أَيُّ شَرِيعَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ؟! كَافِرٌ مُحَارِبٌ، رَفَعَ سِلَاحَهُ يُرِيدُ اسْتِئْصَالَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ فِي الْأَسْرِ كَانَتْ لَهُ حُقُوقٌ عَلَى مَنْ حَارَبَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يُقْضَى فِي شَأْنِهِ، وَيُثْنِي اللهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ أَطْعَمَهُ كَمَا يُثْنِي عَلَى مَنْ أَطْعَمَ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ، وَيُرَتِّبُ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا عَظِيمًا.

وَقَدْ أَوْصَى النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَسْرَى فِي أَوَّلِ مُوَاجَهَةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَهُمْ أَسْرَى غَزْوَةِ بَدْرٍ، وَعَمِلَ الصَّحَابَةُ ﷺ بِوَصِيَّتِهِ، وَضَرَبُوا مَثَلًا عَظِيمًا فِي الِامْتِثَالِ وَالطَّاعَةِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسِيرِ؛ حَتَّى قَدَّمُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

= وسبيه لهوازن كما في سنن النسائي (٦/ ٢٦٢)، ومسند أحمد (٢/ ١٨٤).

وسبيه عليه الصلاة والسلام لخولان ولمضر كما في مسند أبي يعلى (٦١٠٨)، وسنن البيهقي (٩/ ٧٥)، وصححه الحاكم والذهبي (٢/ ٢٣٥).

وفداء الأسرى قد يكون بالمال، وقد يكون باستئجارهم للعمل عند المسلمين حتى يبلغ عملهم قيمة فدائهم، كما حصل في غزوة بدر؛ حيث كان فداء كل رجل منهم أربعة آلاف درهم؛ كما في حديث ابن عباس ﷺ عند الطبراني في الكبير (١١/ ٤٠٦)، والأوسط (٣٠٠٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٩٧٢٨).

وأما العمل لمن لم يجد فداءً حتى يوفي عمله ما عليه من الفداء فقد جاء في حديث ابن عباس ﷺ قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة» أخرجه أحمد (١/ ٢٤٧)، والبيهقي (٦/ ١٢٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ١٥٢).

قال ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٦٥): «ثبت عنه ﷺ في الأسرى أنه قتل بعضهم، ومَنَّ عَلَى بعض، وفادى بعضهم بمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، واسترق بعضهم، ولكن المعروف أنه لم يسترق رجلًا بالغًا» اهـ.

قَالَ أَبُو عَزِيزِ بْنُ عُمَيْرٍ: «كُنْتُ فِي الْأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا**»، وَكُنْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانُوا إِذَا قَدَّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ أَكَلُوا التَّمْرَ وَأَطْعَمُونِي الْخُبْزَ بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَا يَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إِلَّا نَفَحَنِي بِهَا فَأَسْتَحِيي، فَأَرُدُّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ، فَيَرُدُّهَا عَلَيَّ مَا يَمَسُّهَا»(٢).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى بِالْأَسِيرِ فَيَدْفَعُهُ إِلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَيَقُولُ لَهُ: أَحْسِنْ إِلَيْهِ، فَيَكُونُ عِنْدَهُ الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةَ، فَيُؤْثِرُهُ عَلَى نَفْسِهِ»(٣).

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَى الْأَسِيرِ لِبَاسٌ، أَوْ تَمَزَّقَ ثَوْبُهُ فِي الْمَعْرَكَةِ؛ فَإِنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كِسْوَتَهُ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ أُتِيَ الْعَبَّاسُ وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثَوْبٌ، فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ قَمِيصًا، فَوَجَدُوا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ يَقْدُرُ عَلَيْهِ، فَكَسَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَإِذَا أَرَادَ الْأَسِيرُ الْإِسْلَامَ قُبِلَ مِنْهُ؛ بَلْ يُرَغَّبُ فِي ذَلِكَ، وَيُحَسَّنُ الْإِسْلَامُ لَهُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وَلَكِنَّهُ لَا يُكْرَه عَلَيْهِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

---

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٩٣) برقم (٩٧٧)، وفي الصغير (٤٠٩)، وحسنه الهيثمي في الزوائد (٦/ ٨٦)، والرواية الثانية لابن هشام في السيرة (٣/ ١٩٥)، والطبري في تاريخه (٢/ ٣٩).

(٣) روح المعاني للألوسي (٢٩/ ١٥٥).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الكسوة للأسارى (٣٠٠٨).

وَمَنْ قُضِيَ بِقَتْلِهِ مِنَ الْأَسْرَى لِغَدْرِهِ، أَوْ لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ لِلْخَوْفِ مِنْهُ، أَوْ لِلْإِثْخَانِ فِي الْعَدُوِّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَذَّبُ، وَلَا يُمَثَّلُ بِهِ، وَلَا يُحْبَسُ عَنْهُ الطَّعَامُ أَوِ الْمَاءُ، بَلْ يُطْعَمُ وَيُسْقَى حَتَّى يُؤْذَنَ بِقَتْلِهِ(٥).

وَلَا يُعَذَّبُ الْأَسِيرُ لِانْتِزَاعِ الْمَعْلُومَاتِ مِنْهُ، سُئِلَ الْإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «أَيُعَذَّبُ الْأَسِيرُ إِنْ رُجِيَ أَنْ يَدُلَّ عَلَى عَوْرَةِ الْعَدُوِّ؟ فَقَالَ: مَا سَمِعْتُ بِذَلِكَ»(٦).

وَكَانَ الْخُلُقُ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحَابَتُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَقَادَةُ الْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرِ الْأَزْمَانِ وَالْأَمْصَارِ هُوَ الْعَفْوَ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَتَغْلِيبَ جَانِبِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْعَدُوِّ بَعْدَ الظَّفَرِ بِهِ عَلَى جَانِبِ الِانْتِقَامِ وَالتَّشَفِّي.

وَكَانَتْ تِلْكَ الْأَخْلَاقُ الْكَرِيمَةُ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْأَسْرَى بِطَوْعٍ وَاخْتِيَارٍ، وَعَنْ قَنَاعَةٍ بِأَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ دِينُ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ -سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ- كَانَ مُحَارِبًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، صَادًّا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَكَادَ أَنْ يَقْتُلَ رَسُولَهُ لَوْلَا حِمَايَةُ عَمِّهِ عَامِرِ بْنِ سَلَمَةَ لِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَنْعُهُ مِنْ قَتْلِهِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا إِلَى نَجْدٍ فَأَسَرُوا ثُمَامَةَ،

---

(٥) قال الإمام محمد بن الحسن -رحمه الله تعالى-: «وإن رأى الإمام قتل الأسارى فينبغي له ألا يعذبهم بالعطش والجوع، لكنه يقتلهم قتلًا كريمًا، يعني: أنه لا ينبغي أن يمثل بهم، فقد نهي رسول الله ﷺ عن المثلة ولو بالكلب العقور، وقال عليه الصلاة والسلام في بني قريظة بعد ما احترق النهار في يوم صائف: لا تجمعوا عليهم حر هذا اليوم وحر السلاح، قَيِّلُوهم حتى يبردوا، فَقَيَّلُوهم حتى أبردوا، ثم راحوا ببقيتهم فقتلوهم، وقد كان أمر رسول الله ﷺ بأحمال التمر فنشرت بين أيديهم، فكانوا يَكْدُمُونَهَا كَدْمَ الحُمُر» اهـ من السير الكبير (٣/ ٣٤١). وينظر المغازي للواقدي (٢/ ١٥) وسبل الهدى والرشاد (٥/ ١٢).

(٦) التاج والإكليل في شرح مختصر خليل (٤/ ٥٤٨).

فَرَبَطُوهُ فِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ: إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ .. وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ مُحَاوَرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَأَطْلَقُوهُ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ أَبْغَض إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه(٧).

وَأَعْظَمُ عَفْوٍ عَنِ الْأَسْرَى فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ: عَفْوُ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ لَمَّا تَمَكَّنَ مِنْ قَوْمٍ حَارَبُوهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَلَدِهِ، وَآذَوْا أَتْبَاعَهُ، وَصَدُّوا عَنْ دَعْوَتِهِ، وَمَالَئُوا عَلَيْهِ النَّاسَ، ثُمَّ لَمَّا تَمَكَّن مِنهُمْ قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»(٨).

وَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه لَمَّا طُعِنَ وَهُوَ يُصَلِّي قَالَ: «لَا تَعْجَلُوا عَلَى قَاتِلِي» ظَنَّ أَنَّهُمْ حَبَسُوهُ، فَلَمَّا أُخْبِرَ أَنَّهُ قَتَلَ نَفْسَهُ اسْتَرْجَعَ، فَلَمَّا أَعْلَمُوهُ أَنَّهُ المَجُوسِيُّ كَبَّرَ(٩).

---

(٧) أخرجه البخاري في المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال (٤٣٧٢)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه (١٧٦٤)، وأحمد (٢/ ٤٥٢).

(٨) سيرة ابن هشام (٥/ ٧٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٦١)، والبداية والنهاية (٤/ ٣٠١)، وزاد المعاد (٣/ ٤٠٧- ٤٠٨)، ونقله الشافعي عن أبي يوسف كما في سنن البيهقي (٩/ ١١٨).

(٩) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٧/ ٧٩).

وَهَذَا عَلِيٌّ ﷺ لمَّا غَدَرَ بِهِ الْخَارِجِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ، قَالَ ﷺ: «أَطْعِمُوهُ وَاسْقُوهُ، وَأَحْسِنُوا أَسَارَهُ، فَإِنْ عِشْتُ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي أَعْفُو إِنْ شِئْتُ، وَإِنْ شِئْتُ اسْتَقَدْتُ، وَإِنْ مِتُّ فَقَتَلْتُمُوهُ فَلَا تُمَثِّلُوا بِهِ»(١٠).

وَقَدْ ضَرَبَ قَادَةُ الْمُسْلِمِينَ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى الْأَسْرَى، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ؛ فَصَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا أَسَرَ جَمِيعَ مُلُوكِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي مَوْقِعَةِ حِطِّينَ أَكْرَمَهُمْ وَسَقَاهُمْ، وَقَرَّبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَلِكَ أَرْنَاطَ؛ لِأَنَّهُ سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَنَقَضَ الْعَهْدَ، وَاعْتَدَى عَلَى قَافِلَةِ حُجَّاجٍ وَقَتَلَهُمْ، وَهُوَ يَقُولُ: ادْعُوا مُحَمَّدًا يَنْصُرْكُمْ. فَلَمَّا رَأَى بَقِيَّةُ الْمُلُوكِ قَتْلَ أَرْنَاطَ خَافُوا أَنْ يَصِيرَ مَصِيرُهُمْ مَصِيرَهُ، فَأَمَّنَهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِغَدْرِ أَرْنَاطَ، وَقَالَ لَهُمْ:

---

(١٠) أخرجه الشافعي في مسنده (١٤٧٦)، والبيهقي (٨/ ٥٦، ١٨٣) من حديث جعفر بن محمد عن أبيه.

وأخرجه الحاكم عن الشعبي قال: «لما ضرب ابن ملجم عليًّا تلك الضربة أوصى به علي فقال: قد ضربني فأحسنوا إليه، وألينوا له فراشه، فإن أعش فهضم أو قصاص، وإن أمت فعالجوه فإني مخاصمه عند ربي ﷻ» وسكت عنه الذهبي في التلخيص (٣/ ١٤٤).

وقد جاء ما يخالف ذلك في مسند الإمام أحمد (١/ ٩٢-٩٣) من حديث شريك بن عبد الله النخعي عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى حكيم بن سعد قال: «لما ضرب ابن ملجم عليًّا الضربة، قال علي: افعلوا به كما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل برجل أراد قتله، فقال: اقتلوه ثم حرقوه»، وهذا الحديث ضعيف لضعف شريك وعمران. قال الحافظ في التقريب (٢٨٠٢): «شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي بواسط ثم الكوفة أبو عبد الله صدوق يخطئ كثيرًا، تغَيَّر حفظُهُ منذ ولي القضاء بالكوفة ...» اهـ.

وقال أيضًا (٥١٩٣): «عمران بن ظبيان الكوفي ضعيف ورُمِيَ بالتَّشَيُّع» اهـ.

ولو سلم بصحة هذه الرواية فإنها لا تعارض الرواية السابقة، فيكون الإحسان إليه حال أسره إلى أن يقضى في أمره بالقتل ثم التحريق إلا إذا قيل: إن التحريق مثلة، وقد جاء النهي عنها، وبكل حال فالحديث ضعيف.

«لَمْ تَجْرِ عَادَةُ المُلُوكِ أَنْ يَقْتُلُوا المُلُوكَ» ثُمَّ أَطْلَقَ سَرَاحَهُمْ(١١).

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ مِنْ مَوْقِعَةِ حِطِّينَ فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- بَيْتَ المَقْدِسِ، وَقَبِلَ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ فِدَاءً يَسِيرًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِدَاءَ نَفْسِهِ فَدَى هُوَ عَنْهُ، وَفَعَلَ قَادَتُهُ مِثْلَ فِعْلِهِ.

وَفِي فَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ أَمَّنَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ مُحَمَّدُ بْنُ مُرَادٍ أَهْلَهَا مَعَ أَنَّهُ فَتَحَهَا عَنْوَةً، وَعَفَا عَنْهُمْ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُمْ فِدَاءً، وَلَا عَاقَبَهُمْ عَلَى حَرْبِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي إِسْلَامِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ(١٢).

وَالتَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ زَاخِرٌ بِالْحَوَادِثِ الَّتِي أَحْسَنَ فِيهَا المُسْلِمُونَ إِلَى أَسْرَاهُمْ، وَعَفَوْا عَنْ أَعْدَائِهِمْ بَعْدَ مَقْدِرَتِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ عَمَلًا بِنُصُوصِ شَرِيعَتِهِمْ، فَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى أَنْ هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَنَسْأَلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الثَّبَاتَ عَلَيْهِ إِلَى المَمَاتِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

---

(١١) ينظر: النوادر السلطانية للقاضي ابن شداد (١٣٠-١٣١)، والبداية والنهاية (١٢/ ٢٨٥)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٣٠-٣١).

(١٢) ينظر: محمد الفاتح، للدكتور سالم الرشيدي (١٤٣-١٤٦).

وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: بَعْدَ نَشْأَةِ مَا يُسَمَّى بِالدُّوَلِ المَدَنِيَّةِ الْحَدِيثَةِ فِي أُورُبَّةَ، وَعَقِبَ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الْحُرُوبِ الطَّاحِنَةِ، وَالمَجَازِرِ المُرَوِّعَةِ فِي الْغَرْبِ، وُضِعَتِ الْقَوَانِينُ الدَّوْلِيَّةُ، وَالِاتِّفَاقِيَّاتُ الَّتِي تُعْنَى بِشُؤُونِ الْحُرُوبِ، وَكَانَ مِنْ ضِمْنِ مَا وَضَعُوا: مُعَاهَدَاتُ حُقُوقِ الْأَسْرَى وَمَنْ يُسَمَّوْنَ بِالمَدَنِيِّينَ، وَأَكْثَرُهَا بُنُودٌ جَيِّدَةٌ فِي حَقِّ الْأَسِيرِ(١٣)، جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَبِمَا يَفُوقُهَا قَبْلَ مَا يَزِيدُ عَلَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا مِنْ وَضْعِهِمْ لِاتِّفَاقِيَّاتِهِمْ وَمُعَاهَدَاتِهِمْ، وَطَبَّقَ المُسْلِمُونَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ فِي الْأَسْرَى، وَلَكِنَّ الْغَرْبَ الْحَدِيثَ، وَعَلَى رَأْسِهِ دَوْلَةُ الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّهَا رَاعِيَةُ الْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ، وَتُفَاخِرُ بِكَوْنِهَا حَافِظَةَ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ؛ لَمْ يُطَبِّقُوا فِي حُرُوبِهِمْ مَا وَضَعُوا مِنَ اتِّفَاقِيَّاتٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَسْرَى وَاللَّاجِئِينَ، بَلْ كَانَتْ هَذِهِ الِاتِّفَاقِيَّاتُ حِبْرًا عَلَى وَرَقٍ، تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ عِنْدَ أَوَّلِ نَشْوَةٍ بِالنَّصْرِ وَالْقُوَّةِ.

إِنَّهُمْ فَعَلُوا بِأَسْرَى الْعِرَاقِ مَا لَا تُصَدِّقُهُ الْأَبْصَارُ وَهِيَ تُشَاهِدُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَسْمَاعُ لَوْ وُصِفَ لهَا، وتَنْخَلِعُ مِنْ هَوْلِهِ الْأَفْئِدَةُ، وَلَا يَرْضَاهُ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ رَحْمَةٍ أَوْ قِيَمٍ أَوْ أَخْلَاقٍ.

لَقَدْ عَذَّبُوا أَسْرَاهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا، وَأَذَلُّوهُمْ ذُلًّا عَظِيمًا، سَحَقُوا كَرَامَتَهُمْ،

---

(١٣) اعتمدت وعرضت للتوقيع والتصديق والانضمام من قبل المؤتمر الدبلوماسي لوضع اتفاقيات دولية لحماية ضحايا الحروب المعقود في جنيف خلال الفترة من ٢١ نيسان/ أبريل، إلى ١٢ آب/أغسطس ١٩٤٩. تاريخ بدء النفاذ: ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٠ وفقًا لأحكام المادة ١٣٨.

وَأَهَانُوا أَعْرَاضَهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا لَا تَفْعَلُهُ الْوَحْشُ مِنَ الْحَيَوَانِ بِعَدُوِّهَا، فَهَلْ مَرَّ عَلَى أَبْصَارِكُمْ، أَوْ سَمِعْتُمْ بِآذَانِكُمْ أَنَّ وَحْشًا أَذَلَّ عَدُوَّهُ بِالتَّبَوُّلِ عَلَيْهِ، أَوْ بِفِعلِ الْفَاحِشَةِ فِيهِ، أَوْ إِجْبَارِهِ عَلَى أَنْ يَفْعَلَهَا فِي أَخِيهِ؟!

إِنَّهَا مَأْسَاةُ قِيَمٍ حَضَارِيَّةٍ، وَإِنَّهُ لَعَارٌ عَلَى كُلِّ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي نُقِلَتْ إِلَيْهَا فُصُولُ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ.

آلَافُ الصُّوَرِ لِأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ قَدْ كُوِّمَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَهُمْ عُرَاةٌ، وَوُضِعَ الْقَيْدُ فِي رِقَابِ بَعْضِهِمْ، وَتَمَّ جَرُّهُمْ كَمَا تُجَرُّ الْكِلَابُ، وَوَسَائِلُ أُخْرَى مِنَ التَّعْذِيبِ وَالْإِهَانَةِ وَقَعَتْ وَلَا زَالَتْ تَقَعُ فِي عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ، وَمَدِينَةِ السَّلَامِ، لَا تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، وَلَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الصُّوَرَ قَدْ سُرِّبَتْ إِلَى وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ مَا كَانَ أَحَدٌ يُصَدِّقُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا بِالْحَيَوَانِ، فَضْلًا عَنْ فِعْلِهِ بِالْإِنْسَانِ(١٤).

إِنَّهَا أَخْلَاقُ رُعَاةِ الْبَقَرِ الَّذِينَ أَسَّسُوا عَالَمَهُمْ عَلَى بَحْرٍ مِنْ دِمَاءِ وَدُمُوعِ الْهُنُودِ الْحُمْرِ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مِنْ سَلْخِ رُؤُوسِهِمْ، وَاغْتِصَابِ نِسَائِهِمْ، وَالتَّسْلِيَةِ بِأَطْفَالِهِمْ، وَإِهَانَةِ رِجَالِهِمْ مَا يَفْعَلُونَهُ الْآنَ بِالْعِرَاقِ.

إِنَّهُمْ يَنْطَلِقُونَ فِي ذَلِكَ مِنْ مُنْطَلَقَاتٍ عُنْصُرِيَّةٍ بَغِيضَةٍ، تُعْلِي مِنْ شَأْنِ عِرْقِهِمْ عَلَى سَائِرِ الْأَجْنَاسِ، زَادَتْهَا أَحْقَادٌ دَفِينَةٌ غَذَّتْهَا الصِّهْيَوْنِيَّةُ بِاعْتِقَادَاتٍ بَاطِلَةٍ.

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ انْتِقَامَ الرَّبِّ مِنَ الْأُمَّةِ الْبَابِلِيَّةِ جَزَاءَ مَا فَعَلَهُ قُدَمَاؤُهُمْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ.

لَقَدْ سَقَطَتِ الشِّعَارَاتُ الزَّائِفَةُ الَّتِي تَلْتَمِسُ الْأَعْذَارَ لِشَنِّ الْحُرُوبِ، وَاجْتِيَاحِ الْمُدُنِ، وَبَانَتْ أَخْلَاقُ الْقَوْمِ وَقِيَمُهُمْ، فَمَاذَا سَتَكُونُ أَقْوَالُ دُعَاةِ الْحُرِّيَّةِ، وَمَنْ

---

(١٤) هذا إشارة لما فعله الأمريكان بأسراهم العراقيين في سجن أبو غريب في بغداد، وقد كتب عنه كتب ومقالات كثيرة.

بَشَّرُوا بِفُتُوحِ رُعَاةِ الْبَقَرِ، وَنَشْرِهِمُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ فِي بِلَادِ المُسْلِمِينَ؟!! فَهَا هِيَ صُورَةٌ بَشِعَةٌ مِنْ صُوَرِ تَحْرِيرِهِمْ لِلإِنْسَانِ مِنَ الأَنْظِمَةِ المُسْتَبِدَّةِ، زَعَمُوا!

إِنَّ مِنَ المُفَارَقَاتِ الْعَجِيبَةِ أَنَّ مَدِينَةَ السَّلَامِ الَّتِي تُغْتَصَبُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَيُمَارَسُ عَلَى أَبْنَائِهَا أَبْشَعُ صُوَرِ الإِذْلَالِ وَالْقَهْرِ قَدْ سَيَّرَتْ فِيمَا مَضَى مِنَ التَّارِيخِ جَيْشًا جَرَّارًا؛ لِأَنَّ امْرَأَةً مُسْلِمَةً وَقَعَتْ فِي الْأَسْرِ فَأُهِينَتْ وَاسْتَنْجَدَتْ بِالمُعْتَصِمِ فَأَنْجَدَهَا مِنْ بَغْدَادَ، وَهَا هِيَ ذَاتُ المَدِينَةِ تُهَانُ وَيُهَانُ أَبْنَاؤُهَا أَشَدَّ الإِهَانَةِ.

إِنَّ الْآدَمِيَّ إِذَا تَجَرَّدَ مِنْ شَرِيعَةِ رَبِّهِ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ قِيَمٌ تَرْدَعُهُ، وَتَضْبِطُ سُلُوكَهُ؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ أَشَدَّ ضَرَاوَةً مِنَ الحَيَوَانِ، وَأَكْثَرَ إِفْسَادًا مِنَ الْوَحْشِ، وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ قَدْ أَصَمُّوا الْآذَانَ بِالْحُرِّيَّةِ وَالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ وَحِفْظِ حُقُوقِ الإِنْسَانِ قَدْ بَانَ لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ وَبَصِيرَةٍ أَنَّهُمْ أَحَطُّ سُلُوكًا مِنَ الْحَيَوَانِ، وَأَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْوَحْشِ، فَهَلْ يَعْقِلُ ذَلِكَ مَنْ يُسَوِّقُونَ بِضَاعَتَهُمْ، وَيَدْعُونَ إِلَى مَبَادِئِهِمْ؟!

كَانَ اللهُ فِي عَوْنِ أَسْرَى المُسْلِمِينَ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُفَرِّجَ كُرْبَتَهُمْ، وَيَكْبِتَ عَدُوَّهُمْ، وَيُهِينَ مَنْ أَهَانَهُمْ، وَيُذِلَّ مَنْ أَذَلَّهُمْ، وَيُؤْذِيَ مَنْ آذَاهُمْ.

اللَّهُمَّ ارْفَعِ الْبَلَاءَ عَنِ المُسْلِمِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَفَرِّجْ هُمُومَهُمْ، وَنَفِّسْ كُرُوبَهُمْ، وَانْتَقِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.

❀ ❀ ❀

٣٧٩- مأساة البوسنة (١)

١٤/ ٧/ ١٤١٥هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَيَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: لَقَدْ لَاقَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالْأَزْمَانِ الْكَيْدَ الْعَظِيمَ، وَالْمَكْرَ الْكُبَّارَ، وَالتَّسَلُّطَ وَالظُّلْمَ وَالِاسْتِبْدَادَ مِنْ جَمِيعِ أَعْدَائِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ دِيَانَاتِهِمْ، سَوَاءٌ كَانُوا أَهْلَ كِتَابٍ أَوْ أَهْلَ جُحُودٍ وَإِلْحَادٍ، وَمَا خَلَتِ الْأَرْضُ -فِي زَمَنِ الِانْحِطَاطِ وَالْبُعْدِ عَنِ الدِّينِ- يَوْمًا مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ يُسْفَكُ، أَوْ عِرْضٍ يُنْتَهَكُ، أَوْ مَالٍ يُنْهَبُ، حَتَّى سَجَّلَتْ كُتُبُ التَّارِيخِ أَيَّامَ الِاسْتِعْمَارِ أَبْشَعَ الْجَرَائِمِ الَّتِي وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، مِمَّا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ قَادَةَ الِاسْتِعْمَارِ كَانُوا حَاقِدِينَ أَشَدَّ الْحِقْدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ.

وَلَمَّا عَجَزَ الْأَعْدَاءُ عَنْ تَحْوِيلِ مَسَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى غَيْرِ دِينِهِمْ عَسْكَرِيًّا، لَجَئُوا إِلَى الْغَزْوِ الثَّقَافِيِّ وَالْفِكْرِيِّ، كَانُوا يُقَدِّمُونَ دِينَهُمْ وَمُعْتَقَدَهُمْ مَعَ رَغِيفِ الْخُبْزِ،

وَجُرْعَةِ الدَّوَاءِ، وَقِطْعَةِ الْكِسَاءِ، بِاسْمِ الْمُسَاعَدَاتِ وَالمَعُونَاتِ؛ لِيُنَشِّئُوا أَجْيَالًا عَلَى مَا يُرِيدُونَ، حَتَّى قَالَ قَائِلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَصِفُ تِلْكَ النَّقْلَةَ فِي الاِسْتِعْمَارِ: «جَاءُوا إِلَيْنَا يَحْمِلُونَ الْبُنْدُقِيَّةَ وَالْإِنْجِيلَ، فَأَمْطَرُونَا بِالرَّصَاصِ ثُمَّ غَمَّمُوا أَعْيُنَنَا وَوَضَعُوا أَيْدِينَا عَلَى المَحَارِيثِ نُقَلِّبُ لَهُمُ الْأَرْضَ وَنَزْرَعُهَا، وَبَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ فَتَحْنَا أَعْيُنَنَا لِنَجِدَ بِأَيْدِينَا الْإِنْجِيلَ وَبِأَيْدِيهِمُ الْأَرْضَ وَالثَّرْوَةَ، وَكُنَّا قَدْ نَسِينَا اسْتِعْمَالَ السِّلَاحِ، فَنَحْنُ الْيَوْمَ نُقَلِّبُ الْإِنْجِيلَ وَنَتَقَلَّبُ فِي المَجَاعَةِ وَالتَّبَعِيَّةِ»(١).

هَذَا الْكَلَامُ عَقِيبَ عُهُودِ الاِسْتِعْمَارِ وَالْغَزْوِ الْعَسْكَرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَلَكِنْ بَعْدَ مُدَّةٍ عَادَتِ الشُّعُوبُ إِلَى فِطْرَتِهَا، وَأَبَتْ إِلَّا دِينَهَا، وَلَا تَرَى عَنْهُ مَحِيصًا، فَنَمَا الْإِسْلَامُ مِنْ جَدِيدٍ فِي أَوْسَاطِ المُسْلِمِينَ، وَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ، فَطَالَبُوا بِالْإِسْلَامِ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، فَأَحْبَطَ اللهُ تَعَالَى كَيْدَ الْأَعْدَاءِ.

نَعَمْ، لَقَدْ فَشِلَ الاِسْتِعْمَارُ وَالْغَزْوُ الْعَسْكَرِيُّ الْقَدِيمُ فِي إِخْرَاجِ المُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِمْ، كَمَا فَشِلَ الْغَزْوُ الثَّقَافِيُّ الْحَدِيثُ، فَعَادَ التَّسَلُّطُ الْعَسْكَرِيُّ مِنْ جَدِيدٍ فِي بِلَادٍ مِنَ المُسْلِمِينَ كَثِيرَةٍ، وَالمُسْلِمُونَ فِي الشِّيشَانِ عَلَى أَبْوَابِ الاِغْتِيَالِ، وَالْبُوسْنَةُ تُمْضِي ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ عِجَافٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالْقَهْرِ وَالاِسْتِعْبَادِ، يُنَفِّسُ عَنْ حِقْدِ الْعُصُورِ المَاضِيَةِ، وَيُظْهِرُ الْوَجْهَ الْحَقِيقِيَّ لِلْغَرْبِ المُتَحَضِّرِ.

أَعْلَمُ أَنَّكُم -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- مَلِلْتُمُ الْحَدِيثَ عَنِ الْبُوسْنَةِ مِنْ شَرِّ مَا يُتْلَى وَيُعْرَضُ مِنْ مَآسٍ وَجُرُوحٍ، وَلَكِنْ فِي هَذَا الزَّمَنِ لَيْسَ لِلْمُسْلِمِ بُدٌّ مِمَّا لَا يُحِبُّ، وَلَوْ نَطَقَ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ فِي الْبُوسْنَةِ لَقَالَ مَا لَا يُرِيدُ.

---

(١) نحن والإعلام الغربي، د.محمد بن حامد الأحمري، مجلة البيان، عدد (٥٥) ص(٤)، والكاتب نقل ذلك عن أحد أدباء كينيا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ فِي اللَّهِ تَعَالَى: مَأْسَاةُ الْبُوسْنَةِ لَا يُدْرَى أَهِيَ فِي بِرَكِ الدِّمَاءِ الْمُهْدَرَةِ، أَمْ فِي الْأَشْلَاءِ الْمُقَطَّعَةِ، أَمْ فِي الْأَعْرَاضِ الْمُنْتَهَكَةِ؟ أَهِيَ فِي الْأُسَرِ الْمُشَرَّدَةِ، أَمْ فِي الْمَسَاجِدِ وَالدُّورِ الْمُهْدَمَةِ؟

أَهِيَ فِي الْخَوْفِ وَالْفَزَعِ، أَمْ فِي الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، أَمْ فِي الصَّقِيعِ وَالْمَرَضِ؟

هَلْ هِيَ فِي ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ أَهْلِهِ وَعِرْضِهِ، وَقَدِ اشْتَاقَ إِلَى أَوْلَادِهِ، فِي الْمُعْتَقَلِ بُتِرَتْ سَاقُهُ، أَوْ قُطِعَتْ يَدُهُ، أَوْ سُمِلَتْ عَيْنُهُ، أَوْ مُثِّلَ بِجَسَدِهِ؟

هَلِ الْمَأْسَاةُ فِي تِلْكِ الْمُسْلِمَةِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ أَحْشَاؤُهَا بِطِفْلٍ صِرْبِيٍّ عَلَى رَغْمِ أَنْفِهَا، أَمْ فِي أُمِّهَا تِلْكَ الْعَجُوزُ الْمُسِنَّةُ الَّتِي لَا تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ، لَكِنَّهَا تَحْتَمِي مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ خَلْفَ جُثَثِ أَبْنَائِهَا الْقَتْلَى، أَمِ الْمَأْسَاةُ فِي ذَلِكَ الطِّفْلِ الَّذِي لَا يَهْدَأُ عَنِ الْعَوِيلِ، يُرِيدُ الْحَلِيبَ مِنْ أُمِّهِ، وَالْحِمَايَةَ مِنْ أَبِيهِ، فَإِذَا هُوَ يُخْرَجُ مِنَ الْبُوسْنَةِ لِيُعْرَضَ لِلْبَيْعِ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَخَوَاتِهِ فِي سُوقِ الرَّقِيقِ، فِي الْغَرْبِ الْمُتَحَضِّرِ؟!

نَعَمْ، لَقَدْ بِيعَ بَنَاتُ الْمُسْلِمِينَ هُنَالِكَ إِلَى تُجَّارِ الْبِغَاءِ يَسْتَدِرُّونَ الْأَرْبَاحَ بِأَعْرَاضِ الْمُسْلِمَاتِ مُكْرَهَاتٍ مُهَانَاتٍ، يَعْجَزُ اللِّسَانُ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا، وَلَكِنَّهَا الْحَقِيقَةُ الْمُدْمِيَةُ!!

لِمَاذَا يَكُونُ الِاغْتِصَابُ مِنْ أَهَمِّ الْأَسْلِحَةِ الَّتِي يَسْتَخْدِمُهَا الْعَدُوُّ فِي مُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ؟! اغْتِصَابُ الْمُسْلِمَاتِ سِمَةٌ بَارِزَةٌ فِي كُلِّ حَرْبٍ لِلْمُسْلِمِينَ مَعَ عَدُوِّهِمْ أَيًّا كَانَ ذَلِكَ الْعَدُوُّ، يَا تُرَى لِمَاذَا تُغْتَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِتِلْكَ الصُّورَةِ الْبَشِعَةِ؟! لِمَاذَا لَمْ يُحْسِنُوا الذِّبْحَةَ إِذَا ذَبَحُوا؟!

وَالْأَدْهَى مِنْ هَذَا وَالْأَمَرُّ أَنَّ حَوَادِثَ الْقَتْلِ الْجَمَاعِيِّ الَّتِي يَرْتَكِبُهَا الصِّرْبُ فِي

مَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ تُصَوَّرُ فِي إِعْلَامِ الصِّرْبِ عَلَى أَنَّهَا فِي الْكَنِيسَةِ، حَدَثَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ النَّصَارَى، فَيَصِيرُ الظَّالِمُ مَظْلُومًا، وَالْقَاتِلُ مَقْتُولًا؛ إِضْرَامًا لِنَارِ الْحِقْدِ فِي قُلُوبِ النَّصَارَى، وَتَسْوِيغًا لِمَذَابِحِهِمْ وَانْتِهَاكَاتِهِمْ فِي الْمُسْلِمِينَ!!

إِنَّهُمْ يَرَوْنَهَا حَرْبًا دِينِيَّةً عَقَائِدِيَّةً صَلِيبِيَّةً، لَا حَرْبًا أَهْلِيَّةً وَلَا وَطَنِيَّةً كَمَا يَحْلُو لِلْعَلْمَانِيِّينَ الْعَرَبِ أَنْ يُسَمُّوهَا، اسْتَمِعُوا إِلَى أَقْوَالِ الصَّلِيبِيِّينَ، فَمُشْكِلَتُنَا -نَحْنُ الْعَرَبَ- أَنَّ فَرِيقًا مِنْ مُدَّعِي الثَّقَافَةِ وَالمَعْرِفَةِ عِنْدَنَا لَا يُصَدِّقُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا كَلَامَ نَبِيِّهِ ﷺ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ عَدُوِّنَا مِمَّا يَضْطَرُّنَا إِلَى نَقْلِ كَلَامِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُصَدِّقَ قَوْمُنَا بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْعَدَاوَةِ الْأَبَدِيَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ.

جَرِيحٌ صِرْبِيٌّ يَقُولُ: إِنَّ سَبَبَ هَذِهِ الْحَرْبِ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يُرِيدُونَ إِقَامَةَ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي بِلَادِنَا[٢]، وَصِرْبِيٌّ آخَرُ يُمْسِكُ بِمِدْفَعِيَّتِهِ يَرْشُقُ بِهَا مَنَاطِقَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ يَقُولُ لِلْإِخْبَارِيِّينَ: الَّذِي تُحَاوِلُ الْحُكُومَةُ الْبُوسْنِيَّةُ عَمَلَهُ هُوَ إِقَامَةُ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي أُورُبَّا، نَحْنُ الصِّربَ نُقَاتِلُ الْمُسْلِمِينَ مُنْذُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ: «هَذِهِ نِهَايَةُ حَضَارَةٍ»[٣].

هَذَا عَلَى مُسْتَوَى الْأَفْرَادِ، أَمَّا عَلَى مُسْتَوَى التَّقَارِيرِ، فَتَقْرِيرُ مُرَاسِلِ إِحْدَى الشَّبَكَاتِ الْغَرْبِيَّةِ الْإِخْبَارِيَّةِ يَقُولُ: إِنَّ أَكْثَرَ الصِّرْبِ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقِتَالَ فِي الْبُوسْنَةِ

(٢) نقل ذلك عنه مراسل شبكة (اي. بي. سي) الأمريكية والتر رودجرز، أخبار العالم الليلة، اي بي سي ١٤ أغسطس ١٩٩٢م، عن: دماء ودموع البوسنة: على من تعرض الصور؟ د. أحمد بن راشد بن سعيد، مجلة البيان عدد (٥٥) ص(٥٨).

(٣) قائل ذلك هو القائد العسكري الصربي لاليجا توما كوفاش، قاله لمراسلة شبكة (اي. بي. سي) شيلا ماكفيكار، أخبار العالم الليلة، أوائل يوليه ١٩٩٢م. عن المصدر السابق.

أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لِمَنْعِ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِي أُورُبَّا(٤).

إِنَّ شِعَارَ الصِّرْبِ فِي حَرْبِهِمْ هُوَ: الدَّوْلَةُ الْوَاحِدَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَجْمَعَ بَيْنَ الصِّرْبِيِّينَ، وَإِلَّا سَتُصْبِحُ الْبَلْقَانُ مَقْبَرَةً كَبِيرَةً(٥). وَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصْبَحَتِ الْبَلْقَانُ مَقْبَرَةً لِلْمُسْلِمِينَ!

لَقَدْ عَانَى إِخْوَانُنَا فِي الْبُوسْنَةِ مِنَ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ الَّتِي أَعْقَبَهَا حُكْمٌ شِيُوعِيٌّ ظَالِمٌ قَاهِرٌ، ثُمَّ هَا هِيَ الْحَرْبُ الصَّلِيبِيَّةُ تَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ، حَتَّى وَصَفَتْ صَحَافَةُ الْغَرْبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُوسْنَةِ بِأَنَّهُمْ (الْفِلَسْطِينِيُّونَ الْجُدُدُ لِأُورُبَّا)(٦).

إِنَّ الْغَرْبَ الْمُتَحَضِّرَ بِإِنْسَانِيَّتِهِ وَدِيمُقْرَاطِيَّتِهِ يُقَدِّمُ لَنَا فِلَسْطِينَ ثَانِيَةً، وَهُوَ يَدُقُّ آخِرَ الْمَسَامِيرِ فِي نَعْشِ فِلَسْطِينَ الْأُولَى الَّتِي اغْتِيلَتْ وَبُكِيَتْ، وَهَا هِيَ فِلَسْطِينُ الْجَدِيدَةُ تُغْتَالُ وَلَسَوْفَ تُبْكَى، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَنَا اللهُ ﷻ بِنَصْرٍ مِنْ عِنْدِهِ.

لَقَدْ أَصْبَحَتْ فَضِيحَةُ الْقِيَمِ الْغَرْبِيَّةِ وَالْحَضَارَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي كَارِثَةِ الْبُوسْنَةِ

---

(٤) قائل ذلك مراسل شبكة (اي. بي. سي) الأمريكية والتر رودجرز، عن المصدر السابق.

(٥) البوسنة والهرسك .. محنة شعب ومأساة أمة، د. يوسف الصغيّر، مجلة البيان، عدد (٥٣) ص(٦٠).

(٦) حيث تقاسم الصرب والكروات أرضهم. نسبتهم ٤٥ في المائة من سكان البلاد، لكنهم يسيطرون الآن على ٥ في المائة منها فقط كما في صحيفة الايكونومست، ١ أغسطس ١٩٩٢م .. الصرب يقولون: فليذهب المسلمون إلى الجحيم. أكثرهم -كما تقول كاتبة الغارديان ماغي أوكين- في جحيم فعلًا، إما في معسكرات اعتقال مكتظة، أو في قطارات إلى استقبال بارد في أوروبا كما ذكرت الغارديان، ١٠ أغسطس ١٩٩٢م. مليون وثلاثمائة ألف شخص أخرجوا من البوسنة معظمهم من المسلمين كما ذكرت نيوزويك، ١٠ أغسطس ١٩٩٢م .. في الحادي عشر من أغسطس أعلن الصرب بوقاحة (وهم واثقون بوقوف إخوانهم الغربيين معهم) أنهم سيطردون ٢٨٠٠٠ مسلم، وأن على الأمم المتحدة أن تبحث لهم عن مكان يأوون إليه. ينظر: دماء ودموع البوسنة، على من تعرض الصور؟ مجلة البيان عدد (٥٥) ص(٥٨).

أَوْضَحَ مِنَ الشَّمْسِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ، فَأَيْنَ عَرَبُنَا المُغْتَرِبُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ التَّقَدُّمَ وَالْحَضَارَةَ كَمَا هِيَ فِي الْغَرْبِ؟! فَلْيَنْظُرُوا إِلَى أَخْلَاقِ الْقَوْمِ وَحَضَارَتِهِمْ وَمَبَادِئِهِمْ عَلَى أَرْضِ الْبُوسْنَةِ، فَفِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. أُولَئِكَ المُتَحَضِّرُونَ الْبِيضُ وَالشُّعُوبُ الرَّاقِيَةُ الَّتِي تَصِيحُ بِحُقُوقِ الْإِنْسَانِ، وَتَتَأَوَّهُ لِانْتِهَاكِ حُقُوقِ الْحَيَوَانِ، تَرَى أُمَّةً تَعِيشُ مَحْرَقَةً إِنْسَانِيَّةً مُكْتَمِلَةَ الْفُصُولِ، فَمَا بَالُهُمْ لَا يَنْطِقُونَ، فَهَلْ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ الْحَرْبَ هُنَالِكَ حَرْبٌ دِينِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ صَلِيبِيَّةٌ؟ وَمَاذَا لَوْ كَانَ الْبَشَرُ المَحْرُوقُونَ مِنْ غَيْرِ المُسْلِمِينَ؟

قَالَتْ صَحَفِيَّةٌ غَرْبِيَّةٌ: «إِنَّ الْغَرْبَ مَا كَانَ لِيَتَّخِذَ هَذَا المَوْقِفَ اللَّامُبَالِيًا لَوْ كَانَ ضَحَايَا المَجْزَرَةِ مِنَ النَّصَارَى، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ إِذَنْ لَانْتَفَضَ الْعَالَمُ الْغَرْبِيُّ، وَتَحَرَّكَ الضَّمِيرُ الْعَالَمِيُّ، وَتُرْجِمَ ذَلِكَ إِلَى تَحَرُّكٍ سِيَاسِيٍّ وَاقْتِصَادِيٍّ وَعَسْكَرِيٍّ، بَدَلًا مِنْ حَالَةِ النُّعَاسِ الثَّقِيلِ الَّتِي يَغِطُّ فِيهَا المُجْتَمَعُ الدَّوْلِيُّ»(٧).

وَأَمَّا المَسْئُولُ الْعَسْكَرِيُّ فِي دَوْلَةٍ صَاحِبَةِ قَرَارٍ ضِدَّ الْبُوسْنَةِ فَيُعَلِّلُ عَدَمَ التَّدَخُّلِ بِقَوْلِهِ: «كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نُبَرِّرَ لِعَوَائِلِ الْجُنُودِ أَنَّ أَبْنَاءَهُمْ لَمْ يَمُوتُوا فِي سَبِيلِ المَمْلَكَةِ وَالْوَطَنِ، بَلْ لِمَنْعِ الصِّرْبِ مِنْ قَتْلِ المُسْلِمِينَ»(٨).

هَذَا كَانَ قَبْلَ التَّدَخُّلِ الدَّوْلِيِّ، وَأَمَّا بَعْدَهُ، فَازْدَادَتِ الْكَارِثَةُ تَفَاقُمًا، وَهَذَا مِيزَانُهُمْ، وَتِلْكَ نَظْرَتُهُمْ، أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ!

وَلَنْ يُوقِفَ ظُلْمَهُمْ وَقَهْرَهُمْ إِلَّا الجِهَادُ .. الْجِهَادُ الَّذِي يَخَافُهُ الْأَعْدَاءُ،

---

(٧) قائلة ذلك هي لاسلي غليب في النيويورك تايمز، ينظر: جذور الصراع: الصليب الأرثوذكسي، الغرب المتحضر، المسلمون «الهمج»! د. عبد الله عمر سلطان، مجلة البيان، عدد (٥٨) ص(٧٨).

(٨) هو وزير الدفاع البريطاني: الآن كلارك، عن المقال السابق، مجلة البيان، عدد (٥٨) ص(٧٨).

وَتَحْيَا بِهِ الْأُمَّةُ، وَيُسْتَعادُ بِهِ المَجْدُ، وَيُسْتَرَدُّ بِهِ الْحَقُّ .. الْجِهَادُ الَّذِي يُوقِفُ الظَّالِمِينَ، وَيُخْرِجُ المُغْتَصِبِينَ.

لَنْ يُزِيلَ المَأْسَاةَ انْتِظَارُ قَرَارَاتِ الْأَعْدَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَمَحَافِلِهِمْ، فَذَلِكَ رُكُونٌ إِلَيْهِمْ وَزِيَادَةٌ فِي الْخِذْلَانِ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ٨-١٠].

وَعِنْدَمَا أُعْلِنَ الْجِهَادُ فِي الْبُوسْنَةِ؛ هَابَ الْأَعْدَاءُ، وَتَقَدَّمَ المُسْلِمُونَ، فَلَمْ يُعْجِبْ ذَلِكَ أَصْحَابَ الْقَرَارَاتِ الدَّوْلِيَّةِ؛ فَفَاحَ عَفَنُ المُؤَامَرَةِ، وَانْتُهِكَتِ المَنَاطِقُ الْآمِنَةُ، وَزُوِّدَ الْعَدُوُّ بِالسِّلَاحِ وَالمَتَاعِ، فِي حِينِ أَنَّهُ يُؤْخَذُ مِنَ المُسْلِمِينَ بِاسْمِ الهَيْئَاتِ الدَّوْلِيَّةِ، وَالمَنَاطِقِ الْآمِنَةِ، فَيُدْفَعُ لِأَعْدَائِهِمْ، وَلَا زَالَ المُسْلِمُونَ تَحْتَ الحِصَارِ المُحْكَمِ؛ قُصِفُوا قَصْفًا عَنِيفًا، وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا، أَعَانَهُمُ اللهُ وَفَكَّ حِصَارَهُمْ! لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، فَالمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ غَائِبَةٌ، وَمَنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى مَعَهُ فَاللهُ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

اللَّهُمَّ فُكَّ حِصَارَهُمْ، وَانْصُرْهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالصِّرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ، اللَّهُمَّ خَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ وَشَتِّتْ شَمْلَهُمْ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ عَذَابَكَ وَرِجْزَكَ إِنَّكَ أَنْتَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ

أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤-٨].

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَاصِرِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَمَلَاذِ الْمُضْطَهَدِينَ، وَأَمْنِ الْخَائِفِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَبْتَلِي أَقْوَامًا بِالسَّرَّاءِ وَآخَرِينَ بِالضَّرَّاءِ، فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ سَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي إِخْوَانِكُمُ الْمَفْتُونِينَ فِي دِينِهِمْ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مِحْنَةَ الْبُوسْنَةِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مِحْنَةَ كُلِّ إِنْسَانٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. عَارٌ يُسَجِّلُهُ التَّارِيخُ فِي سِجِلِّ صَفَحَاتِنَا وَجِيلِنَا، تَسْتَاءُ مِنْهُ الْأَجْيَالُ الْقَادِمَةُ كُلَّمَا قَلَّبَتْ صَفَحَاتِ تَارِيخِنَا، وَقَرَأَتْ عَنْ هُزَالِنَا وَضَعْفِنَا وَتَخَلِّينَا عَنْ إِخْوَانِنَا، كَمَا نَسْتَاءُ كُلَّمَا طَالَعْنَا هُزَالَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

يَجِبُ أَنْ نَعِيشَ الْقَضِيَّةَ وَكَأَنَّهَا قَضِيَّتُنَا، بَلْ هِيَ قَضِيَّتُنَا! نَعِيشُهَا بِأَحَاسِيسِنَا وَوِجْدَانِنَا، بِقُلُوبِنَا وَأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا، لَا نَغْفُلُ عَنْهَا وَلَا نَنْسَاهَا، كَيْفَ نَنْسَاهَا وَفِيهَا مُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ يُفْتَنُونَ؟!

يَا مُسْلِمُ، يَا مُؤْمِنُ، فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَعِيشُ مَعَ الْقَضِيَّةِ قَلْبًا وَقَالَبًا، حَتَّى وَلَوْ

كَانَ بَعِيدًا فَقَلْبُهُ قَرِيبٌ مِنْهَا، يُحِسُّ كَأَنَّ الْقَضِيَّةَ تَعْنِيهِ وَحْدَهُ وَلَا تَعْنِي أَحَدًا غَيْرَهُ، فَيَدْفَعُهُ ذَلِكَ إِلَى الدَّعْمِ بِالمَالِ، وَرَفْعِ الْيَدَيْنِ بِالدُّعَاءِ، لَا يَفْتُرُ وَلَا يَغْفُلُ وَلَا يَنْسَى، وَلَا يَكِلُّ وَلَا يَمَلُّ، لَا يَزَالُ يَحُثُّ النَّاسَ حَوْلَهُ عَلَى مُنَاصَرَتِهِمْ وَمُؤَازَرَتِهِمْ. فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَنْ يَسْمَعُ عَنْهُمْ خَبَرًا مُفْزِعًا، أَوْ يَرَى مَشْهَدًا مُرَوِّعًا، فَيَكْتَفِي بِالْحَوْقَلَةِ وَالِاسْتِرْجَاعِ، ثُمَّ يَنْسَى بَعْدَ بُرْهَةٍ، وَكَأَنَّهُ أَعْطَى المَوْضُوعَ حَقَّهُ وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ.

فَرْقٌ بَيْنَ أُنَاسٍ هُمُومُهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَبَيْنَ آخَرِينَ هُمُومُهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ؛ إِشْبَاعًا لِلشَّهَوَاتِ، وَتَلْبِيَةً لِلرَّغَبَاتِ، لَا يُهِمُّهُمْ قَتْلُ الشُّعُوبِ المُسْلِمَةِ، وَلَا جُرُوحُ الْأُمَّةِ المُتَفَتِّقَةِ.

يَجِبُ إِحْيَاءُ الشُّعُورِ بِالْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، وَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الرَّابِطَةُ إِيمَانِيَّةً لَا وَطَنِيَّةً، وَلَا إِقْلِيمِيَّةً، فَأَمْرُ المُسْلِمِ الْبَعِيدِ أَهَمُّ وَأَوْلَى مِنْ أَمْرِ الْفَاجِرِ الْقَرِيبِ.

إِنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، وَالْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ لَيْسَتْ نُصُوصًا لِلْقِرَاءَةِ وَالْحِفْظِ فَحَسْبُ، كَمَا أَنَّهَا لَيْسَتْ لِلْمُفَاخَرَةِ وَالمُبَاهَاةِ أَمَامَ الْآخَرِينَ بِدِينِنَا، وَأَنَّهُ يُحَقِّقُ التَّرَاحُمَ وَالتَّكَافُلَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا، وَلَكِنَّ المُهِمَّ هُوَ الْعَمَلُ.

يَجِبُ أَنْ تُتَرْجَمَ هَذِهِ النُّصُوصُ إِلَى وَاقِعٍ عَمَلِيٍّ مَحْسُوسٍ؛ مِنْ نُصْرَةِ الضَّعِيفِ، وَنَجْدَةِ المَلْهُوفِ، وَبَذْلِ الْغَالِي وَالنَّفِيسِ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ الْأُخُوَّةِ، وَتَقْوِيَةِ الرَّابِطَةِ.

إِنَّ النَّصَارَى فِي أُورُبَّا يَجْمَعُونَ التَّبَرُّعَاتِ لِإِخْوَانِهِمُ الصِّرْبِ تَحْتَ شِعَارِ: ضِدَّ دُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي أُورُبَّا، قَائِلِينَ: ادْفَعْ دُولَارًا أَقْتُلْ لَكَ بِهِ مُسْلِمًا! فَمَاذَا سَيَفْعَلُ

المُسْلِمُونَ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ كَلَبُ الْعَدُوِّ، وَشِدَّةُ الْبَرْدِ، وَجَوْرُ النِّظَامِ، وَنَقْصُ المُؤْنَةِ، وَقِلَّةُ ذَاتِ الْيَدِ، وَخِيَانَةُ الْعَالَم.

يَحْتَاجُونَ إِلَى مَالٍ يُذَلِّلُ الصِّعَابَ، وَيُخَفِّفُ آلَامَ السِّيَاطِ، فَهَلْ نَهَبُ لَهُمُ المَالَ، وَهُمْ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالمَنِّ عَلَيْنَا. نِعْمَتَانِ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِمَا عَلَيْنَا: وَفْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِينَا، وَوُجُودُ جِهَةٍ يُصْرَفُ فِيهَا يَصْدُقُ عَلَيْهَا أَنَّ هَذَا المَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَمُسْلِمُونَ كَثِيرُونَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، وَقَدْ يُوجَدُ المَالُ، لَكِنْ لَا يُوجَدُ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى، هَا وَقَدِ اجْتَمَعَ الْأَمْرَانِ عِنْدَنَا، فَهَلْ نَحْنُ أَهْلٌ لِشُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ؟

أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

احْذَرُوا الشُّحَّ وَالْبُخْلَ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، فَجُودُوا جَادَ اللهُ عَلَيْكُمْ، وَتَصَدَّقُوا فَإِنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِينَ، وَلَا تَغْفُلُوا عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ، فَهُمْ أَحْوَجُ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ، وَتَحَرُّوا أَوْقَاتَ الْإِجَابَةِ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يَطَّلِعُ عَلَى صِدْقِكُمْ وَإِخْلَاصِكُمْ؛ فَيُنْزِلُ نَصْرَهُ، وَيَكْبِتُ عَدُوَّهُ.

بَارَكَ اللهُ لَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ وَأَعْمَارِكُمْ، وَتَقَبَّلَ اللهُ مِنَّا وَمِنْكُمْ.

ثُمَّ صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى الرَّحْمَةِ المُهْدَاةِ وَالنِّعْمَةِ المُسْدَاةِ، كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❊ ❊ ❊

٣٨٠- مأساة البوسنة (٢)

١/ ٣/ ١٤١٦هـ

إِنَّ الْحَمْدَ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا مَلِيئَةٌ بِالمَصَائِبِ وَالْكَوَارِثِ، وَفِي طَيَّاتِهَا الْعِبَرُ وَالدُّرُوسُ، فَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنٍ فَاحِصَةٍ إِلَيْهَا، وَاسْتَشَفَّ الدُّرُوسَ مِنْهَا؛ اجْتَنَبَ أَسْبَابَهَا؛ فَلَمْ تَتَكَرَّرْ مَعَهُ. وَمَنْ كَانَتْ تُصِيبُهُ فَيَتَأَوَّهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَاعْتِبَارٍ فَسَوْفَ يَنْتَكِسُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ، وَيَمْشِي إِلَى الْكَوَارِثِ بِرِجْلَيْهِ، وَيَعْمَلُ أَسْبَابَهَا، ثُمَّ يَلُومُ الْآخَرِينَ عَلَيْهَا.

وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لَا فَرْقَ فِيهَا بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ؛ إِذْ إِنَّ الْأُمَّةَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْأَفْرَادِ، وَأَزْمَةُ الْبُوسْنَةِ كَارِثَةٌ مِنَ الْكَوَارِثِ الَّتِي لَا تَزَالُ الْأُمَّةُ بِأَفْرَادِهَا وَدُوَلِهَا وَمُقَدَّرَاتِهَا لَا تُحْسِنُ التَّصَرُّفَ فِيهَا، كَمَا هِيَ لَمْ تُحْسِنْ مِنْ قَبْلُ التَّصَرُّفَ فِي مَثِيلَاتِهَا.

خَسِرَتِ الْأُمَّةُ فِلَسْطِينَ وَانْتَصَرَتْ عَلَى الْوَرَقِ، وَهَا هِيَ تَخْسَرُ الْبُوسْنَةَ وَتَنْتَصِرُ

فِي المَحَافِلِ وَالمَحَاكِمِ الدَّوْلِيَّةِ؛ إِذِ اعْتَرَفَ النَّصَارَى المُحَكَّمُونَ فِي قَضِيَّةِ الْبُوسْنَةِ بِأَنَّ الصِّرْبَ مُعْتَدُونَ، وَأَنَّهُمْ مُجْرِمُو حَرْبٍ، وَكَانَ نَصْرًا عَظِيمًا لِلْمَخْدُوعِينَ مِنَ المُسْلِمِينَ، لَكِنْ مَا هِيَ فَائِدَتُهُ؟! إِذَا كَانَتِ الْأَرْضُ لَا تَزَالُ تُحْتَلُّ، وَالشُّعُوبُ تُشَرَّدُ، وَالْأَبْرِيَاءُ يُقَتَّلُونَ، وَالنِّسَاءُ تُغْتَصَبُ، حَتَّى أَصْبَحَ المُسْلِمُونَ فِي الْبُوسْنَةِ يُثِيرُونَ شَفَقَةَ أَبْنَاءِ الدِّيَانَاتِ الْأُخْرَى، وَكَأَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُسْلِمُونَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ يَنْصُرُونَهُمْ، وَيُخَلِّصُونَهُمْ مِنْ كَلَبِ عَدُوِّهِمْ، وَظُلْمِ الْعَالَمِ لَهُمْ.

اسْتَنْكَرَ فِئَاتٌ مِنَ الْكُفَّارِ الْأَعْمَالَ الْبَشِعَةَ الَّتِي يُمَارِسُهَا الصِّرْبُ ضِدَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ، حَتَّى قَالَ أَحَدُ كِبَارِ مُؤَسِّسِي قَوَانِينِهِمْ: «إِنَّ المَسِيحِيِّينَ فِي عَصْرِنَا يُقْدِمُونَ فِي حُرُوبِهِمْ عَلَى أَعْمَالٍ تَسْتَحِيي مِنْهَا الْوُحُوشُ أَنْفُسُهَا»(١).

وَلَكِنْ مَاذَا عَنِ المُسْلِمِينَ؟ هَلْ تَحَرَّكُوا لِنَجْدَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَتَرَكُوا أَحَادِيثَ الْآمَالِ وَالْأَحْلَامِ؟

كَلَّا! إِنَّ الصَّمْتَ يُخَيِّمُ عَلَيْهِمْ، وَالسُّكُونَ وَالْهُدُوءَ النَّابِعَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ يَلُفُّهُمْ، فَمَا عَسَى تِلْكَ المَنَاظِرُ وَالْفَوَاجِعُ أَنْ تُحَرِّكَ أُمَّةً فَقَدَتِ الشُّعُورَ بِمَصَائِبِ أَبْنَائِهَا، وَمَاتَ إِحْسَاسُهَا، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: سَوْفَ يُدَوِّنُ التَّارِيخُ شَنَاعَةَ هَذِهِ المَذَابِحِ، وَيُدَوِّنُ مَعَهَا شَنَاعَةَ قَوْمٍ شُغِلُوا بِدُنْيَاهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمْ. سَيُسَجِّلُ التَّارِيخُ عَدَمَ مُبَالَاتِهِمْ بِرَابِطَةِ الدِّينِ، وَسَوْفَ يَذْكُرُ رَدِيءَ أَفْعَالِهِمْ وَاهْتِمَامَاتِهِمْ؛ يَتَنَعَّمُونَ بَيْنَما إِخْوَانُهُمْ يُحَرَّقُونَ،

---

(١) قائل ذلك هو: هوكو خروتيوس (ت ١٦٤٥م ١٠٥٠هـ) وهو أبو القانون الدولي الحديث، ينظر: نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، كمال السعيد حبيب، مجلة البيان، عدد (٩٠) ص(٩٢).

مُتْرَفُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَعِيشُونَ الْبُؤْسَ وَالْحِرْمَانَ.

سَيَذْكُرُ التَّارِيخُ أَنَّ عَشَرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرْسِكِ يُسْحَقُونَ وَيُشَرَّدُونَ عَلَى مَرْأًى وَمَسْمَعٍ مِنْ إِخْوَانِهِمْ، وَمَا تَحَرَّكُوا، وَلَا اهْتَزُّوا.

لَقَدْ مَرَّ بِالمُسْلِمِينَ مَذَابِحُ عَبْرَ تَارِيخِهِمُ الطَّوِيلِ، فَالتَّتَرُ ذَبَحُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَالنَّصَارَى فِي الْأَنْدَلُسِ فَعَلُوا مِثْلَ ذَلِكَ، وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ. وَحِينَمَا نَقْرَأُ وَنَسْمَعُ عَنْ تِلْكَ الْفَتَرَاتِ المُظْلِمَةِ مِنْ تَارِيخِ المُسْلِمِينَ نَقُولُ: وَأَيْنَ هُمْ إِخْوَانُهُمْ فِي الْأَقْطَارِ الْأُخْرَى؟ وَكُنَّا وَلَا نَزَالُ نَلُومُ السَّالِفِينَ مِنَّا عَلَى خِذْلَانِهِمْ لِإِخْوَانِهِمْ، وَنَعُدُّ ذَلِكَ عَارًا لَحِقَ بِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَهَا هِيَ الْأَحْدَاثُ تَتَكَرَّرُ بِصُورَةٍ أَبْشَعَ وَأَقْذَرَ، مَعَ أَنَّ سَالِفِينَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ بَعِيدِينَ عَنْ مَوَاقِعِ إِخْوَانِهِمْ، وَأَخْبَارُهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِمْ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ نُعْفِهِمْ مِنْ مَسْئُولِيَّتِهِمْ، وَلَمْ يَعْتَذِرِ التَّارِيخُ لَهُمْ، فَمَا هُوَ عُذْرُنَا وَنَحْنُ نُشَاهِدُ بِالصُّورَةِ الْحَيَّةِ وَالنَّقْلِ المُبَاشِرِ فُصُولًا مِنَ المَذَابِحِ وَالْجَرَائِمِ، وَنَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ عَوِيلَ الْأَطْفَالِ، وَصُرَاخَ الثَّكَالَى، وَاسْتِجْدَاءَاتِ المُشَرَّدِينَ، وَشَكَاوَى المَنْكُوبِينَ، ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ؟

نَقْفِلُ الشَّاشَةَ، وَنُدِيرُ المِذْيَاعَ، وَنُوَلِّي الْقَضِيَّةَ ظُهُورَنَا، مُقْبِلِينَ عَلَى لَذِيذِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ، مُهْتَمِّينَ بِمَا سَنَعْمَلُ فِي الْغَدِ وَبَعْدَ الْغَدِ، مِمَّا يُوَفِّرُ كَمًّا أَكْبَرَ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالمَلَذَّاتِ، مُعْرِضِينَ عَنْ إِخْوَانِنَا وَقَضِيَّتِهِمْ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا، وَكَأَنَّنَا نَعِيشُ فِي كَوْكَبٍ آخَرَ، أَوْ كَأَنَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ لَيْسُوا عَلَى دِينِنَا، وَرُبَّمَا كَانَ مُعِدُّ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ خَادِمًا نَصْرَانِيًّا أَوْ خَادِمَةً نَصْرَانِيَّةً عَلَى نَفْسِ دِينِ الصِّرْبِ وَمَذْهَبِهِمْ، وَيَحْمِلُ عَصَبِيَّتَهُمْ وَحِقْدَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ يَأْكُلُ طَعَامَنَا، وَيَشْرَبُ شَرَابَنَا، وَيُشَاهِدُ مَذَابِحَ إِخْوَانِنَا، وَيَتَشَفَّى فِينَا فِي دِيَارِنَا، يَا لَلْعَارِ وَالذِّلَّةِ!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: إِنَّ مَا يَجْرِي فِي الْبُوسْنَةِ خَطِيرٌ جِدًّا، لَكِنَّ الْأَخْطَرَ مِنْهُ إِعْرَاضُنَا عَنِ الْحَدَثِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْنِينَا، وَلَيْسَتْ مُصِيبَةُ الْمَذَابِحِ بِأَعْظَمَ مِنْ مُصِيبَةِ ذَبْحِ الْإِحْسَاسِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ كُلِّهِمْ، وَفِي الْبُوسْنَةِ ذُبِحَ الْآلَافُ مِنْ أَبْنَائِهَا، وَذُبِحَ مَعَهُمْ إِحْسَاسُ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا ذُبِحَ الْإِحْسَاسُ فَلَنْ يَتَحَرَّكَ النَّاسُ، وَلَوْ كَانَ الْعَدُوُّ فِي أَطْرَافِ بِلَادِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي يَزِيدُ طُغْيَانَ الْأَعْدَاءِ، وَيَجْعَلُ الصِّرْبَ فِي مَأْمَنٍ مِنْ غَضْبَةِ الْمُسْلِمِينَ.

أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ الصِّرْبَ، وَمَعَهُمْ هَيْئَةُ الْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ وَدُوَلُ الْكُفْرِ كَافَّةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلُوا أَيَّ عَمَلٍ يَحْسُبُونَ رَدَّةَ فِعْلِ مِئَاتِ الْمَلَايِينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَكَانُوا يُقْدِمُونَ عَلَى هَذَا التَّوَاطُؤِ الرَّهِيبِ، وَتِلْكَ الْأَعْمَالِ الشَّنِيعَةِ؟!

أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ أَنَّنَا خُدِّرْنَا، وَذُبِحَ إِحْسَاسُنَا، وَفَقَدْنَا صَوَابَنَا، ثُمَّ إِذْ بِنَا نَلُومُ عَدُوَّنَا، سُبْحَانَ اللَّهِ! هَلْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَظُنُّونَ أَنَّ الْأَعْدَاءَ سَيُنَاصِرُونَ قَضَايَاهُمْ حَتَّى يَسْتَجْدُوهُمْ، أَوْ يُحَرِّرُونَ مَا اغْتُصِبَ مِنْ أَرَاضِيهِمْ حَتَّى يَلُوذُوا بِهِمْ؟!

إِنَّ مِنَ الْقَبِيحِ جِدًّا أَنْ نَلُومَ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى تَنْفِيذِ مُخَطَّطَاتِهِمْ، وَالْحُرُوبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ تَمْتَدُّ إِلَى قُرُونٍ وَعُقُودٍ، وَمِنَ الْقَبِيحِ أَيْضًا أَنْ نَجْعَلَ الْمَسْئُولِيَّةَ عَلَى دُوَلِ النَّصَارَى الْعُظْمَى الَّتِي تَرَى فِي إِذْلَالِ الْمُسْلِمِينَ وَاجِبًا دِينِيًّا مُقَدَّسًا، وَتَجْعَلُ مِنْ دِمَاءِ الْبُوسْنِيِّينَ قَرَابِينَ تُقَدِّمُهَا لِلصَّلِيبِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا يَزَالُ فِينَا -نَحْنُ الْعَرَبَ- قَوْمٌ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَرْبَ فِي الْبُوسْنَةِ لَيْسَتْ حَرْبًا دِينِيَّةً، بَلْ حَرْبٌ وَطَنِيَّةٌ عِرْقِيَّةٌ، وَالنَّصَارَى لَيْسُوا مُتَوَاطِئِينَ مَعَ الصِّرْبِ، فَهَلْ مَنْ يَقُولُونَ ذَلِكَ الْقَوْلَ يَعِيشُونَ عَلَى الْأَرْضِ أَمْ أَيْنَ يَعِيشُونَ؟! تَصْرِيحَاتُ الصِّرْبِ وَمِنْ وَرَائِهِمُ الْغَرْبُ بِوُجُوبِ الْقَضَاءِ عَلَى أَيَّةِ بَوَادِرَ لِقِيَامِ دَوْلَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي أُورُبَّا، هَلْ سَمِعَهَا قَوْمُنَا هَؤُلَاءِ؟ وَالْعُهُودُ الَّتِي نُقِضَتْ عَشَرَاتِ الْمَرَّاتِ، تَحْتَ مَظَلَّاتِهِمُ الدَّوْلِيَّةِ، تَمَاشِيًا مَعَ مَا

قَالَهُ كَبِيرٌ مِنْ بَابَاوَتِهِمْ: إِنَّ الْغَدْرَ إِثْمٌ، وَلَكِنَّ الْوَفَاءَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ أَكْبَرُ إِثْمًا[٢].

هَذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةُ . . دِينٌ وَعَقِيدَةٌ، فَمَتَى يُدْرِكُ قَوْمُنَا ذَلِكَ؟

وَآخَرُونَ يَقُولُونَ: إِنَّ مُسْلِمِي الْبُوسْنَةِ مُسْلِمُونَ بِالِاسْمِ، وَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمُ الِالْتِزَامُ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ!

وَمَا عَلِمَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ نَحْنُ لَا هُمْ، ضَرَبَتِ الشُّيُوعِيَّةُ سِتَارَهَا الْحَدِيدِيَّ عَلَيْهِمْ رَدْحًا مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ لَمَّا سَقَطَتْ تَسَلَّطَ النَّصَارَى الْحَاقِدُونَ، وَمَا أَدَّيْنَا وَاجِبَنَا نَحْوَهُمْ فِي التَّعْلِيمِ وَالْإِرْشَادِ، وَالَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَيْهِمْ مِنْ إِخْوَانِنَا لَيَحْكُونَ عَنْ سُرْعَةِ اسْتِجَابَتِهِمْ لِأَوَامِرِ الدِّينِ، وَتَعَطُّشِهِمْ لِمَعْرِفَةِ الْمَزِيدِ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ الْحَنِيفِ، وَيَكْفِي فِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يُعْلِنُونَ إِسْلَامَهُمْ رَغْمَ الْحَدِيدِ وَالنَّارِ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى رِقَابِهِمْ وَأَجْسَادِهِمْ، وَرَغْمَ تَشْرِيدِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ، لَقَدْ أَصَابَهُمْ مِنَ الْكَرْبِ وَالشِّدَّةِ مَا لَوْ أَصَابَ جُمُوعًا مِنْ إِخْوَانِنَا الْعَرَبِ لَارْتَدُّوا عَنْ إِسْلَامِهِمْ.

وَظَهَرَ فِينَا مَنْ يَقُولُ: نَخْشَى أَنْ نُنَاصِرَهُمْ فَيُعِيدُوا لَنَا ذِكْرَى الْأَفْغَانِ، فِي التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ إِلَى حَدِّ الِاقْتِتَالِ!

وَكَمْ فِي هَذِهِ التَّعْلِيلَاتِ مِنْ تَخْذِيلٍ وَإِرْجَافٍ وَتَخَلٍّ عَنْهُمْ! وَكَمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ مِنْ جَرِيمَةٍ وَدَعْمٍ لِلصِّرْبِ الصَّلِيبِيِّينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ! وَكَمْ فِيهِ مِنْ مِنَّةٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَذًى فِي الْبَذْلِ وَالْعَطَاءِ!!

إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْطَلِقُ فِي مُنَاصَرَتِهِ لِإِخْوَانِهِ الْمَقْهُورِينَ الْمَظْلُومِينَ، وَفِي بَذْلِهِ وَدُعَائِهِ مِنْ ثَوَابِتَ إِيمَانِيَّةٍ، وَقَوَاعِدَ شَرْعِيَّةٍ؛ فَهُوَ يُنَاصِرُ إِخْوَانَهُ لَا لِأَجْلِ حُقُوقِ

(٢) قائل ذلك هو: البابا أربانوس السادس، ينظر: نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، كمال السعيد حبيب، مجلة البيان، عدد (٩٠) ص(٩٢).

الْإِنْسَانِ، أَوْ لِإِرْضَاءِ الرَّأْيِ الْعَالَمِيِّ، وَلَا نُصْرَةً لِطَائِفَةٍ أَوْ حِزْبٍ فِي عَصَبِيَّاتٍ ضَيِّقَةٍ، بَلْ هُوَ يُنَاصِرُهُمْ؛ لِأَنَّ الْمُنَاصَرَةَ عِبَادَةٌ وَطَاعَةٌ، يُؤَدِّي التَّقْصِيرُ فِيهَا إِلَى ارْتِكَابِ مُحَرَّمٍ، وَتَعْطِيلِ فَرِيضَةٍ. يُؤْمِنُ بِأَنَّ التَّقْصِيرَ فِيهَا يَخْتَلُّ مَعَهُ رُكْنُ الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَسَاسَاتِ الدِّينِ الْعِظَامِ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْفُلُونَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْقَضِيَّةِ مِنْ جَوَانِبَ أُخْرَى لَيْسَتْ شَرْعِيَّةً، وَالْجَانِبُ الشَّرْعِيُّ هُوَ أَنَّ الْمُسْلِمَ حِينَمَا يُنَاصِرُ إِخْوَانَهُ الَّذِينَ يُضْطَهَدُونَ فِي دِينِهِمْ إِنَّمَا يُنَاصِرُ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَالْمُسْلِمُونَ نَاصَرُوا الْأَفْغَانَ إِلَى أَنْ طَرَدُوا الْمُعْتَدِي، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسُوا مُكَلَّفِينَ بِمَا حَدَثَ مِنْ شِقَاقٍ وَاخْتِلَافٍ وَاقْتِتَالٍ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَدَّمُوا لَنْ يَضِيعَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. وَهَكَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقِفُوا مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْبُوسْنَةِ؛ انْتِصَارًا لِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَنْ يُكَلَّفُوا بِمَا يَجْرِي بَعْدَ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ يَدٌ.

أَرَأَيْتُمْ -يَا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- كَيْفَ أَنَّنَا نُجَادِلُ وَنُنَاقِشُ، وَإِخْوَانُنَا تَسِيلُ دِمَاؤُهُمْ، وَتَسْقُطُ أَشْلَاؤُهُمْ، وَتُمَزَّقُ أَجْسَادُهُمْ، وَيُيَتَّمُ أَطْفَالُهُمْ، وَتُنْتَهَكُ أَعْرَاضُهُمْ، وَتُخَرَّبُ دِيَارُهُمْ؟!

بَعْدَ هَذَا، أَلَيْسَ مِنَّا مَنْ يَعِيشُ عِيشَةَ عَدِيمِ الْإِحْسَاسِ، لَا نَكْتَرِثُ لِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ إِخْوَانِنَا، كَأَنَّ دُنْيَانَا لَا تَمْتَلِئُ بِالْكَوَارِثِ وَالْأَرْزَاءِ وَالْمَصَائِبِ، وَكَأَنَّ أُمَّتَنَا لَا تُقِيمُ فِي بَعْضِ أَجْزَائِهَا مَآتِمَ الْحُزْنِ عَلَى الضَّحَايَا وَالْمُشَرَّدِينَ، فَاللَّهُمَّ غُفْرَانَكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ، وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ، نَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، نَسْأَلُكَ بِأَنْ تَرْفَعَ الْبَلَاءَ عَنْ إِخْوَانِنَا فِي الْبُوسْنَةِ،

اللَّهُمَّ اكْشِفْ ضُرَّهَمُ، وَأَزِلْ كُرْبَتَهُمْ. اللَّهُمَّ انْصُرْهُمْ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. اللَّهُمَّ أَيِّدْهُمْ بِتَأْيِيدِكَ، وَأَنْزِلْ مَعَهُمْ مَلَائِكَتَكَ. اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالصِّرْبِ الظَّالِمِينَ، وَمَنْ أَعَانَهُمْ فِي ظُلْمِهِمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ أَذِقْهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلْوَانًا، وَجَرِّعْهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ كِيزَانًا. اللَّهُمَّ أَقِرَّ أَعْيُنَنَا فِيهِمْ، وَأَرِنَا فِيهِمْ عَجَائِبَ قُدْرَتِكَ. اللَّهُمَّ أَوْقِفْ زَحْفَهُمْ، وَنَكِّسْ رَايَتَهُمْ، وَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ خَاسِرِينَ. اللَّهُمَّ كُنْ لِلْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى وَالْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُشَرَّدِينَ. اللَّهُمَّ سُدَّ جُوعَهُمْ، وَارْوِ عَطَشَهُمْ، وَاسْتُرْ عَوْرَاتِهِمْ، وَاحْفَظْ أَعْرَاضَهُمْ، وَآمِنْ خَوْفَهُمْ، وَرُدَّهُمْ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَهْلِهِمْ سَالِمِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أَنْتَ حَسْبُنَا وَحَسْبُهُمْ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، اسْتَجِبْ يَا كَرِيمُ.

وَأَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ، حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ- لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، اتَّقُوهُ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّقُوهُ فِي إِخْوَانِكُمُ الَّذِينَ يُفْتَنُونَ فِي دِينِهِمْ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ: بَلَغَ مِنْ وَقَاحَةِ أَعْدَائِنَا، وَأَمْنِهِمْ مِنْ غَضْبَتِنَا، أَنَّ مَسْئُولَهُمْ الدَّوْلِيَّ حِينَمَا أَخْبَرَ أَنَّ المَلَاذَاتِ الْآمِنَةَ سَتَسْقُطُ الْوَاحِدَةُ تِلْوَ الْأُخْرَى، وَأَنَّ قُوَّاتِهُمْ لَا تَسْتَطِيعُ إِزَاءَ ذَلِكَ عَمَلَ أَيِّ شَيْءٍ، قِيلَ لَهُ: فَمَا رَأْيُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ

يَجِبُ عَلَى الضَّحَايَا ضَبْطُ النَّفْسِ!

مَا هَذِهِ الْوَقَاحَةُ؟! أَيْ: عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَتَحَرَّكُوا، وَأَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلذَّبْحِ وَالْقَتْلِ، وَهُوَ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَ إِلَّا لِيَقِينِهِ أَنَّهُ لَا أَحَدَ سَيُؤَدِّبُهُ أَوْ يُحَاسِبُهُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ، فَالمُؤَامَرَةُ قَدْ وُزِّعَتْ أَدْوَارُهَا فِي هَذَا الضَّعْفِ الشَّدِيدِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَعْنَى ذَلِكَ الِاسْتِسْلَامَ وَالْخُنُوعَ، فَنَحْنُ أُمَّةٌ نَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّنَا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَأَنَّ عَدُوَّنَا عَلَى الْبَاطِلِ وَهُوَ مُدْحُوضٌ، وَأَعْدَاؤُنَا النَّصَارَى لَا زَالُوا يَرْفَعُونَ شِعَارًا ضِدَّ دُخُولِ الْإِسْلَامِ فِي أُورُبَّا، وَيَجْمَعُونَ التَّبَرُّعَاتِ لِإِخْوَانِهِمُ الصِّرْبِ تَحْتَ لَافِتَاتٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْهَا: ادْفَعْ دُولَارًا أَقْتُلْ لَكَ بِهِ مُسْلِمًا!

وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الدُّولَارُ المَدْفُوعُ جَاءَ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَثَرَوَاتِهِمْ عَبْرَ الْعَمَالَةِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَمَتَى نَعْقِلُ وَنُدْرِكُ أَنَّ الْأَعْدَاءَ أَعْدَاءٌ، وَلَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ؟ وَمَتَى نَشْعُرُ بِمُصَابِ إِخْوَانِنَا؟

وَمَعَ أَنَّ دُوَلَ الصَّلِيبِ الْعُظْمَى تَقِفُ بِجَانِبِ الصِّرْبِ أَوْ عَلَى الْحِيَادِ، فَإِنَّ أَفْرَادَهُمْ أَحَسُّوا بِمَسْئُولِيَّاتِهِمْ، وَأَخَذُوا يَجْمَعُونَ المَعُونَاتِ تَحْتَ رَايَاتِ الصَّلِيبِ؛ لِسَحْقِ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ فِي أُورُبَّا، أَلَسْنَا أَحَقَّ بِذَلِكَ وَأَوْلَى مِنْهُمْ؟!

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: يَجِبُ أَنْ نُؤَدِّيَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَلَنْ يَتَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِذَلِكَ، يَجِبُ أَنْ يُحِسَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا أَنَّهُ وَحْدَهُ المَسْئُولُ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ مَسْئُولًا، فَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ؟

وَلَنَا فِي سَلَفِنَا الصَّالِحِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَذَا زُهَيْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ المَرْوَزِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الْهِجْرِيِّ اشْتَهَى لَحْمًا، فَقَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنْ لَا يَأْكُلَهُ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْفَاتِحِينَ لِبِلَادِ الرُّومِ، فَمَكَثَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْكُلْ لَحْمًا حَتَّى فُتِحَتِ

الرُّومُ، فَدَخَلَهَا فَأَكَلَهُ مِنَ المَغَانِمِ، وَقَدْ رَابَطَ رَحِمَهُ اللهُ بِطَرْطُوسَ إِلَى أَنْ مَاتَ[٣].

وَعَمُّورِيَّةُ فُتِحَتْ بِصَرْخَةِ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، حِينَمَا اسْتَنْجَدَتْ بِالْمُعْتَصِمِ، فَسَمِعَ هَذِهِ الصَّرْخَةَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ فِي بِلَادِ الرُّومِ، فَقَطَعَ المَسَافَاتِ الطَّوِيلَةَ حَتَّى بَلَّغَهَا المُعْتَصِمَ، وَلَمْ يَقُلْ: وَمَاذَا أَفْعَلُ وَحْدِي؟! فَكَانَتْ هَذِهِ الصَّرْخَةُ، وَذَلِكَ الْبَلَاغُ مِنَ الرَّجُلِ سَبَبًا فِي جَيْشٍ جَرَّارٍ أَوَّلُهُ عِنْدَ الرُّومِ وَآخِرُهُ عِنْدَ المُسْلِمِينَ.

مَاذَا عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي عِنْدَهُ عَمَالَةٌ مِنْ عُبَّادِ الصَّلِيبِ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُمْ، وَيَسْتَبْدِلَ بِهِمْ مُسْلِمِينَ؛ نَجْدَةً لِإِخْوَانِهِ، وَإِرْغَامًا لِلْكُفَّارِ؟

وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يُقَدَّمُ لِإِخْوَانِنَا المُسْتَضْعَفِينَ فِي الْبُوسْنَةِ وَالْهَرْسِكِ كَثْرَةُ الدُّعَاءِ لَهُمْ، وَتَحَرِّي أَوْقَاتِ الْإِجَابَةِ؛ فَذَلِكَ مِمَّا نُطِيقُ، فَمَا بَالُنَا نَغْفُلُ عَنِ الدُّعَاءِ لَهُمْ؟! مَعَ بَذْلِ المَالِ لَهُمْ حَسَبَ الْقُدْرَةِ وَالطَّاقَةِ.

وَيَجِبُ عَلَى أَفْرَادِ الْبَيْتِ المُسْلِمِ أَنْ يَعِيشُوا قَضِيَّةَ إِخْوَانِهِمْ، فَرَبُّ الْأُسْرَةِ يُذَكِّرُ نِسَاءَهُ وَأَوْلَادَهُ بِهَا، وَيَحُثُّهُمْ عَلَى مُؤَازَرَةِ إِخْوَانِهِمْ، وَإِذَا وَعَى أَفْرَادُ الْأُمَّةِ ذَلِكَ، وَفَهِمُوا دَوْرَهُمْ، وَأَدَّوْا وَاجِبَهُمْ تَنَزَّلَ نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْتَلِي المُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ بِهَذِهِ الْقَضَايَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُونَ، وَاللهُ تَعَالَى لَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ حَتَّى يُنَزِّلَ نَصْرَهُ، وَلَكِنَّهُ الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ لَنَا، فَهَلْ نَجْتَازُهُ بِحُسْنِ عَمَلٍ وَاخْتِيَارٍ؟ ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وَإِنَّ مَنْ ضَاقَتْ نَفْسُهُ، وَتَحَسَّرَ قَلْبُهُ عَلَى مَا يُفْعَلُ بِإِخْوَانِهِ فَلَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ، وَلَمْ يَرْقَأْ لَهُ دَمْعٌ، وَلَمْ يَهْنَأْ بِطَعَامٍ فَإِنَّهُ مَأْجُورٌ عَلَى هَذَا الْهَمِّ وَالْإِحْسَاسِ، وَمَنْ مَدَّ يَدَهُ بِالمَالِ وَأَكْثَرَ الدُّعَاءَ فَهُوَ مَأْجُورٌ كَذَلِكَ. وَالمُهِمُّ أَنْ لَا تَمُوتَ الْقَضِيَّةُ فِي

(٣) تهذيب التهذيب لابن حجر (٣/ ٣٤٨).

قُلُوبِنَا وَفِي بُيُوتِنَا وَأَسْوَاقِنَا وَأَعْمَالِنَا. وَالْفَرَجُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنَّصْرُ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاعْرِفُوا حُقُوقَ إِخْوَانِكُمْ؛ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَكْشِفَ الضُّرَّ، وَيُزِيلَ الْكَرْبَ، وَيَسْتَجِيبَ الدُّعَاءَ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...



٣٨١- الشرق الإسلامي بين المشروع الروماني والطمع الفارسي

٣/ ٧/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا يَقَعُ شَيْءٌ إِلَّا بِأَمْرِهِ، وَلَا يُقْضَى شَأْنٌ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرَّعْد: ٢]، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا وَأَوْلَانَا، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا وَآوَانَا، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لَمْ يَقْدُرْهُ الْخَلْقُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا عَبَدُوهُ حَقَّ عِبَادَتِهِ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]. وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا وَحَبِيبَنَا وَقُدْوَتَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ مَهْمَا بَلَغُوا مُفْتَقِرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَحِينٍ، وَإِذَا اشْتَدَّتِ الْمِحَنُ، وَعَظُمَ الْكَرْبُ، فَلَا فَرَجَ وَلَا مَخْرَجَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيمِ الْقَدِيرِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يُونُس: ٣١، ٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً بِدِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَةُ وَالْعَدْلُ، ثُمَّ كَانَتِ النِّعْمَةُ الْخَاصَّةُ لِمَنْ أَسْلَمَ دِينَهُ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ الْحَقَّ

مِنْ رَبِّهِ، وَجَانَبَ الْبَاطِلَ بِأَدْيَانِهِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَمَذَاهِبِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ، فَانْخَلَعَ مِنْ أَدْرَانِ الْوَثَنِيَّةِ، وَمِنْ أَوْضَارِ الْأَدْيَانِ الْمُحَرَّفَةِ، وَسَلِمَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْإِحْدَاثِ وَالْبِدْعَةِ، فَكَانَ إِسْلَامُهُ نَقِيًّا صَافِيًا كَمَا شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى وَارْتَضَاهُ، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ لَا يُدْرِكُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عِظَمَهَا وَقَدْرَهَا، فَلَا يَشْكُرُونَ الْمُنْعِمَ عَلَيْنَا بِهَا ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَيَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحُجُرَات: ١٧].

إِنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا يُذْكَرُ، وَلَا أُمَّةً تُعْرَفُ فَتُهَابُ، وَلَمْ يَحْسِبِ الْآخَرُونَ لَهَا أَيَّ حِسَابٍ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبَائِلَ مُتَفَرِّقَةً، وَعَشَائِرَ مُتَنَاحِرَةً، يُفْنِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي سَبِيلِ نَاقَةٍ عُقِرَتْ، أَوْ خَيْلٍ سُبِقَتْ، أَوْ كَلِمَةٍ قِيلَتْ، وَكَانَتِ السِّيَادَةُ لِلْفُرْسِ وَالرُّومِ.

لَقَدْ كَانَتِ الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُتَاخِمَةُ لِبِلَادِ الْفُرْسِ أَوْ لِبِلَادِ الرُّومِ تَابِعَةً لِإِحْدَى هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ آنَذَاكَ؛ فَمُلُوكُهُمْ يُعَيَّنُونَ بِقَرَارَاتٍ مِنْ قُصُورِ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقَيَاصِرَةِ، وَأَبْنَاؤُهُمْ يُرْمَى بِهِمْ بَيْنَ السُّيُوفِ وَالرِّمَاحِ لِصُنْعِ أَمْجَادٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ لِمُلُوكِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ، فَاصْطَنَعَ الْفُرْسُ قَبِيلَةَ لَخْمٍ وَمَنَحُوا رُؤَسَاءَهَا لَقَبَ «الْمُلُوكِ» فَكَانَ مِنْهُمْ مُلُوكُ الْمَنَاذِرَةِ[1]، وَاصْطَنَعَ الرُّومُ قَبِيلَةَ تَنُوخَ وَمَنَحُوا رُؤَسَاءَهَا أَيْضًا لَقَبَ «الْمُلُوكِ» فَكَانَ مِنْهُمْ مُلُوكُ غَسَّانَ[2]، وَكَمْ أُهْرِيقَتْ مِنْ دِمَاءٍ لِأَبْنَاءِ هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ وَأَحْلَافِهِمَا فِي سَبِيلِ عَرْشَيْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ.

وَالْحَرْبُ بَيْنَ فَارِسَ وَالرُّومِ قَدِيمَةٌ قِدَمَ دَوْلَتَيْهِمَا، تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِلْفُرْسِ تَارَةً، وَتَارَةً أُخْرَى تَكُونُ الْغَلَبَةُ لِلرُّومَانِ. وَالْفُرْسُ أَسْبَقُ فِي الدَّوْلَةِ وَالْقُوَّةِ مِنَ الرُّومَانِ.

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ١٩٢)، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٠٩) وما بعدها.

(٢) ينظر تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣٣) وما بعدها.

وَلمَّا سُبِيَ الْيَهُودُ بِأَيْدِي الْبَابِلِيِّينَ وَنُقِلُوا إِلَى الْعِرَاقِ أَعَادَهُمْ إِمْبِرَاطُورُ فَارِسَ قُورَشُ الْإِخْمِينِيُّ إِلَى فِلَسْطِينَ(٣) قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عليه السلام بِخَمْسَةِ قُرُونٍ وَزِيَادَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ تَقَارُبٍ تَارِيخِيٍّ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيَهُودِ.

وَقَبْلَ الْمِيلَادِ بِثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَزِيَادَةٍ قَامَتْ لِلرُّومَانِ دَوْلَةٌ وَثَنِيَّةٌ قَوِيَّةٌ عَلَى يَدِ الْإِسْكَنْدَرِ الْمَقْدُونِيِّ(٤) الَّذِي يَعُدُّهُ الْأُورُبِّيُّونَ أَعْظَمَ قَائِدٍ رُومَانِيٍّ فِي التَّارِيخِ، فَقَضَى عَلَى دَوْلَةِ الْفُرْسِ، وَضَمَّهَا إِلَى مَمْلَكَتِهِ، وَلَكِنَّ الْفُرْسَ أَعَادُوا دَوْلَتَهُمْ بَعْدَ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَقَوِيَتْ دَوْلَتُهُمْ بَعْدَ قُرُونٍ خَمْسَةٍ فِي عَهْدِ السَّاسَانِيِّينَ، وَظَلَّتِ الْحُرُوبُ وَالثَّارَاتُ مُشْتَعِلَةً بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ قُرُونًا تِبَاعًا، وَكَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ مِنْ حَطَبِ حُرُوبِهِمْ.

وَبَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ شَنَّ كِسْرَى الْفُرْسِ إِبْرُوِيزَ حَرْبًا ضَرُوسًا عَلَى الرُّومِ اسْتَوْلَى فِيهَا عَلَى بِلَادِ الشَّامِ وَمِصْرَ، وَسَلَبَ الرُّومَانَ صَلِيبَهُمُ الْأَكْبَرَ، وَنَقَلَهُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْمَدَائِنِ عَاصِمَةِ الْفُرْسِ.

وَهَذِهِ الْحَادِثَةُ هِيَ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١-٦]؛ أَيْ: غَلَبَهُمُ الْفُرْسُ، وَسَيُغْلَبُ الْفُرْسُ عَلَى أَيْدِي الرُّومَانِ بِوَعْدٍ مِنَ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ؛ وَوَقَعَ ذَلِكَ؛ إِذْ تَوَلَّى هِرَقْلُ عَرْشَ الْقَيَاصِرَةِ فَشَنَّ حَرْبًا ضَرُوسًا عَلَى

---

(٣) ينظر: المنتظم (١/ ٤١٠) وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ١٢٦-١٣٦)، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين الحنبلي (١/ ١٥١) وما بعدها.

(٤) تنظر أخباره في: تاريخ الطبري (١/ ٣٣٥)، والمنتظم (١/ ٣٣٥)، والكامل (١/ ٢١٤) وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٢٢٠).

الْفُرْسِ اسْتَرَدَّ بِهَا الشَّامَ وَمِصْرَ، وَهَاجَمَ الْفُرْسَ فِي بِلَادِهِمْ، وَكَسَرَ قُوَّتَهُمْ، وَاسْتَوْلَى عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَفَرَضَ الْجِزْيَةَ عَلَيْهِمْ(٥).

وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ لِيَبْدَأَ عَهْدٌ جَدِيدٌ عَلَى أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِ بِلَادِ الْفُرْسِ وَبِلَادِ الرُّومِ، فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٦)، وَفِي حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى**»(٧).

وَبَشَّرَ ﷺ أَوَّلَ جَيْشٍ مُسْلِمٍ يَغْزُو الرُّومَ فَقَالَ ﷺ: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٨).

وَأَخْبَرَ عَنِ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى قَصْرِ كِسْرَى فَقَالَ ﷺ: «**عُصَيْبَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ بَيْتَ كِسْرَى**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٩).

وَلَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَقِبَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ كَتَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ آنَذَاكَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَمِنْهُمْ كِسْرَى

---

(٥) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٧) تفسير أول سورة الروم.

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في أبواب الخمس، باب قول النبي ﷺ «أحلت لكم الغنائم» (٢٩٥٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر رجل بقبر رجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٨).
وجاء من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه عند: البخاري (٢٩٥٣)، ومسلم (٢٩١٩).

(٧) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٠)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة الفاتحة (٢٩٥٣).

(٨) أخرجه من حديث أم حرام رضي الله عنها: البخاري في الجهاد والسير، باب ما قيل في قتال الروم (٢٧٦٦).

(٩) أخرجه من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: مسلم في الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨٢٢).

وَقَيْصَرُ؛ فَأَمَّا كِسْرَى فَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَاسْتَكْبَرَ ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمَهُ؛ لِمَا قَامَ فِي قُلُوبِ الْفُرْسِ مِنِ احْتِقَارِ الْعَرَبِ، وَالْإِزْرَاءِ بِهِمْ، فَمَزَّقَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ، فَدَعَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُمَزِّقَ اللهُ مُلْكَهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ(١٠).

وَأَمَّا قَيْصَرُ الرُّومِ فَقَدْ مَشَى مِنْ حِمْصَ إِلَى الْقُدْسِ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى لَمَّا نَصَرَهُ عَلَى الْفُرْسِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ طَلَبَ أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ يَسْأَلُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ الْمَسْؤُولُ أَبَا سُفْيَانَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ، وَجَرَتِ الْمُحَاوَرَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي أَعْلَنَ فِيهَا هِرَقْلُ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ لِأَبِي سُفْيَانَ: «وَإِنْ يَكُ مَا قُلْتَ حَقًّا فَيُوشِكُ أَنْ يَمْلِكَ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَلَوْ أَرْجُو أَنْ أَخْلُصَ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ قَدَمَيْهِ»(١١)، وَكَادَ هِرَقْلُ أَنْ يُسْلِمَ؛ لَوْلَا خَوْفُهُ عَلَى مُلْكِهِ. فَخَسِرَ الْإِسْلَامَ، وَمَا بَقِيَ لَهُ الْمُلْكُ.

وَبَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَوَفَاةِ الصِّدِّيقِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، وَفِي خِلَافَةِ الْفَارُوقِ عُمَرَ رضي الله عنه كَسَرَ الْمُسْلِمُونَ الرُّومَ فِي وَقْعَةِ الْيَرْمُوكِ، وَفَتَحُوا الشَّامَ وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ بِقِيَادَةِ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ رضي الله عنهما، وَوَدَّعَ هِرَقْلُ سُورِيَّةَ وَدَاعًا لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ(١٢).

ثُمَّ كَسَرَ الْمُسْلِمُونَ الْفُرْسَ فِي الْقَادِسِيَّةِ بِقِيَادَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه، وَتَتَبَّعَهُمْ سَعْدٌ فِي مَوَاقِعَ كَثِيرَةٍ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الْمَدَائِنَ عَاصِمَةَ الْفُرْسِ،

---

(١٠) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند: البخاري في المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (٤١٦٢).

(١١) كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة لقاء هرقل أبي سفيان رضي الله عنه عند: البخاري في الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله (٢٧٨٢).

(١٢) ينظر: فتوح البلدان للبلاذري (١٤٢)، والبداية والنهاية (٧/ ٥٣)، والكامل (٢/ ٣٤١-٣٤٢)، وبغية الطلب في تاريخ حلب (١/ ٥٧٤).

وَأَخْضَعَهَا لِلْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ سَعْدٌ قَصْرَ كِسْرَى الْأَبْيَضَ الَّذِي بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِهِ، وَصَلَّى سَعْدٌ رضي الله عنه فِي إِيوَانِهِ(١٣). ثُمَّ قَضَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى تَجَمُّعَاتِ الْفُرْسِ فِي نَهَاوَنْدَ بِقِيَادَةِ النُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ الْمُزَنِيِّ رضي الله عنه سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ لِلْهِجْرَةِ(١٤).

وَهَكَذَا انْتَهَتِ الدَّوْلَتَانِ الْعَظِيمَتَانِ آنَذَاكَ؛ فَارِسُ وَالرُّومُ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا شُعُوبُ هَاتَيْنِ الدَّوْلَتَيْنِ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ دَخَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَقِيَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ تَحْتَ حُكْمِ الْمُسْلِمِينَ بِعَقْدِ الذِّمَّةِ، ثُمَّ أَسْلَمَ أَكْثَرُهُمْ لَمَّا عَرَفُوا الْإِسْلَامَ، وَرَأَوْا عَدْلَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ، وَرَحْمَتَهُمْ بِهِمْ، حَتَّى كَانُوا أَرْحَمَ بِهِمْ مَنْ سَاسَتِهِمُ الَّذِينَ حَكَمُوهُمْ مِنْ قَبْلُ، وَبَعْضُهُمْ هَاجَرُوا إِلَى بِلَادٍ لَمْ يَصِلْهَا الْإِسْلَامُ، وَبَعْضُهُمْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَبْطَنَ الْكُفْرَ، وَعَمِلَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْبَاطِنِيُّونَ عَلَى زَعْزَعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دَاخِلِهِمْ بِبَثِّ الْفُرْقَةِ بَيْنَهُمْ، وَنَشْرِ الْأَرَاجِيفِ فِيهِمْ.

وَذَاتَ يَوْمٍ ظَهَرَ الْحِقْدُ الْفَارِسِيُّ الْمَجُوسِيُّ عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه الَّذِي فُتِحَتْ فَارِسُ فِي خِلَافَتِهِ؛ إِذْ طَعَنَهُ غُلَامٌ مَجُوسِيٌّ كَانَ يَمْسَحُ عَلَى رُؤُوسِ الصِّبْيَانِ الْفُرْسِ وَيَقُولُ: أَكَلَتِ الْعَرَبُ كَبِدِي، أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي(١٥)، فَغَدَرَ بِالْمُسْلِمِينَ وَقَدْ أَمَّنُوهُ، وَقَتَلَ خَلِيفَتَهُمْ وَهُوَ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ثُمَّ قَتَلَ نَفْسَهُ.

وَبَعْدَهَا بِسَنَوَاتٍ قَلَائِلَ أَظْهَرَ ابْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقُ نِقْمَتَهُ عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه، وَأَتْبَعَهَا بِادِّعَاءِ التَّشَيُّعِ لِآلِ الْبَيْتِ، حَتَّى عَلَا كَعْبُهُ، وَظَهَرَ أَمْرُهُ،

---

(١٣) ينظر تفصيل ذلك في: الكامل (٢/ ٢٩٤-٣٣٤)، والبداية والنهاية (٧/ ٣٧-٦٩).

(١٤) ينظر: الكامل (٢/ ٤١٢)، والبداية والنهاية (٧/ ١٠٦).

(١٥) ينظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٤)، وتاريخ الطبري (٢/ ٥٣٠)، وقد سبق الخبر وتخريجه في مجلد (٤) خطبة رقم (١٥٤).

وَزَادَ أَتْبَاعُهُ، فَسَارَ عَلَى رَأْسِ فِتْنَةٍ قَتَلُوا فِيهَا الْخَلِيفَةَ عُثْمَانَ ﷺ(١٦)، وَمِنْ ثَمَّ فَرَّقُوا الْأُمَّةَ، وَقَسَّمُوهَا إِلَى طَوَائِفَ وَمَذَاهِبَ، وَاسْتَحْسَنَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُرْسِ التَّمَذْهُبَ بِالمَذَاهِبِ السَّبَئِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي تَدَّعِي التَّشَيُّعَ لِآلِ الْبَيْتِ؛ بُغْضًا لِلْعَرَبِ، وَمُخَالَفَةً لَهُمْ، لَا مَحَبَّةً لِآلِ الْبَيْتِ، وَتَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ هَذَا كَثِيرٌ مِنْ دَهْمَاءِ الْعَرَبِ وَجُهَّالِهِمْ، وَعَادَتِ الْعُنْصُرِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ لِأَهْلِهَا مِنْ جَدِيدٍ، رَغْمَ أَنَّ الْإِسْلَامَ أَلْغَى الْعُنْصُرِيَّاتِ وَالْعَصَبِيَّاتِ الْجَاهِلِيَّةَ، وَكَانَتْ هَذِهِ المَذَاهِبُ الْبَاطِنِيَّةُ قَدِ اسْتَمَدَّتْ أَكْثَرَ عَقَائِدِهَا مِنْ عَقَائِدِ الْيَهُودِ وَمَبَادِئِهِمْ، وَكَانَ هَذَا هُوَ التَّقَارُبُ الثَّانِي بَيْنَ الْفُرْسِ وَالْيَهُودِ(١٧).

---

(١٦) ينظر: خمس خطب متوالية في: فتنة مقتل عثمان ﷺ في المجلد (٦) خطب رقم (٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤).

(١٧) أوجه التشابه بين المذاهب الباطنية ودين اليهود كثيرة جدًا، وأبرزُ الباطنيين وأقواهم وأكثرهم في هذا العصر الإمامية الاثنا عشرية، وقد شابهت اليهود في كثير من دينها.
روى عبد الرحمن بن مالك بن مغول عن أبيه قال الشعبي: يا مالك، لو أردت أن أطأ رقابهم عبيدًا، ويملؤوا بيتي ذهبًا على أن أكذب لهم على علي، ولكن والله لا أكذب عليه أبدًا، يا مالك إني درست الأهواء فلم أر قومًا أحمق من الخشبية، ولو كانوا من الدواب كانوا حمرًا، ولو كانوا من الطير كانوا رخمًا، ثم قال: أحذركم الأهواء المضلة وشرها الرافضة؛ وذلك أن منهم يهودًا يغمصون الإسلام ليتجاوز بضلالتهم كما يغمص طويس بن شاول ملك اليهود والنصرانية ليتجاوز ضلالتهم، ثم قال: لم يدخلوا في الإسلام رغبة عنه، ولا رهبة من الله ﷻ، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم، قد حرقهم علي بن أبي طالب بالنار، ونفاهم في البلدان، منهم عبد الله بن سبإ، نفاه إلى إسباط وعبد الله بن يسار نفاه إلى حازه وأبو الكروس، وآية ذلك أن محنة الرافضة محنة اليهود، قالت اليهود: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من آل داود، وقالت الرافضة: لا تصلح الإمامة إلا لرجل من ولد علي بن أبي طالب. وقالت اليهود: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المسيح الدجال، وينزل سبب من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي، وينادي مناد من السماء. واليهود يؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة، والحديث عن رسول الله ﷺ: «**لا تزال أُمَّتِي على الفطرة ما لم** =

. . . .

= يؤخروا صلاة المغرب حتى تشْتَبِك النجوم». واليهود تزول عن القبلة شيئًا، وكذلك الرافضة. واليهود تنود في الصلاة وكذلك الرافضة، ومر رسول الله ﷺ برجل قد سدل ثوبه فغمصه عليه، واليهود يستحلون دم كل مسلم وكذلك الرافضة. واليهود لا يرون على النساء عدة وكذلك الرافضة. واليهود لا يرون الطلاق الثلاث شيئًا وكذلك الرافضة. واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفوا القرآن. واليهود يبغضون جبريل ويقولون: هو عدونا من الملائكة، وكذلك صنف من الرافضة يقولون غلط بالوحي إلى محمد ﷺ. رواه الخلال في السنة (٧٩١)، واللالكائي في السنة (٢٨٢٣).

وعلق شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- على هذا الأثر تعليقًا متينًا مليئًا بالعلم والفائدة والتحقيق فقال: «هذا الأثر قد روي عن عبد الرحمن بن مالك بن مغول من وجوه متعددة يصدق بعضها بعضًا، وبعضها يزيد على بعض. لكن عبد الرحمن بن مالك بن مغول ضعيف، وذم الشعبي لهم ثابت من طرق أخرى، لكن لفظ الرافضة إنما ظهر لما رفضوا زيد بن علي بن الحسين في خلافة هشام، وقصة زيد بن علي بن الحسين كانت بعد العشرين ومائة، سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين ومائة في أواخر خلافة هشام. قال أبو حاتم البستي: قتل زيد بن علي بن الحسين بالكوفة سنة اثنتين وعشرين ومائة، وصلب على خشبة، وكان من أفاضل أهل البيت وعلمائهم، وكانت الشيعة تنتحله. قلت: ومن زمن خروج زيد افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية؛ فإنه لما سئل عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما رفضه قوم، فقال لهم: رفضتموني، فسموا رافضة؛ لرفضهم إياه، وسُمّي مَنْ لم يَرْفُضْه من الشيعة زيديًّا؛ لانتسابهم إليه. ولما صلب كانت العباد تأتي إلى خشبته بالليل فيتعبدون عندها، والشعبي توفي في أوائل خلافة هشام أو آخر خلافة يزيد بن عبد الملك أخيه سنة خمس ومائة أو قريبًا من ذلك، فلم يكن لفظ الرافضة معروفًا إذ ذاك. وبهذا وغيره يعرف كذب لفظ الأحاديث المرفوعة التي فيها لفظ الرافضة، ولكن كانوا يسمون بغير ذلك الاسم كما كانوا يسمون الخشبية؛ لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم، فقاتلوا بالخشب؛ ولهذا جاء في بعض الروايات عن الشعبي قال: ما رأيت أحمق من الخشبية. فيكون المعبِّر عنهم بلفظ الرافضة ذكره بالمعنى، مع ضعف عبد الرحمن، ومع أن الظاهر أن هذا الكلام إنما هو نظم عبد الرحمن بن مالك بن مغول وتأليفه، وقد سمع طرفًا منه عن الشعبي، وسواء كان هو ألفه أو نظمه لما رآه من أمور الشيعة في زمانه، ولما سمعه عنهم أو لما سمع من أقوال أهل العلم فيهم أو بعضه أو مجموع الأمرين أو بعضه =

وَبَلَغَ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْبَاطِنِيِّينَ وَحِقْدِهِمْ أَنَّهُمْ مَالَئُوا أَعْدَاءَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَوَالَ تَارِيخِهِمْ؛ فَالْعُبَيْدِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ سَلَّمُوا رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ لِلصَّلِيبِيِّينَ فِي الْحَمْلَةِ الصَّلِيبِيَّةِ الْأُولَى، وَلَمْ يَنْجُ مِنْ سُيُوفِ الصَّلِيبِيِّينَ إِلَّا حَاكِمُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ قِبَلِ بَنِي عُبَيْدٍ وَحَاشِيَتِهِ وَأَهْلِهِ؛ إِذْ خَرَجُوا مِنَ الْقُدْسِ سَالِمِينَ بِأَعْيُنِ الصَّلِيبِيِّينَ الَّذِينَ قَتَلُوا كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ.

وَإِخْوَانُهُمُ الْقَرَامِطَةُ الْمَجُوسُ هُمُ الَّذِينَ قَتَلُوا الْحُجَّاجَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، وَرَدَمُوا بِجُثَثِهِمْ بِئْرَ زَمْزَمَ، وَاقْتَلَعُوا الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَأَخَذُوهُ مَعَهُمْ، وَخَطَبَ رَأْسُهُمْ أَبُو طَاهِرٍ الْقِرْمِطِيُّ الْمَجُوسِيُّ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ مُدَّعِيًا الرُّبُوبِيَّةَ، مُسْتَهْزِئًا بِسُورَةِ الْفِيلِ، سَائِلًا عَنِ الطَّيْرِ الْأَبَابِيلِ، عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ مَا يَسْتَحِقُّ(١٨).

= لهذا وبعضه لهذا، فهذا الكلام معروف بالدليل لا يحتاج إلى نقل وإسناد وقول القائل: إن الرافضة تفعل كذا وكذا المراد به بعض الرافضة كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] لم يقل ذلك كل يهودي بل قاله بعضهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] المراد به جنس الناس، وإلا فمعلوم أن القائل لهم غير الجامع وغير المخاطبين المجموع لهم، وما ذكره موجود في الرافضة، وفيهم أضعاف ما ذكر مثل: تحريم بعضهم للحم الأوز والجمل مشابهة لليهود، ومثل جمعهم بين الصلاتين دائمًا، فلا يصلون إلا في ثلاثة أوقات؛ مشابهة لليهود، ومثل قولهم: إنه لا يقع الطلاق إلا بإشهاد على الزوج، مشابهة لليهود، ومثل تنجيسهم لأبدان غيرهم من المسلمين وأهل الكتاب وتحريمهم لذبائحهم، وتنجيس ما يصيب ذلك من المياه والمائعات، وغسل الآنية التي يأكل منها غيرهم؛ مشابهة للسامرة الذين هم شر اليهود؛ ولهذا يجعلهم الناس في المسلمين كالسامرة في اليهود، ومثل استعمالهم التقية وإظهار خلاف ما يبطنون من العداوة مشابهة لليهود، ونظائر ذلك كثير» منهاج السنة النبوية (١/ ٣٤-٣٨) وسأورد بعد حواشي الخطبة، دراسة مختصرة رصينة للدكتور طه الدليمي رصد فيها أوجهًا للتشابه بين الرافضة واليهود.

(١٨) البداية والنهاية (١١/ ١٦٠)، والعبر في خبر من غبر (٢/ ١٧٣)، والكامل (٧/ ٥٣)، وتاريخ ابن خلدون (٣/ ٤٧٢)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٢٢٥).

وَنَصِيرُ الدِّينِ الطُّوسِيُّ وَالمُؤَيِّدُ ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ سَهَّلَا لِلتَّتَرِ غَزْوَ بَغْدَادَ وَالْقَضَاءَ عَلَى الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فِي مُؤَامَرَةٍ قَذِرَةٍ حَفِظَهَا التَّارِيخُ لِلْبَاطِنِيِّينَ(١٩).

---

(١٩) وفي أحداث سنة ٦٥٤ قال المقريزي: «وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد مواعيد، والخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك» السلوك (١/ ٤٩٠-٤٩١).

وقال ابن كثير: «وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال؛ وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء» البداية والنهاية (١٣/ ٢٠٢).

وقال أبو المحاسن بن تغري: «وكان الوزير ابن العلقميّ مع ذلك يصانع التّتار فى الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلمّا استخلف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خليًّا من الرأى والتدبير، فأشار عليه ابن العلقميّ المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند، وأنّه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند ففعل الخليفة ذلك! قلت: وكلمة الشيخ مطاعة! ثم إنّ الوزير بعد ذلك كاتب التّتار وأطمعهم فى البلاد سرًّا، وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهَّل عليهم فتح العراق وأخذ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد فوعدوه بذلك، وتأهّبوا لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤًا صاحب الموصل فى تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سرًّا وحذّره، ثم هيّأ لهم الآلات والإقامات. وكان الوزير ابن العلقميّ المذكور ليس لأحد معه كلام فى تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصّل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره للخليفة، وعمّى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التّتار بذلك غاية النّتاج وأخذ أمر الخليفة والمسلمين فى إدبار! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل حذّر الخليفة وحرّك عزمه، والخليفة لا يتحرّك ولا يستيقظ! فلمّا تحقّق الخليفة حركة التّتار نحوه سيّر إليهم شرف الدين بن محيي الدين ابن الجوزى رسولًا يعدهم بأموال عظيمة، ثم سيّر مائة =

وَالصَّفَوِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ اسْتَعَانُوا بِأَعْدَائِهِمُ الرُّومَانِ ضِدَّ خِلَافَةِ بَنِي عُثْمَانَ، وَكَانُوا مِنْ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِي حَالَتْ دُونَ فَتْحِ الْعُثْمَانِيِّينَ لِأُورُبَّةَ الْغَرْبِيَّةِ؛ إِذْ وَقَفَتْ جُيُوشُ بَنِي عُثْمَانَ عَلَى أَبْوَابِ فِيينَّا بِسَبَبِهِمْ[٢٠]. وَلِلْفُرْسِ الْمَجُوسِ

= رجل إلى الدّربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر؛ لأنّ الأكراد الذين كانوا هناك دلّوا التّتار عليهم، فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين. ثم ركب هولاكو بن تولي خان بن كز خان فى جيوشه من المغل والتّتار وقصدوا العراق، وكان على مقدّمته الأمير بايجونوين، وفى جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة ومن عسكر بركة خان ابن عمّ هولاكو» النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٧/ ٤٨-٤٩).

وقال السيوطي: «ولم يتم للوزير ما أراد، وذاق من التتار الذل والهوان، ولم تطل أيامه بعد ذلك» تاريخ الخلفاء (٤٧٢).

وقال مؤرخ الشيعة الميرزا محمد باقر الخونساري في كتابه (روضات الجنات) الطبعة الثانية ص٥٧٨، في ترجمة نصير الدين الطوسي: «ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو خان ابن تولي خان بن جنكز خان من عظماء سلاطين التتارية وأتراك المغول، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، وقطع دابر سلسلة البغي والفساد، وإخماد ثائرة الجور والإلباس بإبادة دائرة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع الطغام إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار، فانهار بها في ماء دجلة ومنها إلى نار جهنم دار البوار ومحل الأشقياء الأشرار» اهـ.

والطوائف الباطنية اليوم ليس بينهم وبين اليهود والنصارى عداء حقيقي، وهم يتفقون جميعًا على أهل السنة، وإن كانت شعارات الروافض تظهر العداء لإسرائيل وأمريكا، لكن الواقع يكذب هذه الشعارات الجوفاء، وبعض قادة اليهود يعترفون بذلك، يقول شارون في مذكراته: توسعنا في كلامنا عن علاقات المسيحيين بسائر الطوائف الأخرى، لا سيّما الشيعة والدروز شخصيًا طلبت منهم توثيق الروابط مع هاتين الأقليتين، حتى إنني اقترحت إعطاء قسم من الأسلحة التي منحتها إسرائيل ولو كبادرة رمزية إلى الشيعة الذين يعانون هم أيضًا مشاكل خطيرة مع منظمة التحرير الفلسطينية، ومن دون الدخول في أي تفاصيل، لم أرَ يومًا في الشيعة أعداء إسرائيل على المدى البعيد. مذكرات شارون (٥٨٣-٥٨٤) الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ترجمة أنطوان عبيد، مكتبة بيسان، بيروت.

(٢٠) ينظر: أزمة الخليج الرابعة، هل تعيد الصراع بين الفرس والروم، د. عبدالعزيز كامل، مجلة البيان عدد (٢٢٦) ص(٦٤).

وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْبَاطِنِيِّينَ الْعَرَبِ صَوَلَاتٌ وَجَوَلَاتٌ وَخِيَانَاتٌ أَيَّامَ الِاسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ لِبِلَادِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ.

وَلَا زَالَ كَيْدُهُمْ وَمَكْرُهُمْ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَظَهَرَ لِكُلِّ النَّاسِ فِي الْحَمْلَةِ الِاسْتِعْمَارِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الْجَدِيدَةِ دَوْرُ الْفُرْسِ فِي إِسْقَاطِ الْعِرَاقِ وَبِلَادِ الْأَفْغَانِ تَحْتَ أَقْدَامِ الِاحْتِلَالِ، وَمُفَاخَرَتُهُمْ بِذَلِكَ وَإِعْلَانُهُ عَلَى الْمَلَإِ دُونَ حَيَاءٍ وَلَا مُوَارَبَةٍ، وَمِنْ ثَمَّ عَمِلُوا مِنَ الْجَرَائِمِ الْبَشِعَةِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مَا هَابَ الْمُحْتَلُّ الصَّائِلُ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَهُ؛ فَهَذِهِ حَالُ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا الرُّومَانُ فَقَدْ سَيَّرُوا لِلْمَشْرِقِ الْمُسْلِمِ خِلَالَ مِئَتَيْ سَنَةٍ ثَمَانِيَ حَمَلَاتٍ صَلِيبِيَّةٍ كُبْرَى، وَقَضَوْا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَأَبَادُوا الْمُسْلِمِينَ فِيهَا، وَنَصَّرُوا مَنْ سَلِمَ مِنَ الْإِبَادَةِ وَالتَّهْجِيرِ. وَعَقِبَ سُقُوطِ الْخِلَافَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ انْتَهَبُوا أَمْصَارَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَسَّمُوهَا بَيْنَهُمْ فِيمَا عُرِفَ بِالِاسْتِعْمَارِ وَالِانْتِدَابِ الْأَجْنَبِيِّ، وَمَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَّا وَقَدْ سَيْطَرُوا عَلَيْهَا سِيَاسِيًّا وَعَسْكَرِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا، وَلَا زَالَ هَذَا دَأْبَهُمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا.

تِلْكَ كَانَتْ أَبْرَزَ الْعَنَاوِينِ فِي عَلَاقَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْفُرْسِ وَبِالرُّومِ، وَأَهَمُّ الْمَلَامِحِ مِنْ تَارِيخِ الصِّرَاعِ الرُّومَانِيِّ الْفَارِسِيِّ الَّذِي يُوشِكُ أَنْ يَنْدَلِعَ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى أَرَاضِي الْمُسْلِمِينَ؛ لِيَكُونَ حَطَبُهُ بِلَادَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَأَبْنَاءَهُمْ وَمُقَدَّرَاتِهِمْ، كَمَا كَانَ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ حَطَبًا لِحُرُوبِ فَارِسَ وَالرُّومِ.

حَفِظَ اللهُ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَمَكْرُوهٍ، وَأَدَارَ الدَّائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.

❀ ❀ ❀

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ، وَاشْكُرُوا نِعَمَهُ وَلَا تَكْفُرُوهُ ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥، ٦٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: فِي كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَفِي كُلِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ أَبْرَارٌ وَفُجَّارٌ، وَأَخْيَارٌ وَأَشْرَارٌ، وَكَمَا كَانَ فِي الْعَرَبِ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ كَانَ فِي الْفُرْسِ وَفِي الرُّومِ كُفَّارٌ كَكُفَّارِ الْعَرَبِ، وَكَمَا كَانَ فِي الْعَرَبِ مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ كَانَ فِي الْفُرْسِ وَالرُّومِ مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ، يَتَقَدَّمُهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ وَالصَّلَاحِ: سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ؛ اللَّذَانِ سَبَقَا إِلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ، وَقَبْلَ ذِلَّةِ الرُّومِ وَفَارِسَ؛ فَرَضِيَ اللهُ عَنْ سَلْمَانَ وَعَنْ صُهَيْبٍ.

بَيْدَ أَنَّ الدَّوْلَةَ الْفَارِسِيَّةَ الْمُسْتَقْوِيَةَ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدْ قَدَّمَتْ عَصَبِيَّتَهَا لِعِرْقِهَا عَلَى إِسْلَامِهَا، وَلَا زَالَتْ تُفَاخِرُ بِفَارِسِيَّتِهَا عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ، وَتَسْعَى جَاهِدَةً لِإِعَادَةِ الْأَمْجَادِ الْفَارِسِيَّةِ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ، وَيَكْفِي فِيهِمْ أَنَّهُمْ يُفَاخِرُونَ بِالمَجُوسِيِّ الَّذِي قَتَلَ عُمَرَ رضي الله عنه، وَيَعُدُّونَهُ مِنْ شُهَدَائِهِمْ، وَهُوَ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَسْجُدْ سَجْدَةً وَاحِدَةً للَّهِ تَعَالَى![٢١].

---

(٢١) جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لما علم أن قاتله الغلام المجوسي قال: «الحمد لله الذي لم يجعله رجلًا من المسلمين يحاجني بسجدة سجدها لله يوم القيامة» رواه ابن سعد (٣/ ٣٤٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٠)، والبلاذري في أنساب الأشراف (٣/ ٤٣٥)

وَلَا زَالُوا يُزْرُونَ بِالصَّحَابَةِ ﷺ وَيُكَفِّرُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَأَشُدُّ مَا تَكُونُ نِقْمَتُهُمْ عَلَى عُمَرَ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ[٢٢]؛ لِأَنَّ فَتْحَ فَارِسَ، وَإِطْفَاءَ النَّارِ الَّتِي كَانَ يَعْبُدُهَا أَجْدَادُهُمْ إِنَّمَا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بِقِيَادَةِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْ عُمَرَ وَعَنْ سَعْدٍ وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ تَوَارَدَتْ أَخْبَارُ مَذَابِحَ جَمَاعِيَّةٍ فِي الْعِرَاقِ لِكُلِّ مَنْ كَانَ اسْمُهُ عُمَرَ؛ وَلَوْ كَانَ فَاسِقًا أَوْ زِنْدِيقًا، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا صَالِحًا[٢٣].

وَإِذَا كَانَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقُودًا لِحُرُوبِ فَارِسَ وَالرُّومِ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ قَدْ يُعِيدُ نَفْسَهُ فِي الْأَحْدَاثِ الْمُعَاصِرَةِ؛ إِذْ أَضْحَتْ بِلَادُ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ مَوْقِعَ تَصَارُعٍ وَتَنَافُسٍ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَالرُّومَانِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ اخْتَارُوا الْمَذَاهِبَ الْبَاطِنِيَّةَ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَرَبِ، وَانْضَوَوْا تَحْتَ لِوَاءِ الْأُمَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَكَانَ وَلَاؤُهُمْ لَهَا أَعْظَمَ مِنْ وَلَائِهِمْ لِدُوَلِهِمْ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَذْهَبَ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ يَقُومُ عَلَى الْعُنْصُرِيَّةِ لِلْعِرْقِ وَالْجِنْسِ، فَلَا مَكَانَ لَهُمْ فِيهِ، وَمَهْمَا قَدَّمُوا لِلْفُرْسِ فَلَنْ يَحْظَوْا عِنْدَهُمْ بِشَيْءٍ؛ لِأَنَّ أُصُولَهُمْ لَيْسَتْ فَارِسِيَّةً، إِنْ هُمْ إِلَّا أُجَرَاءُ وَعُمَّالٌ يُنَفِّذُونَ الْمُخَطَّطَاتِ الْفَارِسِيَّةَ فَحَسْبُ، ثُمَّ يُلْفَظُونَ كَمَا لُفِظَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ الْمُنْضَوِيَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْقَدِيمَةِ تَحْتَ اللِّوَاءِ الْفَارِسِيِّ. بَلْ إِنَّ فِي عَقَائِدِ الْفُرْسِ الْجُدُدِ أَنَّهُمْ مَتَى تَمَكَّنُوا أَبَادُوا غَيْرَ جِنْسِهِمْ مِمَّنْ هُمْ يَدِينُونَ

---

(٢٢) ذكر لي أحد الإخوة أنه شاهد فيلمًا على قناة إيرانية، مثلوا فيها دور سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتعرى من ثيابه في تصوير بشع لا يليق بمؤمن، فكيف بصحابي جليل كسعد رضي الله عنه؟!

(٢٣) وبعد هذه الخطبة بسنوات كتبت مقالة بعنوان: (إيران واسمي عمر وعائشة) وهو منشور في مواقع كثيرة من الشبكة العالمية، وفيه ما يدمي القلب.

بِدِينِهِمْ، وَيَتَمَذْهَبُونَ بِمَذْهَبِهِمُ الْبَاطِنِيِّ؛ فَاتِّبَاعُ الْمَذْهَبِ لَا يُلْغِي الْعَصَبِيَّةَ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ الْعِرْقُ عَرَبِيًّا، وَالْعِرْقُ عِنْدَهُمْ فَوْقَ الدِّينِ.

وَلْيَعْلَمْ مَنِ اخْتَارُوا التَّرْوِيجَ وَالتَّمْكِينَ لِلْمَشَارِيعِ الْإِنْجِيلِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ مَا يُسَمَّى بِالشَّرْقِ الْأَوْسَطِ الْكَبِيرِ أَوِ الْجَدِيدِ، أَنَّهُمْ مُجَرَّدُ عُمَّالٍ وَخَدَمٍ يَجْرِي اسْتِخْدَامُهُمْ وَانْتِعَالُهُمْ ثُمَّ اسْتِبْدَالُهُمْ، وَلَيْسُوا أَكْثَرَ مِنْ غَسَاسِنَةَ جُدُدٍ عِنْدَ رُومَانٍ جُدُدٍ، وَلَا يَزَالُ الرُّومَانُ يَحْتَقِرُونَهُمْ أَبَدَ الدَّهْرِ.

وَمَا أَضْحَتْ بِلَادُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَمُقَدَّرَاتُهُمْ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي الْأَعْدَاءِ، وَمَيْدَانًا لِتَنَافُسٍ جَدِيدٍ بَيْنَ الْفُرْسِ وَالرُّومَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَّا بِسَبَبِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي أَوْرَثَتِ الْمُسْلِمِينَ ذُلًّا وَصَغَارًا وَتَفَرُّقًا حَتَّى هَانُوا عَلَى أَعْدَائِهِمْ .. عَصَوُا اللهَ تَعَالَى فَذَلُّوا وَهَانُوا، وَتَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فَضَعُفُوا وَاسْتَكَانُوا، وَلَا يَزَالُونَ مُتَرَبِّصِينَ يَنْتَظِرُونَ مَا تُسْفِرُ عَنْهُ هَذِهِ الْحُرُوبُ الْمُشْتَعِلَةُ الَّتِي تَطْحَنُ بِلَادَهُمْ، وَتَسْتَنْزِفُ أَمْوَالَهُمْ، وَتُخَرِّبُ عُمْرَانَهُمْ، وَثَمَرَاتُهَا لِغَيْرِهِمْ، وَعَلْقَمُهَا عَلَيْهِمْ، وَلَا حَوْلَ لَهُمْ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا الِانْتِظَارُ وَالتَّرَبُّصُ فَهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ لَا عَلَى الْفِعْلِ، وَلَا عَلَى رَدِّ الْفِعْلِ، وَلَا عَلَى إِيقَافِ الْحَرْبِ. نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ، وَلَا مَخْرَجَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللُّجُوءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِزَالَةِ أَسْبَابِ الْفُرْقَةِ وَالِاخْتِلَافِ.

وَكُلُّ مَا يَجْرِي نَحْنُ مَسْئُولُونَ عَنْهُ أَمَامَ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ أَمَامَ التَّارِيخِ بِذُنُوبِنَا وَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِينَا، فَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ لَعَلَّكُمْ تُحْفَظُونَ وَتُنْصَرُونَ ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٨٤].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ ...(٢٤).

---

(٢٤) هذه دراسة متينة رصد فيها الدكتور طه الديلمي أوجه الشبه بين الروافض واليهود:

. . . .

= **عقيدة دينية أم عقدة نفسية؟**

الدكتور: طه حامد الدليمي

خمس عقائد مشتركة:

مما يلفت الانتباه عند النظر في حديث القرآن الكريم عن اليهود جملة آيات في موضع واحد منه تطرقت إلى ذكر خمس عقائد من عقائدهم، وقد تصدرت بالتيئيس من إيمانهم بسبب وجودها عندهم. هذه العقائد الخمسة موجودة بنصها عند الشيعة! يقول تعالى:

١- ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]. وفي الآية الحديث عن عقيدة التحريف المشتركة بين اليهود والشيعة.

٢- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦]. وفيها عقيدة (التقية) المحرفة عند الطرفين .﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧].

٣- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]. وغالب الشيعة -وفي مقدمتهم علماؤهم- جهلة بما في الكتاب، لا يعلمون عنه ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. وحوزاتهم ليس فيها درس للقرآن! ولا من مناهجهم حفظ جزء واحد منه! ويبقى الطالب يدرس أكثر من عشر سنين لا يمسك بيده في حجرة الدرس المصحف يومًا من الأيام! ونادرًا ما سمعت معممًا شيعيًّا يتلو آيات من القرآن إلا ويخطئ فيها! وقد حرفوا معانيه وطوعوها لأمانيهم وظنونهم؛ فهم أولى العالمين بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

٤- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. وهذا ما يفعله علماء الشيعة بلا استثناء.

٥- ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠]. بل إن الشيعة سبقوا اليهود في هذه! فاليهود سلموا بأن النار ستمسهم أيامًا معدودة. أما الشيعة فيعتقدون أن النار لن تمسهم قط مهما عملوا من ذنوب، وارتكبوا من فواحش واجترحوا من معاص!! والمعروف أن عقائد الشيعة وطقوسهم تتطور مع الزمن، فلا يأتي عليهم زمان إلا والذي بعده شر منه. فلعلهم طوروا هذه العقيدة بعد أن أخذوها عن اليهود. =

. . . .

= **سلسلة من العقائد والطقوس المتشابهة:**

وهذه بعض العقائد والطقوس المشتركة بين اليهود والشيعة:

اليهود	الشيعة
١- تعطيل العقل والتسليم للحاخام: أوجبت اليهود تصديق الحاخام حتى لو قال بأن يدك اليسرى هي اليمنى! جاء في التلمود: (اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء وزيادة فإذا قال لك الحاخام: إن يدك اليمني هي اليسرى وبالعكس فصدق ولا تجادله). الكنز المرصود في تعاليم التلمود، يوسف نصر الله، ص٤٦.	**١- تعطيل العقل والتسليم للفقيه أو الإمام:** وكذلك قالت الشيعة بوجوب تصديق الإمام حتى لو قال بأن الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار! فقد ادعوا أن جعفر بن محمد سئل: يا ابن رسول الله إن الرجل يُعرف بالكذب يأتينا بالحديث عنكم أنرده؟ قال: يقول لكم: إن جعفر بن محمد يقول: الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار؟ قالوا: ما يبلغ هذا الحد. فقال: إن قال لك: إن جعفر بن محمد يقول: الليل ليس بليل والنهار ليس بنهار فلا تكذبه؛ فإنك أن كذبته إنما كذبت جعفر بن محمد. بصائر الدرجات، ص١٥٤.
٢- الحاخامات يعلمون الملائكة الدين: يزعم اليهود أن الحاخامات (الربانيين) يعلمون أهل السماء. جاء في التلمود: (أن الربانيين يعلمون أهل السماء). همجية التعاليم الصهيونية ص٢٥. بل قالت اليهود بأن الله يستشير الحاخامات في حلول أي مشكلة معضلة. جاء في التلمود: (إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد معضلة لا يمكن حلها في السماء). الكنز المرصود، ص٤٦	**٢- الأئمة يعلمون الملائكة الدين:** ويزعم الشيعة أن أئمتهم هم الذين علموا الملائكة التوحيد. جاء في رواية طويلة فيما افتروه على النبي ﷺ أنه قال لعلي: (... ثم خلق الملائكة فلما شاهدوا أرواحنا نورًا واستعظموا أمورنا فسبحنا لتعلم الملائكة أنا مخلوقون، وأنه منزه عن صفاتنا فسبحت الملائكة لتسبيحنا ونزهته عن صفاتنا ... فبنا اهتدوا إلى معرفة توحيد الله وتسبيحه وتهليله وتحميده وتمجيده). علل الشرائع، ص٥.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣- الشريعة كلام الحاخامات: يتمسك اليهود في جميع أنحاء العالم بتعاليم التلمود، ويعتبرونه كتابًا منزلًا؛ إذ يرون أن الله تعالى أعطى موسى عليه السلام التوراة على طور سيناء مدونة. ولكنه أعطاه التلمود مشافهة. ولا يكتفي اليهود بهذا، بل يضعون التلمود في منزلة أسمى من التوراة والتلمود من ستة آلاف صفحة. جاء في التلمود: (يلزمك اعتبار أقوال الحاخامات مثل الشريعة أي التوراة). الكنز المرصود، ص٤٥. بل جاء فيه: (من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت دون من احتقر أقوال التوراة. ولا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود واشتغل بالتوراة فقط؛ لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى).	**٣- الشريعة كلام الأئمة أو المراجع:** يقول الخميني دجال الشيعة: (إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن لا تخص جيلًا خاصًا، وإنما هي تعاليم للجميع في كل عصر ومصر إلى يوم القيامة). الحكومة الإسلامية ١١٢. قارن هذا القول بما ينسبه الكليني كذبًا إلى جعفر الصادق أنه قال: (ما جاء به علي (ع) آخذ به وما نهى عنه أنتهي عنه. المتعقب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حد الشرك بالله). أصول الكافي: ١/١٩٦.
٤- الرد على الحاخام كالرد على الله: يعتقد اليهود بأن من جادل حاخامه كمن جادل الله. جاء في التلمود: (من يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ؛ وكأنه جادل العزة الإلهية) الكنز المرصود، ٤٦.	**٤- الرد على الإمام أو الفقيه كالرد على الله:** ويعتقد الشيعة العقيدة نفسها في الإمام بأن الراد على أئمتهم كالراد على الله. يقول محمد رضا المظفر: (إن أمرهم أمر الله تعالى، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعته، ومعصيتهم معصيته و... ولا يجوز الرد عليهم، والراد عليه كالراد على رسول الله، والراد على رسول الله كالراد على الله تعالى) عقائد الإمامية، ص١٠٦.

. . . .

	وكذلك الأمر بالنسبة للفقهاء (الحاخامات) يقول محمد رضا المظفر وغيره: (عقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط أنه نائب عام للإمام (ع) في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والراد عليه راد على الإمام، والراد على الإمام راد على الله وهو على حد الشرك بالله) عقائد الشيعة لمحمد رضا المظفر ص٩.
اليهود	**الشيعة**
٥- اتخاذ العلماء أربابًا من دون الله: قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. وذلك بأن أنزلوا كلامهم منزلة كلام الله أو أشد. أحلوا لهم وحرموا عليه فأطاعوهم حتى لو كان في خلاف طاعة الله.	**٥- اتخاذ العلماء أربابًا من دون الله:** وكذلك يفعل الشيعة بعلمائهم حذو القذة بالقذة. وما أسلفناه في الفقرة السابقة أوضح شاهد.

. . . .

اليهود	الشيعة
٦- الحاخامات أعلى مرتبة من الأنبياء: يدعي اليهود أن حاخاماتهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام. جاء في التلمود: (اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء لأن أقوالهم هي قول الله الحي) الكنز المرصود، ص٤٦.	**٦- الأئمة أعلى مرتبة من الأنبياء:** ويدعي الشيعة أن أئمتهم أفضل من الأنبياء والرسل والملائكة المقربين عليهم السلام. يقول الحر العاملي: (الأئمة الاثنا عشر أفضل من سائر المخلوقات من الأنبياء والأوصياء السابقين والملائكة وغيرهم). الفصول المهمة ص١٥٢. ويقول حاخام إيران الأكبر الخميني: (إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون. وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لم يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل وورَدَ عنهم عليهم السلام: إن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل). الحكومة الإسلامية، ص٥٢.
٧- عصمة الحاخام: يعتقد اليهود بعصمة حاخاماتهم. يقول الحاخام روسكي أحد كتبة التلمود، معلقًا على خلاف وقع بين حاخامين: (إن الحاخامين المذكورين قالا الحق؛ لأن الله جعل الحاخامات معصومين من الخطأ) الكنز المرصود، ص٤٧.	**٧- عصمة (الإمام):** ويعتقد الشيعة بعصمة أئمتهم. وهذا أمر أطبقوا عليه جميعًا، ولا يحتاج إلى شواهد. يقول محمد رضا الظفر: (ونعتقد أن الأمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا) عقائد الإمامية ص١٠٤.

. . . .

اليهود	الشيعة
٨- عقيدة الرجعة: وقد ذكرها ابن سبأ اليهودي الفارسي يوم قال للذي نعى عليًّا ﷺ: (كذبت! لو جئتنا بدماغه في سبعين صرة وأقمت على قتله سبعين عدلًا لعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، ولا يموت حتى يملك الأرض).	٨- عقيدة الرجعة: وهذه العقيدة موجودة عند الشيعة بنصها. وقد ألفوا فيها مؤلفات مستقلة. ومن رواياتهم فيها: عن أمير المؤمنين (ع) قال: أنا قسيم الله بين الجنة والنار لا يدخلها الداخل إلا على حد قسمي ... وإني لصاحب الكرات ودولة الدول. الكافي ١/ ١٩٨. قال في الحاشية: أي: الرجعات إلى الدنيا.
٩- عقيدة البداء: جاء في التوراة أن الله قد بدا له أنّ شعبه المختار شرد في الأرض، فحزن كثيرًا وأخذ يبكي وينوح!!	٩- عقيدة البداء: والعقيدة نفسها يرددها الشيعة. ورووا في فضلها الكثير، منه: عن أبي عبد الله: قال: لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه. الكافي: ١٤٨/١.
١٠- شتم عيسى عليه السلام: زعم اليهود بأن عيسى عليه السلام يعذب أشد العذاب في لجات الجحيم، جاء في التلمود (أن يسوع الناصري موجود بين القار والنار) الكنز المرصود، ص١٠١.	١٠- شتم الصحابة رضي الله عنهم: وزعم الشيعة أن الخلفاء الراشدين يعذبون بتابوت في نار جهنم، يتعوذ أهل النار من حره: يروي القمي في تفسير (قل أعوذ برب الفلق) قال: الفلق جب في نار جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حره. فسأل الله من شدة حره أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم. قال: وفي ذلك الجب صندوق من نار جهنم يتعوذ أهل الجب من حر ذلك التابوت الصندوق، وهو التابوت، وفي

. . . .

	ذلك التابوت ستة من الأولين وستة من الآخرين. فأما الستة التي من الأولين فابن آدم الذي قتل أخاه، ونمرود إبراهيم الذي ألقى إبراهيم في النار، وفرعون موسى، والسامري الذي اتخذ العجل، والذي هود اليهود، والذي نصر النصارى. وأما الستة التي من الآخرين فهم الأول والثاني والثالث والرابع وصاحب الخوارج وابن ملجم لعنهم الله) تفسير القمي، ٢/ ٤٩٩.
١١- رمي السيدة مريم بالفاحشة: رمى اليهود لعنهم الله مريم رضي الله عنها بالفاحشة مع تبرئة الله لها. جاء في التلمود: (إن يسوع الناصري موجود بين القار والنار. وقد أتت به أمه من العسكري (باندار) عن طريق الخطيئة). المصدر السابق.	**١١- رمي السيدة عائشة بالفاحشة:** ورمى الشيعة لعنهم الله عائشة رضي الله عنها بالفاحشة مع تبرئة الله لها. فبلغ الحقد في نفوس هؤلاء الشيعة أن يتهموا عائشة في عرضها. فهذا الكليني صاحب تلمودهم الكافي يصمها في عرضها ودينها وعفتها لعنه الله. يدَّعي هذا اللعين أن الحسن قال لأخيه الحسين: (واعلم أن سيصيبني من الحميراء ما يعلم الناس من صنيعها وعداوتها لله ولرسوله صلى الله عليه وآله). وأن الحسين بن علي قال لها: (قديمًا هتكت أنت وأبوك حجاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وأدخلتِ بيته من لا يحب رسول الله ﷺ قربه). وأنه قال: (وقد أدخلت أنت بيت رسول الله ﷺ الرجال بغير أذنه) الكافي، ٢/ ٢٤٠-٢٤١. ورمي عائشة رضي الله عنها بالبهتان الذي يهتز له عرش الرحمن شائع في كتب الشيعة.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٢- شعب الله المختار: يدعي اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم خاصة الله من بين كل الشعوب. وهي قضية معروفة مسلّمة.	**١٢- شعب الله المختار:** ويدعي الرافضة أنهم شيعة الله وخاصة الله وصفوته من خلقه: فعن جعفر بن محمد أنه قال: (نحن خيرة الله من خلقه وشيعتنا خيرة الله من أمة نبيه) أمالي الطوسي ص٧٦. ويسمون أهل السنة (عامة)، وهم الخاصة.
١٣- اليهود مخلوقون من ذات الله: يزعم اليهود أن أرواحهم -دون باقي الأرواح- مخلوقة من الله تعالى. فقد جاء في التلمود: (تتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله كما أن الابن جزء من والده) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود.	**١٣- الشيعة مخلوقون من ذات الله:** ويدّعي الشيعة أن أرواحهم مخلوقة من نور الله تعالى، ولم يجعل الله ذلك لأحد غيرهم إلاللأنبياء: يروي الكليني في تلمودهم الكافي عن أبي عبدالله أنه قال: (إن الله خلقنا من نور عظمته، ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونة تحت العرش فأسكن ذلك النور فيه، فكنا خلقًا وبشرًا نورانيين لم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا منه نصيبًا. وخلق شيعتنا من طينتنا وأبدانهم من طينة مخزونة مكنونة أسفل ذلك الطينة، ولم يجعل لأحد في مثل الذي خلقهم منه نصيبًا إلا للأنبياء. ولذلك صرنا نحن وهم الناس وسائر الناس همج للنار وإلى النار) الكافي ١/ ٣٨٩. ورووا عن الصادق أنه قال: (خلقنا الله من نور عظمته، وصنعنا برحمته، وخلق أرواحكم منا) الاختصاص، ص٢١٦.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٤- اليهود أفضل من الملائكة: يعتقد اليهود أنهم أفضل من الملائكة. جاء في التلمود: (الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة. فإذا ضرب أممي إسرائيليًّا فكأنة ضرب العزة الإلهية ويستحق الموت) إسرائيل والتلمود ٨٠.	**١٤- الشيعة أفضل من الملائكة:** ويعتقد الشيعة أيضًا أنهم أفضل من الملائكة. رووا عن أبي عبد الله أنه قال: (أنتم للجنة والجنة لكم أسماؤكم الصالحون والمصلحون وأنتم أهل الرضا عن الله برضاه عنكم، والملائكة إخوانكم في الخير إذا اجتهدوا) صفات الشيعة وفضائل الشيعة، ص٥٣.
١٥- اليهود هم الناس وغيرهم حيوانات: يدعي اليهود أنهم هم الناس، أما غيرهم فليسوا ناسًا من الناس، وإنما خلقهم الله على هذه الصورة لخدمة اليهود. جاء في التلمود: (خلق الله الأجنبي على هيئة إنسان ليكون لائقًا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من أجلهم) إسرائيل والتلمود، ص٦٩. وجاء في التلمود: (الأمم الخارجة عن اليهود ليست فقط كلابًا بل حمير أيضًا) الكنز المرصود، ص٦٨. وجاء في تفضيلهم الحيوانات على باقي الأمم: (إن الكلب أفضل من الأجانب؛ لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجانب، وغير مصرح له أيضًا أن يعطيهم لحمًا، بل يعطيه للكلب؛ لأنه أفضل منهم) المصدر السابق، ص٦٨.	**١٥- الشيعة هم الناس وغيرهم حيوانات:** ويعتقد الشيعة كذلك أنهم والأئمة هم الناس، أما ما عداهم فليسوا ناسًا من الناس، بل أنجس من الكلب. وهذا ما نصت عليه رواياتهم وعلماؤهم. ففي رواية عن أبي عبد الله أنه قال: (الشيعة هم الناس وغيرهم الله أعلم بهم ماهم؟) تفسير العياشي، ص٤٠. وعن أبي بصير قال: (حججت مع أبي عبد الله، فلما كنا في الطواف قلت له: جعلت فداك يا ابن رسول الله يغفر الله لهذا الخلق؟ فقال يا أبا بصير: إن أكثر من ترى قردة وخنازير، قال: قلت له: أرنيهم؟ قال: فتكلم بكلمات ثم أمرَّ يده على بصري فرأيتهم قردة وخنازير، فهالني ذلك، ثم أمرَّ يده على بصري فرأيتهم كما كانوا في المرة

. . . .

اليهود	الشيعة
	الأولى) بصائر الدرجات للصفار، ص٢٦٠. ويروي الطوسي عن محمد بن الحنفية أنه كان يحدث عن أبيه أنه قال: (ما خلق الله ﷻ شيئًا أشر من الكلب، والناصب أشر منه) أمالي الطوسي ٢٧٩، وبحار الأنوار ٢٧/ ٢٢١.
١٦- الجنة لليهود فقط وما عدا ففي النار: يدعي اليهود أنه لايدخل الجنة إلا اليهود وغيرهم ليس لهم غير النار. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وجاء في التلمود: (هذه الجنة اللذيذة لا يدخلها إلا اليهود، أما الباقون فيزجون في النار) همجية التعاليم الصهيونية ص٥٥. وفي نص آخر: (النعيم مأوى أرواح اليهود ولايدخل الجنة إلا اليهود، أما الجحيم فمأوى الكفار من المسيحيين والمسلمين فلا نصيب لهم فيه سوى البكاء؛ لما فيه من الظلام والعفونة والطين) الكنز المرصود، ص٦٢.	**١٦- الجنة للشيعة فقط وما عدا ففي النار:** ويدعي الشيعة كذلك أنهم وحدهم سيدخلون الجنة، أما أعداؤهم فيدخلون النار. فعن علي أنه قال: (سيؤتى بالرجل من مقصري شيعتنا في أعماله بعد أن جاز الولاية والتقية ... إلخ، ويوقف بإزائه ما بين مائة وأكثر من ذلك إلى مائة من النواصب فيقال: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النواصب النار) تفسير فرات ١١٣. وفي رواية عن أبي عبد الله جاء في آخرها: (والله لا يدخل النار منكم اثنان، لا والله ولا واحد) الكافي ٨/ ٧٨. وعنه أنه قال: (أن الله خلق المؤمن من طينة الجنة، وخلق الناصب من طينة النار) بصائر الدرجات، ص٣٦.

. . . .

اليهود	الشيعة
١٧- اليهود في الجنة مهما فعلوا: يدعي اليهود أنهم لا يدخلون النار وإن كانوا مذنبين. جاء في التلمود: (إن النار لا سلطان لها على مذنبي بني إسرائيل، ولا سلطان لها على تلامذة الحكماء) ظفر الإسلام خان، التلمود تاريخه وتعاليمه، ص٧٩.	**١٧- الشيعة في الجنة مهما فعلوا:** ويدعي الشيعة أيضًا الدعوى نفسها أن لا يدخل النار منهم أحد. روى البحراني أن النبي ﷺ قال لعلي: (جئت أبشرك. اعلم أن في هذه الساعة نزل عليّ جبريل وقال: الحق يقرئك السلام يقول: بشر عليًّا أن شيعته الطائع والعاصي من أهل الجنة). الكشكول ١/ ١٥٣. والروايات فيه كثيرة. منها: عن أبي عبد الله (ع) قال: ... وإن الله ليستحيي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله وإن كانت في أعمالها ظالمة مسيئة. أصول الكافي ١/ ٣٧٦.
١٨- نجاسة غير اليهود: يعتقد اليهود بنجاسة مخالفيهم مطلقًا، وأن النجاسة لازمة لأصل خلقهم. يقول أحد كتبة التلمود: (لماذا الغويم -غير اليهود- نجسون؟ لأنهم يأكلون أطعمة رديئة وحيوانات تزحف على بطنها) فضائح التلمود، ص٩٠. وفيه أيضًا: (محرمة الأشياء التالية الخاصة بالغويم: الحليب الذي يستدره الغويم من البقرة في غياب اليهودي، ومحرم أيضًا خبزهم) المصدر السابق، ص١١٤.	**١٨- نجاسة غير الشيعة:** ويعتقد الشيعة بنجاسة مخالفيهم مطلقًا، لا سيما أهل السنة، ويغسلون الإناء الذي يأكلون فيه، أو يتلفونه. وأن النجاسة لازمة لأصل خلقهم. فعن خالد القلانسي قال: قلت لأبي عبد الله: ألاقي الذمي فيصافحني، قال: امسحها بالتراب وبالحائط. قلت: فالناصب، قال: اغسلها) الأصول من الكافي ٢/ ٦٥٠. ويقول الخميني حاخام الشيعة الأكبر: (وأما النواصب والخوارج لعنهم الله فهما نجسان من غير توقف) تحرير الوسيلة ١/ ١٠٧.

. . . .

الشيعة	اليهود
١٩- لولا الشيعة لانعدمت البركة من الأرض: ويعتقد الشيعة أنه لولاهم لم يخلق الله هذا الكون، ولولاهم ما أنعم الله على أهل الأرض. فعن أبي عبد الله أنه قال: (لولا ما في الأرض منكم ما رأيت بعين عشبًا أبدًا. والله لولا ما في الأرض منكم ما أنعم على أهل خلافكم، ولا أصابوا الطيبات) الكافي ٨/ ٢١٢.	**١٩- لولا اليهود لانعدمت البركة من الأرض:** يعتقد اليهود أنه لولا اليهود لم يخلق الله هذا الكون، ولولاهم لانعدمت البركة من الأرض. جاء في التلمود: (لولم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود، ص٦٩.
٢٠- كل ما في الأرض للشيعة: ويزعم الشيعة أن كل ما في هذه الأرض هو ملك للأئمة، وقد منحوه لهم، وإن امتلك أحد من غير الشيعة شيئًا فإنه حرام عليه، وإذا قام القائم فسوف يسترده منه. ونسبوا ذلك للأئمة؛ فقد رووا عن أبي عبد الله أنه قال: (إن الأرض كلها لنا، وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون .. وأما ما كان في أيدي غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا، فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صغرة) الكافي ١/ ٤٠٨. وعن أبي عبد الله (ع) قال: ما كان لنا فهو لشيعتنا، وليس لعدونا منه شيء إلا ما غصب عليه، وإن ولينا لفي أوسع مما بين ذه إلى ذه، يعني ما بين السماء والأرض. أصول الكافي ١/ ٥٤٤.	**٢٠- كل ما في الأرض لليهود:** يزعم اليهود أن كل ما في هذه الأرض هو ملك لهم، ولا يحق لغير اليهود أن يمتلك شيئًا منه. وأنه يجوز لليهودي أن يسترد الأملاك بأي وسيلة إذا امتلكها غير اليهودي. ففي التلمود: (الحقيقة المقررة عند الربانيين أنه يمكن لليهودي أن يأخذ أي شيء يخص المسيحيين أيًا كان السبب حتى بالاحتيال، ولا يمكن أن يعتبر هذا العمل لصوصية؛ لأنه (أي اليهودي) لم يأخذ سوى ما يخصه هو) فضح التلمود، ص١٣١. وفيه أيضًا: (جميع ما يخص الغويم هو كالصحراء يستطيع أن يدعي أنها ملكه أول من يسرع متوليًا عليها) المصدر السابق. ويقول أحد أحبارهم: (إن ممتلكات النصراني بالنظر إلى اليهودي هي ممتلكات لا مالك لها مثل رمال البحار. وأول يهودي يستولي عليها عنوة يكون مالكها الأصيل) همجية التعاليم الصهيونية، ص٧٧.

اليهود	الشيعة
٢١- استحلال مال غير اليهودي: وبناء على ما سبق استحلوا سرقة أو أخذ مال الغير. وهذا ما قاله الله عنهم في كتابه حين قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].	**٢١- استحلال مال غير الشيعي:** وكذلك الشيعة، وللسبب نفسه يستحلون أخذ مال الآخر بأي وسيلة كانت. (خذ مال الناصب حيثما وجدته وادفع إلينا الخمس) تهذيب الأحكام للطوسي ١/ ٣٨٤، ووسائل الشيعة للحر العاملي ٦/ ٣٤٠. وشيعة اليوم على هذه العقيدة. يقول الخميني عند حديثه عن (الخمس) في كتابه تحرير الوسيلة: (والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتنم منهم وتعلق الخمس، بل الظاهر جواز أخذ ماله أين وجد وبأي نحو كان، ووجوب إخراج الخمس) تحرير الوسيلة ١/ ٢١٨. والخوئي منهاج الصالحين ١/ ٣٢٥.
٢٢- استحلال دم غير اليهود: جاء في التلمود: (اقتل الصالح من غير اليهود. ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدًا من الأجانب من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها، بل عليه أن يسدها بحجر) إبراهيم خليل، إسرائيل والتلمود ص٧٢.	**٢٢- استحلال دم غير الشيعة:** أما موقف الشيعة من دماء المسلمين فهم يستبيحون دماء المسلمين وأموالهم، خاصة أهل السنة (النواصب، بتعبيرهم). بل قد جاءت الروايات في كتبهم بالحث على قتل أهل السنة وأخذ أموالهم أينما وجدوا. وهذه واحدة من كبائرهم: عن ابن فرقد قال: (قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما تقول في قتل الناصب؟ قال: حلال الدم، ولكن أتقي عليك، فإن قدرت أن

. . . .

	تقلب عليه حائطًا أو تغرقه في البحر فافعل. قال: ما تقول في ماله؟ قال: خذ ما قدرت عليه) بحار الأنوار للمجلسي، ٢٧/ ٢٣١.
٢٣- التعامل بالربا: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]. وفي التلمود: (أمرنا الله بأخذ الربا من الذمي، وأن لا نقرضه شيئًا إلا تحت هذا الشرط وبدون ذلك نكون ساعدناه) الكنز المرصود في تعاليم التلمود، ص٨٠. وفي التلمود أيضًا: (غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا) المرجع السابق ٨٠.	**٢٣- التعامل بالربا:** والأمر نفسه جاء في المصادر المعتمدة عند الشيعة. ففيما نسبوه زورًا وبهتانًا إلى جعفر الصادق أنه قال: (ليس بين المسلم وبين الذمي ربا ولابين المرأة وبين زوجها ربا) من لايحضره الفقيه ٣/ ١٨٠. ويقول حاخام إيران: (وأما ما اغتنم منهم بالسرقة والغيلة وكذا بالربا والدعوى الباطلة فالأحوط إخراج الخمس فيها من حيث كونها غنيمة) تحرير الوسيلة ١/ ٢٥١.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٤- ضربت عليهم الذلة والمسكنة: قال الله تعالى مخبرًا عن اليهود: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]. ويقول جل في علاه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]. ولذلك يستعمل اليهود مع خصومهم تقية الشيعة كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦].	٢٤- ضربت عليهم الذلة والمسكنة: مما يثبت انتماء الشيعة لليهود هوضرب الله ﷻ عليهم الذلة والمسكنة؛ وهذه هي العلة التي من أجلها تجد الشيعة يستخدمون النفاق باسم التقية، وهي خلق اليهود كما أخبر الله عنهم في أكثر من مناسبة في كتابه، وهكذا تجدهم على مر العصور والأزمان يتقلبون في الذلة والمسكنة والهوان. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن الشيعة: (وليس لهم عقل ولا نقل ولا دين صحيح ولا دنيا منصورة) مجموع الفتاوى ٢/ ٤٨٠. ويؤيده قول محمد رضا المظفر: (ومن المعلوم أن الأمامية وأئمتهم لاقوا من ضروب المحن وصنوف الضيق على حرياتهم في جميع العهود ما لم تلقه أية طائفة أو أمة أخرى) عقائد الأمامية، ص١٢٣؛ فلهذا كانت الذلة والمسكنة التي ضربها الله على اليهود سببًا رئيسًا ودافعًا قويًا لاتباعهم أسلوب النفاق والتقية مع مخالفيهم واللف والدوران والتذلل والخضوع لهم. وهذا عقاب من الله ﷻ في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٥- التقية: وهذه من جنس سابقتها. جاء في التلمود: (مصرح لليهودي أن يجامل الأجنبي ظاهرًا ليتقي شره على أن يضمر له الشر والأذى) عبدالله التل، جذور البلاء ص٨٠. وفي نص آخر: (إن النفاق جائز وإن الإنسان -أي: اليهودي- يمكنه أن يكون مؤدبًا مع الكافرين ويدعي محبتهم كاذبًا) الكنز المرصود، ص٧٠.	**٢٥- التقية:** وهذه هي عقيدة الشيعة، رووا كاذبين عن أبي عبد الله أنه قال: (خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية) الكافي ٢/ ١٧٥. وعن أبي عبد الله (ع) قال: (إن تسعة أعشار الدين في التقية .. ولا دين لمن لا تقية له) الكافي ٢/ ٢١٧.
٢٦- التلاعب بالعبارات والألفاظ: قال تعالى عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]. وجاء في التلمود: (إن أحد حاخاماتهم كان يسلم على غير اليهودي بقوله: السلام معك، وإنما كان يوجه نيته إلى أستاذه وليس إلى غير اليهودي) الكنز المرصود في تعاليم التلمود، ص١٧. وكانوا يسلمون على المسلمين بقولهم: السام عليكم.	**٢٦- التلاعب بالعبارات والألفاظ:** ومن أساليب الشيعة تلاعبهم بالعبارات والألفاظ في النفاق وتحريف الكلم عن مواضعه. روى النباطي في الصراط المستقيم يقول: (سلم اليأس المعدل على قوم فلم يردوا فقال: لعلكم تظنون فيّ ما قيل من الرفض، إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًّا من أبغض واحدًا منهم فهو كافر، فردوا بذلك ودعوا له) وعنى بالواحد عليًّا. الصراط المستقيم لمستحقي التقديم، ص٣/ ٧٣. ويقول: (لقي الطاقي خارجيًّا فقال: لا أفارقك أو تتبرأ من علي. فقال: أنا من علي ومن عثمان بريء. ويعني بذلك أنه من أصحاب علي. ومن عثمان بريء) المصدر السابق.

. . . .

اليهود	الشيعة
٢٧- استخدام الرموز للطعن: يستعمل اليهود الرموز في كتبهم لمن أرادوا الطعن فيه حتى لا يفتضح أمرهم. فيرمز اليهود لعيسى عليه السلام بعدة رموز منها (جيشو). ويرمزون إليه بـ(ذلك الرجل) و(النجار) و(ابن الحطاب). فضح التلمود، ص٥٦.	**٢٧- استخدام الرموز للطعن:** ويرمز الشيعة في كتبهم للخلفاء الراشدين وأمهات المؤمنين -رضي الله عنهم أجمعين- برموز تشبهًا برموز اليهود: فيرمزون لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (بالجبت والطاغوت) و(صنمي قريش) و(زريقوحبتر) و(فرعون وهامان) و(العجل والسامري) و(الأول والثاني) و(فلان وفلان) وغيرها من الرموز. ويرمزون لعثمان رضي الله عنه بـ(نعثل) و(الثالث). ويرمزون لعائشة رضي الله عنها (بأم الشرور) و(صاحبة الجمل) و(عسكر بن هوسر). ويرمزون لمعاوية رضي الله عنه بـ(الرابع) . . . وهكذا.
٢٨- تحريف الكتاب: قال تعالى عن اليهود: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].	**٢٨- تحريف الكتاب:** وهو صنعة الشيعة أيضًا. فبالإضافة إلى دعواهم الكاذبة التي أجمع عليها علماؤهم في تحريف القرآن الكريم، تجرأوا فحرفوا بعض آيات الكتاب! فعن أبي عبد الله (ع) قال: إن القرآن الذي جاء به جبريل (ع) إلى محمد (ص) سبعة عشر ألف آية. الكافي ١/ ٦٣٤. وعن أبي جعفر (ع) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قال: إيانا عنى خاصة: أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا: (فإن خفتم تنازعًا في

. . . .

	أمر فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولي الأمر منكم) كذا نزلت. فكيف يأمر الله ﷻ بطاعة ولاة الأمر ويرخص في منازعتهم؟ إنما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) الكافي ١/ ٢٧٦. وكتب المخذول حسين الطبرسي صاحب أحد الكتب الثمانية المعتمدة في المذهب كتابه (فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب)!!!
٢٩- استحلال محاش النساء: اليهود يجيزون نكاح المرأة من دبرها. جاء في التلمود أن امرأة حضرت إلى الحاخام وشكت له أن زوجها يأتيها على خلاف العادة، فأجابها: (لا يمكنني أن أمنعه عن هذه المسألة يا ابنتي لأن الشرع قدمك قوتًا لزوجك) الكنز المرصود، ص٩٧. وذكر أيضًا: (أنه مصرح لليهودي أن يفعل ذلك بزوجته) المصدر السابق، ص٩٧.	**٢٩- استحلال محاش النساء:** وكذلك الشيعة يجوزون نكاح المرأة من دبرها. فعن عبد الله بن يعفور قال: سألت أبا عبدالله عن الرجل يأتي المرأة في دبرها؟ قال: لا بأس إذا رضيت. الاستبصار ٣/ ٣٤٣. وفتاوى علمائهم في ذلك معروفة مشهورة. جاء في (رسائل الشريف المرتضى، المجموعة الأولى ص٣٠٠): مسألة سادسة وخمسون (حلية الوطء دبرًا وقبلًا): مباح للزوج أن يطأ زوجته في كل واحد من مخرجيها. وليس في ذلك شيء من الحظر والكراهة.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٠- إيقاد الحروب بين الأمم: ذكر الله تعالى في كتابه أن ديدن اليهود إثارة الفتن وإيقاد الحروب بين الأمم والشعوب. كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].	**٣٠- إيقاد الحروب بين الأمم:** وهذا هو شأن الشيعة على الدوام. وكما فعل اليهود مع الرسول ﷺ في المدينة، حين كانوا يحرضون الكفار على غزو المسلمين، كذلك كان الشيعة -وإيران من ورائهم- يفعلون على مر التاريخ. ومن أشهر شنائعهم تحريض المغول على غزو بغداد قديمًا، وتحريض أمريكا وحلف الصليب على غزو بغداد حديثًا. وهذا شأن كل ضعيف وسط مجموع لا يحس بالانتماء إليهم؛ لعله يحصل على فرصة وسط الفتنة والخراب، أو ينتقم من مواطنيه الذين يحقد عليهم. كما قيل: (الهر يفرح بعزا «مأتم» أهله).
٣١- خيانة الأوطان: من المعروف عن اليهود أنهم يشعرون بالضياع وعدم الانتماء إلى أي وطن يسكنونه؛ فهم دائمًا يتآمرون على أوطانهم، وهذا أحد أسباب نكباتهم المستمرة على أيدي الشعوب.	**٣١- خيانة الأوطان:** وكذلك الشيعة، ليس لهم من ولاء لأوطانهم؛ لأنهم لا يشعرون بالانتماء إليها. إنما ولاؤهم وشعورهم معلق بإيران؛ ولذلك هم دائمو التواطؤ مع الأجنبي ضد أوطانهم، إنهم الخطر الأكبر على أي بلد يكونون فيه، والعراق اليوم خير شاهد ومثال، ولكن الأمر كما قيل: ما أكثر العبر وأقل المعتبرين!

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٢- التركيز على الفتن في عرض تاريخنا : ويتشابه اليهود والشيعة حتى في طرحهم لمواد التاريخ الإسلامي! ففي كتاب «التعليم في (إسرائيل)» للدكتور منير بشور وخالد مصطفى الشيخ يوسف: أمّا دراسة الإمبراطورية الفارسية فيجري التركيز على «كورش» وتصريحه لليهود بالعودة إلى (إسرائيل) ثم بناء الهيكل الثاني. وفي منهاج التاريخ للصف السادس يتكوّن التاريخ الإسلامي ٥٦% من مقرّر التاريخ، لكن يتمّ التركيز في هذا المنهاج على الخلافات في التاريخ الإسلامي بين علي ومعاوية، والخلافات بين الفرق الدينية والصراع بين الأمويين والعباسيين. كما يفرد المنهاج فصلًا لما يسمّيه بالجهود اليهودية في الحضارة الإسلامية، مثل التعاون بين اليهود وبين العرب في المجالات السياسية والثقافية، ولا سيّما في الأندلس وفي مصر الفاطمية، والأمويين.	**٣٢- التركيز على الفتن في عرض تاريخنا :** والمنهج نفسه يسير عليه الشيعة في تناولهم لموضوعات التاريخ! فهم متشبهون حتى في هذه، لا يذكرون إلا أحداث الخلافات والفتن - مع التزوير والحذف والإضافة - التي وقعت بين علي ومعاوية وغيره من الصحابة، معركة الجمل، صفين، الطف، مقتل الحسين، موسى الكاظم، اجترار ما أسموه زورًا بـ(اضطهاد الأئمة). الصراع الأموي - العباسي ... إلخ. وكأن تاريخ الأمة الزاهر ليس سوى صراع ودسائس وظلم واضطهاد واقتتال! أين الحديث عن حضارة العرب وعدل المسلمين؟ أين الجهاد الإسلامي المشرف، ووقعات المسلمين العظيمة نشرًا للرسالة، ودفعًا للغزاة ودفاعًا عن حياض الأمة؟ أين بدر والقادسية واليرموك ونهاوند وحطين وعين جالوت؟ أين شواهد عظمة الإسلام في حضارة الأندلس التي ينعم العالم اليوم بإنجازات الحضارة الحديثة التي هي امتداد لحضارة الأمويين وإنجازاتها في الأندلس؟ أين ..؟ أين ..؟! لا شيء!

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٣- دعوى المظلومية (معاداة السامية): استند اليهود في ترويج فكرتهم على مبدإ المظلومية لليهود بسبب تعرضهم للاضطهاد في أوروبا، وأرجعوا السبب لا إلى جذوره الموضوعية، وإنما أرجعوه إلى ما أسموه بـ(معاداة السامية). وهكذا بنى اليهود كيانهم في فلسطين تحت ذريعة المظلومية.	**٣٣- دعوى المظلومية (معاداة أهل البيت)** والشيعة يستندون إلى الأساس نفسه، فيروجون فكرتهم بطرح مبدإ المظلومية في العراق وغيره، وتعرضهم للظلم منذ أكثر من١٤٠٠ عام في بلاد العرب. وأرجعوا السبب لا إلى جذوره الموضوعية، وإنما أرجعوه إلى ما أسموه بـ(معاداة أهل البيت). وهكذا جلب الشيعة الغزاة الأمريكان إلى العراق، واستعطفوا العالم تحت ذريعة المظلومية وأسطورة الأغلبية المضطهدة؟!
٣٤- الاعتماد على العصابات والمليشيات: اعتمد اليهود في تنفيذ مشروعهم على العصابات الصهيونية الممثلة بالأحزاب والحركات الصهيونية (الهاغانا) و(الاشتيرن) وغيرها التي ارتكبت المجازر الرهيبة بحق الشعب العربي الفلسطيني؛ لإخضاعهم وتهجيرهم من أرضهم ليقطنوا الخيام.	**٣٤- الاعتماد على العصابات والمليشيات:** والشيعة تمارس في العراق اليوم النهج والأسلوب الصهيوني نفسه. وذلك من خلال مليشيات جيش الدجال بقيادة مقتدى، والمجلس المسمى بـ(الأعلى) وعصابته قوات غدر، وحزب الدعوة، والجلبي، وتكوين فرق القتل والموت والخطف والاغتيال والتصفيات والتطهير المذهبي في كافة مناطق العراق، وتدعم قوات الاحتلال الأمريكي بتدمير مدن سنية كاملة وتهجيرهم منها، واللجوء إلى الخيام.

. . . .

اليهود	الشيعة
٣٥- اعتماد الدعاية والإعلام: اليهود يجيدون فن الإذاعة والإشاعة والإعلام ونشر الأخبار، وفن التشكي والتظلم والنياحة والبكاء، وما يتبع ذلك من التزوير والكذب والتحريف. وبذلك نشروا أفكارهم، وحشدوا العالم إلى جانب قضيتهم.	**٣٥- اعتماد الدعاية والإعلام:** والشيعة كذلك يجيدون فن الإذاعة والإشاعة والإعلام ونشر الأخبار، وفن التشكي والتظلم والنياحة والبكاء، وما يتبع ذلك من التزوير والكذب والتحريف. وبذلك نشروا أفكارهم، وحشدوا العالم إلى جانب قضيتهم.



٣٨٢- الدولة الصفوية (١)
نشأتها، عقيدتها، جرائمها

٢٣/ ١٢/ ١٤٢٧هـ

الْحَمْدُ للَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ وَدَبَّرَهُمْ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَابْتَلَاهُمْ، نَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَعْطَانَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِخَطَايَانَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَقَصَّ عَلَيْنَا فِيهِ أَخْبَارَ الْغَابِرِينَ؛ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يُوسُف: ١١١]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَعْلَى اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَكَتَبَ بَقَاءَ دَعْوَتِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، فَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التَّوْبَة: ١٠٠]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، وَأَخْلِصُوا لَهُ دِينَكُمْ، وَأَحْسِنُوا عَمَلَكُمْ؛ فَلَا حَاجَةَ للَّهِ تَعَالَى عِنْدَكُمْ، إِنَّمَا خَلَقَكُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [المُلْك: ١-٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: دِينُ اللَّهِ تَعَالَى وَاحِدٌ، وَهُوَ الْحَقُّ وَالنُّورُ وَالْهُدَى، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوصِلُ إِلَى رِضْوَانِهِ وَالْجَنَّةِ، وَأَدْيَانُ الشَّيْطَانِ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ الْبَاطِلُ وَالضَّلَالُ وَالظُّلُمَاتُ، وَهِيَ مَا عَدَا الْحَقَّ الَّذِي فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، وَبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ ﷺ؛ وَلِذَا جَاءَ صِرَاطُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مُفْرَدًا، كَمَا جَاءَ النُّورُ مُفْرَدًا، وَجَاءَتِ الظُّلُمَاتُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَمَا جُمِعَتْ سُبُلُ الْبَاطِلِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: **هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيمًا**، قَالَ: ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: **هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلَّا عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ[1].

وَهَكَذَا طَوَالَ تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ كَانَتِ الرُّسُلُ عليهم السلام يَهْدُونَ النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ، وَكَانَتِ الشَّيَاطِينُ تَحْرِفُهُمْ عَنْ ذَلِكَ السَّبِيلِ إِلَى سُبُلٍ أُخْرَى تَكُونُ سَبَبًا فِي ضَلَالِهِمْ وَانْحِرَافِهِمْ، وَلَا تَكَادُ تُحْصَى الدِّيَانَاتُ وَالْأَفْكَارُ الْبَاطِلَةُ الَّتِي دَانَ -وَلَا يَزَالُ يَدِينُ- بِهَا أَكْثَرُ الْبَشَرِ.

وَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام دَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِدِينِ الْحَقِّ، ثُمَّ غَيَّرُوا الدِّينَ بَعْدَهُ، وَحَرَّفُوا التَّوْرَاةَ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى عِيسَى عليه السلام مُصَدِّقًا لِدِينِ مُوسَى عليه السلام، وَمُبَشِّرًا بِبَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَدَانَ الْحَوَارِيُّونَ وَأَتْبَاعُهُمْ بِدِينِ الْحَقِّ، حَتَّى أَدْخَلَ شَاؤُولُ الْيَهُودِيُّ الشِّرْكَ فِي عَقِيدَةِ النَّصَارَى[2]، وَنَقَلَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والنسائي في الكبرى (١١١٧٥)، والبزار (١٧١٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٤٨)، والشيخ أحمد شاكر (٤٤٣٧).

(٢) ينظر تفصيل ذلك في خطبة: علاقة النصارى بالمسلمين، خطبة رقم (٣٧٧) من هذا المجلد.

وَالْهُدَى إِلَى التَّثْلِيثِ وَالضَّلَالِ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا ﷺ مُصَدِّقًا لِرِسَالَاتِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ ﷺ، وَخَاتَمًا لِلنُّبُوَّةِ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَقَضَى اللهُ تَعَالَى أَنْ يَبْقَى دِينُهُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَأَمَّا أُمَّتُهُ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُهْدَى لِدِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَضِلُّ إِلَى أَدْيَانٍ أُخْرَى.

وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِ ﷺ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ، مُلْتَزِمًا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُهْتَدِيًا بِهَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنِ انْحَرَفَ إِلَى بِدْعَةٍ مُكَفِّرَةٍ أَوْ مُفَسِّقَةٍ، فَأَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ يُسَمَّوْنَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ.

إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا أَهْبَطَ الْأَبَوَيْنِ ﷺ مِنَ الْجَنَّةِ، وَكَلَّفَهُمَا وَذُرِّيَّتَهُمَا بِالدِّينِ أَقْسَمَ إِبْلِيسُ بِعِزَّةِ اللَّهِ تَعَالَى لَيَصْرِفَنَّ ذُرِّيَّةَ آدَمَ عَنْ دِينِهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللهُ تَعَالَى.

وَلَمَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمَ الرُّسُلِ قَضَى اللهُ ﷻ بِبَقَاءِ دِينِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ، وَسَلَامَتِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الْحِجْر: ٩]، وَأَمَّا أَفْرَادُ الْأُمَّةِ فَلَيْسُوا مَعْصُومِينَ مِنَ الْحَيْدَةِ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، أَوْ إِدْخَالِ شَيْءٍ فِيهِ لَيْسَ مِنْهُ، أَوْ إِخْرَاجِ مَا هُوَ مِنْهُ، فَيَضِلُّ بِسَبَبِ ذَلِكَ مَنْ يَضِلُّ، وَيَبْقَى عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضَّلَالِ، وَهَكَذَا الْحَالُ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ.

وَمُحَاوَلَاتُ تَحْرِيفِ الْإِسْلَامِ، وَإِدْخَالِ عَقَائِدَ وَأَفْكَارٍ فِيهِ لَيْسَتْ مِنْهُ؛ بَدَأَتْ مُبَكِّرَةً فِي آخِرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، وَأَرَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَإٍ الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقُ أَنْ يَقُومَ فِي الْإِسْلَامِ بِذَاتِ الدَّوْرِ الَّذِي قَامَ بِهِ سَلَفُهُ شَاؤُولُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ، فَأَحْدَثَ ابْنُ سَبَإٍ وَأَتْبَاعُهُ الْخُرُوجَ عَلَى عُثْمَانَ ﷺ[٣]، وَاسْتَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالْغُلُوِّ فِي

---

(٣) انظر تفصيل ذلك في خطب: فتنة مقتل عثمان مجلد (٦)، خطب رقم (٢١٠-٢١١-٢١٢-٢١٣-٢١٤).

آلِ الْبَيْتِ، وَزَعَمُوا التَّشَيُّعَ لَهُمْ، فَأَظْهَرُوا مَحَبَّتَهُمْ، ثُمَّ غَالَوْا فِي عَلِيٍّ ﷺ، وَادَّعَوْا الْعِصْمَةَ لَهُ، ثُمَّ زَعَمُوا النُّبُوَّةَ فِيهِ، حَتَّى وَصَلَ بِهِمْ غُلُوُّهُمْ إِلَى خَلْعِ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ ﷺ، مَعَ طَعْنِهِمْ فِي بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ ﷺ إِلَّا عَدَدًا قَلِيلًا مِنْهُمْ، وَسَبِّهِمْ لِلْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ ﷺ، وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ.

ثُمَّ لَمَّا بَذَرَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ بَذْرَةَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَسَقَوْهَا بِالْأَكَاذِيبِ وَالشَّائِعَاتِ، وَغَذَّوْهَا بِالضَّغَائِنِ وَالْأَحْقَادِ، وَأَوْقَعُوا الْخُصُومَةَ بَيْنَهُمْ كَانُوا هُمْ أَوَّلَ مَنْ تَخَلَّى عَنْ عَلِيٍّ وَابْنَيْهِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ﷺ، وَخَانُوهُمْ أَعْظَمَ خِيَانَةٍ، حَتَّى قُتِلَ الْحُسَيْنُ ﷺ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا بِسَبَبِ خِيَانَةِ مَنْ زَعَمُوا التَّشَيُّعَ لَهُ، وَجَعَلَ أُولَئِكَ الْخَوَنَةُ وَأَتْبَاعُهُمْ يَوْمَ مَقْتَلِهِ يَوْمَ مَنَاحَةٍ وَلَطْمٍ وَبُكَاءٍ، وَإِحْيَاءٍ لِلضَّغَائِنِ، وَسَبٍّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ.

ثُمَّ انْشَطَرُوا فِي ضَلَالِهِمْ إِلَى مَذَاهِبَ عِدَّةٍ، وَفِرَقٍ كَثِيرَةٍ، يَلْعَنُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَزْعُمُ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهَا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهَا دُونَ غَيْرِهَا، فَجَمَعَتْهُمْ بِدْعَةُ الْغُلُوِّ فِي آلِ الْبَيْتِ، ثُمَّ فَرَّقَتْهُمْ تِلْكَ الْبِدْعَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْرَجَتْهُمْ بِدْعَتُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَى الْكُفْرِ، وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ، وَيَكُونُ قُرْبُهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبُعْدُهُمْ عَنْهُ بِحَسَبِ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ.

وَمِنْ أَكْبَرِ فِرَقِهِمْ: الْإِمَامِيَّةُ الِاثْنَا عَشْرِيَّةَ، وَقَدْ قَامَتْ لَهُمْ فِي الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْهِجْرِيِّ دَوْلَةٌ شَرِسَةٌ خَبِيثَةٌ، عَظُمَ بَلَاءُ الْمُسْلِمِينَ بِهَا، هِيَ الدَّوْلَةُ الصَّفَوِيَّةُ الَّتِي شَيَّعَتْ إِيرَانَ بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ، فَرَفَعَتْ بِبَطْشِهَا وَظُلْمِهَا نِسْبَةَ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّةَ فِيهَا مِنْ (١٠ ٪) إِلَى (٦٥ ٪)(٤).

---

(٤) يقول الباحث الألماني جرهارد كونسلمان: «كانت حدود المنطقة التي يعيش فيها الشيعة =

وَقَبْلَ ذَلِكَ سَعَى ابْنُ الْعَلْقَمِيِّ الرَّافِضِيُّ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ إِلَى بِنَاءِ دَوْلَةٍ لَهُمْ فِي بَغْدَادَ عَلَى أَنْقَاضِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بَعْدَ خِيَانَتِهِ لَهَا، وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ ذَلِكَ فَمَاتَ كَمَدًا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى(٥).

وَتَعَاقَبَتِ الدُّوَلُ المَغُولِيَّةُ وَغَيْرُهَا عَلَى بِلَادِ الْعِرَاقِ وَفَارِسَ، وَكَانَتْ دُوَلًا سُنِّيَّةً فِيهَا جَهْلٌ وَتَصَوُّفٌ، لَكِنَّهَا سَالِمَةٌ مِنْ بِدْعَةِ التَّشَيُّعِ، كَانَ آخِرُهَا دَوْلَةً لِلتُّرْكُمَانِ، زَالَتْ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ عَلَى يَدِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَيْدَرَ الصَّفَوِيِّ؛ نِسْبَةً إِلَى جَدِّهِ صَفِيِّ الدِّينِ الْأَرْدَبِيلِيِّ الَّذِي كَانَ وَاعِظًا صُوفِيًّا، عَاشَ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ(٦)، وَمَا زَالَ أَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ يَمِيلُونَ لِلتَّشَيُّعِ حَتَّى اعْتَنَقُوا المَذْهَبَ الْإِمَامِيَّ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّ(٧).

= تقتصر على بلاد الرافدين، أما أهل بلاد فارس فكانوا من السنة، ونضرب لذلك مثلًا: ففي تبريز تلك المدينة التي تم تتويج إسماعيل الصفوي فيها كان يعيش ٣٠٠ ألف نسمة، كان أهل الشيعة يمثلون عشرين ألف نسمة فقط منهم ... فأجبر إسماعيل الصفوي رعيته على تغيير معتقداتهم» سطوع نجم الشيعة، جرهارد كونسلمان، ترجمة محمد أبو رحمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الأولى ١٤١٢هـ، علمًا أن هذا الكاتب الألماني متحيز للروافض، وهم يشيدون به وبكتاباته. وينظر أيضًا: الأتراك العثمانيون وحضارتهم، للمستشرق كارل بركلمان، تعريب د. نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الأولى، ١٩٤٩م ص(١٢٣).

ويقول المؤرخ الإيراني الصفوي عباس إقبال: «يعد الشاه إسماعيل بلا شبهة أحد أرشد وأكبر ملوك إيران، ومع أنه تخطى جادة الإنصاف والمروءة في تحميل مذهب التشيع على شعب إيران، وكان أغلبهم حتى ذلك الوقت من السنة، سفك دماء كثير من الأبرياء بقسوة إلا أن سياسته في هذا السبيل إيجاد الوحدة المذهبية في إيران، وجعل المذهب الشيعي رسميًّا ... إلخ» تاريخ إيران بعد الإسلام، عباس إقبال، تعريب د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر، القاهرة ١٩٨٩م ص(٦٤٦-٦٤٧).

(٥) ينظر تفصيل ذلك في خطبتي: اجتياح المغول لبغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٤٩)، وسقوط بغداد مجلد (٣) خطبة رقم (١٥٣).

(٦) ينظر: سمط النجوم العوالي لعبد الملك بن حسين المكي (٤/ ٨٢)، وهو منسوب إلى بلدة أردبيل في جنوب آذربيجان، وكان له تكية اشتهرت شهرة كبيرة في وقته. ينظر: تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا (١/ ٢٠١) وتاريخ إيران بعد الإسلام، لعباس إقبال (٦٣٨).

(٧) أول من اعتنق المذهب الإمامي الاثني عشري من أحفاد صفي الدين الأردبيلي حفيد =

فَلَمَّا آلَ الْأَمْرُ إِلَى حَفِيدِهِ الشَّاهْ إِسْمَاعِيلَ مُؤَسِّسِ الدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ حَارَبَ بِالْمُتَصَوِّفَةِ وَالشِّيعَةِ التُّرْكُمَانِ دَوْلَتَهُمُ السُّنِّيَّةَ فَقَضَى عَلَيْهَا، فَكَانَ أَوَّلَ حَاكِمٍ لِلدَّوْلَةِ الصَّفَوِيَّةِ، وَذَلِكَ عَامَ سَبْعَةٍ وَتِسْعِمِائَةٍ لِلْهِجْرَةِ(٨)، وَاتَّخَذَ مَدِينَةَ تَبْرِيزَ الْإِيرَانِيَّةَ عَاصِمَةً لِدَوْلَتِهِ، وَأَوَّلَ مَا حَكَمَ أَعْلَنَ أَنَّ مَذْهَبَ دَوْلَتِهِ الْإِمَامِيَّةُ الِاثْنَا عَشْرِيَّةَ، وَأَنَّهُ سَيُعَمِّمُهُ فِي جَمِيعِ بِلَادِ إِيرَانَ، وَعِنْدَمَا نُصِحَ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ إِيرَانَ هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، قَالَ: إِنَّنِي لَا أَخَافُ مِنْ أَحَدٍ . . فَإِنْ تَنْطِقِ الرَّعِيَّةُ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ فَسَوْفَ أَمْتَشِقُ الْحُسَامَ، وَلَنْ أَتْرُكَ أَحَدًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ(٩).

ثُمَّ صَكَّ عُمْلَةً لِلْبِلَادِ كَاتِبًا عَلَيْهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيٌّ وَلِيُّ اللَّهِ»، ثُمَّ كَتَبَ اسْمَهُ. وَأَمَرَ الْخُطَبَاءَ فِي الْمَسَاجِدِ بِسَبِّ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

= حفيده جنيد بن إبراهيم بن سلطان خوجه بن صدر الدين موسى بن صفي الدين إسحاق الأردبيلي، وكان جنيد الشيخ الخامس للطريقة الصوفية التي أسسها جده صفي الدين، وصار يدعو أتباعه إلى المذهب الإمامي الاثني عشري، وتبعه عشرات الألوف من التركمان الجهلة، وقد قتل جنيد هذا عام ٨٦١هـ. ينظر: تاريخ الدولة العثمانية (١/ ٢٠١-٢٠٢). وكان جنيد يرمي إلى تأسيس عصبية مذهبية مرتبطة به، وهو الممهد لتأسيس أسرة صفوية حاكمة بنشاطه القوي في تشييع التركمان. ينظر: تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، د. عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١م (١/ ٢٢-٢٣). وعن استغلال جنيد لبسطاء الناس وتشييعهم، وادعاء الكرامات، ونشاطه في هذا السبيل، وإيمان أتباعه به مطلقًا حتى كانوا يظنون بعد مقتله أنه حي. ينظر: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر، د.مصطفى كامل الشيبي، مكتبة النهضة، بغداد، الأولى ١٣٨٦هـ (٤٠٢-٤٠٥).

(٨) ينظر: الهجرة العاملية إلى إيران في العصر الصفوي، جعفر المهاجر، دار الروضة، بيروت، الأولى ١٤١٠هـ ص(٢٢)، وعودة الصفويين، عبد العزيز المحمود، مكتبة الإمام البخاري، مصر، الأولى ١٤٢٨هـ ص(١٠) ومجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، الصادرة عن جامعة البصرة، وهي مجلة فيها بحوث نفيسة، عدد (٢٠) ص(٦٨-٦٩).

(٩) عودة الصفويين (١٠).

الثَّلَاثَةِ ﷺ، مَعَ المُبَالَغَةِ فِي تَقْدِيسِ الْأَئِمَّةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ(١٠).

وَقَدْ عَانَى أَهْلُ السُّنَّةِ فِي إِيرَانَ مِنْ ظُلْمِهِ مُعَانَاةً هَائِلَةً، وَأُجْبِرُوا عَلَى اعْتِنَاقِ المَذْهَبِ الْإِمَامِيِّ بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ مِلْيُونُ إِنْسَانٍ سُنِّيٍّ فِي بِضْعِ سَنَوَاتٍ بِشَهَادَةِ مُؤَرِّخٍ شِيعِيٍّ(١١).

وَظَلَّ يَجْتَاحُ بِلَادَ المُسْلِمِينَ حَتَّى انْتَزَعَ بَغْدَادَ بَعْدَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ مِنْ قِيَامِ دَوْلَتِهِ، وَكَانَ انْتِزَاعُهُ لَهَا أَيْضًا بِخِيَانَةٍ وَمُمَالأَةٍ مِنْ شِيعَتِهَا آنَذَاكَ. ثُمَّ أَمَرَ بِهَدْمِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ وَقَتْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى مَقَابِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَنَبَشَ قُبُورَ المَوْتَى وَأَحْرَقَ عِظَامَهُمْ. وَبَدَأَ يُعَذِّبُ أَهْلَ السُّنَّةِ سُوءَ الْعَذَابِ ثُمَّ يَقْتُلُهُمْ، وَنَبَشَ قَبْرَ أَبِي حَنِيفَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-. وَقَتَلَ كُلَّ مَنْ يَنْتَسِبُ لِذُرِّيَّةِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﷺ فِي بَغْدَادَ لِمُجَرَّدِ أَنَّهُمْ مِنْ نَسَبِهِ(١٢).

وَقَدْ أَرَّخَ الشِّيعَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ حَتَّى قَالَ ابْنُ شَدْقَمَ الرَّافِضِيُّ يَحْكِي سِيرَتَهُ: «فَتَحَ بَغْدَادَ وَفَعَلَ بِأَهْلِهَا النَّوَاصِبَ ذَوِي الْعِنَادِ مَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ قَطُّ فِي سَائِرِ الدُّهُورِ بِأَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ، حَتَّى نَبَشَ مَوْتَاهُمْ مِنَ الْقُبُورِ»(١٣).

---

(١٠) الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، د. بدر الدين الخصوصي، بحث في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد (٤٤) ص(١٤٤) الشاه عباس الكبير بديع محمد جمعة (ص١٠).

(١١) هو علي الوردي في كتابه: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق (١/ ٤٣) ونقله عن ريجارد كوك في كتابه: بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد، ط في بغداد عام ١٩٦٢م (١/ ٣١٣)، وأقره الوردي ولم يتعقبه. وينظر أيضًا: الحروب العثمانية الفارسية، د. محمد عبد اللطيف هريدي، دار الصحوة، القاهرة، الأولى ١٤٠٨هـ ص(٤٤).

(١٢) عودة الصفويين (٢٠-٢١).

(١٣) المصدر السابق (٢١) وعزاه لتحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار، لضامن بن شدقم الحسيني، وقد اختصره يوسف جمل الليل وطبع عام ١٤٢٦هـ بواسطة مكتبة التوبة ومكتبة المعرفة.

وَقَدْ فَرَّ كَثِيرٌ مِنْ سُنَّةِ بَغْدَادَ إِلَى الشَّامِ وَمِصْرَ، وَحَكَوْا لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ مَا فَعَلَ الصَّفَوِيُّونَ بِبَغْدَادَ وَأَهْلِهَا، وَوَصَلَتْ أَخْبَارُ الْمَذَابِحِ الْعَظِيمَةِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، فَاجْتَمَعَ السُّلْطَانُ الْعُثْمَانِيُّ سَلِيمُ الْأَوَّلُ فِي عَامِ عِشْرِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ بِرِجَالِ دَوْلَتِهِ وَعُلَمَائِهَا، وَقَرَّرُوا أَنَّ الدَّوْلَةَ الصَّفَوِيَّةَ تُمَثِّلُ خَطَرًا عَلَى الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ عَلَى السُّلْطَانِ جِهَادَهَا، وَإِيقَافَ ظُلْمِهَا وَتَنْكِيلِهَا بِالْمُسْلِمِينَ، فَحَاوَلَ السُّلْطَانُ مُفَاوَضَةَ الصَّفَوِيِّ إِسْمَاعِيلَ فَلَمَّا لَمْ يَسْتَجِبْ لَهُ، سَارَ إِلَيْهِ بِجَيْشٍ يَقُودُهُ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ قِوَامُهُ مِائَةُ أَلْفٍ، وَجَيْشُ الصَّفَوِيِّ مِائَةُ أَلْفٍ أَيْضًا، فَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي صَحْرَاءِ جَالْدِيرَانَ، فَهَزَمَهُ السُّلْطَانُ هَزِيمَةً نَكْرَاءَ وَقُتِلَ أَكْثَرُ جُنْدِهِ، فَقَضَى عَلَى حُكْمِهِ فِي الْعِرَاقِ بَعْدَ أَنْ حَكَمَهَا بِالْحَدِيدِ وَالنَّارِ سِتَّ سَنَوَاتٍ(١٤).

فَمَا كَانَ مِنَ الصَّفَوِيِّ الْخَبِيثِ وَقَدْ أَحَسَّ بِالضَّعْفِ إِلَّا أَنْ كَاتَبَ قَائِدَ الْبُرْتُغَالِ الصَّلِيبِيِّينَ يَطْلُبُ نَجْدَتَهُ عَلَى أَنْ يُعْطِيَهُمْ مَضِيقَ هُرْمُزَ وَفِلَسْطِينَ، فَكَتَبَ لَهُ قَائِدُ الصَّلِيبِيِّينَ رِسَالَةً قَالَ لَهُ فِيهَا: إِنِّي أُقَدِّرُ لَكَ احْتِرَامَكَ لِلْمَسِيحِيِّينَ فِي بِلَادِكَ، وَأَعْرِضُ عَلَيْكَ الْأُسْطُولَ وَالْجُنْدَ وَالْأَسْلِحَةَ لِاسْتِخْدَامِهَا ضِدَّ قِلَاعِ التُّرْكِ فِي

(١٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، المستر ستيفن لونكريك (٣٥) عن عودة الصفويين (٢٢-٢٤) وينظر في معركة جالديران: الدولة الصفوية في مواجهة التحديات، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد (٤٤) ص(١٤٦)، والأتراك العثمانيون وحضارتهم (٥٦٧-٥٦٨)، والعلاقات العراقية الإيرانية خلال خمسة قرون، سعد الأنصاري (٢٣ و٣٨)، وذرائع العصبيات العنصرية في إثارة الحروب، محمد بهجة الأثري، مجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة ١٤٠١هـ (١٤٢-١٤٥) وتاريخ إيران، د. فاروق عمر، ود. مرتضى النقيب، ط ١٩٨٩م جامعة بغداد. ودراسات في تاريخ الشرق الإسلامي الحديث، شفيق العياري، ط: جامعة القاهرة ١٤١٥هـ والفكر الشيعي والنزعات الصوفية (٤١٠).

الْهِنْدِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْقَضَّ عَلَى بِلَادِ الْعَرَبِ أَوْ تُهَاجِمَ مَكَّةَ فَسَتَجِدُنِي بِجَانِبِكَ فِي الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ، أَمَامَ جَدَّةَ أَوْ فِي عَدَنَ أَوْ فِي الْبَحْرِينِ أَوِ الْقَطِيفِ أَوِ الْبَصْرَةِ، وَسَيَجِدُنِي الشَّاهُ بِجَانِبِهِ عَلَى امْتِدَادِ السَّاحِلِ الْفَارِسِيِّ، وَسَأُنَفِّذُ لَهُ كُلَّ مَا يُرِيدُ(١٥).

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى خَذَلَهُمْ؛ إِذِ اسْتَطَاعَ الْعُثْمَانِيُّونَ إِفْشَالَ مُخَطَّطِهِمْ، وَظَلُّوا يَتَتَبَّعُونَهُمْ سُلْطَانًا بَعْدَ سُلْطَانٍ حَتَّى بَعْدَ هَلَاكِ الصَّفَوِيِّ إِسْمَاعِيلَ وَتَوَلِّي أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ، حَتَّى قُضِيَ عَلَى دَوْلَتِهِمْ نِهَائِيًّا بَعْدَ قَرْنَيْنِ وَنِصْفٍ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعَسْفِ.

هَذَا مُلَخَّصُ مَا يَتَعَلَّقُ بِدَوْلَتِهِمْ، وَأَمَّا مُؤَسِّسُهَا الصَّفَوِيُّ إِسْمَاعِيلُ فَإِنَّهُ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ التَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِيِّ وَالْغُلُوِّ وَالتَّكْفِيرِ وَبَيْنَ الدَّمَوِيَّةِ وَالتَّنْكِيلِ، وَقَدْ نَقَلَ عَنْهُ أَحَدُ الْمُؤَرِّخِينَ الْعِرَاقِيِّينَ أَنَّهُ أَكْثَرَ الْقَتْلَ، وَقَتَلَ مَلِكَ «شِروَانَ»، وَأَمَرَ أَنْ يُوضَعَ فِي قِدْرٍ كَبِيرٍ وَيُطْبَخَ، وَأَمَرَ جُنْدَهُ بِأَكْلِهِ فَفَعَلُوا، وَكَانَ لَا يَتَوَجَّهُ لِبِلَادٍ إِلَّا فَعَلَ أَشْيَاءَ يَنْدَى لَهَا الْجَبِينُ مِنْ قَتْلٍ وَنَهْبٍ(١٦).

وَكَانَ مِنْ دَمَوِيَّتِهِ أَنَّهُ يَنْبُشُ قُبُورَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ السُّنَّةِ، وَيَحْرِقُ عِظَامَهُمْ، وَكَانَ إِذَا قَتَلَ أَمِيرًا مِنَ الْأُمَرَاءِ أَبَاحَ زَوْجَتَهُ وَأَمْوَالَهُ لِمَنْ يَخْتَارُ(١٧).

وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى تَعَصُّبِهِ وَهَمَجِيَّتِهِ أَنَّهُ دَعَا أُمَّهُ لِلتَّشَيُّعِ وَكَانَتْ سُنِّيَّةً حَنَفِيَّةً، فَأَبَتْ ذَلِكَ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهَا فَقُتِلَتْ رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى(١٨)، وَبَلَغَ مِنْ طُغْيَانِهِ وَجَبَرُوتِهِ

---

(١٥) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د زكريا إبراهيم بيومي (٦٣) ط عالم المعرفة ١٤١١هـ.

(١٦) ينظر: عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد، إبراهيم صبغة الله الحيدري، ط مكتبة مدبولي، القاهرة، الثانية ١٩٩٩م (١١٠) وذكر فيه أن إسماعيل ادعى بعد ذلك الربوبية، وكان جنوده يسجدون له.

(١٧) المصدر السابق (١١١).

(١٨) تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا وذكر أن اسمها حليمة بغيم (١/ ٢٠٢)، ويتفق معه على ذلك عباس العزاوي في كتابه: العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد الحديثة، الأولى ١٣٥٤هـ (٣/ ٢٧٠). =

أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ جُنْدَهُ بِالسُّجُودِ فَيَسْجُدُونَ لَهُ[(١٩)].

وَذَكَرَ أَحَدُ كِبَارِ مَذْهَبِهِمْ وَدَوْلَتِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ الصَّفَوِيَّ كَانَ مُمَالِئًا لِلْإِنْجِلِيزِ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَكَانَ يُعَاقِرُ الْخَمْرَةَ مَعَ قَادَتِهِمْ وَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّنِي أُفَضِّلُ حِذَاءَ مَسِيحِيٍّ عَلَى أَكْبَرِ رِجَالَاتِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ»[(٢٠)].

وَأَكْثَرُ المَرَاسِمِ الشَّاذَّةِ، وَالطُّقُوسِ الْغَرِيبَةِ، وَالمُمَارَسَاتِ المُقَزِّزَةِ فِي المُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ لَدَى المَذْهَبِ الِاثْنَيْ عَشْرِيِّ إِنَّمَا هِيَ مِنْ إِحْدَاثِ هَذَا الْخَبِيثِ الضَّالِّ، وَظَلَّ أَتْبَاعُهُ يُمَارِسُونَهَا وَيَتَنَاقَلُونَهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلَا يَتَّسِعُ هَذَا المَقَامُ المُخْتَصَرُ لِعَرْضِ مَا أَحْدَثَهُ لَهُمْ مِنْ ضَلَالٍ عَلَى ضَلَالِهِمْ

= وذكر د. عبد العزيز سليمان نوار في تاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث (١/ ٢٣) أن والدة إسماعيل هي ابنة السلطان حسن الطويل سلطان ديار بكر، ويتفق معه على ذلك: سعد الأنصاري في كتابه العلاقات العراقية الإيرانية خلال خمسة قرون (٣٧)، ويتفق معه أيضًا: د. كامل الشيبي في كتابه: الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري ص(٤٠٦) ونقل في الحاشية ذلك عن: مخطوط سلسلة النسب الصفوية، ورقة (٤٧ب) ومخطوط تاريخ شاه إسماعيل، ورقة (١٣أ) وأخبار الدول ص(٣٤٤) وتاريخ العراق بين احتلالين (٣/ ٣٢٨) ويتفق معهم كذلك شاهين مكاريوس، إلا أنه ذكر أنها أخت حسن وليست ابنته، رغم أن شاهين متحيز ضد الدولة العثمانية لصالح الصفويين، ينظر كتابه: تاريخ إيران، دار الآفاق العربية، القاهرة ١٤٢٤هـ ص(١٤٨)، وعلى هذا الرأي فيترجح أن تكون سنية؛ لأن حسن الطويل ينحدر من القبائل التركمانية التي كانت تحكم ديار بكر وما حولها، وهم على مذهب أهل السنة.

بينما ذكر عباس إقبال أن أمه من أسرة الأمراء اليونان واسمها مارتا أو علمشاه خاتون أو بكي آغا ولم يتكلم عن دينها ولا علاقتها مع ابنها، ينظر: تاريخ إيران بعد الإسلام (٦٤٠) وقريب منه ما ذكره بركلمان في كتابه: الأتراك العثمانيون وحضارتهم (١٢٠).

(١٩) ينظر حاشية (١٦).

(٢٠) ينظر كتاب: أمير كبير لعلي أكبر هاشمي رفسنجاني (٢٤٨) عن مقال: نعم .. إنهم صفويون، سميرة رجب، منشور في الشبكة العالمية.

حَتَّى إِنَّ عُقَلَاءَ مَذْهَبِهِمْ لَا يَرْضَوْنَ كَثِيرًا مِنْ طُقُوسِهِمْ، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا تُسِيءُ لِمَذْهَبِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَنَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى الَّذِي عَافَانَا مِمَّا ابْتَلَاهُمْ بِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا هَدَانَا إِلَيهِ مِنَ الدِّينِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ الرَّحْمَةُ وَالْعَدْلُ، وَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ الثَّبَاتَ عَلَى الْحَقِّ إِلَى المَمَاتِ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .



الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلَا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلَا تَعْصُوهُ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النُّور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: تَتَلَاحَقُ الِابْتِلَاءَاتُ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ، وَتَتَوَالَى أَحْزَانُهَا، وَتَكْثُرُ مَصَائِبُهَا؛ فَمِنْ فِلَسْطِينَ إِلَى أَفْغَانِسْتَانَ، وَمِنْ كَشْمِيرَ إِلَى الشِّيشَانِ، وَمِنَ الْفِلِبِّينِ إِلَى الصُّومَالِ، وَمِنْ هُنَا وَهُنَاكَ إِلَى الْعِرَاقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعِرَاقُ؟! تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي دَخَلَتْ حَظِيرَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ فَجْرِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ حَاضِرَةَ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ خَمْسَةَ قُرُونٍ وَزِيَادَةً.

تِلْكَ الْبِلَادُ الَّتِي خَرَّجَتْ أَبَا حَنِيفَةَ النُّعْمَانَ، وَإِمَامَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَحْمَدَ

ابْنَ حَنْبَلٍ فِي كَوْكَبَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ، وَالْقَادَةِ وَالمُجَاهِدِينَ، قَدِ احْتَلَّهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ عُبَّادُ المَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ سَلَّمُوهَا لِلْمُتَعَصِّبَةِ مِنْ عُبَّادِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنَّهُ لَعَارٌ خُطَّ فِي تَارِيخِ تِلْكَ الْحِقْبَةِ يَلْحَقُ كُلَّ مُسْلِمٍ عَاصَرَ تِلْكَ الْجَرِيمَةَ النَّكْرَاءَ؛ فَإِنَّا للَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَجَبَرَ اللهُ مُصَابَ المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الدَّاهِيَةِ الْعَظِيمَةِ.

لَقَدْ كُلِمَتْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ فِي أَكْثَرَ مِنْ مَكَانٍ، وَمَشَارِيطُ الِاسْتِعْمَارِ الصِّهْيَوْنِيِّ تَعْمَلُ فِي تَمْزِيقِ الْأُمَّةِ، وَتَقْسِيمِ الدُّوَلِ، وَالصَّفَوِيُّونَ الْحَاقِدُونَ الطَّامِحُونَ يَعِيثُونَ فَسَادًا فِي بِلَادِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ، وَتَطَلُّعَاتُهُمْ تَتَعَدَّاهَا إِلَى غَيْرِهَا، وَأَتْبَاعُهُمْ فِي الدُّوَلِ الْأُخْرَى المُجَاوِرَةِ لِلْعِرَاقِ يَسْتَعْجِلُونَ اسْتِبَاحَةَ دُوَلِهِمْ كَمَا اسْتُبِيحَتْ مَدِينَةُ المَنْصُورِ وَالرَّشِيدِ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَابْنِ حَنْبَلٍ.

وَكُلَّمَا بَدَا أَمَلٌ فِي عَافِيَةِ الْأُمَّةِ أَصَابَتْهَا دَاهِيَةٌ ظَنَّ مَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ لَا عَافِيَةَ تُرْجَى، وَلَا نَصْرَ يُؤَمَّلُ، وَالمُؤْمِنُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَثِقُ بِوَعْدِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كُلَّمَا ازْدَادَ الْبَلَاءُ اقْتَرَبَ الْفَرَجُ، وَإِذَا اشْتَدَّتِ الظُّلْمَةُ انْبَلَجَ الْفَجْرُ، وَالْعُسْرُ يُعْقِبُهُ الْيُسْرُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرح: ٥، ٦].

وَأَعْظَمُ مُصِيبَةٍ أُصِيبَ بِهَا المُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ -بَعْدَ تَفْرِيطِهِمْ فِي دِينِهِمْ، وَكَثْرَةِ مَعَاصِيهِمْ- رُكُونُهُمْ إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْوُثُوقُ بِهِمْ، وَجَعْلُ مَصِيرِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ، وَالِاغْتِرَارُ بِالشِّعَارَاتِ المُضَلِّلَةِ الَّتِي خَدَّرَتِ المُسْلِمِينَ، وَأَقْعَدَتْهُمْ عَنْ إِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِتِلْكَ الْأَيَّامِ الْعَصِيبَةِ؛ كَالشِّعَارَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَحِوَارَاتِ الْأَدْيَانِ، وَتَقَارُبِ المَذَاهِبِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْوُعُودِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَمَانِي الْخَادِعَةِ بِانْتِهَاءِ عُصُورِ الْحُرُوبِ وَالِاعْتِدَاءَاتِ وَالنِّزَاعَاتِ الْهَمَجِيَّةِ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى السِّلْمِ الْعَالَمِيِّ، وَالْوِفَاقِ الْبَشَرِيِّ، وَحُقُوقِ الْجِوَارِ؛ حَتَّى غَلُّوا أَيْدِيَ المُسْلِمِينَ عَنِ

التَّصْنِيعِ وَالتَّسْلِيحِ وَالتَّجْنِيدِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَعْمَلُ فِيهِ الْإِنْجِيلِيُّونَ وَالصَّهَايِنَةُ عَلَى تَحْقِيقِ نُبُوءَاتِهِمُ الْخُرَافِيَّةِ، وَيَسْعَى الصَّفَوِيُّونَ الْبَاطِنِيُّونَ لِإِعَادَةِ أَمْجَادِ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ، وَامْتِلَاكِ الْقُنْبُلَةِ النَّوَوِيَّةِ.

وَمَا أَنْ طَابَتْ لَهُمْ كَعْكَةُ الْعِرَاقِ فَإِنَّ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامُوا بِهِ إِحْرَاقُ سِجِلَّاتِ الدَّوْلَةِ فِي مُخَطَّطٍ شَيْطَانِيٍّ رَهِيبٍ؛ لِتَغْيِيرِ التَّرْكِيبَةِ السُّكَّانِيَّةِ، وَالْعَزْمِ عَلَى إِفْرَاغِ الْعِرَاقِ مِنَ السُّنَّةِ بِالْقَتْلِ وَالتَّهْجِيرِ؛ وَلِإِحْلَالِ الْبَاطِنِيَّةِ مَكَانَهُمْ، ثُمَّ عَمِلُوا بِهَذَا الْمُخَطَّطِ لَمَّا تَمَكَّنُوا، وَأَحْيَوْا مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُهُمُ الصَّفَوِيُّونَ مِنْ قَبْلُ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي إِيرَانَ، وَيَعِدُونَ بِالْمَزِيدِ مِنَ الْمَذَابِحِ وَالتَّقْتِيلِ(٢١).

وَقَدْ أَعْلَنَ الْمُتَنَفِّذُونَ مِنْهُمْ فِي الْعِرَاقِ عَنْ مَشْرُوعِهِمُ الْبِدْعِيِّ الْبَغِيضِ، حِينَ ظَهَرَ كَبِيرٌ مِنْ شَيَاطِينِهِمْ عَلَى فَضَائِيَّةٍ مِنْ فَضَائِيَّاتِهِمْ يَقُولُ: إِنَّ الشِّيعَةَ ظُلِمُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَآنَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا حَقَّهُمْ(٢٢). مُذَكِّرًا بِمَقُولَةِ خُمَيْنِيِّهِمُ الْهَالِكِ حِينَ

---

(٢١) وقد أصدرت منظمة العفو الدولية بيانها الصحفي رقم (١٠٤) في ٢٨ أبريل ٢٠٠٣، وذكرت فيه أن عددًا لا يحصى من الوثائق تعرضت للحرق والإتلاف، وفي تقرير لموقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا) عن سكان العراق ذكر أن الكثير من العرب السنة خرجوا خارج العراق، وأن هناك عراقيين شيعة ممن طردهم صدام إلى إيران بتهمة التعبئة الإيرانية في الحرب العراقية الإيرانية قد عادوا.

وثمة تقارير تشير إلى أن هناك عشرات الآلاف من الإيرانيين قد دخلوا العراق خلال الشهور الأولى من عام ٢٠٠٤م، وتم تجنيسهم بالجنسية العراقية مما يزيد في ثقل الشيعة، ونقل التقرير عن خليل الديلمي في لقاء مع شبكة البصرة أن هناك حوالي مليونين ونصف إيراني دخلوا إلى العراق، وتم قيدهم في جداول الانتخابات على أنهم عراقيون، خاصة بعد حرق كافة أوراق السجل المدني العراقي، وذكر التقرير أن إحراق السجلات المدنية عقب دخول القوات الأمريكية للعراق جعل مسألة الإحصائيات غير ممكنة. اهـ.

(٢٢) القائل هو علي الدباغ الناطق باسم جواد المالكي من حزب الدعوة الإسلامي الشيعي. ينظر: عودة الصفويين (٥١-٥٢).

قَالَ: «السُّنَّةُ حَكَمُوا أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، وَآنَ لِلشِّيعَةِ أَنْ يَحْكُمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ»(٢٣).

وَهَكَذَا يُغَيَّرُ التَّارِيخُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيُفْرَضُ تَارِيخٌ جَدِيدٌ، يَخُطُّهُ الصَّفَوِيُّونَ الْجُدُدُ بِدِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعِرَاقِ، كَمَا غُيِّرَ تَارِيخُ إِيرَانَ بِمَذَابِحِ الصَّفَوِيِّينَ الْقُدَمَاءِ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ مَنْ يَرْضَى، وَيَأْبَاهُ مَنْ يَأْبَى! فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الثَّقَافَةَ وَالْمَعْرِفَةَ، وَيُصَدَّرُونَ فِي الْإِعْلَامِ وَالصِّحَافَةِ عَلَى أَنَّهُمْ مُفَكِّرُو الْأُمَّةِ وَمُحَلِّلُوهَا، وَهُمْ لَا يَرَوْنَ أَبْعَدَ مِنْ أُنُوفِهِمْ.

الْعَجَبُ مِنْهُمْ حِينَ كَانُوا يُخَدِّرُونَ الْأُمَّةَ، وَيَتَّهِمُونَ كُلَّ نَاصِحٍ وَمُحَذِّرٍ مِنَ الْخَطَرِ الْبَاطِنِيِّ بِأَنَّهُ عَدُوٌّ لِلْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ، ثُمَّ إِذَا أَتْبَاعُ الْمَذَاهِبِ الْبَاطِنِيَّةِ يَصْفَعُونَهُمْ فِي لِبْنَانَ وَالْعِرَاقِ، وَيَسْتَأْسِدُونَ فِي الدُّوَلِ الْأُخْرَى مُحْتَمِينَ بِالدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الَّتِي بَلَغَ مِنْ تَعَصُّبِ حُكَّامِهَا لِلْفُرْسِ اشْتِرَاطُ دُسْتُورِهِمْ أَنْ يَكُونَ حَاكِمُ جُمْهُورِيَّتِهِمْ فَارِسِيًّا(٢٤)، وَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ مُتَمَذْهِبًا بِمَذْهَبِهِمُ الْبَاطِنِيِّ. بَلْ إِنَّ كُلَّ الْمَرْجِعِيَّاتِ الِاثْنَيْ عَشْرِيَّةَ فِي الْعَالَمِ لَا بُدَّ أَنْ تَخْضَعَ لِرَأْسٍ فَارِسِيٍّ، أَوْ يَكُونَ مِنْ أُصُولٍ فَارِسِيَّةٍ، وَمَا أَشَدَّ حُمْقَ مَنْ يُجَنِّدُونَ أَنْفُسَهُمْ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ الْفُرْسِ، وَهُمْ يَرَوْنَ عَصَبِيَّتَهِمْ لِفَارِسِيَّتِهِمْ!!

---

(٢٣) المصدر السابق (٥٢).

(٢٤) في المادة (١١٥) من الدستور المتعلقة برئيس الجمهورية جاء في الفقرة الأولى منها ما يلي: أن يكون رئيس الجمهورية إيراني الأصل ويحمل الجنسية الإيرانية؛ أي: أن يكون من أبوين إيرانيين، وهذا يعني أن الفارسي فقط يحق له أن يصبح رئيسًا للجمهورية؛ حيث بات عرفًا أن الإيراني هو الفارسي، والدستور الإيراني يؤكد ذلك في مادته (١٥) عندما ينص على أن تكون اللغة والكتابة الرسمية والمشتركة هي الفارسية، وإلا لماذا توجب الفقرة المذكورة الأصل والجنسية دون أن تكتفي بالجنسية فقط.

وَلمَّا أُسْقِطَ فِي أَيْدِي مَنْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مُفَكِّرُونَ وَمُثَقَّفُونَ إِزَاءَ مَا يَرَوْنَهُ مِنْ طَائِفِيَّةٍ بَغِيضَةٍ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْفُرْسِ الْبَاطِنِيِّينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، لَمْ يَجِدُوا مِشْجَبًا يُعَلِّقُونَ عَلَيْهِ فَشَلَ تَحْلِيلَاتِهِمْ، وَخَطَلَ رَأْيِهِمْ، وَضَعْفَ عُقُولِهِمْ إِلَّا جَلْدَ الْعَرَبِ مِنْ جَدِيدٍ، وَادِّعَاءَ عَصَبِيَّتِهِمْ لِعُرُوبَتِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ، وَالزَّعْمَ بِأَنَّ دَمَ كُلَيْبٍ لَا يَزَالُ سَاخِنًا(٢٥)، وَأَنَّ قَمِيصَ عُثْمَانَ ظَلَّ مَرْفُوعًا، فِي تَعَامٍ عَنِ

---

(٢٥) كتب تركي الحمد مقالًا في الشرق الأوسط بعنوان: وما زال دم كليب ساخنًا، وذكر فيه أن وقائع إعدام صدام حسين يعكس واقعًا وتاريخًا مليئًا بالعنف والدم مبعثه مبدأ الثأر بين قبائل وعشائر وأحزاب العرب، منذ وجدوا حتى هذه اللحظة، مما يدعو إلى القول: إن ساعة الزمن واقفة عند لحظة لا تتجاوزها في التاريخ العربي، تتغير الأشكال والمضمون واحد. ثم عمم هذه الظاهرة في العراق على كل العرب وذكر حادثة جساس وكليب، ثم حادثة عمرو بن كلثوم مع عمرو بن هند، ثم حادثة الجمل وصفين؛ ليجعل كل ذلك في سياق واحد وهو دموية العرب ثم خلص إلى ما يريد تقريره بقوله: ما يجري في العراق، بل وما يجري في لبنان والسودان والجزائر والصومال وغيرها مما يحمله الرحم العربي، هو نتيجة ثقافة متحجرة تأبي أن تتغير، أو يؤبى عليها أن تتغير، فهي ذاتية الإنتاج بشكل غريب، محمية بحراس أشداء، حتى أن دينًا مثل الإسلام لم يستطع أن يروضها إلا لفترة وجيزة، ثم استوعبته هي، وتحولنا إلى طوائف ومذاهب وعصبيات وقبائل وعشائر وعادات وتقاليد، وقتل الجميعُ الجميعَ دفاعًا عن الإسلام، بينما هي السلطة والثروة والعصبية والجهل من يقف وراء كل ذلك، البعض يفعل ذلك عن وعي وعلم، والبعض عن جهل وعقل لا يعرف إلا التعصب سبيلًا. صحيفة الشرق الأوسط، الأحد ١٨/ ١٢/ ١٤٢٧هـ عدد (١٠٢٦٧).

وكلامه ينطوي على مغالطات وخلط كثير، وبيان ذلك ما يلي:

١- اتهم العرب بأنهم متحجرون ودمويون، ولم يستثن من ذلك حتى عصر صدر الإسلام، وتخصيص ذلك بالعرب مغالطة مفضوحة، فكل حروب العرب من فجرهم إلى وقتنا لم يقتل فيها عشر ما قتل في الحرب العالمية الثانية التي كان أسيادها وربانها وحطبها الغرب المعجب به، ناهيك عن مذابح لينين ثم ستالين، وقد كان الدكتور تركي يومًا على مذهبهما وداعية لهما قبل أن يكفر بهم بعد سقوط الشيوعية، ويتحول من أقصى اليسار إلى أقصى =

الْوَاقِعِ، وَتَزْوِيرٍ لِلْحَقَائِقِ، وَتَضْلِيلٍ لِلْعَامَّةِ.

وَأَيْنَ دَمُ كُلَيْبٍ، وَقَمِيصُ عُثْمَانَ مِنْ دُوَلٍ إِسْلَامِيَّةٍ سُنِّيَّةٍ قَامَتْ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَعَلَى مَدَى أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا، نَعِمَتْ فِيهَا بِسَلَامٍ كُلُّ الطَّوَائِفِ وَالمَذَاهِبِ، بَلْ حَتَّى الْكُفَّارُ الْأَصْلِيُّونَ مِنْ يَهُودٍ وَنَصَارَى وَغَيْرِهِمْ لَمْ يَجِدُوا ظُلْمًا وَلَا بَخْسًا، وَإِنْ وُجِدَ حَاكِمٌ ظَالِمٌ مُسْتَبِدٌّ طَالَ ظُلْمُهُ الْجَمِيعَ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فِي ظُلْمِهِ عَلَى أَسَاسٍ مَذْهَبِيٍّ أَوْ عِرْقِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ.

وَكَمْ فِي دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ طَوَائِفَ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمَذَاهِبَ

= اليمين، وينضم إلى إمبريالية الليبراليين، ويكون جنديًا ملتزمًا في صفوفها، وأيضًا: كم هي مذابح هتلر وموسوليني وجارزياني وتشاوشيكو وغيرهم من الغربيين والشرقيين.

٢- أليس المسلمون هم الذين أوقفوا ظلم القياصرة والأكاسرة في الشام والعراق وبلاد فارس ثم في الأندلس، حتى احتمى بهم اليهود من بطش النصارى، واحتمى بهم الأرثوذكس من بطش الكاثوليك، ومن قرأ عن الحملة الصليبية الرابعة التي وطئ فيها الكاثوليك بيزنطة، واستباحوا البيزنطيين ونكلوا بهم، وأهانوا دينهم، ثم قرأ عن فتح محمد بن مراد العثماني للقسطنطينية وتأمينه لأهلها عرف الفرق بين المسلمين الذين يسخر بهم الحمد وبين معبودات الحمد من الأوثان الغربية، وقد شهد أكبر عالم اجتماعي للمسلمين بالعدل والرحمة في حروبهم وفتوحهم، وهو جوستاف لوبون.

٣- هل يجهل الحمد أن الذي يحكم العراق الآن هم الفرس، فلماذا يجعل الدموية نتاجًا عربيًّا وهو يراه الآن بأيدٍ فارسية، وهم يقيمون هذه المذابح انتقامًا من العرب والمسلمين، وتعصبًا لفارسيتهم وملك أكاسرتهم، وقد كان الحمد يشيد بهم المرة بعد المرة في كثير من مقالاته، ويرى أنهم مظلومون في دولهم الخليجية، والسؤال هنا: هل حكام الخليج فعلوا بالروافض والفرس ما فعلته إيران بأهل السنة وعرب الأحواز؟ وهل فعلوا ما يفعله الصفويون الآن في العراق من تقطيع بالمناشير وخرق الرؤوس بالدريلات، وحرق أهل السنة وهم أحياء، والإبادات الجماعية لهم؟!

لكنه الهيام بالغرب والفرس وكراهية الإسلام والمسلمين توصل إلى هذا الحد من العمى أو التعامي حتى يُجلد العرب السنة من كتاب المارينز الليبرالية، في الوقت الذي يُذبحون فيه على أيدي رعاة البقر وسدنة النار.

مُخْتَلِفَةٍ، وَأَقَلِّيَّاتٍ مُتَبَايِنَةٍ؛ فَهَلْ فَعَلَتْ بِهِمْ دُوَلُهُمُ السُّنِّيَّةُ مَا يَفْعَلُهُ الصَّفَوِيُّونَ الْجُدُدُ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْعِرَاقِ؟ وَمَاذَا سَيَفْعَلُ الصَّفَوِيُّونَ بِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ لَوْ حَكَمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ كَمَا يَطْمَحُونَ وَيُؤَمِّلُونَ؟!

أَخْزَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَخَذَلَهُمْ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَحَفِظَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ شَرِّهِمْ وَمَكْرِهِمْ.

وَلَعَلَّ فِي هَذِهِ النَّوَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْوَقَائِعِ الْمُتَسَارِعَةِ، عِبْرَةً لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَعْرِفُوا أَعْدَاءَهُمْ مِنْ أَصْدِقَائِهِمْ، وَيُمَيِّزُوا بَيْنَ النَّاصِحِينَ لَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْخِيَانَةِ وَالْغِشِّ وَالتَّدْلِيسِ.

وَلَعَلَّ فِيهَا مَوْعِظَةً لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُصْلِحُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَتُوبُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، وَيَلْجَأُوا إِلَى رَبِّهِمْ؛ فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى عَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَدَدِهِ، وَعَافِيَتِهِ وَحِفْظِهِ، وَتَسْدِيدِهِ وَتَثْبِيتِهِ، فِي وَقْتٍ وَقَعُوا فِيهِ بَيْنَ فَكَّيِ الْمَشَارِيعِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الْإِنْجِيلِيَّةِ، وَالطُّمُوحَاتِ الصَّفَوِيَّةِ الْفَارِسِيَّةِ! ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٨٤].

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ ...





٣٨٣- الدولة الصفوية (٢)
اختطاف قضية فلسطين

١/ ٧/ ١٤٢٩هـ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَالسُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ؛ لِيُظْهِرَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَيَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، نَحْمَدُهُ عَلَى هُدَاهُ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى عَطَايَاهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا رَبَّ لَنَا سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ اللهُ تَعَالَى بِالنُّورِ وَالْهُدَى، فَلَا طَرِيقَ يُوصِلُ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى وَجَنَّتِهِ إِلَّا طَرِيقُهُ؛ فَمَنْ سَارَ عَلَى هَدْيِهِ وَتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ نَجَا، وَمَنْ حَادَ عَنْهَا هَلَكَ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ اخْتَارَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا، لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، أَثْنَى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، وَتَرَضَّى عَنْهُمْ فِي كِتَابٍ يُتْلَى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَإِنْ رَغِمَتْ أُنُوفُ الْبَاطِنِيِّينَ وَالْمُنَافِقِينَ. وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ التَّابِعِينَ لِلصَّحَابَةِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ النَّجَاةَ فِي التَّقْوَى ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمر: ٦١].

أَيُّهَا النَّاسُ: يُحِيطُ بِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْمَخَاطِرِ وَالْكَوَارِثِ

الْمُتَوَقَّعَةِ مَا لَا دَافِعَ لَهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَتُحَاصِرُ الْمُسْلِمِينَ فِتَنٌ عَظِيمَةٌ لَا عَاصِمَ مِنْهَا إِلَّا التَّمَسُّكُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالْتِزَامُ هَدْيِ سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَمُدَافَعَةُ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ بِكَافَّةِ السُّبُلِ الْمُتَاحَةِ.

لَقَدْ تَكَالَبَ الْأَعْدَاءُ عَلَى الْإِسْلَامِ لِمَحْوِهِ وَتَغْيِيرِهِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِينِهِمْ أَوْ إِبَادَتِهِمْ، وَاسْتِبَاحَةِ بُلْدَانِهِمْ، وَإِسْقَاطِ مَمَالِكِهِمْ، وَتَقْسِيمِ دُوَلِهِمْ، وَنَهْبِ ثَرَوَاتِهِمْ، وَالْقَضَاءِ عَلَى قُوَّتِهِمُ الْمَعْنَوِيَّةِ الْمُكْتَسَبَةِ مِنْ دِينِهِمْ، كَمَا قَضَوْا عَلَى قُوَّتِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، فَأَضْحَى الْمُسْلِمُونَ تَابِعِينَ لِلْأُمَمِ الْقَاهِرَةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، يَصْدُرُونَ عَنْ رَأْيِهَا، وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْ قَرَارَاتِهَا، مُنْذُ أَنْ وَطِئَ الِاسْتِعْمَارُ الْحَدِيثُ أَرْضَهُمْ، وَاسْتَوْلَى عَلَى قُدْسِهِمْ فَسَلَّمَهَا لِلْيَهُودِ.

وَظَلَّتْ قَضِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ تَتَقَاذَفُهَا الْأَيْدِي، وَتُخْتَرَعُ لَهَا الشِّعَارَاتُ، وَيَرْتَزِقُ بِهَا الْمُرْتَزِقَةُ، فَأُسْقِطَتْ حُكُومَاتٌ بِسَبَبِهَا، وَقَامَتْ دُوَلٌ تَدَّعِي تَحْرِيرَهَا، وَارْتَفَعَتِ الشِّعَارَاتُ الْقَوْمِيَّةُ الْعَلْمَانِيَّةُ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَفْدِيهَا بِدَمِهَا، وَلَكِنَّ زُعَمَاءَ الْقَوْمِيَّةِ سَحَقُوا الْقَضِيَّةَ فِي سَبِيلِ تَثْبِيتِ زَعَامَتِهِمْ، وَتَقْوِيَةِ أَحْزَابِهِمْ.

وَكَانَ مِنْ أَخْطَرِ مَنِ اسْتَغَلُّوا هَذِهِ الْقَضِيَّةَ لِتَمْرِيرِ مَذَاهِبِهِمُ الْبَاطِلَةِ، وَتَقْوِيَةِ نُفُوذِهِمْ، وَحَشْدِ الْجَمَاهِيرِ الْمُتَعَطِّشَةِ خَلْفَهُمْ: الْفِرَقُ الْبَاطِنِيَّةُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي مَا عُرِفَ لَهَا عَمَلٌ قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِلَّا خِيَانَةُ الْمُسْلِمِينَ، وَطَعْنُهُمْ مِنْ ظُهُورِهِمْ، وَمُظَاهَرَةُ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ الْمُتَاجَرَةُ بِقَضَايَاهُمْ.

وَلَمَّا قَامَتِ الثَّوْرَةُ الْخُمَيْنِيَّةُ الْبَاطِنِيَّةُ فِي بِلَادِ فَارِسَ، كَانَ الْمُسْلِمُونَ مُتَعَطِّشِينَ لِمَنْ يَرْفَعُ رَايَةَ الْإِسْلَامِ فِي تَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ، بَعْدَ الانْكِسَارَاتِ الْقَوْمِيَّةِ، فَاخْتَطَفَ الصَّفَوِيُّونَ الْخُمَيْنِيُّونَ قَضِيَّةَ فِلَسْطِينَ بِالشِّعَارَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالتَّصْرِيحَاتِ

الْمُخَادِعَةِ، وَكَانَ شِعَارُ الثَّوْرَةِ آنَذَاكَ: «الْيَوْمَ طِهْرَانُ وَغَدًا الْقُدْسُ»[١].

وَلَكِنَّ هَذَا الشِّعَارَ كَانَ مَشْرُوطًا بِتَحْرِيرِ طَرِيقِ كَرْبَلَاءَ أَوَّلًا، فَكَانَتِ الْحَرْبُ الْعِرَاقِيَّةُ الْإِيرَانِيَّةُ الَّتِي عَجَزَ الْبَاطِنِيُّونَ بِهَا الْوُصُولَ إِلَى كَرْبَلَاءَ، وَكَانَتِ الشِّعَارَاتُ الثَّوْرِيَّةُ الرَّنَّانَةُ ضِدَّ الْغَرْبِ وَالْيَهُودِ وَالشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ تَصْدُرُ آنَذَاكَ مِنْ طِهْرَانَ؛ لِتَأْخُذَ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُحْبَطِ الْعَاجِزِ؛ لِيَظْهَرَ أَثْنَاءَهَا فَضِيحَةُ (إِيرَان جِيت)[٢] الَّتِي انْكَشَفَ فِيهَا أَنَّ أَسْلِحَةَ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ وَإِسْرَائِيلَ

---

(١) وهذا الشعار وأمثاله من الشعارات جعلت الأمة من مشرقها إلى مغربها إبان الثورة الخمينية تقف وراء هذا الدعي الأفاك، في غياب تام لأهل الحق عن قيادة الأمة.

(٢) هي فضيحة التعاون الأمريكي الإسرائيلي الإيراني ضد العراق ودول الخليج أيام حرب الخليج الأولى، ووقتها كانت إيران في حالة عداء شديد مع إسرائيل وأمريكا في العلن، ولكن في السر كانت إسرائيل وأمريكا تزودان إيران بالأسلحة ضد العراق ودول الخليج.
فكانت الأسلحة وقطع الغيار تشحن من أمريكا عبر إسرائيل إلى طهران، وتبين أن الشيخ صادق طبطبائي كان حلقة الوسط بين إيران وإسرائيل من خلال علاقته المتميزة مع يوسف عازر الذي كانت له علاقة بأجهزة المخابرات الإسرائيلية والجيش الإسرائيلي.
وفي مقابلة مع جريدة (الهيرلد تريديون) الأمريكية في ٢٤-٨-١٩٨١م اعترف الرئيس الإيراني السابق أبو الحسن بني صدر أنه أحيط علمًا بوجود هذه العلاقة بين إيران وإسرائيل، وأنه لم يكن يستطيع أن يواجه التيار الديني هناك والذي كان متورطًا في التنسيق والتعاون الإيراني الإسرائيلي.
وفي ٣ حزيران ١٩٨٢ اعترف مناحيم بيجن بأن إسرائيل كانت تمد إيران بالسلاح، وعلل شارون وزير الدفاع الإسرائيلي أسباب ذلك المد العسكري الإسرائيلي إلى إيران بأن من شأن ذلك إضعاف العراق.
ثم أفادت مجلة (ميدل إيست) البريطانية في عددها تشرين الثاني ١٩٨٢ أن مباحثات تجري بين إيران وإسرائيل بشأن عقد صفقة تبيع فيها إيران النفط إلى إسرائيل، في مقابل إعطاء إسرائيل أسلحة إلى إيران بمبلغ مائة مليون دولار كانت قد صادرتها من الفلسطينيين بجنوب لبنان.
وذكرت المجلة السويدية (تي تي) في ١٨ آذار ١٩٨٤ ومجلة (الأوبذيفر) في عددها =

كَانَتْ تَتَدَفَّقُ سِرًّا عَلَى طِهْرَانَ فِي حَرْبِهَا مَعَ الْعِرَاقِ، وَبَانَ أَنَّ الْهَدَفَ الْفَارِسِيَّ الْبَاطِنِيَّ لَيْسَ الْقُدْسَ، وَإِنَّمَا بَغْدَادُ وَالْخَلِيجُ الْعَرَبِيُّ، فَعَجَزُوا عَنْ تَحْقِيقِ مُرَادِهِمْ آنَذَاكَ؛ لِيَأْتِيَ الْمُسْتَعْمِرُ الصَّلِيبِيُّ الصِّهْيَوْنِيُّ بِجَحَافِلِهِ فَيَطَأُ بَغْدَادَ وَيُسَلِّمُهَا لِلْعَمَائِمِ الْبَاطِنِيَّةِ بِلَا قِتَالٍ، وَيَعْهَدُ إِلَيْهَا بِمُهِمَّةِ إِبَادَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَتَهْجِيرِهِمْ، وَيَتِمُّ إِفْرَاغُ بَغْدَادَ مِنْ أَهْلِهَا بِالْقَتْلِ وَالْحَرْقِ وَالتَّعْذِيبِ وَالتَّهْجِيرِ؛ لِتَكُونَ خَالِصَةً لِلصَّفَوِيِّينَ، وَمَنِ اسْتَوْلَى عَلَى بَغْدَادَ مَلَكَ كُلَّ الْعِرَاقِ، وَقَدْ مَلَكَهَا الصَّفَوِيُّونَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!

وَلَا زَالَتِ الشِّعَارَاتُ الْمُعَادِيَةُ لِلْيَهُودِ وَالشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ هِيَ الشِّعَارَاتُ، وَالْمُؤْتَمَرَاتُ بِتَحْرِيرِ الْقُدْسِ تُقَامُ دَوْرِيًّا فِي إِيرَانَ.

ثُمَّ يَظْهَرُ شَيْطَانٌ بَاطِنِيٌّ آخَرُ فِي لِبْنَانَ يُعْلِنُ النِّكَايَةَ بِالْيَهُودِ، وَيَعِدُ بِتَحْرِيرِ فِلَسْطِينَ، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ يُحَرِّرَ بَيْرُوتَ مِنْ عُمَلَاءِ الْيَهُودِ -يُرِيدُ بِذَلِكَ أَهْلَ السُّنَّةِ- وَيُشْعِلُ حَرْبًا مَعَ الصَّهَايِنَةِ كَانَتْ خِلَالَهَا صَوَارِيخُ حِزْبِ الشَّيْطَانِ تُنْصَبُ عَلَى قُرَى أَهْلِ السُّنَّةِ وَبُيُوتِهِمْ قَسْرًا لِتَدُكَّهَا طَائِرَاتُ الصَّهَايِنَةِ فَتَتْرُكَهَا خَرَابًا[٣].

وَأَثْنَاءَ الْحَرْبِ وَبَعْدَهَا وَإِلَى الْيَوْمِ تُنْقَلُ عَبْرَ الْإِذَاعَاتِ وَالْفَضَائِيَّاتِ الْخُطَبُ الرَّنَّانَةُ لِأَصْحَابِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ، وَيُشَادُ بِالْبُطُولَاتِ الْبَاطِنِيَّةِ الْمُصْطَنَعَةِ الَّتِي يَتَحَدَّى فِيهَا حُكَّامُ طِهْرَانَ، وَأَمِينُ حِزْبِ الشَّيْطَانِ فِي لِبْنَانَ الصَّهَايِنَةَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ

= بتاريخ ٧-٤-١٩٨٤ ذكرت عقد صفقة أسلحه إسرائيلية إلى إيران، قالت المجلة الأخيرة: إنها بلغت أربعة مليارات دولار. فهل كانت إسرائيل لترضى بشحن السلاح إلى إيران لو كانت إيران تشكل أدنى خطر على الوجود اليهودي؟! وهل كانت أمريكا ستعطي السلاح إلى إيران لو أن إيران تمثل الخطر الإسلامي الحقيقي الذي تهابه أمريكا وروسيا وغيرهما؟!

(٣) نشر ذلك في الموقع الإخباري (مفكرة الإسلام) على الشبكة العالمية، عن طريق مراسلين له في لبنان.

مِنْ دُوَلِ الْغَرْبِ الْكُبْرَى، وَيَتَأَثَّرُ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ التَّائِهُ بِتِلْكَ الْخُطَبِ الثَّوْرِيَّةِ الْحَمَاسِيَّةِ، وَالْأَفْعَالِ الْعَنْتَرِيَّةِ الَّتِي يُبْدِيهَا الْبَاطِنِيُّونَ فِي بَيْرُوتَ وَطِهْرَانَ تِجَاهَ قَضَايَاهُمْ فِي مُوَاجَهَةِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، حَتَّى كَثُرَ الْقَوْلُ: إِنَّ تَحْرِيرَ فِلَسْطِينَ سَيَكُونُ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ فِي إِيرَانَ وَلِبْنَانَ، بَعْدَ الْيَأْسِ مِنَ الزَّعَامَاتِ الْعَلْمَانِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ بَيْتَ الطَّاعَةِ الْغَرْبِيِّ، فَهَلْ حَقًّا سَيَنْصُرُ الْبَاطِنِيُّونَ قَضَايَا الْمُسْلِمِينَ؟ وَمَا مَكَانَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عِنْدَهُمْ؟

فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ عِنْدَ الْإِمَامِيَّةِ أَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى فِي السَّمَاءِ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الصَّافِي لِلْكَاشَانِي عِنْدَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، قَالَ: «ذَاكَ فِي السَّمَاءِ، إِلَيْهِ أُسْرِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ». وَجَاءَ مِثْلُهُ فِي تَفْسِيرِ الْقُمِّيِّ مَنْسُوبًا إِلَى الْبَاقِرِ(٤).

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى الَّذِي أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى قُدْسِيَّتِهِ لَا قِيمَةَ لَهُ عِنْدَهُمْ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ كُلَّ فَضْلٍ جَاءَ فِيهِ فَإِنَّهُ مِنْ صُنْعِ بَنِي أُمَيَّةَ؛ كَمَا أَسْنَدَ الْمَجْلِسِيُّ -وَهُوَ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّتِهِمْ- إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْمَسَاجِدِ الَّتِي لَهَا الْفَضْلُ، فَقَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، وَمَسْجِدُ الرَّسُولِ ﷺ، قُلْتُ: وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى جُعِلْتُ فِدَاكَ؟ قَالَ: ذَاكَ فِي السَّمَاءِ، إِلَيْهِ أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ: مَسْجِدُ الْكُوفَةِ أَفْضَلُ مِنْهُ»(٥).

---

(٤) تفسير الصافي لمحسن الفيض الكاشاني (١/ ٦٦٩-٦٧٠).

قال عباس القمي: والمشهور على أن المسجد الأقصى هو بيت المقدس، ولكن يظهر من الأحاديث الكثيرة، أن المراد منه هو البيت المعمور الذي يقع في السماء الرابعة، وهو أبعد المساجد. منتهى الآمال في تاريخ النبي والآل (٧٠).

(٥) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي (٢٢/ ٩٠).

وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْمُعْتَقَدِ الْخَبِيثِ حَرَّفُوا حَدِيثَ شَدِّ الرِّحَالِ إِلَى الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ، فَجَعَلُوهُ هَكَذَا: «لَا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَسْجِدِ الْكُوفَةِ»(٦).

ثُمَّ إِنَّهُمْ نَسَجُوا شَبَكَةً هَائِلَةً مِنَ الْأَكَاذِيبِ وَالتُّرَّهَاتِ فِي فَضْلِ مَسْجِدِ الْكُوفَةِ جَعَلَتْهُ عِنْدَ أَتْبَاعِهِمْ أَعْظَمَ مِنَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ؛ لِإِضْفَاءِ قُدْسِيَّةٍ عَلَى كَرْبَلَاءَ وَمَا حَوْلَهَا(٧).

---

(٦) الخصال، لأبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي الشهير بالصدوق (١٣٧) ووسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي محمد بن الحسن (٥/ ٢٥٧).

(٧) ومن ذلك أحاديث عندهم تجعلها أفضل من مكة، وأنها أفضل أرض في الجنة:
١- ما افتروه على أبي جعفر قال: (خلق الله كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل أن يخلق الله الخلق مقدسة مباركة ولا تزال كذلك. وفي رواية ثانية زيادة: حتى يجعلها الله أفضل أرض في الجنة، وأفضل منزل ومسكن يسكن الله فيه أولياءه في الجنة) تهذيب الأحكام لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٦/ ٧٢)، وكامل الزيارات لجعفر بن محمد بن قولويه القمي (٤٥٠-٤٥١).
٢- ما افتروه على علي بن الحسين أنه قال: (اتخذ الله أرض كربلاء حرمًا آمنًا مباركًا قبل أن يخلق أرض الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام، وأنها إذا بدل الله الأرضين رفعها الله كما هي برمتها نورانية صافية فجعلت في أفضل روض من رياض الجنة، وأفضل مسكن في الجنة لا يسكنها إلا النبيون والمرسلون. أو قال: أولو العزم من الرسل، وأنها لتزهر من رياض الجنة كما يزهر الكوكب الدري من بين الكواكب لأهل الأرض، يغشى نورها نور أبصار أهل الجنة جميعًا، وهي تنادي أنا أرض الله المقدسة، والطينة المباركة التي تضمنت سيد الشهداء وشباب أهل الجنة) وسائل الشيعة للحر العاملي (١٠/ ٤٠٣).
٣- ما افتروه على أبي عبد الله الصادق (أن أرض الكعبة قالت: من مثلي وقد بُنِيَ بيت الله على ظهري، يأتيني الناس من كل فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها كفي وقري، ما فَضْلُ ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غمست في البحر، فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا من ضمنته كربلاء لما خلقتك، ولا خلقت الذي افتخرت به، فقري واستقري وكوني ذنبًا متواضعًا ذليلًا مهينًا =

فَإِذَا كَانَ مُعْتَقَدُهُمْ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا قِيمَةَ لِلْمَوْجُودِ فِي الْأَرْضِ، فَلِمَاذَا إِذَنْ يَعْقِدُونَ الْمُؤْتَمَرَاتِ لِلْأَقْصَى، وَيَلُوكُونَ قَضِيَّةَ الْقُدْسِ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَوْلَا مُتَاجَرَتُهُمْ بِهَا!!

وَأَمَّا مَنْزِلَةُ أَهْلِ فِلَسْطِينَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيِّينَ فَلَا قِيمَةَ لَهُمْ بِدُونِ تَشْيِيعٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَهُودِ، كَمَا جَاءَ فِي مُقَابَلَةٍ نَشَرَتْهَا صَحِيفَةُ (عَصْرُ إِيرَانَ) مَعَ آيَةِ اللَّهِ خَرَّازِي، وَهُوَ مِمَّنْ يُسَمَّوْنَ بِالْمُحَافِظِينَ قَالَ فِيهَا: «إِذَا أَرَدْنَا دَعْمَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّ فِلَسْطِينَ سَتَكُونُ سَائِرَةً عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْبَيْتِ إِذَنْ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ وَفِلَسْطِينَ؟!»[٨]. وَقَبْلَهُ قَالَ الْخُمَيْنِيُّ الْهَالِكُ: «كُلُّ سِيَاسَتِنَا لَا قِيمَةَ لَهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَنَا يَدٌ فِي الْقَضِيَّةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ»[٩].

وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ التَّشَيُّعَ فِي السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ انْتَشَرَ انْتِشَارًا كَبِيرًا فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْمَغْرِبِ، وَغَزَا مِصْرَ، وَدَخَلَ إِلَى فِلَسْطِينَ؛ إِذْ يُوجَدُ بِهَا ثَلَاثُ جَمْعِيَّاتٍ بَاطِنِيَّةٍ تَتَوَلَّى صَرْفَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ عَنْ دِينِهِمْ إِلَى التَّشَيُّعِ، وَأَعْجَبُ مِنْ

= غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلّا مسختك وهويت بك في نار جهنم) وسائل الشيعة (١٠/ ٤٠٣).

٤- ما افتروه على أبي عبد الله الصادق قال: (شاطئُ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراتُ، والبقعة المباركة هي كربلاء) التهذيب للطوسي (٦/ ٣٨).

٥- ما افتروه على علي بن الحسين، في قوله: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قال: «خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء، فوضعته في موضع قبر الحسين عليه السلام، ثم رجعت من ليلتها) التهذيب للطوسي (٦/ ٧٣).

(٨) نشرت في يوم الأحد ٢ مارس ٢٠٠٨م، ينظر: فلسطين في المشروع الإيراني، صباح الموسوي، صحيفة دنيا الوطن الفلسطينية، الإلكترونية ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٨م.

(٩) المرتكزات الديموغرافية والاجتماعية والثقافية في المشروع الإيراني، د.غازي التوبة، صحيفة نور سورية الإلكترونية.

ذَلِكَ وُجُودُ جَمْعِيَّاتٍ فِي عُمْقِ إِسْرَائِيلَ تَتَوَلَّى مُهِمَّةَ تَشْيِيعِ عَرَبِ ثَمَانِيَةٍ وَأَرْبَعِينَ تَحْتَ سَمْعِ الصَّهَايِنَةِ وَبَصَرِهِمُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ إِيرَانَ وَحِزْبَ الشَّيْطَانِ فِي لِبْنَانَ أَعْدَى أَعْدَائِهِمْ(١٠).

وَالسِّفَارَاتُ الْإِيرَانِيَّةُ فِي كُلِّ بِلَادِ الْأَرْضِ جَامِعَاتٌ وَمَعَاهِدُ لِنَشْرِ التَّشَيُّعِ، وَطَبْعِ الْكُتُبِ الْبِدْعِيَّةِ(١١)، وَلَا يَمَسُّهَا أَحَدٌ بِسُوءٍ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُحَاصَرُ فِيهِ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتُجَفَّفُ مَنَابِعُهَا فِي الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْغَرْبِيَّةِ، وَتُقْفَلُ الْجَمْعِيَّاتُ الْخَيْرِيَّةُ، وَيُحَارَبُ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَعْوَى مُحَارَبَةِ الْإِرْهَابِ

---

(١٠) نشرت جريدة السياسة الكويتية تقريرًا في جزئين عن التشيع داخل إسرائيل، ذكرت فيه أن بعض مراكز الإحصاء في إسرائيل قدرت أن عدد الشيعة الرسميين داخل إسرائيل -أي في عرب ٤٨- (٦٠٠ شيعي) يعلنون تشيعهم، هذا غير من يخفونه أو لا يظهرون شعائرهم. ونقلت عن بعض المصادر الإسرائيلية أن عدد الشيعة ربما يصل إلى عشرة آلاف. ووضع الباحث اليهودي بيرتس حاييم أورليد -وهو أستاذ في علم الديانات المقارن- تقريرًا ذكر فيه أن تزايد الشيعة قد يخلق دولة أخرى شيعية داخل إسرائيل. ينظر: جريدة السياسة، عددي (١٣٦٩٦-١٣٦٩٧) السبت والأحد ٣ و٤/ ١٢/ ١٤٢٧هـ.

(١١) في إيطاليا مثلًا يصلي أعضاء من السفارة الإيرانية صلاة الجمعة في أحد مساجد السنة، ويصطادون المسلمين الإيطاليين -ولا سيما الجدد- ويدعونهم للغداء، ويعطونهم حقيبة فيها جملة كتب للتعرف بالإسلام على المذهب الشيعي مترجمة باللغة الإيطالية، وفي داخل السفارة نادي للمسلمين الجدد فيه أنشطة رياضية وترفيهية ودعوية، وتضم مكتبة مترجمة إلى الإيطالية فيها أمهات كتب الشيعة، في حين أن أهل السنة يعانون مع المسلمين الجدد لندرة الكتب السنية باللغة الإيطالية، وقد شكا إلي عدد من مديري المراكز الإسلامية هذه المشكلة، وأن الإيرانيين يختطفون المسلمين الجدد من مساجد أهل السنة، بسبب أنه لا يوجد كتب لديهم باللغة الإيطالية، وأنهم اضطروا لطرد أعضاء السفارة الإيرانية، ومنعهم من الصلاة معهم يوم الجمعة.

وهذا في بلد واحد وقفت عليه بنفسي فكيف إذن بسائر البلاد الأجنبية التي تندر الكتب السنية المترجمة بلغة أهلها، والله المستعان.

وَتَجْفِيفِ مَنَابِعِهِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ الْغَرْبَ يُدْرِجُ إِيرَانَ وَفُرُوعَهَا ضِمْنَ قَائِمَةِ الْإِرْهَابِ، وَمِحْوَرِ الشَّرِّ، فَلِمَاذَا إِذَنْ يَسْمَحُ لَهَا بِنَشْرِ التَّشَيُّعِ، وَلَا يُثَرِّبُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ؟! حَتَّى إِنَّ بَعْضَ الزَّعَامَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَلْمَانِيَّةِ رَصَدَتِ اسْتِخْبَارَاتُهَا قُوَّةَ التَّشَيُّعِ فِي بِلَادِهَا، وَأَحَسَّتْ بِخَطَرِ التَّغَلْغُلِ الْبَاطِنِيِّ فِي أَوْسَاطِ شَعْبِهَا، فَأَرَادَتْ تَحْجِيمَهُ وَتَقْلِيلَهُ وَالتَّحْذِيرَ مِنْهُ، فَكَانَ الْغَرْبُ بِالمِرْصَادِ لِكُلِّ مُحَاوَلَةٍ جَادَّةٍ لِإِيقَافِ تَمَدُّدِ التَّشَيُّعِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ(١٢)، وَمَنْ بَيَّنَ حَقَائِقَ ذَلِكَ، أَوْ حَذَّرَ مِنْهُ اتُّهِمَ بِالطَّائِفِيَّةِ، وَالتَّحْرِيضِ عَلَى الْفِتْنَةِ، وَمَعُونَةِ الْعَدُوِّ عَلَى الْإِخْوَةِ، فَمَا مَصْلَحَةُ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ مِنْ نَشْرِ التَّشَيُّعِ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ، مَعَ قَمْعِهِمْ لِدُعَاةِ السُّنَّةِ؟ وَمَا نَوْعُ الْعِدَاءِ بَيْنَ الْأُمَّةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ؟

إِنَّ مَنْ قَرَأَ عَنْ مَشْرُوعِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ الَّذِي تُرِيدُ الْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ تَعْمِيمَهُ عَلَى دُوَلِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ نَجَحَ فِي الْعِرَاقِ، وَمُلَخَّصُهُ إِشْعَالُ الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ الطَّائِفِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ وَالْقَبَلِيَّةِ فِي الدُّوَلِ الْمُسْتَهْدَفَةِ، مَعَ عِلْمِهِ بِنِسْبَةِ الشِّيعَةِ الْإِمَامِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ؛ أَدْرَكَ المَنَافِعَ الْعَظِيمَةَ لِلْقُوَى الِاسْتِعْمَارِيَّةِ فِي نَشْرِ التَّشَيُّعِ وَتَجْفِيفِ مَنَابِعِ الدَّعْوَةِ السُّنِّيَّةِ وَمُحَارَبَةِ أَهْلِهَا؛ فَنِسْبَةُ الرَّافِضَةِ الْإِمَامِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَا تَصِلُ إِلَى عَشَرَةٍ فِي المِئَةِ عَلَى أَكْثَرِ التَّقْدِيرَاتِ، فِي مُقَابِلِ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ فِي المِئَةِ مِنَ السُّنَّةِ، وَهَذَا الْعَدَدُ الْقَلِيلُ لَا يَكْفِي لِتَعْمِيمِ مَشْرُوعِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ زَرْعِ التَّشَيُّعِ فِي كُلِّ بَلَدٍ إِسْلَامِيٍّ خَالٍ مِنْهُ، وَتَقْوِيَةِ الْخَلَايَا الْبَاطِنِيَّةِ فِي الْبِلَادِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَقَلِّيَّاتٌ مِنْهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ لَهُمْ

---

(١٢) كانت مصر خالية من التشيع تمامًا، فكونت فيها إيران بأموالها بؤرًا شيعية عن طريق الطرق الصوفية، ودعمتهم بالأموال، حتى رأينا وسمعنا من يشتم الصحابة ﷺ، ويقذف الصديقة عائشة ﵂ من أرض الكنانة، ولا يؤاخذ بذلك.

شَوْكَةٌ وَقُوَّةٌ، وَكَثُرَتْ أَعْدَادُهُمْ سُلِّطُوا عَلَى دُوَلِهِمْ، وَتَنَاحَرُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَكَانَتِ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةُ الَّتِي يَقْطِفُ الْمُسْتَعْمِرُ الصِّهْيَوْنِيُّ الصَّلِيبِيُّ ثِمَارَهَا، وَالْحُوثِيُّونَ فِي الْيَمَنِ مِثَالٌ حَيٌّ عَلَى ذَلِكَ.

وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْعَدَاءِ بَيْنَ الصَّهَايِنَةِ وَإِيرَانَ فَعَدَاءٌ حَقِيقِيٌّ، وَلَكِنَّهُ عَدَاءُ مَصَالِحَ وَلَيْسَ عَدَاءَ عَقَائِدَ، وَالدَّوْلَةُ الْبَاطِنِيَّةُ الْفَارِسِيَّةُ تَتَقَارَبُ كَثِيرًا فِي تَارِيخِهَا وَمَوَاقِفِهَا وَعَقَائِدِهَا مَعَ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ، وَهِيَ فِي سِيَاسَتِهَا الْخَارِجِيَّةِ نَفْعِيَّةٌ بُرْجَمَاتِيَّةٌ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْغَرْبِيَّةِ. وَالْغَرْبُ الِاسْتِعْمَارِيُّ قَدْ رَسَمَ لِلدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ حُدُودًا لَا تَتَجَاوَزُهَا، فَإِنْ تَجَاوَزَتْهَا ضُرِبَتْ ضَرْبَةَ تَأْدِيبٍ لِإِرْجَاعِهَا إِلَى حُدُودِهَا، وَلَيْسَ لِلْقَضَاءِ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ لَا مَصْلَحَةَ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي ضَرْبِ الدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ ضَرْبَةً تُنْهِي وُجُودَهُمْ، أَوْ تُضَعْضِعُ كِيَانَهُمْ، أَوْ تُقَسِّمُ دَوْلَتَهُمْ، وَإِلَّا لَفَقَدَ مَشْرُوعُ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ أَهَمَّ رُكْنٍ فِيهِ.

بَيْدَ أَنَّ عَدَاوَةَ الْأُمَّتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ الصِّهْيَوْنِيَّةِ لِأُمَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي يُمَثِّلُ حَقِيقَةَ دِينِهَا وَمَنْهَجِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَدَاوَةٌ حَقِيقِيَّةٌ عَقَائِدِيَّةٌ دَائِمَةٌ، مُنْذُ أَنْ قَوَّضَ الْمُسْلِمُونَ دَوْلَتَيْ فَارِسَ وَالرُّومِ، وَهِيَ الَّتِي يَجِبُ الْقَضَاءُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ، وَتَقْسِيمُ دُوَلِهَا، وَتَجْفِيفُ مَنَابِعِ دَعْوَتِهَا، وَمُحَاصَرَةُ انْتِشَارِهَا، وَمُلَاحَقَةُ دُعَاتِهَا بِدَعَاوَى الْإِرْهَابِ وَالتَّطَرُّفِ.

رَدَّ اللهُ تَعَالَى كَيْدَهُمْ إِلَى نُحُورِهِمْ، وَأَشْعَلَ الْفِتْنَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَحَمَى بِلَادَنَا وَبِلَادَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِمْ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...

❁ ❁ ❁

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدِ اسْتَطَاعَ الْبَاطِنِيُّونَ وَبِخُبْثٍ بَالِغٍ أَنْ يُصَوِّرُوا لِجُمْهُورِ الْأُمَّةِ أَنَّ مَنْ عَارَضَ مَشْرُوعَاتِهِمُ التَّوَسُّعِيَّةِ، أَوْ فَضَحَ مُخَطَّطَاتِهِمُ الإِجْرَامِيَّةَ، أَوْ حَذَّرَ مِنَ الْغُرُورِ بِهِمْ فَهُوَ مِنْ عُمَلَاءِ الصَّهَايِنَةِ وَالصَّلِيبِيِّينَ؛ فَكَانَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْيِ هَذِهِ التُّهَمِ أَنْ يَقِفَ الْمُسْلِمُ الْبَائِسُ خَلْفَ أَصْحَابِ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ يَهْتِفُ لَهَا، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهَا إِنْ تَمَكَّنَتْ مِنْهُ غَدًا سَامَتْهُ سُوءَ الْعَذَابِ، كَمَا فَعَلَتْ بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْعِرَاقِ.

وَالْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ أَنَّ الْمَشَارِيعَ الْفَارِسِيَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ فِي الشَّرْقِ الْإِسْلَامِيِّ لَيْسَتْ أَقَلَّ خَطَرًا مِنَ الْمَشَارِيعِ الصَّهْيَوْنِيَّةِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَأَنَّ الْعَمَائِمَ الْبِدْعِيَّةَ لَنْ تَكُونَ أَرْحَمَ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقُبَّعَاتِ الْيَهُودِيَّةِ أَوْ الْخُوذَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَكُلُّهُمْ خَطَرٌ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَجَمِيعُهُمْ أَعْدَاءٌ دَائِمُونَ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمُحَاوَلَةُ التَّقَارُبِ مَعَهُمْ ضَرْبٌ مِنَ الْخَيَالِ وَالْأَحْلَامِ؛ إِذْ إِنَّ صَهَايِنَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعِدُونَنَا بِمَسِيحِهِمْ لِيَقُودَهُمْ فِي قَتْلِنَا وَتَعْذِيبِنَا، وَبَاطِنِيَّةُ فَارِسَ يُهَدِّدُونَنَا بِمَهْدِيِّهِمْ لِيَقْتُلَنَا وَيُعَذِّبَنَا.

إِنَّنَا لَسْنَا مِنْ دُعَاةِ الْحُرُوبِ الْفَوْضَوِيَّةِ؛ فَفِي الْمُسْلِمِينَ مَا يَكْفِيهِمْ مِنَ التَّمَزُّقِ وَالتَّفَرُّقِ، وَلَكِنَّ الْغَرْبَ يُرِيدُهَا لِتَحْقِيقِ مَشْرُوعَاتِهِ عَبْرَ الْفَوْضَى الْخَلَّاقَةِ، وَأَدَاتُهُ الرَّئِيسَةُ فِي ذَلِكَ أَصْحَابُ الْعَمَائِمِ الْبِدْعِيَّةِ الَّذِينَ أَثْبَتُوا بِجَدَارَةٍ وَاسْتِحْقَاقٍ أَنَّ

عَدَاءَهُمْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَشَدُّ مِنْ عَدَائِهِمْ لِأَيِّ مِلَّةٍ أُخْرَى، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٣].

إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ قَدْ حَكَمُوا الْعَالَمَ الْإِسْلَامِيَّ أَرْبَعَةَ عَشْرَ قَرْنًا، فَمَا أَبَادُوا الْبَاطِنِيِّينَ وَقَدْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمَّا حَكَمَ إِسْمَاعِيلُ الصَّفَوِيُّ بِلَادَ فَارِسَ شَيَّعَ أَهْلَهَا بِالسَّيْفِ، وَقَتَلَ مِئَاتِ الْأُلُوفِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فِيهَا[١٤]، وَفِي طِهْرَانَ يَنْعَمُ أَتْبَاعُ كُلِّ المِلَلِ بِإِظْهَارِ شَعَائِرِهِمْ، وَبِنَاءِ مَعَابِدِهِمْ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ فِيهَا لَا مَسْجِدَ لَهُمْ.

وَلَمَّا سُلِّمَتْ بَغْدَادُ لِلصَّفَوِيِّينَ نَكَّلُوا بِأَهْلِ السُّنَّةِ فِيهَا، وَتَوَلَّتْ فِرَقُ الْمَوْتِ عَمَلِيَّاتِ إِبَادَتِهِمْ وَتَهْجِيرِهِمْ حَتَّى أَفْرَغُوهَا مِنْهُمْ.

وَفِي لِبْنَانَ لَنْ يَقِرَّ لِعَمَائِمِهِمْ قَرَارٌ، وَلَنْ يَهْدَأَ لَهُمْ بَالٌ حَتَّى يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا فَيُهَجِّرُوا أَهْلَ السُّنَّةِ مِنْهَا؛ لِتَكُونَ خَالِصَةً لِأَهْلِ بِدْعَتِهِمْ، وَمَا التَّحَرُّشَاتُ الْأَخِيرَةُ بِأَحْيَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَّا بِدَايَاتٌ لِذَلِكَ، وَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَقْرَءُونَ التَّارِيخَ، وَلَا يَعْرِفُونَ عَقَائِدَ الْقَوْمِ فِينَا، وَلَا يَرَوْنَ الْوَاقِعَ كَمَا هُوَ، وَإِنَّمَا يَرَوْنَهُ كَمَا يَصُوغُهُ الْأَعْدَاءُ لَهُمْ، وَلَنْ يُصَدِّقَ أَحَدُهُمْ أَنَّ الْأُمَّةَ الْبَاطِنِيَّةَ لَا يَقِلُّ خَطَرُهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْأُمَّتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ حَتَّى يَخْرِقَ أَصْحَابُ الْعَمَائِمِ رَأْسَهُ، وَيَنْتَهِكُوا عِرْضَهُ، وَيُهَجِّرُوهُ مِنْ بَلَدِهِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الطَّاغِيَةُ الْمُحَنَّطُ شَارُونُ فِي مُذَكِّرَاتِهِ: أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَاشَتْ خَمْسَ

---

(١٣) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: البخاري في الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٦١٣٣)، ومسلم في الزهد والرقائق، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (٢٩٩٨).

(١٤) ينظر الخطبة التي قبل هذه: الدولة الصفوية (١) خطبة رقم (٣٨٢) من هذا المجلد.

سَنَوَاتٍ مِنَ السَّلَامِ فِي ظِلِّ حِمَايَةِ حِزْبِ اللَّهِ لِلْحُدُودِ الْجَنُوبِيَّةِ اللِّبْنَانِيَّةِ؛ حَيْثُ مَنَعَ الْحِزْبُ أَيَّ وُجُودٍ سُنِّيٍّ مُقَاوِمٍ مِنَ النَّفَاذِ إِلَى حُدُودِ الْجَلِيلِ الْأَعْلَى شَمَالَ إِسْرَائِيلَ، فَمَتَى يَعِي الْمَخْدُوعُونَ حَقِيقَةَ الْقَوْمِ؟!

وَصَدَقَ رَسُولُ الْهُدَى ﷺ حِينَ قَالَ: «**إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ**» قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٥).

وَقَدْ صَدَّقَ أَكْثَرُ النَّاسِ حُكَّامَ طِهْرَانَ، وَعَمَائِمَ الْبِدْعَةِ فِي لِبْنَانَ، وَعَمُوا عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَكَذَّبُوا التَّارِيخَ وَالْوَاقِعَ، وَلَمْ يُصَدِّقُوا النَّاصِحِينَ مِنْ أَبْنَاءِ الْأُمَّةِ، وَلِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ . . .

❀ ❀ ❀

---

(١٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٢٩١)، وابن ماجه في الفتن، باب الصبر على البلاء (٤٠٣٦)، وحسنه الشيخ أحمد شاكر (٧٨٩٩)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٨٨٧).

وأخرجه بنحوه من حديث أنس رضي الله عنه: الطبراني في الأوسط (٣٢٥٨)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وسنده جيد. فتح الباري (١٣/ ٨٤).



علامات الساعة وأخبار القيامة

٣٨٤- الأشراط الصغرى للساعة (١) انتشار الفحش والفاحشة والتعري

١٤/ ١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: عِنْدَ اقْتِرَابِ الزَّمَانِ مِنْ نِهَايَتِهِ، وَدُنُوِّ السَّاعَةِ مِنْ قِيَامَتِهَا؛ تَتَنَوَّعُ الْفِتَنُ وَتَكْثُرُ، وَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى تَجِيءَ الْفِتْنَةُ الْعَظِيمَةُ فَيَخَافُهَا الْمُؤْمِنُونَ، وَيَقَعُ فِيهَا مَنْ يَقَعُ، ثُمَّ تَجِيءُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا فَتُنْسِيهِمُ الْأُولَى، وَيَنْشَغِلُونَ بِالثَّانِيَةِ عَنْهَا، وَلَرُبَّمَا تَمَنَّوُا الْأُولَى مِنْ هَوْلِ الثَّانِيَةِ، وَهَكَذَا .. حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِقِيَامِ السَّاعَةِ.

وَمِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَأَعْلَامِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنَ الْفِتَنِ

الْعَظِيمَةِ، وَالمَصَائِبِ الْكَبِيرَةِ الَّتِي تَنْزِلُ بِأَهْلِ الإِسْلَامِ؛ فَوَقَعَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ المَعْصُومُ ﷺ.

وَمِنْ ذَلِكَ: خَبَرُهُ ﷺ عَنِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ، وَعَنْ كَثْرَةِ الْفُحْشِ وَالْفَاحِشَةِ، وَالإِعْلَانِ بِهَا. قَالَ ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المَائِلَةِ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[1]، وَقَدْ سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الصِّنْفَ بِالْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ؛ لِأَنَّهُنَّ يَلْبَسْنَ الثِّيَابَ، وَمَعَ هَذَا فَهُنَّ عَارِيَاتٌ؛ فَثِيَابُهُنَّ لَا تَسْتُرُهُنَّ؛ لِرِقَّتِهَا وَشَفَافِيَتِهَا وَضِيقِهَا، وَكَثْرَةِ الْفَتَحَاتِ فِيهَا الَّتِي تُظْهِرُ كَثِيرًا مِنْ أَجْسَادِهِنَّ.

وَهَذَا اللِّبَاسُ المَوْصُوفُ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا تَلْبَسُهُ المَرْأَةُ لِإِظْهَارِ زِينَتِهَا وَمَفَاتِنِهَا لِلرِّجَالِ، وَيَنْتِجُ عَنْهُ انْتِشَارُ الزِّنَا؛ لِأَنَّ المَرْأَةَ إِذَا تَزَيَّنَتْ لِغَيْرِ حَلِيلِهَا طَمِعَ فِيهَا الرِّجَالُ حَتَّى يَنَالُوا مِنْهَا.

وَإِذَا كَثُرَ هَذَا اللِّبَاسُ فِي النِّسَاءِ اسْتَتْبَعَهُ كَثْرَةُ الزِّنَا فِي النَّاسِ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَكْثَرَ مِنْ حَدِيثٍ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ: كَثْرَةَ الزِّنَا، وَشُيُوعَ الْفَاحِشَةِ، بَلْ وَاسْتِحْلَالَ ذَلِكَ، وَكَثْرَةَ الشَّرِّ، وَقِلَّةَ الْخَيْرِ، حَتَّى إِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى الأَشْرَارِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[2]. وَمَعْنَى الْحَدِيثِ: أَنَّهُ يَكْثُرُ فِيهِمُ الزِّنَا وَالْفَوَاحِشُ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٥٥)، ومسلم في اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات (٢١٢٨)، وأبو يعلى (٦٦٩٠)، وابن حبان (٧٤٦١)، والبيهقي (٢/ ٢٣٤)، والطبراني في الأوسط (١٨١١).

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٢٩٣٧).

وَيُجَامِعُ الرِّجَالُ النِّسَاءَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ كَمَا تَفْعَلُ الْحَمِيرُ[٣].

وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ**»[٤].

لَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ نِسَاءٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ، وَعَنْ كَثْرَةِ الزِّنَا وَالْجَهْرِ بِهِ، وَانْتِشَارِ الْفَاحِشَةِ، وَقَدْ وَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ، وَالْعَجِيبُ -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ- أَنَّ الْإِمَامَ النَّوَوِيَّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لَمَّا عَلَّقَ عَلَى حَدِيثِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ وَقَعَ ذَلِكَ فِي زَمَانِهِ، فَقَالَ: «هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ؛ فَقَدْ وَقَعَ هَذَانِ الصِّنْفَانِ، وَهُمَا مَوْجُودَانِ»[٥].

وَالنَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَاشَ فِي المِئَةِ السَّابِعَةِ، أَيْ: قَبْلَ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعَةِ قُرُونٍ، وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يُوجَدُ إِعْلَامٌ، وَلَا صَحَافَةٌ، وَلَا مَجَلَّاتٌ، وَلَا مِذْيَاعٌ، وَلَا تِلْفَازٌ، وَلَا فَضَائِيَّاتٌ، وَلَا شَبَكَةٌ عَالَمِيَّةٌ، وَلَا كَامِيرَاتُ تَصْوِيرٍ، وَلَا دُورٌ لِلْأَزْيَاءِ، وَلَا مَسْرَحٌ لِلتَّعَرِّي، وَلَا صِنَاعَةٌ لِلْأَفْلَامِ، وَلَا عَرْضٌ لِلْمَشَاهِدِ الْجِنْسِيَّةِ عَلَى مَلَايِينِ الْمُشَاهِدِينَ، وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا نَعْلَمُهُ وَمِمَّا نَجْهَلُهُ، وَلَا يَزَالُ الشَّرُّ فِي اتِّسَاعٍ، وَالْفَاحِشَةُ فِي انْتِشَارٍ، فَمَاذَا سَيَقُولُ هَذَا الْإِمَامُ لَوْ رَأَى مَا يَحْدُثُ الْآنَ عَلَى الْأَرْضِ؟!

لَقَدِ انْتَشَرَتِ الْفَاحِشَةُ انْتِشَارًا مُخِيفًا فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسَبَبِ النَّظْرَةِ الْمَادِّيَّةِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلِلْمَرْأَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ؛ فَالْأَفْكَارُ الْعَلْمَانِيَّةُ الْمَادِّيَّةُ الَّتِي شُيِّدَتْ عَلَيْهَا حَضَارَةُ الْغَرْبِ، وَمِنْ ثَمَّ صَدَّرَتْها لِلْعَالَمِ كُلِّهِ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(٣) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ٩٣).

(٤) أخرجه في حديث طويل: أحمد (٢/ ١٩٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ٧٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (٦٥١٤).

(٥) شرح النووي على مسلم (١٤/ ١٥٦).

عَلَى أَنَّهَا مَتَاعٌ يَجِبُ أَنْ يَأْخُذَ النَّاسُ حُظُوظَهُمْ مِنْهَا، بَعِيدًا عَنْ أَيِّ قُيُودٍ أَوْ مُحَرَّمَاتٍ أَوْ مَمْنُوعَاتٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ دِينِيَّةً أَمْ أَخْلَاقِيَّةً أَمْ عُرْفِيَّةً، فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ فَهُوَ مُبَاحٌ، وَغَيْرُ المُبَاحِ هُوَ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَقَاعِدَتُهُمْ فِي ذَلِكَ هِيَ قَاعِدَةُ أَسْلَافِهِمْ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وَلَمَّا كَانَتِ المَرْأَةُ مَنْبَعَ اللَّذَّةِ، وَزِينَةَ الدُّنْيَا، وَلَا تَكْتَمِلُ سَعَادَةُ الرَّجُلِ إِلَّا بِهَا؛ فَإِنَّ النَّظْرَةَ المَادِّيَّةَ جَعَلَتْهَا فِي مُقَدِّمَةِ مَا يُعْتَنَى بِهِ فِي المَجَالِ المَادِّيِّ، فَحَطَّمَتْ كُلَّ الْقُيُودِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا الْبَشَرُ، وَتَنَاقَلُوهَا جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَأَكَّدَتْهَا رِسَالَاتُ الْأَنْبِيَاءِ، مِنْ: وُجُوبِ السَّتْرِ وَالْعَفَافِ، وَتَحْرِيمِ التَّعَرِّي وَالزِّنَا، فَكَانَتِ الصِّنَاعَاتُ الْإِعْلَامِيَّةُ فِي أَغْلَبِهَا لِلتَّرْفِيهِ وَالْإِثَارَةِ، وَالتَّرْفِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنِسَاءٍ يَنْزِعْنَ لِبَاسَهُنَّ، وَيُبْدِينَ مَفَاتِنَهُنَّ.

وَلَوْ جُمِعَتْ كُلُّ الْبَرَامِجِ المُفِيدَةِ: الصِّحِّيَّةِ، وَالِاقْتِصَادِيَّةِ، وَالسِّيَاسِيَّةِ، وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ، وَالتَّعْلِيمِيَّةِ، فِي كُلِّ وَسَائِلِ إِعْلَامِ الْبَشَرِ مِنْ صَحَافَةٍ، وَإِذَاعَاتٍ، وَفَضَائِيَّاتٍ، وَمَوَاقِعَ عَلَى الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، وَقُورِنَتْ بِالْبَرَامِجِ السَّاقِطَةِ الضَّارَّةِ الَّتِي تُسَمَّى بَرَامِجَ التَّرْفِيهِ وَالْإِثَارَةِ لَما حَنِثَ الْحَالِفُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى أَنَّ المُفِيدَ النَّافِعَ الَّذِي يُنَمِّي الْعُقُولَ، وَيَبْنِي الْأُمَمَ، لَا يَبْلُغُ أَمَامَ الْبَرَامِجِ المُدَمِّرَةِ عُشْرَ الْعُشْرِ.

فَكَمْ يُنْتِجُونَ مِنْ أَفْلَامٍ وَمُسَلْسَلَاتٍ؟! وَلَا بُدَّ فِيهَا مِنْ مَشَاهِدَ غَرَامِيَّةٍ، وَقَصَصٍ عَاطِفِيَّةٍ، وَشَهَوَاتٍ مُحَرَّمَةٍ، وَنِسَاءٍ كَاسِيَاتٍ عَارِيَاتٍ!!

وَكَمْ يَعْرِضُونَ مِنْ أَغَانٍ مُصَوَّرَةٍ تَسْتَحِي بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا أَبِي جَهْلٍ أَنْ تُشَاهِدَهَا؟! وَكَمْ مِنْ مَجَلَّاتٍ فِيهَا صُوَرٌ لِنِسَاءٍ شِبْهِ عَرَايَا؟!

وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا يَغْزُو الْبُيُوتَ عَبْرَ الْفَضَائِيَّاتِ، وَيُشَاهِدُهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، وَالْمُرَاهِقُونَ وَالْمُرَاهِقَاتُ، بَلْ وَحَتَّى الْأَطْفَالُ، فَكَيْفَ سَيَكُونُ حَالُ الْأَجْيَالِ الْحَاضِرَةِ وَالْقَادِمَةِ؟! وَكَيْفَ سَتَكُونُ أَخْلَاقُهُمْ، وَغَيْرَتُهُمْ عَلَى مَحَارِمِهِمْ، وَعَلَى حُرُمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؟!

إِنَّهُ تَدْمِيرٌ عَظِيمٌ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَلِلْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَكُلُّ ذَلِكَ فِي كِفَّةٍ، وَفِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى مَا يُعْرَضُ مِنْ صِنَاعَةِ الْجِنْسِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَشُذُوذَاتِهِ وَغَرَائِبِهِ، مِنْ زِنًا وَسِحَاقٍ وَعَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، يَصِلُ إِلَى الْمُرَاهِقِ وَالْمُرَاهِقَةِ فِي غُرْفَتِهِمَا بِأَيْسَرِ الطُّرُقِ، وَأَقَلِّ الْمُؤْنَةِ، عَنْ طَرِيقِ الْأَطْبَاقِ الْفَضَائِيَّةِ، أَوِ الشَّبَكَةِ الْعَالَمِيَّةِ، فَمَا أَعْظَمَ الشَّرَّ! وَمَا أَكْثَرَ طُرُقَهُ وَأَبْوَابَهُ!!

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ فَلَقَدْ رَأَيْنَا النِّسَاءَ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ، الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا الزَّمَنَ الَّذِي انْتَشَرَ فِيهِ الْفُحْشُ وَالتَّفَاحُشُ، وَظَهَرَ الزِّنَا، وَمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَا، حَتَّى صَارَ يُنْقَلُ إِلَى كُلِّ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ عَبْرَ الْقَنَوَاتِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِبَاحِيَّةِ.

وَإِنْ سَلِمَتْ بَعْضُ بُيُوتِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَنَوَاتِ وَالْمَوَاقِعِ الْإِبَاحِيَّةِ بِسَبَبِ الرِّقَابَةِ الصَّارِمَةِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، فَإِنَّهَا لَنْ تَسْلَمَ مِنْ مَشَاهِدِ النِّسَاءِ الْكَاسِيَاتِ الْعَارِيَاتِ الْمَائِلَاتِ الْمُمِيلَاتِ فِي أَفْلَامِهِنَّ، وَمُسَلْسَلَاتِهِنَّ، وَأَغَانِيهِنَّ الْمُصَوَّرَةِ، وَلَنْ تَسْلَمَ مِنْ صُحُفٍ وَمَجَلَّاتٍ فِيهَا مَا فِيهَا مِنْ صُوَرِهِنَّ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَنِسَاءَنَا وَأَوْلَادَنَا وَبُيُوتَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا وَعَلى الْمُسْلِمِينَ بِصَلَاحِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ، وَصَلَاحِ النِّيَّاتِ وَالذُّرِّيَّاتِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا وَالْمُسْلِمِينَ الْفَوَاحِشَ مَا بَطَنَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ.

اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ؛ فَلَا عَاصِمَ مِنَ الْفِتَنِ الْمُتَلَاطِمَةِ، وَالمِحَنِ الْمُتَلَاحِقَةِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى؛ فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى، وَامْتَثِلُوا أَمْرَهُ، وَاجْتَنِبُوا نَهْيَهُ، وَالْزَمُوا شَرِيعَتَهُ وَلَوْ ضَلَّ عَنْهَا أَكْثَرُ النَّاسِ؛ فَإِنَّ النَّجَاةَ فِيهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ كَانَتِ النَّظْرَةُ المَادِّيَّةُ عِنْدَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ -وَخَاصَّةً الْغَرْبِيِّينَ مِنْهُمْ- هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ التُّجَّارَ الرَّأْسِمَالِيِّينَ يُتَاجِرُونَ بِالمَرْأَةِ -فِي لِبَاسِهَا، وَصَوْتِهَا، وَحَرَكَاتِهَا، وَعُرْيِهَا- هَذِهِ التِّجَارَةَ الرَّدِيئَةَ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ انْتِشَارِ الْفَوَاحِشِ وَالمُوبِقَاتِ وَالشُّذُوذِ، وَبَلَغَكُمْ ذَلِكَ بِالمُشَاهَدَةِ أَوِ

السَّمَاعِ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ مُلَّاكَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ[٦]، وَصُنَّاعَ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ مِنْ تُجَّارِ الْمُسْلِمِينَ؛ يَسِيرُونَ سِيرَةَ الْغَرْبِيِّينَ المَادِّيِّينَ فِي هَذَا المَجَالِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ المُسْلِمِينَ يُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ؟! أَهُوَ الرِّبْحُ المَادِّيُّ فَحَسْبُ؟! وَهُمْ يَجِدُونَ الرِّبْحَ فِي مَجَالَاتٍ أُخْرَى لَيْسَ فِيهَا هَذِهِ المُوبِقَاتُ!! أَمْ تُرَى أَنَّ أَكْثَرَهُمْ كَانَ أَصْلُ تِجَارَاتِهِمْ بِالْحَرَامِ، فَعَاقَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِإِنْشَاءِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ وَالْبَرَامِجِ المُحَرَّمَةِ؛ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إِلَى إِثْمِهِمْ، وَيَحْمِلُوا أَوْزَارَ غَيْرِهِمْ مِنْ هَذَا الْبَشَرِ الْكَثِيرِ الَّذِينَ فُتِنُوا بِقَنَوَاتِهِمْ وَبَرَامِجِهِمْ، فَيَكُونُ حِسَابُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَظِيمًا كَبِيرًا، ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، كَمَا نَسْأَلُهُ لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ وَالرَّشَادَ.

إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ المُسْلِمِينَ -هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى وَأَصْلَحَهُمْ- قَدِ اسْتَنْسَخُوا بَرَامِجَ غَرْبِيَّةً بِكَامِلِ تَفَاصِيلِهَا وَمَشَاهِدِهَا، وَنَقَلُوهَا إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ، فَفَتَنُوا بِهَا الشَّبَابَ وَالْفَتَيَاتِ، بَرَامِجَ يَخْسَرُونَ عَلَيْهَا الْأَمْوَالَ الْعَظِيمَةَ، وَهِيَ سَامِجَةٌ تَافِهَةٌ، فِيهَا اخْتِلَاطٌ وَمُيُوعَةٌ، وَكَسْرٌ لِحَيَاءِ الْفَتَيَاتِ وَالْفِتْيَانِ، وَدَعْوَةٌ لِلْفَاحِشَةِ وَالرَّذِيلَةِ، وَتَحْرِيضٌ عَلَى التَّمَرُّدِ عَلَى الدِّينِ وَالْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْرَافِ، وَرَفْضٌ لِنِظَامِ الْأُسْرَةِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ مِنْ وِصَايَةِ الْآبَاءِ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَقِوَامَةِ الْأَزْوَاجِ عَلَى الزَّوْجَاتِ[٧].

---

(٦) وذلك مثل مجموعة (إم بي سي)، ومجموعة (إي آر تي) وقناة (ال بي سي) ومجموعة الأوربت، وروتانا كليب، وغيرها، وملاكها مسلمون، وأكثرهم سعوديون.

(٧) انتشرت هذه الظاهرة في القنوات الفضائية، فصارت تستجلب برامج غربية بكامل =

فَإِذَا كَانَ مُلَّاكُ الْبَرَامِجِ الْغَرْبِيَّةِ قَدِ اخْتَارُوا هَذِهِ الطَّرِيقَ؛ لِأَنَّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى نَظْرَتِهِمُ المَادِّيَّةِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي تَغْيِيبٍ كَامِلٍ لِلْآخِرَةِ، فَمَا الَّذِي يَجْعَلُ تُجَّارَ المُسْلِمِينَ وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يَنْقُلُونَ هَذِهِ الْبَرَامِجَ التَّافِهَةَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا وَانْحِرَافَاتِهَا إِلَى بِلَادِ المُسْلِمِينَ؛ لِيُفْسِدُوا بِهَا نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَبُيُوتَهُمْ؟! أَهُوَ التَّقْلِيدُ الْأَعْمَى عَلَى غَيْرِ هُدًى؟!

وَإِذَا كَانَ المُشَاهِدُ الْغَرْبِيُّ المِسْكِينُ قَدْ أُلْغِيَ الْعَالَمُ الْغَيْبِيُّ الْأُخْرَوِيُّ مِنْ تَفْكِيرِهِ وَثَقَافَتِهِ، فَعَاشَ انْتِكَاسَةً نَفْسِيَّةً خَطِيرَةً، وَأَزْمَةً فِطْرِيَّةً حَادَّةً؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مَفْطُورٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، فَقُلِبَتْ فِطْرَتُهُ رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ، فَلَا عَجَبَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى المُسَكِّنَاتِ وَالمُهَدِّئَاتِ الْفَضَائِيَّةِ التَّرْفِيهِيَّةِ، فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا لِمَلْءِ الْفَرَاغِ الَّذِي خَلَّفَهُ إِنْكَارُ الْغَيْبِ، وَلَنْ يَمْتَلِئَ إِلَّا بِالْإِيمَانِ. إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَمَا الَّذِي دَهَى كَثِيرًا مِنَ المُسْلِمِينَ حَتَّى اسْتَقْبَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ الْفَاسِدَةِ بِالتَّهْلِيلِ وَالتِّرْحَابِ، وَفَتَحُوا لَهَا بُيُوتَهُمْ، وَأَسْلَمُوا لَهَا أَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ، وَهِيَ تَتَوَلَّى تَدْمِيرَ دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَغَيْرَتِهِمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ؟!

بَلْ قَدْ يَجْلِسُ الرَّجُلُ المُسْلِمُ الَّذِي بِيَدِهِ الْعِصْمَةُ وَالْقِوَامَةُ أَمَامَ الشَّاشَةِ مَعَ زَوْجَتِهِ وَأَبْنَائِهِ وَبَنَاتِهِ، وَيَرَوْنَ جَمِيعًا مَا يَخْدِشُ الْحَيَاءَ، وَيُدَمِّرُ الْأَخْلَاقَ، وَيَلْحَظُ تَغَيُّرَ زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْفَاسِدَةِ وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ، يَضْحَكُ مِلْءَ فِيهِ، وَيَنَامُ مِلْءَ جَفْنِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا أَقَلَّ الْغَيْرَةَ!!

= تفاصيلها وعريها، وتطبقها في تلك القنوات العربية مثل برنامج (ستار أكاديمي)، وبرنامج (الزواج عبر الشاشة)، وبرنامج (الرئيس) الذي تبنته قناة (إم بي سي)، وتقرر إقامته في البحرين فسارت مظاهرات ضده، فقرروا نقله منها، وغيره من البرامج الخليعة التي يجمعون فيها فتيان وفتيات من أقطار مختلفة؛ ليعيشوا في منزل واحد مدة معينة يأكلون سويًا ويتراقصون، ويلعبون ... إلخ.

وَكَثِيرٌ مِمَّا يُعْرَضُ مِنْ بَرَامِجَ سَاقِطَةٍ قَدْ رَضِيَهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِنِسَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَاللَّهِ لَا يَرْضَى بِهَا أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو لَهَبٍ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ لِأَنْفُسِهِمْ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْضَوْهَا لِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ! فَهَلْ كَثْرَةُ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْمُفْسِدَةِ، وَتَنَوُّعُهَا فِي الْهُبُوطِ وَالِانْحِلَالِيَّةِ؛ قَدْ قَلَّلَتْ إِحْسَاسَ النَّاسِ، وَأَمَاتَتْ غَيْرَتَهُمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ؟! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

لَقَدْ فَطِنَ كَثِيرٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْغَرْبِ وَمُثَقَّفِيهِ لِمَا لِهَذِهِ الْبَرَامِجِ الْإِعْلَامِيَّةِ مِنْ تَدْمِيرٍ، وَوَضَعُوا فِيهَا الْأَبْحَاثَ وَالدِّرَاسَاتِ، وَحَذَّرُوا النَّاسَ مِنْ شَرِّهَا وَإِثْمِهَا، وَأَنْقُلُ بَعْضَ كَلَامِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَلَنْ أَنْقُلَ عَنْ مُثَقَّفٍ أَوْ عَالِمٍ مُسْلِمٍ؛ لِكَيْلَا يُقَالَ: هَذِهِ ثَقَافَةُ الْمُتَخَلِّفِينَ؛ أَوْ هَذَا فِكْرُ الْمُؤَامَرَةِ! فَمَا أَنْقُلُهُ هِيَ أَقْوَالُ بَاحِثِي وَمُثَقَّفِي صُنَّاعِ الْحَضَارَةِ الْمُعَاصِرَةِ!

يَقُولُ أَحَدُهُمْ: «إِذَا كَانَ السِّجْنُ هُوَ جَامِعَةَ الْجَرِيمَةِ، فَإِنَّ التِّلِفِزْيُونَ هُوَ الْمَدْرَسَةُ الْإِعْدَادِيَّةُ لِانْحِرَافِ الْأَحْدَاثِ»[٨].

وَيَقُولُ آخَرُ: «رُبَّمَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْعَلَ أَيَّ شَيْءٍ ضِدَّ الْهَنْدَسَةِ الْوِرَاثِيَّةِ، وَالْقَنَابِلِ النِّيُوتْرُونِيَّةِ، وَلَكِنَّنَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ: لَا لِلتِّلِفِزْيُونِ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نُلْقِيَ بِأَجْهِزَتِنَا فِي مَقْلَبِ الزِّبَالَةِ؛ حَيْثُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ»[٩].

وَيَقُولُ بَاحِثٌ غَرْبِيٌّ ثَالِثٌ: «إِنَّنِي أُطَمْئِنُ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَ لِلتَّخَلِّي عَنْ تِلْكَ الْقَنَوَاتِ الْفَضَائِيَّةِ بِأَنَّهُمْ لَنْ يَخْسَرُوا شَيْئًا ذَا بَالٍ»[١٠].

---

(٨) القائل هو الدكتور ستيفن بانا حبيب بجامعة كولومبيا، انظر: الإعلام الإذاعي والتلفزيون (٢٣)، عن دراسات إعلامية، ماذا تعرف عن: العجل الفضي؟ محمد بن أحمد إسماعيل، أعدها للنشر: إسلام دعدوشة، مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧١).

(٩) ينظر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون (٣٤٦) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٨).

(١٠) القائل هو جيري ماندر، ينظر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون (١١-١٢) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٩).

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ مُسْلِمًا زَارَ أُسْتَاذًا جَامِعِيًّا نَصْرَانِيًّا، كَانَ صَدِيقًا لَهُ، فَلَمْ يَرَ فِي مَنْزِلِهِ أَيَّ تِلْفَازٍ وَلَا طَبَقٍ فَضَائِيٍّ، فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَنَا مَجْنُونٌ حَتَّى آتِيَ إِلَى بَيْتِي بِمَنْ يُشَارِكُنِي فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِي؟!»[١١].

تِلْكَ هِيَ أَقْوَالُ الْبَاحِثِينَ الْغَرْبِيِّينَ فِي هَذَا الشَّأْنِ الْخَطِيرِ، وَإِنَّنِي عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْبُيُوتِ أَصْبَحَتْ أَسِيرَةً لِلشَّاشَاتِ وَالْأَطْبَاقِ الْفَضَائِيَّةِ، بِحَيْثُ لَا تَسْتَغْنِي عَنْهَا كَمَا لَا تَسْتَغْنِي عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَلَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَقُومَ أَرْبَابُهَا بِعَمَلِيَّةِ تَرْشِيدٍ لِمَا يُشَاهِدُهُ أَوْلَادُهُمْ، مَعَ تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَاجْتِنَابِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَزَرْعِ الرِّقَابَةِ الذَّاتِيَّةِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَإِقْنَاعِهِمْ بِأَضْرَارِ هَذِهِ الْبَرَامِجِ الْمُفْسِدَةِ، إِلَى أَنْ يَتِمَّ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْ هَذِهِ الْأَطْبَاقِ الْمُدَمِّرَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِلَّا ضَاعَتْ أَخْلَاقُ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ!

وَالتِّقْنِيَةُ النَّافِعَةُ لَا يُمْكِنُ رَفْضُهَا، لَكِنْ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى مَعَاوِلَ لِلْهَدْمِ وَالتَّدْمِيرِ بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِخْدَامِهَا، فَهَذَا مَا لَا يَرْضَاهُ اللهُ تَعَالَى، وَلَا يَرْضَاهُ الْمُؤْمِنُونَ، بَلْ وَلَا يَرْضَاهُ عُقَلَاءُ الْبَشَرِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْفَظُوا بُيُوتَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الشَّرِّ وَالتَّدْمِيرِ؛ فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَعِدُّوا لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ[١٢].

---

(١١) ذكر ذلك الكاتب مروان كجك في كتابه: الأسرة أمام الفيديو والتلفزيون (٢٧١-٢٧٢) عن مجلة البيان، عدد (١٤٣) ص(٧٩).

(١٢) تنبيه: بعد كتابتي هذه الخطبة بأيام وقفت على إنكار عدد من العلماء لهذه البرامج، حين سئلوا عنها:

أولًا: سئل الشيخ العَلّامة عبد العزيز الرَّاجِحِي، فقال السائل: فضيلة الشيخ عبد العزيز بن =

. . . .

= عبد الله الراجحي حفظه الله ورعاه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:
بثت إحدى القنوات الفضائية العربية برنامجًا بعنوان (ستار أكاديمي) وملخص فكرته: أنهم أنشأوا مدرسة لتعليم الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل، ويأتون بمجموعة من البنات والشباب الذكور، ويعيشون في هذا المبنى سويًّا، ويدرسون، ويأكلون ويشربون، وينامون في نفس المبنى، وتقوم القناة ببث كل ما يدور في هذا المبنى من حيث تعلمهم الرقص والغناء، وتفاصيل حياتهم ومزاحهم ولعبهم، واختلاطهم مع بعضهم البعض، وما يتم فيه من تقبيل وضم، وكل مقدمات الجماع، ويشاهد هذه الأمور الملايين من الناس عبر هذه القناة. ومما بث فيه على سبيل المثال: مشهد لأحد الشباب وهو يمارس مع إحدى الفتيات ما يكون بين الرجل وزوجته ما عدا الجماع، وهي لا تلبس إلا ما يستر سؤتها المغلظة، ومشهد آخر لإحدى الفتيات وهي تلبس ملابسها الداخلية في غرفة مخصصة لتغيير الملابس، ثم في نهاية الأسبوع تقوم القناة بعمل حفلة غنائية صاخبة، وفيها رقص وتمثيل، يقوم به هؤلاء الشباب والبنات مع بعض المغنيين والمغنيات، وبعد ذلك يرشح المشاهدون من أفضل شاب أو شابة من هؤلاء الطلبة، والذي لا يفوز بالتصويت يستبعد من هذه المدرسة، وللعلم يا فضيلة الشيخ بلغت الاتصالات والتصويت من السعودية وَحْدَها أحد عشر مليون اتصال، وقد ظهر أثر هذا البرنامج على سلوك الطلاب والطالبات في المدارس والبيوت، وكثرت الشكوى من المعلمين والمعلمات؛ حيث يظل الطلاب والطالبات الساعات الطوال يتابعون هذا البرنامج الذي يهيج الغرائز، ويقتل الفضيلة؛ فظهر فسادها على دينهم ودنياهم، والله المستعان. السؤال يا فضيلة الشيخ: ما حكم مشاهدة هذا البرنامج؟ وما نصيحتك لأولياء الأمور وأرباب الأسر الذين يُدخلون مثل هذه القنوات إلى بيوتهم؟ وما دور الأئمة والخطباء والدعاة والموجهين والمُرَبِّين في تخفيف الشر الحاصل من مثل هذه البرامج؟ وما حكم تمويل هذه البرامج بالمال أو الدعاية التجارية فيها؟ أفيدونا أفادكم الله، ونفع بكم الإسلام والمسلمين.

فأجاب حفظه الله تعالى:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أما بعد: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، فإجابة لسؤالكم عما تبثّه إحدى القنوات الفضائية العربية من البرنامج الذي بعنوان (ستار أكاديمي)، واشتماله على إنشاء مدرسة لتعليم الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل، وإتيانهم بمجموعة من البنات =

. . . .

= والشباب الذكور، ويعيشون في هذا المبنى سويًّا، ويدرسون ويأكلون ويشربون وينامون في نفس المبنى، وأن القناة تقوم ببثٌ كل ما يدور في هذا المبنى مِنْ تَفَاصيل حياتهم ومزاحهم ولعبهم وتعلمهم الرَّقْص والغناء، وما يتم مِنْ تَقْبيل وضَم ومقدمات الجماع، ويشاهد هذه الأمور الملايين من الناس عبر هذه القناة، وعليه نفيدكم أن مشاهدة هذا البرنامج مُحَرَّم لا يجوز؛ لأن فيه هدمًا للأخلاق الإسلامية، وقضاءً على الحشمة والكرامة. وهؤلاء الذين يقومون على هذا البرنامج فسّاق قليلو الديانة والإيمان، وما يأخذونه من المال سُحْت حرام، وكسْبٌ خبيث، وأكل للمال بالباطل، وهو زادهم إلى النار والعياذ بالله إن لم يتوبوا من هذه الأعمال الخبيثة، وهؤلاء لا يَتَوَرَّعُون عن أكل الحرام والقضاء على أخلاق المسلمين وفضائلهم وحشمتهم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، فهؤلاء تَشَبَّهُوا بِالْكَفَرَةِ؛ حَيْثُ إنهم يحرصون على كسب المال ولا يُبَالُون مِنْ حلال أو من حرام، فإن استحلوا ذلك فَهُم كفار والعياذ بالله، وإن لم يستحلوا ذلك فهم عصاة فسقة.

ولا شك أن القائمين على هذا البرنامج فَسَقَة؛ حيث يقرون المنكر، ويكشفون عورات المسلمين، ويخرجون النساء شبه عاريات لفتنة الشباب وغيرهم، ونشر الرذيلة؛ ففي هذا البرنامج مصائب وبلايا عظيمة، ونصيحتي لأولياء الأمور وأرباب الأسر الذين يُدخلون مثل هذه القنوات إلى بيوتهم الَّتِي تَجُرّ عليهم الدمار والهلاك أن يتوبوا إلى الله وأن يقلعوا عن ذلك، ويُطَهِّرُوا بُيُوتَهُم من هذه الرذائل والبَلَايا، فكيف ترضى لأسرتك التعرُّض لمثل هذه الفتن وَهِيَ أمانة عندك ستسأل عنها يوم القيامة؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُول عن رَعِيَّتِه؛ فالإمام رَاعٍ وهو مسؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ في أهله رَاعٍ وهو مَسْؤُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، والمرأة في بيت زَوْجِهَا رَاعِيَة وَهِيَ مَسْؤُولَة عَنْ رَعِيَّتِها**».

أما من يمول هذه البرامج بالمال أو بالدعاية التجارية فيها فإنه يجب مقاطعتهم؛ حتى يمتنعوا عن الباطل والحرام، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] وهؤلاء مسؤولون عن إضاعة هذا المال لنشر الرذيلة بين المسلمين.

وعلى الأئمة والخطباء والدعاة والموجهين والمربين أن يقوموا بدورهم في توعية الناس =

. . . .

= وتحذيرهم مما يضر بدينهم ودنياهم، ومنها: مشاهدة هذا البرنامج وغيره من البرامج السيئة التي تَقْضِي عَلَى العِفَّة والفضيلة والحِشْمَةِ والْكَرَامَةِ، وعليهم أن يُذَكِّرُوا الناس بالله وبِوُقُوفِهِمْ بين يديه للحساب، وأن الله يحاسب الإنسان عما يعمله بجوارحه؛ عينه وأذنه وفؤاده ويده ورجله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

نسأل الله السلامة والعافية، ونسأل الله أن يكفي المسلمين شَرَّهُمْ وَأَنْ يردهم إلى الصواب، وأن يعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وصلى الله وسلم وبارك على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

كتبه: عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

١٤٢٥/١/٢٥

* * *

ثانيًا: سئل الشيخ العلامة عبد الرحمن البراك، فقال السائل:

كثر الكلام هذه الأيام عن ما يعرض في بعض وسائل الإعلام والقنوات الفضائية خاصة مثل برنامج (ستار أكاديمي في قناة LBC وبرنامج (Big Brother) في قناة MBC وبرنامج (على الهوا سوا) في قناة ART وبرنامج (تحدي الخوف) في قناة MBC، وتقوم فكرة هذه البرامج على اجتماع الشباب بالشابّات في معهد إعداد الفنانين -كما يسمونه- بغرض الدراسة، وعرض حياتهم اليومية كاملة ومباشرة على مدى أربع وعشرين ساعة على القنوات الفضائية، وما فيه من الاختلاط والأمور المنافية للعفة والحياء، مثل: الخلوة والتقبيل والضَّمّ، وأيضًا ما تقوم به قناة روتانا والتي من أعمالها إصدار (فيديو كليب) لمغنين ومغنيات مع عرض صور فاضحة للنساء على أشكال وهيئات مختلفة، الغرض منه تسويق بضاعتهم عن طريق إثارة الغرائز.

- ما حكم مشاهدة هذه البرامج وما شابهها؟

- ما حكم توفير وسائل مشاهدة هذه الوسائل في المنزل أو الاستراحات أو غيرها؟ وما الخطر المترتب في الدنيا والآخرة على مَنْ وَفَّرَهَا وَشَاهَدَهَا؟

- ما حكم الدعاية لمثل هذه البرامج والترويج لها في الصحف ووسائل الإعلام الأخرى؟

- كلمة توجيهية للأمة الإسلامية وتحذير لها من مثل هذه الوسائل.

وهل يدخل في مسمى «الديوث» من وضع مثل هذه القنوات في المنزل؟ =

. . . .

= فأجاب الشيخ حفظه الله تعالى:

الحمد لله .. إن من دواعي العجب والدهشة أن يُسأل عن حكم هذه البرامج وما تشتمل عليه من المنكرات وعن مشاهدتها والدعاية لها؛ فإنه لا يخفى على من عنده أدنى بصيرة وبقية من عقل ودين وفطرة سليمة قبح هذه البرامج وعظم ضررها؛ لأنها من أظهر المنكرات، ومن يستحلها فإنه معاند للشريعة أو مكذب لها، وهو إذن بهذا الاستحلال كافر. لذا أقول:

إن مشاهدة هذه البرامج المشتملة على ما ذُكر، من أنواع المنكرات والدعاية لها، وتوفير وسائلها في البيوت والاستراحات والمقاهي وغيرها، وتوفير خطوط الاتصال للمشاهدين مع القنوات التي تبث هذه البرامج .. كل ذلك حرام؛ لأنه نشر للفساد في مجتمعات المسلمين، وإفساد لها، ونشر للزنا بين الشباب والشابات، ودعوة لهم إلى الفواحش. وكل ما ينفق في هذا السبيل أو يكتسب من المال، فهو من الإنفاق في الحرام، ومن الكسب الحرام.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١، ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وبهذا يعلم أن المؤسسين لهذه القنوات والمموّلين لها والمعدّين لهذه البرامج والقائمين بها والمنفذين، كلّهم من المفسدين في الأرض، الجناة على الدين وكرامة الأمة وأعراضها، وعلى كل المشاركين في هذه القنوات والبرامج مثل آثام من أفسدوهم من =

. . . .

= المشاهدين والمتصلين لإبداء الإعجاب والترشيح، كما قال ﷺ: **«مَنْ دَعَا إلى ضلالة فعليه مثل آثام مَنْ تَبِعَهُ مِنْ غَيْرِ أن ينْقصَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيئًا»**.

وليعلم الذين يقصدون جمع الأموال بهذه الطريقة أنهم متعرضون لعقوبة الله في الدنيا والآخرة، ولمحق ما جمعوا. فيجب على الجميع التوبة إلى الله قبل فوات الأوان، كما قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

كما يجب على ولاة أمر الأمة أن يكفّوا الشر عنها ويسدّوا منافذه، ويجب على ولاة أمر الأسر أن يأخذوا على أيديهم ويحموهم مما حرم الله عليهم .. فالكل مسئول عما ائتمنه الله عليه، كما قال ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مَسْؤول عَنْ رعيته»** الحديث. (أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما).

لا يخفى أن تهيئة الوسائل لهذه المشاهد في البيوت، ثم السكوت عن إنكار مشاهدتها ومتابعتها نوع من الرضا بالخنا، فليتق الله كل مسلم، وليحذر عقوبة الله، كما وصى الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

نسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين، ويصلح ولاة أمرهم، ويرد كيد أعدائهم، إنه تعالى على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أملاه: عبد الرحمن بن ناصر البراك

٢٨/ ١/ ١٤٢٥هـ

* * *

ثم بعد ذلك بأيام أصدرت اللجنة الدائمة بيانًا في ذلك، هذا نصه:

هذا البيان صدر في تاريخ ٨/ ٢/ ١٤٢٥هـ برقم **٢٢٨٩٥**من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

(بيان في التحذير من برنامج «ستار أكاديمي» وما شابهه من البرامج)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد اطلعت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء على الاستفتاءات الواردة إليها من عدد من الغيورين عن البرنامج الذي تبثه بعض القنوات الفضائية العربية المسمى **«ستار أكاديمي»**، وما شابهه من البرامج، وبعد دراسة الموضوع رأت اللجنة تحريم بث هذه البرامج ومشاهدتها وتمويلها، والمشاركة فيها والاتصال عليها للتصويت أو لإظهار =

. . . .

= الإعجاب بها؛ وذلك لما اشتملت عليه تلك البرامج من استباحة للمحرمات المجتمع على تحريمها والمجاهرة بها؛ ففي الحديث قال ﷺ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ والمَعَازِفَ**»، رواه البخاري من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ، وعنه أنه قال: «**كُلّ أمَّتِي مُعَافًى إلا المُجَاهِرِين، وإنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَل الرَّجُلُ باللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى فَيَقُولُ: عَمِلْتُ البَارِحَة كَذا وكذَا، وقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ثُمَّ يُصْبِحُ يَكْشِفُ سَتْرَ اللهِ عَنْهُ**» رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ. وأيّ مجاهرة بالمُحَرَّمَات والفواحش تَفُوق ما تبُثّه هذه البرامج التي اشتملت على جملة من المنكرات العظيمة، من أهمها:

أولًا: الاختلاط بين الجنسين من الذكور والإناث، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفي الحديث عنه ﷺ: «**لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا**»، رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر بن الخطاب. فكيف بهذه البرامج التي تقوم فكرتها الرئيسة على خلط الجنسين من الذكور والإناث وإزالة الحواجز فيما بينهم، مع ما عليه الإناث من التبرّج والسفور وإظهار للمفاتن مما يسبب الشر والبلاء؟! وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ ... [النور: ٣١].

ثانيًا: الدعوة الصريحة للفاحشة ووسائلها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَٰحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

ثالثًا: الدعوة إلى إماتة الحياء وقتل الغيرة في قلوب المسلمين بإلْفِ مشاهدة هذه المناظر المخزية التي تهيج الغرائز وتبعد عن الأخلاق والفضائل، ففي الحديث أنه ﷺ قال: «**إن مما أدْرَكَ النَّاسُ من كَلام النبوَّةِ الأولى إذا لم تستَحِي فاصْنَعْ ما شِئْت**» رواه البخاري من حديث أبي مسعود البدري ﷺ، وعنه ﷺ أنه قال: «**الإيمان بِضْعٌ وسَبْعُونَ شُعْبَةً، والحَيَاء شُعْبَة مِنَ الإيمانِ**» متفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ وعنه ﷺ أيضًا: «**أَتَعْجَبُونَ من غَيْرَةِ سَعْدٍ، لَأَنا أغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**» رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ.

ولا يكفي في ذلك -أيها المسلم- أن تترك المشاركة في هذه البرامج والنظر إليها، بل يجب عليك النصح والتذكير لمن تعلم أنه يشارك فيها بأي وجه من الوجوه؛ لما في ذلك من التعاون على البر والتقوى، والتناهي عن الإثم والعدوان. كما تدعو اللجنة التجار الممولين لهذه البرامج أن يتقوا الله تعالى فيما منَّ الله عليهم من نعمة الأموال؛ =

. . . .

= فلا يستخدموها فيما يُدَمِّر شباب الأمة، ويَهْدِمُ شعائر الدين، ويخدم أعداء الإسلام؛ فإن ذلك من كفران النعم، وهو سبب في زوالها.

ولا يخفى أن هذه البرامج وأمثالها هي من أسباب جلب المصائب والبلايا على الإسلام والمسلمين، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشُّورى: ٣٠]. وفي الصحيحين من حديث زينب رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعًا يقول: «لا إله إلا اللهُ، وَيْلٌ للعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصَّالحون؟ قال: «نعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخبَثُ».

نسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يَعْصِمَنَا وسائر المسلمين مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَنِ ما ظَهَرَ منها وما بطن، وأن لا يؤاخذنا بما فَعَلَ السفهاء منا، وأن يُرِيَنَا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء

الرئيس/ عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ

عضو/ صالح بن فوزان الفوزان — عضو/ عبد الله بن عبد الرحمن الغديان

عضو/ عبد الله بن محمد المطلق

عضو/ عبد الله بن علي الركبان — عضو/ أحمد بن علي المباركي

٣٨٥- الأشراط الصغرى للساعة (٢)
كثرة القتل

١٢/ ٢/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَرَادَ اللهُ ﷻ خَلْقَ الْبَشَرِ، وَاسْتِخْلَافَهُمْ فِي الْأَرْضِ، أَخْبَرَ مَلَائِكَتَهُ بِذَلِكَ، فَظَنَّ المَلَائِكَةُ ﵈ أَنَّ هَذَا المَخْلُوقَ المُسْتَخْلَفَ سَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ، وَسَيُكْثِرُ الْقَتْلَ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنَّ المَلَائِكَةُ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وَالمَلَائِكَةُ لَا يَعْلَمُونَ

الْغَيْبَ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا الْمَخْلُوقَ الْمُسْتَخْلَفَ سَيُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ طَبِيعَةِ خَلْقِهِ، وَكَوْنِهِ ذَا شَهْوَةٍ. وَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِالْفَسَادِ، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوا(١).

---

(١) ذكر الطاهر ابن عاشور أن الملائكة عليهم السلام تفرّسوا ذلك في بني آدم، وردّ ما قاله بعض المفسرين من احتمال اطلاع الملائكة على اللوح المحفوظ، أو قياس فعلهم على فعل أمة تَقَدَّمَت وانقرضت، أو قياسهم على الوحوش المفترسة الموجودة في الأرض قبل خلق آدم عليه السلام كما في سفر التكوين من التوراة. التحرير والتنوير (١/ ٤٠٣).
قلت: لعل الملائكة علموا ذلك من طبيعة البشر الشهوانية، وكون آدم خُلِقَ أجوف، كما عرف إبليس ذلك، ودليل ذلك ما رواه مسلم (٢٦١١)، وأحمد (٣/ ١٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما صَوَّرَ الله آدم في الجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شاءَ الله أن يَتْرُكَهُ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلمَّا رآه أجْوَف عَرَفَ أنه خلق خلقًا لا يتمالك**».
قال القرطبي في المفهم (٦/ ٥٩٦): «يعني أن الله تعالى لما صَوَّرَ طينة آدم وشكلها بشكله على ما سبق في علمه، فلما رآها إبليس طاف بها، أي: دار حولها، وجعل ينظر في كيفيتها وأمْرِها، فلما رآها ذات جوف وقَعَ له أنها مفتقرة إلى ما يسد جوفها، وأنها لا تتمالك عند تحصيل ما تحتاج إليه من أغراضها وشهواتها، فكان الأمر على ما وقع» اهـ.
ولم أقف على من استدل بهذا الحديث من المفسرين على هذه المعنى الذي ذكرته. وقد يرد عليه أن الله تعالى أعلم ملائكته بذلك قبل تصوير آدم، وهذا الإيراد لا يسلم به؛ لأن الآية ليس فيها ما يدل على ذلك، وحديث أنس السالف ذكره أفاد أمرين مهمين:
الأول: أن آدم عليه السلام لما صوره الله تعالى مكث مدة مجندلًا لم تنفخ فيه الروح، وفيها طاف به إبليس، ولا يُعلم مقدار هذه المدة.
الثاني: أن إبليس استدل على ضعف آدم بتجويفه الذي يحتاج معه إلى شهوات الطعام والشراب، فتسلط عليه من قبل شهوة الأكل من الشجرة التي نهاه الله تعالى عنها.
وإذا كان إبليس قد وصل إلى آدم وهو مجندل قبل نفخ الروح فيه، وطاف به، وهو أقل منزلة من الملائكة، فليس ثمة مانع أن يكون الملائكة رأوا آدم كذلك، وعرفوا أنه أجوف يحتاج إلى ملء جوفه بالشهوات، فلما أخبرهم الله تعالى بأنه سيجعل في الأرض خليفة وقع لهم أنه هذا المصور الذي لم ينفخ الله تعالى الروح فيه، واستدلوا بذلك على أن الفساد في الأرض وسفك الدماء سيقع منه أو من ذريته، والله تعالى أعلم.

وَأَوَّلُ دَمٍ سُفِكَ فِي الْأَرْضِ دَمُ ابنِ آدَمَ الَّذِي قَتَلَهُ أَخُوهُ، فَبَاءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِ مَنْ قُتِلَ بَعْدَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ إِثْمِ الْقَاتِلِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ فِي بَنِي آدَمَ.

وَإِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ مِنْ نِهَايَتِهِ تَسَارَعَتِ الْأَيَّامُ، وَتَوَالَتِ الْأَحْدَاثُ، وَعَظُمَتِ الْفِتَنُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي النَّاسِ.

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، وَأَخْبَرَ عَنِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي تَقَعُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، وَعَنِ الْفِتَنِ وَأَنْوَاعِهَا، وَبَيَّنَ المَخْرَجَ مِنْهَا، وَأَمَرَ بِالْبُعْدِ عَنْهَا، يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ ذَلِكَ، وَيُبَيِّنُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ لِلْخُلُوصِ وَالنَّجَاةِ.

وَمِمَّا أَخْبَرَ عَنْهُ ﷺ: مَا يَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ، وَأَمَارَاتِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ: كَثْرَةُ الْقَتْلِ فِي الْبَشَرِ، كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ الهَرْجُ**»، قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الْقَتْلُ، الْقَتْلُ**»[٢].

وَأَصْلُ الهَرْجِ: الْكَثْرَةُ فِي الشَّيْءِ حَتَّى لَا يَتَمَيَّزَ[٣]، فَتَكُونُ الْكَثْرَةُ فِي الْقَتْلِ فَاحِشَةً لَا تَمْيِيزَ فِيهَا بَيْنَ الْمُقَاتِلِ وَغَيْرِ الْمُقَاتِلِ، وَبَيْنَ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْقَتْلَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَسُمِّيَ الْقَتْلُ بِالْهَرْجِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِسَبَبِ اخْتِلَاطِ الْأَمْرِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ صَرَاحَةً مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي**

---

(٢) أخرجه البخاري في الفتن، باب ظهور الفتن (٧٠٦١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨).

(٣) ينظر: اللسان، مادة هرج (٢/ ٣٨٩)، والنهاية لابن الأثير (٥/ ٢٥٦).

الْقَاتِلُ فِيمَا قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَا قُتِلَ» فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «**الْهَرْجُ، الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»(٤).

وَالْقَتْلُ يَكُونُ بِالْحَقِّ كَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَحِمَايَةِ الثُّغُورِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَيْسَ مُرَادًا مِنَ الْأَحَادِيثِ، أَوْ يَكُونُ بِالْبَاطِلِ كَالِاخْتِلَافِ الَّذِي يَنْشَأُ عَنِ الْأَهْوَاءِ، وَإِعْجَابِ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَيَكُونُ مُنْتَهَاهُ رَفْعَ السِّلَاحِ وَالِاقْتِتَالَ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِالْأَحَادِيثِ الَّتِي أَفَادَتْ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْقَتْلِ يَكْثُرُ قُرْبَ السَّاعَةِ.

وَأَوَّلُ مَا وَقَعَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ خِلَافَةِ عُمَرَ رضي الله عنه ثُمَّ مَقْتَلِ عُثْمَانَ رضي الله عنه، فَاخْتَلَفَتِ الْأُمَّةُ وَانْشَقَّتْ إِلَى صَفَّيْنِ يَقْتَتِلَانِ، ثُمَّ صَارَ الْقَتْلُ فِي ازْدِيَادٍ، وَكُلُّ زَمَانٍ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ، وَكَثُرَتِ الْفِتَنُ، وَاسْتُسْهِلَ أَمْرُ الْقَتْلِ، فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ وَالْخِلَافِ يَسْعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَتْلِ صَاحِبِهِ دُونَمَا حَرَجٍ، فَيُؤَدِّي خِلَافُهُمْ وَخِصَامُهُمْ إِلَى قَتْلِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُمْ، أَوْ يُشَارِكُهُمْ فِي قِتَالِهِمْ مَنْ لَا يَفْهَمُ قَضِيَّتَهُمْ؛ إِمَّا عَصَبِيَّةً أَوْ تَقْلِيدًا أَعْمَى عَلَى غَيْرِ هُدًى، وَمِنْ هُنَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ: «**لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَا قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَا قُتِلَ**».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ الْأَهْوَاءَ تَغْلِبُ، وَالْهَرْجُ وَالْقَتْلُ يَكْثُرُ، وَيُسْتَسْهَلُ، حَتَّى لَا يُبَالَى بِهِ، فَيَكُونُ قَتْلُ الْمُسْلِمِ عِنْدَ قَاتِلِهِ كَقَتْلِ نَمْلَةٍ»(٥).

إِنَّ فَارُوقَ هَذِهِ الْأُمَّةِ عُمَرَ رضي الله عنه كَانَ بَابًا دُونَ الْفِتَنِ وَالْأَهْوَاءِ، وَبِقَتْلِهِ كُسِرَ الْبَابُ، فَدَخَلَ عَلَى الْأُمَّةِ شَرٌّ كَثِيرٌ، وَفِتَنٌ مُتَلَاحِقَةٌ مُتَلَاطِمَةٌ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه: «وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا -أَيِ: الْفِتَنَ-

---

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩٠٨).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٢١٥).

بَابًا مُغْلَقًا يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ»، قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «أَكَسْرًا لَا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أَنَّهُ فُتِحَ لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ»، قَالَ حُذَيْفَةُ: «لَا، بَلْ يُكْسَرُ»، وَحَدَّثْتُهُ «أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ»[٦].

وَقَالَ رَجُلٌ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه: «يَا أَبَا سُلَيْمَانَ اتَّقِ اللهَ، فَإِنَّ الْفِتَنَ قَدْ ظَهَرَتْ، قَالَ: أَمَّا وابْنَ الخَطَّابِ حَيٌّ فَلَا، إِنَّمَا تَكُونُ بَعْدَهُ، فَيَنْظُرُ الرَّجُلُ فَيُفَكِّرُ هَلْ يَجِدُ مَكَانًا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ مِثْلُ مَا نَزَلَ بِمَكَانِهِ الَّذِي هُوَ به مِنَ الْفِتْنَةِ وَالشَّرِّ، فَلَا يَجِدُ، فَتِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكَنَا وَإِيَّاكُمْ تِلْكَ الْأَيَّامُ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ[٧].

وَكَثْرَةُ الْقَتْلِ تَنْشَأُ عَنِ الِاخْتِلَافِ، وَالْأَهْوَاءُ سَبَبُ الِاخْتِلَافِ، وَتَنْتَشِرُ الْأَهْوَاءُ إِذَا سَادَ الْجَهْلُ فِي النَّاسِ وَقَلَّ الْعِلْمُ، وَضَعُفَ الْعَمَلُ؛ وَجَاءَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي أَحَادِيثِ كَثْرَةِ الْهَرْجِ.

وَقَدْ عَلَّقَ ابْنُ بَطَّالٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى الْحَدِيثِ، فَقَالَ: «وَقَدْ رَأَيْنَا هَذِهِ الْأَشْرَاطَ عِيَانًا وَأَدْرَكْنَاهَا، فَقَدْ نَقَصَ الْعِلْمُ، وَظَهَرَ الْجَهْلُ، وَأُلْقِيَ بِالشُّحِّ فِي الْقُلُوبِ، وَعَمَّتِ الْفِتَنُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ»[٨]، وَهُوَ رحمه الله قَدْ عَاشَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ، ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاثَةِ قُرُونٍ وَنِصْفٍ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَالْوَاقِعُ أَنَّ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةَ وُجِدَتْ مَبَادِيهَا مِنْ عَهْدِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ صَارَتْ تَكْثُرُ فِي بَعْضِ الْأَمَاكِنِ دُونَ بَعْضٍ، وَالَّذِي يَعْقُبُهُ قِيَامُ السَّاعَةِ اسْتِحْكَامُ ذَلِكَ . . . وَقَدْ

---

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين (١٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٤٢١٨).

(٧) أخرجه أحمد (٤/ ٩٠)، والطبراني في الكبير (٤/ ١١٦) برقم (٣٨٤١)، وفي الأوسط (٨٤٧٩)، وحسنه الحافظ في الفتح (١٣/ ١٧).

(٨) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ١٣).

مَضَى مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابنُ بَطَّال مَا قَالَ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَالصِّفَاتُ المَذْكُورَةُ فِي ازْدِيَادٍ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، لَكِنْ يَقِلُّ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيَكْثُرُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَكُلَّمَا مَضَتْ طَبَقَةٌ ظَهَرَ النَّقْصُ الْكَثِيرُ فِي الَّتِي تَلِيهَا»(٩).

وَتَكْثُرُ الْفِتَنُ، وَيَخْتَلِطُ الْأَمْرُ، وَيَفْشُو الْهَرْجُ، حَتَّى يُغْبَطَ أَهْلُ الْقُبُورِ، وَيَتَمَنَّى الْمُؤْمِنُ المَوْتَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ عَالِمًا يُقْتَدَى بِهِ، وَرَأْسًا فِي النَّاسِ يُنْظَرُ إِلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَهُ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠).

وَإِنَّمَا يَقَعُ تَغَبُّطُ أَهْلِ الْقُبُورِ وَتَمَنِّي المَوْتِ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ عِنْدَ انْتِشَارِ الْفِتَنِ؛ خَوْفًا مِنْ ذَهَابِ الدِّينِ بِغَلَبَةِ الْبَاطِلِ وَأَهْلِهِ، وَظُهُورِ المَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ، وَضَعْفِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ(١١).

وَأَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَاصَرَ شَيْئًا مِنَ الْفِتَنِ، وَرَأَى كَثْرَةَ الاخْتِلَافِ وَالتَّفَرُّقِ، وَغَلَبَةَ الْجَهْلِ وَالْهَوَى الَّذِي اسْتَتْبَعَهُ كَثْرَةُ الْقَتْلِ، حَتَّى تَمَنَّى المَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ، فَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَالَ: «عُدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ فَسَنَدْتُهُ إِلَى صَدْرِي، ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ اشْفِ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تُرْجِعْهَا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ يَا أَبَا سَلَمَةَ أَنْ تَمُوتَ فَمُتْ»، فَقُلْتُ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّا لَنُحِبُّ الْحَيَاةَ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ، لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْعُلَمَاءِ زَمَانٌ المَوْتُ أَحَبُّ إِلَى أَحَدِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ، لَيَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْرَ

---

(٩) فتح الباري (١٣/ ١٩).

(١٠) أخرجه البخاري في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يغبط أهل القبور (٧١١٥)، واللفظ له، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (١٥٧).

(١١) ذكر ذلك ابن بطال (١٠/ ٥٨)، ونقله عنه الحافظ في الفتح (١٣/ ٨١).

أَخِيهِ فَيَقُولُ: لَيْتَنِي مَكَانَهُ» قَالَ الْحَاكِمُ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ(١٢).

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: «يُوشِكُ أَنْ تَمُرَّ الْجِنَازَةُ فِي السُّوقِ عَلَى الْجَمَاعَةِ، فَيَرَاهَا الرَّجُلُ، فَيَهُزَّ رَأْسَهُ، فَيَقُولَ: يَا لَيْتَنِي مَكَانَ هَذَا، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الصَّامِتِ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ؟ قَالَ: أَجَلْ»(١٣).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا بِحِفْظِهِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يُحْسِنَ خَوَاتِيمَنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(١٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٣٣٧)، والخطابي في العزلة (٧٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٨٤)، والداني في الفتن (١٧٩ و٢٣٢)، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم (٤/ ٥١٨)، وعزاه الحافظ في الإصابة لابن أبي الدنيا في المحتضرين، وصححه (٧/ ٤٤٣).

(١٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨١).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَأَطِيعُوهُ، وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ، فَلَا تَعْصُوهُ، فَإِنَّ النَّجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِتَقْوَاهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: هَذِهِ الْفِتَنُ الَّتِي وَقَعَتْ مُنْذُ أَوَاخِرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ وَإِلَى يَوْمِنَا هَذَا، قَدْ أَخْبَرَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَحَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنْهَا، وَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ فِي مُوَاجَهَتِهَا، رَوَى أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَفَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنِّي لَأَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٤].

وَكَانَ مِنْ فِقْهِ الصَّحَابَةِ وَعِلْمِهِمْ، وَوَرَعِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ أَنَّهُمْ تَمَسَّكُوا بِوَصَايَا النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَجَانَبُوا الْفِتَنَ، وَاعْتَزَلُوا أَهْلَهَا، بَلْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ ضَحَّى بِنَفْسِهِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا، أَوْ أَنْ يَكُونَ هُوَ سَبَبًا لَهَا. قَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه»رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ[١٥].

وَعُثْمَانُ رضي الله عنه مَا فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا امْتِثَالًا لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَمَا قَالَ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**»، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ قَالَ: «**كُنْ كَابْنِ آدَمَ**»[١٦].

---

(١٤) أخرجه البخاري في الفتن، باب قول النبي ﷺ: «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ**» (٧٠٦٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٥).

(١٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٠).

(١٦) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الفتن، باب تكون فتن القاعد فيها خير =

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَارًا وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ، وَقَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟**» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**تَعَفَّفْ**».

= من القائم (٧٠٨١)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب نزول الفتن كمواقع القطر (٢٨٨٦).

والحديث الثاني أخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: أحمد (١/ ١٨٥)، وأبو يعلى (٧٥٠)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، وحسنه (٢١٩٤)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في شرحه على المسند (١٤٤٦-١٦٠٩).

قال الحافظ في الفتح: «وفيه التحذير من الفتنة، والحث على اجتناب الدخول فيها، وأن شرها يكون بحسب التعلق بها، والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلم المحق من المبطل، قال الطبري: اختلف السلف، فحمل ذلك بعضهم على العموم، وهم من قعد عن الدخول في القتال بين المسلمين مطلقًا؛ كسعد، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي بكرة في آخرين، وتمسكوا بالظواهر المذكورة وغيرها، ثم اختلف هؤلاء فقالت طائفة بلزوم البيوت، وقالت طائفة: بل بالتحول عن بلد الفتن أصلًا، ثم اختلفوا؛ فمنهم من قال: إذا هجم عليه شيء من ذلك يكف يده ولو قتل، ومنهم مَنْ قال: بل يدافع عن نفسه وعن ماله وعن أهله، وهو معذور إن قَتَل أو قُتِلَ، وقال آخرون: إذا بغت طائفة على الإمام، فامتنعت من الواجب عليها، ونصبت الحرب، وجب قتالها، وكذلك لو تحاربت طائفتان وجب على كل قادر الأخذ على يد المخطئ، ونصر المصيب، وهذا قول الجمهور، وفَصَّلَ آخرون فقالوا: كل قتال وقع بين طائفتين من المسلمين حيث لا إمام للجماعة، فالقتال حينئذ ممنوع، وتنزل الأحاديث التي في هذا الباب وغيره على ذلك، وهو قول الأوزاعي. قال الطبري: والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها الابتلاء، وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها. وذهب آخرون إلى أن الأحاديث وردت في حق أناس مخصوصين، وأن النهي مخصوص بمن خوطب بذلك، وقيل: إن أحاديث النهي مخصوصة بآخر الزمان؛ حيث يحصل التحقق أن المقاتلة إنما هي في طلب الملك، وقد وقع في حديث ابن مسعود الذي أشرت إليه: «قلت: يا رسول الله، ومتى ذلك؟ قال: **أيام الهرج**، قلت: متى؟ قال: **حين لا يأمن الرجل جليسه**» اهـ (١٣/ ٣٤-٣٥)

قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتٌ شَدِيدٌ حتى يَكُونَ الْبَيْتُ بِالْعَبْدِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟» قال: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «اصْبِرْ، يَا أَبَا ذَرٍّ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى تَغْرَقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ -مَوْضِعٌ بِالمَدِينَةِ- مِنَ الدِّمَاءِ، كَيْفَ تَصْنَعُ؟» قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «اقْعُدْ فِي بَيْتِكَ، وَأَغْلِقْ عَلَيْكَ بَابَكَ». قَالَ: فَإِنْ لَمْ أُتْرَكْ؟ قَالَ: «فَأْتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُ، فَكُنْ فِيهِمْ» قَالَ: فَآخُذُ سِلَاحِي؟ قَالَ: «إِذَنْ تُشَارِكَهُمْ فِيهِ، وَلَكِنْ إِنْ خَشِيتَ أَنْ يَرُوعَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ، فَأَلْقِ طَرْفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ حَتَّى يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ» رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٧).

تِلْكَ هِيَ وَصِيَّةُ الرَّسُولِ ﷺ لِمَنْ أَدْرَكَ زَمَنَ الْفِتَنِ، وَرَأَى كَثْرَةَ الْقَتْلِ فِي النَّاسِ، مَنْ أَخَذَ بِهَذِهِ الْوَصِيَّةِ كَانَ مِنَ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَالَفَهَا أَصَابَهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتْنَةِ بِقَدْرِ مُخَالَفَتِهِ لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَاحْذَرُوا الْفِتَنَ، وَجَانِبُوا سُبُلَهَا وَأَهْلَهَا، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ..

❁ ❁ ❁

---

(١٧) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٣)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٧٢٩)، والطيالسي (٤٥٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٦١)، وابن ماجه في الفتن، باب التَّثَبُّت في الفتنة (٣٩٥٨)، والبغوي في شرح السنة (٤٢٢٠)، وصححه ابن حبان (٥٩٦٠)، والحاكم، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٢/ ١٦٩).

٣٨٦- الأشراط الصغرى للساعة (٣) الزلازل والخسف والقذف والمسخ

١٦/ ١/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: مِنْ دَلَائِلِ إِيمَانِ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ: إِيمَانُهُ بِالْغَيْبِ، وَمِنَ الْبَرَاهِينِ عَلَى كُفْرِهِ: كُفْرُهُ بِالْغَيْبِ، أَوْ شَكُّهُ فِيهِ.

وَالنَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَخْبَرَ عَنْ غَيْبٍ مَضَى وَانْتَهَى؛ كَالْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْغَابِرَةِ، وَأَخْبَرَ ﷺ عَمَّا يَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ حَتَّى إِنَّهُ ﷺ خَطَبَ فِي أَصْحَابِهِ يَوْمًا كَامِلًا مِنْ طُلُوعِ شَمْسِهِ إِلَى غُرُوبِهَا يُخْبِرُهُمْ بِمَا سَيَقَعُ، لَمْ يَقْطَعْ خُطْبَتَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ: صَلَوَاتِ الظُّهْرِ

وَالْعَصْرِ وَالمَغْرِبِ، قَالَ الرَّاوِي: «فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١).

وَرَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَقَدْ خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ خُطْبَةً مَا تَرَكَ فِيهَا شَيْئًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا ذَكَرَهُ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ، إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الشَّيْءَ قَدْ نَسِيتُهُ، فَأَعْرِفُهُ كَمَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ إِذَا غَابَ عَنْهُ فَرَآهُ فَعَرَفَهُ»(٢).

وَكُلُّ مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَخْبَارِ المُسْتَقْبَلِ فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، فَإِنْ أَدْرَكَ المُؤْمِنُ وُقُوعَ بَعْضِ مَا أَخْبَرَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ زَادَهُ ذَلِكَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِ، وَإِنْ قَضَى قَبْلَ ذَلِكَ لَقِيَ اللهَ ﷻ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِالْغَيْبِ.

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: مَا أَخْبَرَ عَنْ وُقُوعِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ مِنْ كَثْرَةِ الزَّلَازِلِ وَالصَّوَاعِقِ، وَحُدُوثِ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالمَسْخِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ: ذُنُوبُ الْعِبَادِ، وَمُجَاهَرَتُهُمْ بِهَا، وَتَعْطِيلُ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّمَا تَقَادَمَ عَهْدُ النُّبُوَّةِ ازْدَادَ شَرُّهُمْ، وَقَلَّ خَيْرُهُمْ، وَلَا يَأْتِي عَلَيْهِمْ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، كَمَا صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ(٣).

---

(١) أخرجه من حديث عمرو بن أخطب رضي الله عنه: مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢١٨٣)، والطبراني في الكبير (١٧/٢٨) برقم (٤٦)، وابن حبان (٦٦٣٨)، والحاكم (٤/٥٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في القدر، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] (٦٢٣٠)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب إخبار النبي ﷺ فيما يكون إلى قيام الساعة (٢٨٩١) واللفظ للبخاري.

(٣) عن الزبير بن عدي قال: «أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: اصبروا؛ فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرّ منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ» أخرجه البخاري في الفتن، باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه (٦٦٥٧).

فَأَمَّا كَثْرَةُ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَجَاءَ فِيهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ»** رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٤).

وَالزَّلَازِلُ تَقَعُ بَيْنَ حِينٍ وَحِينٍ فِي بِلَادٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَأَجْزَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ مُنْذُ قَدِيمِ الزَّمَانِ، كَمَا دُوِّنَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ التَّوَارِيخِ، لَكِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ: شُمُولُ الزَّلَازِلِ وَدَوَامُهَا(٥).

وَيَكُونُ ذَلِكَ قُرْبَ السَّاعَةِ، فَإِذَا كَثُرَتِ الزَّلَازِلُ وَانْتَشَرَتْ عُلِمَ أَنَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ، وَيَسْبِقُ ذَلِكَ مَوْتٌ كَثِيرٌ فِي النَّاسِ؛ إِمَّا بِالْحُرُوبِ أَوِ الْأَوْبِئَةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ السَّكُونِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مُوتَانٌ شَدِيدٌ، وَبَعْدَهُ سَنَوَاتُ الزَّلَازِلِ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ(٦).

---

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات (٩٨٩).

(٥) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٤)، وأبو يعلى (٦٨٦١)، والدارمي (٥٥)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٤٦١)، والطبراني في الكبير (٧/ ٥١) برقم (٦٣٥٦)، وصححه ابن حبان (٦٧٧٧) والحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الذهبي: الخبر من غرائب الصحاح (٤/ ٤٩٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠٦): «ورجاله ثقات».
والموتان على وزن البطلان: هو الموت الكثير الوقوع، ينظر: النهاية (٣/ ٣٧٠)، واللسان (٢/ ٩٣).
وذكر الحافظ أنه بضم الميم وسكون الواو، ثم ذكر أنه بالضم لغة تميم، وغيرهم يفتحونها، ويقال للبليد: «مَوْتان القلب» بفتح الميم والسكون، ثم نقل الحافظ عن ابن الجوزي قوله: «يغلط بعض المحدثين فيقول: مَوَتان بفتح الميم والواو، وإنما ذاك اسم الأرض التي لم تحيى بالزرع والإصلاح»، ثم ذكر الحافظ أنه ورد في رواية ابن السكن: «ثم موتتان» بلفظ التثنية، قال: «وحينئذ فهو بفتح الميم» اهـ من الفتح (٦/ ٢٧٨).

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ تِلْكَ الزَّلَازِلَ الَّتِي أَخْبَرَتِ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تَكُونُ بَعْدَ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَحُكْمِهِ بِالْإِسْلَامِ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اعْدُدْ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِتًّا: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ**» وَقُعَاصُ الْغَنَمِ هُوَ دَاءٌ يُفْنِيهَا[(٧)].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي، فَقَالَ: «**يَا ابْنَ حَوَالَةَ، إِذَا رَأَيْتَ الْخِلَافَةَ قَدْ نَزَلَتِ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ، فَقَدْ دَنَتِ الزَّلَازِلُ وَالْبَلَايَا وَالْأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ إِلَى النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَالذَّهَبِيُّ[(٨)].

وَيَقْتَرِنُ مَعَ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ: كَثْرَةُ الصَّوَاعِقِ أَيْضًا؛ كَمَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**تَكْثُرُ الصَّوَاعِقُ عِنْدَ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، حَتَّى يَأْتِيَ الرَّجُلُ الْقَوْمَ فَيَقُولُ: مَنْ صُعِقَ تِلْكُمُ الْغَدَاةَ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ وَفُلَانٌ**»[(٩)].

---

(٧) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥)، والبخاري في الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥)، وابن منده في الإيمان (١٠٠٠)، والطبراني في مسند الشاميين (٧٨٨-٩٣٤)، والبيهقي (٩/ ٢٢٣)، واستدركه الحاكم مطولًا (٤/ ٤٦٩)، وقال: لم يخرجاه بهذه السياقة.
والقُعاص -بضم القاف-: داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت، قاله أبو عبيد كما في الغريب لابن الجوزي (٢/ ٢٥٦)، وينظر: النهاية (٤/ ٨٨).

(٨) أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٨)، وأبو داود في الجهاد، باب في الرجل يغزو يلتمس الأجر والغنيمة (٢٥٣٥)، وأبو يعلى (٦٨٦٧)، والبيهقي (٩/ ١٦٩)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٠١٩)، والضياء المقدسي في المختارة (٢٣٨-٢٣٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي(٤/ ٤٧١).

(٩) أخرجه أحمد (٣/ ٦٣)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٧٩٥)، =

وَأَمَّا الْخَسْفُ وَالمَسْخُ وَالْقَذْفُ، فَهَذِهِ الثَّلَاثُ نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنْهَا، قَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ وُقُوعِهَا مُجْتَمِعَةً فِي أَحَادِيثَ عِدَّةٍ، مِنْهَا: مَا رَوَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَكُونُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ**، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا ظَهَرَ الخَبَثُ**» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ(١٠).

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مَسْخٌ وَخَسْفٌ وَقَذْفٌ**»(١١).

= وأبو الشيخ في العظمة (٧٨٧)، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي: عمارة ثقة لم يخرجوا له (٤/ ٤٩١)
قلت: عمارة هو ابن مهران المعولي أبو سعيد البصري، قال الحافظ: لا بأس به، التقريب (١٣٥)، وفي سنده محمد بن مصعب القرقسائي، صدوق كثير الغلط كما في التقريب (٣١٩)، وضعفه به الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩).

(١٠) أخرجه الترمذي في الفتن، باب ما جاء في الخسف (٢١٨٥)، وأبو يعلى (٤٦٩٣)، وقال الترمذي: «هذا حديث غريب من حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن عمر تكلم فيه يحيى بن سعيد من قبل حفظه» اهـ.
وله شاهد من حديث ابن عمر ﵄ عند: ابن ماجه (٤٠٦١)، والحاكم وقال: إن كان أبو الزبير سمع من عبد الله بن عمر فإنه صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي: على شرط مسلم (٤/ ٢٩٢).
وجاء عن أبي سعيد وسهل بن سعد وأبي هريرة وغيرهم ﵃، والحديث الذي يليه شاهد له، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٥٦).

(١١) أخرجه ابن ماجه في الفتن، باب الخسوف (٤٠٥٩)، وأعله البوصيري في مصباح الزجاجة بالانقطاع بين سيار أبي الحكم وطارق بن شهاب (٤/ ١٩٨)، وتعقبه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٨٧) بقوله بعد ذكر إعلال البوصيري: «وليس بشيء؛ لأنه بناه على أن سيارًا هذا هو أبو الحكم، وليس به، نعم كان بشير بن سليمان الراوي عن سيار يقول فيه أحيانًا: سيار أبو الحكم، وهو وهم منه، كما قال أحمد وغيره، وهو في هذا الحديث لم يهم كما ترى، ولو وهم لبين وهمه، فلا يُعَلُّ بالانقطاع كما هو ظاهر، ثم إن للحديث =

وَالْخَسْفُ هُوَ: سُؤُوخُ الْأَرْضِ بِمَا عَلَيْهَا، يُقَالُ: خَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ خَسْفًا؛ أَيْ: غَابَ بِهِ فِيهَا، وَمِنْهُ مَا وَقَعَ لِقَارُونَ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١](١٢).

وَالْقَذْفُ هُوَ: الرَّمْيُ مِنَ السَّمَاءِ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ، كَمَا حَصَلَ لِقَوْمِ لُوطٍ وَجَيْشِ أَبْرَهَةَ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤-٥].

وَالمَسْخُ هُوَ: تَغَيُّرُ الْهَيْئَةِ وَالصُّورَةِ إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى(١٣)، كَمَا مُسِخَ عُصَاةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ الثَّلَاثَةِ: الْخَسْفِ، وَالمَسْخِ، وَالْقَذْفِ؛ تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ لَا نُدْرِكَهَا.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ هَذَا الْخَسْفَ يُصِيبُ قَبَائِلَ كَامِلَةً فَتَبْتَلِعُهُمُ

= شواهد كثيرة تشهد لصحته عن عائشة، وعمران بن حصين، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو، وسهل بن سعد، وجابر بن عبد الله، وأبي هريرة، وسعيد بن راشد» اهـ.
ثم ساق الألباني -رحمه الله تعالى- هذه الشواهد، وضعفه السيوطي في الجامع الصغير (٣١٧٦)، لكن صححه الألباني بشواهده المذكورة في صحيح الجامع (٢٨٥٦).

(١٢) ينظر: لسان العرب (٣/ ٢٧) مادة «سوخ».

(١٣) قال في القاموس: مسخه كمنعه: حَوَّلَ صورته إلى أخرى أقبح (١/ ٣٣٢)، وقال المُناوي في التوقيف على مهمات التعاريف (١/ ٦٥٥): «المسخ ضربان: مسخ خاص يحصل نادرًا وهو مسخ الخلق، ومسخ يحصل في كل زمن وهو مسخ الخُلق؛ وذلك أن يصير الإنسان متخلقًا بخلق ذميم من أخلاق الحيوان» وينظر: اللسان (٣/ ٥٥) مادة «مسخ».
وذهب بعض أهل التفسير إلى أن مسخ بني إسرائيل كان مسخًا لقلوبهم، لكن الصواب أنه مسخ حقيقي لصورهم، كما هو ظاهر الآية القرآنية، وهو قول جماهير أهل التفسير، فلا يُلْتَفَتُ إِلَى مَنْ أَوَّلَهُ، والله أعلم.

الْأَرْضُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ صَحَّارٍ الْعَبْدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْسَفَ بِقَبَائِلَ، فَيُقَالُ: مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي فُلَانٍ؟**» قَالَ: فَعَرَفْتُ حِينَ قَالَ قَبَائِلَ، أَنَّهَا الْعَرَبُ؛ لِأَنَّ الْعَجَمَ تُنْسَبُ إِلَى قُرَاهَا. رَوَاهُ أَحْمَدُ(١٤).

وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ عَلَامَاتِ قُرْبِ السَّاعَةِ: الْخَسْفَ بِجَيْشٍ قُرْبَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِقَوْمٍ قَدْ خُسِفَ فِيهِمْ هَهُنَا قَرِيبًا فَقَدْ أَظَلَّتِ السَّاعَةُ**»(١٥).

وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ الَّذِي يُخْسَفُ بِهِ يَكُونُ قَاصِدًا مَكَّةَ عَقِبَ ظُهُورِ الْمَهْدِيِّ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَنْتَهِي الْبُعُوثُ عَنْ غَزْوِ بَيْتِ اللَّهِ ﷻ حَتَّى يُخْسَفَ بِجَيْشٍ مِنْهُمْ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ(١٦).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَغْزُو**

---

(١٤) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٣-٥/ ٣١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٥٩)، وأبو يعلى (٦٨٣٤)، والطبراني في الكبير (٨/ ٧٣) برقم (٧٤٠٤)، وأبو عمرو الداني في الفتن (٣٤٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٥٢)، وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٩)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٤٩٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٩): «ورجاله ثقات».

(١٥) أخرجه من حديث بُقَيْرَةَ الهِلَالية امرأة القعقاع بن أبي حدرد رضي الله عنهما: أحمد (٦/ ٣٧٨-٣٧٩)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٠٣) برقم (٥٢٢-٥٢٣)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجال أحد إسنادي أحمد رجال الصحيح» مجمع الزوائد (٨/ ٩)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٧٠١)، ثم الألباني في صحيح الجامع (٦١٨).
وأخرجه من حديث مليكة بنت عمرو الأنصارية رضي الله عنها: ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣٤٨٠).

(١٦) أخرجه النسائي في مناسك الحج، باب حرمة الحرم (٥/ ٢٠٦)، والفاكهي في أخبار مكة (٧٥٣)، وتمام الرازي في فوائده (٧٠١)، والحاكم وقال: صحيح غريب ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤/ ٤٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٤٦٤)، وفي السلسلة الصحيحة (٢٤٣٢).

جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ، قَالَ: «**نَعَمْ، فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ مَصَادِرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»(١٧).

نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ مِنْ تَحَوُّلِ عَافِيَتِهِ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِهِ، وَمِنْ جَمِيعِ سَخَطِهِ، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَحْفَظَنَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ، وَأَنْ لَا يُعَذِّبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلَا بِمَا فَعَلَ سُفَهَاؤُنَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ..

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

---

(١٧) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما ذكر في الأسواق (٢٠١٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٤).

﴿۞ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٤، ٢٥].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مَعْرِفَةُ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالمَلَاحِمِ، وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، دُونَ التَّكَلُّفِ فِي تَنْزِيلِهَا عَلَى الْوَاقِعِ؛ يَزِيدُ إِيمَانَ الْمُؤْمِنِ بِرَبِّهِ، وَيُثَبِّتُ قَلْبَهُ فِي أَحْوَالِ الْفِتَنِ، وَيَجْعَلُهُ عَلَى حَذَرٍ دَائِمٍ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي الطَّاعَةِ، أَوِ الْإِصْرَارِ عَلَى المَعْصِيَةِ، مَعَ تَعَلُّقِهِ الدَّائِمِ بِاللَّهِ ﷻ مَحَبَّةً وَرَجَاءً، وَخَشْيَةً وَخَوْفًا.

وَكَثْرَةُ الزَّلَازِلِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَحُصُولُ الْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالمَسْخِ؛ إِنَّمَا هُوَ عَذَابٌ أَوِ ابْتِلَاءٌ لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَتَخْوِيفٌ لِبَقِيَّتِهِمْ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

وَالْوَعِيدُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يُخَوِّفُ اللهُ تَعَالَى بِهَا عِبَادَهُ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْمُجَاهَرَةِ بِالمَعَاصِي، وَضَعْفِ الْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا هُوَ فَهْمُ الصَّحَابَةِ ﷺ لِوُقُوعِ ذَلِكَ؛ أَلَا تَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه حِينَ زَلْزَلَتِ المَدِينَةُ فِي خِلَافَتِهِ قَالَ: «يَا أَهْلَ المَدِينَةِ: مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ! وَاللَّهِ لَئِنْ عَادَتْ لَأَخْرُجَنَّ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ»(١٨)، فَخَشِيَ رضي الله عنه أَنْ تُصِيبَهُ الْعُقُوبَةُ مَعَهُمْ، كَمَا قِيلَ لِلرَّسُولِ ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ، وَيَبْعَثُ اللهُ الصَّالِحِينَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»(١٩).

بَلْ جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ بِأَنَّ الْخَسْفَ وَالْقَذْفَ وَالمَسْخَ إِنَّمَا يَقَعُ بِسَبَبِ التَّلَبُّسِ بِالْبِدَعِ، وَالْإِصْرَارِ عَلَى المَعَاصِي، وَلَا سِيَّمَا كَبَائِرَ الذُّنُوبِ.

أَمَّا الْبِدَعُ فَجَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي مَسْخٌ وَقَذْفٌ وَهُوَ**

---

(١٨) أخرجه نعيم بن حماد في الفتن (١٧٣١) وابن المنذر في الأوسط (٢٨٥٢).

(١٩) ينظر: عمدة القاري للعيني (٧/ ٥٧).

فِي الزِّنْدِيقِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ[٢٠].

وَكَمْ فِي الْأُمَّةِ مِنْ زَنَادِقَةٍ يَرْفُضُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ ﷻ، وَيَسْعَوْنَ فِي فَسَادِ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ، وَيُجَاهِرُونَ بِذَلِكَ أَشَدَّ المُجَاهَرَةِ.

وَكَمْ فِي النَّاسِ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ، أَوْ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ، أَوْ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى كُفْرِهِ وَمَعْصِيَتِهِ؟!

وَأَمَّا كَبَائِرُ الذُّنُوبِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ»**، قَالَ رَجُلٌ: مَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«إِذَا ظَهَرَتِ الْقَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الخُمُورُ»** رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ[٢١].

وَقَالَ ﷺ: **«يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُضْرَبُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالمَعَازِفِ وَالْقَيْنَاتِ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ»** رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ[٢٢].

---

(٢٠) أخرجه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أحمد (٢/ ١٣٦)، واللالكائي في السنة (١١٣٥)، وقال الهيثمي في الزوائد: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح» (٧/ ٢٠٣)، وصححه الشيخ أحمد شاكر (٦٢٠٨).

(٢١) أخرجه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: الترمذي في الفتن، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف، وقال الترمذي: وقد روي هذا الحديث عن الأعمش عن عبدالرحمن بن سابط عن النبي ﷺ مرسلًا، وهذا حديث غريب (٢٢١٢)، والديلمي كما في مسند الفردوس (٨٧٢٥)، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٥٩٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٧٣)، وفي السلسلة الصحيحة (٢٢٠٣).

وأخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: عبد بن حميد (٤٥٢).

(٢٢) أخرجه مختصرًا أحمد (٥/ ٤٣٢)، وأبو داود في الأشربة، باب في الدَّاذِيِّ (٣٦٨٨).

وأخرجه بتمامه: ابن ماجه في الفتن، باب العقوبات (٤٢٠)، والبيهقي (٨/ ٢٩٥)، وصححه ابن حبان واللفظ له (٦٧٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٥٤)، وفي الصحيحة (٩٠-٩١) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

وَفِي هَذَا الْعَصْرِ انْتَشَرَتِ الْخُمُورُ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ، وَسُمِّيَتْ بِأَسْمَاءٍ شَتَّى، وَأُبِيحَتْ فِي أَكْثَرِ دُوَلِ الْإِسْلَامِ، مِمَّا يُنذِرُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ.

وَأَمَّا الْمَعَازِفُ وَالْقَيْنَاتُ؛ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى كُلِّ الْبُيوتِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، بَلْ إِنَّ قَنَوَاتٍ فَضَائِيَّةً تَعْمَلُ طِيلَةَ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ عَلَى بَثِّ صُوَرِ الْقَيْنَاتِ الْمُغَنِّيَاتِ، وَهُنَّ فِي غَايَةِ التَّخَلُّعِ وَالِابْتِذَالِ؛ لِتَحْرِيكِ الشَّهَوَاتِ، وَإِفْسَادِ النَّاسِ.

وَكُلُّ ذَلِكَ مُؤْذِنٌ بِالْخَسْفِ وَالْقَذْفِ وَالْمَسْخِ، إِلَّا أَنْ يَرْحَمَ اللهُ تَعَالَى الْعِبَادَ، وَيَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَتَقْوَى شَعِيرَةُ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُسْدَى النَّصِيحَةُ لِأَهْلِ هَذِهِ الْقَنَوَاتِ الْمُفْسِدَةِ، وَمَنْ يَقُومُ عَلَيْهَا، وَمَنْ يُمَوِّلُهَا، وَمَنْ يَدْعَمُهَا بِالدِّعَايَةِ فِيهَا مِنْ تُجَّارِ الْمُسْلِمِينَ، وَكُلُّ أُولَئِكَ شُرَكَاءُ فِي هَذَا الْجُرْمِ الْعَظِيمِ، وَالْإِثْمِ الْكَبِيرِ . . وَمَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ مِنْ زَلَازِلَ وَخَسْفٍ وَعُقُوبَاتٍ فَهُمْ مِنْ أَسْبَابِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى غَيُورٌ، وَغَيْرَتُهُ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُهُ، وَهَؤُلَاءِ -هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى- لَمْ يَنْتَهِكُوهَا فَحَسْبُ، بَلْ جَاهَرُوا بِانْتِهَاكِهَا، وَنَشَرُوهَا فِي النَّاسِ، وَزَيَّنُوا لَهُمُ السُّوءَ وَالْفَوَاحِشَ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مِنَ أَمْوَالٍ، نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى لَنَا وَلَهُمُ الْهِدَايَةَ.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

❀ ❀ ❀



٣٨٧- الأشراط الصغرى للساعة (٤) كثرة المال وفشو التجارة

٢٤/ ٢/ ١٤٢٧هـ

الحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: فَارَقَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ يَوْمَ فَارَقَهَا وَقَدْ عَلَّمَهُمْ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ لِيُبَادِرُوا إِلَيْهِ، وَبِمَا يَضُرُّهُمْ لِيَحْذَرُوا مِنْهُ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ مِنَ الأُمُورِ الْعِظَامِ، وَالحَوَادِثِ الكِبَارِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: «لَقَدْ تَرَكَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرَنَا مِنْهُ عِلْمًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥) رقم (١٦٤٧)، وفي إسناد =

وَمِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِهِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: كَثْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَفُشُوُّ التِّجَارَةِ، وَمَا يَنْتِجُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ تَقَارُبِ الأَسْوَاقِ، وَالتَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ، وَالتَّفَاخُرِ بِالأَمْوَالِ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ ﷺ بِالصَّدَقَةِ، مَا دَامَ المُتَصَدِّقُ يَجِدُ حَاجَةً فِي النَّاسِ، قَبْلَ أَنْ تُسَدَّ حَاجَتُهُمْ فَلا يَجِدُ المُتَصَدِّقُ لَهَا مَوْضِعًا؛ رَوَى حَارِثَةُ بْنُ وَهْبٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**تَصَدَّقُوا؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا، يَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلا حَاجَةَ لِي بِهَا**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٢).

وَسَبَبُ ذَلِكَ: فَيْضُ المَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَهَذَا يَقَعُ قُرْبَ السَّاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المَالُ، فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ المَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لا أَرَبَ لِي**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَأُمَّةُ العَرَبِ كَانَتْ فِي جَاهِلِيَّتِهَا لا تَعْرِفُ الأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ، وَلا الحَيَاةَ الفَارِهَةَ، وَلَا المُدُنَ الْعَامِرَةَ؛ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةٌ بَسِيطَةٌ فِيهَا خُشُونَةٌ وَشِدَّةٌ، وَلَمَّا قَدِمَ رِبْعِيُّ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه عَلَى رُسْتُمَ يُفَاوِضُهُ، وَأُعْجِبَ رُسْتُمُ بِكَلامِهِ، وَانْتَقَدَهُ قَوْمُهُ عَلَى إِعْجَابِهِ بِهِ، وَقَالُوا: أَمَا تَرَى إِلَى ثِيَابِهِ؟ قَالَ رُسْتُمُ: وَيْحَكُمْ! لا تَنْظُرُوا إِلَى الثِّيَابِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى الرَّأْيِ وَالكَلامِ وَالسِّيرَةِ؛ إِنَّ العَرَبَ تَسْتَخِفُّ

= أحمد مجاهيل لكن له شواهد، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الكبير، وقال: ورجال الطبراني رجال الصحيح، غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة، وفي إسناد أحمد من لم يسم (٨/ ٢٦٤)، ورجح الدارقطني في العلل إرساله (١١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٥)، والنسائي في الزكاة، باب الشفاعة في الصدقة (٥/ ٧٧)، وأبو يعلى (١٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب الصدقة قبل الرد (١٣٤٦)، ومسلم في الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها (١٥٧١).

بِاللِّبَاسِ وَالمَأْكَلِ، وَتَصُونُ الأَحْسَابَ، لَيْسُوا مِثْلَكُمْ!

فَلَمَّا جَاءَ اللهُ تَعَالَى بِالإِسْلامِ بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّةَ العَرَبِ بِاتِّسَاعِ المُلْكِ، وَكَثْرَةِ المَالِ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى مُلْكِ مُلُوكِ الْأَرْضِ آنَذَاكَ؛ كَمَا رَوَى ثَوْبَانُ رضي الله عنه فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

قَالَ النَّوَوِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا الحَدِيثُ فِيهِ مُعْجِزَاتٌ ظَاهِرَةٌ، وَقَدْ وَقَعَتْ كُلُّهَا بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا أَخْبَرَ بِهَا ﷺ، وَالمُرَادُ بِالْكَنْزَيْنِ: الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَهُمَا كَنْزَا كِسْرَى وَقَيْصَرَ مَلِكَي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ».

وَمِنْ نَتَائِجِ هَذَا المُلْكِ الْعَظِيمِ وَالأَمْوَالِ المُتَكَاثِرَةِ: حُصُولُ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ؛ إِذْ إِنَّ الجُوعَ وَالخَوْفَ قَرِينَانِ، كَمَا أَنَّ الشِّبَعَ وَالْأَمْنَ صِنْوَانٌ، وَالنَّاسُ يَعْدُو بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِسَبَبِ المَالِ فِي الْغَالِبِ؛ وَلِذَا بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ بِالْأَمْنِ مَعَ المَالِ؛ كَمَا رَوَى عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ رضي الله عنه فَقَالَ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلانِ؛ أَحَدُهُمَا يَشْكُو الْعَيْلَةَ، وَالآخَرُ يَشْكُو قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا قَطْعُ السَّبِيلِ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكَ إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى تَخْرُجَ الْعِيرُ إِلَى مَكَّةَ بِغَيْرِ خَفِيرٍ، وَأَمَّا الْعَيْلَةُ؛ فَإِنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ حَتَّى يَطُوفَ أَحَدُكُمْ بِصَدَقَتِهِ لَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا مِنْهُ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ. وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ قَالَ عَدِيٌّ رضي الله عنه: «بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ،

---

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم من بعض (٢٨٨٦)، وأبو داود في الفتن والملاحم، باب الفتن ودلائلها (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن، باب ما يكون من الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨).

فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟** قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا، قَالَ: **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ** -أَي: المَرْأَةَ فِي الهَوْدَجِ- **تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ**. قَالَ عَدِيٌّ: قُلْتُ - فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي-: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلَادَ؟ وَكَانُوا قُطَّاعَ طَرِيقٍ. **وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**، قَالَ عَدِيٌّ: قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟! قَالَ ﷺ: **كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ** . . . قَالَ عَدِيٌّ رضي الله عنه: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ[٥].

وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الأَحَادِيثُ عَلَى أَحْوَالٍ ثَلَاثَةٍ تَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ[٦]:

أَوَّلُهَا: كَثْرَةُ المَالِ فَقَطْ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَلِذَا خَاطَبَهُمْ ﷺ فَقَالَ: «**يَكْثُرُ المَالُ فِيكُمْ**».

ثُمَّ يَفِيضُ المَالُ مِنْ كَثْرَتِهِ؛ بِحَيْثُ يَحْصُلُ اسْتِغْنَاءٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ عَنْ أَخْذِ مَالِ غَيْرِهِ، وَهِيَ الحَالُ الثَّانِيَةُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَأَوَّلِ عَصْرِ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَتَبْلُغُ الكِفَايَةُ وَالقَنَاعَةُ فِي النَّاسِ أَنْ يَهْتَمَّ صَاحِبُ الصَّدَقَةِ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ؛ وَذَلِكَ يَنْطَبِقُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- كَمَا رَوَى البَيْهَقِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ أُسَيْدٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- قَالَ: «إِنَّمَا وَلِي عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ ثَلَاثِينَ شَهْرًا، أَلَا وَاللَّهِ مَا مَاتَ حَتَّى جَعَلَ الرَّجُلَ يَأْتِينَا

---

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠٠).

(٦) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٨٧-٨٨).

بِالمَالِ الْعَظِيمِ، فَيَقُولُ: اجْعَلُوا هَذَا حَيْثُ تَرَوْنَ فِي الْفُقَرَاءِ؛ فَمَا يَبْرَحُ حَتَّى يَرْجِعَ بِمَالِهِ يَتَذَكَّرُ مَنْ يَضَعُهُ فِيهِ فَلَا يَجِدُهُ، قَدْ أَغْنَى عُمَرُ النَّاسَ»(٧).

وَالحَالَةُ الثَّالِثَةُ: تَقَعُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بَعْدَ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام؛ إِذْ يَفِيضُ المَالُ، وَيَسْتَغْنِي النَّاسُ، فَلا يَجِدُ المُتَصَدِّقُ مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، فَيَعْرِضُ صَدَقَتَهُ عَلَى مَنْ لا يَسْتَحِقُّهَا، فَيَأْبَى أَخْذَهَا، وَيَقُولُ: لا حَاجَةَ لِي فِي مَالِكَ!

فَهَذِهِ المَرَاحِلُ الثَّلَاثُ وَقَعَ مِنْهَا اثْنَتَانِ، وَبَقِيَتِ الثَّالِثَةُ، تَقَعُ فِي عَهْدِ المَسِيحِ عليه السلام، وَيَتَخَلَّلُ هَذِهِ المَرَاحِلَ الثَّلَاثَ طَمَعٌ يَقَعُ فِي النَّاسِ، وَجَشَعٌ يَسْتَبِدُّ بِهِمْ، وَشُحٌّ يَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ؛ فَلَا يَشْبَعُ غَنِيُّهُمْ، وَلَا يَرْضَى مَسْتُورُهُمْ، وَلا يَصْبِرُ فَقِيرُهُمْ، وَيَطْلُبُ النَّاسُ المَزِيدَ عَلَى كِفَايَتِهِمْ، وَيَجْتَهِدُونَ فِي الْكَسْبِ وَالِادِّخَارِ بِكُلِّ الطُّرُقِ، حَتَّى مَنْ أُعْطِيَ مِنْهُمْ عَطَاءً جَزْلًا لَا يَقْنَعُ بِمَا أُعْطِيَ بِسَبَبِ طَمَعِهِ، وَقَدْ عَدَّ النَّبِيُّ ﷺ سِتًّا مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، وَذَكَرَ مِنْهَا: «**اسْتِفَاضَةُ المَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِئَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٨).

وَاتِّسَاعُ الدُّنْيَا لِلنَّاسِ، وَكَثْرَةُ المَالِ فِي أَيْدِيهِمْ؛ يَصِلُ بِهِمْ إِلَى السَّرَفِ وَالتَّبَاهِي وَالمُفَاخَرَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ وُقُوعِهِ فِي أُمَّتِهِ؛ فَأَخْبَرَ عَنِ التَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ؛ كَمَا رَوَى البُخَارِيُّ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ**

---

(٧) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ٤٩٣)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٣٤)، وابن عساكر في تاريخه (٤٥/ ١٩٥)، والمزي في تهذيب الكمال (٢١/ ٤٤٤)، وراوي الأثر هو عمر بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب رحمه الله تعالى.

(٨) أخرجه من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه: البخاري في الجزية والموادعة، باب ما يحذر من الغدر (٣٠٠٥)، وابن ماجه في الفتن، باب أشراط الساعة (٤٠٤٢)، وأحمد (٦/ ٢٧).

أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ البُهْمُ فِي البُنْيَانِ».

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ قَالَ ﷺ: «وَرَأَيْتَ أَصْحَابَ الشَّاءِ تَطَاوَلُوا بِالْبُنْيَانِ، وَرَأَيْتَ الحُفَاةَ الْجِيَاعَ الْعَالَةَ كَانُوا رُؤُوسَ النَّاسِ، فَذَلِكَ مِنْ مَعَالِمِ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ أَصْحَابُ الشَّاءِ وَالْحُفَاةُ الْجِيَاعُ الْعَالَةُ؟ قَالَ: الْعَرَبُ»(٩).

قَالَ القُرْطُبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «المَقْصُودُ: الإِخْبَارُ عَنْ تَبَدُّلِ الحَالِ بِأَنْ يَسْتَوْلِيَ أَهْلُ البَادِيَةِ عَلَى الأَمْرِ، وَيَتَمَلَّكُوا الْبِلَادَ بِالْقَهْرِ؛ فَتَكْثُرَ أَمْوَالُهُمْ، وَتَنْصَرِفَ هِمَمُهُمْ إِلَى تَشْيِيدِ البُنْيَانِ وَالتَّفَاخُرِ بِهِ، وَقَدْ شَاهَدْنَا ذَلِكَ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ!»(١٠).

وَالقُرْطُبِيُّ يَحْكِي عَنْ زَمَانِهِ، وَقَدْ مَاتَ فِي المِئَةِ السَّابِعَةِ؛ فَكَيْفَ لَوْ رَأَى كَثْرَةَ الأَمْوَالِ فِي هَذَا العَصْرِ، وَتَفَاخُرَ النَّاسِ بِالبُنْيَانِ، حَتَّى إِنَّ العَرَبَ فَاقُوا فِي التَّفَاخُرِ بِهِ سَائِرَ الأُمَمِ؟!

وَالتَّطَاوُلُ فِي البُنْيَانِ لَهُ صُوَرٌ كَثِيرَةٌ: مِنْ تَشْيِيدِ الأَبْرَاجِ العَالِيَةِ -وَمَا أَكْثَرَهَا فِي هَذَا العَصْرِ!- إِلَى التَّنَافُسِ فِي اتِّسَاعِ الدُّورِ وَالقُصُورِ، وَتَنْوِيعِ أَثَاثِهَا وَمَتَاعِهَا، إِلَى تَعَدُّدِ المَسَاكِنِ وَالبُيُوتِ لِلْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ وَكَثْرَتِهَا؛ فَبُيُوتٌ فِي المُدُنِ، وَأُخْرَى فِي القُرَى، وَثَالِثَةٌ فِي المَزَارِعِ، وَرَابِعَةٌ فِي مَكَّةَ، وَخَامِسَةٌ فِي البِلادِ الَّتِي يَصْطَافُ فِيهَا، فِي سِلْسِلَةٍ لا تَنْتَهِي مِنَ التَّوَسُّعِ وَالتَّطَاوُلِ فِي البُنْيَانِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ.

---

(٩) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ... (٥٠)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩).

والرواية الثانية لأحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (١/ ٣١٩).

(١٠) المفهم (١/ ٦٤)، وعنه ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٣).

بَلْ إِنَّ التَّطَاوُلَ فِي الْبُنْيَانِ يَتَعَدَّى الْمَسَاكِنَ إِلَى الْمَسَاجِدِ؛ فَيَتَبَاهَى النَّاسُ بِبِنَائِهَا وَزَخْرَفَتِهَا وَتَزْوِيقِهَا، حَتَّى مَنْ يُقَصِّرُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ أَثْرِيَائِهِمْ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِلْمُبَاهَاةِ!

وَلَرُبَّمَا بُنِيَتْ بُيُوتُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَمْوَالٍ مُحَرَّمَةٍ! كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرِّبَا وَالْغِشِّ، وَالاحْتِكَارِ وَالْغِنَاءِ، وَالتَّمْثِيلِ وَالرَّقْصِ؛ فَبَعْضُهُمْ يَبْتَنِي مَسَاجِدَ مِنْ كَسْبِهِ الْخَبِيثِ؛ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ، وَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلنَّسَائِي قَالَ ﷺ: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي الْمَسَاجِدِ**»(١١). وَقَالَ أَنَسٌ رضي الله عنه: «يَتَبَاهَوْنَ بِهَا، ثُمَّ لا يَعْمُرُونَهَا إِلَّا قَلِيلًا»(١٢)، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «لَتُزَخْرِفُنَّهَا كَمَا زَخْرَفَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى»(١٣).

وَلَمَّا أَمَرَ عُمَرُ رضي الله عنه بِتَجْدِيدِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلْبَنَّاءِ: «**أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ، فَتَفْتِنَ النَّاسَ**»(١٤).

---

(١١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٩)، والنسائي في المساجد، باب المباهاة في المساجد (١/ ٢٥٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب تشييد المساجد (٧٣٩)، وأحمد (٣/ ١٣٤)، وأبو يعلى (٢٧٩٨)، والدارمي (١٤٠٨)، وصححه ابن خزيمة (١٣٢٢)، وابن حبان (١٦١٣)، والضياء في المختارة (٢٢٣٥).

(١٢) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد (١/ ١٧١)، ووصله أبو يعلى (٢٨١٧)، وابن خزيمة (١٣٢١).

(١٣) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به في الصلاة، باب التعاون في بناء المسجد (١/ ١٧١)، ووصله موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما: أبو داود في الصلاة، باب في بناء المساجد (٤٤٨)، وابن أبي شيبة (١/ ٢٧٤)، وأبو يعلى (٢٤٥٤)، وصححه ابن حبان (١٦١٥).

(١٤) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به (١/ ١٧١).

قَالَ ابنُ بَطَّال -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ فِي بُنْيَانِ المَسْجِدِ القَصْدُ، وَتَرْكُ الْغُلُوِّ فِي تَحْسِينِهِ؛ فَقَدْ كَانَ عُمَرُ مَعَ كَثْرَةِ الْفُتُوحِ فِي أَيَّامِهِ، وَسَعَةِ المَالِ عِنْدَهُ، لَمْ يُغَيِّرِ المَسْجِدَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا احْتَاجَ إِلَى تَجْدِيدِهِ؛ لِأَنَّ جَرِيدَ النَّخْلِ كَانَ قَدْ نُخِرَ فِي أَيَّامِهِ، ثُمَّ كَانَ عُثْمَانُ وَالمَالُ فِي زَمَانِهِ أَكْثَرُ، فَحَسَّنَهُ بِمَا لا يَقْتَضِي الزَّخْرَفَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِ، وَأَوَّلُ مَنْ زَخْرَفَ المَسَاجِدَ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَذَلِكَ فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وَسَكَتَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَنْ إِنْكَارِ ذَلِكَ؛ خَوْفًا مِنَ الْفِتْنَةِ، وَرَخَّصَ فِي ذَلِكَ بَعْضُهُمْ» اهـ[١٥].

وَيَسْتَتْبِعُ كَثْرَةَ الأَمْوَالِ فِي أَيْدِي النَّاسِ: اتِّسَاعُ التِّجَارَةِ وَتَنَوُّعُهَا، وَكَثْرَةُ الأَسْوَاقِ وَتَقَارُبُهَا، مَعَ تَعَدُّدِ المَعَارِفِ وَالعُلُومِ الدُّنْيَوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ فِي خِدْمَةِ المَالِ وَتَنْمِيَتِهِ؛ وَلِذَا جَاءَ الرَّبْطُ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ بَيْنَ كَثْرَةِ المَالِ وَبَيْنَ كَثْرَةِ القَلَمِ فِي النَّاسِ؛ كِنَايَةً عَنِ العُلُومِ وَالمَعَارِفِ؛ كَمَا رَوَى الطَّيَالِسِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ تَغْلِبَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يَكْثُرَ التُّجَّارُ، وَيَظْهَرَ الْقَلَمُ**»[١٦].

وَيُحَدِّثُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- عَنْ وَقْتٍ أَدْرَكَهُ كَانَتِ التِّجَارَةُ فِيهِ قَلِيلَةً كَمَا كَانَتِ الْكِتَابَةُ قَلِيلَةً، فَيَقُولُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «لَقَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ وَإِنَّمَا يُقَالُ: تَاجِرُ بَنِي فُلَانٍ، وَكَاتِبُ بَنِي فُلَانٍ، مَا يَكُونُ فِي الْحَيِّ إِلَّا التَّاجِرُ الْوَاحِدُ وَالْكَاتِبُ الْوَاحِدُ»، قَالَ الحَسَنُ: «وَاللَّهِ، إِنْ كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي

---

(١٥) فتح الباري لابن حجر (١/ ٥٤٠).

(١٦) أخرجه الطيالسي (١١٧١)، والنسائي في الكبرى (٦٠٤٨)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٦٦٤).

الْحَيَّ الْعَظِيمَ فَمَا يَجِدُ بِهِ كَاتِبًا» رَوَاهُ ابْنُ عَبْدِ البَرِّ[١٧].

وَقَدْ أَدْرَكَ كِبَارُ السِّنِّ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ اتِّسَاعِ الدُّنْيَا، وَكَثْرَةِ الْعُلُومِ وَالمَعَارِفِ، فَالحَمْدُ للَّهِ كَثِيرًا عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لا تُحْصَى.

وَقَدْ أَخبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَقَارُبَ الزَّمَانِ، وَتَقَارُبَ الأَسْوَاقِ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَقَعَ فِي هَذَا الزَّمَنِ؛ إِذِ المَسَافَاتُ تَقَارَبَتْ مَعَ سُرْعَةِ المُوَاصَلاتِ، وَتَقَارَبَ الزَّمَانُ مَعَ تَطَوُّرِ الاتِّصَالاتِ، وَالأَسْوَاقُ تَقَارَبَتْ حِسًّا وَمَعْنًى؛ فَفِي أَكْثَرِ المُدُنِ تَكْثُرُ الأَسْوَاقُ وَتَتَقَارَبُ، وَهِيَ فِي ازْدِيَادٍ وَاتِّسَاعٍ مَا دَامَ النَّاسُ يَشْتَرُونَ وَيَسْتَهْلِكُونَ، وَسَبَبُ ذَلِكَ كَثْرَةُ الأَمْوَالِ فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَعَ تَقَارُبِ الزَّمَنِ، وَسُرْعَةِ الاتِّصَالِ أَضْحَى التُّجَّارُ يَتَبَادَلُونَ التِّجَارَةَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ أَوْ مَكَاتِبِهِمْ مَعَ تَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ المَسَافَاتِ، وَاخْتِلافِ البُلْدَانِ.

وَتَبْلُغُ التِّجَارَةُ فِي فُشُوِّهَا مَبْلَغًا يَتَقَحَّمُهَا النِّسَاءُ مَعَ الرِّجَالِ، فَيَضْرِبْنَ فِي الأَرْضِ، وَيُسَافِرْنَ بِلَا مَحْرَمٍ، وَيُزَاحِمْنَ الرِّجَالَ، مَعَ أَنَّ إِدَارَةَ التِّجَارَةِ فِي الأَصْلِ هِيَ مِنْ خَصَائِصِ الرِّجَالِ؛ لِأَنَّهُمُ الضَّارِبُونَ فِي الأَرْضِ، السَّاعُونَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلادِهِمْ بِالرِّزْقِ؛ رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الخَاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ، حَتَّى تُعِينَ المَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ[١٨].

وَكَانَ مِنْ أَسْبَابِ مُشَارَكَةِ المَرْأَةِ فِي التِّجَارَةِ، وَإِدَارَتِهَا لَهَا: خُرُوجُهَا مِنَ

---

(١٧) التمهيد لابن عبد البر (١٧/ ٢٩٧)، والآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ١٥٤).

(١٨) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (١٠٤٩)، والطحاوي في شرح المشكل (٤/ ٢٦٣)، وصححه الحاكم (٤/ ١١٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح (٧/ ٣٢٩).

المَنْزِلِ لِلدِّرَاسَةِ ثُمَّ لِلْعَمَلِ، وَاتِّسَاعُ المَالِ فِي يَدِهَا؛ فَصَارَتْ نِدًّا لِلرَّجُلِ فِي ذَلِكَ، وَوَقَعَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ تِلْكُمُ الْأَشْرَاطِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلى قُرْبِ السَّاعَةِ، وَدُنُوِّ الْقِيَامَةِ؛ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى الْوَفَاةَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا الْخَطِيئَةَ وَالزَّلَّةَ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَأَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ . . .

❁ ❁ ❁

الخُطبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ، وَلا أَمْنَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَرَاقِبُوهُ، وَالْزَمُوا طَاعَتَهُ وَلا تَعْصُوهُ؛ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّا سَيَقَعُ بَعْدَهُ مِنْ كَثْرَةِ المَالِ فِي النَّاسِ، خَافَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَةَ بِالدُّنْيَا وَالتَّقْصِيرَ فِي حَقِّ الْآخِرَةِ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ زِينَتِهَا وَزَهْرَتِهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهَا إِلَى زَوَالٍ، وَحَثَّهُمْ عَلَى التَّنَافُسِ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُقَرِّبُهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ؛ نُصْحًا لَهُمْ، وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ؛ يَرْوِي عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى المَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «**إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي**

وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١٩].

وَلَمَّا قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِجِزْيَةِ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، سَمِعَتِ الْأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَقَتْ صَلَاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟**»، **قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢٠].

وَمَنْ رَأَى حَالَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ مَعَ الْأَمْوَالِ وَتَنْمِيَتِهَا، وَأَعْمَالِهِمْ فِيهَا، وَقَارَنَهُ بِضَعْفِ سَعْيِهِمْ لِلْآخِرَةِ، وَتَقْصِيرِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ أَيْقَنَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَخَلُّوا بِوَصَايَا نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَنَّ مَا خَافَهُ عَلَيْهِمْ وَقَعُوا فِيهِ؛ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ عَنِ الْآخِرَةِ، وَحُبِّ الشَّهَوَاتِ الْعَاجِلَةِ، مَعَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ كَفَلَ لَهُمْ أَرْزَاقَهُمْ بِبَذْلِ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ بِلَا مُبَالَغَةٍ فِي الْأَخْذِ بِهَا، وَلَا خَوْفٍ مِنَ الْفَقْرِ، وَمَهْمَا عَمِلُوا وَخَافُوا وَخَطَّطُوا فَلَنْ يَنَالُوا مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُمْ، وَقَدْ حَضَّهُمُ الشَّارِعُ الْحَكِيمُ عَلَى الْعَمَلِ لِأُخْرَاهُمْ؛ رَوَى الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ مِنْ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَا عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى النَّارِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، لَا يَسْتَبْطِئَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ؛ إِنَّ جِبْرِيلَ** عليه السلام

(١٩) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٠١).

(٢٠) أخرجه من حديث عمرو بن عوف ﷺ: البخاري في الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم في فاتحة كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

أَلْقَى فِي رُوعِي: أَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنِ اسْتَبْطَأَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رِزْقَهُ، فَلَا يَطْلُبْهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ فَضْلُهُ بِمَعْصِيَةٍ»(٢١).

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا . . .



(٢١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والحاكم (٢/ ٥)، وابن مردويه في أماليه (٢٥)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: صحيح لغيره (١٧٠٠).
وأخرجه بنحوه من حديث جابر ﷺ: ابن ماجه في التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة (٢١٤٤)، وابن الجارود (٥٥٦)، والطبراني في الأوسط (٣١٠٩)، والبيهقي (٥/ ٢٦٤)، والحاكم وصححه (٤/ ٣٦١)، قال البوصيري: «هذا إسناد ضعيف، الوليد بن مسلم وابن جريج وأبو الزبير كل منهم كان يدلس، وقد رووه بالعنعنة، لكن لم ينفرد ابن ماجه بإخراجه من هذا الوجه، فقد رواه ابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد بن سلم ثنا حرملة بن يحيى ثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن المنكدر عن جابر بإسناده ومتنه، رواه أيضًا عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف عن الوليد بن شجاع عن ابن وهب فذكر نحوه، وله شاهد من حديث حذيفة رواه البزار في مسنده» اهـ مصباح الزجاجة (٣/ ٨).

٣٨٨- الأشراط الصغرى للساعة (٥) تقارب الزمان

٢٥/٨/١٤٢٨هـ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ خَلَقَ الزَّمَانَ وَالمَكَانَ، وَيُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ؛ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ، وَنَسْتَغْفِرُهُ اسْتِغْفَارَ المُذْنِبِينَ، وَنَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ الْعَظِيمِ؛ فَمَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَهُوَ مَانِحُهُ، وَلَا مِنْ بَلَاءٍ إِلَّا وَهُوَ كَاشِفُهُ؛ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْحَمُ النَّاسِ بِالنَّاسِ، وَأَنْصَحُهُمْ لِلْأُمَّةِ، لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّنَا عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَنَا مِنْهُ؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ فَهِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لَنَا وَلِمَنْ قَبْلَنَا؛ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

أَيُّهَا النَّاسُ: جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا دَارَ عَمَلٍ وَابْتِلَاءٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ

الْجَزَاءِ وَالْقَرَارِ، وَمَهْمَا طَالَ عُمُرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُ مُفَارِقُهَا بِالْمَوْتِ، وَلَنْ يَجِدَ فِي أُخْرَاهُ إِلَّا مَا عَمِلَ فِي دُنْيَاهُ، ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا؛ بِسَمَائِهَا وَأَرْضِهَا، وَشَمْسِهَا وَقَمَرِهَا وَأَنْجُمِهَا زَائِلَةٌ لَا مَحَالَةَ؛ ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٤]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الْقِيَامَة: ٧-١٣].

وَالدُّنْيَا تَنْتَهِي، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَتَوَقَّفُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الْأَنْعَام: ١٥٨].

وَالْمُؤْمِنُونَ يَخْشَوْنَ السَّاعَةَ، وَيَخَافُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِإِيمَانِهِمْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَيَعْمَلُونَ صَالِحًا فِي الدُّنْيَا لِذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، مَعَ وَجَلِهِمْ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَيَسْخَرُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْتَعْجِلُونَ قِيَامَ السَّاعَةِ؛ لِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَتَكْذِيبِهِمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الْمُتَّقِينَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ٤٩]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشُّورَى: ١٧، ١٨].

وَالْمُكَذِّبُونَ بِالسَّاعَةِ يُوَبَّخُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى شَكِّهِمْ فِي قِيَامِهَا، وَإِنْكَارِهِمُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الْجَاثِيَة: ٣٢].

وَالسَّاعَةُ آتِيَةٌ وَإِنِ اسْتَبْعَدَهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَقَرِيبَةٌ وَإِنِ اسْتَبْطَؤُوا زَمَنَهَا؛ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النَّحل: ٧٧].

وَلِلسَّاعَةِ أَمَارَاتٌ تَقَعُ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِهَا، وَمِنْ عَلَامَاتِهَا مَا وَقَعَ وَانْتَهَى، وَمِنْهَا مَا وَقَعَ وَلَا يَزَالُ يَقَعُ وَهُوَ فِي ازْدِيَادٍ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يَقَعْ وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ؛ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ﴾ [مُحَمَّد: ١٨].

وَمِنْ فَوَائِدِ الْعِلْمِ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ تَحْذِيرُ النَّاسِ وَتَذْكِيرُهُمْ؛ لِئَلَّا يَنْغَمِسُوا فِي مَلَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَيَنْسَوْا مَا يَسْتَقْبِلُهُمْ مِنْ أَمْرِ السَّاعَةِ وَالْحِسَابِ، وَهُوَ أَعْظَمُ وَأَشَدُّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لَهُ بِمَا يُنْجِيهِمْ؛ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [الْقَمَر: ٤٦].

كَمَا أَنَّ إِخْبَارَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ أُمُورٍ لَمْ تَقَعْ زَمَنَ بَعْثَتِهِ، ثُمَّ وَقَعَتْ بَعْدَ ذَلِكَ وَشَاهَدَهَا النَّاسُ، لَمِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالْعِلْمِ بِإِخْبَارِهِ بِهَا، ثُمَّ رُؤْيَتِهَا عِيَانًا لَمِمَّا يَزِيدُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا إِلَى إِيمَانِهِمْ، وَيَقِينًا إِلَى يَقِينِهِمْ، وَثَبَاتًا عَلَى دِينِهِمْ، وَصَبْرًا عَلَى مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ لِذَلِكَ نِهَايَةً، وَأَنَّ الْحِسَابَ وَالْجَزَاءَ سَيَكُونُ عِنْدَ حَكَمٍ عَدْلٍ، لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: وَمِمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَعَلَامَاتِهَا: تَقَارُبُ الزَّمَانِ، وَسُرْعَةُ مُرُورِ الْأَيَّامِ، وَقِلَّةُ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ؛ رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ؛ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ...**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[1].

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب ما قيل في الزلازل والآيات (٩٨٩)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن (١٥٧).

وَتَقَارُبُ الزَّمَانِ الَّذِي أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، قَدْ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: إِنَّهُ تَقَارُبُ مَا بَيْنَ الْمُدُنِ وَالْأَقَالِيمِ وَالدُّوَلِ، وَسُرْعَةُ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِمَا يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى لِلْبَشَرِ مِنْ صُنْعِ السَّيَّارَاتِ وَالطَّائِرَاتِ وَنَحْوِهَا، وَقَدْ كَانَ النَّاسُ قَبْلَهَا يَقْسِمُونَ أَسْفَارَهُمْ عَلَى مَرَاحِلَ وَأَيَّامٍ، وَيَمْكُثُونَ فِي الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ أَشْهُرًا وَأَعْوَامًا، وَكَانَتِ الْقَوَافِلُ تَسِيرُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ وَإِفْرِيقِيَّةَ، وَأَقَاصِي آسِيَةَ، إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ لِلْحَجِّ، فَتَمْكُثُ أَشْهُرًا، وَرُبَّمَا أَعْوَامًا قَبْلَ بُلُوغِ مَكَّةَ، وَلَا تَبْلُغُهَا إِلَّا وَقَدْ مَاتَ كَثِيرٌ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي الطَّرِيقِ مِنْ مَشَقَّتِهِ وَمَخَاطِرِهِ، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَبْلُغُونَ مَكَّةَ لَا يَعُودُونَ إِلَى دِيَارِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مَرَّةً أُخْرَى؛ لِمَا رَأَوْا مِنَ الْأَهْوَالِ فِي رِحْلَةِ وُصُولِهِمْ إِلَيْهَا، وَمَنْ كَتَبُوا عَنْ رَحَلَاتِهِمْ إِلَى الْحَجِّ ذَكَرُوا عَجَائِبَ فِي ذَلِكَ.

أَمَّا الْآنَ، فَيَفِدُ الْحُجَّاجُ إِلَى مَكَّةَ مِنَ أَقَاصِي الْأَرْضِ، فَلَا يَمْكُثُونَ فِي الْجَوِّ إِلَّا سَاعَاتٍ مَعْدُودَةً، وَإِذَا هُمْ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ، فَهَذَا مِنْ تَقَارُبِ الْبُلْدَانِ، وَهُوَ مِنْ مَعَانِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ.

وَكَانَ النَّاسُ إِذَا غَابَ غَائِبُهُمْ فِي رِحْلَةِ حَجٍّ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، لَا يَصِلُهُمْ خَبَرُهُ إِلَّا بَعْدَ أَشْهُرٍ أَوْ سَنَوَاتٍ بِكِتَابٍ يَبْعَثُهُ إِلَيْهِمْ، أَوْ مَنْ رَآهُ يُخْبِرُ عَنْهُ، وَلَا وَسَائِلَ لِلِاتِّصَالِ غَيْرُ ذَلِكَ؛ حَتَّى عَقَدَ الْفُقَهَاءُ أَبْوَابًا فِي الْفِقْهِ لِلْغَائِبِ وَأَحْكَامِهِ إِذَا انْقَطَعَتْ عَنْ أَهْلِهِ أَخْبَارُهُ.

أَمَّا الْآنَ، فَيَتَّصِلُ بِهِمْ، وَيَتَّصِلُونَ بِهِ مَتَى مَا أَرَادُوا، فَيَسْمَعُونَ صَوْتَهُ، وَيَعْرِفُونَ أَحْوَالَهُ، وَإِنْ شَاؤُوا رَأَوْهُ عِيَانًا وَهُوَ يُكَلِّمُهُمْ، وَمَا عَادَ لِلْبَرِيدِ وَالرَّسَائِلِ قِيمَةٌ تُذْكَرُ أَمَامَ هَذَا الْفَتْحِ الْعَظِيمِ فِي وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ، حَتَّى إِنَّ الْأَجْهِزَةَ الْحَدِيثَةَ تُظْهِرُ صُورَةَ الْمُتَّصِلِ، وَتَدُلُّ عَلَى مَكَانِهِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ تَقَارُبِ الزَّمَنِ، فَوَقَعَ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ.

وَمِنْ مَعَانِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ: سُرْعَةُ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ وَالْأَعْوَامِ، فَمَا تُشْرِقُ شَمْسُ يَوْمٍ إِلَّا وَتَغْرُبُ، وَلَا يَهُلُّ شَهْرٌ إِلَّا وَيُدْبِرُ، وَلَا تَبْتَدِئُ سَنَةٌ إِلَّا وَتَنْقَضِي سَرِيعًا، قَدْ نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْأَعْمَارِ.

لَقَدْ أَدْرَكَ النَّاسُ أَزْمِنَةً قَرِيبَةً، كَانُوا يُنْجِزُونَ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ أَعْمَالًا كَثِيرَةً، يَعْجَزُونَ الْيَوْمَ عَنْ إِنْجَازِهَا فِي أُسْبُوعٍ كَامِلٍ، وَكَانَتْ أَرْزَاقُ النَّاسِ قَلِيلَةً جِدًّا، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَكْفِيهِمْ، وَيَتَصَدَّقُونَ مِنْهَا وَيَدَّخِرُونَ، فَلَمَّا اتَّسَعَتْ أَرْزَاقُهُمْ، وَتَهَيَّأَتْ لَهُمْ سُبُلُ الْمُوَاصَلَاتِ وَالِاتِّصَالَاتِ، وَتَتَابَعَتِ النِّعَمُ عَلَيْهِمْ، نُزِعَتِ الْبَرَكَةُ مِنْ أَوْقَاتِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي خَلَّفَهُ أَسْلَافُنَا، عَلِمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ بَارَكَ فِي أَوْقَاتِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانَ مَا كَتَبُوا مِنْ صَفَحَاتٍ يَزِيدُ عَلَى أَيَّامِ حَيَاتِهِمْ مُنْذُ وِلَادَتِهِمْ إِلَى وَفَاتِهِمْ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَإِنَّ شُرَّاحَ هَذَا الْحَدِيثِ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ أَخْبَرُوا أَنَّ تَقَارُبَ الزَّمَانِ، وَقِلَّةَ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ قَدْ وَقَعَ فِي أَزْمَانِهِمْ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ يَتَّسِعُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَكُلَّمَا تَقَدَّمَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ اشْتَدَّتْ قِلَّةُ الْبَرَكَةِ؛ حَتَّى يَكُونُوا أَقَلَّ بَرَكَةً مِمَّنْ كَانُوا قَبْلَهُمْ؛ وَسَبَبُ ذَلِكَ كَثْرَةُ الْمَعَاصِي وَالْإِعْلَانُ بِهَا.

وَهَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ تَقَارُبِ الزَّمَانِ بِقِلَّةِ الْبَرَكَةِ فِيهِ، قَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ؛ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَيَكُونُ الشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ أَوِ الْخُوصَةِ**» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٢).

---

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧)، وأبو يعلى (٦٦٨٠)، والطحاوي في شرح المشكل (٦٨٤٢)، وصححه ابن حبان (٦٨٤٢)، والألباني في تعليقه على ابن حبان (٦٨٠٣).

قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ الْأَنْدَلُسِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِتَقَارُبِ الزَّمَانِ قِصَرَهُ عَلَى مَا وَقَعَ فِي حَدِيثِ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَكُونَ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ**»، وَعَلَى هَذَا، فَالْقِصَرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حِسِّيًّا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَوِيًّا:

أَمَّا الْحِسِّيُّ، فَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ وَلَعَلَّهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَكُونُ قُرْبَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَمَّا المَعْنَوِيُّ، فَلَهُ مُدَّةٌ مُنْذُ ظَهَرَ يَعْرِفُ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ وَمَنْ لَهُ فِطْنَةٌ مِنْ أَهْلِ السَّبَبِ الدُّنْيَوِيِّ، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ لَا يَقْدِرُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ الْعَمَلِ قَدْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَشْكُونَ ذَلِكَ وَلَا يَدْرُونَ الْعِلَّةَ فِيهِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ مَا وَقَعَ مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ لِظُهُورِ الْأُمُورِ المُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ، وَأَشَدُّ ذَلِكَ الْأَقْوَاتُ؛ فَفِيهَا مِنَ الْحَرَامِ المَحْضِ وَمِنَ الشُّبَهِ مَا لَا يَخْفَى؛ حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يَتَوَقَّفُ فِي شَيْءٍ، وَمَهْمَا قَدَرَ عَلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ هَجَمَ عَلَيْهِ وَلَا يُبَالِي، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْبَرَكَةَ فِي الزَّمَانِ وَفِي الرِّزْقِ وَفِي النَّبْتِ، إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقِ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَاتِّبَاعِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، وَالشَّاهِدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ كَلَامِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى[٣].

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي أَوْقَاتِنَا وَأَعْمَارِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَرْزَاقِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَالمُسْلِمِينَ مُبَارَكِينَ أَيْنَمَا كُنَّا؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.

❁ ❁ ❁

(٣) ينظر: فتح الباري لابن حجر (١٣/ ١٧).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ، كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ هَدَى مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ لِلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِأَنْوَاعِ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ، وَشَرَعَ لَهُمُ الصِّيَامَ وَالْقِيَامَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ، وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- وَأَحْسِنُوا اسْتِقْبَالَ شَهْرِكُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالِاجْتِهَادِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ؛ فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ وَآخِرَتِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ؛ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النَّجم: ٣٩-٤١]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٨].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ مِمَّا نُشَاهِدُهُ وَنُحِسُّهُ قِلَّةَ الْبَرَكَةِ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَعْمَارِ، رَغْمَ قُرْبِ الْمَسَافَاتِ، وَكَثْرَةِ وَسَائِلِ الِاتِّصَالِ وَالْمُوَاصَلَاتِ، وَهَذَا مِصْدَاقٌ لِلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فِي تَقَارُبِ الزَّمَانِ.

إِنَّ النَّاسَ فِي زَمَنِنَا هَذَا مَشْغُولُونَ دَائِمًا، وَلَا يُنْتِجُونَ شَيْئًا، وَيَلْهَثُونَ بِاسْتِمْرَارٍ، وَلَا يُنْجِزُونَ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَوَصَلَ أَهْلُ الْقُبُورِ قُبُورَهُمْ، وَقَدْ كَانَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا آمَالٌ وَطُمُوحَاتٌ، وَأَعْمَالٌ وَمَشْرُوعَاتٌ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا الْمَوْتُ، فَفَارَقُوا الدُّنْيَا وَلَمْ تَنْتَهِ مَشَاغِلُهُمْ وَآمَالُهُمْ.

وَفِي زَمَنِ ثَوْرَةِ الْمُوَاصَلَاتِ وَالِاتِّصَالَاتِ الَّتِي قَرَّبَتِ الْبَعِيدَ، وَاخْتَصَرَتِ الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ؛ فَإِنَّ الْأَرْحَامَ تُقْطَعُ، وَيَتَهَاجَرُ الْجِيرَانُ، وَيَمْكُثُ الْقَرِيبُ عَنْ

قَرِيبِهِ -وَهُوَ فِي مَدِينَتِهِ- زَمَنًا طَوِيلًا يَتَعَدَّى أَشْهُرًا، وَرُبَّمَا يَتَجَاوَزُ السَّنَةَ، وَقَدْ يَمْرَضُ وَلَا يَعْلَمُ عَنْهُ شَيْئًا، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَشْغُولٌ عَنِ الْآخَرِ، وَلَا نَتَائِجَ تُذْكَرُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأَشْغَالِ.

وَبِمَا أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَارَبُ، وَيَزْدَادُ تَقَارُبُهُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ؛ حَتَّى تَمْضِيَ الشُّهُورُ وَالْأَعْوَامُ، وَلَا يُحِسَّ النَّاسُ بِهَا، وَمَشَاغِلُ النَّاسِ وَطُمُوحَاتُهُمْ تَتَجَاوَزُ أَعْمَارَهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ . . . بِمَا أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْعَاقِلَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُرَتِّبُ أَعْمَالَهُ؛ فَيُقَدِّمُ الْأَهَمَّ مِنْهَا عَلَى المُهِمِّ، وَالْفَاضِلَ عَلَى المَفْضُولِ، وَمَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِذَا مَا تَعَارَضَ عَمَلُ الدُّنْيَا مَعَ عَمَلِ الْآخِرَةِ، قُدِّمَ عَمَلُ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَأَبْقَى.

وَإِذَا تَزَاحَمَتِ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ عَلَيْهِ، قَدَّمَ الْفَرَائِضَ عَلَى النَّوَافِلِ، وَالْوَاجِبَاتِ عَلَى المَنْدُوبَاتِ، وَقَدَّمَ مَا كَانَ نَفْعُهُ مُتَعَدِّيًا عَلَى مَا كَانَ نَفْعُهُ قَاصِرًا، وَإِذَا مَا أَدْرَكَ أَزْمِنَةً فَاضِلَةً، كَالْجُمُعَةِ وَرَمَضَانَ، وَعَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، خَصَّهَا بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ؛ لِفَضِيلَةِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا، وَأَهْلُ التِّجَارَةِ يَخُصُّونَ مَوَاسِمَهُمْ بِمَزِيدِ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ طُلَّابُ الدُّنْيَا أَكْثَرَ حَصَافَةً وَاهْتِبَالًا لِلْفُرَصِ مِنْ طُلَّابِ الْآخِرَةِ.

إِنَّ أَعْمَارَنَا -وَإِنْ طَالَتْ- فَلَنْ تَسْتَوْعِبَ آمَالَنَا وَطُمُوحَاتِنَا وَمَشْرُوعَاتِنَا الَّتِي تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ مَعَ نَقْصِ أَعْمَارِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ يَمْضِي عَلَيْنَا، وَمِنَ الْخَسَارَةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ يَمْضِيَ عُمْرُ أَحَدِنَا وَقَدْ فُرِّقَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَشُتِّتَ شَمْلُهُ، وَقَسَا قَلْبُهُ، وَهُوَ لَا يَزَالُ يَعِدُ نَفْسَهُ بِأَعْمَالٍ صَالِحَةٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّهَا تَظَلُّ حَبِيسَةَ أَمَانِيهِ وَوُعُودِهِ، وَلَا تَحْظَى بِشَيْءٍ مِنْ وَقْتِهِ وَعُمُرِهِ، حَتَّى يُوَسَّدَ فِي قَبْرِهِ.

إِنَّكُمْ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- تَسْتَقْبِلُونَ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْآخِرَةِ، وَسَيَحْظَى مَنْ أَدْرَكَهُ

مِنْكُمْ بِعَطِيَّةٍ مِنْ عَطَايَا رَبِّكُمْ ﷻ فَحَرَامٌ عَلَيْهِ، ثُمَّ حَرَامٌ أَنْ يُفَرِّطَ فِيهِ، وَلَا يُولِيَهُ عِنَايَتَهُ وَاهْتِمَامَهُ؛ مَوْسِمٌ مَنْ أَدْرَكَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَهُوَ مَحْرُومٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٤).

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ: مَنْ أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، قُلْ: آمِينَ، فَقُلْتُ: آمِينَ**» صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ(٥).

وَقَدْ عَوَّدَنَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ فِيمَا مَضَى مِنْ رَمَضَانَاتٍ بِإِفْسَادِ صِيَامِ الصَّائِمِينَ، وَقِيَامِ الْقَائِمِينَ، وَإِذْهَابِ وَقَارِ رَمَضَانَ بِمَا يَعْرِضُونَهُ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ؛ مِنْ إِثْمٍ وَقِمَارٍ، وَفُجُورٍ وَسُخْرِيَةٍ بِالنَّاسِ، وَاسْتِهْزَاءٍ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَفْضٍ لِشَرِيعَتِهِ، وَتَعَدٍّ عَلَى حُدُودِهِ، وَتَمَرُّدٍ عَلَى أَحْكَامِهِ، وَقَبْلَ أَشْهُرٍ مِنْ رَمَضَانَ وَهُمْ يَسْتَبِقُونَ لِجَرِّ الصَّائِمِينَ وَالْقَائِمِينَ إِلَى فَضَائِيَّاتِهِمُ الْآثِمَةِ، بِمَا يَعْرِضُونَهُ مِنْ دِعَايَاتٍ لِبَرَامِجِهِمُ الْفَاجِرَةِ.

فَيَا لَخَسَارَةِ مَنْ تَبِعَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ، وَوَافَقَهُمْ فِي إِفْكِهِمْ، وَقَضَى رَمَضَانَ مُتَنَقِّلًا بَيْنَ بَرَامِجِهِمْ، وَشَهِدَ مَشَاهِدَ الزُّورِ مَعَهُمْ! وَنَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»(٦).

---

(٤) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: الترمذي في الدعوات، باب قول رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنف رجل» وقال: حسن غريب (٣٥٤٥)، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٩٠٨).

(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في الأدب المفرد برقم (٦٤٦)، والبزار (٣١٦٩)، وصححه ابن خزيمة (١٨٨٨)، وابن حبان (٩٠٧).
وأخرجه من حديث مالك بن الحويرث ﵁: ابن حبان (٤٠٩).

(٦) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم (١٩٠٣).

وَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُبَشِّرُونَ بِهِ المُسْلِمِينَ فِي فَضَائِيَّاتِهِمْ لَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْجَهْلِ، وَأَكْبَرِ الزُّورِ، وَإِنَّ مِنْ أَقَلِّ دَرَجَاتِ إِنْكَارِ هَذَا الْجَهْلِ وَالزُّورِ مُجَانَبَةَ مَجَالِسِهِ، وَحِفْظَ الْبُيُوتِ وَالْأُسَرِ مِنْ شَرِّهِ وَبَلَائِهِ؛ حِفْظًا لِصِيَامِهِمْ مِمَّا يُخَرِّقُهُ، وَلِقُلُوبِهِمْ مِمَّا يُفْسِدُهَا، وَشُكْرًا للَّهِ تَعَالَى عَلَى إِدْرَاكِ رَمَضَانَ.

اللَّهُمَّ سَلِّمْنَا إِلَى رَمَضَانَ، وَسَلِّمْهُ لَنَا، وَتَسَلَّمْهُ مِنَّا مُتَقَبَّلًا، وَوَفِّقْنَا فِيهِ لِلْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيكَ، آمِينَ، آمِينَ، آمِينَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ . . .



٣٨٩- جنة الخلد (١)
الأسماء والأوصاف

٥/ ١١/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى بِنُزُولِ الْغَيْثِ، فَارْتَوَتِ الْأَرْضُ بِالمَاءِ، فَأَنْبَتَتْ عُشْبَهَا، وَاكْتَسَتْ بِخُضْرَتِهَا، وَطَابَ رِيحُهَا؛ فَإِنَّ كُلَّ حَيٍّ لَا يَمَلُّ النَّظَرَ إِلَيْهَا، وَالِاسْتِمْتَاعَ بِهَا.

وَإِذَا قُدِّرَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَرَى بِلَادًا قَدِ اخْضَرَّتْ أَرْضُهَا، وَجَرَتْ أَنْهَارُهَا، وَأَزْهَرَتْ أَشْجَارُهَا، وَأَيْنَعَتْ ثِمَارُهَا، وَطَابَ هَوَاؤُهَا؛ فَإِنَّهُ يَأْنَسُ فِيهَا، وَيَتَمَنَّى عَدَمَ مُفَارَقَتِهَا.

وَإِذَا دَخَلَ الْإِنْسَانُ بُسْتَانًا كَثُرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَوَفَّرَ مَاؤُهُ، وَرُتِّبَ بُنْيَانُهُ، وَدَنَتْ ثِمَارُهُ؛ فَإِنَّهُ يُطِيلُ الْمُكْثَ فِيهِ، وَيُقَلِّبُ بَصَرَهُ فِي نَوَاحِيهِ.

وَإِذَا حَضَرَ إِنْسَانٌ شُرُوقَ الشَّمْسِ فِي غَابَةٍ كَثِيفَةٍ، وَرَأَى أَشِعَّتَهَا تَتَخَلَّلُ أَشْجَارَهَا، أَوْ حَضَرَ غُرُوبَ الشَّمْسِ فِي بَحْرٍ أَوْ بُحَيْرَةٍ، وَأَبْصَرَ قُرْصَهَا يَسْقُطُ فِيهَا؛ فَلَنْ يَجِدَ مَنْظَرًا أَجْمَلَ مِنْهُ، وَلَنْ يَعْثُرَ عَلَى صُورَةٍ تُقَرِّبُ صُورَتَهُ.

وَإِذَا دَخَلَ قَصْرًا مُنِيفًا قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ حَدَائِقُ غَنَّاءُ، يَخْتَلِطُ فِيهَا خَرِيرُ الْمَاءِ بِحَفِيفِ الْأَشْجَارِ، وَبِدَاخِلِهِ مِنَ التُّحَفِ وَالنَّوَادِرِ، وَالْأَثَاثِ وَالْمَتَاعِ، وَالزِّينَةِ وَالزَّخَارِفِ مَا لَا يُوصَفُ؛ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى مِلْكَهُ وَسُكْنَاهُ.

كُلُّ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ نَرَى شَيْئًا يَسِيرًا مِنْهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنْ بَسَاتِينِ الْأَرْضِ وَبِحَارِهَا، وَأَنْهَارِهَا وَقُصُورِهَا، وَمَا فِيهَا؛ أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُهُ، وَمَا لَمْ نَرَهُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِمَّا رَأَيْنَاهُ! هَذَا عَدَا مَا فِيهَا مِنَ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ، وَأَنْوَاعِ الزِّينَةِ وَالْمَتَاعِ، مِمَّا لَا يُوصَفُ مِنْ كَثْرَتِهِ وَتَنَوُّعِهِ.

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ الْمُتَّقِينَ جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

كُلُّ مَا فِي الدُّنْيَا مِمَّا رَأَيْنَاهُ وَمَا لَمْ نَرَهُ، وَمَا سَمِعْنَا عَنْهُ وَمَا لَمْ نَسْمَعْ، وَمَا وُصِفَ لَنَا وَمَا لَمْ يُوصَفْ لَنَا، مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهُ[١]، وَخِمَارٌ قَصِيرٌ عَلَى رَأْسِ الْحُورِ الْعِينِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَلَوِ اطَّلَعَتْ وَاحِدَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْهَا رِيحًا وَجَمَالًا[٢]، ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

---

(١) كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»** أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨).

(٢) كما في حديث أنس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: **«لروحة في سبيل الله أو غدوة** =

اسْتَحَقَّتِ اسْمَ الْجَنَّةِ حَتَّى صَارَ عَلَمًا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا مَكْسُوَّةٌ بِالْخُضْرَةِ، مَسْتُورَةٌ بِالْأَشْجَارِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ اسْمَ الْجَنَّةِ إِلَّا بُسْتَانٌ كَثُرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَنَوَّعَتْ ثِمَارُهُ، وَجَرَى مَاؤُهُ[٣].

وَأَعْظَمُ جَنَّةٍ فِي الْأَرْضِ لَيْسَتْ تُسَاوِي عُودًا بِالنِّسْبَةِ لِجَنَّةِ الْخُلْدِ: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦].

فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا يُوصَفُ كَثْرَةً وَتَنَوُّعًا وَلَذَّةً؛ وَلِذَلِكَ أُضِيفَ النَّعِيمُ إِلَيْهَا فَقِيلَ: جَنَّاتُ النَّعِيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]، وَسَأَلَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام رَبَّهُ عز وجل فَقَالَ: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥].

يَأْوِي إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ، فَيَتَبَوَّأُونَ مِنْهَا مَنْزِلًا، وَتَكُونُ لَهُمْ مَقَامًا وَنُزُلًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النَّازعات: ٤٠، ٤١]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

هِيَ دَارُ الْخُلْدِ، وَجَنَّةُ الْخُلْدِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا لَا يَظْعَنُونَ عَنْهَا، وَلَا يَرْتَحِلُونَ إِلَى غَيْرِهَا أَبَدًا[٤]: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، أَيْ: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، بَلْ هُوَ دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ مُسْتَقِرٌّ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

= خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم من الجنة أو موضع قيد -يعني: سوطه- خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب الحور العين وصفتهن (٢٦٤٣).

(٣) ينظر: حادي الأرواح (١٣٨).

(٤) ينظر: حادي الأرواح (١٤١).

وَمَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ وَالمَتَاعِ مِمَّا يَتَنَعَّمُ بِهِ أَهْلُهَا دَائِمٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ، كَامِلٌ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ مِنْ أَهْلِهَا.

يَفْرَحُ أَهْلُهَا بِخُلُودِهِمْ فِيهَا، وَيَلْهَجُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ قَائِلِينَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَلَا دَارَ بَعْدَهَا، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ دَخَلَهَا إِلَّا التَّمَتُّعُ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

يَحْيَوْنَ فِيهَا حَيَاةً خَالِدَةً فَلَا يَمُوتُونَ، وَلَا يَمْرَضُونَ، وَلَا يَهْرَمُونَ، وَيَنْعَمُونَ فَلَا يَبْأَسُونَ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وَلَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِأَنْ يُخَيِّرَ زَوْجَاتِهِ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَمَتَاعِهَا وَزِينَتِهَا وَبَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ بَدَأَ ﷺ بِعَائِشَةَ رضي الله عنها فَقَالَ لَهَا: «**إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلَا عَلَيْكِ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ، ثُمَّ خَيَّرَهَا بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**، فَقَالَتْ رضي الله عنها: فِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانُ[٥].

هِيَ دَارُ السَّلَامِ الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا الرَّحْمَنُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن

(٥) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها: البخاري في التفسير، باب ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] (٤٥٠٨)، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية (١٤٧٥).

يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فَمَنِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَاتَّبَعَ رُسُلَهُ، وَسَلَكَ صِرَاطَهُ المُسْتَقِيمَ؛ فَهُوَ المُسْتَحِقُّ لَهَا: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦، ١٢٧].

وَهَلْ دَارٌ تَسْتَحِقُّ اسْمَ السَّلَامِ غَيْرُهَا، وَهِيَ دَارُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْ أَسْمَائِهِ جَلَّ جَلَالُهُ: السَّلَامُ؟! ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فَهِيَ دَارُ السَّلَامِ؛ لِأَنَّهَا دَارُ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ سَلَّمَهَا اللهُ ﷻ مِنْ كُلِّ الْآفَاتِ وَالمَكْرُوهَاتِ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ خَزَنَتَهَا مِنَ المَلَائِكَةِ يُبَشِّرُونَ أَهْلَهَا بِأَنَّهُمْ سَالِمُونَ، وَيَسْتَقْبِلُونَهُمْ بِالسَّلَامِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣]، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وَهِيَ كَذَلِكَ سَالِمَةٌ مِنَ اللَّغْوِ وَالتَّأْثِيمِ، وَمِنْ كُلِّ كَلَامٍ قَبِيحٍ، وَيَسْلَمُ أَهْلُهَا مِنْ سَمَاعِ مَا لَا يَسُرُّهُمْ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ؛ لِأَنَّ السَّلَامَةَ قَدْ كُتِبَتْ لَهُمْ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وَيَكْفِيهِمْ سَلَامًا بُشْرَى رَبِّهِمْ لَهُمْ بِالسَّلَامِ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨][٦].

وَهِيَ دَارٌ حَسَنَةٌ، قَدْ زَيَّنَهَا الرَّحْمَنُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَجَعَلَهَا مَوْئِلًا لِعِبَادِهِ، وَمُسْتَقَرًّا لِأَحْبَابِهِ؛ فَاسْتَحَقَّتْ أَنْ تُسَمَّى بِالْحُسْنَى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

---

(٦) ينظر: حادي الأرواح (١٤٠).

[يونس: ٢٦]، وَقَدْ جاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ما يُفِيدُ أَنَّ: الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيادَةَ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ(٧).

مَنْ دَخَلَهَا فَهُوَ آمِنٌ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَلَا يَنالُهُ أَيُّ سُوءٍ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥٢]، فَأَهْلُهَا آمِنُونَ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، آمِنُونَ مِنْ نَقْصِ النَّعِيمِ فِيهَا، آمِنُونَ مِنْ أَيِّ كَدَرٍ أَوْ تَنْغِيصٍ، آمِنُونَ مِنَ الْمَوْتِ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدُّخان: ٥٦]، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

وَقَدْ وُصِفَ إِدْخالُهُمْ لِلْجَنَّةِ بِالْإِكْرامِ؛ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ؛ بَلْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْإِكْرامِ: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، قَالَ السَّمْعَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «فَالمَدْخَلُ -بِفَتْحِ الْمِيمِ-: الْجَنَّةُ، وَالمُدْخَلُ -بِضَمِّهَا-: الْإِدْخالُ، يَعْنِي إِدْخَالًا كَرِيمًا»(٨)؛ وَذَلِكَ إِرْضَاءً لَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيا؛ كَما قَالَ

(٧) جاء في صحيح مسلم (٢٩٧)، من حديث صهيب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخِلْنَا الجنة، وتنجنا من النَّار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيْئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم** ﷻ، **ثم تلا هذه الآية** ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]».
وجاء عن الصحابة رضي الله عنهم أقوال كثيرة متواترة تفيد هذا المعنى، وهي وإن كانت موقوفة فلها حكم الرفع؛ لأنها إخبار عن غيب لا يعلم إلا بالوحي، وقد ذكر الحفاظ هذه الآثار في الرد على منكري الرؤية من المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة، ينظر: السنة لعبد الله بن أحمد (٥١-٥٢)، والرد على الجهمية للدارمي (٣٠٣-٣٠٤)، والشريعة للآجري (٢٥٧)، والسنة لابن أبي عاصم (٤٧٣)، والرؤية للدارقطني (٥٦-٢١٠-٢١٣-٢٢٤)، والسنة للالكائي (٧٧٨-٧٧٩-٧٨٣-٧٨٤-٧٨٥-٧٨٧).

(٨) تفسير السمعاني (١/ ٤٢١).

سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٨، ٥٩](٩).

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا وَوَالِدِينَا وَأَحِبَّاءَنَا وَإِخْوَانَنَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَنْ يَجْعَلَهَا لَنَا مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزُّمر: ٧٣، ٧٤].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ...



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، نَحْمَدُهُ عَلَى إِحْسَانِهِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَامْتِنَانِهِ، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِنَيْلِ غُفْرَانِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَرْجُو بِهَا النَّجَاةَ يَوْمَ لِقَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفِيُّهُ وَخَلِيلُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

---

(٩) ينظر: المفردات (١/ ١٦٦).

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- وَنَافِسُوا فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَسَابِقُوا إِلَى المَغْفِرَةِ وَالْجَنَّةِ؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِأَهْلِ التَّقْوَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

هِيَ دَارُهُمْ وَمَحِلَّتُهُمْ، وَمَكَانُ إِقَامَتِهِمْ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠، ٣١].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْجَنَّةُ اسْمٌ شَامِلٌ لِجَمِيعِ مَا حَوَتْهُ مِنَ الْبَسَاتِينِ وَالمَسَاكِنِ وَالْقُصُورِ(١٠)، وَهِيَ جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى!! دَلِيلُ ذَلِكَ: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ: «أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ -أَيْ: لَا يُعْرَفُ رَامِيهِ- فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ. قَالَ ﷺ: **يَا أُمَّ حَارِثَةَ: إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوسَ الْأَعْلَى**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ فِي جَنَّةٍ**»(١١).

لِكُلِّ وَاحِدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّتَانِ، وَالْمُؤْمِنُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ فَلَهُ جَنَّتَانِ عَالِيَتَانِ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٤٦]، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، فَلَهُ جَنَّتَانِ دُونَ الْأُولَيَيْنِ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٦٢]، قَالَ الْعُلَمَاءُ: «وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُ جَنَّتَيْنِ؛ لِأَنَّهُ امْتَثَلَ

---

(١٠) ينظر: حادي الأرواح (١٤٨).

(١١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٦٥٤)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمنون (٣١٧٤)، وأحمد (٣/ ٢٦٠)، واللفظ للبخاري، والرواية الثانية لأحمد (٣/ ٢٨٣).

أَوَامِرَ اللَّهِ تَعَالَى، وَاجْتَنَبَ نَوَاهِيَهُ؛ فَجَنَّةٌ جَزَاءُ أَدَاءِ الْأَوَامِرِ، وَجَنَّةٌ جَزَاءُ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ»(١٢).

وَجَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»**(١٣).

إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي الدُّنْيَا لَيُدْهَشُ حِينَ يَرَى ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً، وَالنَّاسُ يُخَزِّنُونَ هَذَيْنِ الْمَعْدِنَيْنِ فِي آمَنِ مَكَانٍ عِنْدَهُمْ، وَأَقْوَى حِرْزٍ لَدَيْهِمْ، وَهَذَانِ الْمَعْدِنَانِ جَرَتْ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ فِي التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ عَلَيْهِمَا!! وَفِي آخِرِ الزَّمَانِ: **«يُحْسَرُ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَإِذَا سَمِعَ بِهِ النَّاسُ سَارُوا إِلَيْهِ، فَيَقُولُ مَنْ عِنْدَهُ: لَئِنْ تَرَكْنَا النَّاسَ يَأْخُذُونَ مِنْهُ لَيُذْهَبَنَّ بِهِ كُلِّهِ، فَيَقْتَتِلُونَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِئَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ»** رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ ثَمَنِيَّةَ شَيْءٍ قَلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، يَسْتَبِقُ النَّاسُ عَلَيْهِمَا، وَيَبْذُلُونَ نُفُوسَهُمْ مِنْ أَجْلِهِمَا، فَمَا الظَّنُّ بِجَنَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ، كُلُّ مَا فِيهَا مِنْ ذَهَبٍ، وَجَنَّةٍ أُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ، وَكُلُّ مَا فِيهَا مِنْ فِضَّةٍ؟! وَلَيْسَ ذَهَبَ الدُّنْيَا أَوْ فِضَّتَهَا،

---

(١٢) ينظر: حادي الأرواح (١٤٩-١٥١).

(١٣) أخرجه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمن: ٦٢] (٤٥٩٧)، ومسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠)، واللفظ لمسلم، ولفظ البخاري مثله، إلا أنه قال: «رداء الكبر».

(١٤) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: البخاري في الفتن، باب خروج النار (٦٨٠٢)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب (٢٨٩٤).

وأخرجه مسلم من حديث أبي كعب رضي الله عنه واللفظ له (٢٨٩٥).

اللَّذَيْنِ يَشُوبُهُمَا مَا يَشُوبُهُمَا مِنْ كَدَرِ المَعَادِنِ، وَغِشِّ الصَّاغَةِ، وَلَكِنَّهُمَا ذَهَبُ الْجَنَّةِ وَفِضَّتُهَا.

فَمَنِ ابْتَغَى ذَلِكَ، وَأَرَادَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ فَعَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَاكْتِسَابِ الْحَسَنَاتِ، وَالْبُعْدِ عَنِ المُحَرَّمَاتِ.

يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ إِذَا رَأَى مَنْظَرًا أَعْجَبَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَذَكَّرَ مَنَاظِرَ الْجَنَّةِ. لِيَتَذَكَّرْ بَسَاتِينَهَا وَأَشْجَارَهَا وَأَنْهَارَهَا. لِيَتَذَكَّرْ قُصُورَهَا وَأَثَاثَهَا وَحُورَهَا. لِيَتَذَكَّرْ طِيبَ طَعَامِهَا وَشَرَابِهَا وَرِيحِهَا. لِيَتَذَكَّرْ أَنَّ فِيهَا قُصُورًا مُشَيَّدَةً مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ؛ فَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ.

فَإِذَا شَرِبَ مَاءً عَذْبًا، أَوْ رَأَى نَهْرًا يَجْرِي، أَوْ سَيْلًا يَتَدَفَّقُ، أَوَ سَمَاءً تُمْطِرُ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ أَنْهَارًا مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنَّ فِيهَا قُصُورًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

وَكُلُّ نَعِيمٍ يَتَنَعَّمُهُ الْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا فَفِي الْجَنَّةِ مَا هُوَ أَطْيَبُ مِنْهُ وَأَبْقَى وَأَكْمَلُ لَذَّةً وَنَعِيمًا؛ فَأَعِدُّوا لَهَا -عِبَادَ اللَّهِ- عُدَّتَهَا، وَاعْمَلُوا بِعَمَلِ أَهْلِهَا، وَسَارِعُوا إِلَيْهَا، وَسَابِقُوا النَّاسَ عَلَيْهَا، وَنَافِسُوهُمْ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ، وَالْإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ؛ فَإِنَّ الْفَوْزَ وَالسَّعَادَةَ فِي ذَلِكَ، وَلَا فَوْزَ يَعْدِلُهُ، وَلَا سَعَادَةَ مِثْلُهُ؛ فَمَنْ غُلِبَ عَلَيْهَا فَهُوَ المَغْلُوبُ، وَمَنْ حُرِمَهَا فَهُوَ المَحْرُومُ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نُغْلَبَ عَلَيْهَا، أَوْ نُحْجَبَ عَنْهَا، أَوْ نُحْرَمَ نَعِيمَهَا.

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُم كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . . .

٣٩٠- جنة الخلد (٢)
الدرجات والمنازل

١٧/٥/١٤٢٦هـ

الحَمْدُ لِلَّهِ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ ابْتِلَاءٍ وَامْتِحَانٍ، وَجَعَلَ الآخِرَةَ دَارَ الجَزَاءِ وَالقَرَارِ، أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ ابْتَلَى عِبَادَهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ فَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا فِي الجَنَّةِ، وَفَرِيقًا فِي السَّعِيرِ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَاحِبُ اللِّوَاءِ المَعْقُودِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، والحَوْضِ المَوْرُودِ، مَنْ سَأَلَ اللهَ تَعَالَى لَهُ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ؛ عَرَفُوا قَدْرَ الدُّنْيَا فَمَا حَفَلُوا بِهَا، وَعَلِمُوا قَدْرَ الجَنَّةِ فَسَعَوْا لَهَا، وَعَمِلُوا بِعَمَلِ أَهْلِهَا، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّهَا نِعْمَ البِضَاعَةُ لِلدَّارِ الآخِرَةِ، وَجَزَاؤُهَا الجَنَّةُ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

أَيُّهَا النَّاسُ: إِذَا ذُكِرَتِ الجَنَّةُ تَحَرَّكَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِينَ؛ طَمَعًا فِيهَا، وَشَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَهِجَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ اسْتِعْظَامًا لِوَصْفِهَا، وَدُعَاءً بِبُلُوغِهَا، لَا يَرَوْنَ نَعِيمًا فِي الدُّنْيَا -مَهْمَا بَلَغَ- يُدَانِي نَعِيمَ الجَنَّةِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُشَابِهَهُ أَوْ يُمَاثِلَهُ.

قَدْ عَلِمُوا أَنَّهَا جَزَاءُ الإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فَآمَنُوا، وَاجْتَهَدُوا فِيمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنْهَا، وَلَمْ يَتَّكِلُوا عَلَى عَمَلِهِمْ؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ مَهْمَا كَانَتْ لَا تَفِي نِعْمَةً

وَاحِدَةً مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى الغَزِيرَةِ عَلَيْهِمْ، يَلْهَجُونَ بِسُؤَالِ رَبِّهِمْ قَائِلِينَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

وَالحَدِيثُ عَنِ الجَنَّةِ حَدِيثٌ طَوِيلٌ لَا يَنْتَهِي؛ لِأَنَّهَا دَارُ الرَّحْمَنِ، وَخَزَائِنُ الرَّحْمَنِ لَا تَنْفَدُ، وَعَطَايَاهُ لَا تَنْقَطِعُ: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

مَا بَلَغَهَا أَهْلُوهَا إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ، وَإِحْسَانِهِ وَمِنَّتِهِ، نَجَّاهُمْ رَبُّهُمُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ، وَتَابَعَ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ تِلْوَ النِّعْمَةِ؛ فَأَنْعَمَ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ القَبْضَتَيْنِ فَكَانُوا فِي قَبْضَةِ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَكَانَ غَيْرُهُمْ فِي قَبْضَةِ أَصْحَابِ الشِّمَالِ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى لَمَّا تَخَلَّقُوا فِي أَرْحَامِ أُمَّهَاتِهِمْ فَكُتِبُوا فِي السُّعَدَاءِ وَكُتِبَ غَيْرُهُمْ فِي الأَشْقِيَاءِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتُوا كُتِبُوا فِي دِيوَانِ أَهْلِ الجَنَّةِ: **«اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ؛ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى»**(١).

ثُمَّ يُنْعِمُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ بِأَخْذِ كُتُبِهِمُ الَّتِي هِيَ صُكُوكُ الجَنَّةِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ

---

(١) قطعة من حديث البراء بن عازب الطويل، أخرجه أبو داود في السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، وأحمد (٤/ ٢٨٧)، وهناد في الزهد (٣٣٩)، والطبري في تهذيب الآثار (٧٢١)، وابن منده في الإيمان (١٠٦٤)، قال المنذري في الترغيب: حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح (٤/ ١٩٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٧٦).

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]، جَعَلَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، آمِينَ يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

أَيُّهَا الإِخْوَةُ: وَالجَنَّةُ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، بِحَسَبِ إِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣]، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وَفِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤].

دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، يَرَى الأَدْنَى مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ الأَعْلَى فَوْقَهُ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ- كَمَا يَرْفَعُ أَحَدُنَا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيَرَى قَمَرَهَا وَأَنْجُمَهَا؛ رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ.** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ. قَالَ: **بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»(٢).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ فِي الجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ فِي السَّمَاءِ**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٣).

وَدَرَجَاتُهَا لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهَا إِلَّا اللهُ تَعَالَى، لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا

---

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٨٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣١).

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٨٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة الغرف كما يرى الكوكب في السماء (٢٨٣٠).

مِائَةُ دَرَجَةٍ يَخْتَصُّونَ بِهَا: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٤)، وَجَاءَ فِي بَعْضِ الأَحَادِيثِ: «**أَنَّ مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ**»(٥).

وَلَمَّا اسْتُشْهِدَ حَارِثَةُ بنُ سُرَاقَةَ رضي الله عنه فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ أَتَتْ أُمُّهُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ! فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ، قَالَ: «**يَا أُمَّ حَارِثَةَ؛ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى**» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٦).

وَالفِرْدَوْسُ الَّذِي هُوَ أَعْلَى مَنَازِلِ الجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهَا جَاءَ ذِكْرُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ جُمْلَةً مِنْ أَوْصَافِ المُؤْمِنِينَ، فَأَعْقَبَهَا بِقَوْلِهِ عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المومنون: ١٠، ١١]، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «الفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا»(٧).

---

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] (٦٩٨٧).

(٥) أخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: أحمد (٥/ ٣١٦).

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٦٥٤).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٣٦).

وجاء مرفوعًا من حديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه عند: الطبراني في الكبير (٧/ ٢١٣) رقم (٦٨٨٦)، ولا يصح مرفوعًا.

وَأَعْلَى مَنَازِلِ الفِرْدَوْسِ: مَنْزِلَةُ الْوَسِيلَةِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ؛ كَمَا رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٨].

إِنَّ أَعْلَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَفْضَلُ الرُّسُلِ؛كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَفِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا جَاوَزَ مُوسَى قَالَ مُوسَى عليه السلام: «**رَبِّ لَمْ أَظُنَّ أَنْ تَرْفَعَ عَلَيَّ أَحَدًا**»[٩]، ثُمَّ عَلَا النَّبِيُّ ﷺ فَوْقَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ حَتَّى جَاوَزَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى؛ فَكَانَ ﷺ أَحَقَّ الخَلْقِ بِمَنْزِلَةِ الْوَسِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى المَنَازِلِ فِي الجَنَّةِ.

قَالَ ابنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَسُمِّيَتْ دَرجَةُ النَّبِيِّ ﷺ الْوَسِيلَةَ؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الدَّرَجَاتِ إِلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَهِيَ أَقْرَبُ الدَّرَجَاتِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأَصْلُ اشْتِقَاقِ لَفْظِ (الوَسِيلَةِ) مِنَ الْقُرْبِ . . . وَمَعْنَى الْوَسِيلَةِ مِنَ الْوَصْلَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ أَفْضَلَ الجَنَّةِ وَأَشْرَفَهَا وَأَعْظَمَهَا نُورًا . . . قَالَ الْفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: أَتَدْرُونَ لِمَ حَسُنَتِ الجَنَّةُ؟ لِأَنَّ عَرْشَ رَبِّ العَالَمِينَ

---

(٨) أخرجه مسلم في الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة (٣٨٤).

(٩) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح (١٠٥)، وذكره ابن حجر بلفظ مقارب له فقال: وفي رواية شريك عن أنس «لم أظن أحدًا يرفع علي» فتح الباري (٧/ ٢١١). ولم أقف عليه في شيء من الكتب المسندة.

سَقْفُهَا . . .»[١٠]، وَلَمَّا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَعْظَمَ الْخَلْقِ عُبُودِيَّةً لِرَبِّهِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِهِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً، وَأَعْظَمَهُمْ لَهُ مَحَبَّةً؛ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ أَقْرَبَ المَنَازِلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ أَنْ يَسْأَلُوهَا لَهُ؛ لِيَنَالُوا بِهَذَا الدُّعَاءِ زُلْفَى مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَزِيَادَةَ الإِيمَانِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَهَا لَهُ بِأَسْبَابٍ مِنْهَا: دُعَاءُ أُمَّتِهِ لَهُ بِهَا بِمَا نَالُوهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ»[١١] اهـ.

وَمَنْ أَحَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَاتَّبَعَ هَدْيَهُ، وَلَزِمَ سُنَّتَهُ، وَأَطَاعَ أَمْرَهُ، وَاجْتَنَبَ نَهْيَهُ؛ حُشِرَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَهُ، وَلَا يُحْجَبُ عَنْهُ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَتْ مَنْزِلَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ؛ كَمَا رَوَى الطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ، فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ ﵇ بِهَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩][١٢].

---

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٢٠)، والخطيب في تاريخه (٩/ ٣١٢).

(١١) حادي الأرواح (٥٧).

(١٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٧)، والصغير (٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٤٠).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عمران العابدي وهو ثقة (٧/٧) وقال ابن حجر: رجاله موثقون. العجاب في بيان الأسباب (٢/ ٩١٤)، وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه عن عائشة ... فذكره (٢/ ٥٨٨).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَجَزِيلِ عَطَائِهِ وَإِحْسَانِهِ أَنْ يُبَلِّغَنَا مَنَازِلَهُمْ، وَيَرْفَعَنَا إِلَى دَرَجَاتِهِمْ، وَيَحْشُرَنَا مَعَهُمْ، وَوَالِدِينَا وَوَالِدِيهِمْ؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَالحَمْدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الحَمْدُ للَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا يُحِبُّ رَبُّنَا وَيَرْضَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ؛ فَإِنَّ ثَوَابَ ذَلِكَ الجَنَّةُ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةً فِي الجَنَّةِ الرُّسُلُ وَالنَّبِيُّونَ، ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ، وَمِنَ الصِّدِّيقِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، جَاءَ ذَلِكَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

ثُمَّ بَعْدَ الصِّدِّيقِينَ الشُّهَدَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ. وَمَنْ رَافَقَهُمْ؛ فَنِعْمَ الرَّفِيقُ فِي الجَنَّةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مَنْزِلَتُهُ كَمَنَازِلِهِمْ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وَأَمَّا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً فَهَلْ تَرَوْنَ -يَا عِبَادَ اللَّهِ- مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا، وَحَكَمَ الأَرْضَ كُلَّهَا؛ فَإِنَّ مُلْكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً أَعْظَمُ مِنْ مُلْكِهِ، وَصَدَقَ

اللهُ العَظِيمُ العَلِيمُ إِذْ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلْأَى، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا أَوْ إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي أَوْ أَتَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ المَلِكُ**. قَالَ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٣].

وَرَوَى المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ** عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم

---

(١٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٢٠٢)، ومسلم في الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا (١٨٦).

مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ . . الآيَةَ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٤].

وبَيْنَ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ فِي الجَنَّةِ وَأَدْنَاهَا مَنَازِلُ مُتَفَاوِتَةٌ أَعْظَمُ مِنْ تفَاوُتِ أَهْلِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

أَلَا فَشَمِّرُوا -عِبَادَ اللَّهِ- عَنْ سَوَاعِدِ الجِدِّ فِي تَحْصِيلِ أَعْلَى دَرَجَاتِهَا، وَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَيْهَا أَقْوَامٌ هُمْ أَقَلُّ مِنْكُمْ فِي دَرَجَاتِ الدُّنْيَا، بَلِ اغْلِبُوهُمْ عَلَيْهَا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَذِكْرٍ، وَصَدَقَاتٍ، وَأَمْرٍ بِالمَعْرُوفِ، وَنَهْيٍ عَنِ المُنْكَرِ، وَبِرٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةٍ لِلْأَرْحَامِ، وَنَفْعٍ لِلنَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ البِرِّ وَالإِحْسَانِ، مَعَ اجْتِنَابِ المُحَرَّمَاتِ وَالمُوبِقَاتِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَلَغَ المَنَازِلَ الْعَالِيَةَ فِي الجَنَّةِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ.

وَإِذَا كَانَتِ الدُّنْيَا تُنَالُ بِالجِدِّ وَالْعَمَلِ، كَمَا تُنَالُ بِالْحَسَبِ وَالنَّسَبِ، وَتُتَاحُ فُرَصُهَا لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَهِيَ عَلَى كُلِّ حَالٍ غَيْرُ مَضْمُونَةٍ؛ فَقَدْ يَحُوزُهَا المَرْءُ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِهَا لِمَرَضٍ أَوْ عِلَّةٍ، وَهُوَ زَائِلٌ عَنْهَا لَا مَحَالَةَ . . . إِذَا كَانَ هَذَا حَالَ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا؛ فَإِنَّ مَنَازِلَ الجَنَّةِ مُتَاحَةٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ، وَهِيَ الدَّارُ المَضْمُونَةُ فِي بَقَائِهَا، وَلَذَّةُ مَنْ بَلَغَهَا بِهَا لَذَّةٌ لَا تَعْدِلُهَا كُلُّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَلَا يُوَصِّلُ إِلَيْهَا إِلَّا الإِيمَانُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا حَسَبٌ وَلَا نَسَبٌ؛ عَدْلًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ عِبَادِهِ، وَمَا نَفَعَ امْرَأَتَيْ نُوحٍ وَلُوطٍ أَنَّ زَوْجَيْهِمَا نَبِيَّانِ، وَلَا أَوْصَلَتْ أَبَا طَالِبٍ الجَنَّةَ عُمُومَتُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا أَنْجَى ابنَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ نَبِيًّا.

وَكُلُّ عَامِلٍ يَجِدُ مَا عَمِلَ؛ فَاسْتَوْدِعُوا الخَيْرَ صَحَائِفَ أَعْمَالِكُمْ تَجِدُوهُ غَدًا

---

(١٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٨٩).

مُحْضَرًا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ.



٣٩١- نار الآخرة (١)
أسماؤها وأوصافها

٦/ ٦/ ١٤٢٥هـ

الْحَمْدُ للَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَيُّهَا النَّاسُ: خَلَقَ اللهُ تَعَالَى بَنِي آدَمَ لِعِبَادَتِهِ، وَكَلَّفَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، وَحَمَّلَهُمْ أَمَانَةً عَجَزَ عَنْ حَمْلِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فَمَنْ أَدَّى هَذِهِ الْأَمَانَةَ الْعَظِيمَةَ كَانَ فِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ أَبَدًا، وَمَنْ ضَيَّعَهَا كَانَ لَهُ الْعَذَابُ الْخَالِدُ أَبَدًا.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩]، ﴿فَمَن

ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨، ٤٩]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ الْءَاخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].

وَشِدَّةُ الْحَرِّ فِي الدُّنْيَا تُذَكِّرُ الْعَبْدَ بِشِدَّةِ الْحَرِّ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَإِنْ أَصَابَتْهُ أَشِعَّةُ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ قَائِظٍ، تَذَكَّرَ أَنَّ هَذِهِ الشَّمْسَ سَتَكُونُ مِنْهُ عَلَى مِقْدَارِ مِيلٍ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَشْنَعُ، وَأَكْثَرُ هَوْلًا وَأَفْظَعُ، وَأَشَدُّ خَوْفًا وَأَفْجَعُ: نَارُ جَهَنَّمَ أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، جَاءَ وَصْفُهَا بِمَا يُخَوِّفُ الْعِبَادَ مِنْهَا، وَيُحَفِّزُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ؛ اتِّقَاءً لَهَا، وَبُعْدًا عَنْهَا وَعَمَّا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وَالنَّارُ يَعْرِفُهَا كُلُّ إِنْسَانٍ، بَلِ الْأَطْفَالُ الَّذِينَ لَمْ تَكْتَمِلْ عُقُولُهُمْ يَفْزَعُونَ مِنْهَا، وَيَخَافُونَ لَهَبَهَا، والمجَانِينُ الَّذِينَ سُلِبَتْ عُقُولُهُمْ يَحُسُّونَهَا، وَيَعْرِفُونَ حَرَارَتَهَا فَلَا يَقْرَبُونَهَا، وَالْحَيَوَانَاتُ الَّتِي لَا عُقُولَ لَهَا تَفِرُّ مِنْهَا عِنْدَ اشْتِعَالِهَا!!

فَإِذَا كَانَ كُلُّ حَيٍّ فِي الدُّنْيَا يَهْرُبُ مِنْ نَارِهَا؛ فَمَا بَالُ أَكْثَرِ بَنِي آدَمَ مِمَّنْ أَعْطَاهُمُ اللهُ تَعَالَى عُقُولًا يَعْقِلُونَ بِهَا النَّارَ، وَأَبْصَارًا يُشَاهِدُونَ لَهَبَهَا وَشِدَّةَ حَرْقِهَا؛ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا تُورِدُهُمْ نَارَ الْآخِرَةِ؟! وَمَا نَارُ الدُّنْيَا إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْهَا، حَتَّى اخْتُصَّتْ نَارُ الْآخِرَةِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- بِأَسْمَاءٍ مَا سُمِّيَتْ بِهَا نَارُ الدُّنْيَا، وَوُصِفَتْ بِأَوْصَافٍ لَمْ تُوصَفْ بِهَا النَّارُ الَّتِي نُشَاهِدُهَا وَنُحِسُّهَا.

فَنَارُ الْآخِرَةِ بَعِيدٌ قَعْرُهَا، شَدِيدَةٌ ظُلْمَتُهَا؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ جَهَنَّمَ، مِنَ الْجُهْمَةِ،

وَهِيَ أَوَّلُ مَآخِيرِ اللَّيْلِ؛ لِاشْتِدَادِ ظُلْمَتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ[١].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وقال النبي ﷺ: «**إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[٢].

وَشِدَّةُ ظُلْمَتِهَا ثَابِتَةٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «أَتَرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هَذِهِ؟ لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ» وَالْقَارُ: الزِّفْتُ. رَوَاهُ مَالِكٌ[٣].

وَأَمَّا شِدَّةُ انْحِدَارِهَا، وَبُعْدُ قَعْرِهَا، فَجَاءَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٩-١١]. وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّ رُوحَ الْكَافِرِ إِذَا قُبِضَتْ يُذْهَبُ بِهَا إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ[٤]، أَيْ: مُسْتَقَرُّهُ

---

(١) قال في اللسان (١٢/ ١١١) مادة: (جهم): «الجَهْمَةُ والجُهْمَةُ أول مآخير الليل، وقيل: هي بقية سواد من آخره»، وقال أيضًا (١٢/ ١١٢) في مادة (جهنم): «الجهِنَّام: القعْر البعيد، وبئر جهنم بعيدة القعر، وبه سميت جهنم لبعد قعرها ..»، ثم نقل عن الأزهري قولان لعلماء اللغة في أصلها:
الأول: قول يونس بن حبيب وأكثر النحويين أنها أعجمية لا تُجْرَى للتعريف والعُجْمَة.
الثاني: قول آخرين: جَهَنّم عَربِيّ، سُمِّيَتْ نار الآخرة بها؛ لبُعْدِ قعْرِهَا، وإنما لم تُجْرَ لِثِقَلِ التَّعْرِيفِ وثِقَلِ التَّأْنِيث» اهـ من اللسان.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر(٥١٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر(٦١٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وجاء عن ابن عمر وأبي ذر وأبي سعيد ﷺ.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٤)، وذكر ابن عبد البر في الاستذكار: «أن هذا الحديث موقوف على أبي هريرة ومعناه مرفوع؛ لأنه لا يدرك مثله بالرأي، ولا يكون إلا توقيفًا» اهـ.

(٤) ثبت ذلك في حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، في قصة احتضار المؤمن واحتضار الكافر، وفيه: «فيقولون: دعوه؛ فإنه كان في غم في الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ =

الْهَاوِيَةُ، وَالْهَاوِيَةُ كُلُّ مَهْوَاةٍ لَا يُدْرَكُ قَعْرُهَا[٥].

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»[٦].

وَكَوْنُهَا -أَجَارَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- فِي مَهْوَاةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ مِنْ حَرِّهَا، وَمَعَ شِدَّةِ حَرِّهَا فَهِيَ نَارٌ تُوقَدُ عَلَى نَارٍ؛ لِيَتَضَاعَفَ حَرُّهَا، وَيَزْدَادَ عَذَابُ أَهْلِهَا ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦، ٧]. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْجَحِيمِ؛ لِأَنَّ مَكَانَهَا شَدِيدُ الْحَرَارَةِ؛ وَلِأَنَّهَا نَارٌ تُوقَدُ عَلَى نَارٍ[٧] ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ

= قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية ...» أخرجه النسائي في الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٤/ ٨)، وصححه ابن حبان (٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٥٠٤).
وجاء أيضًا عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عند: ابن المبارك في الزهد (٤٤٣)، والطبراني في الكبير (٤/ ١٢٩-١٣٠) برقم (٣٨٨٧-٣٨٨٩) وإسناده ضعيف.

(٥) قال الجوهري كما في مختار الصحاح (١/ ٢٩٣) «هاوية: اسم من أسماء النار وهي معرفة بغير ألف ولام، قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ أي: مستقره النار» اهـ.
وفي اللسان (١٥/ ٣٧٥) مادة (هوى): «فأمه هاوية، أي: مَسْكَنُهُ جهنم ومستقره النار، ونقل عن الفراء قول بعضهم: هذا دعاء عليه، كما تقول: هوت أمه، فهي هاوية، أي: تأكله، وقال بعضهم: أمه هاوية: صارت هاوية، مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لا مأوى له غيرها أمًّا له، وقيل: المعنى: أم رأسه تهوي في النار ... والهاوية: كل مهواة لا يُدْرَك قعرها» اهـ.

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤)، وأحمد (٢/ ٣٧١)، وأبو يعلى (٦١٧٩)، وابن حبان (٧٤٦٩).

(٧) قال في العين (٣/ ٨٧): «الجحيم: النار الشديدة التأجج والالتهاب».
وقال في اللسان (١٢/ ٨٤): «وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّفات: ٩٧]، ونقل عن ابن سيده: الجحيم النار =

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدُّخان: ٤٧]، وَجَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَأْنِ رَمَضَانَ أَنَّهُ تُغْلَقُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَحِيمِ(٨).

وَلِبُعْدِ قَعْرِهَا، وَشِدَّةِ حَرِّهَا؛ فَإِنَّهَا تُؤْذِي أَهْلَهَا إِيذَاءً شَدِيدًا، وَيُحِسُّونَ أَلَمَهَا وَشِدَّتَهَا، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: سُمِّيَتِ النَّارُ سَقَرًا؛ لِأَنَّهَا تُذِيبُ الْأَجْسَامَ وَالْأَرْوَاحَ، ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨](٩).

وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدَّثر: ٢٦-٣٠].

وَهِيَ كَذَلِكَ شَدِيدَةُ الاشْتِعَالِ وَالِاتِّقَادِ وَالِارْتِفَاعِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالسَّعِيرِ(١٠) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].

وَمِنْ شِدَّةِ لَهَبِهَا أَنَّهَا تَلَظَّى، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾

= الشديدة التأجج، كما أجَجوا نار إبراهيم النبي على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فهي تجحم جحومًا، أي: توقد توقدًا» اهـ.

وقال ابن الأثير في النهاية (١/ ٢٤١): «وأصله ما اشتد لهبه من النيران» اهـ.

(٨) كما في حديث أبي هريرة ﷺ عند: أحمد (٢/ ٢٣٠)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٧٣)، والنسائي في الصيام، باب ذكر الاختلاف على معمر فيه (٤/ ١٢٩)، وعبد بن حميد (١٤٢٩).

(٩) وسقر غير منصرف؛ لأنه معرفة وأعجمي، وقيل: بل هو عربي، من: سقرته الشمس، أي: أذابته وأصابه منها ساقور، ومن قال: إنه عربي قال: منعه الإجراء؛ لأنه معرفة مؤنث، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدَّثر: ٢٨] ينظر: اللسان (٤/ ٣٧٢).

(١٠) السَّعِيرُ هِيَ: النار، وقيل: لَهَبُهَا، والسُّعَارُ والسُّعْرُ: حَرُّهَا، وَالمِسْعَرُ والمِسْعَارُ: مَا سُعِرَتْ بِهِ، وَسَعَّرْتُ النَّارَ؛ أَيْ: هَيَّجْتُهَا وَأَلْهَبْتُهَا، ينظر: اللسان (٤/ ٣٦٥)، ومختار الصحاح (١/ ١٢٦) مادة (سعر).

[الليل: ١٤، ١٥]؛ أَيْ: تَتَوَهَّجُ وَتَتَوَقَّدُ وَتَلْتَهِبُ، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٥-١٨].

وَاللَّظَى: اللَّهَبُ الْخَالِصُ، يَنْزِعُ الْأَعْضَاءَ وَجِلْدَةَ الرَّأْسِ مِنْ شِدَّةِ تَلَظِّيهِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ مِنْهَا[١١].

وَمِنْ أَوْصَافِهَا: أَنَّ بَعْضَهَا يَحْطِمُ بَعْضًا، وَيَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَهِيَ كَذَلِكَ تَحْطِمُ مَنْ كَانَ فِيهَا ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة: ٥-٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ[١٢].

وَمِنْ شِدَّةِ حَرِّهَا وَلَهِيبِهَا، وَعَظِيمِ مَا فِيهَا؛ اشْتَكَتْ إِلَى رَبِّهَا فَقَالَتْ: «**رَبِّ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَهُوَ أَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه[١٣].

وَنَارُ الْآخِرَةِ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- تُسَعَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ؛ كَمَا دَلَّ عَلَى

---

(١١) في اللسان: (١٥/٢٤٨): «أن اللظى: النار، وقيل: اللَّهَبُ الخَالِصُ، وهو غير مصروف لِلْعَلَمِيَّة والتأنيث، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنها أشدُّ النيران، والْتِظَاءُ النار: الْتِهَابُهَا، وتَلَظِّيهَا: تَلَهُّبُهَا» اهـ.

والشَّوى في قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦] هي: اليدان والرجلان، وقيل: اليدان والرِّجْلان والرَّأس من الآدميين وكل ما ليس مقْتَلًا، وقال بعضهم: الشّوى: جَمَاعَة الأطراف، ينظر: اللسان (١٤/٤٤٨) مادة (شوا).

(١٢) أخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها في قصة صلاته ﷺ يوم خسفت الشمس: البخاري في أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة (١١٥٤)، ومسلم في الكسوف، باب صلاة الكسوف (٩٠١).

(١٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥١٢)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٧).

ذَلِكَ حَدِيثُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ ...**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١٤]، وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**فَإِذَ انْتَصَفَ النَّهَارُ فَأَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَمِيلَ الشَّمْسُ، فَإِنَّهَا حِينَئِذٍ تُسَعَّرُ جَهَنَّمُ، وَشِدَّةُ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**»[١٥].

وَأَعْمَالُ بَنِي آدَمَ السَّيِّئَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ، وَإِتْيَانِ الْكَبَائِرِ، وَمُقَارَفَةِ المَعَاصِي؛ سَبَبٌ لِتَسْعِيرِهَا؛ كَمَا نُقِلَ عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: «يُسَعِّرُهَا غَضَبُ اللَّهِ وَخَطَايَا بَنِي آدَمَ»[١٦].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ تَسْعِيرَ جَهَنَّمَ حَيْثُ سُعِّرَتْ إِنَّمَا سُعِّرَتْ بِخَطَايَا بَنِي آدَمَ الَّتِي تَقْتَضِي غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَزْدَادُ جَهَنَّمُ حِينَئِذٍ تَلَهُّبًا وَتَسَعُّرًا، وَهَذَا كَمَا أَنَّ بِنَاءَ دُورِ الْجَنَّةِ وَغَرْسَ الْأَشْجَارِ يَحْصُلُ بِأَعْمَالِ بَنِي آدَمَ الصَّالِحَةِ مِنَ الذِّكْرِ وَغَيْرِهِ ... فَكَذَلِكَ جَهَنَّمُ تُسَعَّرُ وَتَزْدَادُ آلَاتُ الْعَذَابِ فِيهَا بِكَثْرَةِ ذُنُوبِ بَنِي آدَمَ وَخَطَايَاهُمْ، وَغَضَبِ الرَّبِّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ»[١٧].

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَمِنْ أَهْلِهَا، وَمِنْ أَيِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَيْهَا، وَنَسْأَلُ اللهَ

---

(١٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب إسلام عمرو بن عبسة (٨٣٢)، وأحمد (٤/ ١١١)، والبيهقي (٢/ ٤٥٤)، والطبراني في الأحاديث الطوال (١١).

(١٥) أخرجه أبو يعلى (٦٥٨١)، والبيهقي (٣/ ٣٠٢)، وصححه ابن خزيمة (١٢٧٥)، وابن حبان (١٥٥٠).

(١٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٩)، والتخويف من النار لابن رجب (٧٦)، وعزاه لابن أبي حاتم.

(١٧) التخويف من النار (٧٦).

تَعَالَى أَنْ يُجِيرَنَا وَوَالِدِينَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٨].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . . .



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأَمِينُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، وَاسْتَنَّ بِسُنَّتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -عِبَادَ اللَّهِ- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أَيُّهَا النَّاسُ: لَوْ جُمِعَتْ نَارُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَكُلُّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُوقِدَهَا، وَوُضِعَ فِيهَا؛ لَما كَانَتْ إِلَّا جُزْءًا يَسِيرًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ -أَعَاذَنَا اللهُ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا- يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: «**فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ**

حَرِّهَا» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِغَيْرِ الشَّيْخَيْنِ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضُرِبَتْ بِالْبَحْرِ مَرَّتَيْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا جَعَلَ اللهُ فِيهَا مَنْفَعَةً لِأَحَدٍ**»(١٨).

قَالَ شُرَّاحُ الْحَدِيثِ: «لَوْ جُمِعَ كُلُّ مَا فِي الْوُجُودِ مِنَ النَّارِ الَّتِي يُوقِدُهَا بَنُو آدَمَ لَكَانَتْ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ جَهَنَّمَ الْمَذْكُورَةِ، وَبَيَانُهُ: أَنَّهُ لَوْ جُمِعَ حَطَبُ الدُّنْيَا فَأُوقِدَ كُلُّهُ حَتَّى صَارَ نَارًا، لَكَانَ الْجُزْءُ الْوَاحِدُ مِنْ أَجْزَاءِ نَارِ جَهَنَّمَ الَّذِي هُوَ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا أَشَدَّ مِنْ حَرِّ الدُّنْيَا، كَمَا بَيَّنَهُ آخِرُ الْحَدِيثِ»(١٩).

وَهَذَا الْوَصْفُ لَهَا وَلِحَرِّهَا وَعَذَابِهَا يَسْتَوْجِبُ خَوْفَ الْعِبَادِ مِنْهَا، وَالْعَمَلَ الدَّؤُوبَ لِتَوَقِّيهَا، وَمُجَانَبَةَ كُلِّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَيْهَا.

وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ النَّارَ يَوْمَ كَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: «**فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ مِنْهَا**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ(٢٠)، وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ ﵁: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى بِهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ قَالَ: «... **وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ**»(٢١).

---

(١٨) أخرجه من حديث أبي هريرة ﵁: البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٣)، واللفظ الآخر أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٤)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٠٠)، وصححه ابن حبان (٧٤٦٣).

(١٩) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ١٨٧).

(٢٠) أخرجه من حديث ابن عباس ﵄: البخاري في الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة (١٠٠٤)، ومالك في الموطأ (١/ ١٨٦).

(٢١) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٢-١٥٤)، ومسلم في الصلاة، في باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما (٤٢٦)، والنسائي في السهو، باب النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة (٣/ ٨٣).

إِنَّ الْحَرَّ الَّذِي يَجِدُهُ النَّاسُ فِي شِدَّةِ الصَّيْفِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ وَسَائِلِ الِاسْتِظْلَالِ وَالتَّبْرِيدِ، وَمَا يَجِدُونَهُ فِي الشِّتَاءِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ، مَعَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ وَسَائِلِ التَّدْفِئَةِ؛ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُذَكِّرًا لِلْمُؤْمِنِ بِحَرِّ النَّارِ وَزَمْهَرِيرِهَا؛ فَيَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا؛ وَيَسْأَلُهُ الْوِقَايَةَ مِنْ عَذَابِهَا، فَتِلْكَ هِيَ صِفَةُ أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢].

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ**» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ(٢٢).

وَالْبُكَاءُ خَوْفًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ هُوَ الْبُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ بُكَاءٌ مِنْ خَشْيَةِ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَخَطِهِ، وَالنَّارُ هِيَ عَذَابُ اللَّهِ، يُعَذِّبُ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ(٢٣).

أَلَا فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ، وَخُذُوا بِأَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ . .

---

(٢٢) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله، وقال: حسن صحيح (١٦٣٣)، والنسائي في الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٦/ ١٢)، وأحمد (٢/ ٥٠٥)، والطيالسي (٢٤٤٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٤/ ٢٨٨).

(٢٣) التخويف من النار، لابن رجب (٤١).

٣٩٢- نار الآخرة (٢) أبوابها ودركاتها وخزنتها

٨/ ٢/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ بِحِكْمَتِهِ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَسْتَعِينُ بِهِ وَأَسْتَغْفِرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ جَعَلَ الدُّنْيَا دَارَ عَمَلٍ وَابْتِلَاءٍ، وَجَعَلَ الْآخِرَةَ دَارَ جَزَاءٍ وَقَرَارٍ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الْعَنْكَبُوت: ٦٤]. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ أَرْسَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، أَدْرَكُوا ضَعَةَ الدُّنْيَا فَمَا شُغِلُوا بِهَا، وَعَرَفُوا مِقْدَارَ الْآخِرَةِ فَفَرَّغُوا نُفُوسَهُمْ لَهَا، وَمَعَ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَكَثْرَةِ عَمَلِهِمْ، خَافُوا عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَأْمَنُوا مَكْرَهُ.

فَهَذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ إِلَى أَنْ بَلَغَ قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطُّور: ٧]، فَبَكَى وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُ حَتَّى مَرِضَ وَعَادُوهُ[1]، وَكَانَ فِي

(١) قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا أبي حدثنا موسى بن داود عن صالح المري عن جعفر بن زيد العبدي قال: خرج عمر يعس المدينة ذات ليلة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائمًا يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ (والطور)، حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ قال: قسم ورب الكعبة حق فنزل عن حماره، واستند إلى حائط فمكث مَلِيًّا، ثم رجع إلى منزله فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه. تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

وَجْهِهِ ﷺ خَطَّانِ أَسْوَدَانِ مِنَ الْبُكَاءِ[٢].

وَهَذَا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ﷺ كَانَ إِذَا وَقَفَ عَلَى الْقَبْرِ يَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ لِحْيَتُهُ، وَقَالَ: لَوْ أَنَّنِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَا أَدْرِي إِلَى أَيَّتِهِمَا يُؤْمَرُ بِي، لَاخْتَرْتُ أَنْ أَكُونَ رَمَادًا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ إِلَى أَيَّتِهِمَا أَصِيرُ[٣]. وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ إِلَّا بِتَقْوَاهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٣٠ - ١٣٢].

أَيُّهَا النَّاسُ: الْحَدِيثُ عَنِ النَّارِ وَأَوْصَافِهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ تَعَالَى فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ حَدِيثٌ يُفْزِعُ الْقُلُوبَ الْحَيَّةَ، وَيُحَرِّكُ النُّفُوسَ الْمُؤْمِنَةَ، وَيُحَفِّزُ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَاجْتِنَابِ السَّيِّئَاتِ؛ اتِّقَاءً لَهَا وَلِمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا.

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَعِي مَا يَقْرَأُ لَا بُدَّ أَنْ يَضْطَرِبَ قَلْبُهُ، وَيَخَافَ عِنْدَ ذِكْرِ النَّارِ وَمَا جَاءَ فِيهَا مِنْ أَوْصَافٍ وَأَهْوَالٍ، وَالْحَدِيثُ عَنْهَا لَا تَكْفِي فِيهِ السَّاعَةُ وَالسَّاعَتَانِ، وَلَا تَفِيهِ حَقَّهُ الْمَوْعِظَةُ وَالْمَوْعِظَتَانِ، كَيْفَ وَهُوَ حَدِيثٌ عَنْ دَارِ

---

(٢) أخرجه عن عبد الله بن عيسى: أحمد في فضائل الصحابة (٣١٨)، والفاكهي في أخبار مكة (١٥٨٥)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في المتمنين (٧٢)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٩)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠).

وجاء أيضًا عن ابن مسعود ﷺ مثله عند ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٥)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٢) رقم (٨٥٣٥)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٣).

وعن مطرف بن عبد الله -رحمه الله تعالى- عند: ابن أبي الدنيا في المتمنين (١٤٠)، وابن أبي عاصم في الزهد (٢٤١).

أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِلْأَشْقِيَاءِ مِنْ خَلْقِهِ، أَعْدَاءِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ؟!

وَحَسْبُنَا طَرَفٌ مِنْهُ يُوقِظُ الْقُلُوبَ النَّائِمَةَ، وَيُنَبِّهُ النُّفُوسَ الْغَافِلَةَ، وَهُوَ تَذْكِرَةٌ لِمَنْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَلَنْ يَتَّعِظَ وَلَوْ عُرِضَتْ لَهُ أَحْوَالُ المُعَذَّبِينَ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ!! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِ وَمَآلِهِ. مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ فِرْعَوْنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو جَهْلٍ حِينَ سَمِعَ أَنَّ عَدَدَ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ تِسْعَةَ عَشَرَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣٠] قَالَ لِقُرَيْشٍ: ثَكِلَتْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ! أَسْمَعُ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُخْبِرُ أَنَّ خَزَنَةَ جَهَنَّمَ تِسْعَةَ عَشَرَ وَأَنْتُمُ الدُّهْمُ -أَي: الشُّجْعَانُ- أَفَيَعْجَزُ كُلُّ عَشَرَةٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْطِشُوا بِوَاحِدٍ مِنْ خَزَنَةِ جَهَنَّمَ؟ قَالَ أَبُو الْأَشَدِّ أُسَيْدُ بْنُ كَلَدَةَ الْجُمَحِيُّ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مِنْهُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ؛ عَشَرَةً عَلَى ظَهْرِي، وَسَبْعَةً عَلَى بَطْنِي، فَاكْفُونِي أَنْتُمُ اثْنَيْنِ(٤).

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَمْشِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ فَأَدْفَعُ عَشَرَةً بِمَنْكِبِي الْأَيْمَنِ، وَتِسْعَةً بِمَنْكِبِي الْأَيْسَرِ فِي النَّارِ، وَنَمْضِي فَنَدْخُلُ الْجَنَّةَ(٥). فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] لَا رِجَالًا آدَمِيِّينَ؛ فَمَنْ ذَا يَغْلِبُ المَلَائِكَةَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] أَيْ: قِلَّتَهُمْ ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] أَيْ: ضَلَالَةً لَهُمْ حَتَّى قَالُوا مَا قَالُوا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١]؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ أَنَّهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المُدَّثِّر: ٣١] يَعْنِي: مَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَزْدَادُونَ تَصْدِيقًا بِمُحَمَّدٍ ﷺ

---

(٤) أخرجه عن ابن عباس ﵄: الطبري في تفسيره (٢٩/ ١٥٩)، وعزاه الثعلبي (١٠/ ٧٤)، والبغوي (٤/ ٤١٧) لقتادة والضحاك. وذكر السيوطي في الدر المنثور آثارًا عدة بنحوه (٨/ ٣٣٣).

(٥) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧) ونحوه في بحر العلوم (٣/ ٤٩٤)، وزاد المسير (٨/ ٤٠٨).

إِذَا وَجَدُوا مَا قَالَهُ مُوَافِقًا لِمَا فِي كُتُبِهِمْ[٦].

وَالْفِتْنَةُ إِنَّمَا كَانَتْ بِذِكْرِ عَدَدِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ اغْتَرَّ الْكُفَّارُ بِقِلَّتِهِمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمْ مُدَافَعَتُهُمْ وَمُمَانَعَتُهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا يُمْكِنُ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ مُقَاوَمَتُهُ[٧].

وَلَمَّا قَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَمَا لِمُحَمَّدٍ أَعْوَانٌ إِلَّا تِسْعَةَ عَشَرَ؟ كَانَ الْجَوَابُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المُدَّثِّر: ٣١][٨]، وَهُوَ جَوَابٌ لِكُلِّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، وَسَاحِرٍ عَنِيدٍ، وَمَا أَكْثَرَهُمْ فِي الْعُصُورِ الْمُتَأَخِّرَةِ!

وَخَزَنَةُ جَهَنَّمَ هُمُ الزَّبَانِيَةُ الَّذِينَ تَحَدَّى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهِمْ أَبَا جَهْلٍ حِينَ فَاخَرَ بِكَثْرَةِ أَعْوَانِهِ وَقُوَّتِهِمْ؛ وَذَلِكَ عِنْدَمَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ أَنْ تُصَلِّيَ يَا مُحَمَّدُ؟! لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا أَحَدٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العَلَق: ١٧ - ١٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَاللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْحَاكِمُ[٩].

---

(٦) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧).

(٧) التخويف من النار لابن رجب (١٦٠).

(٨) تفسير البغوي (٤/ ٤١٧).

(٩) أخرجه أحمد (١/ ٢٥٦)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣١)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقال: حديث حسن غريب صحيح (٣٣٤٩)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٤٢) رقم (١١٩٥٠) والأوسط (٨٣٩٨)، والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٥٦)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٥٣٠).

وجاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه عند: مسلم في صفة القيامة والجنة والنار باب قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (٢٧٩٧)، وأحمد (٢/ ٣٧٠)، وأبو يعلى (٦٢٠٧).

=

وَالزَّبَانِيَةُ هُمُ المَلَائِكَةُ الْغِلَاظُ الشِّدَادُ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ أَهْلَ النَّارِ إِلَيْهَا بِشِدَّةٍ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «هُمُ الشُّرَطُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ»[١٠]، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ هَذَا الِاسْمَ عَلَى مَنِ اشْتَدَّ بَطْشُهُ، وَهُمْ يَبْطِشُونَ بِأَهْلِ النَّارِ أَشَدَّ الْبَطْشِ.

وَقَدْ جَاءَ وَصْفُ شِدَّتِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

وَمَالِكٌ عليه السلام هُوَ كَبِيرُهُمْ، وَهُوَ خَازِنُ النَّارِ، وَقَدْ رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي رُؤْيَاهُ الْمَشْهُورَةِ مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ رضي الله عنه، وَفِيهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا** ... فَلَمَّا سَأَلَ عَنْهُ جِبْرِيلَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ: **وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ[١١].

وَجَاءَ فِي بَعْضِ رِوَايَاتِ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِهِ، فَلَمْ يَرَهُ يَضْحَكُ، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ: «**مَا لِي لَمْ آتِ عَلَى أَهْلِ سَمَاءٍ إِلَّا رَحَّبُوا بِي وَضَحِكُوا إِلَيَّ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَرَحَّبَ بِي وَلَمْ يَضْحَكْ إِلَيَّ؟ قَالَ: ذَاكَ**

= والزبانية: الذين يزبنون الناس؛ أي: يدفعونهم ... وسمي بذلك بعض الملائكة؛ لدفعهم أهل النار إليها، .... ثم نقل عن الفراء قوله: وهم يعملون بالأيدي والأرجل فهم أقوى، وعن الزجاج: الزبانية الغلاظ الشداد، واحدهم زِبْنية، وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾، ثم نقل عن الأخفش قوله: قال بعضهم: واحد زبانية: زبانيّ، وقال بعضهم: زابن، وقال بعضهم: زِبْنية .. ثم قال: والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذي لا واحد له مثل: أبابيل. اهـ من اللسان (١٣/ ١٩٤) مادة (زبن).

(١٠) ينظر: تحفة الأحوذي (٩/ ١٩٦).

(١١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣٢٠)، والنسائي في الكبرى (٧٦٥٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٧)، وأحمد (٥/ ٨)، وابن حبان (٦٥٥).

مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ لَمْ يَضْحَكْ مُنْذُ خُلِقَ، وَلَوْ ضَحِكَ لِأَحَدٍ لَضَحِكَ إِلَيْكَ»(١٢).

وَمَعَ تَعْذِيبِهِمْ أَجْسَادَ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يُنْزِلُونَ بِهِمْ أَلْوَانًا مِنَ الْعَذَابِ الْمَعْنَوِيِّ، فَيُقَرِّعُونَهُمْ وَيُوَبِّخُونَهُمْ وَيُذَكِّرُونَهُمْ سُخْرِيَتَهُمْ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ بِهِمْ حِينَمَا يَسُوقُونَهُمْ إِلَى النَّارِ(١٣): ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧١، ٧٢].

وَيَفْعَلُونَهُ بِهِمْ حِينَ يُلْقُونَهُمْ فِي النَّارِ وَهُمْ يَبْكُونَ وَيَصْطَرِخُونَ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ٨-١١].

وَيَفْعَلُونَهُ بِهِمْ حِينَمَا يَطْلُبُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَنْ يُخَفِّفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وَيَخُصُّونَ مَالِكًا عليه السلام بِالنِّدَاءِ يَطْلُبُونَ شَفَاعَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ عز وجل؛ لِيُمِيتَهُمْ وَيُرِيحَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالشَّقَاءِ وَالنَّكَالِ؛ إِنَّهُمْ يَطْلُبُونَ الْمَوْتَ وَلَا يَجِدُونَهُ:

---

(١٢) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: ابن أبي حاتم فيما ذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٧-٨)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور للنسائي وابن مردويه (٥/ ١٨٥-١٨٨)، وعزاه الحافظ في الفتح لابن أبي حاتم وابن عائذ (٧/ ٢١٧).

(١٣) ينظر: اليوم الآخرة في القرآن العظيم والسنة المطهرة، للشيخ عبد المحسن بن زبن المطيري (٤٣٥-٤٣٦).

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٧] يَا لَحَسْرَتِهِمْ وَبُؤْسِهِمْ حِينَ يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُمْ مَاكِثُونَ فِي النَّارِ أَبَدًا!!

وَلَمْ يُجِبْهُمْ مَالِكٌ فَوْرَ سُؤَالِهِمْ شَفَاعَتَهُ؛ بَلْ مَكَثَ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما(١٤).

نَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ النَّارِ وَمِنْ أَهْلِهَا، وَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُجَنِّبَنَا عَمَلَ أَهْلِهَا، وَأَنْ يَسْتَعْمِلَنَا فِي طَاعَتِهِ ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٥، ٦٦].

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [الْمُدَّثِّر: ٢٧-٣١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ.



الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِ رَبِّنَا وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ؛ أَحْمَدُهُ حَمْدًا كَثِيرًا،

(١٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٦٤٥)، وابن أبي حاتم (١٠/ ٣٢٨٦)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٦).

وقال الأعمش -رحمه الله تعالى-: «نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام» أخرجه الترمذي في صفة جهنم، باب ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٦).

وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا مَزِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُوهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: لِلنَّارِ أَبْوَابٌ جَاءَ ذِكْرُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الْحِجْر: ٤٣، ٤٤]، فَكُلُّ مُعَذَّبٍ مِنْهُمْ يَنَالُ مَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الْعَذَابِ.

إِذَا سِيقُوا إِلَيْهَا وَقُذِفُوا فِيهَا غُلِّقَتْ أَبْوَابُهَا عَلَيْهِمْ، فَيَزْدَادُ عَذَابُهُمْ عَذَابًا، وَلَا يَرْجُونَ نَجَاةً وَلَا خَلَاصًا ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ [الْبَلَد: ١٩، ٢٠]. ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الْهُمزَة: ٤-٩].

يُحِيطُ بِأَهْلِهَا بِنَاءٌ عَظِيمٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَهْلُهَا تَجَاوُزَهُ أَوْ تَخَطِّيَهُ ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ [الْكَهْف: ٢٩][(١٥)].

---

(١٥) قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: «... السرادق واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار، وكل بيت من كرسف فهو سرادق، والكرسف القطن ... ثم قال: ويطلق أيضًا في اللغة على الحجرة التي حول الفسطاط. وأما المراد بالسرادق في الآية الكريمة ففيه للعلماء أقوال مرجعها إلى شيء واحد، وهو إحداق النار بهم من كل جانب ... إلى أن قال: فمعنى الآية الكريمة أن النار محيطة بهم من كل جانب ..» اهـ من أضواء البيان (٣/ ٢٦٨-٢٦٩).

تكُونُ دَرَكَاتُهُمْ فِيهَا بِحَسَبِ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ فِي الدُّنْيَا؛ فَالمُنَافِقُونَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٦).

وَبَيْنَ هَذَيْنَ الدَّرْكَيْنِ دَرَكَاتٌ وَمَنَازِلُ مُتَفَاوِتَةٌ لِأَهْلِهَا نَسْأَلُ اللهَ النَّجَاةَ مِنْهَا، يَكُونُ عَذَابُ بَعْضِهِمْ أَشَدَّ مِنْ بَعْضٍ؛ فَمَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنِ الْإِيمَانِ وَحَارَبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَشَدُّ عَذَابًا مِمَّنْ كَفَرَ وَلَمْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابًا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ [النَّحل: ٨٨].

وَفِرْعَوْنُ وَجُنْدُهُ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ، إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ اسْتِكْبَارًا وَصَدًّا عَنِ الْحَقِّ وَأَذِيَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وَالْكُفَّارُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ

---

(١٦) أخرجه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦١٩٤) ومسلم في الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا (٢١٣) واللفظ له، ولفظ البخاري: «**إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل والقمقم**». وجاء نحوه عن أبي سعيد وابن عباس رضي الله عنهم.
قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: «(والمرجل) بكسر الميم وفتح الجيم: الإناء الذي يغلي فيه الماء وغيره، (والقُمْقُم) بضم القافين وسكون الميم الأولى: معروف، وهو الذي يسخن فيه الماء. قال ابن الأثير: كذا وقع كما يغلي المرجل بالقمقم، وفيه نظر. ووقع في نسخة: «كما يغلي المرجل والقمقم». وهذا أوضح إن ساعدته الرواية. انتهى. ويحتمل أن تكون الباء بمعنى مع، وقيل: القمقم هو البسر، كانوا يغلونه على النار استعجالًا لنضجه فإن ثبت هذا زال الإشكال» فتح الباري (٤/ ١٩٧).

فَكَتَمُوهُ وَأَنْكَرُوهُ وَحَارَبُوهُ، وَآمَنُوا بِمَا اشْتَهَوْا مِنْ كُتُبِهِمْ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهَا، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِيمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الْبَقَرَة: ٨٥].

وَعَذَابُ أَبِي طَالِبٍ لَيْسَ كَعَذَابِ أَبِي لَهَبٍ؛ لِأَنَّ أَبَا لَهَبٍ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﷺ، وَأَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحْمِيهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٧).

---

(١٧) أخرجه البخاري في الأدب، باب كنية المشرك (٥٨٥٥)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه (٢٠٩).

وهذا الحديث وما جاء في معناه من إثبات أن أبا طالب قد مات على الشرك، وأنه من أهل النار إلا أن العذاب يخفف عنه بشفاعة النبي عليه الصلاة والسلام .. فيه رد على من ادعى إسلامه من الروافض والصوفية والعصرانيين، متمسكين في ذلك ببعض الروايات الواهية، معرضين عن الأحاديث الصحيحة التي اتفق شيخا أهل الحديث البخاري ومسلم على صحتها، وخرجاها في صحيحهما اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى.

وقد دحض الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى- هذه الدعوى في ترجمته لأبي طالب في القسم الرابع من الإصابة، وهو القسم الذي خصه بمن ذكر في الصحابة على سبيل الوهم والغلط، وليس من الصحابة، ومنهم أبو طالب، فقال رحمه الله تعالى: وذكر جمع من الرافضة أنه مات مسلمًا، وتمسكوا بما نسب إليه من قوله

ودعوتني وعلمت أنّك صادق ... ولقد صدقت فكنت قبل أمينا

ولقد علمت بأنّ دين محمّد ... من خير أديان البريّة دينا

قال ابن عساكر في صدر ترجمته: قيل: إنه أسلم، ولا يصحّ إسلامه ..

ولقد وقفت على تصنيف لبعض الشيعة أثبت فيه إسلام أبي طالب، منها:

١- ما أخرجه من طريق يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن العباس بن =

. . . .

= عبد الله بن سعيد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: لما أتى رسول الله ﷺ أبا طالب في مرضه قال له: «**يا عمّ، قل: لا إله إلّا الله، كلمة أستحلّ بها لك الشّفاعة يوم القيامة**» قال: يا ابن أخي، والله لولا أن تكون سبة علي وعلى أهلي من بعدي يرون أني قُلْتُها جزعًا عند الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها. فلما ثقل أبو طالب رؤي يحرّك شفتيه، فأصغى إليه العباس فسمع قوله، فرفع رأسه عنه، فقال: قد قال والله الكلمة التي سأله عنها.

٢- ومن طريق إسحاق بن عيسى الهاشميّ، عن أبيه: سمعت المهاجر مولى بني نفيل يقول: سمعت أبا رافع يقول: سمعت أبا طالب يقول: سمعت ابن أخي محمد بن عبد الله يقول: «**إنّ ربّه بعثه بصلة الأرحام، وأن يعبد الله وحده، لا يعبد معه غيره**»، ومحمد الصدوق الأمين.

٣- ومن طريق ابن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن أبي عامر الهوزني أنّ رسول الله ﷺ خرج معارضًا جنازة أبي طالب، وهو يقول: «**وصلتك رحم**».

٤- ومن طريق عبد الله بن ضميرة، عن أبيه، عن علي أنه لما أسلم قال له أبو طالب: الزم ابن عمك.

٥- ومن طريق أبي عبيدة معمر بن المثنى، عن رؤبة بن العجاج، عن أبيه، عن عمران بن حصين أن أبا طالب قال لجعفر بن أبي طالب لما أسلم: قبل جناح ابن عمك، فصلى جعفر مع النبي ﷺ.

٦- ومن طريق محمّد بن زكريّا الغلابيّ، عن العباس بن بكار، عن أبي بكر الهذلي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: جاء أبو بكر بأبي قحافة، وهو شيخ قد عمي، فقال رسول الله ﷺ: ألا تركت الشيخ حتى آتيه. قال: أردت أن يأجره الله، والّذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك.

وأسانيد هذه الأحاديث واهية، وليس المراد بقوله في الحديث الأخير إثبات إسلام أبي طالب، فقد أخرج عمر بن شبة في كتاب مكة، وأبو يعلى، وأبو بشر سمويه في فوائده، كلهم من طريق محمّد بن سلمة، عن هشام بن حسان، عن محمّد بن سيرين، عن أنس في قصة إسلام أبي قحافة، قال: فلما مدّ يده يبايعه بكى أبو بكر، فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» قال: لأن تكون يد عمك مكان يده ويسلم ويقرّ الله عينك أحبّ إليّ من أن =

. . . .

= يكون. وسنده صحيح. وأخرجه الحاكم من هذا الوجه، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وعلى تقدير ثبوتها فقد عارضها ما هو أصحّ منها.

أما الأول: ففي الصحيحين من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ، وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية، فقال: «**يا عمّ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**». فقال له أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب، فلم يزالا به حتى قال آخر ما قال: هو على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك**». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] فهذا هو الصحيح برد الرواية التي ذكرها ابن إسحاق؛ إذ لو كان قال كلمة التوحيد ما نهى الله تعالى نبيّه عن الاستغفار له. وهذا الجواب أولى من قول من أجاب بأن العباس ما أدّى هذه الشهادة وهو مسلم، وإنما ذكرها قبل أن يسلم، فلا يعتد بها، وقد أجاب الرافضيّ المذكور عن قوله: وهو على ملة عبد المطلب، بأن عبد المطلب مات على الإسلام، واستدل بأثر مقطوع عن جعفر الصادق، وسأذكره بعد، ولا حجة فيه، لانقطاعه وضعف رجاله.

وأما الثاني: وفيه شهادة أبي طالب بتصديق النبي ﷺ، فالجواب عنه وعما ورد من شعر أبي طالب في ذلك أنه نظير ما حكى الله تعالى عن كفار قريش: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فكان كفرهم عنادًا، ومنشؤه من الأنفة والكبر، وإلى ذلك أشار أبو طالب بقوله: لولا أن تعيّرني قريش.

وأما الثالث: وهو أثر الهوزنيّ فهو مرسل، ومع ذلك فليس في قوله: «وصلتك رحم» ما يدلّ على إسلامه، بل فيه ما يدلّ على عدمه، وهو معارضته لجنازته، ولو كان أسلم لمشى معه وصلّى عليه.

وقد ورد ما هو أصحّ منه، وهو ما أخرجه أبو داود والنّسائيّ، وصححه ابن خزيمة من طريق ناجية بن كعب، عن علي، قال: لما مات أبو طالب أتيت النبي ﷺ فقلت: إن عمك الضال قد مات. فقال لي: «اذهب فواره، ولا تحدّثني شيئًا حتّى تأتيني». ففعلت ثم جئت فدعا لي بدعوات.

وقد أخرجه الرّافضيّ المذكور من وجه آخر عن ناجية بن كعب، عن علي بدون قوله: الضال.

وأما الرابع والخامس: وهو أمر أبي طالب ولديه باتباعه فتركه ذلك هو من جملة العناد، =

. . . .

= وهو أيضًا من حسن نصرته له وذبه عنه ومعاداته قومه بسببه.
وأما قول أبي بكر: فمراده: لأنا كنت أشدّ فرحًا بإسلام أبي طالب مني بإسلام أبي، أي لو أسلم. ويبين ذلك:
ما أخرجه أبو قرّة موسى بن طارق، عن موسى بن عبيدة، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر، قال: جاء أبو بكر بأبي قحافة يقوده يوم فتح مكة، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تركت الشّيخ حتّى نأتيه؟**» قال أبو بكر: أردت أن يأجره الله، والّذي بعثك بالحق لأنا كنت أشد فرحًا بإسلام أبي طالب لو كان أسلم مني بأبي.
وذكر ابن إسحاق أنّ عمر لما عارض العباس في أبي سفيان لما أقبل به ليلة الفتح، فقال له العباس: لو كان من بني عدي ما أحببت أن يقتل. فقال عمر: إنا بإسلامك إذا أسلمت أفرح مني بإسلام الخطاب، يعني: لو كان أسلم.
ثم ذكر الرّافضيّ من طريق راشد الحماني، قال: سئل أبو عبد الله -يعني: جعفر بن محمّد الصادق- من أهل الجنة؟ فقال: الأنبياء في الجنة، والصالحون في الجنة، والأسباط في الجنة، وأجل العالمين مجدًا محمّد ﷺ، يقدم آدم فمن بعده من آبائه، وهذه الأصناف يحدثون به، ويحشر عبد المطلب به نور الأنبياء، وجمال الملوك، ويحشر أبو طالب في زمرته، فإذا ساروا بحضرة الحساب وتبوّأ أهل الجنة منازلهم، ودحر أهل النار ارتفع شهاب عظيم لا يشكّ من رآه أنه غيم من النار، فيحضر كلّ من عرف ربّه من جميع الملل، ولم يعرف نبيه، ومن حشر أمة وحده، والشيخ الفاني، والطفل، فيقال لهم: إن الجبّار تبارك وتعالى يأمركم أن تدخلوا هذه النار، فكلّ من اقتحمها خلص إلى أعلى الجنان، ومن كع عنها غشيته. أخرجه عن أبي بشر أحمد بن إبراهيم بن يعلى بن أسد، عن أبي صالح الحمادي، عن أبيه، عن جده: سمعت راشدًا الحماني ... فذكره.
وهذه سلسلة شيعية غلاة في رفضهم، والحديث الأخير ورد من عدة طرق في حق الشيخ الهرم ومن مات في الفترة، ومن ولد أكمه أعمى أصم، ومن ولد مجنونًا، أو طرأ عليه الجنون قبل أن يبلغ، ونحو ذلك، وأن كلًّا منهم يدلي بحجة ويقول: لو عقلت أو ذكرت لآمنت، فترفع لهم نار، ويقال لهم: ادخلوها، فمن دخلها كانت عليه بردًا وسلامًا، ومن امتنع أدخلها كرها.
هذا معنى ما ورد من ذلك، وقد جمعت طرقه في جزء مفرد، ونحن نرجو أن يدخل عبد المطلب وآل بيته في جملة من يدخلها طائعًا فينجو، لكن ورد في أبي طالب ما يدفع =

. . . .

= ذلك، وهو ما تقدم من آية براءة، وما ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للنّبيّ ﷺ: ما أغنيت عن عمّك أبي طالب! فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال: «**هو في ضحضاح من النّار، ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل**».

فهذا شأن من مات على الكفر، فلو كان مات على التوحيد لنجا من النار أصلًا. والأحاديث الصحيحة، والأخبار المتكاثرة طافحة بذلك، وقد فخر المنصور على محمّد بن عبد الله بن الحسن لما خرج بالمدينة وكاتبه المكاتبات المشهورة، ومنها في كتاب المنصور: وقد بعث النبي ﷺ وله أربعة أعمام، فآمن به اثنان أحدهما أبي، وكفر به اثنان أحدهما أبوك.

ومن شعر عبد الله بن المعتز يخاطب الفاطميين:

وأنتم بنو بنته دوننا ونحن بنو عمّه المسلم

وأخرج الرّافضيّ أيضًا في تصنيفه قصة وفاة أبي طالب من طريق علي بن محمّد بن متيم: سمعت أبي يقول: سمعت جدي يقول: سمعت علي بن أبي طالب يقول: تبع أبو طالب عبد المطلب في كل أحواله حتى خرج من الدنيا وهو على ملّته، وأوصاني أن أدفنه في قبره، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال: اذهب فواره. وأتيته لما أنزل به فغسلته وكفنته، وحملته إلى الحجون فنبشت عن قبر عبد المطلب، فوجدته متوجهًا إلى القبلة فدفنته معه.

قال متيم: ما عبد عليٌّ ولا أحد من آبائه إلا الله إلى أن ماتوا. أخرجه عن أبي بشر المتقدم ذكره عن أبي بردة السلمي، عن الحسن بن ما شاء الله، عن أبيه، عن علي بن محمّد بن متيم. وهذه سلسلة شيعية من الغلاة في الرّفض، فلا يُفْرَح به، وقد عارضه ما هو أصح منه مما تقدم فهو المعتمد.

ثم استدل الرافضيّ بقول الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال: وقد عزّره أبو طالب بما اشتهر وعلم، ونابذ قريشًا وعاداهم بسببه مما لا يدفعه أحد من نقلة الأخبار، فيكون من المفلحين. انتهى.

وهذا مبلغهم من العلم، وإنا نسلم أنه نصره وبالغ في ذلك، لكنه لم يتبع النّور الّذي أنزل معه، وهو الكتاب العزيز الداعي إلى التوحيد، ولا يحصل الفلاح إلا بحصول ما رتب عليه من الصفات كلها. =

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ: إِنَّ الْخَلْقَ لَنْ يُطِيقُوا عَذَابَ الْخَالِقِ مَهْمَا كَانَتْ قِلَّتُهُ، وَالْوَاحِدُ مِنْ بَنِي آدَمَ لَا يُطِيقُ حَمْلَ جَمْرَةٍ صَغِيرَةٍ مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ لَهُ بِنَارِ الْآخِرَةِ؟! أَجَارَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

وَالنَّجَاةُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى تَكُونُ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، تَكُونُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَاتِّبَاعِهَا بِالنَّوَافِلِ، وَالْبُعْدِ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ جَعَلَهُ اللهُ سَبَبًا لِدُخُولِ النَّارِ.

فَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا عَذَابَهُ؛ فَإِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى نَبِيِّكُمْ كَمَا أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ رَبُّكُمْ.



= ثم استدرك ابن حجر على الرافضي بعض ما فاته من روايات إسلام أبي طالب، وبين أنها روايات واهية لا تقوم بها حجة، ولا تدفع الروايات الصحيحة التي تدل على أن أبا طالب مات على الشرك. اهـ انتهى بطوله من الإصابة (٧/ ١٩٨-٢٠٣).

٣٩٣- نار الآخرة (٣)
أشجارها وأوديتها وجبالها

٢٨/ ٧/ ١٤٢٦هـ

الْحَمْدُ للَّهِ؛ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، وَكَلَّفَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ بِحِكْمَتِهِ، وَقَضَى فِيهِمْ بِرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَعْطَى، وَأَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ دَلَّتْ دَلَائِلُهُ فِي خَلْقِهِ عَلَى عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَبَرْهَنَتْ آيَاتُهُ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ؛ فَلَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ؛ مَا عَرَفَ اللهَ تَعَالَى بَشَرٌ كَمَعْرِفَتِهِ، وَلَا خَشِيَهُ كَخَشْيَتِهِ، كَانَ يَقُومُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ يُنَاجِي رَبَّهُ؛ مَحَبَّةً لَهُ، وَشَوْقًا إِلَيْهِ، وَرَجَاءً لِرَحْمَتِهِ، وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَأُوصِيكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، فَاتَّقُوهُ حَقَّ التَّقْوَى؛ فَإِنَّ ثَوَابَهُ جَزِيلٌ، وَإِنَّ عَذَابَهُ شَدِيدٌ، ثَوَابُهُ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ، وَعَذَابُهُ نَارٌ تَلَظَّى، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١٥، ١٦].

أَيُّهَا النَّاسُ: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ وَالتَّفْكِيرِ أَنْ يَنْظُرَ فِي خَلْقِهِ وَوُجُودِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْحِكْمَةِ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَفَكَّرَ فِي مَآلِهِ وَمَصِيرِهِ، وَيَأْخُذَ الْعِبْرَةَ مِمَّا يَجْرِي أَمَامَهُ، فَهُوَ يَرَى فِيمَا يَرَى أَنَّ النَّاسَ يُغَادِرُونَ الدُّنْيَا إِلَى دَارٍ أُخْرَى، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَهْمَا عَلَا قَدْرُهُ، وَعَظُمَتْ مَنْزِلَتُهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتَ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ مُخَلَّدًا فِي الدُّنْيَا لَكَانَتِ الرُّسُلُ أَوْلَى

النَّاسِ بِالْخُلُودِ فِيهَا ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأَنْبِيَاء: ٣٤، ٣٥].

وَالمَوْتُ وَإِنْ كَانَ مَخُوفًا عِنْدَ الْبَشَرِ، فَإِنَّهُ هَيِّنٌ إِذَا كَانَ مَا بَعْدَهُ هَيِّنًا، وَعَسِيرٌ إِنْ كَانَ مَا بَعْدَهُ عَسِيرًا.

إِنَّ الَّذِي بَعْدَ المَوْتِ حِسَابٌ وَجَزَاءٌ عَلَى مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالٍ؛ فَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئًا فَعَلَيْهِ.

إِنَّ بَعْدَ المَوْتِ نَعِيمًا أَوْ عَذَابًا، سَعَادَةً أَوْ شَقَاءً، جَنَّةً أَوْ نَارًا، وَإِذَا أَحَسَّ النَّاسُ حَرَارَةَ الشَّمْسِ فِي الدُّنْيَا فَوَاجِبٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا حَرَارَةَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ. تِلْكُمُ النَّارُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى جَزَاءً لِلْكَافِرِينَ عَلَى كُفْرِهِمْ، وَلِلْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ، وَلِلْمُنَافِقِينَ عَلَى نِفَاقِهِمْ، يُعَذَّبُونَ فِيهَا أَبَدًا؛ فَلَا رَاحَةَ وَلَا تَخْفِيفَ وَلَا مَوْتَ ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٧٤-٧٨]. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المَائِدَة: ٣٧].

وَذِكْرُ النَّارِ نَغَّصَ عَلَى المُؤْمِنِينَ عَيْشَهُمْ؛ خَوْفًا مِنْهَا وَمِمَّا فِيهَا، وَفَرَقًا مِنْ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، أَعَاذَنَا اللهُ وَوَالِدِينَا وَالمُسْلِمِينَ مِنْهَا.

وَالْحَدِيثُ عَنْهَا يَطُولُ؛ فَهِيَ دَارُ أَكْثَرِ المُكَلَّفِينَ، وَفِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَلَا يُطِيقُهُ الْحَصْرُ. فَفِيهَا أَشْجَارٌ مِنْ نَارٍ، وَأَوْدِيَةٌ مِنْ نَارٍ، وَجِبَالٌ مِنْ نَارٍ.

أَمَّا أَشْجَارُهَا فَأَشْجَارٌ مِنْ نَارٍ، وَثِمَارُهَا نَارٌ، وَظِلُّهَا نَارٌ، أَشْهَرُهَا ذِكْرًا شَجَرَةُ

الزَّقُّومِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ، وَهِيَ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَقَدْ كَانَ ذِكْرُهَا فِتْنَةً لأَبِي جَهْلٍ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ؛ حَدَّثَ النَّاسَ بِمَا رَأَى، وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ مُسْتَهْزِئًا: «يُخَوِّفُنَا مُحَمَّدٌ بِشَجَرَةِ الزَّقُّومِ، هَاتُوا تَمْرًا وَزُبْدًا فَتَزَقَّمُوا» رَوَاهُ أَحْمَدُ[١].

وَفِي الْقُرْآنِ ذَكَرَ اللهُ ﷻ مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ثُمَّ قَارَنَ ذَلِكَ بِمَا أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ؛ لِيَتَّعِظَ قُرَّاءُ الْقُرْآنِ بِذَلِكَ، وَيُقَارِنُوا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَيَعْرِفُوا الْبَوْنَ الْكَبِيرَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ: حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَحَالِ أَهْلِ النَّارِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصَّافَّات: ٦٢-٦٥].

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ ذِكْرَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَانَ فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ، وَمَوْطِنَ تَكْذِيبٍ وَإِنْكَارٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ النَّارَ فِي الدُّنْيَا تَأْكُلُ الشَّجَرَ، فَكَذَّبُوا أَنْ يَكُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ شَجَرٌ، قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: «ذُكِرَتْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ فَافْتُتِنَ بِهَا أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَقَالُوا: صَاحِبُكُمْ يُنَبِّئُكُمْ أَنَّ فِي النَّارِ شَجَرَةً، وَالنَّارُ تَأْكُلُ الشَّجَرَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أَيْ: غُذِّيَتْ مِنَ النَّارِ وَمِنْهَا خُلِقَتْ»[٢].

---

(١) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: النسائي في الكبرى (١١٤٨٤)، وأحمد (١/ ٣٧٤)، وأبو يعلى (٢٧٢٠)، والحارث بن أبي أسامة كما في زوائد مسنده للهيثمي (٢٤)، والضياء في المختارة (٣١٥)، وصححه ابن كثير (٣/ ١٦) والشيخ أحمد شاكر في شرح المسند (٣٥٤٦).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٢/ ٣٨١)، والطبري في تفسيره (١٥/ ١١٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢١٦).

وَفِي سُورَةٍ أُخْرَى أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَهَا يَغْلِي فِي بُطُونِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ طَعَامًا غَيْرَهَا ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الدُّخَان: ٤٣-٤٥].

يَأْكُلُونَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي تَغْلِي نَارًا حَتَّى تَمْتَلِئَ بُطُونُهُمْ بِهَا، فَيَكُونُ لَهُمْ مَعَ عَذَابِهِمْ لِظَاهِرِ أَبْدَانِهِمْ عَذَابٌ آخَرُ فِي أَجْوَافِهِمْ وَبُطُونِهِمْ؛ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ حَالِهِمْ، وَنَسْأَلُهُ النَّجَاةَ مِنْ مَآلِهِمْ ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصَّافَّات: ٦٦، ٦٧]، وَفِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الْوَاقِعَة: ٥١-٥٦].

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟!**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي بِحَارِ الْأَرْضِ لَفَسَدَتْ**» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ[(٣)].

وَفِي النَّارِ أَوْدِيَةٌ مِنْ نَارٍ يُعَذَّبُونَ فِيهَا؛ مِنْ أَشْهَرِهَا ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ وَادِي وَيْلٍ، وَقَدْ تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْمُكَذِّبِينَ وَالسَّاهِينَ عَنْ صَلَاتِهِمْ، وَكُلَّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، وَكُلَّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ وَيْلًا وَادٍ فِي جَهَنَّمَ[(٤)].

---

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: الترمذي في صفة جهنم: باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، وقال: حسن صحيح (٢٥٨٥)، وابن ماجه في الزهد: باب صفة النار، (٤٣٢٥)، والطيالسي (٢٦٤٣)، وأحمد (١/ ٣٠٠-٣٠١)، والنسائي في الكبرى (١١٠٠٤) وصححه ابن حبان (٧٤٧٠) والحاكم، وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٢/ ٢٩٤ و٤٥١).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٣٧٩)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٥٣)، وتفسير البغوي (١/ ٨٨). =

وَمِنْ أَوْدِيَتِهَا المَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ: وَادِي الْغَيِّ الَّذِي تَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى بِهِ المُضَيِّعِينَ لِلصَّلَاةِ، المُتَّبِعِينَ الشَّهَوَاتِ ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مَرْيَم: ٥٩].

وَقَدْ جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ الْغَيَّ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ بَعِيدُ الْقَعْرِ مُنْتِنُ الرِّيحِ[٥]، وَهِيَ أَوْدِيَةٌ سَحِيقَةٌ يُقْذَفُ فِيهَا أَهْلُ النَّارِ قَذْفًا.

وَفِي النَّارِ جِبَالٌ مِنْ نَارٍ جَاءَ لَهَا ذِكْرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ تَوَعَّدَ ﷻ بِبَعْضِهَا الْوَلِيدَ بْنَ المُغِيرَةِ لمَّا كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ، وَادَّعَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ سِحْرٌ يُؤْثَرُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ مُتَوَعِّدًا إِيَّاهُ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المُدَّثِّر: ١٧] جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّهُ جَبَلٌ فِي النَّارِ مِنْ نَارٍ يُكَلَّفُ أَهْلُهَا بِصُعُودِهِ[٦]؛ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهُ وَمِنْهُمْ.

وَنَارُ جَهَنَّمَ نَارٌ سَحِيقَةٌ عَمِيقَةٌ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ: **تَدْرُونَ مَا هَذَا؟** قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[٧].

وَهِيَ تَتَّسِعُ لِخَلْقٍ كَثِيرٍ لَا يَعْلَمُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا اللهُ تَعَالَى، وَيَكْفِي دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ

= وجاء مرفوعًا من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عند: أحمد (٣/ ٥٧)، وابن المبارك في الزهد (٣٣٤) وهو ضعيف لأنه من رواية دراج عن أبي الهيثم.

(٥) ينظر: تفسير الطبري (١٨/ ٢١٨)، وتفسير البغوي (٥/ ٢٤٠)، وتفسير ابن عطية (٤/ ٢٣).

(٦) ينظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٥٥)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٨٣)، وتفسير البغوي (٤/ ٤١٥)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٤٣). وقد جاء فيه أحاديث مرفوعة لكنها لا تصح.

(٧) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٤).

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مَعَ ضَخَامَةِ حَجْمِهِمَا يُلْقَيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيهَا فَلَا يَمْلَآنِهَا؛ كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَفِي رِوَايَةٍ: «**مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ**»(٨).

وَأَكْثَرُ الْمُكَلَّفِينَ فِي النَّارِ، فَوَاحِدٌ مِنْ أَلْفٍ فِي الْجَنَّةِ، وَبَقِيَّتُهُمْ فِي النَّارِ؛ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُ؛ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ عز وجل يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ - أُرَاهُ قَالَ: - تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَحِينَئِذٍ تَضَعُ الْحَامِلُ حَمْلَهَا وَيَشِيبُ الْوَلِيدُ** ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الْحَجّ: ٢]» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى تَغَيَّرَتْ وُجُوهُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي النَّاسِ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جَنْبِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**. فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: **ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**. فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: **شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**. فَكَبَّرْنَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(٩).

وَلَا تَمْتَلِئُ النَّارُ مَهْمَا أُلْقِيَ فِيهَا؛ كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ

---

(٨) أخرج الرواية الأولى: البخاري في بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٠٢٨). وأخرج الثانية: ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (١٠١)، والطحاوي في المشكل (١/ ١٧٠)، ومسدد كما في إتحاف الخيرة المهرة (١٣٥٧).

(٩) أخرجه البخاري في الرقاق، باب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١] (٦١٦٥)، ومسلم في الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم: أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (٢٢٢).

﴿ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [ق: ٣]. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ**»رَوَاهُ الشَّيْخَانِ(١٠)

وَفِيهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ! قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي. وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا؛ فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ. فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا**»(١١).

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا مَا يُسْخِطُهُ، وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ.

❀ ❀ ❀

(١٠) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (٦٩٤٩)، ومسلم في الجنة وصفتها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٨).

(١١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ [سورة ق: ٣٠] (٤٥٦٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٤٦).

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا طَيِّبًا كَثِيرًا مُبَارَكًا فِيهِ كَمَا أَمَرَ، أَحْمَدُهُ وَأَشْكُرُهُ فَقَدْ تَأَذَّنَ بِالزِّيَادَةِ لِمَنْ شَكَرَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِرْغَامًا لِمَنْ جَحَدَهُ وَكَفَرَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَيْرُ الْبَشَرِ، الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ فِي الْمَحْشَرِ، صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاقْتَفَى الْأَثَرَ.

أَمَّا بَعْدُ: فَاتَّقُوا اللهَ تَعَالَى وَأَطِيعُوهُ، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عِمْرَانَ: ١٣١-١٣٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التَّحْرِيم: ٦].

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ عَاقِلٍ يُحِسُّ حَرَّ الدُّنْيَا، وَيُبْصِرُ نَارَهَا، وَيَرَى آثَارَهَا، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُطِيقُ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ حَرِّهَا أَوْ جَمْرِهَا، وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَلَّا يَنْسَى نَارَ الْآخِرَةِ، وَأَنْ يَفِرَّ مِنْهَا أَشَدَّ مِنْ فِرَارِهِ مِنْ نَارِ الدُّنْيَا؛ فَمَا نَارُ الدُّنْيَا إِلَّا جُزْءٌ يَسِيرٌ مِنْ نَارِ الْآخِرَةِ؛ كَمَا رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**. قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: **فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١٢).

وَمَنْ خَسِرَ فِي الْآخِرَةِ فَلَا أَمَلَ فِي رِبْحِهِ أَبَدًا، بَلْ هُوَ فِي خُسْرَانٍ أَبَدِيٍّ، وَعَذَابٍ دَائِمٍ، فَوَيْلٌ لَهُ! وَيْلٌ لَهُ!

---

(١٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٠٩٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم (٢٨٤٣).

يَصِيحُ فِي النَّارِ مَعَ الصَّائِحِينَ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٧]، فَيُجَابُونَ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٨].

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ أَهْلَ جَهَنَّمَ يَدْعُونَ مَالِكًا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾. قَالَ: هَانَتْ دَعْوَتُهُمْ وَاللَّهِ عَلَى مَالِكٍ وَرَبِّ مَالِكٍ، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ قَالَ: فَيَسْكُتُ عَنْهُمْ قَدْرَ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا نَبَسَ الْقَوْمُ بَعْدَهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ. قَالَ: فَشُبِّهَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِأَصْوَاتِ الْحَمِيرِ، أَوَّلُهَا زَفِيرٌ وَآخِرُهَا شَهِيقٌ»(١٣).

وَتَكُونُ طَامَّتُهُمُ الْكُبْرَى حِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْعَذَابَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ، وَلَا نَجَاةَ لَهُمْ مِنْهُ وَلَوْ بِالمَوْتِ الَّذِي كَانُوا يَكْرَهُونَهُ فِي الدُّنْيَا!

رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُجَاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ. قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ. قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:** ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الدُّنْيَا» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ(١٤).

---

(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٥٠٩).

(١٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء (٢٨٥٠).

فَحَذَارِ -عِبَادَ اللَّهِ- مِنَ الْغَفْلَةِ فِي الدُّنْيَا، وَالِاغْتِرَارِ بِهَا؛ فَإِنَّمَا أَرْدَى أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ غَفْلَتُهُمْ وَغُرُورُهُمْ، وَتَزَوَّدُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي النَّجَاةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاسْتَجِيرُوا بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ النَّارِ، وَاسْتَعِيذُوا بِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ عَذَابِهَا، فَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْأَلُ رَبَّهُ ﷻ الْوِقَايَةَ مِنْهَا، وَيُكْثِرُ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا رَوَى أَنَسٌ رضي الله عنه فَقَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: عَنْ قَتَادَةَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- أَنَّهُ سَأَلَ أَنَسًا رضي الله عنه فَقَالَ: أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ يَدْعُو بِهَا النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ؟ قَالَ: كَانَ أَكْثَرُ دَعْوَةٍ يَدْعُو بِهَا يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**». قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدُعَاءٍ دَعَا بِهَا فِيهِ(١٥).

أَلَا وَصَلُّوا وَسَلِّمُوا ...

❁ ❁ ❁

---

(١٥) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ (٦٠٢٦)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (٢٦٩٠).

الفهرس